

مذكرات

محمد إبراهيم كامل

وزير خارجية مصر الأسبق

السلام الضائع

فى اتفاقيات كامب ديفيد

الأهرام
مركز الأهرام
للترجمة والنشر

مذكرات

محمد إبراهيم كامل

وزير خارجية مصر الأسبق

السلام الضائع

في اتفاقيات كامب ديفيد

الطبعة الأولى من إصدار
مركز الأهرام للترجمة والنشر
١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

الناشر : مركز الأهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهرام - شارع الجلاء - القاهرة
تليفون : ٥٧٨٦٠٨٣ - فاكس : ٥٧٨٦٨٣٣

إهـــــداء

إلى أولادى أحمد وعلى

إلى مستقبل نحلم به جميعا

محمد إبراهيم كامل

المحتويات

الصفحة

الصفحة

الصفحة

مقـــــدمـة

قصة الأشهر العشرة

فى يوم ٩ نوفمبر (تشرين الثانى) عام ١٩٧٧ وقف الرئيس الراحل أنور السادات تحت قبة مجلس الشعب المصرى ليقول فى خطاب رسمى : إنه مستعد للذهاب إلى أى مكان سعيا وراء السلام ، وحقنا لدماء أى جندى، ولو كان الكنيست الإسرائيلى ؟!

ولم يمر أسبوع حتى وجه مناحم بيجن رئيس وزراء إسرائيل دعوة رسمية للسادات لزيارة إسرائيل، وقبل الرئيس السادات الدعوة التى تحدد لها يوم ١٩ نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩٧٧.

وفى اليوم المحدد للزيارة أعلن وزير الخارجية المصرى إسماعيل فهمى استقالته، وتبعه بعد ساعات قليلة محمد رياض وزير الدولة للشؤون الخارجية، وقد سافر السادات إلى إسرائيل فى نفس اليوم بعد أن عين بطرس غالى مكان محمد رياض، بينما ظل منصب وزير الخارجية شاغرا، ووقف السادات ليلقى خطابه فى الكنيست يوم ٢٠ نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩٧٧.

تم تعيينى وزيرا للخارجية يوم ٢٤ ديسمبر (كانون الأول) ١٩٧٧، وسافرت فى اليوم التالى للاشتراك فى مباحثات الإسماعيلية بين مصر وإسرائيل، وفى ٥ سبتمبر

(أيلول) ١٩٨٧، سافرت مع الرئيس السادات إلى الولايات المتحدة لحضور مباحثات كامب ديفيد بين السادات، والرئيس الأمريكى كارتر، ومناحم بيجن.

وفى ١٦ سبتمبر (أيلول) قدمت استقالتى للرئيس السادات بعد حديث استمر نصف ساعة وقبلها، لكنه طلب منى عدم إعلانها حتى نعود إلى القاهرة.

فى مساء الأحد ١٧ سبتمبر (أيلول) غادرت الوفود الثلاثة (المصرى والأمريكى، والإسرائيلى) كامب ديفيد بطائرات الهليكوبتر إلى البيت الأبيض حيث تم التوقيع على ما عرف باتفاقيات كامب ديفيد، وتوالت الزلازل بعدها على العالم العربى، وبدأ - ومازال - أكبر موضوع جدلى فى القرن العشرين على مستوى العالم أجمع.

فى الحلقات القادمة قصة الأشهر العشرة التى قضيتها وزيرا للخارجية مع الرئيس أنور السادات، أرويها بكل أمانة وموضوعية، وإن بدت بعض أحداثها أغرب من الخيال.

محمد إبراهيم كامل

كيف قابلت السادات

في بداية الأربعينيات كنت طالبا فى كلية الحقوق بجامعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة الآن) وكانت مصر لا تزال تحت الاحتلال البريطانى. اعتنقت - فى ذلك الوقت - ونفر من الشباب مبادئ الحزب الوطنى الذى أسسه الزعيم الراحل مصطفى كامل باشا، والذى بعثت الحياة فيه من جديد - فى ذلك الوقت - مجموعة من المصريين الوطنيين يتقدمهم الأستاذ فتحى رضوان. وكان الهدف الأساسى لذلك الحزب هو تحقيق الاستقلال بإجلاء الانجليز عن مصر.

كانت الحرب العالمية الثانية فى أوجها، وقد امتدت ساحة القتال بين الحلفاء، وقوات المحور إلى شمال أفريقيا، بينما قوات « الفيلق الأفريقى » بقيادة المارشال روميل، تجتاح الصحراء الغربية نحو مصر بعد سلسلة من الانتصارات المذهلة والسريعة على قوات الحلفاء، حتى هزمها المارشال مونتجمرى فى معركة العلمين التى تبعد عن مدينة الاسكندرية حوالى ١٢٠ كيلو مترا.

أثار الغزو الألمانى الذى كان يستهدف احتلال مصر، والسيطرة على قناة السويس، مشاعر متباينة بين المصريين، تراوحت بين الخوف من أن تحل ألمانيا بنظامها النازى محل انجلترا فى احتلال مصر، وبين الحماس لذلك التقدم الألمانى على أمل أن يخلص مصر من الاحتلال الانجليزى وتستعيد مصر استقلالها، لدرجة أن قامت بالفعل بعض المظاهرات ترفع شعار : « إلى الأمام يا روميل ».

في غمار هذا الوضع المضطرب، وإزاء دقة موقف انجلترا والحلفاء قامت الدبابات البريطانية فى مساء يوم ٤ فبراير (شباط) ١٩٢٤، بمحاصرة قصر عابدين الملكى، وأرغمت الملك فاروق - الذى كان يبدى تعاطفا مع الألمان - على إقالة وزارة حسين باشا سرى، وتعيين مصطفى النحاس باشا (رئيس حزب الوفد) رئيسا للوزراء - ضمانا لاستقرار الأحوال الداخلية فى مصر.

أثار هذا التصرف البريطانى ثورة عارمة فى نفوس المصريين لما مثله من إهانة بالغة لحقت بالملك بوصفه رمزا لمصر، وقد اعتبر حادث ٤ فبراير (شباط) نقطة سوداء فى تاريخ حزب الوفد، كما كان حافزا على مضاعفة النضال لطرد الانجَليز. ولأن مصر كانت تخضع آنذاك لحكم عسكرى وعرفى صارم، فقد بدأت الجمعيات السرية فى التكوين والانتشار خاصة بين بعض الطلبة، وحتى فى بعض دوائر الجيش المصرى .

اللقاء الأول

فى عام ١٩٤٣ اشتركت ومجموعة من أقاربى وأصدقائى الشبان فى تكوين جمعية سرية تستهدف القيام بعمليات ضد القوات البريطانية التى كانت تجوب شوارع القاهرة، وكثيرا من المدن المصرية على غرار حركة المقاومة الفرنسية التى نشأت فى فرنسا عقب الاحتلال الألمانى، وفى تلك الأيام كانت الجمعيات الإرهابية الصهيونية تقوم بنشاط واسع ضد الفلسطينيين، والقوات الانجليزية فى فلسطين أو القاهرة.

كانت مواردنا كطلبة محدودة، ولذلك كنا نخصص جزءا من مصروفنا الشخصى لشراء بعض الأسلحة - كالمسدسات والقنابل اليدوية - ونقوم بالتدريب على استعمالها فى صحراء شرق القاهرة. وبالفعل قمنا بعدة عمليات اعتداء على الجنود والضباط البريطانيين، كما قمنا بإشعال النيران فى أحد معسكرات الجيش البريطانى بضاحية المعادى مما أدى إلى حريق هائل.

فى ذلك الوقت تقريبا، وبالتحديد فى عام ١٩٤٥ أوفدت جمعية الأرجون الإرهابية التى كان يرأسها مناحم بيجن رئيس وزراء إسرائيل اثنين من رجالها قاما باغتيال اللورد « موين » الموفد من قبل انجلترا فى مهمة، وكادا يفلتان إلا أنه تم القبض عليهما، وقد دافعا عن عملهما هذا - أثناء المحاكمة - بأنه مشروع فى نظرهما لإقامة دولة إسرائيل وهو ما ينكره الآن بيجن على الشعب الفلسطينى وجهاده فى سبيل استرجاع حقوقه المشروعة فى وطنه فلسطين.

كان يدير جمعيتنا التى بلغ عدد أعضائها ٢٣ عضوا مجلس إدارة مكون من أربعة هم نجيب فخرى، وحسين توفيق وهما من أولاد خالتى وسعد الدين كامل الطالب بكلية الحقوق، وأنا.

وفى منتصف عام ١٩٤٥ عرض حسين توفيق على مجلس الإدارة اقتراحا بالتعرف على شخص يدعى عمر أبو على الذى فاتحه فى الاشتراك فى جمعية أخرى يبدو أنها ذات إمكانيات أكبر من امكانياتنا، وعندما أخبره حسين بأنه عضو بالفعل فى جمعية وطنية سرية اتفقا على أن يعود كل منهما إلى جمعيته ويعرض عليها قيام تعاون أو تنسيق بين الجمعيتين.

وافق مجلس إدارتنا على هذا الاقتراح، وكلفنى أنا وحسين توفيق بمقابلة ممثلى الجمعية الأخرى للتفاهم حول كيفية تحقيق التعاون بيننا.

ولم تمض أيام قلائل حتى تم اللقاء فى أحد المقاهى الكائنة بميدان الأوبرا، وقابلنا أنا وحسين توفيق، عمر أبو على الذى قدم لنا شابا كان يرافقه، لفت نظرى أنه كان يكبرنا فى السن، كان أسمر اللون، ممشوق القوام ذا شارب ضخم وصوت أجش عميق النبرات، إلا أنه كان يلبس ثيابا غريبة، إذ كان يرتدى بدلة رمادية داكنة، وتحتها صديرى فاتح اللون به مربعات حمراء، وربطة عنق فاقعة اللون، وحذاء أبيض، وقدمه لنا عمر أبو على باسم « أنور السادات ».

اغتيال المتعاونين مع الانجليز

استمر اللقاء نحو ساعة ونصف الساعة تبادلنا فيها الحديث عن أوضاع البلد وأفهمنا السادات بطريقة غير مباشرة أنه ينتمى إلى جمعية من رجال القوات المسلحة. وأنه كان (يوزباشى) بالجيش وأحيل إلى التقاعد للشك فى ميوله المتعاطفة مع الألمان، وأنه يعمل الآن فى المقاولات والنقل.

أدخل السادات على تفكيرنا تعديلا لم يكن واردا، وهو أن الطريقة الفعالة لتحقيق أهدافنا هى القضاء على الزعماء المصريين المتعاونين مع الانجليز، وأننا إذا تمكنا من اغتيال عدد منهم فسيأتى اليوم الذى لن يجد فيه الانجليز مصريا واحدا يتعاون معهم فى حكم البلاد.

عدنا إلى مجلس إدارة جمعيتنا وعرضنا عليهم ما دار فى المناقشة ووافقنا على القيام بعمليات مشتركة مع الجمعية الأخرى، كما وافقنا على أن يشمل نشاطنا المصريين المتعاونين مع الانجليز .

قمنا (أنا وحسين توفيق) بمقابلة أنور السادات مرة ثانية حيث أبلغناه بموافقتنا على التعاون معه ومع جمعيته، واقترح علينا أن نقوم باغتيال النحاس باشا رئيس حزب الوفد، لدوره المشين فى حادث ٤ فبراير (شباط) ، ووافقنا نحن على ذلك.

تم وضع خطة لتحقيق تلك العملية عهد فيها بالدور الرئيسى إلى حسين توفيق الذى كان يتمتع بأعصاب فولاذية، ويشترك فيها من جمعيتنا سعد الدين كامل وأنا، ومن الجمعية الأخرى أنور السادات وعمر أبو على كمساعدين لتغطية العملية.

كان دور أنور السادات أن يحضر سيارة وينتظر بها بجوار مبنى الجامعة الأمريكية فى القاهرة الذى يقع على مقربة من مكان تنفيذ العملية، كما سلمنا أنور السادات طردا يحوى مسدسين ماركة برتا عيار ٩ ملليمتر وبعض الطلقات، وقنبلتين يدويتين من طراز انجليزى.

وبالفعل تمت المحاولة، إلا أنها فشلت نتيجة انفجار القنبلة التى ألقاها حسين توفيق فى مؤخرة سيارة النحاس التى أسرع قائدها فجأة ليتفادى تراما قادما بسرعة، فلم يصب أحد من راكبى السيارة التى فرت بسرعة، إلا أن حسين توفيق عندما توجه إلى المكان المتفق عليه بعد محاولة الاعتداء لم يجد أثرا لأنور السادات أو للسيارة حسبما كان متفقا عليه، وعدنا جميعا بعد ذلك إلى منازلنا دون أن يتطرق الشك إلى أى منا، وقيد الحادث ضد مجهول.

القبض على حسين توفيق

مضت شهور أوقفنا فيها كل نشاطنا، بعد أن اتخذت أجهزة الأمن بعد الحادث تدابير أمنية مشددة.

وفى مساء ٦ يناير (كانون الثانى) ١٩٤٦، قام حسين توفيق بإطلاق النار على أمين عثمان وزير المالية السابق بوزارة الوفد أثناء دخوله مقر نادى الرابطة المصرية البريطانية فى شارع عدلى باشا، ولم يلبث أن توفى متأثرا بجراحه.

كان أمين عثمان معروفا بصلاته الوثيقة والمريبة بالانجليز، وكان كثيرا ما يدلى بخطب وتصريحات تمثل استفزازا صارخا لمشاعر المصريين ومنها خطبته الشهيرة التى قال فيها إن انجلترا متزوجة بمصر زواجا كاثوليكيا لا طلاق فيه. كما كان شائعا أنه ـ أى أمين عثمان ـ الرأس المدبر لحادث ٤ فبراير (شباط).

نجح حسين توفيق فى الهروب بعد مغامرة مثيرة حيث جرى خلفه عدد من الناس، وكان أثناء هربه يطلق الرصاص من مسدسين كان يحملهما. ورغم ذلك زاد عدد مطارديه حتى ألقى بقنبلة يدوية أخافت الناس دون أن يصاب أحد. وسار بهدوء حتى وصل إلى ميدان العتبة حيث استقل الترام وعاد إلى منزله.

تدخلت الصدفة البحتة فى القبض على حسين توفيق ، فقد كان والده (توفيق باشا أحمد) وكيلا لوزارة المواصلات، وكان مشهورا بالشدة والصرامة. وحدث أن طرد أحد موظفى وزارته لسوء سلوكه، وكان هذا الموظف يعرف حسين توفيق بصفته ابن رئيسه ويعرف عنه عداوته وكراهيته الشديدة للانجليز.

انضم هذا الموظف إلى الرابطة المصرية الانجليزية التى كان يرأسها أمين عثمان أملا فى التوصل إلى شىء عن طريق هذا الانضمام. وشاءت الظروف أن يلتقى بحسين توفيق قبل الحادث بأيام واقفا أمام مقر الرابطة بشارع عدلى، حيث كان يدرس مكان العملية المكلف بها، فحياه هذا الموظف وتبادل معه حديثا قصيرا انصرف بعده حسين توفيق.

بعد الحادث أعلنت الحكومة عن مكافأة قدرها خمسة آلاف جنيه لمن يدلى بمعلومات تؤدى إلى القبض على الجانى، فما كان من هذا الموظف إلا أن توجه إلى البوليس حيث أبلغ بأن الذى قتل أمين عثمان هو حسين توفيق وكان ذلك مجرد تخمين محض.

توجه ضباط البوليس (البوليس السياسى) بالفعل فى منتصف ليلة الحادث، إلى الفيلا التى يقيم فيها حسين توفيق مع عائلته فى ضاحية هليوبوليس، فوجدوا بعض الأسلحة المخبأة، ومفكرة يوميات تحوى بعض العبارات العدائية ضد الانجليز وأعوانهم، وعنوان الرابطة المصرية البريطانية، فقاموا بالقبض عليه واصطحابه، حيث جرى تحقيق طويل انتهى باعترافه بقتل أمين عثمان لأسباب وطنية. وشمل اعترافه، الادلاء بأسماء أعضاء الجماعة كلهم، والاعتراف على أنور السادات وعمر أبو على.

تبرئة السادات

تم القبض علينا (٢٦ شخصا)، وقد اعترف الجميع بالاشتراك فى الجمعية السرية عدا أربعة هم : أنور السادات، سعد الدين كامل، نجيب فخرى، وأنا.

وقد أمضينا فى السجن المخصص للتحقيقات السياسية (سجن الأجانب) شهرين فى حبس انفرادى دون أن يسمح لنا بأى نوع من الاتصال بعضنا بالبعض الآخر، حتى انتهت التحقيقات التى كانت تجريها النيابة، ورجال البوليس، وكان مدير سجن الأجانب مأمورا انجليزيا يقيم بفيلا ملحقة بحديقة السجن، ويقوم بتربية خنزير اطلق عليه اسم (سعد باشا) سخرية من الزعيم المصرى سعد باشا زغلول. وقد انتقلنا بعد ذلك إلى سجن مصر العمومى - وهو الذى قام بهدمه أنور السادات بعد توليه رئاسة الجمهورية فى احتفال رسمى - عندما تقرر احالتنا للمحاكمة الجنائية.

كان انكارى أى صلة لى بالجماعة، وبالتالى انكارى لمعرفتى بأنور السادات من أهم العوامل التى ساعدت على تبرئته فى تلك القضية، إذ لم يكن يعرفه من جمعيتنا سوى حسين توفيق، وأنا ، ولا يعرفه من جماعته سوى عمر أبو على .

وقد اعترف كل من حسين وعمر عليه، كما اعترفا على، وقررا أنى قد قابلته فى حضورهما مرتين، ولكن إنكارى التام لذلك، وإنكار السادات بدوره له، ساعده كثيرا فى موقفه فى القضية. خصوصا وأن النيابة العامة والبوليس السياسى، كانا يركزان على أنور السادات بوصفه المسؤول الأول عن الاعتداءات التى وقعت حيث كان يكبرنا فى السن، بالإضافة إلى ماضيه كضابط فى الجيش أحيل إلى التقاعد، ولاشتراكه فى عمليات منها محاولة تهريب عزيز باشا المصرى القائد السابق للجيش المصرى، والذى كان معروفا بعدائه الشديد للانجليز حتى يسافر إلى العراق وينضم إلى ثورة رشيد عالى الكيلانى ضد الانجليز .

قدر لى السادات موقفى هذا. وبعد أن نقلنا إلى سجن مصر العمومى، توطدت بيننا علاقات الصداقة، أثناء ساعات طابور الفسحة التى كان يسمح لنا بها لمدة ساعة فى الصباح، وأخرى فى المساء للتريض والمشى.

كان والدى يعمل نائبا لرئيس محكمة الاستئناف وكان يتمتع بشخصية قوية ومحبوبة فى أوساط القضاء والنيابة العامة، وقد كفل لى ذلك بعض الامتيازات، فكان

يسمح لى بأن أتلقى الطعام من منزلى، فكانت والدتى ترسل لى طعاما يكفينى والعديد من زملائى فى القضية حيث كنت أقوم بتوزيعه بيننا بالعدل.

وكان أنور السادات شغوفا بالطعام، وكثيرا ما كان يطلب منى أن أبلغ والدتى بإعداد أصناف معينة مثل طواجن الحمام بالأرز، ومن ناحية أخرى حصل لى والدى على تصريح بعلاج أسنانى خارج السجن، فكنت أخرج مرتين أسبوعيا مصحوبا بحراسة إلى عيادة الطبيب حيث ألتقى بأفراد عائلتى، وأعود بعد ساعتين محملا بعلب السجائر والحلوى. ورغم أن ذلك كان ممنوعا إلا أننى كنت أحدد مواعيد ذهابى للطبيب فى الأيام التى كانت تتولى إدارة السجن « نوباتشية » مجموعة من الضباط تربطهم صداقة بالسادات. فكانوا يسمحون لى بالدخول بما أحمله من مهربات. ولم نلبث أن سمح لنا هؤلاء الضباط فى أيام مناوبتهم بأن نتناول الطعام معا فى زنزانته، أو زنزانتى.

استمر الحال كذلك مدة سبعة أشهر حتى أفرج عنى بكفالة، وبعدها بخمسة أشهر نجح حسين توفيق فى الهرب من السجن واستطاع بمعاونة بعض الأعوان فى الخارج السفر إلى بعض البلاد العربية حتى انتهى إلى الإقامة فى سوريا حيث تزوج من سورية. ولم يلبث أن كون جمعية سرية فى سوريا وحاول اغتيال الزعيم الشيشكلى، وحكم عليه بالإعدام، إلا أن الشيشكلى سقط بانقلاب عسكرى قبل تنفيذ الحكم. وبعد قيام الثورة فى مصر أفرج عنه وعاد إلى مصر، وصدر قرار بالعفو عنه وباقى المحكوم عليهم فى قضية الاغتيالات السياسية.

أما أنور السادات فقد ظل محبوسا حتى صدر الحكم فى القضية التى استمر نظرها أكثر من عامين، وقضى فيها بالحكم غيابيا على حسين توفيق بالأشغال الشاقة عشر سنوات، وعلى باقى المتهمين بالسجن مددا تتراوح بين خمس وثلاث سنوات، وبراءة كل من أنور السادات، سعد الدين كامل، نجيب فخرى، وأنا.

فكرة السادات الجهنمية

رغم الصلة الوثيقة التى ربطت بينى وبين السادات فى السجن إلا أنه لم يصرح لى بشىء عن الجماعة التى ينتمى إليها، أو عن أى من أعضائها، وإن كان قد نقل لى انطباعا غامضا بأنها جماعة كبيرة تضم العديد من ضباط الجيش من مختلف

الأسلحة. وكثيرا ما كانت تتملكنى الحيرة من حقيقة أمره وهل هو عضو حقيقى فى مثل تلك الجماعة أم أنه شخص يعمل بمفرده؟!

فى أحد الأيام حضر إلى لتناول الغداء معى فى زنزانتى، وبعد انتهائنا ذكر لى أن شيئا عظيما سيحدث فى اليوم التالى سيقلب القضية رأسا على عقب ويضمن الحكم ببراءتنا وجميع المتهمين فى القضية ولم يفض بكلمة أكثر من ذلك.

كانت هناك فى اليوم التالى جلسة خاصة أمام قاضى الإحالة، وحدث أن هاجم شخصان يركبان سيارة خضراء، ساعى المحكمة الذى كان يركب دراجة ربط على مقعدها الخلفى أصول ملفات القضية، أثناء سيره فى شارع محمد على المزدحم، حيث كان ينقل الملفات من بيت القاضى الذى كان يفحصها قبل الجلسة إلى المحكمة لتكون أمامه أثناء نظر القضية.

حاول هذان الشخصان الاستيلاء على تلك الملفات ونقلها إلى السيارة، إلا أن المارة تجمعوا على صراخ الحاجب، واضطر الشخصان إلى الهرب دون الاستيلاء على الملفات.

كانت هذه فكرة جهنمية إذ كانت الملفات تحوى اعترافات حسين توفيق وباقى المتهمين موقعة بامضاءاتهم، ولو اختفت هذه الأصول، وعمد المتهمون إلى إنكار ما سبق وأن اعترفوا به لانهارت أهم الأدلة فى القضية ولتعذر الحكم فى القضية، بإدانة أى من المتهمين.

وقد علمت فيما بعد أن السيارة التى استخدمت كانت ملك شقيق زوج أختى، وكان من الأعيان ولا علاقة له بالسياسة، ولا صلة له بالسادات. وعلمت أن الشخص الآخر الذى كان معه هو حسن عزت شريك السادات فى المقاولات، وكان طيارا بالسلاح الجوى ثم أحيل إلى التقاعد، ومن هنا زادت حيرتى بشأن التنظيم الذى ينتمى إليه السادات.

وكانت قضية أمين عثمان التى عرفت « بقضية الاغتيالات السياسية الكبرى » قضية شهيرة حيث اشترك فى الدفاع عن المتهمين فطاحل المحامين سواء كانوا موكلين أو متطوعين، ودعى للشهادة فيها غالبية الزعماء السياسيين مثل النحاس باشا رئيس الوزراء السابق ورئيس حزب الوفد، وعلى ماهر باشا رئيس الوزراء السابق ورئيس

الديوان الملكى وقتها، وحافظ باشا رمضان رئيس الحزب الوطنى، وحسين باشا سرى رئيس الوزراء السابق، ومحمد حسين هيكل باشا رئيس مجلس الشيوخ، ومكرم عبيد باشا رئيس حزب الكتلة الوطنية، وبهى الدين بركات باشا رئيس ديوان المحاسبة وغيرهم.

وكان هناك تعاطف شعبى واسع النطاق مع المتهمين حيث كانوا من طلبة الجامعات الشبان صغيرى السن، وكان الشعور الوطنى ضد الانجليز فياضا، نظرا لفشل الجهود التى كانت تقوم بها وزارة بعد أخرى فى المفاوضات لحمل الانجليز على الانسحاب من مصر. ومن ناحية أخرى كانت سمعة أمين باشا عثمان كعميل لانجلترا معروفة للجميع، وظلت القضية وما حفلت به من مفاجآت تشغل الصفحات الأولى فى جميع الصحف المصرية على مدى سنتين استغرقتهما القضية.

وقد لمع فيها اسم أنور السادات واشتهر حيث كان التركيز عليه ولأنه كان لافتا للنظر بحركاته وصوته الجهورى، فضلا عن تصديه لمرافعة النائب العام بالهتاف بشعارات وطنية أثناء المحاكمة.

وظلت هذه القضية هى الموضوع المحبب لدى السادات بعد توليه رئاسة الجمهورية، فكان يتلمس الفرص ليشير إليها فى عشرات من خطبه العامة، وأحاديثه مع الصحافة كبرهان عملى على كفاحه الوطنى من أجل مصر والذى بدأه وهو فى شرخ شبابه.

وقد خصص فى كتابه « البحث عن الذات » الذى نشره وهو رئيس للجمهورية عام ١٩٧٨ عدة فصول عن هذه الحادثة. وبالنسبة لى تضمن الكتاب الفقرة التالية :
«واهتديت فى تفكيرى إلى أن الشخص الوحيد بين المتهمين الذى صمد ولم يعترف بأى شىء هو ابن خالة حسين توفيق، وكان شابا صغيرا اسمه محمد كامل. اتصلت به عن طريق السجان، فوجدت منه استجابة أسعدتنى كثيرا فهو شاب يمكن الاعتماد عليه وأنا وهو معا يمكننا إفساد القضية تماما. هذا الشاب محمد كامل هو وزير خارجيتى الآن ».



السادات رئيسا للجمهورية

أمضيت عشر سنوات متصلة سفيرا لمصر فى الخارج، بدأت فى يناير (كانون الثانى) ١٩٦٨، وانتهت فى ديسمبر (كانون الأول) ١٩٧٧، حيث كنت سفيرا فى كينشاسا حتى سنة ١٩٧١، ثم سفيرا فى ستوكهولم حتى أغسطس (آب) ١٩٧٣، ثم فى بون حتى ٤ ديسمبر (كانون الأول) ١٩٧٧.

سنوات حافلة

كانت عشر سنوات حافلة بالأحداث والتطورات والهزات العنيفة بالنسبة لمصر خاصة والشرق الأوسط عامة. ففى عام ١٩٦٧ كانت حرب الأيام الستة التى انتهت بكارثة بالنسبة للجانب العربى، حيث احتلت إسرائيل شبه جزيرة سيناء المصرية ومرتفعات الجولان السورية والضفة الغربية، بما فيها القدس العربية وقطاع غزة، وهى كل ما تبقى من فلسطين فى ذلك الحين.

فى ٢٢ نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩٧٦ صدر قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ الذى يقضى بانسحاب إسرائيل من الأراضى العربية المحتلة وفقا لمبدأ عدم جواز اكتساب الأراضى بالقوة، مقابل إنهاء حالة الحرب والاعتراف بسيادة دول المنطقة ووحدتها الإقليمية وبحقها فى العيش بسلام.

وفى مصر كان الشعور بالمرارة والضياع وخيبة الأمل يسيطر على الجميع بعد أن أفاقوا من وهم أن جيش مصر هو أقوى، وأعتى جيوش دول الشرق الأوسط جميعا.

بدأ العالم العربى يفيق من هول الصدمة ثم بدأ يسترد أنفاسه فأعيد تنظيم صفوف الجيش المصرى المبعثرة على عجل، وبدأت حرب الاستنزاف ضد إسرائيل.

صاحب ذلك بروز منظمة التحرير الفلسطينية برئاسة ياسر عرفات، كما نشطت المساعى السياسية والدبلوماسية العربية وأسفرت عن نجاحات متتالية، وبدأ تحول ملحوظ فى الرأى العام العالمى إزاء النزاع العربى الإسرائيلى، فظهرت إسرائيل أمامه بمظهر الذئب المفترس بعد أن ظلت منذ نشأتها تتخفى فى زى الحمل الوديع وقطعت الدول الافريقية التى كانت تربطها باسرائيل أوثق العلاقات الدبلوماسية علاقتها بها الواحدة تلو الأخرى.

إعلان عودة القانون

فى ٢٨ سبتمبر (أيلول) ١٩٧٠ توفى الرئيس جمال عبد الناصر فجأة متأثرا بمرارة الهزيمة، وخلفه من بعده أنور السادات فى رئاسة الجمهورية العربية المتحدة التى أصبح اسمها جمهورية مصر العربية.

بدا السادات شخصية باهتة مهتزة بالنسبة لشخصية عبد الناصر الجبارة، وتراوحت التقديرات بين إمكان بقائه فى منصبه كرئيس جمهورية بين عدة أسابيع، وعدة شهور، وكان هنرى كيسنجر مستشار الرئيس الأمريكى نيكسون للأمن القومى من بين المراهنين على ذلك، فقد كان السادات طوال حكم عبد الناصر - الذى دام ١٨ عاما - قابعا فى الظل ولا يكاد أحد يعرف عنه شيئا خارج مصر، رغم اشتراكه فى ثورة ٢٣ يوليو (تموز) ١٩٥٢ وعضويته فى مجلس الثورة وشغله لمنصب رئيس مجلس الأمة ثم لمنصب نائب رئيس الجمهورية.

إلا أنه لم يمض وقت طويل حتى بدأ السادات سلسلة متصلة من الجهود والعمليات التى عززت مركزه الداخلى وبدأ الناس يتطلعون إليه كزعيم يرجى منه الخير، وكان فاتحة هذه الأعمال هو قضاؤه على ما كان يعرف بمراكز القوى فى عهد عبد الناصر، والذين ناصبوه العداء منذ أول لحظة لتوليه منصب رئيس الجمهورية.

وفى يوم واحد استطاع السادات أن يتخلص من هذه المراكز حيث باغتها بمناورة سريعة وأفلح فى شلها، رغم أنها كانت تمثل قوة هائلة، إذ كان خصومه يضمون السيد على صبرى الساعد الأيمن لعبد الناصر، والذى كان يسيطر على الاتحاد الاشتراكى العربى - الحزب الوحيد فى مصر فى ذلك الوقت - والسيد شعراوى جمعة الذى كان وزيرا للداخلية ومسيطرا على أجهزة الأمن والفريق محمد فوزى وزير الحربية والسيد محمد فائق وزير الإعلام والذى كانت تتبعه أجهزة الدولة الإعلامية وغيرهم، إذ تم اعتقالهم وتقديمهم إلى المحاكمة وإيداعهم فى السجون. وفى لمح البرق حصل السادات على شعبية كبيرة وبدأ الناس يتعاطفون معه ويعلقون الآمال عليه وقد أتبع تلك الخطوة بالإفراج عن المسجونين السياسيين وبإغلاق المعتقلات والإعلان أن حكمه سيستند إلى سيادة القانون بعد أن كان بعض المسؤولين فى مصر فى وقت جمال عبد الناصر يصرحون علنا بأن القانون فى أجازة، ثم بدأ سلسلة من الإجراءات لرفع وإلغاء الحراسات التى أوقعت ظلما فادحا بالكثير من الناس وبدأت محاكمات لمن نسب إليهم القيام بأعمال التعذيب، كما بدأ الحديث يتواتر عن الاتجاه نحو حكم ديمقراطى. ثم قام الرئيس السادات فى عام ١٩٧٢ بطرد الخبراء السوفيت الذين كانوا محل سخط الكثير من ضباط الجيش المصرى الذين كانت تنهش قلوبهم مرارة الهزيمة فى ١٩٦٧.

ولم يكن السادات طوال السنوات التى قضاها قابعا فى ظل عبد الناصر يضيع وقته هباء، كان لديه الوقت والفرصة للاختلاط بالناس والتعرف على مشاعرهم وكان يدرس ويحلل فى صمت صدى أعمال وتصرفات عبد الناصر لدى المصريين ويعرف ما يثير شكاواهم وما يبعثهم على السخط وكان يختزن كل ذلك فى رأسه بهدوء.

حرب أكتوبر ١٩٧٣

إلا أنه لم يكن يغيب عن فطنة السادات أن كل ما حققه من انتصارات داخلية بعد توليه الرئاسة والتفاف الناس حوله وسيطرته على مقاليد الحكم، لم يغب عنه أن كل ذلك ما كان يجديه نفعا فى المدى الأطول ما لم يحل مشكلة معينة ويا لها من مشكلة « أن نكون أو لا نكون ».

كان يعلم جيدا أنه لا يستطيع أن يتعايش مع منصب رئيس الجمهورية طويلا وجزء من أرض مصر تحت الاحتلال الإسرائيلى والقوات الإسرائيلية ترابط على مرمى

البصر، على الضفة الشرقية لقناة السويس فى حصون خط بارليف الذى صورته الدعاية الإسرائيلية ـ وصدقها العالم كله بمن فيهم المصريون والعرب والاسرائيليون أنفسهم ـ بأنه خط دفاعى غير قابل للاختراق بأى شكل من الأشكال.

كان يدرك تماما أن الشعب المصرى والشعوب العربية لن يهدأ لهم بال حتى يستردوا كرامتهم ويستعيدوا أراضيهم المحتلة، وأن عليه هو أن يفعل شيئا . فلا يستطيع أن يتغافل عن الموضوع ولا أن يظل ساكنا ودقات العد التنازلى تقترب يوما بعد يوم من الصفر ليواجه بالسؤال: ماذا فعلت لتحرير الأرض؟.

أخذ يعمل فى دأب بكل ما أوتى من قوة ودهاء وصبر وصمت حتى قامت حرب أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٧٣، وأثناءها وفى توقيت دقيق أعلنت الدول العربية حظر البترول وارتجف العالم وتغير. فقد ردت هذه الحرب إلى الأمة العربية روحها واستعادت ثقتها المفقودة واطمأنت إلى أنه لم يعد هناك مستحيل، وتقلص المارد الإسرائيلى إلى حجمه الطبيعى وانتهت أسطورة خط بارليف وانتهت معها أسطورة الجيش الإسرائيلى الذى لا يهزم وسارعت الدول الأوروبية التى كان الحال بالنسبة لها أيضا « أن تكون أو لا تكون » بإصدار البيانات التى تحدد موقفها من النزاع العربى الإسرائيلى وتعترف بحقوق الشعب الفلسطينى المشروعة، وتؤكد على وجوب الانسحاب الإسرائيلى من الأراضى المحتلة.

وحتى فى الولايات المتحدة ـ ربيبة إسرائيل ـ حدث زلزال عنيف يدعوها إلى التأمل فى مواقفها السابقة التى كانت تتمثل فى التأييد الأعمى لكل ما تقوم به إسرائيل من تعديات وعربدة فى المنطقة وإلى ضرورة التحرك للعمل على حل النزاع العربى الإسرائيلى الذى بات يهدد أمن العالم واقتصادياته.

وبدأت مجموعة من المثقفين تعمل على تحليل عناصر هذا النزاع واكتشاف العناصر المتوازنة الكفيلة بحله وهى المجموعة المعروفة بمجموعة « بروكنز » وأعدت تقريرا فى هذا الشأن. والخلاصة أن مشكلة الشرق الأوسط طغت على سائر المشاكل الدولية وبرزت كتحد خطير للعالم وأصبحت تحظى بالأولوية فى وجوب معالجتها.

كانت حرب أكتوبر ١٩٧٣ وما صاحبها من تطورات بترولية ثمرة تضامن عربى وثيق وتنسيق دقيق سواء فى المجال العسكرى بين مصر وسوريا أو فى المجال السياسى والاقتصادى الذى لعب فيه الملك فيصل ملك السعودية دورا بارزا وشاركت فيه غالبية

الدول العربية بشكل أو بآخر[1]. ولا شك أن الرئيس السادات كان له دور حيوى فى إحياء التضامن العربى، ولعله من سخرية القدر أن يكون انهيار هذا التضامن الرائع المثمر على يد السادات نفسه فى أقل من سنتين.

وفى أوج انتصار الجيش المصرى قام الرئيس السادات بخطوة سياسية حكيمة إذ أعلن فى خطابه فى مجلس الشعب فى ١٦ أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٧٣ الدعوة إلى انعقاد مؤتمر دولى فى الأمم المتحدة لإقرار السلام فى الشرق الأوسط.

وفى منتصف ١٩٧٤ اغتيل الملك فيصل، وبوفاته اختفت من مسرح الأحداث أقوى شخصية عربية جادة تتميز بالالتزام والاعتدال وتمسك فى يدها - بحكمة - أقوى سلاح عرفه العالم وهو سلاح البترول.

واقعة الغابة السوداء

فى أعقاب حرب أكتوبر بدأت العلاقات بين مصر والولايات المتحدة تتحرك بعد أن كانت راكدة منذ قطع الرئيس عبد الناصر العلاقات الدبلوماسية معها احتجاجا على الدور الأمريكى فى حرب ١٩٦٧.

ولم تلبث أن استؤنفت العلاقات بين الدولتين فى ١٩٧٤ بداية بممارسة وزير خارجيتها - فى ذلك الوقت - د. هنرى كيسنجر سياسته التى عرفت باسم المكوك بين مصر وإسرائيل والتى كان من نتائجها اتفاقيات فض الاشتباك بين مصر وإسرائيل التى أقدم عليها الرئيس السادات دون التشاور مع باقى الدول العربية خاصة سوريا حليفة مصر وشريكتها فى حرب ١٩٧٣، وبذلك بدأ أول تصدع خطير فى الموقف العربى.

اطرد التحسن فى العلاقات بين مصر والولايات المتحدة فى عهد الرئيس الأمريكى نيكسون الذى زار مصر زيارة رسمية، ليستمر تطور العلاقات إلى أن أطاحت فضيحة ووترجيت بالرئيس نيكسون وحل محله نائبه جيرالد فورد فى رئاسة الجمهورية.

وأقام السادات مع الرئيس فورد علاقات عمل وعلاقات شخصية، واقترن التقارب المصرى الأمريكى بتباعد مصرى سوفيتى. ويبدو لى أن السادات كان تحت انطباع بأنه

---

(١) قامت المغرب بإرسال قوات عسكرية إلى الجبهة المصرية، كما قامت الجزائر بشراء مائة دبابة نقدا من الاتحاد السوفيتى وإرسالها إلى مصر.

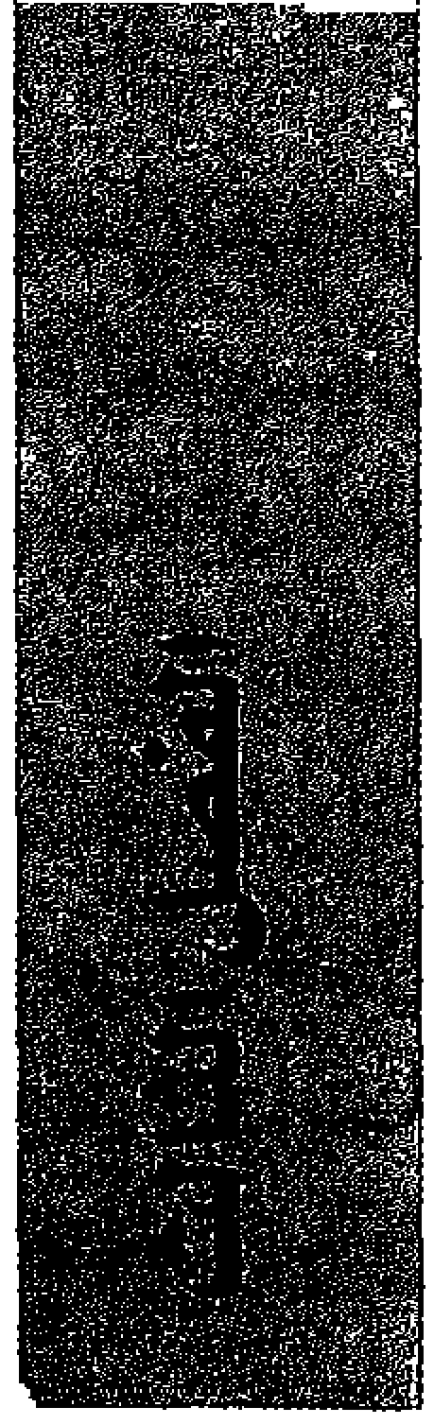
كلما هاجم السوفيت حظى بتأييد أمريكا، فبالغ فى ذلك إلى حد كبير يتجاوز أسلوب التعامل بين الدول خاصة إذا كان الأمر يتعلق بإحدى الدولتين العظميين التى بيدها تسهيل الأمور أو عرقلتها.

وفى نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩٧٦ أسفرت انتخابات الرئاسة الأمريكية عن فوز الرئيس جيمى كارتر الذى أعلن رضاه عن تقرير معهد بروكنز سالف الذكر لحل قضية الشرق الأوسط. وفى مايو (أيار) ١٩٧٧ أسفرت نتائج الانتخابات الإسرائيلية عن مفاجأة إذ فازت فيها كتلة الليكود برئاسة مناحم بيجن لأول مرة فى تاريخ إسرائيل التى ظل يحكمها حزب العمل منذ نشأتها فى عام ١٩٤٨.

فى ذلك الوقت كان الرئيس السادات قد أنهى زيارته للولايات المتحدة وفى طريق عودته إلى مصر توقف فى ألمانيا الاتحادية لقضاء يوم فى الغابة السوداء بولاية بادن فرتمبرج. وكنت فى ذلك الوقت سفيرا لمصر فى ألمانيا، وأثناء تجوالنا فى الغابات المحيطة بالفندق وكانت لاتزال هناك بقايا ثلوج تغطى الأرض، حضر بعض مراسلى الصحف وسألوا السادات عن رأيه فى فوز مناحم بيجن فأجاب بأنه لا فرق لديه بين بيجن أو بيريز أو رابين أو جولدا مائير أو أى شخص آخر ينتخبه الشعب الإسرائيلى.

وربما كانت إجابته هذه صحيحة - دبلوماسيا - ولكنى أثرت معه الموضوع بعد ذلك ونحن نتناول الغداء، وقلت أنه كان من الأنسب التحفظ فى الإجابة حيث إن برنامج حزب حيروت الذى يرأسه بيجن يقوم على أساس إقامة إسرائيل الكبرى على أشلاء ما تبقى من الأرض الفلسطينية، وعلى أساس أنه من غلاة الإرهابيين والمسؤول عن مذبحة دير ياسين. وقلت إنه كان حتى قبل الانتخابات ممنوعا من دخول إنجلترا حيث كان مطلوبا القبض عليه، وأن الرئيس السابق كيندى عندما كان عضوا فى الكونجرس الأمريكى فى ١٩٥٤ أرسل برقية ينسحب فيها من عضوية اللجنة المشكلة لاستقبال مناحم بيجن عند زيارته للولايات المتحدة - بوصفه من محررى إسرائيل - لجمع التبرعات.

وذكر كيندى فى برقيته هذه أنه عندما قبل الاشتراك فى اللجنة لم يكن يعلم بماضى بيجن الإرهابى، وقد رد على السادات وقتها بأن الاسرئيليين جميعا على شاكلة واحدة، وهو ما لا أسلم به على الإطلاق.



مفاجـأة هزت العالـم

في منتصف ليلة ٩ نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩٧٧ كنت قد أويت إلى فراشي وفتحت الراديو لأستمع إلى إذاعة القاهرة كعادتي. كانت الإذاعة تذيع تسجيلا لخطاب ألقاه الرئيس السادات فى مجلس الشعب صباح نفس اليوم.

فجأة استرعت انتباهى جملة وردت فى خطابه حول استعداده للذهاب إلى أى مكان فى العالم سعيا وراء السلام وحقنا للدماء، ولو كان هذا المكان هو الكنيست الإسرائيلى.

اعترتنى بعض الدهشة إلا أنى لم أعر الأمر اهتماما إذ كان السادات كثيرا ما يخرج فى خطاباته عن النص المكتوب ويفصح عن آراء وأفكار مرتجلة ربما دارت فى خلده لأول مرة وهو يلقى الخطاب، فضلا عن أننا فى السفارة لم نتلق أية مؤشرات لمثل هذا الاتجاه.

ليس لدى معلومات ..

فى اليوم التالى اتصل بى بعض السفراء العرب فى بون للاستفسار عن حقيقة الأمر فأجبت بأنه ليس لدى معلومات بشأنه، وأن الأمر ربما لا يعدو أن يكون مناورة من قبيل إحراج الحكومة الإسرائيلية التى طالما رددت استعدادها للتفاوض المباشر مع الدول العربية وهى واثقة بأن رد هذه الدول سيكون بالرفض.

إلا أن الأحداث تطورت بسرعة فلم يلبث مناحم بيجن رئيس الوزراء الإسرائيلى أن بعث بدعوة رسمية يوم ١٥ نوفمبر (تشرين الثانى) للرئيس السادات لزيارة القدس عن طريق السفارتين الأمريكيتين فى تل أبيب وفى القاهرة ولم يمض وقت طويل حتى قبل السادات الدعوة بدوره، وتحدد لبدء الزيارة مساء يوم السبت ١٩ نوفمبر (تشرين الثانى)، وكان يوافق وقفة عيد الأضحى المبارك.

وهزت المفاجأة العالم الذى أخذه النبأ على غرة، وقد لاحظت ذلك فى رد فعل الخارجية الألمانية، التى لم تستطع أن تستوعب الفكرة ولم تكن لديها - رغم كفاءتها وفاعليتها الكبيرة - أية خلفية أو معلومات تمهد لمثل هذا التطور غير التقليدى فى العلاقات العربية الإسرائيلية.

اتصلت تليفونيا بوزير خارجيتى « اسماعيل فهمى » فى تونس حيث كان يشارك فى مؤتمر وزراء الخارجية العرب فلم أجده، وإن كنت قد تحدثت إلى السيدة زوجته التى كانت بدورها غير ملمة بسر هذه التطورات.

وكسفير لمصر فى بون كنت فى وضع غريب ومحرج، فلم أتلق من القاهرة أية إيضاحات أو تعليمات تفسر ما يجرى ولم أستطع أن أشفى رغبة الخارجية الألمانية فى الحصول على تفسير لما يجرى، ولا السفراء العرب أو الأجانب أو الصحفيين، الذين انهالوا على بالأسئلة.

كان الجميع غير مصدقين، وإن تفاوتت ردود أفعالهم بين غير مصدق وبين غاضب وبين متفائل ومتشائم. ولم أفهم السر أو السبب الذى دعا إلى هذا التطور، فقد كانت الأنظار كلها موجهة إلى عقد المؤتمر الدولى للسلام فى جنيف وكان الإعداد لعقد هذا المؤتمر يجرى على قدم وساق.

صحيح أنه كانت هناك عقبات تعترض عقد المؤتمر وخلافات بين الدول العربية وإسرائيل حول تمثيل منظمة التحرير الفلسطينية - على سبيل المثال - وخلافات أخرى بين الدول العربية نفسها وخاصة مصر وسوريا والأردن. فبينما كانت مصر ترى أن تشارك فى المؤتمر وفود مستقلة عن كل من مصر وسوريا والأردن وأن يضم الوفد الأخير ممثلى الشعب الفلسطينى، كانت سوريا تصر على أن يشارك الجانب العربى بوفد مشترك موحد يضم الدول الثلاث ومنظمة التحرير الفلسطينية.

كان انعقاد مؤتمر جنيف يكاد يكون حتميا بعد حرب ١٩٧٣ فلم يكن العالم يستطيع تحمل مضاعفات هذه الحرب فى المجالات الأمنية والاقتصادية. وكان هناك تفاهم بين

الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي على عقد المؤتمر وكانتا ستشتركان في رئاسته، فصدر في أول أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٧٧ بيان سوفيتي أمريكي تضمن صيغة خاصة بحل القضية الفلسطينية، وانسحاب إسرائيل من الأراضي المحتلة. وكان هذا البيان توطئة لمؤتمر جنيف، وإن كانت إسرائيل قد أقامت الدنيا وأقعدتها ضد هذا البيان بدعوى أنه سيفتح الباب للسوفيت ولدخول نفوذهم إلى الشرق الأوسط من جديد بعد أن قام السادات بطردهم من مصر.

كما أن الرئيس كارتر كان يضع كل ثقله وراء انعقاد مؤتمر جنيف ويسعى لأن يكون انعقاده قبل نهاية عام ١٩٧٧، وكان الشعور السائد لدينا بقوة المركز العربي في مؤتمر جنيف، حيث كانت ثمة تطورات إيجابية للغاية قد حدثت بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣ وحتى ١٩٧٧.

وأحرزت القضية الفلسطينية بالذات وهي لب النزاع العربي الإسرائيلي تقدما ملحوظا ظهر جليا في مواقف المجموعة الأوروبية من الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني، وبالذات حق تقرير المصير، وفي القرارات المتوالية التي صدرت عن الأمم المتحدة في هذا الشأن. فقد أعيد إدراج القضية الفلسطينية في جدول أعمال الأمم المتحدة سنة ١٩٧٤ ووافقت الجمعية العامة بأغلبية ساحقة على قرار يعترف بأن الشعب الفلسطيني هو الطرف الأساسي المعني بالقضية الفلسطينية وبدعوة منظمة التحرير الفلسطينية إلى المشاركة في مناقشات الجمعية العامة.

كما أصدرت الجمعية العامة قرارا أكدت فيه حق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره وفي السيادة الوطنية والاستقلال، ودعت منظمة التحرير للاشتراك في مداولات الجمعية العامة وفي جلسات كل الهيئات التابعة للأمم المتحدة بصفة مراقب.

بالإضافة إلى كل ذلك فقد تواترت تصريحات الرئيس كارتر منذ توليه الرئاسة حول حق الفلسطينيين بأن يكون لهم وطن قومي. لكل ذلك لم أفهم سر التحول عن مؤتمر جنيف بهذه الفجائية واتجاه السادات إلى المباحثات المباشرة مع إسرائيل.

أسئلة حول زيارة القدس ..

وظلت أسئلة تدور في رأسي وتسبب لي حيرة كبيرة : هل زيارة القدس هي فكرة عارضة للسادات ذكرها في خطابه أمام مجلس الشعب في ٩ نوفمبر (تشرين الثاني) فتلقفها بيجن ووجه إليه الدعوة لزيارة إسرائيل، فشعر السادات بالحرج من رفضها

والظهور بمظهر المتراجع عما أعلنه ..؟ هل تم تفاهم مسبق بين السادات والدول العربية أو بعضها على الأقل قبل الإقدام على هذه القفزة الجذرية ؟ هل سبقها تفاهم سرى بين مصر وإسرائيل؟ هل تمت بتدبير من الولايات المتحدة..؟ .. وهل هناك ضمانات لتحقيق المطالب العربية فى حدها الأدنى ؟..

استقالة وزير الخارجية..

وبعد ظهر يوم السبت ١٩ نوفمبر (تشرين الثانى) علمت باستقالة وزير الخارجية اسماعيل فهمى فزاد قلقى، إذ كانت تربطه بالسادات علاقة وثيقة واستنتجت على الفور أن مبادرة السادات لم يسبقها الإعداد الكافى، على الأقل فى نظر اسماعيل فهمى، وهو دبلوماسى محنك. ولم تمض ساعات حتى أعلنت استقالة وزير الدولة للشؤون الخارجية محمد رياض(١) وتعززت شكوكى..

واستدعانى الدكتور فان فل وكيل وزارة الخارجية الألمانية إلى مكتبه - وكان وزير الخارجية جنشر يزور تونس زيارة رسمية فى هذا الوقت - وكان فان فل بادى القلق بسبب استقالة اسماعيل فهمى ومحمد رياض، وهما معروفان للألمان ومحل احترامهم وعبر عن خشيته أن تكون استقالة الوزيرين مؤشرا نحو انقسام خطير فى الرأى العام فى مصر بشأن زيارة السادات للقدس وأجبته إجابة مهنية بأنى لا أعلم أسباب استقالة الوزيرين ولكننى أؤكد له استقرار الموقف الداخلى فى مصر وتمتع السادات بثقة الشعب. وأثناء وجودى فى الخارجية الألمانية اتصل بى الوزير جنشر تليفونيا من تونس وكانت تربطنى به صلة طيبة للغاية وعبر لى عن قلقه، فأجبته بأن كل شىء على ما يرام فشكرنى وقال إنه سيقطع زيارته لتونس ويعود إلى بون على الفور.

ردود فعل عنيفة..

كان التقليد المتبع قبل تعيينى سفيرا فى بون أن تقام صلاة عيد الفطر وعيد الأضحى فى دار سكن السفير المصرى، وكان يشارك فيها أعضاء السلك الدبلوماسى العربى والاسلامى وغيرهم من المسلمين المقيمين فى بون أو فى ضواحيها، وقد صادف عيد الأضحى المبارك يوم ٢٠ نوفمبر (تشرين الثانى)، اليوم الذى زار فيه السادات القدس. وإزاء ردود الفعل العنيفة فى العالم العربى التى أثارتها أنباء قيام السادات بالزيارة

---

(١) فى اليوم التالى أعلنت استقالة الدكتور مراد غالب سفيرنا فى يوغوسلافيا ووزير الخارجية السابق.

اتصلت بى الخارجية الألمانية قبل موعد العيد بيومين ورجتنى بإلحاح أن ألغى إقامة صلاة العيد فى هذا العام فى دار السكن وأبلغتنى أن أجهزة الأمن الألمانية ترى خطورة كبيرة فى إقامة الصلاة فى ذلك اليوم ولكنى أصررت على إقامتها، كذلك رفضت ما نصحت به أجهزة الأمن بعد إصرارى على إقامة الصلاة، من أن يقوم رجال الأمن الألمان بتفتيش القادمين للصلاة عند دخولهم إلى دار السكن. ورغم أنى كنت فى قرارة نفسى متخوفا بالفعل فقد جمعت رجال السفارة وطلبت منهم أن يكونوا يقظين للغاية وأن يتولى بعض الأفراد فحص أية طرود قد يتركها المصلون فى المنزل أثناء الصلاة أو بعدها.

وقد تخلف بعض السفراء العرب عن الحضور للصلاة إلا أن غالبيتهم حضروا بالفعل نظرا لعلاقات الصداقة الشخصية التى كانت تربطنى بهم.

وأذكر أن الإمام الذى ألقى خطبة العيد بعد الصلاة - كان من خريجى جامعة الأزهر فى بعثة دراسية بألمانيا - قد قال فى موضع من خطبته عندما كان بصدد الحديث عن تقليد ذبح خروف عيد الأضحى وتوزيع لحمه على الفقراء عبارة « إن الله يحب الذبح فى هذا اليوم ». وقد سرت فى جنبى رعدة عند سماع ذلك والتفت إلى مستشار السفارة الذى كان يفصلنى عنه بعض المصلين فوجدته ينظر إلى ولم نتمالك نفسينا من الضحك. وما إن انتهت الصلاة بسلام حتى تنفست وزملائى الصعداء وانتقلنا إلى الدور الثانى من دار السكن فى انتظار مشاهدة زيارة السادات إلى القدس على شاشة التليفزيون والاستماع إلى خطابه فى الكنيست وكان التوتر والقلق والفضول يسيطر علينا جميعا.

ثم بدأ الإرسال التليفزيونى.. شاهدنا وصول طائرة الرئيس، ثم الاستقبال الرسمى الذى أعد له فى المطار ومصافحته للزعماء الاسرائيليين ورابين وبيريز وديان وجولدا مائير.. الخ.. وبدا لنا كأننا فى حلم غريب ثم بدأ السادات إلقاء خطابه وبعد فترة بدأت استرد هدوئى وأنا اتابع ما يقوله وهو يشرح فلسفة مسعاه لإقامة السلام وأسبابه ويحدد المبادئ والأسس الكفيلة بتحقيق السلام العادل والشامل والدائم فى منطقة الشرق الأوسط.

وفى المساء كنت مدعوا فى حفل افتتاح معرض لبعض الفنانين التونسيين يعقبه حفل استقبال. وبعد الانتهاء من افتتاح المعرض التف حولى زملائى من السفراء العرب وأغلبهم ساخط على الزيارة ومتوجس منها خوفا من أن تؤدى فى النهاية إلى صلح

منفرد بين مصر وإسرائيل، خاصة وقد وضح أن السادات لم يستشر أحدا من الزعماء العرب قبل الإقدام على هذه الخطوة وانه قد قام بها وحده ووضعهم أمام الأمر الواقع.

وكان زملائى السفراء العرب جميعا يكنون لى محبة وودا حتى من كانوا يمثلون دولا تناصب السادات العداء، وكان خطاب السادات قد أراحنى بعض الشيء إذ كان خطابا قويا ملتزما بالموقف العربى وقد صيغ بروح سامية ومنطق سليم، فدافعت عن مبادرته مبررا إن ما دفعه إليها هو احتدام الخلافات العربية حول أصغر المسائل وعدم اتفاقهم على موقف موحد ندخل به مؤتمر جنيف، وذكرت أن مصر التى لم تتوان عن القيام بمسؤولياتها فى النضال ضد إسرائيل فى سبيل حل القضية الفلسطينية قد تحملت تضحيات ضخمة سواء فى الأرواح أو الأموال وأن أوضاعها الاقتصادية تمر بمرحلة خطيرة، وأن مصر لا تستطيع الاستمرار فى هذه الحالة إلى ما لا نهاية.

وأضفت أن خطاب السادات فى الكنيست كما سمعته وكما سمعوه لم يتضمن أية تنازلات أو تفريطا فى الحقوق العربية، وأننا لا نستطيع أن نستمر فى إخفاء ما نراه كما تفعل النعامة، وما خوفنا من مقابلة عدونا وجها لوجه فى مباحثاته من أجل السلام وقد واجهناه فى الحرب. وقلت انه مهما يكن من أمر فلا مجال الآن للجدل فلقد تمت الزيارة وتم اللقاء بالفعل وأصبح الأمر واقعا مثل تاريخ ما قبل الميلاد وتاريخ ما بعد الميلاد، والواجب علينا الآن هو أن يتحد العرب جميعا فى مجابهة تحدى السلام ويعلنوا انضمامهم لمبادرة السادات على أساس العناصر التى تضمنها خطابه.

ومع ذلك أمضيت الليل دون أن أذوق طعم النوم تأخذنى الأفكار والحيرة، ولم أستطع أن اتخذ بينى وبين نفسى موقفا محددا واضحا من هذه المبادرة. فمن ناحية بدت لى فكرتها براقة شجاعة بناءة، ومن الناحية الثانية كنت أشعر بتخوف من هذه الزيارة إلى المجهول إذ أن ظواهر الحال لا تدل على أنه سبقها إعداد أو تحضير، خاصة أن من يمسك بزمام الأمور على الجانب الآخر هم من أمثال مناحم بيجن وشارون وشامير بماضيهم المرعب وأفكارهم المتحجرة البالية وأهدافهم التوسعية المعلنة. وأحسست أن ما أدخله خطاب السادات على نفسى من ارتياح وطمأنينة قد بدده رد بيجن عليه فليس فيه ما يدعو إلى الارتياح على الاطلاق واعترانى شعور بالخوف من أن تؤدى هذه الزيارة، بل هذه المغامرة، إلى هدم صرح القوة العربية والتضامن الذى حققته حرب اكتوبر وتطيح بكل ما أحرزه العرب من مكاسب.

ومع ذلك فقد وقع « الفأس فى الرأس » كما يقولون ومن يدرى ؟ ربما !!

الفصل الرابع

وزيـرا للخارجيـة

بعد ظهر يوم ٢٢ ديسمبر (كانون الأول) ١٩٧٧ غادرت وزوجتى مطار فرانكفورت الدولى على طائرة مصر للطيران، للإعداد لزيارة المستشار هلموت شميدت الرسمية لمدة يومين فى القاهرة ابتداء من ٢٧ ديسمبر (كانون الأول)، تعقبها أجازة يقوم فيها المستشار وبصحبته زوجته بالسفر على باخرة نيلية إلى أقصى صعيد مصر، حيث يزوران مناطق الآثار المصرية القديمة فى الأقصر وأبو سمبل، وقضاء فترة للراحة فى أسوان. كانت هذه الرحلة تتطلع إليها بشوق حرم المستشار شميدت بعد أن درست بتوسع تاريخ مصر القديم.

تأخر وصول الطائرة، فوصلنا إلى مطار القاهرة فجر يوم ٢٣ ديسمبر (كانون الأول) وتوجهنا إلى منزل زوج شقيقة زوجتى، السيد أحمد خيرت سعيد، الذى كان نائبا لوزير الخارجية فى عهد عبد الناصر، للإقامة معها حتى تنتهى زيارة المستشار الألمانى، ثم نعود إلى بون.

أمضيت طوال يوم ٢٤ ديسمبر (كانون الأول) فى المنزل حيث زارنى العديد من الأصدقاء والعائلة، وفى اليوم التالى اتصلت تليفونيا بوزارة الخارجية لتحديد موعد مع الدكتور بطرس غالى وزير الدولة للشؤون الخارجية، ثم بالرئاسة لتحديد موعد مع الرئيس السادات.

دهشة أم غضب ؟!

بعد الظهر توجهت لزيارة والدتى فى حى الزمالك، وعدت إلى منزلى حوالى الساعة الخامسة والنصف، فوجدت البيت مليئا بأفراد العائلة والأصدقاء، وهم فى حالة انفعال.

أخبرتنى زوجتى أن الراديو والتليفزيون قد أذاعا نبأ تعيينى وزيرا للخارجية خلفا للوزير السابق اسماعيل فهمى. تلقيت فى البداية هذا النبأ بدهشة لم تلبث أن حل محلها شعور بالغضب بسبب إهمال السادات لأخذ رأيى فى تولى هذا المنصب، خاصة فى الظروف الدقيقة وغير العادية التى خلفتها مبادرته، وزادنى غضبا أننى شعرت بأنى وقعت فى فخ لا فرار منه، إذ كان من المستحيل على بعد أن أذيع النبأ على العالم كله أن أرفض المنصب، أو أستقيل منه حتى قبل أن أتولاه لاعتبارات تتعلق بعلاقتى الشخصية بالسادات والتى ترجع إلى أكثر من ثلاثين عاما، ولاعتبارات وطنية من الناحية الثانية، إذ أن رفضى للمنصب بعد إعلان تعيينى سيظهر كحلقة جديدة فى سلسلة الاستقالات التى بدأها اسماعيل فهمى، وتبعه محمد رياض، ويوجد انطباعا سيئا ويشكل لطمة للسادات تمس اعتباره الأدبى، ويشكك فى حكمة الخطوة التى أقدم عليها، ويؤكد المخاوف من أن الرأى العام المصرى لا يسير وراء الرئيس.

تدفق الأحداث

فى الحقيقة لا أدرى حقيقة موقفى فيما لو عرض على السادات منصب وزير الخارجية - قبل إعلان ذلك على الملأ - هل سيكون بالرفض أو القبول ؟. على أى الأحوال كان سيتوقف على شرحه لى للموقف ولخطته، المهم أننى سأكون فى موقف أسهل للاعتذار عن عدم قبول المنصب مما يتيح له اختيار شخص آخر دون أن يتعرض لمهانة استقالة ثلاثة وزراء خارجية الواحد تلو الآخر.

وزاد من ألمى شعورى بأن زوجتى لم تكن مرتاحة إلى هذا المنصب الجديد. وهى وإن لم تفصح عن ذلك صراحة، إلا أنى كنت أشعر بما ينتابها من إشفاق على، خاصة وأن حالتى الصحية كانت سيئة بسبب إسرافى فى التدخين الذى لم أفلح فى الإقلاع عنه رغم إلحاح الأطباء المستمر.

إلا أن الأحداث لم تترك لى وقتا للتأمل أو السخط، فلم تكد تمضى نصف ساعة حتى رن التليفون، وكان المتكلم هو السيد ممدوح سالم رئيس الوزراء الذى هنأنى بسلامة الوصول من ألمانيا، ورجانى أن أتوجه لمقابلته فى مقر مجلس الوزراء.

استقبلتنى عند وصولى عدسات مصورى الصحف والتليفزيون، وكنت أعلم أن هذا مجرد استكمال للشكل. وكنت قد قابلت ممدوح سالم قبل ذلك مرتين بوصفى سفيرا لمصر فى ألمانيا، وازدادت معرفتى به بعد انضمامى لمجلس الوزراء، وأكن له محبة واحتراما حيث أنه « جنتلمان » مهذب يتمتع بالنزاهة والإخلاص فى عمله.

وقد عبرت له عما أشعر به من ضيق من جراء هذا التعيين دون استطلاع رأيى، فذكر أنه يقدر ذلك، ولكن الموقف على كل حال لا يحتمل إلا القبول وذكر لى أن الرئيس السادات تكلم عنى فى مناسبات عديدة أمامه ممتدحا كفاءتى ووطنيتى وأنه يشاركه فى هذا الرأى وتمنى لى التوفيق.

ولم أكد أعود إلى المنزل حتى دق جرس التليفون من جديد وكان المتكلم هذه المرة السيد حسنى مبارك نائب رئيس الجمهورية - فى ذلك الوقت - الذى هنأنى وطلب منى أن أسافر معه صباح اليوم التالى بالطائرة إلى الإسماعيلية حيث كان يقيم الرئيس السادات لمقابلته ثم المشاركة كوزير للخارجية فى مباحثات الإسماعيلية المقرر عقدها فى الساعة الحادية عشرة من صباح الغد بين الوفد المصرى برئاسة الرئيس السادات والوفد الإسرائيلى برئاسة مناحم بيجن، وأغلقت سماعة التليفون وأنا أشعر بحالة انعدام الوزن.

فى نفس الوقت كنت بصدد أن أطلب أحمد ماهر السيد صديقى والوزير المفوض بوزارة الخارجية بالتليفون عندما دق جرس الباب ودخل فعرضت عليه أن يعمل مديرا لمكتبى فوافق على ذلك واستأذن فى أن يبدأ عمله معى بعد أسبوع حيث كان سيسافر فى اليوم التالى إلى السنغال لحضور أحد المؤتمرات الأفريقية وفارقنى الشعور بالوحدة الشديدة الذى لازمنى طوال الساعات الأربع الأخيرة.

فقد كانت تربطنى بماهر صداقة وطيدة منذ عمل معى سكرتيرا أول فى كينشاسا واستمرت صداقتنا وتوطدت مع السنين وكنا نتكلم على موجة واحدة ويفهم أحدنا

الآخر تماما، وعلى المستوى الشخصى فإن ماهر يتمتع بكفاءة عالية فهو متمكن من اللغات العربية والفرنسية والانجليزية وذو ثقافة عالية وطاقة هائلة وجلد على العمل وذكاء لماح.

وهو حفيد أحمد باشا ماهر الذى كان رئيسا لوزراء مصر واغتيل فى سنة ١٩٤٥ داخل البرلمان المصرى عندما أعلن انضمام مصر إلى الحلفاء فى الحرب ضد المحور، حتى يتيح لمصر الاستفادة من مزايا نصر الحلفاء الذى بات واضحا وموشكا ويتحسن موقفها إزاء الانجليز فى مسعاها نحو جلائهم عنها.

لقاء الإسماعيلية

فى الساعة السابعة من صباح اليوم التالى، كنت أتناول الافطار عندما دق جرس الباب، ودخل شاب وسيم أنيق فى ملابسه المدنية وقدم لى نفسه بأنه النقيب عمرو حمدى من قوة حرس الوزارات، وأنه المكلف بحراستى ومرافقتى، فدعوته لتناول الإفطار معى.

نزلت فوجدت سيارة مرسيدس مزودة بالتليفون فى انتظارى وسيارة أخرى مخصصة للحراسة بداخلها أربعة من رجال الأمن وتوجهنا إلى مطار الماظة الحربى حيث قابلت السيد حسنى مبارك وركبنا طائرة هليكوبتر حربية توجهت بنا إلى الإسماعيلية حيث وصلناها فى الساعة التاسعة والنصف.

فى استراحة الإسماعيلية التى اختيرت مكانا للمباحثات قابلت عددا من الأصدقاء والزملاء أعضاء الوفد المصرى وهم الدكتور عصمت عبد المجيد مندوب مصر لدى الأمم المتحدة وحسن كامل رئيس الديوان الجمهورى والدكتور بطرس غالى وزير الدولة للشؤون الخارجية والدكتور أسامة الباز وكيل وزارة الخارجية، الذى عين مديرا لمكتب نائب رئيس الجمهورية بعد استقالة اسماعيل فهمى مع احتفاظه بعمله فى وزارة الخارجية.

سألت الدكتور عصمت عبد المجيد أن يلخص لى ما دار فى مؤتمر القاهرة التحضيرى للسلام الذى دعا إليه الرئيس السادات والذى عقد فى فندق ميناهاوس فى مواجهة الأهرام ولم يحضره غير الجانب المصرى والإسرائيلى والأمريكى حيث رفضت كل من سوريا والأردن ومنظمة التحرير الفلسطينية حضوره.

وما كاد يشرع فى الحديث حتى استدعيت لمقابلة الرئيس السادات الذى كان ينتظرنى فى حديقة الاستراحة جالسا يستمتع بدفء الشمس الساطعة وقد رحب بى بحرارة وذكر أنه لم يكن يعلم بوجودى وكان يظن أنى مازلت فى بون.

وعاتبته على تعيينى وزيرا للخارجية دون أخذ رأيى وعبرت عن عدم ارتياحى للاشتراك فى المباحثات التى ستبدأ فى غضون ساعة دون أن يكون لدى أية خلفية عنها أو معرفة بجدول أعمالها والمواضيع التى ستناقش. فرد قائلا إنه سمح لنفسه بتعيينى دون سؤالى لأنى بمثابة ابنه (يكبرنى السادات بتسع سنوات)، وأنه اختارنى لأنه يريد شخصا يثق به تماما، ويتصف بالوطنية والشجاعة، وقال إننى لو علمت عدد الذين كانوا يتهافتون على التعيين فى هذا المنصب لما أسفت.

ثم انساب فى حديث طويل عن المتناقضات القائمة بين الدول العربية وخاصة الرئيس السورى حافظ الأسد الذى ضاق به ذرعا وموقف الاتحاد السوفيتى الذى يسعى لإسقاطه شخصيا ويعمل على تخريب أى جهد للخروج من الحلقة المفرغة التى يدور فيها النزاع العربى الإسرائيلى، وأنه لا يستطيع أن يستمر فى ربط مصر بعجلة القافلة العربية التى تشتعل فيها نيران الغيرة والغدر والمنافسات على الزعامة والمزايدات، ثم حضر حسن كامل ليبلغ الرئيس بوصول طائرة الوفد الإسرائيلى إلى الإسماعيلية فتركنى السادات ليتأهب لاستقبالهم.

وبعد وصول الوفد صحبه الرئيس السادات إلى غرفة الاستقبال بالاستراحة حيث قدمت لهم بعض المرطبات، وبقيت بالحديقة أحاول أن أحصل من الدكتور عصمت عبد المجيد من جديد على خلفية المحادثات، ولكن لم يلبث أن حضر حسن كامل ليبلغنى أن الرئيس يطلبنى لحلف اليمين كوزير للخارجية وأضاف أن السادات يعتزم أن يشارك فى مراسم حلف اليمين مناحم بيجن وبعض أعضاء الوفد الإسرائيلى كتعبير عن روح الود والسلام، وصدمت من الذهول وطلبت منه أن يبلغ الرئيس السادات أن مثل هذا لم يقع فى العالم من قبل وأن هذه عملية لا شأن للإسرائيليين بها وأنى على كل حال لن أقوم بحلف اليمين أمامهم مهما حدث.

وعاد حسن كامل ضاحكا وأخبرنى بأن الرئيس وافق على رأيى وعدل عن فكرته وذهبت معه إلى غرفة الاستقبال حيث كان يجلس السادات مع مناحم بيجن وبعض

معاونيه، فاستأذن منهم وتوجه إلى ركن من الغرفة ووقف على يمينه السيد حسنى مبارك وعلى يساره السيد ممدوح سالم وقمت بحلف اليمين. ولم أكد أنتهى حتى حضر مناحم بيجن وأعوانه والمصريون الحاضرون وصافحونى مهنئين، وغادرت الغرفة مع باقى الحاضرين إلى قاعة الاجتماع وتركنا السادات وبيجن لاجتماع مغلق بينهما.

الشعور الغريب

وبدون سابق إنذار اعترانى شعور داخلى غريب.. أحسست أنى استيقظت من كابوس ثقيل. فجأة رحل عنى شعور القلق والاضطراب الذى لازمنى فى العشرين ساعة الأخيرة منذ أعلنت الإذاعة نبأ تعيينى وزيرا للخارجية إلى أن حلفت اليمين أمام الرئيس السادات فى ركن من غرفة صغيرة بمدينة الإسماعيلية على مرأى ومسمع من قادة إسرائيل أعدائنا اللدودين والذين حاربونا وحاربناهم على مدى ثلاثين عاما والذين سنبدأ المبارزة معهم سعيا وراء حل سلمى بعد دقائق قليلة.

وبدأت نفسى تمتلئ بشعور غامر فياض بالهدوء والثقة والقوة والعزم وإيمانا بأن ما حدث لى هو من صنع القدر.

لقد أصبحت رغم أنفى وزيرا لخارجية مصر الخالدة فى مرحلة مصيرية يتوقف على ما ستفسر عنه معركة السلام، مستقبل الشرق الأوسط وربما العالم أجمع، فمرحباً بالتحدى.

الإحساس بالغيظ

جلس أعضاء الوفدين المصرى والإسرائيلى متفائلين على جانبى مائدة المباحثات الموشكة على الابتداء فى انتظار وصول الرئيس المصرى ورئيس وزراء إسرائيل اللذين كانا فى اجتماع منفرد فى الغرفة المجاورة..

ولم يلبث أن فتح الباب ودخل السادات وبيجن، وقبل أن يجلسا فى مقعديهما فوجئت بمناحم بيجن ويده مشتبكة فى يد السادات، إنهما قد اتفقا على تشكيل لجنتين الأولى سياسية برئاسة وزير الخارجية المصرى ووزير الخارجية الإسرائيلى، وتعقد جلساتها فى القدس والثانية عسكرية برئاسة وزيرى دفاع البلدين وتعقد جلساتها فى القاهرة.

وشعرت أن السادات وبيجن قد وضعا العربة قبل الحصان إذ كان المفروض أن يأتى مثل هذا الاتفاق كنتيجة للمباحثات بين الوفدين وليس قبلها.

وأحسست بالغيظ من السادات : لماذا وافق على لجنتين ؟ ألم يكن المنطق يقضى بالبدء بالاتفاق من الطرفين على الأسس التى يمكن أن يؤسس عليها السلام وهذا موضوع سياسى بحت، فإذا تم الاتفاق على ذلك يمكن عندئذ تشكيل أى عدد من اللجان يتطلبها وضع بنود هذا الاتفاق السياسى موضع التنفيذ ؟

وكيف سنفسر للعالم العربى الذى كان يرقب هذه المباحثات بكل اهتمام وشك تشكيل لجنة عسكرية مصرية إسرائيلية لبحث ترتيبات الانسحاب من سيناء ؟ ألن يفسر ذلك حتما على أنه اتجاه نحو حل منفرد بين مصر وإسرائيل وهو الأمر الذى كان ينفيه السادات بكل شدة صباح مساء ؟

ثم لماذا يوافق السادات على القدس مقرا لاجتماع اللجان، ألا يوحى ذلك باعتراف ضمنى بما تطالب به إسرائيل من اعتبار القدس عاصمة لها ؟ ألم يدر بخلده أن ذلك سيضاعف شكوك العرب فى مبادرته للسلام ؟ ماذا كان يضره لو أصر على أن تكون تل أبيب وليس القدس المكان المقابل للقاهرة لاجتماعات اللجان.

ولم أفق من هذه الخواطر إلا على صوت الرئيس السادات وهو يفتح الجلسة بالترحيب بالوفد الإسرائيلى فى الإسماعيلية.. « اليوم عيد ميلادى وأنها لمناسبة سعيدة أن نلتقى على الأرض المصرية لننهى معاناة الشعبين، والعالم كله يتطلع إلى هذا اللقاء وإلى إقرار السلام كى تسود المحبة محل الكراهية التى لازمتنا ثلاثين عاما، ولنقدم للعالم أسلوبا جديدا فى حل المشاكل بين الشعوب ».

ورد بيجن بصوته الحاد مهنئا السادات بعيد ميلاده متمنيا له أن يعيش مائة وعشرين عاما كما فعل موسى الذى عبر سيناء مع شعبه هربا من مصر فى أربعين عاما بينما وصل هو إلى مصر عبر سيناء فى أربعين دقيقة، وأن الجميع يذكر زيارة السادات للقدس وكيف قابله الإسرائيليون بقلوبهم، وأن السلام أصبح مسؤوليتهما المشتركة وسيتحقق وتنتهى الحروب والمآسى إلى الأبد، ثم أعلن بيجن أنه يحمل معه مشروعين الأول خاص بالانسحاب من سيناء والثانى خاص بالحكم الذاتى فى جوديا وسماريا وغزة.

مشروع بيجن للسلام

وشرع بيجن فى شرح مشروعه للسلام مع مصر بلغة انجليزية طلقة وصوت منفر مزعج فى إسهاب طويل ممل مملوء بالتفاصيل السخيفة وهو يتيه إعجابا بصوته وفصاحة بيانه.

وكان أشد ما أثار دهشتى هو الوقاحة التى تضمنها حديث بيجن، وإن حاول تغليفها فى ثوب مهذب حتى تبدو ساذجة بريئة وكأنه يخاطب أطفالا صغارا، وكان ذلك يشكل استخفافا بعقولنا مما يتضمن إهانة لنا.

« عندما نوقع اتفاقية السلام فيستطيع الجيش المصرى البقاء فى خط لا يتجاوز ممرى متلا والجدى أما باقى سيناء (أكثر من ثلاثة أرباع مساحتها) فتكون منزوعة السلاح، وتحتفظ إسرائيل بمطاراتها العسكرية فيها وبمحطات الإنذار المبكر، أما المستوطنات بين رفح والعريش وبين إيلات وشرم الشيخ فتبقى كما هى وستكون مستوطنات مدنية - وهذا لا يشكل يا سيادة الرئيس - مساسا بسيادة مصر !! ولكن هناك مبدأ يهوديا مقدسا بألا يترك المدنيون بدون حماية عسكرية لذلك سنحتفظ بقوات قليلة للغاية لحماية هؤلاء المستوطنين المدنيين ونأمل يا سيادة الرئيس فى تفهمك لهذا المبدأ الإنسانى بعد طول ما قاساه اليهود من تعديات عليهم ... ».

والأدهى من ذلك أنه عندما قاطعه الدكتور عصمت عبد المجيد فى وقت ما وذكر أن قرار مجلس الأمن ٢٤٢ ينص على الانسحاب من الأراضى المحتلة، وأن هذا يعنى بالنسبة لمصر الانسحاب إلى الحدود الدولية بينها وبين فلسطين، ثار بيجن بشكل مسرحى وأخذ يوجه إلى الرئيس السادات أسئلة سريعة متتالية كطلقات مدفع رشاش: « ألم تحشدوا قوات الجيش المصرى فى سنة ١٩٦٧ وتنقلوها إلى سيناء ؟ ألم تغلقوا مضيق تيران ؟ ألم تقم المظاهرات تطالب بإلقاء إسرائيل فى البحر ؟ ألم تقم اليافطات فى شوارع القاهرة تطالب بأن يدخل الجيش المصرى تل أبيب فى ثلاثة أيام ؟ ألم تطلبوا من قوات الطوارئ الدولية الانسحاب من سيناء ؟... الخ الخ ؟ ».

وأخذ السادات يرد على كل سؤال « بنعم » وينتظر بلهفة أن ينتهى بيجن من أسئلته المتلاحقة لكى يشرح له الوضع فعلا « نحن على مائدة مفاوضات لننس الماضى ونقيم سلاما دائما شاملا ».. ولكن بيجن ما كاد ينهى أسئلته حتى قال : إذن تكون حرب ١٩٦٧ حربا هجومية عدوانية من قبلكم وتكون إسرائيل فى حالة حرب دفاعية مشروعة

بالتالى، وهذا يعطيها الحق فى الاحتفاظ بالأراضى التى احتلتها وهى تدافع عن نفسها ضد العدوان، وبحركة سريعة مد يده إلى الأوراق الموضوعة أمامه وسحب كتابا من بينها وفتحه على صفحة كانت مميزة بعلامة ورقية من الصفحات، وشرع يقرأ فقرات من هذا الكتاب الذى ذكر أنه لأحد فقهاء القانون الدولى، تؤيد حق الدول فى الاحتفاظ بالأراضى المحتلة إذا كان احتلالها نتيجة لحرب دفاعية خاضتها رغم أنفها[1].

وقاحة بيجن

ولم أتمالك نفسى، فقمت وتوجهت إلى الرئيس السادات وهمست فى أذنه راجيا وقف الجلسة للتشاور. ولاحظ بيجن ذلك فقال على الفور ربما أطلت عليكم الحديث يا سيادة الرئيس واقترح رفع الجلسة لاستراحة بعض الوقت ووافق الرئيس السادات ورفعت الجلسة.

انتقل الوفد المصرى إلى الغرفة المجاورة، وقلت للرئيس السادات - فى انفعال - رأيى فى وقاحة مناحم بيجن وأنه يسئ استغلال سماحتنا وكرمنا كمضيفين ونوايانا الصادقة فى إنهاء الحروب وإقرار سلام عادل. وذكرت أن الأسلوب الذى يتبعه سيجرنا فى متاهات وتفاصيل تبعدنا عن الهدف الأصلى ويجب أن يكون التركيز فى هذا الاجتماع على الاتفاق على المبادئ التى تحكم التسوية الشاملة للنزاع العربى الإسرائيلى بكل عناصره، ويمكن بعد ذلك أن تتولى اللجان مناقشة التفاصيل.

وقد أجمع الوفد المصرى على رفض المشروع الذى قدمه بيجن، لما تضمنه من تعديات خطيرة على سيادة مصر على أراضيها ومخالفات صريحة لقواعد القانون الدولى وتناقضات مع قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢.

وعادت الجلسة للانعقاد وعدنا من جديد نستمع إلى صوت بيجن وعرضه الطويل المسهب وهو يشرح هذه المرة مشروعه التالى والخاص بمستقبل « جوديا وسماريا » وقطاع غزة. وكان يتوقف بعد كل فقرة ليتغزل بجمالها ويشيد بكرمه الفياض وإنسانيته البالغة. كان أشبه ببائع متجول يتغنى بمحاسن بضاعته. « بالنسبة لجوديا وسماريا »

---

(١) وقد كرر بيجن هذا المعنى فى المؤتمر الصحفى الذى عقد فى الإسماعيلية فى اليوم التالى.

وقطاع غزة فإنى سأبدأ من النهاية... إن إسرائيل تتمسك بسيادتها على تلك الأراضى لأنها أراضى أجدادنا... ولكنى لن أطلب منك يا سيادة الرئيس التوقيع على اتفاق يعطينا أراضى ربما تعتبرها عربية، لذلك أقترح أن نتفق على ترك موضوع السيادة مفتوحا ومعلقا فلا تكون لإسرائيل ولا تكون لغيرها... وننتقل من هذه النقطة إلى الموضوع الإنسانى الملح، فمن الممكن إلغاء الحكم العسكرى فى (يهودا والسامرة) وقطاع غزة وتتولى السلطات الإسرائيلية شؤون الأمن والنظام العام أما « السكان العرب الفلسطينيون » فسيتمتعون لأول مرة فى تاريخهم بالحكم الذاتى الإدارى بعد قرون من التحكم فيهم، وهذا يؤدى بالتالى إلى أن ينعم « اليهود الفلسطينيون » بالأمن ... كذلك اقترح أن يكون « للسكان » حق الاختيار بين الجنسية الأردنية والجنسية الإسرائيلية وأن يكون للإسرائيليين الحق فى شراء وتملك الأراضى، ويتمتع العرب الذين يختارون الجنسية الإسرائيلية بنفس الحق .... ».

وعندما انتهى بيجن من عرض مشروعه أضاف بأن كلا من الرئيس كارتر ونائبه مونديل ورئيس وزراء بريطانيا المستر كالاهان قد أيدوا مشروعيه وامتدحوهما، كما أضاف أنه لاقى معارضة شديدة فى دائرته الانتخابية ومن أعضاء الكنيست وأصدقائه الشخصيين لما أقدم عليه من تنازلات ضخمة فى سبيل التوصل إلى السلام.

التعبيرات الخبيثة

ورد السادات أنه يريد أن يوضح أن لمصر التزامات تاريخية بالنسبة للعالم العربى، وأنها ملتزمة بقرارات مؤتمر الرباط بشأن انسحاب إسرائيل من الأراضى المحتلة وحل القضية الفلسطينية على أساس الحقوق المشروعة للشعب الفلسطينى، وأن موقفه ليس سهلا، وأنه كان يأمل أن يتم فى اجتماع الإسماعيلية الاتفاق على إعلان مبادئ بين الطرفين تحكم التسوية السلمية، وأن هناك الكثير الذى تحقق بعد زيارته للقدس، ولكن من الواضح أن هناك نقاط خلاف بين الطرفين، وعلى كل حال فلن يتم التوصل لاتفاق سلام فى جلسة واحدة، والمهم هو أن تستمر المباحثات وتبادل المقترحات، وأن تستمر قوة الدفع حتى التوصل إلى السلام الشامل، وأننا سنتقدم باقتراحاتنا المضادة ومتى تم الاتفاق على المبادئ تبدأ اللجان السياسية والعسكرية فى العمل على الفور.

وقد تميزت هذه الجلسة الثانية بنشاط من أعضاء الوفد المصرى حيث كانوا ينبرون بالحجج الدامغة لبيجن - كلما شط - استنادا إلى متانة الموقف العربى المؤيد بمبادئ القانون الدولى وقرارات الأمم المتحدة.

ولم يتم بالطبع اتفاق على المبادئ وانتهى الاجتماع على أن يصدر كل جانب بيانا بوجهة نظره.

وفى صباح اليوم التالى ٢٦ ديسمبر (كانون الأول) ١٩٧٧ أمام حشد هائل من الصحفيين ومراسلى وكالات الأنباء وشبكات التليفزيون أعلن السادات فى بداية المؤتمر الصحفى المشترك أنه « .. فيما يتعلق بموضوع الانسحاب فقد حققنا تقدما » أما فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية التى نعتبرها لب المشكلة فقد كان موقف مصر هو أنه بالنسبة للضفة الغربية وقطاع غزة فيجب أن تقوم الدولة الفلسطينية، أما موقف إسرائيل فهو أن « العرب الفلسطينيين » فى « جوديا وسماريا » يتمتعون بالحكم الذاتى. ولقد اختلفنا هنا ولكن تم الاتفاق على أن نناقش تلك القضية فى اللجنة السياسية ».

واسترعى دهشتى استعمال السادات لتعبيرات بيجن الخبيثة المضللة « العرب الفلسطينيين » الذى ابتدعه مناحم بيجن كبديل لتعبير « الشعب الفلسطينى » مدعيا كما صرح فى المؤتمر الصحفى نفسه ردا على أحد الأسئلة : « إننى أنتمى إلى الشعب الفلسطينى لأننى « يهودى فلسطينى » وهناك « عرب فلسطينيون » ونريد أن نعيش معهم فى كرامة وفى ظل العدل والمساواة وقد أحضرت معى إلى الرئيس مقترحات بالحكم الذاتى هى الأولى فى تاريخ العرب الفلسطينيين ». يا لها من كرامة وعدل ومساواة !! شكرا للمستر بيجن. وقلت لنفسى وقتها لو كان اليهود قد اعتبروا أنفسهم مواطنين ومن جنسية الدول التى كانوا يعيشون فيها - وليسوا يهودا فقط - لما كانت هناك مشكلة يهودية ولا كانت هناك دولة إسرائيل وبالتالى ما كانت هناك مشكلة فلسطينية.

أما ترديد السادات فى المؤتمر الصحفى لعبارة « جوديا وسماريا » فقد فسرته بأنه يستعملها من قبيل المجاملة الساذجة غير مقدر لمدلولها السياسى ومن قبيل التفاخر

بمعرفته بلغة جديدة هى العبرية. فقد كان السادات مغرما عند زيارته لبعض الدول بأن يضمن خطاباته الرسمية فيها فقرة أو أكثر بلغة البلد المضيف. حدث ذلك فى ألمانيا وفى فرنسا وفى إيران.

وانتهى المؤتمر الصحفى المشترك وعرف العالم أن مباحثات الإسماعيلية فشلت ولم تحرك السلام قيد أنملة إلى الأمام.



تـأمـلات

قضية بين شخصين

تركت شخصية مناحم بيجن فى نفسى انطباعا سيئا. فقد كان متحجر القلب والفكر متعصبا مغرورا لا يأبه بما يحدث للغير أو للعالم بأسره طالما يحصل هو على ما يريده. ولم يكن ماضيه الارهابى الدموى خافيا على أحد، ولكنه من ناحية أخرى كان ذكيا واسع الدهاء والحيلة، طليق اللسان سريع البديهة.

وقد أكسبته خبرته الطويلة كعضو فى الكنيست مقدرة هائلة فى فنون المناقشة والحوار والمراوغة، بالإضافة إلى حفظه ملف « قضيته » عن ظهر قلب بكل وقائعها وتفصيلاتها ويعلم أوجه الضعف فيها، وبالتالى كان مستعدا للرد الفورى على ما قد يسوقه الخصوم من حجج وحقائق، مهما تضمن رده من مغالطات وكذب.

على الجانب الآخر كان أنور السادات متقمصا دور « الرجل الكبير »، لا يحفل بالتفاصيل، تملؤه الثقة فى مبادرته التى بناها على أسس الشجاعة والإنسانية والعدالة، واستنادا إلى القانون الدولى العام، وقرارات الأمم المتحدة والإجماع الدولى على عناصر تسوية النزاع العربى الإسرائيلى. ولم يكن يشك لحظة فى أنه سيكتب لها النجاح ويدخل التاريخ كأحد دعاة السلام فى القرن العشرين.

عزز هذا الاعتقاد لديه رد الفعل الإيجابى الفورى فى جميع أنحاء العالم، ولشهور طويلة لم تخل صحيفة أو مجلة أو نشرة أخبار من صورة للسادات أو خبر عنه، أو

مديح وإطراء لمبادرته وتعلق بالآمال فى أن يكتب لها النجاح. اللهم إلا صحافة الدول العربية التى التزم بعضها الحياد أمام المبادرة عملا بأسلوب (لننتظر ثم نرى) بينما ناصبها البعض الآخر العداء السافر الصريح.

وإنها لمأساة تاريخية أن يضع القدر مصير هذه المبادرة الرائعة والتى يتوقف عليها مستقبل منطقة الشرق الأوسط، وبالتالى مصالح العالم واقتصادياته لفترة طويلة فى يد السادات من ناحية، وفى يد مناحم بيجن من ناحية ثانية كما ستوضح الأحداث والتطورات.

الفرص الضائعة

خلال الأسابيع التالية لاجتماع الإسماعيلية استغرقت فى تفكير عميق متصل، وهو ما لم يتح لى من قبل، نظرا لتوالى الأحداث السريع. كنت أرغب فى تحديد موقفى بينى وبين نفسى من المبادرة فى حد ذاتها، ثم فى دراسة كيفية وضعها موضع التنفيذ والتكنيك الذى يتبع فى هذا السبيل وخلصت من تفكيرى إلى الاقتناع بنظرية المبادرة وإمكانية تحقيق تسوية سلمية لمشكلة الشرق الأوسط على أساسها وحتى إذا لم تنجح فسيصيب إسرائيل الفشل ويكشفها دوننا.

فقد ظهر لى من استعراض المواقف العربية منذ قيام إسرائيل أنه حافل بالفرص الضائعة. ففى كل مرة كان العرب يفوتهم القطار فإذا ما عادوا لمحاولة اللحاق به تكون إسرائيل قد رسخت قدمها فى أرض جديدة. وكان ما يعوق العرب ويسبب ترددهم هو ضعفهم وتفرقهم وروح المزايدة والتناحر بينهم وإصرارهم بعناد على وصف إسرائيل بأنها دولة « مزعومة »[1] رغم اعتراف أغلب دول العالم بها.

وتذكرت سنة ١٩٥٤ بالذات عندما دعا أنتونى إيدن وزير خارجية بريطانيا فى ذلك الوقت إلى عقد اجتماع مائدة مستديرة تشترك فيه الدول العربية وإسرائيل لبحث تسوية النزاع، ولم يلبث جمال عبد الناصر أن أعلن أنها فكرة جديرة بالنظر وأنه سيقوم بدراستها، إلا أن القيامة قامت فى بعض الدول العربية وخاصة سوريا والفلسطينيين وانهالت الاتهامات بالخيانة على جمال عبد الناصر وبأنه يبيع القضية

(١) من المضحك أن المواقف تبدلت وأصبحت إسرائيل فيما بعد تعتبر الشعب الفلسطينى « مزعوما » وغير موجود إلى حد أن تصرخ جولدا مائير « وأين هو الشعب الفلسطينى هذا ».

الفلسطينية للعدو الصهيوني وكان الهجوم في وسائل الإعلام عنيفا فتراجع جمال عبد الناصر عن تصريحاته وأدعى أنها حرفت وفهمت على غير حقيقتها. فهدأت العاصفة وعاد الموقف العربي إلى ما كان عليه.

عادت إلى ذهني تلك الواقعة - وكنت وقتها سكرتيرا أول في لندن - التي حدثت في وقت كانت كل ما تطالب به إسرائيل هو أن تقبل الدول العربية التفاوض معها والاعتراف بها في حدودها التي بينها قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة بتقسيم فلسطين إلى دولة فلسطينية وأخرى يهودية، وأحسست بسخرية القدر فلم تكن إسرائيل وقتها تحتل سيناء ولا الضفة الغربية ولا القدس ولا غزة ولا الجولان، إذ لم يتم ذلك إلا في حرب ١٩٦٧ فما كان من الدول العربية إلا أن أعلنت في مؤتمر الخرطوم أنه لامفاوضة ولا اعتراف ولا صلح مع إسرائيل.

وقد أدركت إسرائيل كيف تستغل موقف الرفض العربي هذا فظلت تعمد بعد احتلالها للأراضي العربية في سنة ١٩٦٧ إلى مطالبة العرب بالاعتراف بها والتفاوض معها، وهي مطمئنة واثقة بأن رد الفعل العربي سيكون مزيداً من الرفض مما يتيح لها الوقت والفرصة لوضع مخططاتها التوسعية موضع التنفيذ عن طريق تعزيز مواقعها في الأراضي الجديدة المحتلة وإقامة المستوطنات فيها وقطع أواصر هذه الأرض وعزلها عن وطنها الأم.

كان الموقف العربي إذن موقفا سلبيا يفتقر إلى بعد النظر ويعود إلى التفرقة والخلافات والانصراف عن إدراك مخاطر السكوت على الكيان الإسرائيلي وتركه يتشعب ويترعرع وسطنا والاكتفاء بالخطب والبيانات في الأمم المتحدة وغيرها دون الإعداد الجدي والصادق لمواجهتها حربا أو سلما.

الواقع الجديد

ولكن حرب ١٩٦٧ أوجدت واقعا جديدا. فلم تعد القضية الفلسطينية وحدها هي المشكلة العربية وإنما تفاقم الأمر وأصبحت دول عربية هي مصر وسوريا والأردن طرفا مباشرا في النزاع مع إسرائيل لاحتلالها أجزاء من أراضيها، وشعرت باقي الدول العربية بالضياع وبالخطر المباشر يواجهها وأن دورها أصبح مدرجا على قائمة الانتظار. وكان احتلال إسرائيل للقدس العربية بالذات تحديا صارخا يشكل قاسما مشتركا أعظم لكل الدول العربية والاسلامية.

كانت صدمة الهزيمة التى منى بها العرب عسكريا ونفسيا وأدبيا فى حرب ١٩٦٧ هى نقطة الانطلاق نحو البعث العربى من جديد الذى أدى إلى حرب ١٩٧٣ وبرز العالم العربى بما لديه من امكانيات استراتيجية واقتصادية وبترولية وبشرية كقوة مهمة ومؤثرة لا يستطيع العالم إلا أن يحسب حسابها، كما أدرك العرب أنفسهم قوتهم وأهميتهم وزالت العقدة التى كانت تتحكم فيهم وتملى عليهم سياسة الرفض واللاءات إزاء إسرائيل ومن هذا المنطلق يمكن فهم مبادرة السادات.

صحيح أن السادات كان يتعين عليه أن يحاول الإعداد لهذه المبادرة بالتشاور والتنسيق مع الدول العربية أو على الأقل مع دول المواجهة والدول العربية المعتدلة قبل أن يطرحها على إسرائيل فيتفادى بذلك الفرقة والمعارك الجانبية مع بعض الدول العربية، إلا أنه يبدو أن السادات وقد احتوته فكرة المبادرة لم يطق صبرا وخشى - إن هو فاتح الدول العربية فى الأمر - أن تذبل وتتبدد من بين يديه نتيجة اختلافات وتعارض فى وجهات النظر بينها وتفقد بذلك بريقها وقوة تفجير المفاجأة وأخذ إسرائيل والعالم على غرة. فأقدم عليها دون تشاور أو تنسيق وأصبحت أمرا واقعا وحقيقة سياسية فماذا يفيد الصراخ والنقد والندم ؟ لقد فعلها ووقعت ومن هنا يجب أن نبدأ ونستمر إلى آخر المدى ولكن بضوابط ومحاذير واتجاه بوصلة ثابت لا نحيد عنه أبدا.

خطة بيجن الشريرة

ماذا قال السادات فى خطابه أمام الكنيست ؟

لقد ترجم - فى مواجهة وصراحة وشجاعة - مبادئ القانون الدولى، وقرارات الأمم المتحدة التى تحكم النزاع العربى الإسرائيلى. ترجم حقوق الانسان والإجماع الدولى، ترجم كل ذلك فى نداء بليغ مؤثر أمام الكنيست الإسرائيلى وأمام العالم إلى صورة تنبض بالحياة وبالسلام، والانسانية والعدالة، وأوضح أنه لا بديل عن ذلك إلا العيش فى حلقة مفرغة من عدم الاستقرار والخراب والدمار.

وبماذا رد بيجن فى خطابه ؟

قال : إن كل شىء قابل للتفاوض ولا يحق لأى طرف أن يضع شروطا مسبقة للتفاوض. قال هذا وكأن الاحتلال بقوة السلاح لأراضى العرب ليس شرطا مسبقا، بل ليس قيدا يطوق أعناقهم، وأنه لمن مآسى القدر أن يختار كائن حى من « الحفريات

القديمة » يدعى مناحم بيجن ليكون رئيسا لوزراء إسرائيل فى تلك اللحظة، ليتلقى عرض السلام ويخنق ـ دونما شفقة ـ ذلك الأمل الجميل الذى أطلقته إلى الوجود تلك الصورة التى رسمها السادات فى خطابه فى القدس.

حاولت أن أضع نفسى مكان بيجن، وأن أنفذ إلى أعماق نفسه، ذلك الشخص الذى أمضى حياته ليقيم دولة يهودية عنصرية، ذلك الشخص الذى قدم من بولندا إلى فلسطين ليذيق أهلها العذاب فيسفك دماءهم ويطردهم من ديارهم وأوطانهم، ليستورد اليهود من معظم أنحاء العالم ليحلوا محلهم، بيجن رئيس حزب « حيروت » الذى ينادى باسرائيل الكبرى.

بيجن الذى رأيته بعينى وسمعته بأذنى فى الإسماعيلية يستعرض مهارته ليفاصل ويقايض على ما ليس له، وكأن عرض السلام الشامل العادل الدائم الذى قدمه السادات لم يكن إلا سحابة صيف وانقشعت.

إنه لا يرفض ـ صراحة ، مبادرة السادات والعالم كله يباركها ويترقب رده عليها وهو فى نفس الوقت لا يريد السلام الذى عرضه عليه السادات والذى يحصر إسرائيل فى حدود ما قبل حرب يونيو ١٩٦٧، إنه يريد أن يبنى إمبراطوريته الصغيرة فى عهد انقرضت فيه الإمبراطوريات. بل إن عناصر هذه الإمبراطورية تحت قبضة يده بالفعل : « جوديا وسماريا » والقدس وقطاع غزة والجولان. ومن يدرى ربما سيناء أو جزء منها على الأقل وليترك للمستقبل جنوب لبنان ـ كل ما عليه أن يضع هذه الأجزاء بعضها إلى جانب بعض وتصبح إمبراطوريته حقيقة واقعة. أيظن السادات ذلك الفلاح المصرى الساذج أنه يستطيع أن يسلبه حلمه الذى كاد يتحقق، وكل ما عاش وناضل من أجله مقابل خطاب ألقاه فى الكنيست ؟

كيف يخرج من مأزق المبادرة وكيف يستفيد منها فى نفس الوقت ؟ لماذا لا يحول الرصاص إلى ذهب ؟ لماذا لا يقلب الوضع على السادات ويستفيد من مبادرته فى أن يحتفظ بالأرض والسلام ـ على ما يفهمه ـ معا ؟

وتخيلت ما يدور فى رأس بيجن العبقرى الشرير ليحقق مآربه.

عزل مصر

أول الخطوات هو عزل مصر عن أشقائها فى العالم العربى عزلا تاما، والجو مهيأ لذلك نتيجة إقدام السادات على مبادرته دون مراعاة للدول العربية أو استشارتها سلفا

وردود الفعل العربية غاضبة ساخطة. إن مصر أقوى وأكبر الدول العربية وأكثرها خطرا على مخططاته التوسعية؛ فإذا خرجت من دائرة الدول العربية ونحيت جانبا فلن تشكل باقى الدول العربية خطرا عليه ولن تملك حراكا فعالا. ثم إن عزل مصر عن الدول العربية يقطع عليها الكثير من مقومات قوتها ويضعفها هى نفسها بالتالى.

فإذا نجح فى ذلك استطاع أن ينتقل إلى مرحلة أخرى بتحقيق سلام جزئى مع مصر أو صلح منفرد معها. ويتفرغ بعد ذلك فى هدوء لابتلاع وهضم الأراضى العربية الأخرى المحتلة وفى حوزته الورقة اللازمة لإجراء ذلك « سيناء ». وإلا فلماذا هذا التشدد الذى تضمنه المشروع الخاص بسيناء فى الإسماعيلية ؟ إن الحدود الدولية بين مصر وفلسطين معروفة ومحددة من آلاف السنين ولم تكن أبدا موضع مطالبة اليهود فى صلواتهم. صحيح أن تيودور هرتزل صاحب فكرة الدولة اليهودية قد حاول فى وقت ما بعد أن فشلت محاولاته مع السلطان العثمانى عبد الحميد فى الحصول على تصريح بالاستيطان اليهودى فى فلسطين. حاول أن يحصل فى سنة ١٩٠٢ على إذن من اللورد كرومر المندوب السامى فى مصر - وقت أن كانت تحت الاحتلال الانجليزى - بإقامة مستوطنات يهودية فى شرق سيناء لا طمعا فى سيناء فى حد ذاتها وإنما لتكون نقطة للقفز على الأراضى الفلسطينية المجاورة متى لاحت الفرصة لذلك. ولكن لم تنجح المحاولة.

إذن فلم تكن سيناء من أرض أجدادهم كل ما هناك أن موسى عبرها مع قومه ليصل إلى أرض « الميعاد » فى فلسطين، وإن كانت هناك نظرية يهودية تقول : أن كل أرض وطئها قدم يهودى فهى له.

كذلك لا يغيب عنه إن اقتطاع جزء من أرض مصر ليس فى مقدوره هضمه لأن مصر دولة قوية وستسترد أرضها إن عاجلا أو آجلا، حربا أو سلما بلا أدنى شك.

أما السبب فى التكالب على التمسك بالمستوطنات التى أقامتها إسرائيل فى سيناء فلا يعدو فى حقيقة الأمر إلا الخشية من أن يشكل انسحابهم منها سابقة يمكن أن تطبق فيما بعد على المستوطنات التى أقاموها فى الضفة الغربية وغزة.

كل ما على بيجن أن يفعله إذن هو كسب الوقت وتمييع المبادرة وإفراغها من مضمونها الكبير وجر مصر إلى متاهات التفاصيل وإلى جزئيات وقضايا فرعية والدخول فى مناقشات لا تنتهى واستغلال لهفة السادات على تحقيق أحلامه فى

السلام الشامل فى الحصول منه على مزايا وتنازلات صغيرة من هنا وهناك ولا تلبث أن تحدث شروخا صغيرة فى جدار المبادرة إلى أن يتصدع وينهار مع الوقت فى النهاية.

ألم يحصل من السادات فى أول لقاء فى القدس على وعد قاطع بأن تكون حرب ١٩٧٣ هى آخر الحروب بين مصر وإسرائيل دون التزام من قبله بشىء سوى استمرار التفاوض إلى أجل غير مسمى، ليتيح لنفسه الوقت لتدعيم مركزه فى الأراضى المحتلة سواء بزرع المزيد من المستوطنات فى تلك الأراضى أو غير ذلك.

ألم يتفق معه على أن يكون اجتماع اللجنة السياسية المصرية فى القدس ؟ ألم يتفق معه على إنشاء لجنة عسكرية تبحث الانسحاب من سيناء فى ثانى لقاء بينهما، ومن قبل أن تبدأ المباحثات وتوضع الأسس ؟

وضع متميز للجانب العربى

أما بالنسبة لنا فقد انتهى تفكيرى إلى أن المبادرة أوجدت وضعا متميزا للجانب العربى، وأن احتمالات أن يكتب للمبادرة النجاح فى آخر الأمر هى احتمالات طيبة، فقد أخرجت المبادرة الموقف العربى من الجمود الذى اكتنفه دائما برفض العرب ما كانت تلوح به إسرائيل من تفاوض مباشر معهم، وهو ما كان يصعب فهمه لدى العالم الخارجى، بزعم أن التفاوض المباشر مع إسرائيل يعنى الاعتراف بها فى حين أن الدول العربية تعتبرها دولة مزعومة وكأن هذا الوصف يلغى الحقيقة.

كانت إسرائيل تستغل هذا الموقف السلبى العربى فى إعداد الرأى العام لقبول الواقع وتعمل بشتى الوسائل على تثبيت سيطرتها على الأرض.

الخلاصة أن عامل الوقت أصبح فى صالح القضية العربية على عكس الحال قبل المبادرة ويخلق ضغوطا جديدة على الحكومة الإسرائيلية فى كل يوم وفى كل مكان. فقد تبنى العالم مبادرة السلام وتشبث بها، وبالذات الرأى العام الأمريكى، وهو المتعاطف مع إسرائيل دائما.

إن هذه التفاعلات انتقلت إلى داخل إسرائيل نفسها فقامت حركة « السلام الآن » ورفعت شعار « إن السلام أهم من الأرض » وقامت المظاهرات فى الشوارع تدعو الحكومة الإسرائيلية إلى عدم إضاعة الفرصة بأى شكل من الأشكال، ثم أخذت هذه

التفاعلات تتسع دوائرها حتى نفذت إلى داخل مجلس وزراء بيجن نفسه، فحدثت انقسامات بين الوزراء حول عدد من الموضوعات، من بينها إنشاء المستوطنات الجديدة ونشطت المعارضة الإسرائيلية تهاجم ذلك، وتهاجم تفسير الحكومة الضيق لقرار مجلس الأمن رقم « ٢٤٢ ».

بل انتقلت هذه الانفعالات إلى قلب المنظمات اليهودية والصهيونية فى الولايات المتحدة الأمريكية، وهى سند إسرائيل الفعال، وساعدها الأيمن. وقد خلقت هذه التفاعلات لنفسها قوة دفع ذاتية هائلة لا تقف عند حد، وعلينا أن نعمل على دفعها باستمرار ولا نسمح لها بالركود أبدا.

كان هذا هو تصورى عن المناخ الطيب الخصب الذى أوجدته المبادرة.

علامات الطريق

كان يشغل ذهنى أيضا أن مبادرة السادات لم تكن طرحا لموقف تفاوضى يقبل المساومة، ويتحمل التنازلات. كان العرض الذى أعلنه السادات من فوق منبر الكنيست وأمام العالم أجمع، تجميعا شريفا مخلصا للعناصر التى لا يمكن أن يتحقق سلام حقيقى بغير توافرها مجتمعة، بحيث يبدو أن اسقاط أى جزء منها أو تشويهه يؤدى إلى اختلال توازن العرض بأكمله وانهياره. قال السادات فى القدس :

- إنهاء الاحتلال الإسرائيلى للأراضى العربية التى احتلت عام ١٩٦٧ .
- توفير الحقوق الأساسية للشعب الفلسطينى، وحقه فى تقرير المصير بما فى ذلك حقه فى إقامة دولته.
- حق كل دول المنطقة فى العيش بسلام داخل حدودها الآمنة والمضمونة عن طريق إجراءات يتفق عليها تحقق الأمن المناسب للحدود الدولية بالإضافة إلى الضمانات الدولية المناسبة.
- تلتزم كل دول المنطقة بإدارة العلاقات فيما بينها طبقا لأهداف ومبادئ ميثاق الأمم المتحدة، وبصفة خاصة عدم الالتجاء إلى القوة وحل الخلافات فيما بينها بالطرق السلمية.
- إنهاء حالة الحرب القائمة فى المنطقة.

لم يخترع السادات هذا العرض، ولم يشكله من عندياته، ولم يأت به من فراغ، إنه هو ترجمة، وصياغة أمينة لأحكام وروح مبادئ القانون الدولى، وتطبيق لميثاق وقرارات الأمم المتحدة لحل النزاع العربى الإسرائيلى، وما ترتب عليه من مضاعفات.

لقد أكد قرار مجلس الأمن رقم (٢٤٢) - والذى قبلته الأطراف - أكد فى صدر ديباجته المبدأ الدولى - والذى لا استقرار فى العالم دون الالتزام به وتطبيقه - بعدم جواز الاستيلاء على الأرض عن طريق القوة - وهذا هو المدخل الحقيقى لأى سلام.

إذن فإن ما عرضه السادات كما أسلفت هو المنفذ إلى السلام الحقيقى الذى يستند إلى اقتلاع جذور الشر ومسببات التوتر والنزاع « فلا سعادة لأحد على حساب شقاء الآخرين ». كان عرضا مبنيا على أن الخط المستقيم هو أقرب الطرق وأنجحها. فلو كان السادات قد قصد بمبادرته طرح موقف تفاوضى يقبل الأخذ والرد لتقدم بها على أساس مختلف تماما، كأن يطالب بتسوية مثلا على أساس قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة فى نوفمبر ١٩٤٧ الذى يقسم فلسطين إلى دولة فلسطينية ودولة يهودية.

كل ما كان يحتاج إليه الطرف الآخر (إسرائيل) هو الشجاعة والإيمان بالعدالة و«ألا يطلب المرء لنفسه ما ينكره على الآخرين »، وأن يتخلى عن نظرية الغنائم والأسلاب. وأكثر من ذلك كان يحتاج إلى وضوح الرؤية وبعد النظر. وإذا كانت إسرائيل قد اختارت هذه البقعة فى قلب العالم العربى لتقيم دولتها، أفليس من الحكمة والمصلحة أن تعيش مع العرب فى سلام وطمأنينة وتعاون ؟ وأن تعتبر نفسها من دول المنطقة بدلا من أن تستمر فى دور الدخيل الغاصب المعتدى المدجج بالسلاح والذى لا يغمض له جفن خوفا من أن يسترد أصحاب الحق ما سلبه منهم ؟ وإلى متى تستطيع ذلك ؟.

لو توافر لإسرائيل هذا التفهم إذن لتلقفت حكومتها عرض السادات بالترحاب والبهجة ولم تترك هذه الفرصة الهائلة تفلت من بين يديها أو تحاول تشويه عظمتها وجلالها باختطاف عظمة من هنا وعظمة من هناك.

وخلصت من هذا التحليل إلى أن موقفنا يجب أن يظل ثابتا متمسكا بجميع عناصر هذه المبادرة وعدم تمكين حكومة بيجن من أن تجرنا بعيدا إلى متاهات ودروب فرعية تصرفنا عن إقامة بنيان السلام الحقيقى.

إذن فإن مجال التفاوض والمرونة - ولا أقول المساومة - يجب أن ينأى تماما عن الأرض والسيادة والحقوق المشروعة للشعب الفلسطينى ويتجه إلى ترتيبات الأمن وبناء التعايش والسلام ونحن قابلون لذلك بل وراغبون.

علاقة مصر بالعرب

الأمر الثالث الذى شغل تفكيرى فى تلك الفترة هو علاقاتنا بالدول العربية وبمنظمة التحرير الفلسطينية.

كانت الدول العربية بعد زيارة السادات للقدس قد انقسمت إلى ثلاث مجموعات. إحداها تضم الدول التى يمكن وصفها بأنها الأكثر راديكالية وهى سوريا والعراق والجزائر وليبيا واليمن الجنوبية وقد انضمت إلى هذه المجموعة منظمة التحرير الفلسطينية، وسمت هذه المجموعة نفسها « بجبهة الصمود والتصدى ». وقد اتخذت هذه المجموعة موقفا متطرفا معاديا لمبادرة السادات واعتبرتها خيانة للقضية العربية وسعيا من السادات وراء حل منفرد مع إسرائيل. وقد قامت مصر بقطع علاقاتها الدبلوماسية مع هذه الدول.

والمجموعة الثانية تعاطفت مع المبادرة وعلى رأسها المملكة المغربية - أو بالأحرى الملك الحسن الثانى - وهو الذى لعب دورا فى الاتصال السرى السابق على مبادرة السادات بين حسن التهامى ممثلا للسادات وموشى ديان ممثلا للحكومة الإسرائيلية والذى تم فى شهر سبتمبر (أيلول) سنة ١٩٧٧، على ما علمت فيما بعد وعلى ما سيأتى بيانه. وقد اتخذ السودان أو بالأحرى الرئيس جعفر نميرى والسلطان قابوس سلطان عمان بدورهما موقفا متعاطفا مع المبادرة كل لاعتباراته الخاصة به.

أما المجموعة الثالثة فكانت تتكون من المملكة الأردنية الهاشمية ومن المملكة العربية السعودية وباقى دول الخليج فيما عدا اليمن الجنوبية. وقد وقفت هذه المجموعة من مبادرة السادات موقفا سلبيا فلا هى هاجمتها ولا هى رحبت بها وآثرت التريث والانتظار ومتابعة ما سوف تسفر عنه التطورات، وقد احتفظت هذه الدول بسفرائها وعلاقاتها الدبلوماسية مع مصر فى بادئ الأمر.

وقد بدا لى بوضوح تام أنه من الصعب بل من المستحيل أن تستطيع مصر وحدها مواصلة السعى نحو السلام فى ظل هذا الانقسام والاضطراب والريب والشكوك التى

يموج بها العالم العربى. فاستمرارها سيؤدى حتما إلى تعميق هذه الخلافات والدخول فى مهاترات ومعارك جانبية والتشكيك فى كل ما تقوم به مهما خلصت نواياها وفى النهاية إلى عزلها عزلا تاما وفشلها فيما أقدمت عليه أو انحرافها عن ما استهدفته.

بمعنى أنه طالما أن مصر كانت تسعى إلى حل شامل للنزاع العربى الإسرائيلى فانها لا تستطيع الاستمرار فى ذلك وهى فى ثوب الفضولى الذى يعمل فى غيبة من أصحاب الشأن الآخرين بدون تفويض أو مباركة منهم بل وهم ينكرون عليها الحق فى ذلك. بناء على ذلك وببساطة شديدة فإن مصر ستصل إلى نقطة فى المباحثات مع إسرائيل تجد نفسها عاجزة عن التقدم نحو الحل الشامل ويكفى مثالا لذلك أن تحتج إسرائيل بأنها لا تستطيع التباحث مع مصر بشأن الانسحاب من الجولان - وهو جزء من التسوية الشاملة التى تستهدفها مصر - طالما أن سوريا صاحبة الشأن ترفض وتعارض قيام مصر بهذا المسعى.

وإذا استمرت مصر فى جهودها فى عزلة عن باقى العالم العربى فلابد أن تنتهى جهودها هذه إلى إحدى نتيجتين : الأولى فشل مبادرة السادات فى تحقيق أهدافها وانتهائها إلى لا شئ، ويكون ذلك نهاية السادات سياسيا - ويصبح شأنه شأن مقامر أو مغامر سلك طريقا من وحى أفكاره وقامر بحال غيره - وباءت مغامرته أو مقامرته بالفشل - ولكن الأمر لا يقتصر على ذلك وإنما يكون قد وضع العالم العربى فى موقف أسوأ بكثير من موقفه فيما لو لم تقم المبادرة وقد أصابه الانقسام العميق والتفكك. وأين هذا من اشتراك العرب متحدين فى مؤتمر جنيف الذى كان موشكا على الانعقاد قبل المبادرة تحت مظلة الأمم المتحدة وبرئاسة الدولتين العظميين.

أما النتيجة الثانية فهى أن يجد السادات نفسه منساقا رغم أنفه إلى حل منفرد أو حل جزئى مع إسرائيل لم ينشده. وهذا ما يقضى على فرص الحل السلمى الشامل ويهيئ لاسرائيل فرصة تحقيق أطماعها التوسعية ضاربة عرض الحائط باستقرار المنطقة ومستقبلها، وهو ما لا يمنع مصر إن عاجلا أو آجلا من أن تضطر إلى دخول حرب جديدة. فمصر شاءت أم أبت جزء رئيسى وحيوى وعضوى من الوطن العربى ولا تستطيع أن تظل بمنأى عن الأحداث والتطورات التى تجرى فيه من حولها.

إذن فلابد من العمل على توسيع نطاق المشاركة العربية فى جهود السلام بشكل أو بآخر. وقد وجدت بداية الخيط فى قرارات مؤتمر القمة العربية الصادرة فى الرباط فى

أكتوبر سنة ١٩٧٤ والتى كانت تتضمن الحل السلمى على أساس استعادة جميع الأراضى العربية المحتلة فى حرب سنة ١٩٦٧ وتحقيق حقوق الشعب الفلسطينى فى العودة إلى وطنه وتقرير مصيره. وكل ذلك طرحه السادات فى مبادرته.

وكان علينا كخطوة أولى أن نثبت للعالم العربى تمسكنا والتزامنا الكامل بتحقيق مقررات الرباط والتى كان خطاب السادات فى القدس يعكسها دون أية تنازلات. لابد أن نقنع العرب من خلال ممارستنا للمفاوضات مع إسرائيل بثبات هذا الموقف، ونعمل على استعادة ثقتهم بمصر بكافة السبل.

وكان من المستحيل ونحن فى هذه المرحلة الاقتراب من مجموعة جبهة الصمود والتصدى ومحاولة إقناعها بسلامة موقفنا ونوايانا، ومن باب أولى دعوتها لمشاركتنا. وكان يعنينى من بين دول هذه المجموعة سوريا بالذات باعتبارها إحدى دول المواجهة مع إسرائيل وحليفتنا فى حرب اكتوبر سنة ١٩٧٣، وثانيا منظمة التحرير الفلسطينية حيث إن حل المشكلة الفلسطينية كان لب الموضوع. وكان وضع المنظمة دقيقا للغاية وقد اضطرتها مبادرة السادات المفاجئة إلى الانضمام إلى جبهة الرفض إلا أن الاقتراب منها والدخول معها فى حوار لم يكن مغلقا كما كان الحال بالنسبة لسوريا وقتها.

واستقر تفكيرى على التركيز كخطوة أولى على دولتين عربيتين هما الأردن والسعودية. وكلتاهما على ما أشرت أخذتا موقفا محايدا من المبادرة وذات سياسات معتدلة. أما الأردن فلأنها من دول المجابهة ولاتصالها الجغرافى بالضفة الغربية التى كان قد ضمها الملك عبدالله إلى الأردن فى أعقاب حرب سنة ١٩٤٨ ولأنها ذات دور رئيسى فى أية تسوية خاصة بحل المشكلة الفلسطينية. والسعودية بوزنها الدولى وامكاناتها وعلاقاتها الخاصة بمصر وبما لها من مكانة فى العالم العربى وتأثير على دُوَله.

دور الولايات المتحدة

الأمر الرابع : هو أن نعمل على أن تقوم الولايات المتحدة بدور نشيط فى المباحثات، وكان تفكيرى فى ذلك يستند إلى أن الولايات المتحدة إحدى الدولتين العظميين المقرر عقد مؤتمر جنيف للسلام تحت رئاستهما، صحيح أنها منحازة إلى إسرائيل انحيازا يكاد يكون أعمى وأنها ملتزمة بالدفاع عن أمنها وسلامتها، ولكن كان هناك فارق بين

دفاعها عن أمن إسرائيل فى حدود ما قبل حرب ١٩٦٧ وبين حماية احتلال إسرائيل غير الشرعى لأراضى الدول العربية الأخرى والناتج عن تلك الحرب.

ومن الناحية الثانية فإن للولايات المتحدة مصالح حيوية فى العالم العربى وفى منطقة الشرق الأوسط ويكفى الإشارة إلى أهمية استمرار تدفق بترول الشرق الأوسط إليها وإلى حلفائها الأوروبيين واليابانيين. وخير ضمان لهذه المصالح هو استقرار المنطقة ولن يتأتى هذا فى رأيى إلا عن طريق حل النزاع العربى الإسرائيلى حلا شاملا وعادلا.

ومن الناحية الثالثة كانت للولايات المتحدة مواقف رسمية معلنة فيما يتعلق بأسس حل النزاع العربى الإسرائيلى مثل الانسحاب وعودة اللاجئين واستنكار إقامة المستوطنات. وكنت أعول على مطالبة الولايات المتحدة بتأكيد التزامها بهذه المواقف فى أية تسوية ومطالبتها بتنفيذها وتطبيقها.

كذلك كنت أجد شيئا من الحقيقة فيما كان يردده السادات دائما من أن ٩٠٪ من أوراق اللعبة فى يد الولايات المتحدة. حيث تعتمد إسرائيل عليها كليا من الخبز إلى الصاروخ، والمفروض أن يشكل ذلك للولايات المتحدة قوة تأثير هائلة على إسرائيل، ولا أقول قوة ضغط.

وبالتوازى مع ذلك كنت أرى وجوب تحقيق شئ من التوازن فى علاقتنا المتدهورة مع القوة الأخرى « الاتحاد السوفيتى ». فقد مرت بنا تجربة التعامل مع إحدى الدولتين العظميين عندما قطع جمال عبد الناصر العلاقات الدبلوماسية مع الولايات المتحدة إثر حرب يونيو ١٩٦٧، ولم يخدمنا ذلك فى شىء.

وأذكر عندما كنت سفيرا لمصر فى بون من ١٩٧٣ حتى ١٩٧٧ أن ذكرنى أكثر من مسؤول ألمانى بطريقة غير مباشرة ـ عندما كان السادات يغالى فى هجومه على الاتحاد السوفيتى بشكل جارح ـ « بأننا ـ ألمانيا الاتحادية ـ دولة صغيرة، ولا قبل لنا باستعداء أى من الدولتين الكبيرتين. وبالنسبة للاتحاد السوفيتى فرغم أن لنا كل المبررات لكراهيته وعداوته حيث كان هو المخطط لتقسيم ألمانيا، ورغم أنه يشكل الخطر الأكبر علينا إلا أننا نتعامل معه فى كل المجالات الدبلوماسية والاقتصادية والتجارية والثقافية، ونحن لا ننحاز له، ولكننا لا نستفزه ونحافظ على مصالحنا عن طريق الحوار معه ».

ولم يكن هذا هو حال مصر مع الاتحاد السوفيتى، فقد كان له عندنا رصيد ضخم فى تأييد قضايانا سياسيا وعسكريا منذ عام ١٩٥٦، بل إننا دخلنا حرب ١٩٧٣ بالسلاح السوفيتى، ولا أدعى أنه لم يكن له مآرب ليست على هوانا، ولكن هذا هو شأن الدول الكبرى. وماذا جنينا من الولايات المتحدة التى ظلت تساند إسرائيل رغم عدوانها المستمر وتزودها بالسلاح والمال والتأييد ؟

لقد قام السادات بإنهاء العلاقة الخاصة التى كانت قائمة بين مصر والاتحاد السوفيتى، عندما طلب منه سحب خبرائه العسكريين وغيرهم فى ١٩٧٢، واستجاب الاتحاد السوفيتى لذلك فى هدوء وبدون تعقيدات، فما جدوى استعدائه واستفزازه بعد ذلك ؟ والحقيقة أن السادات ـ كما أخبرنى مرارا ـ كان يشعر أن الاتحاد السوفيتى يعاديه شخصيا منذ البداية، إذ كان يأمل أن يخلف عبد الناصر بعد وفاته على صبرى الذى كانت تربطه علاقات تفاهم بالاتحاد السوفيتى. ولكن على صبرى كان فى السجن وكان السادات قد وطد مركزه رئيسا لجمهورية مصر مما كان يوجب عليه أن ينحى جانبا مشاعره الشخصية.

وتحقيق التوازن فى علاقاتنا بكل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى كان يقتضى فى رأيى معالجة فورية على أساس الخروج بالتدريج من مرحلة الفتور الشديد وتبادل الهجوم علنا من الجانبين إلى مرحلة الدخول فى حوار هادئ معه، وكانت هناك اعتبارات توجب ذلك منها:

١– دور الاتحاد السوفيتى الحتمى فى أية تسوية لقضية الشرق الأوسط. فمن الصعب تصور إمكانية تحقيق تسوية لا ترضى عنها إحدى الدولتين العظميين.

٢– موقف الاتحاد السوفيتى الثابت المؤيد للموقف العربى فى وجوب الانسحاب الإسرائيلى من جميع الأراضى المحتلة وحقوق الشعب الفلسطينى فى تقرير مصيره وإقامة دولته.

٣– تجنب الاستقطاب الدولى للدول العربية سواء من قبل الاتحاد السوفيتى أو الولايات المتحدة الأمريكية على حد سواء.

٤– دور الاتحاد السوفيتى فى المنطقة المحيطة بنا فى أفريقيا والعالم العربى.

٥– الحد من الجهود السوفيتية الرامية إلى عزل مصر والتأثير على أوضاعها الداخلية.

٦- استخدام تحسن علاقاتنا مع موسكو للضغط على الولايات المتحدة الأمريكية.

٧- تثبيت مركزنا المتميز داخل مجموعة عدم الانحياز وعدم اهتزاز صورتنا لديها.

ورأيت أن بداية ذلك يمكن أن تتم بعودة السفير المصرى إلى موسكو ليبدأ اتصالاته بكبار المسؤلين فيها. وكان السادات قد قام بسحب السفير المصرى فيها عقب مبادرته واتخاذ الاتحاد السوفيتى موقفا معاديا لها، بنفس المنطق الذى قطع به علاقاتنا الدبلوماسية بسوريا وباقى الجبهة الرافضة للمبادرة.

الدور الأوروبى

بالإضافة إلى ما سبق هناك المجموعة الأوروبية والتى حققت سياستنا فيها نجاحا ملموسا. إذ تحولت أوروبا بعد حرب سنة ١٩٧٣ واتخذت مبادرات ومواقف أوضحت تفهم النزاع العربى الإسرائيلى والأساس الذى يجب أن تقوم عليه التسوية بالانسحاب الإسرائيلى من الأراضى المحتلة وإقرار حقوق الشعب الفلسطينى المشروعة. وقد كانت إسرائيل ومازالت تسعى بكل السبل إلى تحييد موقف أوروبا ومنعها من التدخل بشكل أو بآخر فى اقتراح الحلول. ولكن أوروبا أدركت فى ذكاء أن مصالحها الحيوية فى منطقة الشرق الأوسط لن يحميها إلا سلام عادل شامل فى المنطقة يولد الاستقرار فى ربوعها.

وكان كل ما علينا أن نتابع حثها على القيام بدور إيجابى فى التوصل إلى سلام.

كذلك كانت هناك مجموعة عدم الانحياز والتى كنا نتمتع فيها بموقف متميز ومكانة خاصة منذ تشكيلها فى مؤتمر باندونج سنة ١٩٥٤ وكان عبد الناصر وتيتو ونهرو روادها الأوائل. وكانت مجموعة عدم الانحياز قد تبنت سياسة مؤيدة تماما للموقف العربى ولعبت دورا نشيطا فى القرارات الصادرة عن منظمة الأمم المتحدة الخاصة بالانسحاب الإسرائيلى وإقرار حقوق الشعب الفلسطينى. وكان تحقيق التوازن فى علاقاتنا بالقوتين العظميين يساعدنا على تنشيط اتصالاتنا بدول هذه المجموعة.

كذلك كان لنا رصيد سياسى كبير فى أفريقيا حيث كانت مصر من أكبر وأهم مناصرى حركات التحرير فى أفريقيا ومحاربة التفرقة العنصرية بجميع صورها. وفى أعقاب حرب ١٩٦٧ سارعت الدول الأفريقية جميعا بقطع علاقاتها الدبلوماسية

بإسرائيل الواحدة تلو الأخرى. وتأثر مركز إسرائيل فى القارة بعد أن كانت قد حققت لنفسها فى الدول الأفريقية مركزا ممتازا.

رفض أى مساومة

والخلاصة أننى انتهيت إلى أن يكون موقفنا فى المباحثات مع إسرائيل مبنيا على الأسس والأساليب التالية :

١- رفض أية مساومة فيما يتعلق بالانسحاب الإسرائيلى من الأراضى العربية المحتلة (سيناء والجولان والضفة الغربية وقطاع غزة) أو فى حقوق الشعب الفلسطينى المشروعة فى تقرير مصيره.

٢- إن مجال المفاوضة والمرونة هو فى ترتيبات الأمن للطرفين بما فى ذلك الضمانات بكل أنواعها.

٣- فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية نوضح أننا لسنا الطرف الوحيد وأنه يجب إدخال الأطراف الأخرى فى المباحثات، ولا يمكن اتخاذ قرار نهائى إلا فى حضور الأردن وممثلى الشعب الفلسطينى.

٤- العمل بكل الوسائل على استعادة وحدة الصف العربى.

٥- قيام أمريكا بدور نشيط فى المباحثات يتفق مع مواقفها المعلنة من عناصر التسوية ويلتزم بتحقيق التسوية العادلة.

٦- العمل على وقف التدهور فى علاقاتنا بالاتحاد السوفيتى وتحقيق نوع من التوازن فى علاقاتنا بواشنطن وموسكو.

٧- تفادى الانزلاق فى قضايا فرعية أو جزئية قبل التوصل إلى إعلان مبادئ يحقق أهدافنا.

٨- تنشيط اتصالاتنا بالمجموعات الدولية والإقليمية فى أفريقيا وآسيا وأوروبا وأمريكا اللاتينية والدول الاسلامية والعمل على محاصرة إسرائيل بالمؤيدين لقضيتنا وتحييد مؤيديها.

٩- إبراز أننا لا نغلق الباب أمام السلام وأن الجانب الإسرائيلى هو الذى يسعى إلى القضاء على المبادرة برفضه التجاوب.

١٠- دفع وتشجيع عجلة التفاعلات الدولية الإيجابية التى خلفتها مبادرة السادات فى الرأى العام العالمى وفى داخل إسرائيل نفسها. ومواصلة استثمار المبادرة حتى تحقق غايتها النهائية وهى إجبار إسرائيل على التسليم بالمطالب التى نراها ضرورية ولا غنى عنها فى إقامة السلام.

العامل الغائب

وارتاحت نفسى إلى علامات الطريق هذه وعزمت على السير على هداها، والأمر فى نظرى لن يخرج عن أحد فرضين: الأول أن تحقق مبادرة السادات غايتها فى تحقيق السلام العادل الشامل بكل ما يعنيه ذلك والثانى أن تفشل المبادرة، وليس من سبب يدعو إلى فشلها إلا واحد هو أن يتشبث الطرف الآخر بالأرض التى استولى عليها عنوة وأن يهدر حقوق أصحابها وعليه تقع المسؤولية، وعلى الباغى تدور الدوائر.

أما نحن العرب فالمستقبل لنا والبدائل أمامنا عديدة ولن يسكت صاحب حق عن استرداد حقه إن سلما وإن حربا.

وغاب عنى وقتها أن هناك عاملا ليس فى الحسبان يعمل على تقويض المبادرة وهدم أركانها وكان هذا العامل المجهول آخر ما يخطر على التصور، كان أنور السادات نفسه.

وأسارع فأقول أن السادات لم يقصد بالطبع فشل مبادرته وإنما حدث ذلك لفرط تلهفه وتعجله فى أن يتحقق لها النجاح.

كان قد وقع فريسة لانفعالات لا يتحملها بشر ووقوع مبادرته ما بين تعلق الملايين بالأمل فى السلام، وشراسة هجوم أشقائه العرب عليه، وتصلب بيجن وغدره، وخروجه من عرينه العربى، وتفريطه فى دوائر النفوذ المؤثرة، وانسياقه وراء السراب الأمريكى الخداع.

الشرط الوحيد

في الأيام التالية لاجتماع الإسماعيلية توجهت إلى مكتبى بوزارة الخارجية وشرعت فى ترتيب أعمالى فاتخذت بعض القرارات الإدارية واجتمعت والدكتور بطرس غالى وزير الدولة للشؤون الخارجية وكانت معرفتى به، مجرد معرفة سطحية اجتماعية.

ومن أول لقاء غمرنا نحن الاثنين شعور متبادل بالارتياح للعمل معا وان اختلفت وجهات نظرنا بشأن بعض الموضوعات وأسلوب معالجتها وهو أستاذ للقانون الدولى غزير الإطلاع غزير الإنتاج وله صلات دولية واسعة بين العاملين فى هذا المجال. كان اقترابه من المسائل أكاديميا تغلب عليه الناحية النظرية ولكنه كان مرنا فى الحديث يتمتع بظل خفيف وروح مرحة.

واعتدنا أن نلتقى يوميا فى مكتبى ولو لدقائق معدودة نتناول فيها بعض الموضوعات أو نقضيها فى حديث خفيف يسرى عن نفسينا من عناء الإرهاق والتوتر.. كذلك اجتمعت بكبار موظفى الوزارة واخترت مجموعة تختص بمعالجة كل ما يتعلق بالمبادرة والمباحثات.

لست تابعا لأحد..

كذلك قابلت مجموعة من السفراء العرب الذين لم نقطع علاقاتنا بدولهم وبعض ممثلى منظمة التحرير الفلسطينية وبعض السفراء الأجانب.

وأذكر وقتها أن « هيرمان أيلتس » السفير الأمريكى اتصل بى تليفونيا وسأل إن كان بإمكانه زيارتى بعد ساعة وقد وافقته على ذلك.. وعندما حضر، كان أول ما قاله عند جلوسه إنه قادم من عند الرئيس السادات الذى طلب منه مقابلتى للتعارف.. وأنه قال له إننى ولد من أولاده..

لم يعجبنى ذلك التعبير من السادات ولم يعجبنى أكثر ترديد السفير الأمريكى له على مسمع منى.. فبادرته بقولى : لقد كنا زملاء فى السجن، وإنى لم أكن تابعا لأحد، ولن أكون أبدا.

اعتذر أيلتس قائلا : إنه لم يقصد إساءة، فأجبته بأنى فقط أردت إيضاح الأمور من البداية وقد كانت تلك بداية علاقة عمل بيننا لم تلبث أن تحولت إلى صداقة.

وكان أيلتس دبلوماسيا محنكا من الطراز الأول يتمتع بالذكاء والمعرفة ويتسم بالصراحة وقوة الحجة.. ودقة التعبير، وكان قد أمضى طوال حياته الدبلوماسية فى بلدان الشرق الأوسط حيث عمل فى العراق وإيران ثم عمل سفيرا لدى المملكة العربية السعودية، ومنها عين أول سفير للولايات المتحدة فى مصر بعد سبع سنوات من انقطاع العلاقات الدبلوماسية بينهما منذ عام ١٩٦٧.. وكان عند لقائى به قد أمضى ثلاث سنوات فى القاهرة وكون علاقات ضخمة وحضر اتفاقيات فك الاشتباك.

السادات يبرر مبادرته ..

فى ٢ يناير (كانون الثانى) ١٩٧٨ سافرت إلى أسوان لمقابلة الرئيس السادات الذى ذهب إليها مباشرة بعد انتهاء مباحثات الإسماعيلية فى ٢٥ ديسمبر (كانون أول) ١٩٧٧ وكنا فى انتظار وصول الرئيس كارتر يوم ٤ يناير (كانون الثانى) ـ للاجتماع بالرئيس السادات ـ وهو فى طريق عودته إلى واشنطن بعد زيارته الرسمية للهند وبعض الدول الأخرى.

وفى ظهر اليوم التالى توجهت إلى استراحة السادات بالقرب من خزان أسوان وهى فيلا بسيطة تطل على منظر بديع للنيل والحقول وتحيطها حديقة رائعة مزروعة بالنباتات الاستوائية.

كان السادات يقابل وفدا عسكريا فرنسيا يزور مصر فحضرت المقابلة التى لم تلبث أن انتهت. فصحبنى الرئيس إلى مكان جانبى فى الحديقة حيث جلسنا ثم بدأ يتحدث

باسهاب عن الأسباب التى دفعته إلى مبادرته، وسفره للقدس بعد أن أصابه اليأس من إمكان التوصل لموقف مشترك يدخل به العرب مؤتمر جنيف، وأفاض الرئيس فى الحديث عن حرب أكتوبر (تشرين الأول) سنة ١٩٧٣ وكيف أعد لها ونسق مع الرئيس الأسد ومع الملك فيصل.

وتكلم بمرارة عن الأسد شريكه فى الحرب وذكر أنه غشه، وأنه دخل الحرب على أساس أن تستمر لمدة ٤٨ ساعة على الأكثر.. وهو الوقت الكافى للجيش السورى لاسترداد الجولان بعد مباغتة إسرائيل بالحرب وانشغالها بالقتال على الجبهة المصرية، ثم يطلب وقف إطلاق النار عن طريق الاتحاد السوفيتى، ويكون قد حل مشكلته فى استرداد الجولان غير حافل بما يجرى لمصر (شريكته فى الحرب). وذكر أن الاتحاد السوفيتى كان متواطئا مع الأسد فى هذا المخطط وأن أغلب الخسائر التى تكبدها الجيش المصرى حدثت خلال الهجوم الذى قام به الجيش لرفع العبء عن الجيش السورى عندما قام الجيش الإسرائيلى بهجوم مضاد على سوريا.

كذلك تحدث عن الأوضاع الصعبة التى ورثها عن عبد الناصر.. وكيف كان الاتحاد السوفيتى يعمل بكل الوسائل على فشله وهدمه، إذ كان يسعى إلى أن يخلف على صبرى جمال عبد الناصر فى رئاسة الجمهورية، وكيف أنه لم يحقق شيئا فى أربع زيارات لموسكو، وأن الاتحاد السوفيتى كان يماطل فى تزويده بالأسلحة لتعويض ما فقدته مصر منها فى حرب أكتوبر (تشرين الأول).

وقال إن حرب سنة ١٩٧٣ قد أعدت ومهدت الطريق للسلام بعد أن استرد العرب كرامتهم وثقتهم فى أنفسهم وبعد أن أدركت إسرائيل كذب أسطورة أن الجيش الإسرائيلى لا يهزم، وخطأ نظرية الحدود الآمنة.. وذكر أنه دعا لمؤتمر سلام دولى، والجيش المصرى فى أوج انتصاره وأنه آن لمصر ان تنعم بالسلام بعد طول ما عانت على مدى ثلاثين عاما من التضحيات البشرية والاقتصادية إلا أنه أدرك بالتجربة أنه لا سبيل إلى إجماع الجانب العربى على موقف واحد يدخل به مؤتمر جنيف، حيث كانت تمر أشهر دون الاتفاق بينهم على النواحى الإجرائية فماذا يكون عليه الحال عند بحث الأمور الموضوعية. وأشار إلى الجهود التى بذلها الرئيس كارتر لعقد المؤتمر دون أية نتيجة، وكيف أن الرئيس كارتر كتب له فى النهاية بأنه يأسف إذ استنفد كل ما يمكن من جهد فى سبيل عقد المؤتمر، وأنه أوشك على اليأس من تحقيق انعقاده فى النهاية

وكيف أنه رد على كارتر برسالة ذكر فيها أنه يفكر فى القيام بعمل جرئ BOLD AC-TION لتحريك الأمور من حالة الركود التى تردت إليها.

وأن ماهية هذا العمل الجرئ لم تكن قد تبلورت فى تفكيره بعد، وأنه فكر فى عدة وسائل منها أن يدعو رؤساء الدول الخمس الكبرى الأعضاء الدائمين فى مجلس الأمن للاجتماع فى القدس ليبحثوا إنهاء الحرب وإقامة السلام بين الأطراف المعنية وليضعوا كل ضمانات الأمن الكفيلة بتحقيق السلام.

إلا أنه عدل عن هذه الفكرة خوفا من أن يفشلها الاتحاد السوفيتى أو الصين الشعبية بعدم الحضور أو باتخاذ مواقف متشددة غير بناءة.

وفجأة خطرت له فكرة زيارة إسرائيل والالتقاء بالإسرائيليين فى مواجهة مباشرة وعرض السلام عليهم، وتذكر أن الرئيس الرومانى شاوشيسكو كثيرا ما اقترح عليه أهمية المفاوضات المباشرة مع إسرائيل للخروج من الدائرة المغلقة التى التزمها العرب من البداية فما كان منه إلا أن قام بزيارة شاوشيسكو لسؤاله عن شخصية مناحم بيجن وهل هو « رجل قوى » و « قادر على تحقيق السلام » .. فلما أكد له شاوشيسكو ذلك عزم أمره على الذهاب إلى القدس والقيام بمبادرته.

الثعبان الغادر..

وقارن لى السادات بين شخصيته وشخصية جمال عبد الناصر فقال:

إن عبد الناصر لم يكن يستطيع العيش دون توتر، وإنه لم يكن يهتم بمباهج الحياة ولا يقدر ما وهبنا الله من نعم وإنه كان دائم الشك فى كل الناس وفى أعوانه، وشعاره الشك فى الأشخاص حتى يثبت له العكس، بينما السادات يكره العيش فى توتر ولا يستطيع التفكير إلا فى جو هادئ ومن هنا كان حبه للريف وابتعاده عن القاهرة وإقامته فى القناطر الخيرية أو غيرها من المناطق الهادئة ذات الطبيعة الجميلة وأنه يقدر الجمال فى كل صوره ويشكر الله على نعمه.. ويحب الناس ومبدؤه أن يثق فيهم إلى أن يثبت العكس على خلاف عبد الناصر.

ثم حدثنى عن أعضاء مجلس الأمن القومى - الذى سأصبح من أعضائه من الآن - وامتدحهم واحدا واحدا مبينا ما يتميز به كل منهم.

وأضاف الرئيس في نهاية حديثه أنه كان قد اتفق مع بيجن أثناء زيارة القدس على السماح لبعثة إسرائيلية بالحضور إلى القاهرة لتتولى نقل الاتصالات بين الجانبين وطلب منى اعتبار الموضوع (سرى للغاية).

وجاء دورى فى الكلام فقلت ضاحكا : « إنى أرى بادئ ذى بدء أن كل قاعدة لها استثناء وإنى أرجو أن يستثنى مناحم بيجن من مبدئه - فى أن يثق فى الناس حتى يثبت العكس - وحدثته أننى فى اجتماعات الإسماعيلية كنت أراقب عن كثب مناحم بيجن وأحاول أن أتعرف على ملامح شخصيته وتفكيره وأسلوبه وأنه تولدت لى قناعة تامة بأنه ثعبان غادر وهو كذاب مزيف للتاريخ والوقائع وأنى كنت أراقبه هو نفسه (أى السادات) أثناء الاجتماعات ولاحظت أنه يعامله برقة ومجاملة وكأنه « جنتلمان » وفى اعتقادى أن هذا الأسلوب لا يجدى معه بل إنه يحاول استغلال ذلك أسوأ الاستغلال، وأن انطباعى أنه يحاول قلب المبادرة التى قام بها السادات وتحويل مسارها أملا فى أن يجرنا إلى صلح منفرد مع إسرائيل وإلى الإيقاع بيننا وبين الدول العربية والفلسطينيين، وذكرت أن هؤلاء مهما كانت سلبياتهم فهم منا وعلينا وهم مجال مصر الحيوى وأنه بالتالى يجب معاملته بكل الحذر وعدم الثقة أو الانسياق إلى حيله فى جرنا إلى دروب فرعية.

ثم عرضت عليه باستفاضة ما انتهى إليه تفكيرى فى الأسس والأسلوب الذى نتبعه فى ممارستنا للمباحثات والاستفادة من الأثر الإيجابى الذى حققته مبادرته فى الرأى العام الدولى وتعزيز علاقاتنا بالدول جميعا.

وقد أبدى السادات موافقته التامة على كل ما قلت، وقال إنه لا يشك فى أن مبادرته ستنجح وتحقق أغراضها.

وأثناء حديثى أشرت إلى أننى كنت أفضل لو لم يوافق السادات على تشكيل اللجنة العسكرية برئاسة وزيرى دفاع البلدين لبحث الانسحاب من سيناء، إذ أن ذلك سابق لأوانه ويثير شكوك الدول العربية فى أكثر ما نخشاه، وهو أن ينتهى الأمر إلى صلح منفرد مع إسرائيل. وهنا قال لى السادات إنه لا يستطيع أن يربط مصير مصر بمواقف الدول العربية وشكوكها وترددها وعجزها عن اتخاذ القرارات، وأن مصر قد تحملت العبء الأكبر من التضحيات ولا تسمح حالتها بالاستمرار فى هذه الأوضاع إلى أجل غير مسمى.

فقلت له إننى أتفهم ذلك، فأنا مصرى قبل كل شىء، ولكنى أرى أن انزلاقنا إلى حل منفرد لن يحقق لنا شيئا يذكر فلابد من التوصل إلى تحقيق السلام الشامل الدائم كما طرحه فى مبادرته وإلا فستبقى المنطقة فى دوامة التوتر وعدم الاستقرار ولن يجدى ذلك مصر نفعا إذ ستضطرها الظروف إن عاجلا أو آجلا إلى الدخول فى حرب جديدة.

موافقة أم تسويف ؟

قلت للسادات : إنى أرى أن نعلق بحث الانسحاب من سيناء حتى يتم لنا التوصل مع إسرائيل إلى إعلان مبادئ يؤكد اعترافها بحق الشعب الفلسطينى فى تقرير مصيره والالتزام بالانسحاب من الأراضى المحتلة وفقا للقرار ٢٤٢ لمجلس الأمن، وفى هذا الشأن يعنينى فى المقام الأول الالتزام بالانسحاب من الضفة الغربية وغزة وهما بيت القصيد بالنسبة لخطط إسرائيل التوسعية، ولا أعتقد أن الانسحاب من سيناء أو الجولان يشكل مشكلة كبيرة.

إذا حدث ونجحنا فى التوصل إلى إعلان المبادئ هذا فيحسن أن نسجله فى الأمم المتحدة وأن تسجله الولايات المتحدة بضمانها، فإذا تقاعست الدول العربية الأخرى بعد ذلك عن الانضمام إلينا فى مسيرة السلام فهذا شأنها وعندئذ نكون فى حل من المضى فى تنفيذ الانسحاب الإسرائيلى من سيناء مع متابعة التزامنا بتنفيذ إعلان المبادئ واستمرار تضامننا مع باقى الدول العربية.

وصارحت السادات بأن هذا هو الشرط الوحيد الذى أستطيع الاستمرار فى العمل معه بموجبه.. وقد وافقنى الرئيس السادات على ذلك، وقال إن هذا هو فكره بدوره فأحسست بارتياح عميق.

وقبل انصرافى قلت للرئيس السادات لقد تعددت تصريحات بيجن أمام الكنيست فى إسرائيل بعد اجتماع الإسماعيلية بأن وزارة الخارجية المصرية تعمل على عرقلة جهود السلام وتقف موقفا مخالفا لموقف الرئيس السادات من المباحثات، وأضفت أننى سأصدر تصريحا يوضح أن مصر تتكلم بصوت واضح واحد وأنه لا توجد اتجاهات مختلفة أو متعارضة داخل الوفد المصرى المفاوض.

ورد السادات على قائلا: « لا لا.. لا تفعل.. سيبه يهوهو زى الكلب.. ولا تلق بالا إلى هذه التفاهات ».

بعد هذه الواقعة بأكثر من سنة لفتت نظرى فقرة وردت فى كتاب « سنة حمامة السلام » بقلم الصحفى الإسرائيلى (إيتان هابر) وفى الفصل الخاص بمباحثات الإسماعيلية حيث ذكر فى ص ٢٣٦ أنه بعد انتهاء المباحثات.. طلب السادات من بيجن أن يبقى معه منفردا لمدة دقائق وفى لهجة يشوبها الاعتذار شرح لرئيس وزراء إسرائيل أن معاونيه فى وزارة الخارجية هم الذين ألحوا عليه فى ألا يتنازل بوصة واحدة فيما يتعلق بحق تقرير المصير للشعب الفلسطينى.

قابلت فانس..

فى اليوم التالى ٤ يناير (كانون الثانى) ١٩٧٨ توجهت مع الرئيس السادات إلى مطار أسوان لنكون فى استقبال الرئيس كارتر عند هبوط طائرته قادما من الهند فى طريقه إلى واشنطن. كان الغرض من زيارة كارتر هو إعطاء دفعة للمباحثات المصرية الإسرائيلية بعد الفشل الذى منيت به محادثات الإسماعيلية وإظهار تمسك الولايات المتحدة بالتسوية السلمية للنزاع العربى الإسرائيلى، ورفع روح السادات المعنوية. وأهم ما تمخضت عنه هذه الزيارة هو الإعلان الذى أذاعه كارتر فى مطار أسوان قبل أن يستقل الطائرة عائدا إلى الولايات المتحدة والمتضمن الموقف الأمريكى وأهم ما جاء فى هذا الإعلان الذى عرف فيما بعد « بصيغة أسوان » هو الفقرة الثالثة الخاصة بالقضية الفلسطينية التى نصت على أنه « يجب أن يكون هناك حل للمشكلة الفلسطينية من جميع وجوهها، ويجب أن يتضمن الحل الاعتراف بالحقوق الشرعية للشعب الفلسطينى وتمكين الفلسطينيين من المشاركة فى تقرير مصيرهم ».

وأهم ما يميز هذه الصيغة هو تبلور موقف الولايات المتحدة من موضوع حقوق الشعب الفلسطينى بعد أن ظل هذا الموقف يتذبذب صعودا وهبوطا منذ تولى كارتر الرئاسة، وبالنسبة لنا فقد اعتبره خبراء الوزارة صيغة تمثل الحد الأدنى الذى يمكن أن تقبله مصر وأنها تؤدى إلى تأكيد حق الشعب الفلسطينى فى تقرير مصيره.

وفى أثناء زيارة كارتر الأخيرة لأسوان قابلت لأول مرة سيروس فانس وتبادلنا الحديث نحو عشر دقائق. وقد تركت شخصيته فى نفسى أثرا طيبا للغاية أحسست أنه شخص شريف نظيف ذكى.. حديثه واضح لا التواء فيه والتفاهم معه سهل وقد أكدت لى الأيام هذا الانطباع ولا أزال أكن له كل الود والصداقة.

هل تخاف الذهاب إلى القدس ؟

في ٢١ ديسمبر (كانون الأول) سنة ١٩٧٧ زارني السفير الأمريكي هيرمان أيلتس وقدم لي هدية السنة الجديدة، وهي عبارة عن مقترحات إسرائيل لجدول أعمال اجتماعات اللجنة السياسية، وكان قد اتفق على أن تجتمع اللجنة في القدس في منتصف شهر يناير، وقد اشتملت المقترحات الإسرائيلية على النقاط التالية :

١- وضع المستعمرات الإسرائيلية شرق خط العريش - رأس محمد (وهي المستوطنات التي أقامتها إسرائيل في سيناء بعد احتلالها لها في سنة ١٩٦٧).

٢- مبادئ معاهدة سلام حول (جوديا وسماريا) وقطاع غزة على أساس مشروع الحكم الذاتي (الذي قدمه بيجن في الإسماعيلية).

٣- العناصر التي تتضمنها معاهدة السلام.

وفي اليوم التالي ١ يناير (كانون الثاني) ١٩٧٨ أرسلنا لإسرائيل مشروعنا لجدول أعمال اللجنة السياسية عن طريق السفارة الأمريكية وقد تضمن النقاط التالية :

١- إنهاء الاحتلال الإسرائيلي للأراضي العربية المحتلة منذ سنة ١٩٦٧.

٢- تحقيق تسوية عادلة للمشكلة الفلسطينية بجميع جوانبها على أساس حق تقرير المصير وذلك خلال مباحثات تشترك فيها مصر والأردن وإسرائيل وممثلو الشعب الفلسطيني.

٣- ضمان السلامة الإقليمية والاستقلال السياسى لكل دولة فى المنطقة عن طريق إجراءات يتفق عليها بين الأطراف على أساس متبادل.

ونظرة إلى مقترحات كل من الجانبين، تكفى لبيان الهوة الشاسعة التى تفصل بين الطرفين، والأهم من ذلك توضح المنطلق والهدف الذى يسعى كل منهما إليه : إسرائيل تسعى إلى ضم الأرض المحتلة وإضفاء شعار من الشرعية على احتلالها غير المشروع فى شكل معاهدة ومصر تسعى إلى إقامة سلام مبنى على العدل واحترام الحقوق وردها إلى أصحابها عن طريق اقتلاع جذور ومسببات النزاع.

وقد رفضنا بطبيعة الحال المقترحات الإسرائيلية، وبدورهم رفضوا مقترحاتنا وظلت المشروعات لجدول الأعمال تتبادل بين الطرفين عن طريق سفارتى الولايات المتحدة فى القاهرة وتل أبيب. وكانت تتضمن تعديلات فى الشكل والصياغة دون مساس بالجوهر والموضوع.

عندئذ تدخلت الولايات المتحدة فتقدمت بمشروع جدول أعمال لاجتماعات اللجنة السياسية سلمه السفير الأمريكى بالقاهرة إلى الرئيس السادات مباشرة فى ١٥ يناير (كانون الثانى) ١٩٧٨ وقد قبله السادات دون نقاش إلا أن إسرائيل أثارت زوبعة وتباطأت فى قبوله بدعوى أن المشروع قد عرض على مصر قبل عرضه على إسرائيل، وأنه لم يعبر عن الضفة الغربية وغزة.

كان مجلس الأمن القومى قد شكل برئاسة أنور السادات رئيس الجمهورية وعضوية السيد حسنى مبارك نائب رئيس الجمهورية والسيد ممدوح سالم رئيس الوزراء والسيد سيد مرعى رئيس مجلس الشعب والدكتور مصطفى خليل سكرتير عام الاتحاد الاشتراكى العربى والفريق عبد الغنى الجمسى وزير الدفاع والسيد النبوى إسماعيل وزير الداخلية والسيد كمال حسن على رئيس المخابرات العامة ومنى بوصفى وزير الخارجية ثم من السيد حسن التهامى بصفة لا أعلمها حتى الآن.

ولم تكن تربطنى معرفة سابقة إلا بالسيد حسنى مبارك الذى قابلته عند زيارته لألمانيا الاتحادية وأنا سفير هناك، والسيد ممدوح سالم والسيد سيد مرعى الذى كنت قد قابلته مرة أثناء زيارة وزير الخارجية الألمانى جينشر لمصر منذ سنوات، والدكتور مصطفى خليل الذى كنت أعرفه منذ كنا أعضاء فى نادى التجديف الملكى سنة ١٩٤٥.

أما زملائى الوزراء فكنت أعرفهم شكلا من الصور فى الجرائد والمجلات ولم يتسن لى مقابلتهم من قبل إذ لم أكن قد شاركت بعد فى اجتماعات مجلس الوزراء.

وعند وصولى إلى قاعة الاجتماع (غرفة المائدة بمنزل السادات) كان الأعضاء جميعا حاضرين، ولم يلبث الرئيس السادات أن دخل القاعة بعدى مباشرة وجلس على رأس المائدة، وكان عابس الوجه ويبدو عليه التوتر، ثم افتتح الجلسة بكلمة قدمنى فيها لأعضاء المجلس، ثم أعلن سبب الاجتماع وهو بحث سفر الوفد المصرى فى اللجنة السياسية برئاستى بعد ظهر اليوم نفسه إلى القدس لبدء اجتماعات اللجنة.

وقد أخذتنى الدهشة وسألت السادات : على أى أساس أسافر ؟ فقال : على أساس المقترحات الأمريكية التى تسلمتها من السفير الأمريكى أمس لجدول أعمال اللجنة.. فقلت : إننى لم أطلع عليها، ويجب أن أدرسها دراسة كافية قبل السفر. فثار السادات وصاح بصوت عال « أنت خايف تروح القدس ؟ ».

فأجبته بحدة « أنت تعلم جيدا أننى لا أخاف شيئا أو أحدا ». وساد سكون عميق فجأة وشعرت بأعين الحاضرين وهى تطل على فى ذهول واستغراب وكأنى مخلوق غريب نزل من المريخ. من يكون هذا الشخص الذى يتجرأ ويخاطب الرئيس السادات بهذه اللهجة ودون كلفة أو تلعثم أو وجل ؟

ثم زادت دهشتهم عندما سمعوا السادات يتكلم من جديد فى هدوء شديد ورقة وهو يقول « ما هو أنا جايبك يا محمد وجامع مجلس الأمن القومى علشان نناقش الموضوع». وتحولت النظرات من جديد ناحيتى وهى تبتسم هذه المرة بالاحترام واختفاء نظرة التعالى التى ينظر بها الأعضاء القدامى فى النادى إلى عضو جديد.

قرأ السادات بعد ذلك بنود جدول الأعمال الأمريكى وكانت تتكون من ثلاث فقرات :

(أ) إعلان مبادئ يحكم المفاوضات الخاصة بتحقيق تسوية سلمية شاملة فى الشرق الأوسط.

(ب) خطوط استرشادية للمفاوضات المتعلقة بمسائل الضفة الغربية وقطاع غزة.

(جـ) عناصر معاهدات السلام بين إسرائيل وجيرانها، وذلك طبقا لمبادئ قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢.

وعادت المناقشة واحتدت من جديد عندما قلت : إننى لن أناقش فى اللجنة السياسية غير البند (أ) من جدول الأعمال وسألنى الرئيس لماذا ؟ فقلت : إن البند (ب) سيؤدى بنا إلى الدخول فى متاهات، وهو ما تسعى إليه إسرائيل، وأنه ليس له محل فى رأيى، إذ أنه يندرج تحت مبدأ الانسحاب من الأراضى المحتلة، وهو ما سنناقشه فى البند (أ) أما البند (جـ) فمترتب بدوره على التوصل إلى مبادئ السلام الشامل إذا تم الاتفاق عليها.

وفى أثناء ذلك دعى الرئيس السادات لحديث تليفونى فترك القاعة وخرج وأذكر وقتها أنى توجهت إلى حيث يجلس السيد حسنى مبارك لأحدثه فى أمر، وقد قال لى وقتها « إنى مسرور من موقفك وإنه يجب التعامل مع الاسرائيليين بمنتهى الحذر ».

وقد سررت بهذا التعليق كثيرا إذ كنت أشعر بالوحدة داخل هذا المجلس الذى أحضره لأول مرة، والذى كان أكثر من نصف أعضائه بين صامتين مستمعين، وبين متكلم فى مسائل فرعية لا تمس لب الموضوع.

عاد السادات فرحا وقال : إنه تكلم تليفونيا مع الرئيس كارتر الذى أبلغه بأن الوفد الأمريكى برئاسة وزير الخارجية سيروس فانس سيصل إلى القدس فى اليوم التالى ١٧ يناير (كانون الثانى) للاشتراك فى مباحثات اللجنة السياسية مع الجانبين المصرى والإسرائيلى ويبدو أن سبب توتره فى بداية الجلسة هو قلقه من ألا يحضر وزير الخارجية الأمريكى اجتماعات اللجنة السياسية.

طلب منى الرئيس الذهاب لإعداد نفسى للسفر بعد ظهر اليوم، فعدت وأكدت له أننى لن أنتقل من الكلام فى البند (أ) إلى غيره ما لم نكن قد توصلنا إلى اتفاق على المبادئ ووافقنى على ذلك.

من هو نيرون ؟

وقد يكون من المفيد قبل الانتقال إلى اجتماعات اللجنة السياسية فى القدس الإشارة إلى المناخ الذى خلقته إسرائيل قبل سفر الوفد المصرى إلى القدس.

لا شك أن اجتماعات الإسماعيلية فى ٢٥ ديسمبر (كانون الأول) ١٩٧٧ قد أظهرت بوضوح الهوة الساحقة التى تفصل بين مواقف الطرفين وفلسفتها كما أشرت سابقا. مصر تسعى إلى تحقيق سلام عادل حقيقى شامل بكل ما يترتب على ذلك من ثمار،

وإسرائيل تسعى - مع سبق الإصرار - إلى توسيع رقعتها بضم الأراضى المحتلة أو أقصى ما يمكن ضمه من تلك الأراضى، وفى نفس الوقت الحصول على التزام الطرف الآخر بأمنها وسلامتها، أى أن تأكل الكعكة وتحتفظ بها فى نفس الوقت.

ونتيجة لتكشف هذه الهوة بين مواقف الطرفين ولانفضاح مقاصد مناحم بيجن فى اجتماعات الإسماعيلية فى تجريد سيناء من كل مظهر للسيادة المصرية عليها، بل واقتطاع أجزاء منها وهى المستوطنات التى أقاموها فى سيناء ورفح ومناطق أخرى من ناحية ومن الناحية الثانية تصميمه على إهدار حقوق الشعب الفلسطينى المشروعة، كما بدا ذلك من مشروع الحكم المحلى الذى قدمه فى الإسماعيلية.

كان نتيجة ذلك، وكرد فعل للتصريحات الإسرائيلية المتتالية من بيجن وديان وشارون بعد اجتماعات الإسماعيلية من أن القرار رقم ٢٤٢ لا يشمل الضفة الغربية وغزة، وإدعاء إسرائيل بحقها فى الاستيطان فى أى مكان، أن قامت الصحافة المصرية بمهاجمة سياسة الحكومة الإسرائيلية ضيقة الأفق والتى من شأنها أن تجهض فرصة السلام. وشبه الكاتب المصرى « مصطفى أمين » مناحم بيجن (بشيلوك) فى رواية شكسبير (تاجر البندقية).

وبينما الاعداد لاجتماع اللجنة السياسية فى القدس يجرى على قدم وساق وردت أنباء خطيرة لم تلبث أن تأكدت بأن إسرائيل تقوم بإنشاء مستوطنات جديدة فى سيناء.

تكهرب الجو وتصاعد التوتر وأفاق السادات من حلمه الجميل المفعم بالثقة والتفاؤل بأن مسعاه للسلام لابد وأن ينجح، وأنه لن يخفى على إسرائيل آثاره العظيمة وليس أمامها إلا أن تهرع إلى اغتنام الفرصة والترحيب بها.. وشعر بالصدمة إذ رأى إسرائيل تقوم بتقويض ذلك الحلم. وتنشط فى بناء مستوطنات جديدة فى سيناء لتكريس احتلالها غير الشرعى للأرض.

وفى حديث لمجلة « أكتوبر » المصرية ذكر السادات أنه يبدو أن إسرائيل لم تفهم - أو لا تريد أن تفهم - أنه فى زيارته للقدس قدم لها أكثر مما كانت تحلم به عند إنشائها.. اعتراف، وشرعية لوجودها بين الدول العربية، وتعايش سلمى مع جيرانها فى جو من الأمن والأمان.

وتضمن حديث السادات أنه لن يسمح ببقاء مستوطنة واحدة على أرض سيناء وأنه إذا أراد بيجن أن يحرق المستوطنات قبل الانسحاب منها فهو حر فى ذلك.. وقد أثار

ذلك غضب بيجن (أو تظاهره بالغضب) وقال إن الذى يحرق يكون (نيرون) الامبراطور الرومانى. ورد السادات بأنه لم يقل (يحرق) بل قال (يحرث) والواقع أن إسرائيل عندما انسحبت من سيناء بعد حرب ١٩٥٦ بضغط ايزنهاور قامت بحرق كل شىء قبل انسحابها وكذلك فعلت بعد انسحابها فى ١٩٨٢ . فمن هو (نيرون) ؟

ولا أستطيع فى هذا المقام أن أترك قصة بناء تلك المستوطنات بدون تحليل.

كان الغرض منها ببساطة خلق عنصر جديد للمساومة عليه وقد خطرت هذه (الفكرة النبيلة) لأريبل شارون وزير الزراعة الإسرائيلى وقتها، بعد أن أدرك الإسرائيليون فى الإسماعيلية تصميم المصريين على إزالة المستوطنات الإسرائيلية منها. واقترح الفكرة على موشى ديان الذى أيدها ولم يلبث أن اعتمدها مجلس الوزراء الإسرائيلى وكلفت لجنة برئاسة شارون مهمتها تخطيط، وتنفيذ مشروع تكثيف المستوطنات الإسرائيلية على عجل وقبل اجتماع اللجنة السياسية.

ولأن الغرض لم يكن توطين بشر فى هذه المستوطنات وإنما مجرد خلق مادة المساومة فى شكل « دمى » - جمع دمية - غير حقيقية، اقتصر الأمر على نقل بعض الحجارة ووضع أتوبيسات قديمة وتنكات مستهلكة للمياه.. وحفر بعض الخنادق وكل ما من شأنه أن يعطى مظهر بناء مستوطنات جديدة مع الاقتصاد فى النفقات. وباختصار كانت الفكرة إحياء لزمن مبادلة الأحجار الكريمة والذهب وسن الفيل بعقود الخرز والمرايات الرخيصة. كانت إهانة، ولا أدرى ماذا كان يفعل (شيلوك) لو كان فى زماننا هذا أكثر مما يفعله بيجن ؟

وقد كتب وايزمان - وزير الدفاع الإسرائيلى وقتها - عن الخداع الذى كان لا يوافق عليه ما يلى « كان الرأى السائد أنه لو وافق المصريون على هذه المستعمرات نكون قد كسبناها أما إذا رفضوها فتستطيع إسرائيل أن تظهر بمظهر الكريم وتتنازل عن هذه المستعمرات الجديدة مقابل الحق فى الاحتفاظ بالمستوطنات القديمة القائمة »[1]..

ولا بأس من أن أضيف السبب الذى من أجله كان يعارض وايزمان التجاء الحكومة الإسرائيلية إلى هذا الخداع الرخيص، وهو الحرص على عدم إحياء سمعة اليهود القديمة. يقول وايزمان « والآن كنا على وشك أن نبدو بالمظهر الذى كان أكثر أعداء

---

(١) وايزمان معركة السلام ص ١٤٢.

السامية تشددا قد صوروا اليهود به : تجار صغار مخادعون يستغلون بدهاء كل فرصة متاحة لتحقيق كسب وينكثون بعهودهم (تعهداتهم) كلما كان ذلك يحقق لهم منفعة »[1].

ولم يكن غائبا عنى احتمال استعمال مثل هذه الأساليب، وقد شرحت تصورى لما سيكون عليه موقف بيجن فى المفاوضات، وإنما أرجو أن استرعى انتباه القارئ إلى أن هذا الأسلوب لم يكن يقتصر على استبدال مصابيح جديدة بمصابيح قديمة، كما كان الهدف بالنسبة للمستوطنات فى سيناء، بل كان الأمر أبعد من ذلك. كان استبدال سيناء بأكملها إذا لزم الأمر فى مقابل تحييد مصر وابتلاع إسرائيل للضفة الغربية وغزة. كانت أرض الأجداد « جوديا وسماريا » هى الهدف.

وأعود إلى الاقتباس من وايزمان

« ولكن هؤلاء الذين تابعوا الأحداث مثلى من موقع قريب متميز، ومن واقع معرفتهم الوثيقة بمناحم بيجن كانوا يعلمون أنه لم يتغير.. وليس هناك أدنى شك فى أن التنازل عن سيناء سيكون مؤلما للغاية، ولكن وراء الاستعداد للتخلى عن سيناء كان يقف مناحم بيجن الحقيقى يقظا ونشيطا، فلابد أنه قد قرر التوصل إلى حل وسط مع المصريين فى الجنوب كوسيلة لاستمرارية الحكم الإسرائيلى وبشكل ما على « جوديا وسماريا » وبينما كان المصريون يرون أن اتفاقية سيناء هى نموذج لاتفاقات مماثلة تعقد مع الأردن وسوريا بشأن الضفة الغربية ومرتفعات الجولان، كان بيجن يرى عكس ذلك تماما. وفيما يتعلق به كان الانسحاب من سيناء يمثل نهاية القصة ».

معنى كلمة « شالوم »

أهذا هو المدلول الإسرائيلى لكلمة (شالوم) ؟ هل هو المقابل لعرض سلام مخلص يعم أنحاء المنطقة بأسرها بمن عليها من عرب وإسرائيليين من مسلمين ومسيحيين ويهود ؟ سلام يبعد الخوف، ويزيل التوتر ويحقن الدماء ويصون الأموال ويعيد الحياة والأمل إلى مئات الآلاف من الضحايا والمشردين واللاجئين. سلام يتعايش فى ظله الجميع ويبنون رخاءهم ويعيشون حياتهم فى أمن وأمان، فى محبة وإخاء وتعاون بناء، سلام

---

(١) وايزمان معركة السلام ص ١٤٦.

يتجاوز حدود المنطقة وتنعكس آثاره على العالم، جميعا، ويضع السابقة والمثل لحل منازعات الدول والشعوب فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية وفى كل مكان.

أهذا هو الأسلوب الشريف ؟ وهل هو ذكاء.. ؟

هل هو شطارة ؟ هل هو بعد نظر ؟

إنى لا أراه إلا تحطيما للمثل وتبديدا للأمل وزرعا لبذور الشر. ومع ذلك فقد اقتسم مناحم بيجن جائزة نوبل للسلام مع أنور السادات، ويا لها من سخرية ويا له من نفاق ويا له من عار!!



القدس

في الساعة الثالثة والنصف من بعد ظهر يوم ١٦ يناير (كانون الثانى) سنة ١٩٧٨ أقلعت الطائرة المصرية الخاصة تحمل الوفد المصرى فى اجتماعات اللجنة السياسية متجهة إلى إسرائيل.

وعند وصولنا إلى مطار بن جوريون كان فى استقبالنا موشى ديان وزير الخارجية وبعض رجال وزارته. وصحبنى ديان إلى منصة تجمع حولها عدد من الصحفيين ومصورى التليفزيون وألقى كلمة قصيرة رحب فيها بالوفد المصرى، وأعرب عن تمنياته بنجاح أعمال اللجنة السياسية، ثم دعانى إلى الميكروفون فألقيت الكلمة التى أعددناها لهذه المناسبة ومدارها أننا حضرنا للمشاركة فى اجتماعات اللجنة السياسية بقلوب وعقول متفتحة ونوايا خالصة لنبنى معا سلاما عادلا دائما، وأننا نتطلع إلى عمل مشترك ونستهدف نتائج واضحة محددة، وأشرت إلى أن هناك حقائق أساسية لابد من مواجهتها بشجاعة وبعد نظر، وهى أنه لا يمكن أن يقوم سلام مع استمرار احتلال الأرض، أو مع انكار الحقوق الوطنية للشعب الفلسطينى، وفى مقدمتها حقه فى تقرير مصيره. كما لا يمكن أن يقوم السلام الدائم ما لم تعمل شعوب منطقتنا على خلق الظروف للعيش معا فى جو من الأمان.

القدس فى البال

كانت الشمس قد أوشكت على الغروب عندما تحرك موكب السيارات التى تحمل الوفد المصرى متجها إلى القدس. وكان وصولنا فى المساء قد حال دون الانتقال إليها بطائرات الهليكوبتر. وركبت السيارة مع موشى ديان وزير الخارجية وكانت المسافة بين مطار بن جوريون والقدس تستغرق حوالى ساعة، ولم نتكلم كثيرا فيما جئنا من أجله فيما عدا التعبير عن الأمل فى نجاح المباحثات والتوصل إلى حل للمشاكل يحقق السلام. كان كلانا يعلم فى قرارة نفسه أن ما ينشده هو العكس تماما لما ينشده الآخر. كان الظلام قد خيم تماما وساد سكون لا يقطعه إلا صوت محرك السيارة وصوت ديان من وقت إلى آخر يشرح لى بعض المعالم كلما مررنا بشىء منها. أما أنا فكنت قد استغرقت فى عالم آخر، عادت بى ذاكرتى إلى سنة ١٩٥٤ عندما زرت القدس لأول مرة، كنت عضوا شابا فى الوفد المصرى برئاسة الصاغ صلاح سالم وزير الارشاد القومى وعضو مجلس الثورة فى ذلك الوقت. وقد زار الوفد وقتها السعودية واليمن ولبنان والعراق ثم الأردن. وكانت مهمة الوفد إجراء مباحثات مع هذه الدول تستهدف منع انضمامها لحلف بغداد الذى كانت الولايات المتحدة وانجلترا تعملان على تكوينه بين دول المنطقة ليكون خط دفاع ضد الخطر السوفيتى.

وكانت سياستنا تقوم على الابتعاد عن الأحلاف، ولم نكن نرى الاتحاد السوفيتى يشكل خطرا علينا. كان الخطر الماثل الداهم هو إسرائيل التى تعيش بين جنبينا وتنقض فى كل فرصة لتنهش شريحة جديدة من الأرض العربية المحيطة بها. وشمل برنامج زيارة الوفد للأردن زيارة القدس العربية وقد سافرنا إليها بالسيارات من عمان مخترقين مناطق صحراوية إلى أن وصلنا إلى مشارف القدس من أول نظرة دخلت القدس قلبى واستقرت فيه. عادت إلى ذاكرتى - والسيارة تمضى مسرعة فى الظلام - تلالها الجميلة وألوانها الهادئة وأشجار الزيتون والنخيل ومبانيها القديمة الخالدة وكنائسها وجوامعها وحوانيتها وشوارعها الضيقة المتعرجة، وأنا أحس فى كل نفس أتنفسه بقدسية غريبة تملأ الجو، ثم وصلت إلى المسجد الأقصى حيث كان جمهور كبير من أهل القدس على رأسه كبار العلماء والأئمة وموظفو المدينة فى استقبال صلاح سالم والوفد المصرى. وتركت الجميع وسرت على قدمى وحيدا حتى وصلت إلى مسجد قبة الصخرة الذى أقيم فوق البقعة التى أسرى إليها نبينا محمد صلى الله عليه

وسلم ودخلت فوجدت صخرة هائلة وفى جانب منها فتحة فدلفت منها إلى مغارة وسط الصخرة مساحتها حوالى خمسة أمتار فى ثلاثة أمتار مضاءة بأنوار شاحبة وفى ركن منها علامة توضح اتجاه القبلة التى يتوجه إليها المسلمون فى صلواتهم وشعرت بانفعالات روحية تموج فى صدرى لم أعرفها من قبل، وبدون تفكير وجدت نفسى متجها إلى الله فى صلاة خالصة نقية.

وعلى الجانب الآخر وخلف أسوار مدينة القدس القديمة كانت تمتد القدس الجديدة التى بناها الاسرائيليون يتربصون ويتحينون الفرص للانقضاض عليها واحتوائها حتى كانت سنة ١٩٦٧ . وارتدت ذاكرتى إلى أيام الصليبيين الذين وفدوا من بعيد واحتلوا القدس فى القرن العاشر، وظلوا يحكمونها قرابة مائة عام حتى حررها صلاح الدين الأيوبى، وعادت من وقتها إلى العرب ثانية. وبسبب القدس أغتيل الملك فيصل ملك السعودية لأنه كان يردد أمله فى الصلاة فى المسجد الأقصى قبل أن يموت.

وأفقت من هذه الخواطر على صوت ديان وهو.. ينبهنى إلى أننا ندخل المدينة، ومررنا بأحياء ذات مبان حديثة وشوارع فسيحة إلى أن وصلنا إلى فندق هيلتون القدس الذى أختير لنزول الوفدين المصرى والأمريكى فى اللجنة السياسية بدلا من فندق الملك داود الذى كانت إسرائيل تقترح عقد الاجتماعات فيه، ولكن تبين عدم وجود أماكن كافية لأعضاء الوفود. وكان فندق الملك داود هذا مسرحا لعملية إرهابية كبيرة راح ضحيتها أكثر من عشرين ضابطا بريطانيا عندما نسفته جماعة الأرجون زفاى ليومى بقيادة مناحم بيجن عندما كانت فلسطين تحت الانتداب البريطانى.

وصول الوفد المصرى

قادنى مدير الفندق إلى الجناح المخصص لى وكان فسيحا مؤثثا أثاثا حديثا جميلا، وكانت آنيات الزهور فى كل مكان، وعلى جانب من الجدار منضدة كبيرة عليها جبل من الفواكه المختلفة: المشمش والفراولة والخوخ والقشطة والتفاح وإلى جانبها بار ملئ بزجاجات المشروبات المختلفة. وكان الجناح يشتمل على ثلاث غرف نوم شغلت إحداها وشغل السفير أحمد ماهر السيد مدير مكتبى الثانية والثالثة شغلها الرائد عمرو حمدى المكلف بحراستى.

ولم يلبث أعضاء الوفد أن تجمعوا عندى فى الجناح بعد أن ترك كل منهم حاجاته فى الغرفة المخصصة له. ثم حضر رجال الأمن المصريون فقاموا بفحص الجناح شبرا شبرا للتحقق من عدم وجود أجهزة تنصت أو تسجيل ثم انصرفوا بعد أن نصحونا زيادة فى الاحتياط بألا نتبادل الحديث إلا والراديو مفتوحا على محطة إسرائيل ليصعب التقاط ما يدور من كلام.

وجلسنا حول المائدة حيث تناولنا العشاء ثم فتحنا الراديو على محطة صوت إسرائيل، وكان يذيع الموسيقى العربية، وأخذنا نتبادل الحديث والنكات كان يحيط بنا جو من المرح بعد عناء اليوم الطويل. ولم تلبث الموسيقى أن توقفت وأعلن المذيع عن نشرة الأخبار باللغة العربية فسكتنا لنستمع وكان الخبر الأول هو وصول الوفد المصرى فى محادثات اللجنة السياسية للقدس، وكان الخبر التالى له أن مناحم بيجن رئيس الوزراء قد أبلغ وفدا من اليهود الهولنديين يزور إسرائيل عند اجتماعه بهم أن الرئيس السادات قد أخبره بأن زعماء منظمة التحرير الفلسطينية هم عملاء للاتحاد السوفيتى.

وقد شعرت بالغضب.. فما معنى إذاعة هذا الكلام وربطه بوصول الوفد المصرى للتفاوض مع إسرائيل. لا معنى له إلا بث الوقيعة بين مصر والفلسطينيين وما أكثر من أن يتهم الرئيس المصرى منظمة التحرير الفلسطينية والممثل الشرعى الوحيد للفلسطينيين بعمالتهم للاتحاد السوفيتى. وهم الأمناء على القضية الفلسطينية التى هى لب النزاع العربى الإسرائيلى والتى دخلنا أربع حروب مع إسرائيل من أجلها ويقول هذا الاتهام لمن ؟ لمناحم بيجن عدو الشعب الفلسطينى رقم واحد ؟.

وظلت الإذاعة الإسرائيلية كل نصف ساعة يتصدر نشراتها الاخبارية هذان الخبران وصول الوفد المصرى إلى إسرائيل وما نسبه بيجن للسادات من اتهام لزعماء المنظمة.

ولم أعجب لذلك كثيرا فقد كان هذا منطقيا للتكتيك الإسرائيلى، ولكن ألا يعنى ذلك وضع العراقيل لتفجير محادثات اللجنة السياسية ؟

سلام شامل لا منفصل

ثم وصلتنى برقية رمزية من الرئيس السادات بدون مناسبة يطلب منى فيها التحكم فى أعصابى وعدم الاندفاع فى المباحثات. وأنه فيما يتعلق بتصريحات بيجن السابقة على انعقاد اللجنة فترى القاهرة عدم إثارتها وستتولى القاهرة الرد عليها عند اللزوم.

فى الساعة العاشرة من صباح اليوم التالى ١٧ يناير (كانون الثانى) عقدت اللجنة السياسية جلستها الافتتاحية التى اشتركت فيها الوفود الثلاثة وحضرها عدد غفير من الصحفيين ومراسلى وكالات الأنباء وشبكات التليفزيون.

وألقيت بيانى الذى أشار إلى أن هدف الاجتماع هو السلام الشامل وليس المنفصل الذى يقوم على الانسحاب الكامل من كل الأراضى العربية المحتلة منذ يونيه (حزيران) سنة ١٩٦٧ بما فيها القدس وكفالة الحقوق الأساسية للشعب الفلسطينى بما فى ذلك حق تقرير المصير.

أما موشى ديان فقد تضمن بيانه أن عمل اللجنة السياسية هو التوصل لمعاهدات سلام بين إسرائيل وجيرانها ووضع مبادئ الحل العادل لمشكلة الفلسطينيين العرب. والاتفاق بشأن معاهدة سلام بين مصر وإسرائيل ثم ألقى سيروس فانس بيانه الذى ركز على النقاط التالية :

● لابد من انسحاب إسرائيلى من أراض احتلت عام ١٩٦٧ والاتفاق على حدود آمنة ومعترف بها فى إطار علاقات طبيعية وعلاقات سلام طبقا لقرارى الأمم المتحدة (مجلس الأمن) ٢٤٢، ٣٣٨ .

● وضرورة حل المشكلة الفلسطينية بجميع جوانبها ولابد أن يعترف هذا الحل بالحقوق الشرعية للشعب الفلسطينى مع تمكينه من المشاركة فى تقرير مصيره.

وانتهت بذلك الجلسة الافتتاحية وأعقبها حفل استقبال قصير لأعضاء الوفود، ثم عقدت أول جلسة سرية للمباحثات برئاسة ديان. وقدمت إسرائيل مشروعها للسلام وهو لا يختلف كثيرا عما قدمه مناحم بيجن فى الإسماعيلية. كما قدمنا مشروعنا على نفس الأساس (إعلان المبادئ التى تحكم التسوية).

ثم تحدثت فقلت إن جدول الأعمال الذى تنعقد على أساسه اللجنة السياسية هو جدول الأعمال الأمريكى وهو معد بالانجليزية ويتكلم عن الضفة الغربية فلا محل إذن لاستعمال عبارة (جوديا وسماريا) كما أشرت إلى أن اللجنة تنعقد فى إطار اجتماع القاهرة التحضيرى بهدف إعداد الطريق لتسوية شاملة، وكنت تواقا لنقل اجتماعات اللجنة إلى القاهرة لسبب أولى وهو أنه لو قدر لها النجاح فى التوصل إلى إعلان المبادئ فيمكن اجتذاب الأطراف العربية الأخرى للمشاركة فى المباحثات والتى كان يصعب إن لم يكن مستحيلا ذهابها إلى القدس.

واقترح ديان تشكيل لجان عمل تختص كل منها بإحدى نقاط التسوية وطلبت تأجيل ذلك إلى ما بعد مناقشة إعلان المبادئ الخاص بالانسحاب وتقرير المصير. وتأجل اجتماع اللجنة لبحث المشاريع المقدمة.

المسدس الإسرائيلى

ثم أقام ديان حفل غداء للوفد المصرى فى فندق الملك داود، دار فيه حديث عام لم يتطرق إلى الموضوعات محل البحث، وقبل انتهاء الغداء مال على ديان وذكر أنه يقترح عقد مؤتمر صحفى مشترك بعد الغداء يشارك فيه رؤساء الوفود الثلاثة وأجبته بأنى لا أرى أن هذا من الحكمة، وأن الأوفق تأجيل ذلك إلى ما بعد انتهاء اجتماعات اللجنة السياسية، إذ ماذا سنقول للصحفيين الا تكرار مواقفنا المعلنة وهذا ليس فيه جديد، وقد ينعكس على عمل اللجنة بالضرر إلا أنه صمم على اقتراحه فقلت له أنى لن أشارك فى هذا المؤتمر، فقال إنه فى هذه الحالة سيقوم هو وفانس بالمشاركة فيه، وقلت إنه حر فى أن يفعل ما يشاء. إلا أنه عندما عرض الفكرة على فانس اعترض عليها بدوره ولنفس السبب الذى أوضحته. والنتيجة أنه عقد المؤتمر الصحفى وحده وأدلى فيه بتصريحات لم تقدم شيئا إيجابيا لمناخ عقد اللجنة. وقال فيه « إنه من الأفضل أن تفشل مبادرة السلام على أن تفقد إسرائيل مقومات أمنها، وأن إسرائيل لا تستطيع التفاوض ومسدس موجه إلى رأسها ».

ولم أدر من الذى كان يصوب المسدس إلى الآخر. أما نحن فكنا نطلب سلاما قائما على العدل واسترداد الحقوق مقابل الأمن للجميع، أما المسدس فكان تشبث الحكومة الإسرائيلية بالاحتلال غير المشروع للأرض، وهو موجه نحونا ونحو السلام.

وكان ديان ثعلبا ماكرا لا يتسم حديثه بالجمود والتحجر مثل مناحم بيجن، كان يلف ويدور، والمستمع إليه يكاد يحس بأنه مرن قابل للتفاهم، ولكنه كان فى الحقيقة يستهدف توسيع رقعة إسرائيل، ويمارس تحقيق ذلك بيد حديدية ولكن يغطيها قفاز من الحرير، فهو صاحب نظرية « الجسور المفتوحة » مع العرب فى الضفة الغربية وغزة، وكان من رأيه عدم إقامة خط بارليف على حافة القناة بعد احتلال سيناء والبعد عن القناة بعشرة أميال مثلا حتى يقلل من الاستفزاز المباشر الذى يخلقه وجود الجنود الاسرائيليين على مرمى البصر من المصريين.

وهو صاحب نظرية تعليق السيادة على الضفة الغربية وغزة دون المطالبة بها فورا على نحو ما كان يرغب بيجن حتى يتيسر لهم الاستفادة من الوقت فى إحداث تغييرات على الأرض تؤدى فى النهاية إلى تكريس احتلالها ثم ضمها.

وكان منفر الصوت بادى الهدوء ويتكلم من وراء قناع إذ كان وجهه يبدو دائم الابتسام من أثر العمليات التى أجراها فى وجهه ذى العين الواحدة.

وكان ديان رغم شخصيته المتسمة بالتواضع مغرما بالظهور يتحرق شوقًا إلى أن تتصدر صورته وأحاديثه وأخباره الأنباء.

كان اسمه قد حظى بشعبية كبيرة داخل إسرائيل وخارجها كبطل انتصار إسرائيل المذهل فى سنة ١٩٦٧، إلا أن حرب سنة ١٩٧٣ أصابت سمعته بشىء من الذبول وكان من بين من حملوا مسؤولية ما أصاب إسرائيل فى تلك الحرب، ثم كان تحوله من حزب العمل وانضمامه إلى وزارة مناحم بيجن قد أثر على منزلته بدوره لدى الاسرائيليين، فكان يعمل جاهدا لإثبات نفسه من جديد وتبوؤ المكانة التى احتلها يوما فى الرأى العام الإسرائيلى والدولى.

وفى اعتقادى أن هذا التشبث بالشهرة وحب الظهور قد اكتسبا أبعادا جديدة بعد اتساع دائرة وسائل الاعلام من صحافة وإذاعة وتليفزيون وأصبح مرضا من أمراض العصر ينتشر بين أصحاب الشخصيات العامة، أصاب الكثيرين ولم يلبث أن أصبح السادات بدوره من ضحاياه المزمنين كما سنتبين.

وعدت بعد الغداء إلى جناحى فى الفندق فوجدت برقية من السيد حسنى مبارك نصها « تابع الرئيس الجلسة الافتتاحية ويهنئك على التوفيق وعلى كلمتك، ويرجو أن تكون هادئا باستمرار ويكون معدل إلقاء الكلمات ببطء وبأعصاب هادئة. وعند تعثر أى موضوع يمكن أن تطلب الرجوع إلى القاهرة لكسب الوقت للتفكير ونخطر فورا لبحث الموضوع ويرسل أى استفسار فى أى وقت ليلا أو نهارا وسيصلك الرد بأسرع ما يمكن. والرئيس يتمنى لك التوفيق ».

اتفاق واختلاف

وبعد الظهر حضر عزرا وايزمان وزير الدفاع ورئيس الجانب الإسرائيلى فى اللجنة العسكرية لزيارتى وأشار إلى أنه قد حضر لزيارتى للمجاملة بوصفى ضيفا على

إسرائيل إذ أنه لا علاقة له بعمل اللجنة السياسية. وقد رحبت به وأخبرته أن الرئيس السادات يطمئن إليه وأننا نعول على حسن تقديره ونفوذه لدى رئيس الوزراء بيجن لاقناعه بأن يتخذ موقفا يتناسب وما تنشده مبادرة الرئيس السادات من تحقيق آمال كبيرة تحقق السلام. وأجاب وايزمان بأنه يعمل على ذلك دون شك ولكن يجب أن نضع فى اعتبارنا أهمية الأمن بالنسبة لإسرائيل وأن ندرك من الناحية الأخرى أن لبيجن مشاكل داخلية وأنه ليس قويا كالسادات. قلت له إننا نتفهم أهمية الأمن تماما ونحن نحتاج إليه بدورنا ولكن الأمن لا يتحقق بضم الأراضى وهو رجل عسكرى يتفهم ذلك، وإنما هناك وسائل عديدة لتحقيق الأمن المتبادل للطرفين. أما عن مشاكل بيجن الداخلية فإنه لا يخفى عليه بالطبع أن لنا مشاكلنا بدورنا فى العالم العربى وهذا لا يمنع من مواجهة الأمور بشجاعة كما فعل السادات.

وكان الانطباع عن عزرا وايزمان أنه رجل طموح يميل إلى مناقشة المسائل بصراحة ودون لف أو دوران وهو بشوش الوجه مرح الشخصية شأن الطيارين بوجه عام، وقد عاش فى القاهرة سنوات أثناء الحرب العالمية الثانية عندما كان ملتحقا بسلاح الطيران الملكى البريطانى. وكان شعورى أنه أخذ مبادرة السادات مأخذا جديا وأنه أدرك أن التوصل إلى حل مع مصر يقتضى أن تدفع إسرائيل له ثمنا وتقدم تنازلات. أما مدى هذه التنازلات فلم أكن أستطيع التكهن به فقد كان عضوا فى حزب حيروت الذى ينادى باسرائيل الكبرى.

وأيا كانت شخصية وايزمان أو غيره فقد حرصت من البداية إلى النهاية على أن يكون اتصالى بالشخصيات الإسرائيلية متحفظا ورسميا فلم أسمح لأحدهم بأن ينادينى باسمى أو أن أنادى أيا منهم بغير صفته ولقبه.

وبعد انصراف وايزمان حضر لزيارتى سيروس فانس ودار بيننا حديث عن كيفية معالجة المباحثات. فذكرت أننا ابتداء نتطلع إلى قيامه بدور نشيط ايجابى فى السعى إلى تحقيق اعلان مبادئ واضح فى اتجاه التسوية الشاملة وتقرير المصير للشعب الفلسطينى. وأعدت له تأكيد موقفنا فيما يتعلق بما أثاره موشى ديان فى جلسة الصباح من عدم موافقتنا على إنشاء لجان فرعية لبحث بنود جدول الأعمال قبل أن نصل إلى اتفاق على المبادئ. كذلك أكدت له رفضنا لمشروع بيجن وأننى لا أوافق فانس على اقتراحه بأن نعتبره نقطة البدء فى المباحثات. وردا على سؤاله فيما إذا كنا

نقبل فترة زمنية فى الضفة الغربية وغزة ذكرت أننا لا نمانع فى ذلك على أن يكون ثابتا منذ البداية، أن ننهى هذه الفترة بممارسة الشعب الفلسطينى لحقه فى تقرير مصيره وأن البحث فى ذلك يجب أن تشارك فيه أطراف أخرى.

وكان فانس يعتزم البقاء فى القدس لمدة يومين يشارك فيها فى اجتماعات اللجنة ثم يسافر إلى واشنطن حيث له ارتباطات أخرى، وطلب منى أن تستمر مباحثات اللجنة بعد سفره فقلت : ان ذلك مرهون بما يتحقق من نتائج.

وسألنى عما إذا كنا نوافق على أن تناقش اللجنة السياسية موضوع المستوطنات فذكرت أن ذلك يدخل فى تفصيلات تنفيذ الانسحاب، وأرى أن تعالجه اللجنة العسكرية، أما اللجنة السياسية فتعالج مبدأ الانسحاب نفسه.

وفى اليوم التالى ١٨ يناير (كانون الثانى) أخذ فانس يتنقل ما بين مقر كل من الوفدين فى الفندق محاولا تسجيل نقاط الاتفاق بينهما فى بعض التفصيلات ونقاط الاختلاف وكنت أرى أن هذه الطريقة عقيمة، وتبعد بنا عن المواجهة الأساسية للموضوع وهى : هل تقبل إسرائيل الانسحاب من الأراضى العربية المحتلة فى مقابل سلام تدعمه إجراءات أمن وضمانات ؟

« شيلوك .. يتكلم »

وتسلمنا دعوة من رئيس الوزراء الإسرائيلى لحفل عشاء يقيمه على شرف الوفدين المصرى والأمريكى فى الساعة الثامنة مساء. ثم لم يلبث أن بعث بيجن يدعونى إلى أن أذهب لمقابلته فى مكتبه بالكنيست فى الساعة السادسة بعد الظهر.

واصطحبت معى الدكتور بطرس غالى والسفير أحمد ماهر وتوجهنا إلى الكنيست حيث استقبلنا مناحم بيجن بترحاب وكان معه موشى ديان وأحد الجنرالات الاسرائيليين وأظنه الجنرال شامير.

وبدأ بيجن حديثه قائلا : إنه يكن صداقة ومحبة للرئيس السادات وأنه تأثر بروح المودة التى استقبله بها فى الإسماعيلية، وذكر أنه تعرض بعد عودته من الإسماعيلية لهجوم عنيف على مقترحات السلام التى قدمها هناك، وأن بعضا من أقرب أصدقائه يشتركون فى هذا الهجوم.

وقال : إن مشروعه فى الإسماعيلية يشمل الاحتفاظ بمستوطنات العريش ورفح وضرورة الدفاع عنها بالتالى، وأنه كان واضحا أن هناك خلافا ولكن المفاوضات تبدأ بالطبيعة من الاختلاف الذى يجب التعبير عنه بهدوء. إلا أنه فوجئ وجرح بعد عودته لأن مصر صورت الأمر بعد ذلك على أنه يثير أزمة مع أن الرئيس السادات قد وافق فى الإسماعيلية على مناقشة موضوع المستوطنات وغيره من الموضوعات فى اللجان ..

وقال : إنه لو كان يريد المساومة لتقدم بمشروع تقسيم سيناء بين مصر وإسرائيل خصوصا وأن حرب سنة ١٩٦٧ كانت حربا دفاعية تؤدى إلى تعديلات إقليمية، ولكنه كان كريما ولم يطلب ذلك .. أما عن مشروع الحكم الذاتى الذى قدمه فإنه الحل الوسط الانسانى لسكان (جوديا وسماريا). فالسكان الفلسطينيون العرب يريدون حكما ذاتيا لأول مرة فى تاريخهم ومن الناحية الأخرى فإن السكان (الفلسطينيين اليهود) يريدون الأمن ومشروعه يحقق آمالهم.

ومضى بيجن يقول : إن الخلاف بين الأصدقاء ممكن، ولكنه فوجئ بالرئيس السادات يخلق أزمة حول مشكلة المستوطنات ـ هى مسألة انسانية ـ كما لو كان ذلك طلبا اسرائيليا جديدا غير معروف مع أن هذا لم يكن رد فعل الرئيس فى الإسماعيلية.

وقال : إنه لا يحب المهاترات وإنه جرح للغاية بمقال مصطفى أمين الذى شبهه (بشيلوك) وهذه قمة الإهانات المعادية للسامية. كما تضمن مقال الرئيس السادات لمجلة (أكتوبر) تعديات أخرى على كرامته. وأضاف : أن الرئيس السادات ربما كان متعجلا ويريد دفع الأمور ولكن الاستعجال ليس مستحبا وأمامنا كل الوقت للتفاهم على كل شىء. وأرجوك أن تخبر الرئيس بما شرحته لك منعا لسوء التفاهم.

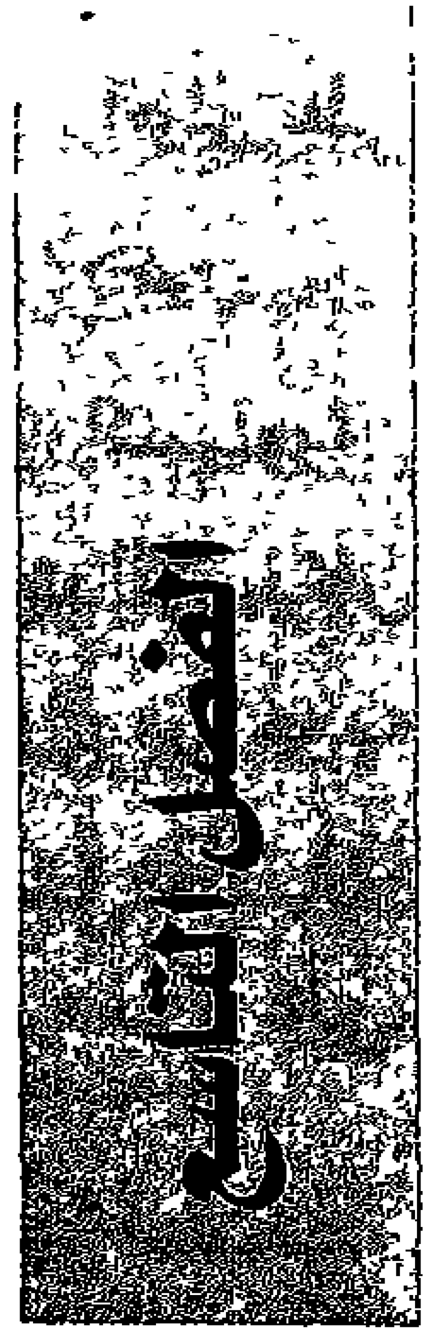
وأجبته بأنه ربما يرى المستوطنات حلا لمشكلة انسانية كما يقول ولكننا والعالم معنا نراها مظهرا من مظاهر التعدى على أرض الغير وتثبيت الاحتلال غير الشرعى لأجزاء من أراضينا، وهو تعد على سيادتنا لا يحتمل النقاش. وأنه إذا كان قد فوجئ وجرح من حديث السادات فى « أكتوبر » فقد صدمنا صدمة شديدة عندما وصلتنا المعلومات المؤكدة على قيام إسرائيل ـ ونحن نستعد لعقد اللجنة السياسية ـ بزرع مستوطنات جديدة فى سيناء بدلا من أن تعمل على إزالة المستوطنات القائمة بالفعل وقلت : إن مثل هذه الأساليب لن تحقق تفاهما أو سلاما.

فقال : إذا كانت هذه وجهة نظركم بالنسبة للمستوطنات فلماذا لا نناقش ذلك فى اللجنة السياسية ؟ قلت : لأن اللجنة السياسية مهمتها مناقشة المبادئ العامة ومنها الانسحاب الشامل أما المستوطنات فلا تخرج عن كونها جزئية من جزئيات تنفيذ هذا المبدأ، شأنها شأن القوات والمطارات ومحطات الإنذار وغيرها من مظاهر التعدى على سيادتنا والمجال المنطقى لبحثها هو اللجنة العسكرية.

أما ما ذكره مصطفى أمين فهو يعبر عن رأيه الشخصى، ولكنى أؤكد لك أننا لا نعادى السامية، لسبب بسيط وهو أننا ننتمى إليها والأكثر من ذلك أننا نعتبرهم من أهل الكتاب ونعترف بأنبيائهم وبموسى وعيسى كما نعترف بسيدنا محمد .

ثم سألته : بماذا يفسر التصريح الذى استقبلتنا به إذاعة إسرائيل من أن السادات أبلغه بأن زعماء منظمة التحرير هم من عملاء الاتحاد السوفيتى ؟ وهل يدرك مغزاه وتكرار الإذاعة الإسرائيلية لإذاعته كل نصف ساعة ؟ وارتبك بعض الشىء ثم قال : « لقد قال لى الرئيس ذلك فعلا ». قلت : إننى أشك فى ذلك وحتى إن كان قد فعل فهل يصح « لجنتلمان » أدبيا اذاعة ما قيل فى أحاديث خاصة ؟ قال : لم آمر باذاعته لقد ذكرته لبعض أعضاء الكونجرس فنشروه حتى وصل للإذاعة.

وانتهت المقابلة بعد أن اتفقنا على ضرورة تجنب التراشق بالتصريحات واتخاذ كل ما من شأنه أن يفسح للجنة السياسية جوا هادئا تعمل فيه على تحقيق النتائج المرجوة. وعدت إلى الفندق وكانت الساعة قد جاوزت السابعة مساء حيث وجدت برقية من السيد حسنى مبارك « الرئيس يوافق على كل ما اتخذته ويرى التحليل والتقدير ممتازا ويوصى بالتمسك بإعلان المبادئ وإبلاغ فانس بأن الرئيس كارتر والسادات قد اتفقا على أن يكون إعلان المبادئ هو الأساس ».



العشاء الأخير

وفى تمام الثامنة توجهت مع بعض أعضاء الوفد المصرى إلى صالة الاحتفالات فى الطابق الأول من الفندق حيث حفل العشاء وكنت أشعر بالانتعاش بعد أن أخذت دشا ساخنا وارتديت ملابسى وكانت أعصابى قد هدأت بعد الحديث مع بيجن والاتفاق الذى توصلنا إليه حول تلافى التصريحات التى تؤثر على أعمال اللجنة كذلك كانت برقية الرئيس السادات قد رفعت روحى المعنوية ، كما كنت أشعر بالارتياح وأتطلع إلى قضاء ساعتين وسط وجوه جديدة بعيدا عن جو العمل والأوراق والتوتر وجدران الغرف التى احتوتنا كسجن منذ وصولنا إلى القدس.

وبالفعل كان الحفل يموج بالمرح والناس كلهم يتطلعون بتفاؤل إلى نجاح فى المباحثات يؤدى بهم إلى السلام والسعادة المترتبة عليه. وكان عدد المدعوين يزيد على مائة شخص رجالا وسيدات بينهم السياسيون من رجال الحكومة ورجال المعارضة والكتاب والصحفيون والقضاة وعدد من القناصل العامين المعتمدين فى القدس. وتبادلت الحديث مع عدد كبير من المدعوين من بينهم شيمون بيريز زعيم المعارضة ولم نلبث أن دعينا إلى العشاء فانتقل كل إلى مكانه، وتوجهت إلى المائدة الرئيسية التى كان يتوسطها رئيس الوزراء بيجن فجلست على يمينه وكان فانس جالسا على يساره وإلى يمينى كانت تجلس زوجة موشى ديان ويليها ايجال يادين نائب رئيس الوزراء ورئيس حزب التغيير الديمقراطى.

وكنت أتبادل الحديث الخفيف مع بيجن تارة ومع زوجة ديان ويادين الذى أصر على محادثتى باللغة العربية تارة أخرى وقدمت لنا أصناف العشاء الواحد بعد الآخر.

وقبل نهاية العشاء فتح باب القاعة فجأة ودخل جيش طويل من المصورين والصحفيين ومندوبى شبكات التليفزيون وكان عددهم كبيرا للغاية والتفت إلى بيجن وقال فى زهو « العالم كله جاء إلى هنا ليشاهدنا يا سعادة الوزير » وأخرج من جيبه ورقة صغيرة وأطلعنى عليها وكانت فيها بعض عبارات مكتوبة باللغة العبرية وقال هذا هو خطابى فقلت له ضاحكا: « أرجو ألا يتسبب لنا فى مشاكل جديدة » فرد على: «بالطبع لا من يريد مشاكل جديدة ؟ ».

وبدأ بيجن يلقى خطابه وبعد دقائق كان قد بدد جو المرح وهدوء الأعصاب الذى كان يسود الحفل قبل خطابه ليحل محله جو من الغم والأسى إذ نقل المدعوين إلى جحيم دانتى فى « الكوميديا الإلهية » وهو يحكى تاريخ اليهود من أوله ويصف ما حاق بهم عبر العصور من عقاب وتشريد على يد فرعون مصر حتى يد هتلر واستمر فى محاضرته، وقد انتعش وهو فى حالة النشوة لسماع صوته المزعج غير آبه للمكان أو الزمان، وتعرض لما جاء فى كلمتى عند وصول الوفد إلى المطار ولكلمتى الافتتاحية فى افتتاح اللجنة السياسية وكأن هذا أخطر ما حاق باليهود من مآس.

كيف يجرؤ هذا القادم من مصر أن يطلب منا أن نعيد تقسيم عاصمتنا القدس بعد أن توحدت ؟ أيرضى أن أذهب إلى القاهرة وأطالبه بتقسيمها ؟ ويطالب بانسحابنا إلى حدود ما قبل سنة ١٩٦٧. أنسى أننا كنا ندافع عن أرواحنا وأولادنا ضد حربهم الهجومية ؟ والأكثر من ذلك يطالب بحق تقرير المصير للفلسطينيين العرب. لماذا ؟ لينشئ دولة إرهابية على أبوابنا ليذبح نساءنا وأطفالنا ؟

إن العرب تمتعوا بحق تقرير المصير فى إحدى وعشرين دولة وهم يريدون أن ينشئوا دولة جديدة بتقرير المصير ليقضوا على مصيرنا، إننى أقولها صريحة عالية : لا لتقسيم القدس .. لا للانسحاب إلى حدود سنة ١٩٦٧ ... لا لحق تقرير مصير الإرهابيين.

أساس السلام الوحيد

كان صوته المنفر يرن فى أذنى ويكاد يشلنى عن التفكير، وأنا فى حيرة من أمره فمنذ أقل من ثلاث ساعات طلب منى هذا الشخص نفسه أن يكف كلانا عن التراشق

بالتصريحات لكى نفسح المجال للجنة السياسية فى مباشرة سعيها للسلام بدون معوقات ووافقته على ذلك وتعاهدنا عليه أمام شهود من جانبه وشهود من جانبى. ماذا أفعل هل أغادر الحفل منسحبا ؟ هل أقوم وأصفعه ؟ هل أرد عليه بما فعله الإسرائيليون بالشعب الفلسطينى ؟ هل أذكره بأن يده هو نفسه مخضبة بدماء النساء والأطفال الذين ذبحهم فى دير ياسين ؟... وشعرت به ينهى خطابه ويدعو وزير خارجية مصر إلى إلقاء كلمته فى الحفل.

وقمت ببطء وقد تمالكت أعصابى ومزقت الورقة التى تحوى الكلمة التى كنت قد أعددتها لهذه المناسبة وتكلمت بهدوء قائلا : إنى أشكر حكومة إسرائيل على حسن استقبالها للوفد المصرى. وأننا عندما قبلنا الدعوة لحضور هذا الحفل كان يحدونا الأمل فى قضاء ساعات طيبة خالية من التوتر بعد عناء عمل يوم طويل شاق، كان هذا هو أملنا ولكن رئيس وزراء إسرائيل اختار غير ذلك وهذا حقه. إنى لا أعتقد أن هذا الحفل هو المكان المناسب للرد على ما قاله. كل ما أريد أن أقوله هنا هو المبادئ التى حددتها فى خطابى فى افتتاح اللجنة السياسية والتى يرفضها رئيس الوزراء هى الأساس الوحيد الذى يمكن أن يبنى عليه سلام عادل شامل. أما ردى على ما قاله فأحتفظ به لأقوله فى اجتماع اللجنة السياسية غدا فهى المنبر المخصص لذلك.

اسألوا مستر بيجن ؟!

وجلست دون أن أشرب نخب السلام أو نخب الداعى أو أصافحه، وساد سكون عميق لمدة ثوان ثم سمعت دوى تصفيق فى القاعة أعقبه شىء من الهرج وارتبك بيجن بعض الشىء، ثم سارع إلى الميكروفون يدعو وزير الخارجية الأمريكى لإلقاء كلمته وبعدها شعرت بيد بيجن تربت على كتفى فالتفت إليه وكانت تبدو على وجهه علامات الدهشة والقلق وقال : إنى لم أقصد إساءة فلم أرد عليه وحولت وجهى عنه، وانتهى فانس من خطابه وانتهى العشاء فقمت واتجهت مسرعا إلى « الأسانسير » لأذهب إلى غرفتى وأحاط بى بعض الصحفيين الأجانب وسألونى : هل ستقطع المباحثات؟ فقلت : اسألوا مضيفنا مستر بيجن.

وفى جناحى تجمع أعضاء الوفد ورؤساء تحرير الصحف المصرية وكانوا يستشيطون غضبا من بيجن. وقد أراحهم ردى عليه الهادئ المتزن حسبما قالوا ـ ولم

يلبث أن حضر فانس لزيارتى وقال : إنه آسف للغاية لتصرف بيجن وقال : إن كان هذا يعزيك فلقد عانيت منه تصرفا مشابها فى مناسبة سابقة فى واشنطن.

وبعد انصراف الحاضرين وكانت الساعة قد بلغت الثالثة صباحا جلست وحيدا أدخن حتى نفدت سجائرى وحاولت النوم فلم أستطع إلى أن استيقظ أحمد ماهر وحضر إلى فى الساعة السادسة صباحا فتناولنا إفطارنا بعض الفاكهة، وطلبت منه سيجارة ودخلت إلى سريرى حيث نمت حتى التاسعة والنصف.

الإعلان الأمريكى للمبادئ

وفى الساعة العاشرة اجتمعنا من جديد مع أعضاء الوفد الأمريكى برئاسة فانس وعرض فانس مشروع إعلان مبادئ أمريكى ولكننا لم نقبله إذ كان يقل كثيرا عن ما أعلنه كارتر فى أسوان فقال : إنه يدرك ذلك ولكن معارضة إسرائيل ستؤدى إلى عدم التوصل لإعلان مبادئ. وأجبته بأن مصر لا يهمها مجرد أى إعلان تحت عنوان «إعلان مبادئ » بل نحن نصر على إعلان واضح يؤدى الغرض ويشجع الأطراف العربية الأخرى على اتخاذ موقف إيجابى من المبادرة، وأننا نصر على أن ينص الإعلان على الانسحاب وحل القضية الفلسطينية من جميع جوانبها على أساس حق تقرير المصير. ولن نقبل صياغات غامضة.

وهنا عرض أثرتون (مساعد وزير الخارجية للشرق الأوسط) أن تتقدم مصر بمشروع بشأن الضفة الغربية وقطاع غزة مقابل مشروع بيجن الخاص بالحكم المحلى، وقد رفضنا ذلك فنحن غير مفوضين من أصحاب الشأن فى ذلك والمفتاح للتحرك فى هذا الاتجاه هو إعلان المبادئ الواضح الصريح.

وانفض الاجتماع على ذلك وقال فانس : إنه سيعاود الاتصال بنا من جديد، وبعد ساعة اجتمعنا ثانية مع الوفد الأمريكى وقال : إنه أدخل تعديلات على مشروعهم لإعلان المبادئ وسألنا عما إذا كنا نقبل نص ما ذكره الرئيس كارتر فى أسوان مع إضافة أن تكون المشاركة فى تقرير المصير عن طريق التفاوض. كذلك ذكر أن مفهوم الأمريكان للحقوق المشروعة للفلسطينيين هو الحقوق السياسية والحقوق العامة والحقوق الاقتصادية فهل نوافقهم على ذلك ؟ وبالنسبة للانسحاب والحدود فكان المشروع الأمريكى يربطهما فى مادة واحدة وكنا قد اعترضنا على ذلك، فهل نقبل الإشارة إليهما فى بندين مستقلين :

الأول : الانسحاب للقوات العسكرية من أراض احتلت سنة ١٩٦٧ .

والثانى : أن الحدود بين كل الدول فى المنطقة سوف تكون آمنة ومعترف بها .

وأخذنا نناقش ذلك إلى أن حانت ساعة الغداء فذكر فانس أنه يدعونا للعشاء معهم فى الساعة السابعة لمواصلة المناقشات ووافقنا على ذلك .

قرار مفاجئ

كان التعب والإرهاق قد استبدا بى فتناولت غداء سريعا وتوجهت للنوم بعد أن طلبت منهم عدم إيقاظى قبل السادسة والنصف لأتهيأ لحضور عشاء فانس فى الساعة السابعة. وكنت أغط فى نوم عميق أقرب إلى الموت عندما شعرت بيد تهزنى هزا عنيفا وصوت ينادينى ليوقظنى ولكنى لم أستجب وتكرر ذلك إلى أن صحوت من النوم، ولكن دون أن يستيقظ عقلى ووجدت شخصا غريبا لم أره من قبل يقف بجوار سريرى ولم أدر كيف وصل إلى غرفة نومى وسألته : من أنت ؟ فقال : إنه رئيس غرفة الاتصالات المصرية وأنه يحمل لى برقية عاجلة وصلت من الرئيس السادات، وأنه يحاول إيقاظى منذ نصف ساعة دون جدوى وتأسف لاضطراره لذلك .

وحاولت قراءة البرقية أكثر من مرة دون أن أستطيع أن استوعب شيئا منها فقمت وغسلت وجهى بالماء البارد وعدت أقرأها فكانت تعليمات من الرئيس السادات بأن أعود مع الوفد إلى القاهرة على الفور بعد أن تبين أن إسرائيل تعمد إلى تمييع الموقف وطرح حلول جزئية، وأن تصريحات ديان بوجوب إجراء التوصل إلى حل وسط وخطاب بيجن فى حفل العشاء أوضحا عقم استمرار اللجنة فى أعمالها. وطلب منى الرئيس فى البرقية أن أوضح أن أمر العودة ليس قطعا للمباحثات وإنما مجرد استدعاء وأن أقابل فانس لأشرح له الظروف. وأبلغه أن الرئيس يرغب فى مقابلته فى القاهرة.

ولم يكن أحب إلى من ترك القدس والعودة إلى القاهرة، ولكننى أدركت على الفور خطورة هذا القرار المباغت - دون سبق التشاور معى - وأننا بذلك نلعب بين أيدى مناحم بيجن الذى سيقيم الدنيا ويقعدها ويصور هذه الخطوة بأننا غير جادين فى السعى للسلام وإلا فما معنى قطع المباحثات الجارية فى اللجنة السياسية، وقد بدأت بالكاد ومن الناحية الثانية أدركت أن سحب الوفد بدون سابق إخطار سيكون لطمة مباشرة لوزير الخارجية الأمريكى سيروس فانس الذى جاء من واشنطن تاركا أعماله ليساهم

فى محاولة التوصل إلى حل، والذى كان يعمل جاهدا مخلصا على ذلك ويتخذ موقفا كريما متفهما لوجهة نظرنا.

اتجهت على عجل إلى غرفة الاتصالات المصرية وطلبت الاتصال بالرئيس السادات إلا أنى لم أجده فى أى مكان فاتصلت بالسيد حسنى مبارك نائب الرئيس وأبلغته بوجهة نظرى فقال : إن القرار قد اتخذ من مجلس الأمن القومى، ولا سبيل إلى التراجع فيه، فاقترحت عليه أن يبلغ الرئيس بأن أعود وحدى وأترك الوفد لمتابعة الاتصالات المقررة فى العشاء مع فانس ومعرفة آخر موقف. وأضفت أن استمرار انعقاد اللجنة السياسية قد يكون مهما على ضوء اجتماعات مجلس الوزراء الإسرائيلى لبحث المقترحات الأمريكية، وأن قطع الاتصال سيستغله بيجن فى لومنا فى حين أن مصلحتنا فى أن يبدو استدعاء الوفد نتيجة لموقف إسرائيل المتعنت والذى ينتظر إعلانه بعد اجتماعات مجلس الوزراء الإسرائيلى، وبالتالى نحملهم مسؤولية فشل الاجتماع. ووعد السيد نائب الرئيس بنقل ذلك ومعاودة الاتصال بى.

وبعد حوالى ثلث ساعة اتصل بى نائب الرئيس من جديد وأبلغنى أن القرار قد صدر ووصل إلى علم وسائل الإعلام، وأن راديو القاهرة يذيع الآن البيان المصرى الرسمى حول أسباب استدعاء الوفد الرسمى من القدس. وأنه أصدر الأوامر بسفر طائرتين مصريتين من القاهرة لعودة الوفد إليها وتمنى لى التوفيق.

عدت إلى غرفتى واجتمعت بأعضاء الوفد لبحث الموقف وفى هذه الأثناء وصلتنى برقية ثانية من الرئيس السادات بأن أقابل رئيس الوزراء الإسرائيلى قبل عودتى إلى مصر لأوضح له أسباب استدعاء الوفد المصرى (دون أن يوضح هذه الأسباب) وأن أبين له أن هذا ليس قطعا للمباحثات وإنما مجرد استدعاء مؤقت لحين دراسة الموقف.

فى هذه الأثناء اقتحم فانس الحجرة ودخل، وكنت لا أزال بالبيجامة، وكان يبدو منزعجا حزينا وسألنى عن صحة خبر استدعاء الوفد للعودة إلى مصر فأكدته له. ودعوته إلى الجلوس فشكرنى وقال: لماذا لماذا لماذا ؟ وأخبرته بأننى أسأل السؤال نفسه ولكنى أود ابتداء أن أؤكد له تقديرنا الخاص لجهوده المخلصة وتفهمه لموقفنا، وهو ما كنت أحيط الرئيس به أولا بأول، وقلت له : إنه يدرك ولا شك اعتماد الرئيس على الولايات المتحدة وعلى الرئيس كارتر وعليه شخصيا فى تحقيق السلام . وأن الرئيس طلب منى أن أقابله وأشرح له سبب استدعاء الوفد وأنه لا يقصد المساس به

من بعيد أو قريب وإنما رأى الرئيس خطرا محققا فى أساليب بيجن التى تستهدف إضاعة الوقت والدخول فى مساومات ومتاهات فرعية لن تؤدى إلى شىء، وأشرت إلى تصريح الإذاعة الإسرائيلية الذى واكب وصول الوفد المصرى للقدس من أن الرئيس السادات قد أبلغ بيجن أن زعماء منظمة التحرير الفلسطينية هم عملاء شيوعيون وإلى المؤتمر الصحفى الذى قام به وزير الخارجية ديان أمس - والذى رفض كلانا المشاركة فيه لعدم جدواه قبل انتهاء اجتماعات اللجنة - وما أعلنه من ضرورة أن تتم التسوية على أساس تنازلات إقليمية. ثم إلى خطاب بيجن الذى استمع إليه بنفسه بعد أقل من ثلاث ساعات من اتفاقه معى على عدم الإدلاء بتصريحات من شأنها إعاقة عمل اللجنة .. لكل هذا رأى الرئيس أن الأمر يحتاج إلى وقفة نستأنف بعدها المحادثات على أساس بناء. وأبلغته أن الرئيس السادات يدعوه إلى القاهرة ليشرح له الأمر ويتشاور معه.

وقال فانس : إنه لا شك فى أن بيجن لم يصبه التوفيق وكان فى إمكانه تهيئة جو أفضل للمباحثات، وأكد أنه سيسافر إلى مصر لمقابلة الرئيس، وذكر أنه يعتقد أنه كان قد اقترب من موافقة إسرائيل على نص خاص بالمشكلة الفلسطينية قد يكون مقبولا لنا، وأنه كان يفضل لو أمهل فرصة ٢٤ ساعة أخرى ليحاول التأثير على بيجن الذى يلعب معه على أنه رجل قوى وأنه القادر الوحيد على إزالة العقبات ودخول التاريخ كرجل سلام، وأنه كان يعتقد بأن الأمور كانت ستتضح له سلبا أو إيجابا فى خلال هذه الأربع والعشرين ساعة بحيث يستطيع أن يذهب إلى مقابلة الرئيس السادات ومعه تقييم كامل للموقف يوضح ما هو ممكن وما هو غير ممكن حتى يستطيع السادات أن يتخذ قراره على ضوء ذلك، وأضاف أنه يخشى أن يكون لقرار استدعاء الوفد المصرى للعودة تأثير سلبى على الرأى العام الأمريكى الذى قد يراه قرارا متسرعا ليس له مبرر كاف، وأنه سيضطر إلى أن يقول للصحافة أنه كان يشعر أننا فى الطريق نحو تقدم وأن المباحثات كانت مفيدة وإنه يأسف لقرار مصر .

وفى هذه الأثناء استدعى فانس ليتحدث مع الرئيس كارتر الذى طلبه تليفونيا وعاد فأخبرنى أن كارتر قلق للغاية من قرار استدعاء الوفد المصرى للعودة، وأنه أى الرئيس كارتر سيتصل تليفونيا بالرئيس السادات ليرى ما يمكن عمله كما أخبرنى أن بيجن قد اتصل به بدوره يستفسر عن سر سحب الوفد، فقلت له : إن لدى تعليمات من الرئيس

السادات بمقابلة بيجن قبل العودة . فقال إنه سيعاود الاتصال بى بعد انتهاء مقابلتى لرئيس الوزراء الإسرائيلى وقبل سفرى.

اتضاح أهداف بيجن

فى الساعة الثامنة والنصف مساء توجهت إلى مكتب رئيس الوزراء الإسرائيلى وبصحبتى السفير أحمد ماهر وكان جمهور كبير من الإسرائيليين قد تجمع أمام المبنى الذى يضم مكتب رئيس الوزراء، وكان القلق يبدو على وجوههم كانت أخبار استدعاء الوفد المصرى للقاهرة قد انتشرت وعند دخولنا المبنى إنهالت علينا أسئلتهم ماذا حدث؟ هل ستقطع المباحثات ؟ هل فشلت جهود السلام ؟

استمرت المقابلة بينى وبين بيجن نحو ساعتين حضر الشطر الأخير فيها موشى ديان، وقد بدأت الحديث فشرحت بلغة واضحة صريحة كل ما كان فى نفسى بشأن التصريحات والتصرفات والمواقف الإسرائيلية من مبادرة السلام، وانتهيت من ذلك إلى أن هذا الأسلوب لن يؤدى إلى شئ غير ضياع فرصة تاريخية لتحقيق السلام الشامل وأن مسؤولية ذلك تقع عليه بالكامل.

وشرع بيجن فى الرد فقال : إنه لم يفعل شيئا لم يقله من البداية لقد جاء السادات إلى القدس يطلب منهم الانسحاب إلى حدود ما قبل سنة ١٩٦٧ والاعتراف بحقوق الفلسطينيين، وقد رد عليه بيجن فى خطابه بأنه لن يفعل وكل شىء قابل للتفاوض. وفى الإسماعيلية قدم بيجن مشروعه للسلام فلم يوافق السادات وقدم مقترحات وعدنا بدراستها. ولماذا يغضب السادات على اعتراضى على عدم تسمية الضفة الغربية فى المشروع الأمريكى بجوديا وسماريا لقد اتفقنا فى الإسماعيلية على أن يعبر كل من الطرفين عن الاسم بالطريقة التى يراها بل إن الرئيس السادات نفسه استعمل تعبير جوديا وسماريا فى المؤتمر الصحفى بالإسماعيلية فلماذا الغضب الآن ؟ وبعد الإسماعيلية هدد السادات بحرب جديدة إذا لم توافق إسرائيل على مطالبه قبل أكتوبر سنة ١٩٧٨ (موعد انتهاء فترة قوات الطوارئ الدولية).

وكان تعبيره « أن على أن أنتظر أكتوبر وأن العرب ممكن أن يتحدوا وتحدث أكتوبر جديدة » أى أنه يهددنا تهديدا مباشرا بالعدوان « والهولوكوست » كيف يفعل هذا ونحن نتفاوض على السلام. وقد وعدنى بأن تكون حرب سنة ١٩٧٣ آخر الحروب بين مصر وإسرائيل.

أنتم تعتبرون أنكم انتصرتم فى حرب أكتوبر نحن لا نحب التباهى ونقول : إنه فى الأيام الأولى للحرب كانت لدينا صعوبات كثيرة وضحايا ولكن فى النهاية استطعنا أن نرد من هاجمونا على الجبهتين. ثم يأتى السادات الآن ويهددنا بحرب جديدة. نحن لا نخشى التهديدات. وقال إن السادات قال لمجلة « أكتوبر » إنه أعطانا كل شىء ولم أعطه أى شىء إنظر يا سيادة الوزير إلى الخريطة هل هذا لا شىء (كانت هناك خريطة كبيرة على الحائط لسيناء) وأن السادات قال فى حديثه : إن اليهود تجار شطار. أنا مناضل ولست تاجرا ولا ديان ولا وايزمان ولا شارون نحن مناضلون نمثل شعبنا الذى انتخبنا ويجب أن نرعى مصالحه.

ثم تأتى أنت إلى القدس كضيف وتجرح شعورنا بأن تطلب منا أن نترك القدس قلبنا. هذه عاصمتنا قسمت وحررناها فى سنة ١٩٦٧ واتخذنا قرارا ديمقراطيا بعودتها إلينا ولم نسمع دولة فى العالم تقول أن عاصمتها يمكن تقسيمها، تطلب منا أن نترك الجولان لكى تعود مسدسا مصوبا إلى رؤوسنا، تطلب منا أن نتنازل عن « جوديا وسماريا » مهد حضارتنا وتاريخنا، وكان لابد أن أرد عليك بخطاب سياسى وكانت فرصتى هى حفل العشاء، وهذا متبع فى كل مكان.. ثم يأتى الرئيس السادات فى منتصف المباحثات ويقطعها ويستدعيك.. لن نقسم القدس ولن نعود إلى حدود سنة ١٩٦٧ وهذا ما سمعه منى الرئيس السادات فى الكنيست وهذا ما قدمته له فى الإسماعيلية.

وأنهى بيجن حديثه بسؤالى : هل ترى نشر محضر هذه المقابلة بالكامل ؟ قلت : إننى سأقابل الرئيس وأنقل له ما ذكرت. فقال إذا لم تشأ أن ننشر شيئا عن المقابلة فلا نشر. فقلت له أنت حر فى النشر من عدمه وسأنقل كلامك إلى الرئيس. وهنا التفت بيجن إلى ديان وسأله ما رأيه. وقال ديان إنه لا يرى النشر، ولكن الوزير كامل سيدلى بالطبع بتصريحات للصحف عندما يسأل عما تم فى المقابلة فقال بيجن : « لماذا لا نقول أننا تحدثنا قبل سفرك عند استدعاء الرئيس لك وأنك شرحت لى أسباب ذلك وأننى عبرت عن الأسف لسفرك وأننا مستعدون لاستئناف المباحثات فيما بعد ؟ ».

أجبته بأنه لا مانع لدى من ذلك وأن استدعائى لا يعنى بالضرورة قطع المباحثات، وإنما هو للتشاور قبل اتخاذ خطوة جديدة.

فقال ديان : إنه يوافق على ذلك ويجب ألا ننسى أن هناك طرفا ثالثا يشترك معنا اشتراكا فعليا فى المباحثات هو الولايات المتحدة، وقد قرر فانس أن يبقى فى القدس غدا حتى ولو لم يكن هناك ما يفعله، وسيقابل بيجن غدا لأنه يريد الإبقاء على باب استمرار المحادثات مفتوحا. ومن المهم ألا نصرح بشىء يخلق المشاكل للطرف الثالث فى المباحثات.

واتفقنا على ذلك ولم يكن يهمنى ما ينشر أو ما لا ينشر عن المقابلة كان كل ما يهمنى أنى تأكدت تماما مما كنت أتصوره عن أساليب وأهداف مناحم بيجن من المفاوضات : كسب الوقت دون التفريط فى شىء مما تضع عليه إسرائيل يدها. وعلى أساس ذلك يجب أن يتحدد موقفنا وتكتيكنا.

كيف تنقل إسرائيل أفكارها ؟

عند عودتنا إلى الفندق كانت الساعة نحو الحادية عشرة مساء وكان بهو الفندق يعج بمراسلى الصحف والإذاعات الذين أحاطونا بالأسئلة، ولم أزد عن أن أقول إنى عائد لمصر للتشاور مع الرئيس بشأن الخطوة التالية.

وفى غرفتى والاستعداد للسفر على قدم وساق حضر فانس من جديد فأحطته بمضمون المقابلة وعبر لى من جديد عن أسفه لموقف بيجن المتشدد وقال : إن العملية تحتاج إلى وقت ومثابرة وأنه سيزور القاهرة بعد غد وهو فى طريق عودته إلى واشنطن لمقابلة الرئيس السادات. وانتهى الحديث بيننا وكنت انتظر انصرافه حتى أغادر الفندق ويبدو أنه فهم ذلك فقال إنه سيذهب إلى المطار لوداعى فقلت : إن هذا مستحيل لأن المطار يبعد ساعة عن القدس ومعنى ذلك أن يعود إليها فى الساعة الثالثة صباحا بعد يوم طويل شاق. قال : إنه يدرك ذلك ولكنه يريد إظهار أن قرار استدعاء الوفد المصرى لم يؤثر عليه فى شىء وأنه يهمه أن يعرف الناس أن علاقته بى وبمصر ثابتة ومستمرة.

شكرت فانس وقلت له : إنه يكفى لذلك زيارته لى فقال : إنه إذن سينزل معى ليوصلنى إلى السيارة حتى يشاهده جموع الصحفيين المنتظرين ببهو اللوكاندة وقد فعل.

ركبت السيارة فى صحبة ديان من جديد واتجهت إلى مطار بن جوريون، وقد تبادلنا الحديث لبعض الوقت وقال لى : إنه آسف لخطاب بيجن على العشاء لأنه فى اعتقاده السبب المباشر لاستدعاء الوفد المصرى وقال : إن بيجن رجل مهذب ولكنه لا يسعه أن يقاوم أية مناسبة ليشرح التاريخ اليهودى ومعتنقاته السياسية وانتهى الحديث وانصرف كل منا إلى تأملاته.

وفى المطار لم نجد الطائرة. كانت قد سافرت لنقل الفنيين الملحقين بالوفد على أن تعود. وقد استغرق ذلك أكثر من ساعة قضيناها فى كافيتريا المطار حيث قدمت لنا السندوتشات وكنت أجلس على مائدة صغيرة مع ديان وبطرس غالى، ولم أشارك فى الحديث إذ كنت غارقا فى التفكير. وكان ديان يتحدث عن اتصالاته ومعرفته بالكثير من الفلسطينيين الذين نشأ بينهم فقد كان من « السابرا » أى اليهود المولودين فى فلسطين، ولم يهاجروا إليها من الخارج وسمعته يقول لبطرس غالى إن قطاع غزة لا يهمهم فى قليل أو كثير لأنه مساحة صغيرة يسكنها أكثر من ٤٠٠ ألف فلسطينى، وليس له موارد اقتصادية فكل ما فيها ثعابين وصخر وفقر، وإذا كان ذلك يسهل الأمور فإنهم على استعداد للتنازل عنها، متى تعهدنا بألا نجعلها منطلقا للإرهابيين ضد إسرائيل. ولم أعر ذلك أى اهتمام إلا بعدها بشهور عديدة عندما أثار بعض رجال الكونجرس الأمريكان المتعاطفين مع إسرائيل مع سفارتنا فى واشنطن أنه يمكن فى المباحثات بين مصر وإسرائيل البدء بحل الأوضاع فى غزة ... ولم تلبث أن وصلت الفكرة إلى السادات فتبناها ... وعجبت لقدرة إسرائيل فى نقل أفكارها.

لا تضع البيض كله في سلة واحدة

كانت الساعة قد بلغت الخامسة صباحا عندما وصلت إلى منزلى عائدا من القدس. دهشت لوجود أضواء تنبعث منه فى تلك الساعة المبكرة وعندما دخلت علمت أن زوجتى تتأهب للذهاب إلى المطار فى طريقها إلى ألمانيا، لإعداد نقل ملابسنا التى تركناها هناك عند حضورنا إلى مصر، إبان زيارة المستشار شميت فى آخر ديسمبر (كانون الأول) ١٩٧٧.

تبادلت وزوجتى التحية، وخرجت هى إلى المطار، بينما استغرقت أنا فى نوم عميق، أفقت منه فى الساعة التاسعة على جرس التليفون المتصل بالرئيس، وهو يدق بدون انقطاع. رفعت السماعة وكان المتحدث أحد أمناء الرياسة الذى أخبرنى بأن الرئيس ينتظرنى فى الساعة الحادية عشرة فى استراحة القناطر الخيرية والتى تبعد نحو ساعة عن القاهرة، وقد غضبت لإقلاقى من النوم، وقلت له أن يخبر الرئيس بأنى سأذهب إليه بعد أن أرتاح، ولن يكون ذلك قبل الواحدة ظهرا.

حقيقة الدور الأمريكى

وصلت القناطر فى نحو الساعة الواحدة والنصف فوجدت الرئيس السادات جالسا فى الحديقة مع السيد حسنى مبارك، والسيد ممدوح سالم رئيس الوزراء. رحبوا بى ترحيبا حارا وأخذت أحكى لهم ما جرى خلال الزيارة فى القدس. ثم سألت الرئيس

لماذا استدعاني، الأمر الذي قد يسبب حساسية « لفانس » والذي سيستغله بيجن بدون أدنى شك ؟

رد السادات قائلا : إن الاستدعاء كان نتيجة تصرفات وتصريحات بيجن وديان وأنه بعد تصريح ديان في افتتاح اللجنة السياسية بأنه لابد من تنازلات من الجانبين، أحس بالقلق وخشي أن أتورط في بعض التنازلات، فقلت له ومـاذا يدعوك إلى هذا الخوف فأنا لا أملك التنازل عن شيء، وقد كنت على اتصال مستمر به في كل خطوة وفي كل وقت ؟

وأخبرني أن الرئيس كارتر قد اتصل به تليفونيا أمس بعد قراره بسحب الوفد المصري، وأنه ألح عليه في أن تستأنف اللجنة السياسية أعمالها في أقرب وقت ولكنه رفض ذلك، ورأى إكراما لخاطر كارتر أن يوافق على اجتماع اللجنة العسكرية فقط !! ولم أفهم الحكمة من ذلك فعدت ألفت انتباهه إلى أن هذا قد يثير الشكوك العربية في أن ما نسعى إليه هو استرداد سيناء، وليس الوصول إلى حل شامل، فقال إنه لا يبالي بما يقوله العرب، وإنما فعل ذلك إرضاء لصديقه كارتر.

ثم دعاني إلى حضور فرح ابن عثمان أحمد عثمان في الساعة الثامنة والنصف مساء فقلت : إن هذا محال لأني متعب جدا ومحتاج إلى نوم عميق إلا أنه أصر قائلا : أن السهرة ستستمر ونم كما تشاء ثم أحضر حتى ولو عند منتصف الليل.

ذهبت صباح اليوم التالي إلى المطار لاستقبل فانس عند وصوله من إسرائيل ثم اصطحابه إلى استراحة القناطر لمقابلة الرئيس السادات. وقد شرح لفانس أسباب استدعاء الوفد من القدس وشكر له دوره البناء في المباحثات كما شرحته له : وقال إن السبب في قراره يعود إلى الموقف الإسرائيلي المتصلب الذي لم يتجاوب مع المناخ البناء الذي خلفته زيارته للقدس واستمرار الجانب الإسرائيلي في المعوقات التي تعمل على تخريب هذا الجو. كان السادات يسعى بكل الطرق لأن يكون الدور الأمريكي في المباحثات نشيطا ومثمرا ولا يقتصر على دور وسيط سلبي.

كان يريد أن يصل إلى أن تصبح الولايات المتحدة شريكا كاملا في المباحثات وكان يرى أنه بعد أن تتكشف الأهداف الحقيقية الإسرائيلية كما ظهر من إصرارهم على الاحتفاظ بالمستوطنات في سيناء ومطالبتهم بالسيادة على الضفة الغربية وغزة فإن

المسئولية تقع على الولايات المتحدة فى الضغط على إسرائيل لتغيير موقفها. وسلم فانس مشروعا أمريكيا لإعلان المبادئ للرئيس كما وجه دعوة الرئيس كارتر للسادات لزيارته فى كامب ديفيد يوم ٤ فبراير (شباط) القادم وقبل السادات الدعوة وكان بادى السعادة بها.

ومع تقديرى لأهمية الدور الأمريكى فى المباحثات ومشاركتها فيها إلا أننى كنت أشعر بأن السادات يبالغ كثيرا فيما تستطيع الولايات المتحدة أن تقوم به، وكنت أخشى أن يؤدى هذا الارتماء عليها إلى خمول فى النشاط الدولى الضاغط على إسرائيل، وكنا قد كافحنا سنين طويلة حتى حققنا نجاحا طيبا فى هذا السبيل، ومن الناحية الثانية كان واضحا لدينا أن الولايات المتحدة تعمل على الاستئثار بالموقف والتوصل إلى حل أمريكى للنزاع.

وكنت أرى خطرا محققا فى أن تخرج قضية الشرق الأوسط بشكل أو بآخر من دائرة المشاركة والاهتمام الدولية وتتركز بين يدى الولايات المتحدة وتكون هى وحدها الحكم بين العرب وإسرائيل.

وقد حدثت وقتها واقعة أكدت مخاوفى، إذ أبلغتنا سفارتنا فى نيودلهى بأن الولايات المتحدة قد قامت مؤخرا بمساع لدى حكومة الهند كى تعترف بإسرائيل وتتبادل التمثيل الدبلوماسى معها. وكانت الهند من الركائز الأساسية فى مساندة الحقوق العربية وإدانة العدوان الإسرائيلى على أراضينا.

وقد رفضت الهند ذلك إلا أن السعى الأمريكى كان له دلالة. وحدث أن قام أثرتون بزيارتى فى هذه الأثناء وقد صارحته بموضوع مساعيهم لدى الهند لتعترف بإسرائيل فنفى ذلك نفيا تاما ولكنى أخبرته أنى على يقين من حدوث ذلك فوعدنى بتحرى الأمر والرد على.

وفى اليوم التالى زارنى وأيد صحة المسعى وبرره بأن الولايات المتحدة تعتقد أن شعور إسرائيل بالخروج من العزلة التى تعانى منها فى المحيط الدولى - واعتراف الهند بها خطوة فى هذا السبيل - سيكون له تأثير ايجابى على سياستها المنشودة، وتتجه بالتالى إلى المرونة فى موقفها. وأضاف أنه كان هناك اتفاق شفهى بعد توقيع اتفاقية

فض الاشتباك الثانية بأن مصر لن تعارض « نشاط » عودة العلاقات الدبلوماسية بين إسرائيل والدول الأخرى.

وقد أجبته بأنى أعتقد أنه كان من اللائق أن تفاتحنا الولايات المتحدة فى الأمر بدلا من قيامها بهذا المسعى من وراء ظهورنا، ومن الناحية الثانية فقد أثبتت هذه السياسة عقمها بل خطورتها وليس أدل على ذلك من أن الولايات المتحدة كانت تبرر دائما إمداداتها لإسرائيل بالأسلحة المطلوبة بأن من شأنه أن تشعر إسرائيل بالأمان، وبالتالى تتجه إلى المرونة فى حين أن الذى كان يحدث دائما هو العكس تماما فكلما امتلأت ترسانتها من الأسلحة الأمريكية ازداد صلفها وتعنتها واستخدمت هذا السلاح فى العدوان من جديد وفى العمل على تكريس احتلالها للأراضى. أما عن الاتفاق الشفهى الذى أشار إليه فأنا لا أعلم عنه شيئا وكل ما أستطيع أن أؤكده له أننا سنعارض « بنشاط » عودة علاقات إسرائيل مع الدول الأخرى إلى أن يتم التوصل إلى السلام.

ومن المؤكد أن الولايات المتحدة كانت تبذل نفس السعى لدى الدول الأفريقية التى قطعت جميعها علاقاتها بإسرائيل إثر حرب سنة ١٩٦٧. وكان الأساس الذى استندت إليه الدول الأفريقية فى ذلك هو أن إسرائيل قد احتلت جزءا من أراضى مصر وهى دولة أفريقية عضو فى منظمة الوحدة الأفريقية. أما الآن وقد دخلت مصر مع إسرائيل فى مفاوضات مباشرة فليس هناك حرج على الدول الأفريقية فى أن تعاود علاقاتها مع إسرائيل. ولم يحل دون ذلك فى الواقع إلا تطلع الدول الأفريقية إلى مساندة الدول البترولية العربية لها فى مواجهة الأزمات الاقتصادية التى حاقت بها بعد ارتفاع أسعار النفط، ومن الناحية الأخرى ساعد على ذلك التواطؤ الإسرائيلى الذى تكشف أبعاده مع النظام العنصرى فى جنوب أفريقيا.

موقف تحيط به التناقضات

ومن ناحية ثالثة فلم تكن سرا الضغوط الأمريكية الفجة أحيانا على مجموعة الدول الأوروبية لعدم اتخاذ مبادرات أو مواقف لحل النزاع العربى الإسرائيلى رغم ما لهذه الدول من مصالح حيوية فى استقرار منطقة الشرق الأوسط الأمر الذى لا يتحقق إلا بسلام شامل فى المنطقة، بدعوى أن ذلك يؤثر على جهود السلام الأمريكية الجارية.

وماذا عن مجموعة دول عدم الانحياز التى ساندت الموقف العربى بكل قوة وإيجابية؟ لقد وجدت نفسها فى موقف بالغ الحرج والصعوبة إزاء الانقسام الذى حاق بالأطراف العربية فى المواجهة مع إسرائيل بعد قيام الرئيس السادات بزيارة القدس. وأترك توضيح انعكاسات المبادرة المصرية على الموقف العربى وموقف دول عدم الانحياز وعلى الموقف الدولى عامة للرئيس جوزيف بروز تيتو حسبما جاء فى خطابه إلى الرئيس السادات فى يناير (كانون الثانى) ١٩٧٧:

« .. ومع ذلك أخذا فى الاعتبار الحقيقة - غير القابلة للشك - بأن مصالح مصر وسوريا والشعب الفلسطينى هى متبادلة ومتصلة بشكل يجعلها غير قابلة للانقسام، فقد خشينا منذ البداية أن عملا منفردا من مصر سيترتب عليه سوء تفاهم كبير وخلافات صعبة بين الدول العربية بالإضافة إلى التباين فى ردود فعل دول عدم الانحياز. وللأسف فإن مخاوفنا هذه قد ثبتت صحتها.

إن الموقف الراهن فى العلاقات العربية يثير قلقنا خاصة بسبب الانقسام الذى حدث بين الدول العربية، وأنا على يقين شديد بأن هذا الانقسام يسبب أضرارا بالغة، ليس فقط على صعيد العلاقات العربية المتداخلة، ولكن على الموقف العربى بأكمله وعلى موقف الفلسطينيين الذين وجدوا أنفسهم فى وضع بالغ التعقيد والصعوبة. كما أن هذه الحالة فى نفس الوقت ضارة بحركة عدم الانحياز وكذلك أنا مقتنع بأنها ضارة بمصالح المجتمع الدولى بوجه عام وكلاهما (يقصد حركة عدم الانحياز والمجتمع الدولى) قد أيدا بدون أنانية عبر السنين الكفاح العادل للدول العربية ومنظمة التحرير الفلسطينية.

وأنا أعتقد أن إسرائيل سوف تنظر إلى الانقسام السائد الآن بين الدول العربية كميزة كبيرة لها، وأنها ستمارس تشددا أكبر وسوف تبدى عدم استعداد لإبرام اتفاقيات سلام مقبولة للدول العربية المعنية مباشرة ومنظمة التحرير الفلسطينية بوصفها الممثل الشرعى الوحيد للشعب الفلسطينى.

وللأسف فانى لا أرى فى إسرائيل اليوم أى رجل دولة بعيد النظر بحيث يعنى له السلام والصداقة وعلاقات حسن الجوار مع الدول والشعوب العربية، أهمية أكثر من الجشع لضم الأراضى العربية وفرض شروط غير مقبولة على أساس تفوق إسرائيل الحالى والمرحلى فى الشرق الأوسط.

وباختصار فقد كنا فى موقف صعب تحيط به التناقضات ما بين محاولتنا بأن تلقى الولايات المتحدة الأمريكية بكل ثقلها ومالها من قوة تأثير مفترضة على إسرائيل فى مباحثات السلام، وبين أن نحافظ على الموقف الدولى المؤيد بوجه عام للقضية العربية، والعمل على ألا يتآكل هذا الموقف أو يصيبه الجمود أو الذبول من جراء التواكل والاعتماد على الولايات المتحدة وحدها.

كان علينا أن نعمل بإصرار لإنقاذ الموقف العربى من الانقسام الذى مزقه، ومحاولة التوصل إلى حد أدنى من التضامن والتعامل مع الدول الرافضة واستثمار إمكانيات الدول العربية التى أيدت المبادرة واجتذاب تلك التى وقفت منها موقفا محايدا أو سلبيا - تراقب التطورات - إلى صفنا.

كان علينا أن نعمل على وقف التدهور المستمر فى علاقاتنا بالاتحاد السوفيتى خاصة ودول الكتلة الشرقية عامة، وأن نصل إلى مستوى من التعامل والتفاهم معه يقينا محاذير معاداته ويتيح لنا السبيل للاستفادة من امكانياته. وكان علينا أن نكون مستعدين ليوم تلقى فيه المبادرة حتفها ما بين التصلب الإسرائيلى والخذلان الأمريكى ونلتفت حولنا فلا نجد معينا.

ولم يكن كل ذلك سهلا أو هينا مع الرئيس السادات الذى كان قد كفر بالاتحاد السوفيتى وضاق ذرعا بالعرب، والذى استبد به اعتقاد بأن مبادرته غير قابلة للفشل وأن نظرية الدولتين العظميين هى نظرية خاطئة فليس فى العالم سوى قوة عظمى واحدة هى الولايات المتحدة. وهى وحدها الكفيلة والقادرة على الوصول بمبادرته إلى غايتها فى تحقيق السلام العادل الشامل فى الشرق الأوسط.

وقد قامت وزارة الخارجية بنشاط كبير وجهود مكثفة فى كل هذه الاتجاهات، نجح الكثير منها وفشل بعضها بسبب عدم تقدير السادات لأهمية أى جهد ينصرف إلى غير الولايات المتحدة، أو لا يكون فى تقديره على هواها.

الفصل الحادي عشر

كامب ديفيد فبراير سنة ١٩٧٨: السيناريو

انتهى الإعداد لزيارة الرئيس السادات للولايات المتحدة المحدد لها ٤ فبراير (شباط) ١٩٧٨ وقد تقرر أن تبدأ الرحلة بزيارة الملك الحسن فى الرباط كما تقرر أن يزور السادات كلا من انجلترا وألمانيا الاتحادية ورومانيا وفرنسا وايطاليا والفاتيكان فى طريق عودته من الولايات المتحدة. وقد استغرقت رحلة الطائرة إلى المغرب أكثر من خمس ساعات حيث أخذت الطائرة خط سير طويلا متعرجا لتفادى الطيران فوق الأراضى الليبية لاعتبارات الأمن إذ كان هناك تخوف من أن العقيد القذافى لن يتورع عن اختطاف الطائرة أو حتى إسقاطها.

وكان الملك الحسن فى استقبال الرئيس السادات فى مطار الرباط وقد اصطحبه إلى أحد قصور الضيافة خارج المدينة وعدت مع باقى الوفد إلى فندق شيراتون حيث تقرر نزولنا. ولم نر السادات إلا فى اليوم التالى حيث كانت هناك اجتماعات ثنائية بينه وبين الملك الحسن. أما باقى الوفد فقد دعى إلى العشاء فى قصر أحد رجال الحاشية الملكية وحضر العشاء معنا وزير الخارجية المغربى أحمد بوستة وعدد من الوزراء ورجال البلاط الملكى.

جسر الاتصال العربى

وكان جل اهتمامنا فى الأحاديث التى دارت مع الوزير بوستة ومعاونيه أثناء العشاء هو الاستفادة من الجهود المغربية كجسر للاتصال والتفاهم مع الدول العربية الأخرى،

وكانت تربط الملك الحسن بالنظم الملكية العربية الأخرى علاقات خاصة وبالذات مع المملكة العربية السعودية ومع المملكة الأردنية الهاشمية، وكنا نعول كثيرا على هاتين الدولتين واجتذابهما إلى صفنا فى مبادرة السلام.

ودون الخوض فى الأوضاع الداخلية فقد تركت زيارتى القصيرة للمغرب أثرا رومانسيا جميلا فى نفسى فهو بلد احتفظ بشخصيته وتقاليده، وهى مزيج من التقاليد العربية الاسلامية والبربرية... فى كل شىء فى العمارة والزى والطعام... الخ.. دون أن يحول ذلك وأخذه بالأساليب والتطورات العصرية.

أما الملك الحسن فلاشك أنه رجل ذكى ولكنه فى تقديرى يشعر بذاته وكيف لا وهو تحيط به هالة من القدسية لأنه ينتسب فى أصوله إلى سيدنا محمد. وهو ابن محمد الخامس الذى كان يحظى بمحبة الشعب المغربى لكفاحه فى سبيل استقلال المغرب وما قاساه فى سبيل ذلك إلى أن مات وهو فى المنفى. كيف لا وكل من يلقاه من المغاربة صغيرا كان أو كبيرا ينحنى له فى خشوع وتبجيل ويقبل يده. وقد استرعى نظرى منظر غريب فى ردهات القصر الملكى وحدائقه تجلس جماعات من المغاربة يلبسون الثياب المزركشة على مسافات ليست بالبعيدة وكل عملها أنه متى مر الملك عليها فى طريقه من مكان إلى آخر تهب واقفة وتهلل وتكبر وتتغزل فى مكارمه وتدعو له بطول العمر.

وكان الملك الحسن من المؤيدين لمبادرة السادات والمتحمسين لها ولم أكن أعلم وقتها الدور الذى لعبه فى الإعداد لمبادرة السادات حيث رتب عدة لقاءات سرية بين حسن التهامى وموشى ديان فى قصره فى شهر سبتمبر (أيلول) ١٩٧٧ وبعده. وقد تحاشى السادات دائما أن يشير إلى ذلك وكان يردد لى أن الذى أوحى إليه بمبادرته هو خطاب الرئيس كارتر الذى أبلغه فيه أنه يشعر بحالة من الإحباط إزاء مساعيه لعقد مؤتمر جنيف للسلام.

ولم يحطنى السادات علما بشىء محدد عن محادثاته مع الملك وأذكر عند مغادرتنا القصر الملكى فى الرباط أن طلب الملك الحسن مرافقتى لهما فى السيارة، وتكلم عن علاقته بوزير خارجيته أحمد بوستة فقال: إنه محل سره ولا يخفى عنه كبيرة أو صغيرة، وقال : إن هذه الثقة يجب أن تقوم بين الحاكم ووزير خارجيته بالذات ونصح السادات بأن يفعل ذلك معى لما سمعه عنى من صفات طيبة على حد قوله. ويا ليت

السادات اتبع هذه النصيحة.. إذن لتجنبنا الكثير من المشاكل التى نشأت عن قيامه بتصرفات فجائية على أساس أفكار طارئة عنت له دون استشارة أو تمحيص.

تحريك الموقف

وفى الطريق إلى الولايات المتحدة جلست مع أحمد ماهر فى الطائرة نستعرض الموقف وقد بدا لنا من الواضح المؤكد ـ بعد تجربة الإسماعيلية والقدس ـ أن استمرار التفاوض المباشر مع إسرائيل لن يقدم شيئا بل سيخلق لنا مصاعب كثيرة وسلبيات كان من الواضح أن إسرائيل تستهدف كسب الوقت لتمييع المبادرة (وتكريس الفرقة بين مصر والدول العربية) وتثبيت جذورها فى الأراضى العربية المحتلة، وكانت الشواهد على ذلك عديدة لا غموض فيها وأولها مشروع الحكم الذاتى وهو على غرار المشاريع التى كانت تطبقها الدول الاستعمارية فى القرن التاسع عشر على شعوب مستعمراتها.. وثانيها تواتر التصريحات الرسمية الإسرائيلية على أن إسرائيل لن تتخلى عن سياسة الاستيطان فى الضفة الغربية وغزة وسيناء والجولان وستواصل تدعيم المستوطنات الإسرائيلية القائمة وإقامة مستوطنات جديدة فيها.

ثم خرج بيجن ببدعة جديدة إذ أعلن أن قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ لا ينطبق على الضفة الغربية وغزة وهو تفسير يناقض تعهدات إسرائيل إزاء القرار ولم يجرؤ مسؤول إسرائيلى من قبل على إعلانه.

ومن الناحية الثانية فقد كان استمرار المفاوضات مع إسرائيل فى ظل تصرفاتها وتصريحاتها على مرأى ومسمع من الدول العربية والشعب الفلسطينى أمرا مستحيلا لا يمكن تبريره أو تفسيره ويؤدى حتما إلى النيل من اعتبار مصر الأدبى وإلى تدعيم الشكوك فى نواياها وتكريس الفرقة والانقسام فى العالم العربى وعزل مصر عنه وكان هذا هدفا إسرائيليا ثابتا.

وكان السادات قد بدأ يدرك أن آماله المتفائلة فى استجابة إسرائيل بسرعة لمبادرته مبالغ فيها، وكان يرى أن الخروج من هذا المأزق لن يتحقق إلا عن طريق الولايات المتحدة، وذلك بأن تتجاوز موقف الوسيط السلبى بين مصر وإسرائيل وتمارس موقفا ايجابيا يسعى إلى تحريك الموقف الإسرائيلى الجامد المتعنت. وعلى هذا الأساس

أعددنا مذكرة قوية بالموقف الذى نرى أن يتخذه الرئيس السادات أثناء المحادثات الثنائية المنفردة بينه وبين الرئيس كارتر (فى كامب ديفيد).

وقد أوضحت المذكرة المواقف الإسرائيلية الجامدة والأساليب الملتوية التى تتبعها إسرائيل فى المفاوضات وبينت خطورة استمرار المفاوضات والحالة هذه، وأنه ما لم تتعهد الولايات المتحدة باتخاذ ما يكفل دفع إسرائيل إلى اتخاذ مواقف ايجابية فسيعلن الرئيس السادات إنهاء المباحثات مع إسرائيل ويعود الموقف إلى ما كان عليه قبل المبادرة وسيكون واضحا للعالم أجمع من الذى يريد السلام ومن الذى يعمل على تقويضه وتتحمل إسرائيل وحدها مسؤولية إضاعة الفرصة التاريخية التى أتاحتها مبادرته.

وكان نوع من الحيرة المصحوبة بالقلق قد بدأ يساورنى نحو شخصية السادات، إذ لاحظت أنه مع الوقت ومن اتصالى المستمر به بعد تعيينى وزيرا للخارجية أنها لم تكن ثابتة ملتزمة بوتيرة واحدة، ففى بعض الأحيان كان يتسم بالبساطة والتواضع، وأحيانا أخرى يتسم بالتعقيد والتعالى وأحيانا يكون هادئا ثم يشتط به الغضب دون مبرر ظاهر، وأحيانا يكون واضح الفكر قوى المنطق منطلق الحديث وأحيانا أخرى يكون شارد الفكر عاجزا عن الكلام أو إيضاح ما يريده أو وجهة نظره أو ينصرف إلى أحاديث فرعية أو بعيدة عن جوهر الموضوع محل البحث.

وفى بعض الأحيان كان متفتحا يستوعب تماما ما يقرؤه أو يسمعه وفى أحيان أخرى يصيبه الخمول وعدم المبالاة فلا يقرأ ولا يسمع أو يستوعب مهما كانت أهمية الموضوعات المعروضة. ولم أجد تفسيرا لذلك وكنت أرجعه إلى ضخامة المسؤوليات التى يتحملها منذ تولى الحكم بعد وفاة الرئيس عبد الناصر.

كان ذلك يدور فى خلدى عندما أخذت المذكرة وتوجهت إلى صالونه الخاص فى الطائرة لأعرضها عليه. وكان يجلس معه سيد مرعى رئيس مجلس الشعب الذى كان عضوا فى الوفد وجلست وتبادلنا الحديث فى أمور شتى بعيدة عن السياسة ثم عرضت عليه المذكرة فقرأها بإمعان وسر منها للغاية وردها إلى. فقلت له : إن لدى نسخة منها وأنى أرجو أن يحمل هذه المذكرة معه عند مقابلته لكارتر ويضعها أمام بصره أثناء المقابلة للرجوع إليها إذا اقتضى الحال. فنظر إلى باندهاش وقال : ولكنى قرأتها واستوعبت ما فيها. فقلت أنى أعلم ذلك ولكن ما الضرر من أخذها معه وادعيت

أن كل الساسة الكبار يفعلون ذلك أو كانوا يفعلونه مثل تشرشل وديجول وشميت وأن هذا تقليد متبع. فدق الجرس وطلب سكرتيره الخاص فوزى عبد الحافظ وسلمه المذكرة وطلب منه أن يقدمها له عند توجهه للاجتماع بالرئيس كارتر.

اللقاء مع كارتر

وفى قاعدة أندروز الجوية حيث هبطت الطائرة كان فى استقبالنا نائب الرئيس الأمريكى مونديل ووزير الخارجية سيروس فانس. وقد توجه الرئيس مباشرة إلى كامب ديفيد حيث كان الرئيس كارتر فى انتظاره وتوجهت مع باقى الوفد إلى واشنطن.

وفى اليوم التالى تلقينا دعوة للسفر إلى كامب ديفيد لاجتماع مشترك بين الوفدين المصرى والأمريكى. وعند وصولنا كان الرئيس كارتر والرئيس السادات مازالا فى اجتماع مغلق. وجلسنا مع أعضاء الوفد الأمريكى حيث قدمت لنا بعض المشروبات وتبادلنا التعارف معهم والحديث بشكل غير رسمى. وبعد نحو ساعة دعينا إلى القاعة التى خصصت لاجتماع الوفدين المشترك.

كان الجانب الأمريكى يتكون من الرئيس جيمى كارتر ونائب الرئيس مونديل ووزير الخارجية سيروس فانس وبرجنسكى مستشار الرئيس الأمريكى للأمن القومى وروى أثرتون مساعد وزير الخارجية للشرق الأوسط وهارولد سوندرز رئيس قسم الشرق الأوسط لوزارة الخارجية وهيرمان ايلتس السفير الأمريكى فى القاهرة ووليام كوانت عضو مجلس الأمن القومى. وبعض المعاونين.

وكان الجانب المصرى برئاسة الرئيس السادات وعضوية سيد مرعى رئيس مجلس الشعب وأنا والدكتور بطرس غالى وزير الدولة للشئون الخارجية وحسن كامل رئيس الديوان الجمهورى والدكتور أشرف غربال سفيرنا فى واشنطن والسفير أحمد ماهر مدير مكتبى.

وافتتح الرئيس كارتر الجلسة بقوله انه بعد أن اجتمع بالرئيس السادات على انفراد واستمع إلى شرحه وتحليله للموقف، فإنه يود الآن أن يشرح مفهومه لما قاله الرئيس السادات حتى يصبح الأمر واضحا أمام الجميع.

وكانت هذه فرصة نادرة للتعرف على ما دار فى المباحثات المنفردة التى دارت بين الرئيسين. ومن الناحية الأخرى كان أمرا يدعو إلى الاستغراب أن يذيع الرئيس

الأمريكى ما دار فى حديث منفرد بينه وبين الرئيس السادات. ولكن لم ألبث أن عرفت السبب الذى حدا بالرئيس كارتر إلى ذلك، وهو ما حدث من مناحم بيجن رئيس الوزراء الإسرائيلى الذى كان قد اجتمع بالرئيس كارتر فى شهر ديسمبر (كانون الأول) ١٩٧٧ اجتماعا منفردا، وعرض عليه مشروعيه الخاصين بالانسحاب من سيناء وبالحكم الذاتى فى الضفة الغربية وغزة، وقد ذكر له كارتر وقتها أن المشروعين يصلحان أساسا للمفاوضات وأنهما مرضيان تقريبا له.

وعند عودة بيجن إلى إسرائيل قام بعرض المشروعين على مجلس الوزراء الإسرائيلى الذى أدخل عليهما تعديلات كثيرة بعد مناقشة استمرت سبع ساعات بحيث أصبحا مغايرين للمشروعين اللذين عرضهما على كارتر، وفى اجتماع الإسماعيلية قدم بيجن المشروعين للسادات مؤكدا أن الرئيس كارتر ورئيس الوزراء البريطانى كالاهان قد امتدحاهما ووافقا عليهما. ولم يلبث أن أعلن بيجن ذلك لوسائل الإعلام. وقد خشى كارتر أن يتكرر ما حدث من بيجن من قبل السادات بأن يدعى أن كارتر قد التزم قبله بشىء فى الاجتماع المنفرد سواء عن قصد أو سوء فهم فرأى أن يطلع الوفدين على ما جرى بينهما حتى يكونا شاهدين عليه.

وعلى مدى أكثر من نصف ساعة شرح الرئيس كارتر فى هدوء وبلغة واضحة وتسلسل بديع ما دار بينه وبين الرئيس السادات فى الاجتماع المنفرد بينهما وقد أعجبت بمقدرته على الاستيعاب والعرض وأنهى الرئيس كارتر كلامه بأن الرئيس السادات قد أكد له أن العرب بمن فى ذلك السعودية والشعب المصرى وأصدقاء الولايات المتحدة الآخرون مستاءون للغاية من الولايات المتحدة ويشعرون بخيبة أمل تجاهها لأنهم يعتقدون بأن موقف إسرائيل المتصلب غير ممكن لولا مساعدات الولايات المتحدة العسكرية والاقتصادية لها، وأنه أى الرئيس كارتر منزعج للغاية لأن الرئيس السادات قد أبلغه بأنه لا يستطيع الاستمرار فى المباحثات مع إسرائيل سواء فى اللجنة السياسية أو اللجنة العسكرية، وأنه قرر أن يعلن ذلك فى نادى الصحافة الدولى يوم الاثنين القادم.

وتبادلت النظر مع أحمد ماهر وعلمنا أن الرئيس السادات كان يضع أمامه المذكرة التى قدمتها له فى الطائرة أثناء اجتماعه المنفرد بكارتر.

وقال فانس « انها تكون ضربة كبيرة إذا صدر تصريح الآن يفسره الشعب بأن التقدم نحو السلام قد توقف وستكون لذلك آثار خطيرة وعميقة، أرجو أن يكون من الممكن التغاضى عن إصدار مثل هذا التصريح، وأن نعمل معا على الاتفاق على الأهداف والعمل على وضعها موضع التنفيذ ».

وقال مونديل « تعرفون أن زيارتكم التاريخية للقدس كانت أكثر الأمور تأثيرا.. إنك أصبحت فى خلال ثمان وأربعين ساعة رجل دولة ورسولا للسلام ولقد حدث تغيير غير متصور. ومن المهم جدا حتى تتطور سياسة إسرائيل أن يستمر الناس فى نظرتهم هذه لك، وأن يظل الناس يسألون إسرائيل عما فعلته ردا على ما فعله السادات لذا يجب ألا تعطى لحكومة إسرائيل فرصة الإفلات من السعى والإدعاء بأن ما حدث لم يكن حقيقيا يجب ألا تعطى بيجن فرصة ليضعك فى موضع يمكنه بعده أن يقول إنه لم يعد عليه القيام بشىء.. ».

إننى أذكر ليلة نخب بيجن الخارج عن كل تقليد فى اجتماع اللجنة السياسية بالقدس فلقد كان يعوزه الذوق ولا يتفق مع الروح الجديدة.

إن الضغوط تتزايد نظرا للشعور بأن بيجن لا يفعل شيئا. ان اليهود هنا لا يحبون المستوطنات، وأنا أسمع ذلك منهم ولكنى فى اليوم التالى (لسحب الوفد المصرى من القدس) سمعت منهم كلاما مختلفا.. إن من أهم الوسائل لتغيير موقف إسرائيل الضغط على بيجن للتحرك وليظهر تقدما، أما إذا قلتم لن نتحدث فسيقولون إن المصريين غير جادين ويستخدمون ذلك حجة لعدم التحرك.

الضغط على بيجن

وقال كارتر : « إنى أعلم عن خبرة كيف يمكن أن يكون الإسرائيليون مثبطين للعزائم.. ولكنى أقول بصراحة أن الإسرائيليين يقتربون من فكرة ترك الأرض. إنهم يقتربون من ذلك على مضض لأنهم يريدون الاحتفاظ بها، وإذا تصوروا أنهم يستطيعون الاحتفاظ بها وفى نفس الوقت الاحتفاظ بتأييد الرأى العام الأمريكى فلن ينسحبوا. عندما ذهب الرئيس السادات إلى القدس لم يكونوا مستعدين وقد وضعتهم الزيارة فى وضع أعزل. ولكنى الآن أفهم ما يثور من قلق بشأن اللجنة السياسية، فعندما سحبتم وفدكم شعر

الناس أن هذه غلطة الرئيس السادات، أما قبل ذلك فلقد كان بيجن يتعرض لهجوم شديد. إننى أفهم سبب سحب الوفد المصرى ولكن الرأى العام يقول ربما لم تكن الغلطة غلطة بيجن.

إننى لا أريد خداعك ولا أريد التخلى عن مسؤوليتى ولكن بدونك وبدون التأييد الشعبى فإنى لا أستطيع إجبار إسرائيل على تغيير موقفها سواء بسرعة أو ببطء. أما بك فإننى أستطيع الضغط عليهم للتغيير، إن اليهود الأمريكيين يتزايد شعورهم بأن بيجن وحكومته هم العقبة فى طريق السلام بسبب إصرارهم على المستوطنات. ولكن فى حالة مواجهة بينى وبين بيجن فسوف يكون من الصعب على اليهود الأمريكيين ألا يقفوا إلى جانب بيجن.

إننى استهدف أن أضم بعض زعماء الكونجرس وزعماء اليهود إلى جانبى للضغط على بيجن ليقبل ترك المستوطنات ويقبل فترة انتقالية خمس سنوات فى الضفة الغربية.

أما إذا اتخذ الرئيس السادات قرارا بوقف المفاوضات فسيقول بيجن نحن نريد والسادات لا يريد، وهذا يقضى على حجتنا بأنك تريد السلام وهم لا يريدون.

سيبدأ الكونجرس فى الأسبوع القادم بحث معاهدة بنما وبصراحة ليست لدى حتى الآن الأصوات اللازمة. وإذا رفض الكونجرس المعاهدة ستكون ضربة لقيادتى، وسيخلق ذلك وضعا قد يؤدى إلى صدام عسكرى مع بنما، والكثيرون ممن يؤيدون المعاهدة هم من الذين يؤيدون إسرائيل بقوة، وإذا حدثت أزمة فى الشرق الأوسط بإنهاء المحادثات فسوف يجعل ذلك الموقف صعبا بالنسبة لى... أرجو أن تعطينى فرصة لأشرح لك الرأى العام الأمريكى ومشاكلى ثم نفكر معا لنحدد ما نأمل تحقيقه ونضع جدولا زمنيا ونرى كيف نصنع صورة ليزداد تأييد الشعب لنا. ونبحث أية ضغوط يمكن مزاولتها لجعل الإسرائيليين يتصرفون التصرف الصحيح. إنه لسوف يؤسفنى حقا أن تؤدى زيارتك لى هنا إلى مشكلة أصعب من المشاكل التى أمامنا فعلا.

وقال برجنسكى « لى ملاحظة إذا أعلنتم قرارا سلبيا عن المباحثات فإن رد الفعل الأمريكى سيكون أن هذا الاجتماع كان فاشلا، وهذا ليس فى مصلحة أحد إلا الإسرائيليين الذين سيقولون إن مصر لا تقبل التفاهم ولذلك فإننى أقترح أن تغير إعلانك بالاستعداد للاستمرار بتأكيد قوى لموقفك عن المستوطنات وانطباق القرار ٢٤٢

على جميع الأراضى، وهذا يضمن لك تأييدا كبيرا ويضعك فى موقف ممتاز عندما تستأنف المفاوضات ».

الموقف الأمريكى الواضح

وقلت « إن الرئيس السادات عندما يفكر فى عدم استئناف المباحثات فإنه يريد تجنب موقف مماثل لما حدث فى القدس، أى نستأنف المباحثات ثم نضطر إلى قطعها. أعتقد أنه ليس لدى الرئيس مانع من استمرار المباحثات على ألا نواجه بموقف مثلما واجهنا.

وأنا شخصيا أعتقد أنه يمكن إيجاد صيغة توضح استعدادنا للاستمرار فى المباحثات على أن يؤجل قيام مباحثات فعلية لفترة يمكن خلالها للولايات المتحدة أن تلعب دورا ايجابيا لتقريب وجهات النظر، وحتى نتوصل مع إسرائيل إلى نقاط يمكن بدء المفاوضات منها. وهذا بالطبع يرتهن باستعداد إسرائيل لاتخاذ مواقف إيجابية، وقال كارتر « أعتقد أن رد كامل على برجنسكى يتفق مع رأيى وأنا شخصيا لن أعود إلى المفاوضات إذا كان أول بند فى جدول الأعمال هو المستوطنات والاحتفاظ بها، أعتقد أنه يمكن إيجاد صياغة تعطى المسؤولية لأمريكا وتجعل الرأى العام ضاغطا على إسرائيل.

وهنا تكلم الرئيس السادات : « لقد سمعت ما قاله الأصدقاء ومن وجهة نظرى لقد وصلنا إلى نقطة يجب أن يكون هناك موقف أمريكى واضح للإسرائيليين، يضع المبادئ الأساسية التى لا يختلف عليها أحد لا عدوان على السيادة والأرض وهذا ليس ضد أمن إسرائيل.

ومن حق الإسرائيليين الشعور بالأمن وأن تكون لهم علاقات خاصة بأمريكا.. إنى لا أعترض على الاستمرار فى المفاوضات، بل كما قلت للرئيس كارتر فإن فكرة تشكيل لجنتين اتفقت عليها مع بيجن فى خمس دقائق إذ أنه بمجرد وصوله إلى الإسماعيلية اقترح ذلك فوافقت فورا.. لقد جئت هنا عندما دعوتنى وقد ارتحت للدعوة لأنى كنت أريد أن أعرض الأمر كله بوضوح.

اهتمامى الأساسى كما قلت لأيلتس ولأثرتون أن الشعب المصرى والعربى يشعرون بخيبة أمل تجاه الموقف الأمريكى وبيجن يستغل بكل الطرق تأييد أمريكا، ويدعى أمورا لم تحدث مثل قوله للرؤساء الأوروبيين إن أمريكا تؤيد مقترحاته. وأتساءل هل يمكن أن

نصل لنقطة يكون هناك موقف أمريكى محدد هل ترى الوقت مناسبا لذلك أم لا ؟ إن هذا يوفر وقتا كثيرا.. إن موقف بيجن هو الذى خلق الصعوبات لى ولكم فهل حان الوقت ؟ من ناحيتى لا توجد عقبة لإقامة السلام وممكن تحقيق ذلك فى أسبوع.

وجاء رد كارتر « الجواب هو نعم لقد حان الوقت فى اعتقادى لموقف أمريكى محدد يقدم للطرفين.. وكما قال السادات فى أسوان لا خلاف بيننا ومع ذلك فانى أرى أنه إذا أعلنت أمريكا أو تقدمت بموقف بعد اجتماعنا فسيكون من ناحية المظهر، وكأنه اقتراح مصرى - أمريكى ومهما كان محتواه فسيرفضه اليهود الأمريكيون. على نحو ما فعل العالم العربى عندما تقدمت بورقة عمل بعد اجتماعى بديان إذ قالوا عنها انها ورقة أمريكية إسرائيلية.

لذا فمن الضرورى أن اجتمع مع بيجن، أدعوه للحضور ثم بعد زيارته وبسرعة نضع ما نعتقد أنه يجب أن يكون موقف أمريكا ونعلنه ونحصل على التأييد له. وأعتقد أن ما سنقترحه سيكون مقبولا منكم وإننى سأختلف مع بيجن والمهم أن يفهم الرأى العام أننا قبل إعلان موقفنا تشاورنا مع الطرفين.

وباختصار فإن ردى على سؤالك هو نعم، لقد حان الوقت ونريد التنفيذ بسرعة، ويمكن الاتفاق دون إبطاء على الجدول الزمنى لأننا نتفق على أن الوقت قد حان للخروج بمشروع ».

وقال السادات « أوافق على هذا ».

وانتقلت المناقشة إلى كيفية إخراج المشروع الأمريكى إلى حيز الوجود وانتهت الموافقة على سيناريو وضع برجنسكى خطواته على ضوء ما دار من مناقشات على النحو التالى:

١- تتخذ مصر موقفا ايجابيا من استمرار المباحثات (بمعنى ألا يعلن الرئيس السادات وقفها).

٢- تعلن مصر عن موقفها من انطباق القرار ٢٤٢ على جميع الأراضى المحتلة ورفضها القاطع لقبول المستوطنات.

٣- تعرب الولايات المتحدة عن تأييدها للموقف المصرى.

٤- بعد اجتماع كارتر بمناحم بيجن تتقدم مصر بمشروع بشأن الضفة الغربية وغزة.

(وقد حدث جدل حول ذلك إذا كان الموقف المصرى مستقرا على عدم التقدم بمشروع متعلق بالضفة الغربية وغزة فى غيبة الجانب الفلسطينى صاحب الشأن وبدون تفويضه وأن يقتصر الموقف المصرى على التوصل لإعلان مبادئ ما يكفل حل القضية الفلسطينية على أساس حق الشعب الفلسطينى فى تقرير مصيره إلا أن الجانب الأمريكى ردد ما كان يحتج به دائما من أن هناك مشروعا إسرائيليا مطروحا بالنسبة للضفة الغربية وغزة - مشروع بيجن للحكم الذاتى - دون أن يقابله مشروع من الجانب المصرى. وطالما أنه مطلوب أن تتقدم الولايات المتحدة بمشروع أمريكى فمن الملائم أن يكون أمامها مشروع مصرى مقابل المشروع الإسرائيلى. وقد وافقنا على ذلك).

٥- متى رفضت إسرائيل المشروع المصرى. تتقدم الولايات المتحدة بمشروعها.

٦- تطلع الولايات المتحدة مصر على المشروع الأمريكى لمناقشته قبل تقديمه.

معادن الرجال

كان السادات سعيدا للغاية بعد انتهاء الاجتماع، فقد حقق الأمل الذى كان يراوده ويلح عليه وهو التزام الولايات المتحدة باتخاذ موقف إيجابى فى المباحثات الثلاثية، وهو ما كان يعبر عنه بموقف الشريك الكامل.

وبالنسبة لى كان الموقف مرضيا فقد تعهدت الولايات المتحدة بمسؤولية تحريك الموقف الإسرائيلى، وكان هذا يعفينا من استمرار المفاوضات المباشرة مع إسرائيل وأسلوب بيجن البغيض فيها. كما كان يتيح لنا فرصة زمنية نعمل فيها على معالجة الموقف العربى المتشتت قدر الإمكان وإحاطة الموقف المصرى بسياج من الأصدقاء ومحاولة نزع الشكوك من مراميه وأهدافه.

ومن الناحية الثانية فقد كانت هذه هى المرة الأولى التى اجتمع فيها بالرئيس كارتر وكنت أراقبه عن كثب وأحاول تعرف ملامح شخصيته وفكره. والحق أن انطباعى كان مشجعا فقد كان يبدو صادقا وكان اقتناعه بأن الانسحاب الإسرائيلى وفقا للقرار ٢٤٢ يشمل كل الأراضى، كما أن التسوية يجب أن تتضمن الاعتراف بحقوق الشعب الفلسطينى و « مشاركته » فى تقرير مصيره، كما كان موقفه من إدانة المستوطنات صلبا، وهى فى تقديرى مفتاح وأداة التوسع الإسرائيلى، كذلك كان من الواضح عدم

ارتياحه لمناحم بيجن واهتزاز ثقته فى المواقف الإسرائيلية كان يصف التفاوض مع الإسرائيليين بأنه مثبط العزيمة FRUSTRATING وقد أشار فى حديثه إلى واقعتين: الأولى أن موشى ديان كان قد وعده بعدم إقامة مستعمرات جديدة، وذلك عندما قابله فى نيويورك فى سبتمبر (أيلول) ١٩٧٧ فيما عدا ست مستعمرات قائمة سيزيدون عدد سكانها وأنها ذات طابع عسكرى. إلا أنهم منذ ذلك الحين قد أقاموا ثلاث عشرة مستوطنة جديدة.

والثانية أن بيجن ادعى أنه (أى الرئيس كارتر) قد وافق على المشروع الذى قدمه فى الإسماعيلية، فى حين أن ما عرضه عليه فى ديسمبر (كانون الأول) ١٩٧٧ كان مشروعا مختلفا تماما عن ذلك. وذكر كارتر أن المشروع الذى عرضه عليه بيجن فى الأصل كان يتضمن فترة انتقالية مدتها خمس سنوات تشارك خلالها كل من الأردن وإسرائيل وربما مصر فى الادارة، ثم يكون للفلسطينيين المقيمين حق تقرير مستقبلهم. كما أن بيجن قد وعده وقتها بأن إسرائيل لن تدعى سيادة تتعدى حدودها فى سنة ١٩٦٧.

وبالاختصار كان انطباعى الأول عن الرئيس كارتر يبعث على التفاؤل، وقد عزز ذلك عندى أنه كان أول رئيس أمريكى نادى بحق الفلسطينيين فى وطن قومى، وأنه أعلن أن موضوع حقوق الانسان من محاور سياسته الرئيسية.

ورغم إدراكى لقوة النفوذ الصهيونى فى الولايات المتحدة إلا أنى تصورت وقتها أن رئيس أقوى دولة فى العالم يستطيع أن يثبت فى وجه أية ضغوط خاصة والأمر يتعلق بمصالح حيوية لبلاده فى الشرق الأوسط، وأنه ليس مطالبا بنقض التزام الولايات المتحدة بأمن إسرائيل بل على العكس أن يحقق هذا الالتزام ويحميه بأقوى ضمان بإعادة الحقوق المغتصبة إلى أصحابها الشرعيين مما يتيح لإسرائيل أن تعيش فى سلام مع جيرانها فى المنطقة.

إلا أن معدن الرجال يختلف فلم يكن كارتر فى صلابة أيزنهاور، كما لم يكن السادات فى صلابة عبد الناصر. كان كلاهما كارتر والسادات يرتدى قناعا رقيقا من الصلب يغطى ظاهره ولكن لا ينفذ إلى باطنه.

وكما سمعت وكما رأيت « أذل الحرص أعناق الرجال » كما سيتبين.

الفصل الثانى عشر

الخطر من الداخل

سافر الرئيس السادات فى اليوم التالى إلى واشنطن ونزل فى « بلير هاوس » وهو المقر المخصص لإقامة كبار زوار الحكومة الأمريكية فى واشنطن، وكان برنامج السادات مزدحما للغاية ويتضمن الاجتماع بأعضاء لجنتى الشؤون الخارجية فى مجلس الكونجرس والعديد من ممثلى المنظمات والجماعات، ومن بينها الجماعات اليهودية والشخصيات السياسية الاقتصادية ورجال الأعمال، وقد حضرت جانبا من هذه الاجتماعات والمقابلات، وكان السادات بشكل عام موفقا فيها واكتسب تعاطف الكثيرين من وجهة نظره وثقتهم فى صدق نواياه نحو السلام.

وفى يوم ٧ فبراير (شباط) كنت فى بلير هاوس وعند دخولى لإحدى الغرف وجدت المهندس سيد مرعى رئيس مجلس الشعب وعضو الوفد المصرى جالسا إلى جوار الدكتور أشرف غربال سفيرنا فى واشنطن والذى كان منهمكا فى الكتابة. وسألت أشرف عرضا عما هو منهمك فى كتابته فرد المهندس سيد مرعى بأنه يعد مذكرة بما دار بينه (أى سيد مرعى) وبين برجنسكى مستشار الأمن القومى للرئيس كارتر فى الصباح (وبحضور أشرف غربال) بشأن وضع أسس الاتفاق على الاستراتيجية المصرية الأمريكية فى الأسابيع القادمة. ولم أرد على سيد مرعى وإنما وجهت اللوم للسفير على قبوله المشاركة فى مثل هذه المقابلة دون أخذ رأيى، وهو يعلم أنه ليس من شأن المهندس مرعى مناقشة مثل هذه الموضوعات. ورد أشرف بأن سيد مرعى هو

الذى دعاه ولم يكن يعرف الغرض من المقابلة. ورد سيد مرعى بأنه لم يقصد التدخل فى اختصاصى وأجبته بأنى لا أتدخل فى عمل أحد، ولا أحب أن يتدخل فى عملى أحد، وأن تدخله هذا يعقد الأمور فى عملية معقدة فى حد ذاتها.

وعندما اطلعت على الاتفاق المبدئى الذى تم بين سيد مرعى وبرجنسكى ثارت ثائرتى. كان معنونا باسم : « استراتيجية للأسابيع القادمة ».. وينص على ما يلى :

١- يجب التوصل إلى إعلان مبادئ بأسرع ما يمكن حتى يتسنى توسيع دائرة المفاوضات الحالية لتضم الأردن وممثلين عن الشعب الفلسطينى وسوريا ولبنان بغرض إنجاز تسوية شاملة لنزاع الشرق الأوسط.

٢- التوصل إلى اتفاقية بشأن سيناء تتضمن على وجه الخصوص حكما بسحب المستوطنات تطبيقا لاحترام سيادة مصر ووحدتها الإقليمية.

٣- دور الولايات المتحدة الآن هو تعديل الموقف الإسرائيلى فيما يتعلق بما هو مذكور أعلاه وباقى الموضوعات الخاصة بسيناء بما فيها المناطق المنزوعة السلاح ستعالج مباشرة بين مصر وإسرائيل.

٤- يجب التوصل لاتفاقية سيناء بأسرع وقت ممكن.. وتعلن مبادئها التى تتفق عليها مصر وإسرائيل، أما توقيعها فسيتم فى تاريخ لاحق يتفق عليه بعد إعلان المبادئ وهذه الاتفاقية لن تشكل حلا منفردا.

٥- بعد زيارة رئيس الوزراء الإسرائيلى القادمة لواشنطن ستقدم مصر ورقة تتضمن وجهات نظرها بالمبادئ لتسوية وجوه أخرى متعلقة بالمشكلة الفلسطينية والضفة الغربية وغزة والقدس.

٦- ومن المتوقع أن الولايات المتحدة ستتقدم على ضوء الأوراق الإسرائيلية والمصرية وجهات نظرها واقتراحاتها لكيفية تحقيق حل عادل لمشكلة الضفة الغربية وغزة.

٧- وفيما يتعلق بالضفة الغربية ستتضمن الورقة المصرية :-

(أ) فترة انتقالية تحدد مدتها بواسطة الأطراف المعنية وتنتهى بممارسة حق تقرير المصير.

(ب) تعتقد مصر أنه بعد الاتفاق على إعلان المبادئ والتوصل لاتفاقية بشأن سيناء

يقوم ممثلو الشعب الفلسطينى والأردن بالاشتراك مع الأمم المتحدة وإسرائيل فى مفاوضات تتعلق بالضفة الغربية.

٨- وتخضع غزة لنفس المفاوضات بين مصر وممثلى الشعب الفلسطينى وإسرائيل والأمم المتحدة.

٩- تستطيع سوريا من جانبها الدخول فى مفاوضات مماثلة بشأن الجولان.

١٠- ستشترك المملكة العربية السعودية مع مصر والأردن وممثلى الشعب الفلسطينى والأمم المتحدة فى مفاوضات بشأن مستقبل القدس.

١١- كل هذه المفاوضات ستعالج موضوعات الانسحاب من جميع الأراضى وكذلك موضوعات الأمن المتبادل بين إسرائيل وجيرانها العرب.

وفى المساء توجهت إلى غرفة نوم الرئيس السادات فى بلير هاوس، وكان يجلس معه المهندس سيد مرعى فأخبرته أمامه بما أقدم عليه المهندس سيد مرعى من تفاهم مع برجنسكى على أمور غاية فى الخطورة، وقدمت له صورة الورقة المعدة بينهما دون أن يأخذ رأيى أو ينسق معى.. وذكرت أنه لو قام كل عضو فى الوفد بمثل ذلك فسنصل إلى أوضاع غريبة وسنفقد احترام الجانب الأمريكى، ونظهر وكأننا نسير بلا وعى أو هدف، وأن ما اتفق عليه المهندس سيد مرعى وبرجنسكى لا أوافق عليه وهو يناقض الخط الذى نسير عليه وشرحت له ملاحظاتى بشأن التفاهم الذى جرى بينهما والذى سجلته فى مذكرة تتلخص فيما يلى : -

١- أن الأولوية يجب أن تكون للاتفاق على إعلان مبادئ واضح ومحدد يشكل غطاء عربيا صالحا لمصر فى جهودها من أجل التسوية الشاملة وفى إطار هذا الإعلان يمكن - كما صرح السادات بنفسه أكثر من مرة - السير فى الاتفاقية الخاصة بسيناء بحيث تصبح جزءا من التسوية الشاملة.

٢- أن ما يقترحه برجنسكى ومرعى بشأن التوصل إلى اتفاقية خاصة بسيناء وإعلان مبادئها وأسسها قبل الاتفاق على إعلان مبادئ التسوية الشاملة سيخلق وضعا يضغط فيه الشعب المصرى وإسرائيل والولايات المتحدة على الحكومة المصرية للإسراع بتوقيعها بصرف النظر عن باقى جوانب المشكلة، علما بأنه هو نفسه (السادات) لا يكف عن إعلان أن أى اتفاق لا يتضمن تسوية المشكلة الفلسطينية - وهى لب المشكلة وأساسها - سيكون اتفاقا هشا ولن يحقق الاستقرار والسلام.

٣- إن الورقة المذكورة عند معالجتها للضفة الغربية وغزة تفصل بينهما بطريقة تتيح لإسرائيل فرصة الإدعاء بأن يشترك في المفاوضات الخاصة بكل منهما ممثلون للفلسطينيين المقيمين بها.. وهذا أمر يتجاوز ما نطالب به إسرائيل حاليا، كما أنه يحقق استبعاد الفلسطينيين المقيمين في الخارج من التسوية، وأن الرئيس السادات عندما تحدث عن أن مصر تتولى موضوع غزة مع ممثلى الشعب الفلسطينى وإسرائيل والأمم المتحدة وتتولى الأردن موضوع الضفة الغربية مع ممثلى الشعب الفلسطينى وإسرائيل والأمم المتحدة فقد كان واضحا أن الأمر يتعلق بترتيبات الأمن، أما المستقبل السياسى للضفة الغربية وقطاع غزة فهو فى وحدتهما ثم فى ارتباط الكيان الفلسطينى الذى يضم الضفة الغربية وغزة معا بالأردن.

٤- إن الجانب الأمريكى عندما طلب منا ورقة تتضمن المطالب العربية حتى يمكن على أساس ذلك أن يقدموا حلا وسطا ذكروا بوضوح أنه سيكون أقرب إلى الموقف المصرى منه إلى الموقف الإسرائيلى.

٥- إن الورقة المصرية عن الضفة الغربية وغزة ليس من المفروض أن تتضمن تفصيلات مثل تلك التى تضمنتها الورقة التى أعدت على ضوء مقابلة المهندس مرعى والمستر برجنسكى.

ووافق السادات على ملاحظاتى قائلا للمهندس سيد مرعى (سيبه يا سيد علشان ما يتلخبطش شغله).

ثم قدمت له الورقة التى أعدها أحمد ماهر، وهى تحتوى على تلخيص دقيق أمين لما تناوله الحديث فى كامب ديفيد فى الجلسة التى تمت بينه وبين الرئيس كارتر ثم فى الجلسة التى تلتها بين أعضاء الوفدين.. وذلك حتى يناقشها مع الرئيس كارتر بينما أتحدث إلى وزير الخارجية فانس فى نفس الشأن وهى تحوى النقاط التالية :

١- فيما يلى مفهوم مصر لاستراتيجية الأسابيع القادمة، كما تم الاتفاق عليه بين الرئيس كارتر والرئيس السادات ثم بين الوفدين :

(أ) يذاع بيان أمريكى يوم الأربعاء ٨ فبراير (شباط) يؤكد موقف الولايات المتحدة فيما يتعلق بالمستوطنات والقرار ٢٤٢ وانطباقه على كل الجبهات وسوف يوضح البيان أيضا تصميم الولايات المتحدة على الاضطلاع بدور إيجابى ورغبة مصر فى استمرار مباحثات السلام.

(ب) سيوفد المستر الفرد آثرتون إلى المنطقة لمتابعة الجهود لتضييق الفجوة بين مصر وإسرائيل فيما يتعلق بإعلان المبادئ، وسيقوم المستر اثرتون أيضا بالتشاور مع الأردن والسعودية لبحث السبل لإشراك دول عربية أخرى فى مباحثات السلام.

(جـ) سيدعى رئيس الوزراء بيجن إلى زيارة واشنطن فى أواخر فبراير (شباط) أو أوائل مارس (آذار)، وفى أثناء الزيارة ستقوم الولايات المتحدة بالتعبير له بقوة برأيها فى المستوطنات وتفسيرها للقرار ٢٤٢، وعلى ضرورة حل المشكلة الفلسطينية من جميع وجوهها.

(د) بعد انتهاء زيارة رئيس الوزراء الإسرائيلى لواشنطن ستقدم مصر ورقة للولايات المتحدة تتضمن رأيها فى حل المشكلة الفلسطينية، وكما اتفق عليه فى كامب ديفيد، ستحتوى هذه الورقة على أقصى المطالب الخاصة بالضفة الغربية بما فى ذلك القدس وغزة ومطالب الأمن المتبادل. ومن الممكن أن تتضمن الورقة كذلك استعداد مصر لبذل مساعيها لإقامة رابطة رسمية ومعلنة بين الأردن والضفة الغربية وغزة، وستقوم مصر والولايات المتحدة ببحث إمكانية أن تكون هذه الورقة اقتراحا مصريا أردنيا.

(هـ) وبعد الرفض المتوقع من قبل إسرائيل للورقة المصرية الخاصة بالضفة الغربية وغزة ستتقدم الولايات المتحدة بآرائها واقتراحاتها ومن المأمول أن الولايات المتحدة ستتشاور مع مصر قبل التقدم رسميا بمقترحاتها إلى الأطراف المعنية.

٢- وتتوقع مصر :

(أ) أن خط السير هذا لن يؤخر جهودا جادة للتوصل إلى اتفاق على إعلان المبادئ فى أقرب وقت.

(ب) أن الولايات المتحدة سوف تقنع إسرائيل بالتخلى عن مطلبها فى الاحتفاظ بالمستوطنات والمطارات التى أقامتها فى سيناء.

(جـ) أن الولايات المتحدة ستعمل على التوصل إلى اتفاقية خاصة بسيناء فى أقرب وقت.. وهذه الاتفاقية المؤسسة على احترام سياسة مصر ووحدة أراضيها ستوقع

في تاريخ لاحق على ضوء التقدم الذى يتم على الجبهات الأخرى أو على ضوء رفض طرف عربى التفاوض رغم الاتفاق على إعلان المبادئ.

(د) أن ترد الولايات المتحدة إيجابيا على طلب مصر شراء أسلحة أمريكية.

ورقة الحل المنفرد..

وأعود إلى الورقة التى أعدها المهندس سيد مرعى والمستر برجنسكى مستشار الرئيس الأمريكى للأمن القومى والتى أسماها « استراتيجية للأسابيع القادمة ».

إن نظرة فاحصة لمضمون هذه الورقة توضح بجلاء أنها ترسم الطريق إلى الحل المنفرد بين مصر وإسرائيل تحت ستار واه من العبارات والشعارات، ولا يستطيع أحد الإدعاء بأن أيا من المهندس سيد مرعى أو المستر برجنسكى يتميز بالسذاجة، فليس من شك فى أن هذا الهدف كان محور تفاهمهما صراحة أو ضمنا.

وقد أثارت هذه الواقعة قلقى واهتمامى من زاويتين:

الأولى : وهى الأقل شأنا هى أنها تثير الريب والشكوك حول تمسك الجانب الأمريكى بالالتزامات التى تعهد بها فى السيناريو الذى اتفق عليه فى جلسة المباحثات بكامب ديفيد. لقد كان برجنسكى نفسه هو واضع هذا السيناريو فما باله وهو يتباحث مع المهندس سيد مرعى - عند إعداد هذه الاستراتيجية - بغض النظر عن كل ما اقترحه « فى السيناريو » الذى لم يجف مداده بعد. ألا يعنى ذلك أن الجانب الأمريكى لو تصيد تساهلات أو تخاذلات من جانب مصر سيسارع باستغلالها لتحقيق تسوية سهلة سريعة بصرف النظر عن عواقبها بالنسبة لمصر والعالم العربى ويدق لها الطبول، باعتبارها خطوة نحو الحل الشامل ستتبعها خطوات على نحو ما كان يقوم به كيسنجر. أليس ذلك فى أقل القليل بالون اختبار أو محاولة لعجم عود مصر ؟

ولم أجد غرابة مثيرة فى ذلك فلم يكن غائبا عنى أنه يجب أن نأخذ جانب الحذر الدائم تجاه الولايات المتحدة على ضوء علاقاتها الخاصة بإسرائيل من ناحية وعلى ضوء أولوياتها كدولة عظمى من الناحية الثانية، كان علينا فقط ألا نتزحزح عن مطالبنا وحقوقنا ونحن نعمل على تعزيز مواقفنا. وكان من الواضح لى أن الغرض من التحرك الأمريكى الذى وعدوا به فى السيناريو على تواضعه، إنما اضطروا إليه أمام الموقف الحازم الذى اتخذه السادات مهددا بقطع المفاوضات مع إسرائيل.

أما الناحية الثانية التى أفزعتنى فكانت ما يرمز إليه موقف المهندس سيد مرعى فى لقائه مع برجنسكى. كان ذلك مصيبة لا أملك حيالها دفاعا ولا أستطيع لها علاجا حيث إن الخطر كان يترعرع داخلنا نحن. كانت بذوره كامنة فينا.

كان المهندس سيد مرعى مقتنعا بخطورة أن يطول أمد الاحتلال الإسرائيلى لسيناء بعد أن اتخذ طابع الاستيطان الإسرائيلى التقليدى بإنشاء العديد من المستوطنات فى رفح والعريش وأنحاء أخرى من سيناء وقد ضاعف من مخاوفه ما أعلنته إسرائيل من عزمها على تكثيف المستوطنات وإقامة مستوطنات جديدة فى سيناء بعد اجتماع الإسماعيلية وقبل اجتماع اللجنة السياسية فى القدس، والحق أنه لم يكن يخفى ذلك فقد شرح وجهة نظره فى اجتماع مجلس الأمن القومى قبل سفر الوفد المصرى فى اللجنة السياسية للقدس، كما رددها فى بعض أحاديثه معى، ولم يكن هذا يعنى عدم اهتمامه بمصير سائر الأطراف العربية من ضحايا العدوان الإسرائيلى، وإنما كان يعنى ببساطة أنه الجانب الأولى بالنسبة لمصر.. وأنه إذا فقدت مصر سيناء من جراء تشعب جذور المستوطنات الإسرائيلية فيها فإن ذلك بالتالى يضعف فاعلية مصر - كبرى الدول العربية - مستقبلا فى مساندة العالم العربى فى حل سائر أوجه المشكلة.

وكنت وما زلت أرى غير ذلك، وأعتقد أن مستقبل مصر المفتوح الآفاق فى هذه البقعة من العالم مرتهن بتسوية النزاع العربى الإسرائيلى، تسوية شاملة متكاملة تحقق السلام والاستقرار فى المنطقة. وأن مكانتها ورخاءها وازدهارها لن تصل إلى القمة إلا وهى فى عقد عالم عربى متضامن ومتعاون تنتمى إليه بأوثق الروابط.. ويملك إمكانيات هائلة وهو مجالها المؤثر. وعلى العكس فإن انزلاقها إلى حل منفرد سيؤدى إلى وقوعها فريسة لاضمحلال وتدهور أدبى ومادى ومعنوى لا قرار له. وندخل فى زمرة الدول ممسوخة الوجه التى لا تقدم ولا تؤخر وتصبح ترسا فى آلة الولايات المتحدة الضخمة تسخرها وتوجهها حسبما تشاء.. ولم تخلق مصر من أجل ذلك.

ولم تكن الخطورة فى رأى سيد مرعى المنفرد - صحيح أنه رئيس مجلس الشعب وهو بحكم صداقته للرئيس السادات ومصاهرته له واتصاله اللصيق به وما يتمتع به من شخصية يمكن أن يؤثر على السادات - ولكن الخطورة فى أن رأيه كان يعكس جانبا كبيرا من الرأى العام المصرى لسبب أو لآخر. وقد حلل الأستاذ محمد حسنين هيكل أسباب هذه الظاهرة فى كتابه « حديث المبادرة » وأنا أنقل عنه « ان عروبة مصر

حقيقة علمية، ومصلحة مصر العربية حقيقة علمية ثانية وأمن مصر حقيقة علمية ثالثة، ولكننا اتفقنا على أن الحقائق السياسية تكون أحيانا نقيضا مع الحقائق العلمية. ومن الحقائق السياسية فى مصر - وهذه مسألة لابد من الاعتراف بها - ان انتماء مصر العربى لم يعمق بعد بالقدر الكافى بين الجماهير المصرية لأسباب متعددة سبق لى فى سلسلة سابقة من هذه الأحاديث أن أشرت إليها :

قلت : إن مصر أقدم دولة فى التاريخ، وذلك يخلق خلطا بين مفهوم الدولة ومفهوم الأمة فيها، وقلت : إن الفكر والعقل السياسى المصرى أخذا قضية انتماء مصر العربى أمرا مفروغا منه وبالتالى فإن أحدا لم يبذل جهدا كافيا لتأصيله. وقلت : إن وحدة الأمن العربى ليست واضحة فى اليقين المصرى بالدرجة الواجبة، وكذلك وحدة المصلحة العربية. ومن محصلة ذلك كله أن الفكرة العربية فى مصر تكون معرضة لدعاوى من نوع « مصر وحدها » أو « مصر أولا » أو ما شابه ذلك وكلها دعاوى يسهل ترويجها والارتكان عليها بنجاح فى بعض الأحيان - بقصد تعطيل التفاعلات الضرورية بين الشعب على ضفتى النهر وبين الأمة من المحيط إلى الخليج.

وقد ساعد على إشعال وجهة النظر هذه الخطابات والتصريحات المفرطة فى التفاؤل التى تؤكد أن السلام على الأبواب بما يستتبعه من نهاية الحروب وويلاتها وموت للآباء والأبناء وثكل للأمهات، وأن أبواب الرخاء قد فتحت على مصراعيها وأن جنة الرفاهية أصبحت دانية قطوفها..

وكانت هذه مشكلة إضافية بالنسبة لى تتطلب منى جهدا لمحاولة معادلة تأثير بعض المحيطين بالسادات أو المتصلين به وموازنتها بالرأى الآخر.. لا أعنى رأيى الشخصى بل الرأى المدعوم بدراسة وتحليل أجهزة وزارة الخارجية. وفكرت أن أعالج هذه المشكلة بزيادة الاتصال بالسادات لتحصينه قدر إمكانى إلا أن ذلك لم يكن سهلا فمن ناحية كانت أعباء عملى ثقيلة، ومن ناحية أخرى كانت صحتى ليست على ما يرام، ومن ناحية ثالثة لم يكن دور الواعظ سهلا أو محبوبا بالإضافة إلى أن السادات كان بعيد المنال ما بين استراحات القناطر والإسماعيلية وكنج مريوط إلى آخره ».

بيان البيت الأبيض

وفى ختام الزيارة صدر بيان لا بأس به من البيت الأبيض يوم ٨ فبراير (شباط) سنة ١٩٧٨ يؤكد :

١- إن قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ ينطبق على جميع الجبهات.

٢- إن القضية الفلسطينية يجب حلها من جميع وجوهها وان يتضمن الحل الاعتراف بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني وتمكينه من المشاركة في تقرير مصيره (صيغة أسوان).

٣- إن المستوطنات مخالفة للقانون الدولي وغير شرعية.

كما صدر بيان صحفي عن اجتماعات الرئيسين كارتر والسادات في كامب ديفيد في المدة من ٣ إلى ٥ فبراير (شباط) تضمن اهتمام الرئيسين باستمرار المباحثات التي بدأت منذ شهور والتزام الرئيس كارتر بدور إيجابي في البحث عن السلام ومضاعفة جهوده بضمان تحقيق تقدم في الأسابيع التالية، كذلك أشار البيان إلى اتفاق الرئيسين على عودة مساعد وزير الخارجية أثرتون إلى الشرق الأوسط في المستقبل القريب لاستكمال السعي نحو التوصل إلى اتفاق على إعلان المبادئ.

وكان بيان البيت الأبيض والبيان الصحفي المذكور تنفيذا للبندين أ ، ب من السيناريو الذي تم الاتفاق عليه في المحادثات.

وفي ١٠ فبراير (شباط) عقد سيروس فانس وزير الخارجية مؤتمرا صحفيا هاجم فيه بشدة سياسة المستوطنات الإسرائيلية وقال : « إننا أعلنا عن اعتقادنا بأن كل المستوطنات مخالفة للقانون الدولي ولهذا السبب يجب أن تزول » كذلك أعلن فانس في المؤتمر الصحفي : « أن أراضي الضفة الغربية وغزة يجب أن تصبح الوطن القومي للفلسطينيين مع ربطها بالأردن ».

وثارت ثائرة إسرائيل وأصدر مجلس وزرائها بيانا هاجم فيه فكرة الوطن القومي للفلسطينيين التي ستؤدي إلى دولة فلسطينية تحكمها المنظمات الإرهابية التي تهدد إسرائيل بالفناء، أما مشروعات الاستيطان فإن الحكومة الإسرائيلية تصر على أنها لا تتعارض مع القانون الدولي، وأنها كانت دائما وستبقى شرعية وضرورية ».

وهرع موشي ديان إلى الولايات المتحدة في جولة تستهدف مسح ما قد يكون السادات قد سجله أثناء رحلته وإثارة حمية المنظمات اليهودية الأمريكية لممارسة ضغوطها الحميدة على الإدارة الأمريكية.

الفصل الثالث عشر

سلاطة أوروبية

فى الطائرة من واشنطن إلى لندن - أول محطة فى رحلة لزيارة سبع دول - كان السادات مغتبطا وفخورا ومتفائلا بما أسفرت عنه زيارته للولايات المتحدة، ومن ناحيتى كنت راضيا عما تحقق وشعرت أنى استفدت خبرة جديدة بالتعرف الشخصى على أغلب المجموعة الأمريكية التى تتولى معالجة قضية الشرق الأوسط وطريقة التعامل معهم. كذلك تأكد لى من واقع المناقشات مدى قوة النفوذ اليهودى فى واشنطن. إلا أنه على الجانب الآخر فقد أوضحت لى الزيارة أننا كسبنا أرضية داخل الولايات المتحدة كانت غائبة وتتمثل فى بدء تفهم قطاع كبير من الرأى العام الأمريكى لحقائق النزاع العربى الإسرائيلى والإلمام بدرجة أو بأخرى بعدالة ومعقولية المطالب العربية وهو ما كان خافيا وراء شعار الدعايات الإسرائيلية والمنظمات اليهودية الحالك. وقدرت إنها بداية طيبة يجب أن نعمل على موالاة رعايتها واستثمارها.

فى العاشرة من صباح اليوم التالى وصلنا إلى مطار « هيثرو » بالقرب من لندن حيث كان فى استقبالنا رئيس الوزراء كالاهان و « دافيد أوين » وزير الخارجية وتمت المحادثات فى بعض قاعات المطار. وأثناء اجتماع الرئيس السادات بالمستر كالاهان اجتمعت بوزير الخارجية أوين وكان شابا وسيما إلا أنه بعد ربع ساعة من الحديث معه أثار حنقى عليه، فقد كان مدار حديثه المستوطنات الإسرائيلية وأهمية التوصل إلى صياغة لاحتفاظ إسرائيل بها فى سيناء بشكل أو بآخر.

ورددت عليه ببساطة لماذا ؟ فشرع يلف ويدور وفهمت فى النهاية أنه كان يخشى أن تؤدى إزالة المستوطنات الإسرائيلية فى سيناء إلى أن تصبح سابقة لإزالة المستوطنات الإسرائيلية فى الضفة الغربية وغزة، وهو ما كان يراه صعبا من الناحية العملية وقاسيا من الناحية الانسانية ووجدت هذا المنطق يعكس تفرقة عنصرية. وماذا عن الناحية الانسانية للفلسطينيين أصحاب الأرض وأفهمته أن الانجليز آخر من يحق لهم الكلام فى مثل ذلك فعلى بلاده تقع المسؤولية الأولى للمأساة التى حاقت بالشعب الفلسطينى منذ وعد بلفور ومن جراء سياساتها الملتوية أثناء الانتداب البريطانى على فلسطين.

ومن لندن سافرنا إلى هامبورج حيث كان المستشار هلموت شميت - وهى محل ميلاده - ينزل بها للاشتراك فى مؤتمر الاشتراكية الدولية الذى كان منعقدا فيها. وكانت ألمانيا قد تحررت مؤخرا من قبضة إسرائيل بعد سنوات طويلة ظلت فيها البقرة الحلوب لإسرائيل تحت سيطرة « عقدة الذنب » واستنزفت منها بلايين الماركات كتعويضات عن ضحايا النازية فى عهد هتلر.. ومن العجيب أن دولة إسرائيل لم يكن لها أى وجود فى ذلك الوقت، إذ لم تقم إلا فى عام ١٩٤٨.

كانت ألمانيا تلعب دورا نشيطا داخل المجموعة الأوروبية سعيا وراء سلام شامل فى الشرق الأوسط يحقق استقرارا يضمن استمرار امدادها بالبترول الحيوى لصناعتها وتعاملها التجارى مع دوله الغنية. كذلك كانت ألمانيا من أخلص المؤيدين لحق الشعب الفلسطينى فى تقرير مصيره حيث كانت تتطلع ليوم يمارس فيه شعب ألمانيا الديمقراطية الشقيق حق تقرير المصير.

وقد اجتمع الرئيس السادات مع المستشار شميت بينما اجتمعت أنا مع وزير الخارجية « جنشر » الذى كانت تربطنى به علاقة طيبة منذ كنت سفيرا لمصر فى بلاده، وأحطته بالتطورات التى طرأت منذ اجتماع الإسماعيلية ثم اجتماع اللجنة السياسية فى القدس، وما حدث فى زيارتنا للولايات المتحدة دون إشارة إلى السيناريو الذى اتفق عليه بطبيعة الحال.

ومن هامبورج طرنا إلى ميونيخ عاصمة إقليم بافاريا ومنها سافر الرئيس السادات إلى قرية برخشادن الجميلة على جبال الألب لقضاء يوم فى الراحة، وبقينا فى انتظاره فى ميونيخ إلى حين عودته للسفر إلى سالزبورج بالنمسا.

عزيزى السيد العمدة..

فى تلك الأثناء تذكرت واقعة حدثت قبل ذلك بعامين عندما زار الرئيس السادات ألمانيا، وكنت سفيرا لمصر لديها - وشمل البرنامج زيارة بافاريا، وقد سافرنا من بون إلى ميونيخ بقطار خاص فى حراسة مشددة اشتركت فيها طائرات الهليكوبتر وسيارات البوليس طوال المسافة.

فى محطة ميونيخ كان ينتظرنا استقبال رسمى حيث اصطف طابور شرف من البوليس البافارى وصدحت الموسيقى بالألحان البافارية، وتقدم رئيس وزراء بافاريا وصافح الرئيس وقدم له كبار المستقبلين ومنهم العمدة، ثم صحبه إلى السيارة وركب معه متوجها إلى قصر رئاسة الوزراء البافارية حيث أعد له حفل استقبال يحضره علية القوم.

كان برنامج الزيارة يتضمن بعد زيارة مقر الرئاسة زيارة العمدة فى قصر بلدية ميونيخ التاريخى الرائع.. وكانت قد أعددت خطبتين ليلقيهما الرئيس السادات فى مناسبتين مختلفتين وأعدت الفقرة الأولى فى كلتا الخطبتين باللغة الألمانية بناء على تعليمات الرئيس، وكان سكرتير الرئيس الخاص « فوزى عبد الحافظ » هو المكلف بحمل أوراق الرئيس ونظارته وغليونه.

وفى مقر رئاسة الوزراء انتهى رئيس الوزراء من خطاب الترحيب بالرئيس وترك له المنصة.. تقدم الرئيس السادات ومن ورائه سكرتيره الخاص الذى سلمه النظارة والخطبة التى سيلقيها. كانت القاعة قد سادها سكون عميق بعد انتهاء التصفيق فى انتظار سماع خطاب الرئيس.

كان مدير المراسم الألمانى يقف بجوارى عندما انطلق صوت الرئيس السادات الموسيقى العميق وهو يلقى خطابه قائلا: « عزيزى السيد العمدة » نظر إلى مدير المراسم وهو منزعج إلا أنه لم يكن هناك ما يمكن عمله بينما استمر السادات فى خطابه إلى نهايته دون أن يشعر بشئ غير عادى وانطلق فى نهايته تصفيق مهذب !!

لقد قدم فوزى عبد الحافظ - بطريق الخطأ - للرئيس الخطاب غير المناسب ولم يفطن الرئيس للأمر، فقد ألقى الخطاب الذى كان مفروضا أن يلقيه.. ترحيبا بالعمدة أمام رئيس الوزراء.

بيريز فى سالزبورج..

فى سالزبورج استقبلنا المستشار كرايسكى فى المطار، وتوجهنا إلى أحد القصور الأثرية حيث كان مقررا أن تجرى المباحثات. واجتمع الرئيس السادات بكرايسكى على انفراد بينما اجتمعت بوزير الخارجية « بار » الذى لم يخف تشاؤمه من نجاح المبادرة رغم أن تعاطفه مع القضية الفلسطينية ومنظمة التحرير كان واضحا وصريحا، أساسه الاقتناع بعدالة حقوقهم وتقديره لمأساتهم الانسانية المؤثرة. وقد ارتحت لذلك وتوطدت بيننا علاقة تقدير وتفاهم.

وكان كرايسكى نفسه - وهو يهودى - يتخذ موقفا واضحا فى تأييد القضية الفلسطينية وينتقد مواقف إسرائيل الجامدة المتعنتة ويهاجم سياسة بيجن الذى تقاعس عن التجاوب مع مبادرة السلام.

كذلك كان كرايسكى قد رتب لقاء للرئيس السادات مع شيمون بيريز رئيس حزب العمل الإسرائيلى والذى قدم من هامبورج خصيصا حيث كان يرأس الوفد الإسرائيلى فى مؤتمر الاشتراكية الدولية.

بعد اجتماع بيريز مع السادات الذى امتد لأكثر من ساعتين طلب بيريز مقابلتى. وقد بدأ الحديث باعرابه عن الإعجاب بالرئيس السادات وشجاعته وأمله فى أن يتحقق السلام ثم ما لبث أن انتقل إلى الحديث عن المستوطنات فقال - وكأنه يريد أن يكسب ودى - أنه لا يوافق على إنشاء مستوطنات جديدة فى سيناء. وأجبته بأنه لا يعنينى كثيرا مستوطناتهم القديمة أو الجديدة فى سيناء فمصيرها الزوال على أى حال، ولكن ماذا عن المستوطنات الجديدة التى تقيمونها فى الضفة الغربية وغزة فقال مندهشا : وماذا فى ذلك إن من حقنا الاستيطان فى أى مكان وهذه مستوطنات مدنية يعيش فيها اليهود ويكدون ويكدحون لكسب رزقهم قلت : إن ذلك جائز فى أرض لا صاحب لها ولكن هذه أرض الشعب الفلسطينى. فقال ومع من تتكلم ؟ فقلت : هأنذا أكلمك وأرجو أن تعمل على وقف بناء المستوطنات فى الأرض الفلسطينية إلى أن تتفاوضوا مع ممثلى الشعب الفلسطينى وهم الذين يقررون الموافقة أو الرفض على إنشاء المستوطنات.. وهنا حضر الضابط المكلف بحراستى وأبلغنى بالإسراع إلى الخارج حيث يتأهب الرئيس السادات لركوب السيارة للذهاب إلى المطار فقمت وصافحت بيريز الذى كان يحدق فى وجهى بنظرة ملؤها الدهشة والتعجب ولم أفهم سر هذه النظرة التى طغت على أسارير

وجهه إلا بعدها بشهور. كان سر دهشته أنه سمع وزير خارجية السادات يتكلم معه على وتر يخالف الوتر الذى تكلم عليه الرئيس السادات معه منذ أقل من ثلث ساعة.

بيان رومانى مشترك..

كانت الرحلة إلى رومانيا شاقة ومرهقة فبعد أن قطعت الطائرة نصف المسافة تقريبا تلقت رسائل بتعذر هبوطها فى مطار بوخارست، حيث كانت هناك عواصف شديدة واستحالة فى الرؤية، وبالتالى الهبوط فى الظلام وتقرر بعد مشاورة الرئيس السادات أن تتوجه الطائرة إلى باريس لقضاء الليل فيها ثم معاودة السفر إلى رومانيا فى الصباح : إلا أنه فى منتصف الطريق إلى فرنسا تلقت الطائرة رسالة جديدة تفيد بأنه يمكن لها الهبوط فى أحد المطارات التى تبعد نحو ١٢٠ كيلو مترا عن بوخارست وغيرت الطائرة وجهتها من جديد ووصلنا إلى المطار المذكور ـ بعد أن خيم الليل ـ وهو مطار عسكرى. وكان قائد المطار فى استقبالنا وكذلك مدير المراسم الرومانى وركبنا السيارات التى كانت معدة لنا إلا أنها كانت قليلة فركب باقى المرافقين للوفد سيارتى أوتوبيس وكان السادات يصطحب معه فى سفرياته عددا ضخما من المعاونين والمرافقين والحرس يزيد على المائة مما كان يسبب دائما مشاكل صغيرة متعددة ومتنوعة حيث حلوا ـ وتحركت قافلة السيارات ببطء شديد وسط ضباب وشبورة والثلوج تغطى الأرض ووصلنا بوخارست بعد منتصف الليل وتوجهنا إلى مقر الضيافة وكان الرئيس شاوشيسكو فى انتظارنا مع كبار معاونيه وقد أصابه القلق لتأخر وصول الوفد.

وتوجه الرئيس السادات إلى جناحه وتوجهنا إلى قاعة الطعام حيث تناولنا عشاء فاخرا..

وكان الرئيس شاوشيسكو يتمتع بمنزلة خاصة لدى الرئيس السادات حيث كان يعتبر نفسه مدينا له بالخطوة التى قرر على أثرها القيام بمبادرته عندما رد بالإيجاب على سؤالى الرئيس له فى زيارة سابقة وهما : هل بيجن رجل قوى وهل هو قادر على اتخاذ قرار السلام ؟

وأذكر أن الرئيس اليوغوسلافى تيتو كان قد أرسل خطابا إلى الرئيس السادات يسترعى نظره إلى الأضرار التى حاقت بالمعسكر العربى وإلى جمود الموقف

الإسـرائيلى وسـعـيـه لضم الأرض قـبل كل شـئ، وكنا قـد أعـددنـا ردا من الرئيس على خطاب تيتو إلى أنه ماطل فى التوقيع عليه وألـحـت عليه فى التوقيع قـائلا : إن الرئيس تيتو غاضب بما فيه الكفاية بسبب المبادرة ولا داعى لأن نرش الملح على الجرح بالتأخير فى الرد على خطابه، خـاصـة وأنه كـان دائمـا من الركـائز القوية فى مسـاندة القـضـيـة العـربيـة وتبناها بكل قـوة واقـتـناع وإيجـابيـة، فـوقع الرئيس أخـيرا الخطاب وهو يقـول « الحق معك .. أصل الرئيس تيتو يشعر بالغيرة لأنى لجأت إلى شاوشيسكو دونه » !!

وجرت مباحثات ثنائية بين السادات وشاوشيسكو أما أنا فكان من نصيبى التحدث مع وزير خارجيته. وكان حديثا طويلا أملنى. فقد كان وزير الخارجية يتحاشى الخروج فى حديثه بشأن النزاع العربى الإسـرائيلى عن إطار ترديد موقف رومـانيا المعلن، وهو موقف مؤيد للموقف العربى فيما يتعلق بالانسحاب من كل الأراضى وحقوق الشعب الفلسطينى المشروعة وأحسست أن السبب هو الحرص على عدم الإدلاء برأى يدين أو يؤيد أى طرف وأن السبب فى ذلك يرجع إلى اسـتـئثار الرئيس والزعيم شاوشـيسكو بهـذا المـوضـوع وذكـرنى ذلك بمواقف بعض الكبـار والوزراء والسـفـراء عندنا الذين يؤثرون ترديد مـا يقال لهم أو يسـمـعونه دون زيادة أو نقصـان وكـأن مـا يرد على لسـان « الزعـيـم » أو يدور فى فكره هـو نصـوص مـقـدسـة ـ ثم انـتـقل الـحـديث إلى الـعـلاقـات الثنائية بين مـصـر ورومـانيا فى شـتـى مـجـالاتها وكانت علاقات رومـانيـا بنا نشـيطة فى المجال التجارى وفى التصنيع إلا أن ذلك الحديث لم يكن يستهوينى ولم تكن قد أتيحت لى الفرصة ولا الرغبة فى دراسة العلاقات الرومانية المصرية الثنائية.

وانتـهت المحـادثات المصـرية الرومـانيـة إلى إصـدار بيـان مشـتـرك سـجل من جـديد الموقف الرومـانى من التسـوية السلمـيـة وعزم رومـانيـا على بذل الجـهـود لانجـاز هذه التسوية وتحقيق السلام .. وكان أكثر ما أسعدنى أن أصر الرئيس شاوشيسكو على الإشارة فيه إلى أن تنتهى المباحثات بين مصر وإسرائيل إلى مؤتمر جنيف للسلام، كما تضمن الترحيب بدعوة السكرتير العام للأمم المتحدة فـالدهايم لاجتمـاع الأطراف فى الأمم المتحدة كخطوة تمهيدية لمؤتمر جنيف. وكنت أرى أن ذلك مـهم كمـخـرج فى حـالة فشل المباحثات أو نجاحها بما يسمح باشتراك الأطراف العربية الأخرى فى حضـور الدولتين العظمـيين وفى دفء إطار الأمم المتـحدة، بينمـا كـان الرئيس السـادات تداعبـه رغبة مكبوته بأن ينسب نجاح مباحثات السلام إلى مؤتمر القاهرة التحضيرى الذى دعا إليه الأطراف ولم يحضره إلا مصر وإسرائيل والولايات المتحدة.

تشاؤم فرنسى ..

ومن بوخارست طرنا فى ظهر اليوم التالى إلى باريس وكانت الثلوج تغطى مبانيها وأشجارها وتكسوها بحلة جميلة ناصعة البياض المشوب بالخضرة ونزل الرئيس السادات فى قصر « مارينيه » الذى كان مملوكا فى السابق لعائلة روتشيلد، ونزلنا فى أوتيل كريلون.

وفى المساء تناول الرئيس السادات العشاء مع الرئيس جيسكار ديستان واستمرت المباحثات بينهما بعده.. أما أنا فدعانى سفيرنا فى باريس حافظ اسماعيل إلى عشاء بمقر إقامته دعا إليه سكرتير عام الخارجية الفرنسية وموظفيها المختصين بمصر والشرق الأوسط. وكان وزير الخارجية مسيو دى جرينجو وقتها فى نيويورك للمشاركة فى اجتماعات الدول الخمس (انجلترا وفرنسا وألمانيا الاتحادية والولايات المتحدة وكندا) الخاصة بناميبيا.

وكان السفير حافظ اسماعيل قد نقل من الجيش وكيلا لوزارة الخارجية فى سنة ١٩٦١ وكنت وقتها قنصلا عاما فى مونتريال. ثم عين وزير دولة للشؤون الخارجية إلى أن اختاره الرئيس السادات مستشارا للأمن القومى، وقد سافر إلى واشنطن حيث اجتمع بهنرى كيسنجر مستشار الأمن القومى للرئيس نيكسون وقتها لتحسس الموقف الأمريكى بشأن النزاع العربى الإسرائيلى قبل حرب أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٧٣. وكانت علاقتنا الدبلوماسية بالولايات المتحدة مازالت مقطوعة وكان حافظ اسماعيل رجلا جادا لا يخطئ الناظر إلى تكوينه العسكرى ويتميز بنظراته الاستراتيجية الشمولية والدقة والمقدرة التنظيمية وكانت ملامحه الصارمة تخفى وراءها طبيعة رقيقة وصريحة خارج إطار العمل وكنت ومازلت أكن له مودة وتقديرا واحتراما.

ودار الحديث فى العشاء حول مبادرة الرئيس السادات والتطورات التى تلتها وكان الجانب الفرنسى لا يشعر بالتفاؤل بل ويشعر بالتشاؤم بالنظر إلى جمود حكومة بيجن واستبعادهم لإقدامها على تنازلات تتفق مع ما كنا نستهدفه بفتح الطريق إلى حل شامل ودائم. ومن الناحية الثانية فقد أثار قلقهم الشديد الفرقة التى حاقت بالعالم العربى نتيجة لمبادرة السادات والتى أوقعت فرنسا فى شئ من الحرج إزاء تعاملاتها الواسعة فى المنطقة التى تموج بالثراء والامكانيات والتى نشطت باطراد سريع بعد تولى الرئيس ديجول للرئاسة فى فرنسا، واتخاذه سياسة مغايرة تماما لسياساتها

السابقة التى كانت تتربص لضرب مصر وإسقاط حكم الرئيس عبد الناصر نظرا للمساعدات والمعونات الفعالة التى كانت تقدمها مصر لمساندة الثورة الجزائرية على الاستعمار الفرنسي. وقد انزلقت فرنسا وقتها إلى الحد الذى حدا بها إلى الاشتراك مع انجلترا وإسرائيل فى العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦.

ثم انتقل الحديث إلى أفريقيا وكان الاتحاد السوفيتى قد حقق نجاحا كبيرا فى أنجولا وفى أثيوبيا بعد أن فقد قاعدته فى الصومال واشتعل الموقف فى منطقة القرن الأفريقى.

أثار نجاح الاتحاد السوفيتى والذى كان من دعائمه تأييده لحركة التحرر الأفريقية وموقفه الواضح من السياسات العنصرية التى كانت تلهب العصب الحساس لدى الأفارقة ثائرة الرئيس السادات الذى اندفع يمارس خطا قوامه ملاحقة الاتحاد السوفيتى فى أفريقيا ومساندة بعض النظم الحاكمة المتداعية والتى تسير فى ركاب العالم الغربى إلى حد التدخل فى شؤونها الداخلية ومساندتها بالعتاد والسلاح وبالمستشارين العسكريين المصريين فى بعض الحالات دون أن يلقى بالا لأسباب ما تعانية شعوب هذه الدول من مصاعب كان محورها فى الغالب الفساد المستشرى والظلم والجوع والفاقة.

قرارات منفردة ..

حاولت مع السادات مرارا فى ذلك الأمر وأوضحت له أن من شأن ذلك أن تهتز صورتنا فى أفريقيا ويتأثر المركز الممتاز والاحترام الكبير لمصر فيها.. والذى حققته من جراء اتباعها سياسة مستقرة متصلة تقوم على مساعدة حركات التحرر الأفريقية ومحاربة التفرقة العنصرية فى ربوعها.. إلا أن ذلك كان عبثا « فقد كان يتخذ قرارات ويقدم على خطوات تقوم أجهزة أخرى فى الدولة بتنفيذها دون أن يحيطنى بها علما ».

وفهمت فيما بعد أنه كان يسعى إلى استثمار سياساته هذه لدى الغرب عامة والولايات المتحدة خاصة للحصول على تأييدها له سواء فى مبادرته أو غيرها.. ولتعتمده رجل بوليسها فى أفريقيا بما ظن أنه يدعم مركزه لديها.

وكان الرئيس السادات هو العامل الفعال فى إقناع سياد برى بالهروب من جحيم الاتحاد السوفيتى والدخول فى نعيم الغرب، وقد زوده السادات ببعض الأسلحة

السوفيتية التى كانت تملكها مصر وتولت السعودية دفع ثمنها وكان لسياد برى تطلعات لإقامة الصومال الكبرى بضم بعض الأقاليم الإثيوبية والكينية (وايرزيا).

وقد انتهز فرصة الانقلاب الذى قام به منجستو فى إثيوبيا وتسرع فى غزو إقليم الاوجادين سعيا وراء ضمه إلى الصومال. ويبدو أنه وقع فى ظن أن تحوله عن الاتحاد السوفيتى واخلاءه للقاعدة السوفيتية فى الصومال يخول له الحق فى الحصول من الغرب على معونات وأسلحة تدعمه فى تحقيق آماله التوسعية.

إلا أن الأمر لم يكن بهذه البساطة فقد كان من مبادئ منظمة الوحدة الأفريقية مبدأ احترام الحقوق القائمة، وكان موقف سياد برى يثير قلق باقى الدول الأفريقية الشديد، كما كانت أطماعه تشمل اقتطاع أجزاء من كينيا وهى دولة مرتبطة ارتباطا وثيقا بالغرب.

وقد علق الغرب تزويد سياد برى بالسلاح على التزامه بعدم التعدى على أراضى الغير وإعلان ذلك إلا أنه كان يرفض ذلك وقد حاولت اقناع وزير خارجيته بأن يعلن أن الصومال ليس لها أطماع إقليمية ولكن بدون جدوى، إذ كان إعلان ذلك كما أفهمنى يعد خيانة لآمال الشعب الصومالى - بمن فيه سكان إقليم الأوجادين - ومؤداه سقوط سياد برى ونظامه.

وذكر لى سكرتير عام الخارجية الفرنسية : أن وزير الخارجية « جيرنجو » طلب منه إبلاغى أن الرئيس كارتر سيوفد مبعوثا يوم ٣١ فبراير (شباط) اليوم التالى إلى أديس أبابا يحمل رسالة للرئيس منجستو فحواها أنه - أى منجستو - يقف على الخط الفاصل ويكاد يصل إلى نقطة اللا عودة، وأن عليه أن يختار فإما أن يستمر فى تلقى المعونات العسكرية من الكتلة الشرقية وفى هذه الحالة سيصعب على الولايات المتحدة أن تستمر طويلا فى سياسة الترقب والانتظار، وإما أن يتبع سياسة أكثر تعقلا وفى هذه الحالة من الممكن أن تتخذ واشنطن خطوات إيجابية. كذلك أبلغنى أن الدول الخمس استقر رأيها على عرض مشكلة القرن الأفريقى على مجلس الأمن إلا أن ذلك يستدعى أن يصدر الرئيس سياد برى تصريحا بأنه ليست له أطماع إقليمية .. حتى إذا اقترن هذا التصريح بمطالبته بحق تقرير المصير للأوجادين وأنه إذا صدر مثل هذا التصريح فإن الدول الخمس مستعدة للذهاب فورا إلى مجلس الأمن لمطالبة جميع الدول بالتوقف عن التدخل وإرسال الأسلحة. أما إذا عرض الأمر على مجلس الأمن دون إعلان هذا

التصريح فإنه لن يتوصل إلى أية نتيجة خاصة وأن الصومال تبدو كدولة معتدية لأن قواتها هى التى عبرت الحدود مما يتيح للسوفيت الإدعاء بأنهم يساهمون فى الدفاع عن إثيوبيا بوصفها ضحية للعدوان.

نصائح مهمة..

وبعد انصراف المدعوين أمضيت وقتا طويلا مع السفير حافظ اسماعيل نناقش مسائل مختلفة حول الموقف الراهن وكانت له نصائح وآراء أوليها كل الاعتبار واتفقت معه - وكان سفيرا لمصر فى موسكو فى السابق - على أن يؤيدنى فيما ألح فيه على السادات كى يوافق على عودة السفير المصرى إلى موسكو.

وفى اليوم التالى توجهت والسفير إلى قصر « مارينيه » وقد شاهدنا جانبا من اجتماع الرئيس السادات بوفد زعماء اليهود الأوروبيين برئاسة ناحوم جولدمان رئيس المجلس اليهودى العالمى. وكان جولدمان يختلف مع بيجن لخشيته من أن تؤدى مواقف بيجن المتصلبة والاستفزازية إلى أن تفقد إسرائيل مع الوقت تعاطف الرأى العام الدولى وبالذات فى الولايات المتحدة الأمريكية وقد قام أعضاء الوفد كل بدوره بامتداح الرئيس السادات وشجاعته وإخلاصه فى السعى نحو السلام وألمحوا إلى استعدادهم للقيام باستثمارات هائلة فى مصر، وكانوا يرددون له النصح بألا يفقد الصبر وأن يعطى مناحم بيجن فسحة من الزمن لأن مواقفه ستتحول إلى المرونة ولكن ببطء وأنهم سيعملون على ذلك، وكانوا يشيرون إلى أن أية تنازلات يقدمها بيجن سيتقبلها الشعب الإسرائيلى عن طيب خاطر وهو ما لا ينطبق على غيره.

تركت الرئيس السادات فى باريس وهو يتأهب لمغادرتها إلى ايطاليا حيث كان من المقرر أن يجتمع بالبابا فى الفاتيكان ويجرى مباحثات مع الحكومة الايطالية، وسافرت إلى بون لأقوم بتوديع المسؤولين والأصدقاء بمناسبة انتهاء سفارتى فى ألمانيا كما كنت فى حاجة ملحة لإجراء بعض الفحوص الطبية.

اتفاق على الأراضى..

وقابلت الرئيس الألمانى والتر شيل والذى كان وزيرا للخارجية عند وصولى لبون فى شهر أغسطس (آب) ١٩٧٢، والحديث مع والتر شيل متعة كبيرة فهو شخصية ذكية ومرحة وجذابة محبة للحياة وقد تناول الحديث المصاعب التى تواجه المفاوضات بعد

تجربة الإسماعيلية والقدس. وعبر شيل عن اعتقاده بأن الأمر سيتطلب جهودا مضنية حيث يشعر بأن الحكومة الإسرائيلية غير مستعدة لاتخاذ مواقف بناءة حاليا، وأنه يرى وجوب مقابلة ذلك بالتمسك القوى بالمواقف القائمة على المبادئ، كما عبر عن استحسانه لاتجاه الرئيس السادات إلى كسب الرأى العام الأمريكى، لأن هذا يساعد الرئيس كارتر على اتخاذ المواقف التى يعتقد أنه يرغب فى اتخاذها كذلك أعرب عن أمله فى انضمام أطراف عربية أخرى إلى المباحثات فيما لو نجحنا فى التوصل إلى إعلان المبادئ التى تحكم التسوية، وأشار شيل فى حديثه إلى أنه يشعر بأن مشاركة الاتحاد السوفيتى ستكون ضرورية لعملية البحث عن التسوية فى مرحلة من المراحل.

وفى مقابلتى للمستشار شميدت ذكر أن السلام الذى ينشده الرئيس السادات يحظى بتأييد الرأى العام العالمى وأنه من الضرورى للاحتفاظ بذلك أن يتضح للجميع أن سياسة مصر ثابتة سواء من ناحية الأهداف أو من ناحية أسلوب التوصل إلى تحقيق هذه الأهداف.

وقال شميدت أن انطباعه من أحاديثه مع شيمون بيريز أن موضوع المطارات فى سيناء يمكن حله عن طريق تخلى إسرائيل عنها تدريجيا خلال فترة انتقال. أما بالنسبة للمستوطنات فقد أبلغه أنه من الصعب أن يغير بيجن موقفه منها. وسألنى المستشار عما قال أنه سبق أن عرضه على السادات فى هامبورج - من امكانية الاتفاق على تبادل الأراضى بين مصر وإسرائيل بحيث تحتفظ إسرائيل بمنطقة المستوطنات فى رفح وتأخذ مصر مقابلها جزءا من النقب. وقد أجبته بأننا لا نقبل ذلك لأسباب عديدة منها أن حدود مصر الدولية مستقرة من آلاف السنين ولا يمكن تعديلها، وأن الأراضى التى تعرضها إسرائيل على مصر كبدل هى أراض ليست لها بل هى أرض فلسطينية احتلتها إسرائيل خارج حدود قرار التقسيم ولا نقبل ولا نملك أن تساومنا عليها إسرائيل فضلا عن أننا عرضنا على إسرائيل اتخاذ كل تدابير الأمن المتبادل مما يجعل موضوع الاحتفاظ بالمستوطنات أو تبادل الأراضى غير وارد.

تشاؤم ديستان ..

وأشار المستشار إلى أنه لمس لدى مقابلته للرئيس جيسكار ديستان تشاؤمه وتحفظه ليس فقط بالنسبة للعلاقات المصرية الإسرائيلية ولكن أيضا بالنسبة للموقف بين مصر ودول الرفض .. وأبلغه بأننا نعول كثيرا على جهود ألمانيا وأوروبا فى دفع الجهود نحو

السلام العادل والشامل، فأكد استعدادهم لذلك وخاصة فى المساعدة على تثبيت المواقف الأمريكية التى لمسوا تذبذبها والتى يرون أنها يجب أن تكون أكثر ثباتا، وهو ما يعتقدون أن زيارة الرئيس السادات لواشنطن قد ساهمت فى إبرازه. وأضاف أنه كان هناك فى ألمانيا منذ مقابلة المستشار الألمانى إيرهارد وبن جوريون من نحو خمسة عشر سنة تيار متعاطف مع إسرائيل نتيجة الشعور بالذنب .. وأن هذا التيار قد ضعف الآن كثيرا وإن لم يختف تماما.

وقال فان فل وزير الدولة بوزارة الخارجية والذى كان حاضرا المقابلة أن هناك معلومات وصلتهم من سفارتهم فى إسرائيل تفيد بأن إسرائيل لا تعير جولة أثرتون القادمة فى المنطقة أهمية.. وأنهم يعلقون كل شئ على زيارة بيجن المقبلة لواشنطن وأضاف أن سكرتير عام الخارجية الإسرائيلية أبلغ السفير الألمانى أن موضوع المستوطنات فى سيناء موضوع هامشى وليست له أهمية كبيرة بالنسبة لهم. وقد علق المستشار شميت بأنه لا يصدق ذلك خاصة وقد أفهمه شيمون بيريز أن هذا الموضوع بالذات له أهمية كبيرة لدى بيجن شخصيا.

واستفسر المستشار شميدت عن التطور الأخير فى العلاقات بين السودان وليبيا وكانت السودان قد اتفقت مع ليبيا على إعادة العلاقات بينهما، وذلك بعد أيام من سفرنا إلى الولايات المتحدة، وكان ذلك مفاجأة للسادات أغاظته كثيرا ـ وقد أجبته بأن السودان محاط بنزاعات وأنظمة تعمل على التأثير على استقراره وأن الرئيس نميرى يحرص على تجنب المتاعب التى قد يحاول الاتحاد السوفيتى استغلال ليبيا فى خلقها له. وأكدت أن علاقاتنا بالسودان متينة ولا يمكن أن يؤثر فيها شئ لأنها قائمة على مصالح حيوية بين البلدين.

ثم قابلت هانز ديتريش جنشر وزير الخارجية الألمانى وكان وزيرا للداخلية عند وصولى إلى ألمانيا وقد بدأت علاقتى به منذ ذلك الوقت إذ كنت أسعى لرفع القيود على تأشيرات السفر للمصريين خاصة والعرب عامة والمعاملة الجافة والفظة أحيانا التى كان يلقاها القادمون العرب إلى إلمانيا، من تفتيش دقيق واحتجازهم إلى ما بعد الفراغ من بقية القادمين معهم على الطائرات، وكان ذلك الوضع قد نشأ بعد أحداث ميونيخ خلال دورة الألعاب الأوليمبية التى عقدت بها فى ١٩٧٢.

وأخبرنى جنشر أن ألمانيا تعمل حثيثا على استخدام علاقاتها بإسرائيل لدفعها إلى اتخاذ مواقف إيجابية وأنه حث زملاءه وزراء الخارجية الأوروبيين الذين اجتمع بهم فى

كوبنهاجن فى اليوم السابق على اتخاذ نفس الموقف.. وأضاف أن الوزراء الستة قد استقر رأيهم على أنه من غير المفيد إصدار بيان جديد بشأن الشرق الأوسط خاصة وأن مواقفهم معروفة ومعلنة وثابتة ولكنهم اتفقوا على استخدام كل امكانياتهم الدبلوماسية مع إسرائيل ومع الدول العربية لتأييد جهود مصر من أجل السلام.

وأضاف أنه شعر من اتصالاته بالأمريكيين خلال وجوده فى نيويورك منذ أيام بأن زيارة الرئيس السادات لواشنطن تركت أثرا كبيرا لدى الرأى العام الأمريكى ولدى مراكز اتخاذ القرارات فى الإدارة والكونجرس وأنهم مدركون للدور الذى عليهم أن يضطلعوا به وعبر عن أمله فى أن يتخذوا مواقف أكثر ثباتا من الماضى.

كذلك أبلغنى أنه قابل موشى ديان فى نيويورك وأنه أبلغه أن استقرار منطقة الشرق الأوسط وبالتالى أمن إسرائيل لن يتحقق إلا باستقرار جميع الدول المحيطة بها، وأن ذلك لن يكون ممكنا طالما بقى الفلسطينيون فى معسكرات، وبالتالى فإن حل المشكلة الفلسطينية وإنشاء دولة فلسطينية مرتبطة بالأردن هو فى النهاية لمصلحة إسرائيل.

وفى النهاية أكد جنشر على ثبات الموقف الألمانى من المشكلة وأن هذا الموقف أساسه المبادئ وأيضا المصالح الأوروبية نظرا لارتباط المنطقتين، وذكر أنه مقتنع بأن موقف مصر قوى وأن اصرارها باستمرار على مبادئ الحل الشامل والعادل لابد أن تكون له انعكاسات إيجابية على الموقف العربى وعلى عملية البحث عن التسوية.

وانتقل الحديث إلى الموقف فى أفريقيا وكان جنشر يتحدث عن الصومال معبرا عن أمله فى أن نحثه على اتخاذ بادرة مطمئنة نحو كينيا بإعلان أنه ليس للصومال مطامع إقليمية فى أراضيها وأن ألمانيا ترى ضرورة وقف المد السوفيتى فى القارة الأفريقية وأن من شأن موقف سياد برى لغزو منطقة الأوجادين أن يتيح للاتحاد السوفيتى فرصة الادعاء بأنه يساهم فى الدفاع عن إثيوبيا بوصفها ضحية للعدوان.

حادثة الأسلحة..

وفى أثناء الاجتماع مع جنشر وصلته برقية صحفية من وكالة رويتر تفيد أن طائرة مصرية مدنية محملة بالأسلحة للصومال قد أجبرت على الهبوط فى كينيا وأن السلطات الكينية تحتجزها، فذكرت أنه لا علم لى بهذا الموضوع وأكدت أننا نساعد الصومال

ولكن داخل حدوده وأننا نعارض أية أهداف توسعية له.. وأضفت أنه من الضرورى أن يشعر الصومال بعد تخلصه من النفوذ السوفيتى أن هناك من يقف بجانبه خاصة وأنه شعر بأن الدول الغربية تخلت عنه.

التفاوض الضعيف..

أثناء وجودى فى ألمانيا وردت أنباء بأن اثنين من الفلسطينيين قد اغتالا الكاتب المصرى يوسف السباعى فى قبرص وكان يرأس الوفد المصرى فى اجتماعات لجنة التضامن الآسيوى الأفريقى المنعقدة فى قبرص، وقد تأثرت كثيرا لهذا الحدث، ولم أكد أفيق من ذلك حتى داهمتنى أخبار تطور خطير مزعج مفادها وصول طائرة مصرية إلى مطار لارناكا فى قبرص وعلى ظهرها قوة من رجال الكوماندوز المصريين مهمتهم اختطاف قاتلى يوسف السباعى والعودة بهم إلى القاهرة لتقديمهم إلى المحاكمة. وانتهت المهمة بفاجعة مريعة مؤلمة هى مقتل نحو عشرين شابا من رجال القوة المصرية على أرض المطار ولم يفعل ذلك الفلسطينيون هذه المرة بل القوات القبرصية وهى تدافع عن سيادة قبرص المعتدى عليها.

كان السادات يعشق « التمثيل » ولاح له ما ظنه فرصة سانحة ليلعب دور إسرائيل فى عملية « عنتيبى » وغاب عنه أنه هاو وإسرائيل محترفة. وسأعود إلى هذه المأساة وذيولها فيما بعد.



رأسا لرأس

وقبل المضى فى سرد أحداث التجربة التى عشتها أرى أنه من المناسب التعرض لنقطة لعل القارىء لاحظها من قبل وهى أنى فى سردى لجولة الرئيس السادات الأوروبية بعد زيارة الولايات المتحدة وفى طريق العودة إلى مصر، لم أذكر شيئا عما دار فى مباحثات السادات المغلقة مع كل من رئيس الوزراء البريطانى كالاهان ومع المستشار شميدت ومع المستشار كرايسكى ومع شيمون بيريز رئيس حزب العمل الإسرائيلى ومع الرئيس شاوشيسكو ثم مع الرئيس جيسكار ديستان.

والواقع أن المباحثات السياسية المغلقة على مستوى القمة ومن دونه أصبحت من سمات الزمن الذى نعيش فيه، ولا شك أن لها مزاياها أحيانا إذ تتيح جوا هادئا متحررا من الكلفة ويبعث على الثقة والطمأنينة مما يساعد على حرية المناقشة وتبادل الآراء بسهولة ويسر، ومما قد يؤدى إلى الاتفاق أو عدم الاتفاق على ما هو مطروح للمناقشة أو على بعض نقاطه.

إلا أن ما يدور فى هذه المباحثات المغلقة ليس أحاديث شخصية بين الطرفين أو ملكية خاصة لهما، وإنما هو يتعلق بالموضوع الذى من أجله سعى كل طرف إلى الالتقاء بالطرف الآخر فى مهمة سياسية، وهو بذلك يعتبر جزءا متمما أو مكملا للأجزاء والأنشطة الأخرى المتصلة بالموضوع، ويجب أن يضاف إلى حصيلتها وتوضع تحت نظر الجهاز - أو الأجهزة - المختصة برسم وتنفيذ الخط السياسى حتى يتسنى

لهذا الجهاز أن يدخلها فى اعتباره وتقييمه فى رسم خططه وتكتيكاته أو تعديلها. ومن ثم فيجب تسجيل كل ما دار فيها بأمانة، وحفظه على الورق، حتى يكون مرجعا يسهل الرجوع إليه، ومنطلقا للطرف الذى شارك فى الاجتماع المنفرد فى أية مباحثات لاحقة له أو لخلفه فى المسؤولية. على أن هذا لا يعنى تعميم ما يكون قد دار فى هذه اللقاءات المغلقة على الكافة وإنما هذا موضوع يمكن التحكم فيه وحصر وتحديد من يحق له الاطلاع عليه، وذلك بشموله لدرجة السرية المناسبة حسبما تقتضيه المصلحة والظروف.

لكن الحال لم تكن كذلك مع الرئيس السادات إلا فيما ندر، ففى غالب الأحيان يكون مرتبطا بارتباط لاحق للاجتماع الثنائى المغلق سواء بموعد آخر يقابل فيه بعض الشخصيات أو الوفود أو بإلقاء خطاب أو بحفل غداء أو عشاء أو يتوجه مباشرة إلى غرفته للراحة أو للنوم، مما يوجد فاصلا زمنيا بين اللقاء الثنائى وبين الوقت الذى أقابله فيه. وكنت بطبيعة الحال لا أتركه ساكنا بل ألاحقه بالأسئلة والاستفسارات عما تناولته المقابلة إلا أن روايته لها كثيرا ما كانت تكون مبتورة أو تتصف بالعمومية أو التركيز على جانب مما يكون قد استهواه فى المقابلة أو استرعى اهتمامه وإغفال باقى ما دار وأحسست مع الوقت أنه لا يريد الالتزام بإبلاغى أو غيرى بكل ما يدور فى هذه المقابلات. وكان ذلك يذكرنى بطبيعته الكتوم الحريصة المشوبة بالغموض أيام كنا فى سجن مصر العمومى إلا أن الموقف والظروف الآن كانت مختلفة، وكان عدم اطلاعى على مجريات اللقاء يسبب لى مضايقات وإحراجا فى بعض الأوقات إلا أنه لم يكن من السهل أن أتمادى فى الإلحاح عليه، وكنت أفترض أن حديث السادات فى هذه اللقاءات يدور داخل خططنا وأهدافنا. وكان افتراضى يستند إلى سند منطقى بل هو أكثر من المنطق، على الغريزة البشرية ، على الأنانية والذاتية فى أن تحقق مبادرته غايتها فى السلام الشامل العادل القائم على انسحاب إسرائيل من الأراضى المحتلة وتحقيق حقوق الشعب الفلسطينى وكفالة أمن العرب وإسرائيل معا.

وإلا فلماذا غامر بالدخول فى كل ذلك ؟ ولا يستطيع أحد الادعاء بأنه كان مضطرا ؟

وسأتناول هذه النقطة بمزيد من التفصيل إذ أنه سيكون مفتاحا لفهم الكثير من المتناقضات والطلاسم التى حفلت بها مسيرة المبادرة حتى وصلت إلى مؤتمر كامب ديفيد الثلاثى فى سبتمبر (أيلول) ١٩٧٨. فمع مرور الوقت وتوالى الأحداث ومع الملاحظة والتجربة وصلت إلى يقين بأن حصيلة السلسلة الطويلة من اللقاءات الثنائية التى كان السادات طرفا فيها، كانت من أخطر العوامل التى أدت إلى تآكل مركز

السادات وتدهوره حتى أنه عندما عبر بوابة كامب ديفيد كان مفلسا عاريا مكبلا لا يملك حراكا بسبب ما انفلت به لسانه داخل الغرف المغلقة من تنازلات وتجاوزات وتعهدات الواحد بعد الآخر، وفى لقاء وراء لقاء حتى كتف نفسه وبدد ما كان معه من أرصدة، وكانت النتيجة أنه لم يجد أمامه مفرا من التوقيع على إشهار إفلاس مبادرته.

ما خلف المبادرة

وأحاول أن أبين خلفية ذلك فأعود إلى الوراء إلى سنة ١٩٧٧ وأذكر على سبيل المثال ما أعلنه السادات فى أحاديث متعددة وما أورده فى كتابه « البحث عن الذات » وما رواه لى شخصيا من أن فكرة المبادرة قد خطرت له لأول مرة بعد أن تلقى خطابا من الرئيس كارتر يخبره فيه بآخر التطورات والمصاعب حول عقد مؤتمر جنيف. وأنه رد عليه بأنه يفكر فى القيام بعمل جرئ، وكيف أنه بعد أن اجتمع بالرئيس شاوشيسكو الذى أكد له أن مناحم بيجن رجل قوى وأنه يريد السلام، اختمرت فى رأسه فكرة المبادرة وأنه لم يلبث أن استقر رأيه على الذهاب إلى القدس، وهو فى الطائرة من بوخارست إلى إيران.

هل كان هذا صحيحا ؟ لا أدرى فقد استرعى نظرى فيما بعد وأنا أقرأ كتاب جولدا مائير « حياتى » ما ذكرته من أنه فى بداية عام ١٩٧٢ زار نائب وزير خارجية رومانيا إسرائيل تحت ستار مقابلة أقرانه فى وزارة الخارجية الإسرائيلية وأنه طلب مقابلتها على انفراد، حيث أبلغها أن الرئيس شاوشيسكو كلفه بإبلاغها أن لديه رسالة مهمة للغاية يريد أن يفضى بها إليها شخصيا وتتعلق بمباحثاته مؤخرا مع الرئيس السادات عندما زاره فى القاهرة، ووجه لها الدعوة لزيارة بوخارست سواء فى زيارة سرية أو معلنة حسبما تراه.

وذكرت جولدا مائير أنها سافرت بعد ذلك إلى بوخارست وأمضت أربع عشرة ساعة فى محادثات مع شاوشيسكو فى جلستين أبلغها فيهما أنه « فهم من السادات نفسه أن الزعيم المصرى على استعداد لمقابلة شخصية إسرائيلية ربما تكون هى جولدا مائير، وربما تكون المقابلة على مستوى أقل قليلا من مستوى الرؤساء ولكن مقابلة ما ممكن أن تحدث ». وتقول جولدا مائير أن شاوشيسكو كان متحمسا على نحو ما كانت هى وأنه لم يكن هناك لديه شك فى أنه ينقل إليها رسالة تاريخية وصادقة تماما، وأنه تحدث معها بعد ذلك فى التفاصيل، إننا لن نعمل عن طريق السفراء أو وزراء الخارجية

واقترح أن يقوم نائب وزير خارجيته بالاتصال الشخصى بجولدا مائير عن طريق سكرتيرها السياسى « سيمحا دينتز » الذى صحبها فى الزيارة إلى رومانيا.

وتذكر جولدا مائير أنها بعد عودتها إلى إسرائيل ظلت تنتظر وتنتظر دون جدوى، فلم تتابع الموضوع بعد ذلك وأنها تعتقد أن السبب فى أن شاوشيسكو لم يفاتحها فى الأمر بعد ذلك لأنه لم يستطع أن يعترف - حتى لها - بأن السادات قد ضلله.

وقد تجدر ملاحظة أن كتاب جولدا مائير صدر فى سنة ١٩٧٥ أى قبل المبادرة.

البذرة الخبيثة

وبعد أن عينت وزيرا للخارجية شرعت بعد اجتماع الإسماعيلية وقبل السفر إلى القدس لاجتماع اللجنة السياسية فى دراسة ما سمى اتفاقيتى فض الاشتباك اللتين أبرمتا بين مصر وإسرائيل، الأولى فى ١٨ يناير (كانون الثانى) سنة ١٩٧٤ والثانية فى ٤ سبتمبر (أيلول) ١٩٧٥ إذ كان يخامرنى شعور قوى بأن هاتين الاتفاقيتين وخاصة الاتفاقية الثانية المعروفة باسم « سيناء الثانية » كانت هى البذرة الخبيثة التى أنبتت مبادرة السادات فى سنة ١٩٧٧ نباتا غير حسن.

ولم يكن يعنينى كثيرا دراسة ما أسفرت عنه هاتان الاتفاقيتان من نصوص وأحكام، إنما كنت أريد أن أنفذ إلى خلفيتهما وكانت هذه - فى تقديرى - تكمن فى المباحثات الثنائية التى جرت بين الرئيس السادات والدكتور هنرى كيسنجر وزير خارجية الولايات المتحدة ومستشار رئيسها للأمن القومى، إلا أنى للأسف لم أجد أثرا لأية محاضر أو أوراق فى أرشيف وزارة الخارجية أو فى أى مكان آخر.

وكنت قد قرأت وقت أن كنت سفيرا فى ألمانيا كتاب « المحادثات السرية » لهنرى كيسنجر من تأليف ماتى حولان الصحفى الإسرائيلى والذى صدر فى سنة ١٩٧٦ وقد أثار الكتاب فى نفسى وقتها كثيرا من القلق والشكوك حول مقدرة السادات التفاوضية إلى أنه لم يكن لدى ما يؤكد صحة ما أورده الكتاب المذكور من وقائع، وعزوت بعضها إلى سوء النية من قبل المؤلف الإسرائيلى. إلا أننى عندما قرأت بعد ذلك كتاب وليام كوانت « جيل من القرارات » عن السياسة الأمريكية تجاه النزاع العربى الإسرائيلى فى السنوات من ١٩٦٧ حتى ١٩٧٦، اقتنعت ببعض ما أورده ماتى حولان فى كتابه وتعزز لدى الانطباع فى ضعف قدرة السادات التفاوضية، ذلك أن كتاب كوانت تدعمه المستندات والوثائق والمراجع من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن كوانت نفسه حجة فى

شؤون السياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط، وهو أستاذ العلوم السياسية فى جامعة بنسلفانيا وهو عضو بمعهد بروكنجز وأحد المشاركين فى وضع دراسة هذا المعهد لقضية الشرق الأوسط، ثم هو من أعضاء مجلس الأمن القومى الأمريكى وشاهد مباحثات كيسنجر من الداخل، كما كان عضوا فى الوفد الأمريكى فى المفاوضات التى تلت المبادرة وحتى انتهت فى كامب ديفيد، وقد عرفته شخصيا من خلال ذلك وأشعر بنزاهته وأكن لشخصيته كل التقدير.

واستطرادا لمحل البحث اقتبس بعض الأمثلة مما ورد فى كتاب كوانت فى صدد روايته لمباحثات كيسنجر مع الرئيس السادات.

« كان قد صدر قرار مجلس الأمن رقم ٣٣٨ بتاريخ ٢٢ أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٧٣ ونص فى بنده الأول على وقف إطلاق النيران وإنهاء العمليات العسكرية فورا وبقاء قوات كل طرف فى المواقع التى تحتلها بالفعل فى هذا التاريخ، إلا أن الجانب الإسرائيلى رغم موافقة إسرائيل على قرار مجلس الأمن عمد إلى الإخلال به ومحاولة احتلال أراض ومواقع جديدة. وكان من شأن ذلك أن نجحت إسرائيل فى فرض شبه حصار كامل حول قوات الجيش المصرى الثالث، فصدر قرار جديد من مجلس الأمن رقم ٣٣٩ بعد ظهر يوم ٢٣ أكتوبر (تشرين الأول) يدعو لوقف الاشتباكات فورا وعودة القوات الى المواقع التى كانت تحتلها يوم ٢٢ أكتوبر (تشرين الأول) ساعة تنفيذ وقف إطلاق النار، إلا أن إسرائيل تجاهلت هذا القرار الثانى، واستمرت فى تقدمها لاحتلال مواقع جديدة، وطالب الرئيس كلا من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى بإرسال قوات لمراقبة انتهاك إسرائيل لخطوط وقف إطلاق النار، وعندئذ بادر الاتحاد السوفيتى بأن وجه رسالة إلى الولايات المتحدة يبلغها فيها بخرق القوات الإسرائيلية لخطوط وقف إطلاق النار، وأنه ما لم تعد إلى مواقعها وتوافق الولايات المتحدة على إجراء مشترك سوفيتى أمريكى لتنفيذ ذلك فسيتخذ الاتحاد السوفيتى الخطوات المناسبة من جانبه وحده.

وعاد مجلس الأمن فأصدر قرارا ثالثا فى ٢٥ أكتوبر (تشرين الأول) رقم ٣٤٠ بالالتزام الفورى والكامل بوقف إطلاق النار والعودة إلى خطوط ٢٢ أكتوبر (تشرين الأول) إلا أن إسرائيل وإن أوقفت النار فقد استمرت فى احتلال المواقع التى احتلتها بعد صدور القرار ٣٣٨».

ونعود إلى ما ورد فى كتاب كوانت عن أول لقاء تم بين كيسنجر والرئيس السادات يوم ٧ نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩٧٣. «فى المباحثات الخاصة فى ذلك اليوم بدأ كيسنجر يشعر بإعجاب حقيقى بالرئيس السادات، وجاءت نقطة التحول عند مناقشة موضوع خطوط وقف إطلاق النار فى ٢٢ أكتوبر (تشرين الأول)، كان كيسنجر يشعر أنه فى موقف غير مريح لأنه يعلم أن الإسرائيليين ليس من السهل حثهم، ولكنه كان يشعر أن السادات كان على حق فى أنه يجب ألا يسمح للقوات الإسرائيلية بأن تبقى قوات الجيش الثالث تحت رحمتها.

وعرض كيسنجر على السادات اقتراح الحكومة الإسرائيلية ويتضمن أنها ستحترم وقف إطلاق النار وستسمح بتزويد الجيش الثالث بالمواد غير الحربية تحت مراقبة من الأمم المتحدة والقوات الإسرائيلية كذلك ستسمح لمدينة السويس بتلقى الغذاء والماء والأدوية بنفس الشروط وفى مقابل ذلك يتم تبادل الأسرى ويرفع الحصار البحرى (عن باب المندب) أما خطوط ٢٢ أكتوبر (تشرين الأول) فمن الممكن مناقشتها فى إطار اتفاقية لفصل القوات».

إنجاز مدهش

ويذكر كوانت[1] أن السادات كان مستعدا لقبول أغلب هذه النقاط إلا أنه كان قلقا راغبا فى انسحاب إسرائيل إلى خطوط ٢٢ أكتوبر (تشرين الأول)، وأجابه كيسنجر بأنه إذا أصرت مصر على ذلك فإنه يوافق على أن يسعى لإقناع الإسرائيليين بذلك، ولكنه عرض رأيه أنه سيكون بنفس السهولة عليه - وإن كان الأمر سيتطلب وقتا أطول - أن يعمل على إبرام اتفاقية فصل قوات بما يتجاوز موضوع خطوط ٢٢ أكتوبر (تشرين الأول) فى نفس الوقت يمكن اتخاذ ترتيبات لتموين الجيش الثالث.

ويقول كوانت « إنه أدهش كيسنجر موافقة السادات على هذا المنطق».

ويقول أيضا : إن كيسنجر أوفد جوزيف سيسكو وهارولد سوندرز إلى إسرائيل للإعداد لتفاصيل الاتفاق وأن جولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل عندما علمت بموافقة السادات على التخلى عن موضوع العودة إلى خطوط ٢٢ أكتوبر (تشرين الأول) وصفت ذلك بأنه إنجاز مدهش.

---

(١) كوانت، ص ٢١٧

ومثال آخر مما جاء فى كتاب كوانت : فى ١٢ يناير (كانون الثانى) سلم لكيسنجر الخريطة المقترحة لخط فض الاشتباك وفوضوا كيسنجر فى عرضها على السادات وهو ما فعله كيسنجر فى اليوم التالى، وكان السادات قد سبق أن وافق فى أول لقاء له مع كيسنجر على فكرة تحديد القوات فى ثلاث مناطق كما كان قد وعده على العمل على إنهاء الحظر البترولى متى تم التوصل إلى اتفاقية، والآن أبدى السادات استعداده لقبول قوات إسرائيلية غرب المضايق، ولكنه أبدى أنه لديه صعوبة فى مدى تحديد القوات، ولكى يتغلب كيسنجر على تحفظات السادات اقترح عليه أن تقوم الولايات المتحدة بمسؤولية تحديد القوات، فربما يكون من الأسهل على السادات أن يوافق على خطة أمريكية وليس على خطة إسرائيلية، وبدلا من إعلان التحديد فى وثائق رسمية يمكن عمل ذلك فى خطابات متبادلة بين السادات ونيكسون، وبالإضافة إلى ذلك فإن ضمانات السادات لمرور السلع الإسرائيلية عبر القناة يمكن معالجتها فى مذكرة تفاهم سرية، وقد وافق السادات».(١)

ويمضى كوانت فى رواية ما حدث، والقارئ عامة والمصرى أو العربى خاصة لا يسعه إلا أن يشعر بالمرارة والحسرة والخجل والغيظ والازدراء معا وهو يتابع عبر الصفحات مواقف التعنت الإسرائيلى اللا أخلاقى من ناحية وخضوع السادات المخزى من ناحية ثانية، وتلاعب كيسنجر المكشوف من ناحية ثالثة، وهو يستخدم كلا من مصر وإسرائيل استغلالا مكيافليا فى تحقيق استراتيجية الولايات المتحدة الدولة العظمى. وأسوق مثالا على ذلك مما سجله وليام كوانت أيضا.

«كانت المباحثات التى عرفت بمباحثات الكيلو ١٠١ على طريق السويس قد بدأت بين مصر وإسرائيل حول فض الاشتباك الأول يوم ١٦ نوفمبر (تشرين الثانى) وكان يمثل الجانب المصرى الفريق عبد الغنى الجمسى ويمثل إسرائيل الجنرال أهارون ياريف. ويقول كوانت : واستمرت المباحثات عدة أيام وكان الجانب الإسرائيلى يقترح انسحابا أعمق فى مقابل تخفيضات كبيرة فى القوة المدرعة المصرية، وفى ٢٦ نوفمبر (تشرين الثانى) وصل ياريف إلى حد اقتراح انسحاب إسرائيل إلى شرق المضايق إذا خفضت مصر مستوى أسلحتها فى سيناء إلى الحد الرمزى. وأبدت مصر تقبلا للاقتراح ولكنها أصرت على أن يكون تخفيض القوات من الجانبين، وبعد ذلك فى ٢٩ نوفمبر

(١) كوانت، ص ٢٢٦.

(تشرين الثانى) فوجىء الجمسى بياريف يعود إلى اقتراحه القديم بأن ينسحب كل طرف من الأراضى التى استولى عليها فى الحرب، وقد أدى هذا التراجع فى الموقف الإسرائيلى الى إغضاب المصريين وأدى إلى قطع المباحثات.[١]

ويمضى كوانت فيقول : كيسنجر يحمل مسؤولية إجهاض هذه التجربة المشجعة لمفاوضات مصرية إسرائيلية مباشرة! وهناك بعض الحقيقة فى هذا الاتهام. فقد شعر كيسنجر بأن المباحثات كانت تتقدم بسرعة كبيرة، وكان قد بدأ يفكر فى الجبهة السورية. وخشى إذا توصلت مصر وإسرائيل إلى اتفاقية فض الاشتباك قبل مؤتمر جنيف أن يصمم الأسد على نفس الشىء مما قد يعنى تأخيرا غير محدود فى عقد مؤتمر جنيف. وكذلك كان كيسنجر يريد أن يكون من الواضح أن دور الولايات المتحدة ضرورى للتقدم الدبلوماسى المستمر. ربما تستطيع مصر وإسرائيل التوصل إلى اتفاق بدون مساعدته، ولكن هل يكون ذلك نفس الشىء فيما يتعلق بسوريا أو الفلسطينيين أو حتى فى خطوة مصرية تالية؟ كان يشك فى ذلك وإذا رفع الحظر العربى على البترول يجب أن يبدو ذلك فى مقابل نجاح أمريكى فى إبرام الاتفاق.

نصيحة كيسنجر

وإذا كان اعتبار الاتحاد السوفيتى سيظل منخفضا فيجب أن تبقى سيطرة الولايات المتحدة على المفاوضات. وعلى هذا نصح كيسنجر الإسرائيليين بالإبطاء فى مباحثات الكيلو ١٠١ والاحتفاظ بموقفهم المتعلق بفض الاشتباك حتى مؤتمر جنيف، وقد بدا ذلك لبعض المراقبين بعيدا عن الفضيلة ولكنه كان يتفق مع خطة كيسنجر الدبلوماسية الأوسع، ويجب أن يضاف إلى ذلك أن إسرائيل لم تعارض هذه النصيحة.[٢]

ولعل من المفارقات الجديرة بالنظر فى كتاب وليام كوانت ما أورده عن المباحثات بين كيسنجر والرئيس حافظ الأسد والذى اجتمع به لأول مرة فى ١٤ ديسمبر (كانون الأول). يقول كوانت : وجد كيسنجر الأسد يتميز بالذكاء والصلابة والجاذبية وحاسة المرح، ولكنه كان فى نفس الوقت أقل الزعماء العرب الذين قابلهم تساهلا، وألمح الأسد إلى أنه لا يعترض على عقد مؤتمر جنيف فى ٢١ ديسمبر (كانون الأول) ولكن سوريا لن تحضره إلا إذا تم الاتفاق على فض الاشتباك أولا، وهو (الأسد) يعتقد أن فض

---

(١) كوانت، ص ٢٢٩.

(٢) كوانت، ص ٢١٩، ٢٢٠.

الاشتباك يجب أن يشمل جميع مرتفعات الجولان، كذلك لم يكن الأسد مستعدا للرضوخ لالتماسات كيسنجر أن يسلمه قائمة بأسماء أسرى الحرب الإسرائيليين، وبعد ست ساعات ونصف من المحادثات سافر كيسنجر إلى إسرائيل وهو خاوى اليدين.[1]

والمتتبع لباقى المحادثات بين كيسنجر والأسد بشأن فض الاشتباك على الجبهة السورية لا يسعه إلا الإعجاب بالرئيس الأسد الذى حقق فيها أقصى ما هو ممكن . ويقول كوانت : أن علاقة شخصية مستغربة - ولكنها صادقة - بدأت تتوطد بين هذين الرجلين المختلفين تماما.[2]

ولم يسعنى إلا أن أشعر بالأسف أن سوريا لم تشارك فى مبادرة السادات وتداعى خيالى فيما كان عليه الحال لو أن الأسد هو الذى تولى المفاوضات بدلا من السادات.

ولا يخامرنى شك فى أن محادثات فض الاشتباك كانت تجربة مفيدة بالنسبة للإسرائيليين، فمن خلالها حللوا شخصية السادات وخبروا عوده وعرفوا مفاتيحه وسال لعابهم الشره إلى مزيد لا ينقطع من التنازلات يكنزونها فى جيوبهم .. ولم لا؟

الاتفاقية الثانية .. لماذا ؟

وإذا كانت اتفاقية فض الاشتباك الأولى الموقعة فى ١٨ يناير (كانون الثانى) سنة ١٩٧٤ قد اقتضتها ظروف ملحة حافلة بالمخاطر بالنظر إلى تشابك الخطوط العسكرية المصرية الإسرائيلية وتداخل قوات الطرفين فى منطقة الدفرسوار غرب قناة السويس، مما يصعب معه التحكم فى الالتزام بوقف إطلاق النار نتيجة أى حادث استفزازى أو خطأ غير مقصود من ناحية، ومن الناحية الثانية نتيجة وضع الجيش الثالث المحاصر الناشىء عن خرق القوات الإسرائيلية لوقف إطلاق النار وتجاوزها للمواقع التى كانت تحتلها فى ٢٢ نوفمبر (تشرين الثانى) وفقا لقرار مجلس الأمن. فلم يكن هناك من ضرورة أو سبب يدعو إلى إبرام الاتفاقية الثانية بين مصر وإسرائيل والتى اختاروا لها اسم اتفاقية (فض الاشتباك الثانية) من قبيل التمويه والخداع، ذلك أن الاتفاقية الأولى تكفلت بنزع فتيل الخطر الناتج عن تشابك القوات وقت إبرامها والتى نشأ عنها فصل قوات الطرفين عن بعضهما بالفعل وحددت أعداد القوات وتسليحها وأصبحت تفصل

(١) كوانت، ص ٢٢٢.
(٢) كوانت، ص ٢٢٣.

بينهما منطقة عازلة تحت إشراف قوات الطوارىء التابعة للأمم المتحدة، وقد أعقب ذلك توقيع اتفاقية فض اشتباك مماثلة بين القوات السورية والقوات الإسرائيلية فى ٣١ مايو (آيار) سنة ١٩٧٤، وإن كان ثمة مجال لاتفاقية فض اشتباك ثالثة فكان محل ذلك مع الأردن وهو ما كان يطالب به الملك حسين إلا أن ذلك لم يكن يكفل لهنرى كيسنجر نجاحا سهلا ميسورا مما قد ينعكس على سمعته التى بدت أسطورية ويطفىء من بريقه ولمعانه فانصرف عنها، فضلا عن رفض إسرائيل لذلك[١] حيث إنه يعنى انسحابها بضعة كيلو مترات من الضفة الغربية التى تطمع فى ابتلاعها.

كان الوضع الطبيعى والمنطقى بعد اتفاقيتى فض الاشتباك المصرية والسورية، هو الاتجاه إلى مؤتمر السلام فى جنيف سعيا وراء تسوية شاملة للنزاع العربى الإسرائيلى.

لكن هذا لم يكن على هوى إسرائيل كما لم يكن ما يريده كيسنجر لاعتبارات عديدة لعل أهمها عدم إتاحة الفرصة للاتحاد السوفيتى للمشاركة فى جهود التسوية.

شهية كيسنجر المفتوحة والاتفاقيات السرية

كان كيسنجر قد وجد ضالته المنشودة فى الرئيس السادات رئيس مصر مركز الثقل فى الجانب العربى، وكان تعامله السابق معه أثناء مناقشة اتفاقية فض الاشتباك قد أغراه وفتح شهيته للمزيد من التعاملات فاتجه نحو إبرام اتفاقية ثانية بين مصر وإسرائيل وليس هنا محل الخوض فى أحكام اتفاقية سيناء الثانية التى تم التوقيع عليها فى ٤ سبتمبر (أيلول) سنة ١٩٧٥ فى جنيف.

كل ما أريد أن أوضحه أنها ليست اتفاقية عسكرية بحتة كما حاولنا تصويرها، وإنما هى اتفاقية سياسية بالدرجة الأولى واتغاضى هنا عما ورد فيها من السماح بمرور البضائع الإسرائيلية عبر قناة السويس ذهابا وإيابا، وهو ما يعد تقويضا لسلاح مهم من الأسلحة العربية هو مقاطعة إسرائيل. كما لا أعلق على المادة الأخيرة فى هذه الاتفاقية والتى أوردت حكما عجيبا وهو أن الاتفاقية مستمرة ولا تنقضى إلا إذا حلت

---

(١) يقول محمود رياض فى مذكراته أن كيسنجر لم يستطع أن ينفذ وعده للملك حسين باجراء فض إشتباك على الجبهة الأردنية على غرار الاتفاقيتين المبرمتين مع مصر وسوريا لأن إسرائيل رفضت ذلك وتمسكت بمذكرة التفاهم التى قدمها لها كيسنجر فى عام ١٩٧٢ والتى تفرض على الولايات المتحدة مناقشة أى مبادرة سياسية مع إسرائيل قبل الاقدام عليها (مذكرات محمود رياض ص ٤٨٩، ٥٠٤).

محلها اتفاقية جديدة، فضلا عن التزامات شفهية من قبل الرئيس السادات مثل التعهد برفع الحظر على بعض الشركات الأجنبية التى تتعامل مع إسرائيل وتخفيف حدة الدعاية والإعلام ضد إسرائيل .. الخ.

ولكن المصيبة الحقيقية تكمن فى الاتفاقيات السرية الثلاث التى أبرمت مع هذه الاتفاقية وبسببها بين إسرائيل والولايات المتحدة واعتبرت من ملحقاتها وتتضمن العديد من الالتزامات الأمريكية التى كبلتها وقيدتها إسرائيل ومنها :

- أن يتم التشاور بين الولايات المتحدة وإسرائيل على موعد عقد مؤتمر جنيف.
- تستمر الولايات المتحدة فى التزامها بعدم الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية طالما لم تعترف هذه بإسرائيل وبقرارى الأمم المتحدة ٢٤٢، ٣٣٨، وتنسق الولايات المتحدة مواقفها واستراتيجيتها فى مؤتمر جنيف مع إسرائيل فيما يتعلق بهذه النقطة وكذلك فيما يتعلق باشتراك أية دول أخرى فى المؤتمر.
- تستعمل الولايات المتحدة الفيتو فى مجلس الأمن بالنسبة لأية محاولة لتعديل قرارى مجلس الأمن ٢٤٢، ٣٣٨.
- تلتزم الولايات المتحدة بتزويد إسرائيل بكل ما يلزمها من الأسلحة المتطورة مثل طائرات الفانتوم ١٦.
- تتقدم الإدارة الأمريكية إلى الكونجرس سنويا بطلبات الموافقة على مساعدات عسكرية واقتصادية لإسرائيل.
- تلتزم الولايات المتحدة بتلبية احتياجات إسرائيل من العتاد الحربى ومستلزمات الدفاع وكل احتياجات إسرائيل من الطاقة وكل احتياجاتها الاقتصادية.
- تتفق الولايات المتحدة مع إسرائيل فى أن أى اتفاق فى المستقبل بين مصر وإسرائيل يجب أن يكون اتفاق سلام نهائى.
- إن الولايات المتحدة سوف ترفض أية محاولة لطرح مقترحات تعتبرها هى وإسرائيل ضارة بمصالح إسرائيل وفى نفس الوقت سوف تسعى لمنع جهود الآخرين من القيام بذلك.
- تقر الحكومة الأمريكية بأن التزامات مصر، بمقتضى الاتفاقية المصرية الإسرائيلية (سيناء الثانية) لا تتوقف على أى تصرف أو أى تطورات تجرى بين دولة عربية أخرى وإسرائيل.

● أما الطامة الكبرى فهى أن هذه الاتفاقيات وإن كانت سرية بين الولايات المتحدة وإسرائيل إلا أن سريتها لم تمتد إلى مصر فقد نصت الفقرة الأخيرة من الاتفاقية الثالثة على : «أن حكومة الولايات المتحدة الأمريكية قد أخطرت حكومة إسرائيل بأنها قد حصلت على موافقة مصر على ما تضمنه الاتفاق المشار إليه أعلاه». أى أن الرئيس السادات كان قد أحيط علما بها ووافق عليها قبل إبرامها.

كل ذلك حصلت عليه إسرائيل من مصر، ومن الولايات المتحدة مقابل انسحاب إسرائيل بضعة كيلو مترات أخرى إلى المرتفعات المطلة على شرق مضايق الجدى ومتلا وشمل الانسحاب عودة حقول البترول فى أبو رديس ورأس سدر إلى مصر.

وقد حققت إسرائيل بالإضافة إلى كل ذلك نجاحا لهدف من أهدافها الثابتة وهو بث الانقسام والفرقة فى المعسكر العربى إذ أدت هذه الاتفاقية إلى زعزعة الثقة العربية فى مصر ودب الخلاف بين مصر وسوريا رفيقى السلاح فى حرب أكتوبر (تشرين الأول) سنة ١٩٧٣.

انطباعات شخصية

ولا شك عندى فى أن شخصية الرئيس السادات من النماذج الفريدة من نوعها التى سيتهافت علماء النفس على دراستها وتحليلها على مدى السنين، ولست عالما نفسيا وإنما رأيت أنه ربما يكون مفيدا أن أسرد انطباعاتى الشخصية عن ملامح شخصيته عسى أن يساعد ذلك فى تفسير بعض تصرفاته السابقة واللاحقة وأنا أفعل ذلك والألم والمرارة يعتصرانى.

وأول هذه الملاحظات أنه كان يؤمن بحسن طالعه وحظه ولا غرابة فى ذلك فقد مرت به أقسى التجارب وأشد المخاطر ولكنه يجتاز كل ذلك ويتركه وراءه، ثم هو نشأ فى بيئة متواضعة وعانى شظف العيش وإذا به يشارك مجموعة من الضباط تقوم بثورة فتنجح ويصبح عضوا فى مجلس قيادة الثورة ثم لا يلبث أن يختفى أعضاء هذا المجلس الواحد وراء الآخر من حول قائد الثورة جمال عبد الناصر ويبقى هو وحده صامدا ويصبح سكرتيرا عاما للمؤتمر الإسلامى ورئيسا لمجلس الأمة ثم نائبا لرئيس الجمهورية، ويموت جمال عبد الناصر وهو فى سن مبكرة وعلى غير انتظار فإذا به أنور السادات رئيس جمهورية مصر، ويدخل فى معركة صراع على السلطة مع مجموعة مراكز القوة التى تسيطر على مقاليد السلطة فينتصر، ثم هو يطلب من الاتحاد

السوفيتى سحب خبرائه من مصر فيتم ذلك فى بساطة، ثم يدخل حربا مع إسرائيل ويعبر فى ساعات خط بارليف الذى قيل عنه ما قيل، وهكذا.

ولعل ما كان يردده من أنه متفائل بطبيعته يعكس هذا الإيمان بحسن حظه، ومن جانب آخر فقد كان السادات رومانسيا بطبعه واسع الخيال محبا للطبيعة، وكان يميل إلى الوحدة - ربما لأنه اعتاد عليها فى تلك السنين التى قضاها فى الحبس الانفرادى- فكان يقضى مددا متصلة بعيدا عن القاهرة فى استراحة من استراحاته بعيدا عن عائلته يتزاورون من حين إلى حين. ومتى فرغ من مقابلاته جلس وحيدا لا يحيط به إلا السكرتارية والحرس والخدم من على بعد وفى تلك الأوقات ينطلق خياله ويرتع فى آفاق فسيحة وقد أثبتت له تجربته فى الحياة بأن ليس هناك مستحيل فيتطلع إلى أدوار جديدة من المجد والشهرة فى هذا المجال أو ذاك.

رئيس جمهورية وليس بائع لبن

كان يذكرنى بفيلم شاهدته منذ زمن طويل اسمه (حياة والتر ميتى السرية)، قام بتمثيله دانى كاى وكان دوره بائع لبن يتنقل بسيارته على منازل زبائنه وفى الطريق من منزل إلى آخر كانت تنتابه أحلام اليقظة فمرة يتخيل نفسه نبيلا من نبلاء القرن الثامن عشر يبارز بالسيف نبيلا آخر من أجل حب حسناء جميلة ويصرعه ويفوز بها، ومرة يتخيل أنه مغنى أوبرا ذائع الصيت لا منافس له يطيح بصواب مستمعيه، ومرة أنه طيار فى الحرب العالمية الأولى كلما طلع يسقط طائرات الألمان الواحدة بعد الأخرى كالذباب ويعود سالما إلى هتاف الجماهير .. وهكذا كان السادات فى تصورى أحيانا فهو بطل الحرب وهو نبى السلام هو الفلاح البسيط وهو كبير العائلة هو القيصر وهو الحاكم الديمقراطى هو عمر بن الخطاب، أو هو صلاح الدين وهو ريتشارد قلب الأسد، ولا أدرى إن كان هناك توارد خواطر بينى وبين الشعب المصرى فى هذه النقطة، فقد سمعت نكتة مصرية - وهى أسلوب شعبنا فى التعبير عن أفكاره وملاحظاته - وهى أن الرئيس السادات (الذى كان يهوى الملابس وكان لديه (يونيفورم) لكل مناسبة كقائد للجيش وآخر كقائد للبحرية وثالث كقائد للطيران) سمع وهو فى أسوان يقضى الشتاء عن قيام حريق كبير فى أثناء أحداث ١٨، ١٩ يناير (كانون الثانى) سنة ١٩٧٧ فركب الطائرة على الفور وعاد إلى مصر واستدعى وزير الداخلية وسأله عن مكان الحريق، فأجابه الوزير بفرح وافتخار بأنه لا داعى لقلقه فقد تم إخماد الحريق تماما فقال

الســادات (يا للأسف كـانت فـرصــة عظيـمـة لأرتدى زى القــائد العــام لقـوات مطافىء الحريق).

إلا أن الســادات لم يكن بائع لبن وإنما كان رئيس الدولة يفكر فى مـشـاكلهـا المتعددة وهو جـالس وحده بعيدا فكانت تطرأ له الأفكار ولا تلبث أن تهيمن على خياله فكرة تلح عليه، فيعشـقها ثم ينقلها من حيز الفكر إلى حيز التنفيذ وفى تقديرى أن فكرة المبادرة وزيارة القدس التى ذكر أنه لم يشاور فيها أحدا أو يطلعه عليها حتى أعلنها كانت من قبيل ذلك.

ومن ناحية أخرى فـقد كان ميالا إلى الإسـراف فى المجاملة وإلى البذخ، وهذا من الطبـاع الشـرقـيـة، وربما كـان من أخـلاق القـريـة حـسـبـمـا كـان يحب أن يردد، فليس مستغربا فى الشعوب الشرقية أنه إذا نزل ضيوف فجأة على شـخص ولم يكن لديه إلا شاة أو دجاجة ذبحها وقدمها لهم طعاما، أو إذا أعجب زائر بشىء لديه مسبحة كانت أو ساعة أن يصر على إهدائه له، وطبعا هذا نظام قائم على التبادلية فلا يلبث من تناول الطعـام أو تلقى الـهدية أن يقـوم برد مـقـابلهـا فى أول فـرصــة، ولكن إذا جـاز ذلك على الصعيد الشخصى وفى حدود ما يملك الشـخص فإنه لا يجوز فى صعيد الأعمال، فإذا كان الأمر يتعلق بمسائل مصيرية كتلك التى كانت محل التفاوض بين مصـر وإسـرائيل كان الحذر أوجب.

كذلك توجد لديه حاسة ومذاق الإطراء والمديح لصفاته ومميزاته وعبقريته يسمعه ويستسيغه فى كل آن، فإذا جاء هنرى كيسنجر وأخبره أنه قد قابل فى آخر المطاف من يفوقه فى ميدان الاستراتيجية فلا شك أن هذا يطربه ويسكره.

وكان بدوره يغدق الإطراء على الآخرين بلا روية ولا تحفظ. ومن مظاهر ذلك أنه كان يطرح صداقته على من يقابله فى أول لقاء فهذا صديقه شاوشيسكو وهؤلاء أصـدقاؤه نيكسون وفورد وكارتر، وهذا صـديقه جيسكار، وهذا صـديقه كرايسكى وهذا صديقه شميدت وهذا هنرى. ثم يتوج صداقاته بصديقه بيجن ومتى أنعم بلقب الصديق لا يلبث الأمر أن يختمر فى نفسه ويعتقد مع الوقت فى صدق صداقته ويتعامل معه على هذا الأساس المريح فيبـوح له بمكنونات صـدره ويكشف له عن نفسه وفـى هذا مـا فـيـه لمن يتحين الفرص ويصيد فى الماء العكر.

ومن ذلك أيضا أنه كان إذا جلس إلى طرف غنى عن هواه ربما لكسب ثقته وتعاطفه معه، وأنه ربما بشيء من المرونة وتنازلات يراها غير ذات قيمة فى حد ذاتها تكون طمعا بإيقاع الآخرين فى المصيدة فيحصل منهم على ما يريده، فإذا كان أمريكيا هاجم السوفيت وإذا كان مغربيا هاجم الجزائر وإذا كان راديكاليا هاجم الرجعية وهكذا. ولا أعلم ولا أريد أن أعلم إن كان ما نسبه إليه مناحم من أنه قال له «إن منظمة التحرير الفلسطينية هى عميلة الاتحاد السوفيتى»، صحيحا أو غير صحيح.

ثم لم يلبث أن وقع فى غرام سماع صوته وأصبح إجراء الأحاديث والإدلاء بالتصريحات هوايته المفضلة، ولم تلبث الصحف ووكالات الأنباء وشبكات الإذاعة والتليفزيون وفى مقدمتها الأمريكية والإسرائيلية أن عينت مراسلين لها مستديمين فى مصر ولكنهم جوالون يشدون الرحال حاملين آلاتهم وعدساتهم ومسجلاتهم إلى حيثما ذهب الرئيس السادات من أسوان إلى الإسكندرية ومن الإسماعيلية إلى القناطر الخيرية. فإذا ذهب إلى صلاة الجمعة بالفيوم مثلا كانوا فى انتظاره على باب الجامع عند خروجه وكذلك إذا ذهب لافتتاح مشروع أو زرع شجرة فى الصحراء أو حضر اجتماع صيادى السمك أو احتفال يوم المعلم أو يوم المهندس وهكذا، يلاحقونه بالأسئلة: ماذا عن العرب؟ وماذا عن الاتحاد السوفيتى؟ وماذا عن منظمة التحرير الفلسطينية؟ وماذا عن الوضع فى تشاد؟

وأجهزة الرصد والتسجيل فى الدول المعنية تدرس وتغربل وتحلل حصاد كل يوم من طوفان الإجابات والتصريحات .. وتخرج منها بالمفيد.

هواية المؤتمرات الصحفية

وشملت هوايته أيضا المؤتمرات الصحفية السياسية التى تلى اجتماعه برؤساء الدول والحكومات، ثم ما لبث أن وسع من دائرتها فأصبح يجريها مع وزراء الخارجية، ثم مع من هم دونهم من الشخصيات، وأصبحت مقابلته وأخذ صورة معه من أهم معالم زيارة مصر. وتلاحقت الوفود من كل فج هذا يقدم له ميدالية الشجاعة وذلك يقدم له ميدالية السلام، ثم فتح باب المقابلات لغير الساسة والمسؤولين ورجال الأعمال فأصبح يقابل الأدباء والفنانين والرسامين وغيرهم. هذه اليزابيث تيلور، وهذا خوليو ايجلسياس، واختلط الأمر فيمن هو الأحق بالمقابلة. وأذكر أن سفير إحدى الدول الأوروبية الكبيرة أبلغنى أنه أصيب بالحرج والذهول عندما قدم وزير الدولة للشؤون الخارجية فى زيارة

رسمية إلى القاهرة وكانت مقابلة الرئيس السادات من أول اهتماماته ولكن الرئيس اعتذر عن عدم إمكان مقابلته لانشغاله، وإذا به يشاهد فى اليوم التالى صورة للرئيس فى الصحف وهو يقابل المغنى الجزائرى اليهودى انريكو ماسياس فى حديقة استراحته بالقناطر وهو يغنى له الأغنية التى ألفها ولحنها عن بطل السلام.

كذلك تولد لدى الانطباع أن هناك عاملا آخر كان ينعكس على شخصية السادات انعكاسا سلبيا ذلك أن السادات لم يكن ذا ثقافة عميقة تربط فكره وتحدد معالم شخصيته وتؤثر على مسلكه وتقيه من التناقضات.

فلم تتح له ذلك نشأته وظروفه أو دراسته ووقته وأنشطته السرية، فعندما كان ضابطا فى الجيش، كان قد قرأ القرآن وحفظه فى طفولته، وقد مكنه ذلك من اللغة العربية وأتاح له الاقتباس منه فى أحاديثه وخطبه، وبعدها التزود بالقدر الثقافى اللازم لتدعيم شخصيته السياسية.

وإلى جانب ذلك كانت لديه حصيلة مختلطة وواسعة من المعلومات العامة وقشور مبعثرة من الثقافة، وكانت مصادر هذه الحصيلة بعض قراءات فى تاريخ مصر الحديث وبعض التراجم والمقالات التى تدور حول شخصيات سياسية كانت تستهويه مثل أحمد عرابى ومصطفى كامل وأتاتورك وهتلر، وأتاحت له المدد الطويلة التى قضاها فى السجن قراءة بعض الكتب التى لم يخترها بل فرضتها عليه الصدفة، أغلبها بوليسية[1] أو عاطفية وبعض المجلات مما كان يسمح بدخوله فى السجن مثل ريدرز دايجست ولوك وبعض المجلات المصرية. ومن مصادر هذه الحصيلة أيضا الأفلام السينمائية خاصة الأمريكية التى كان يحبها ويقبل على مشاهدتها وهى بدورها أفلام تاريخية فى قالب رومانسى أو أفلام رعاة البقر أو أفلام بوليسية وكان يستشهد فى أحيان كثيرة بهذا المصدر من مصادر «الثقافة» والمعرفة فى خطاباته العامة أو أحاديثه الصحفية. فمثلا إذا تكلم عن حقوق الانسان يشرحها بقوله «زى ما بتشوفوا فى الأفلام فى أمريكا فإن ضابط البوليس عند القبض على شخص يذكره بحقوقه وينبهه إلى أنه يستطيع الامتناع عن الادلاء بأقواله إلا فى حضور محاميه[2]..» ومثلا فى صدد دفاعه عن قانون العيب الذى أصدره يقول «إن قوانين العيب ليست بدعة من اختراعه بل هناك ما يقابلها فى الولايات المتحدة الأمريكية، وأنه قد علم بذلك من فيلم شاهده مؤخرا عن

(١) كثير ما أجاب السادات على سؤال من هو الكاتب الذى يفضله بأنه إدجار دالاس.
(٢) الأهرام عدد ١٩٧٩/٤/٢٤.

حياة «كلارك جيبل» الذى كان على علاقة غرامية بسيدة هى كارل لومبارد رغم أنه كان متزوجا مما أدى إلى اتهامه بخرق ميثاق الأخلاقيات الأمريكية .. وهو ما يسمح للقاضى بفصل مرتكب ذلك من عمله فى الحكومة أو إلغاء عقده مع الشركة التى يعمل بها».

كذلك كان من مصادر معلوماته التقارير التى كان يقرأها فى مواضيع مختلفة بعد أن أصبح عضوا فى مجلس قيادة الثورة ثم فى مجلس الأمة والمهمات الأخرى التى تقلدها إلى أن وصل إلى رئاسة الجمهورية.

أسلوب عضو الجمعية السرية

لم يكن السادات متعمقا فى العلوم السياسية والقانونية على المستوى الذى يسمح له بالدخول فى مفاوضات سياسية معقدة – وحده أو دون إعداد مسبق – ففى كثير من الأحيان كان يفتقد الخلفية الفنية اللازمة لمدلولات بعض التعابير والألفاظ مثل حق السيادة أو إنهاء حالة الحرب أو الحكم الذاتى أو تقرير المصير.. مما كان يعجزه أحيانا عن التصدى بثقة لحجج الخصم متى كان مدار الحديث شيئا من ذلك، أو أن يسلم بتفسير الخصم خشية أن يصيبه الحرج فى الرد أو أن يبدو أمامه جاهلا بمدلول بعض التعابير التى يطرحها الآخر كقضية مسلم بها لا تحتمل الجدل.

وأضيف فى النهاية أنى كنت أشعر بأنه لم يستطع التخلص تماما من عقلية وأسلوب وتكتيك عضو الجمعية السرية الذى يفكر ويخطط فى الخفاء لينفذ خططه سواء كانت اغتيال شخصية يعتبرها خائنة للوطن أو الإعداد لثورة أو انقلاب فى نظام الحكم.

وظل شئ من ذلك يحكم تفكيره بعد أن تحولت عقارب الساعة وأصبح رئيسا للدولة ومدافعا عن قضية مشروعة تستند إلى الحق والعدل والقرارات الدولية.

وما قصدت من سرد كل هذا إساءة إلى الرئيس أنور السادات أو تشهيرا، وإنما كان ذلك بصدد إيضاح تأثير السلبيات وانعكاساتها على مسيرة المبادرة التى أقدم عليها والتى أقحمنى معه فيها بتعيينى وزيرا للخارجية.

فأنا لا أعتقد أن رئيس الدولة يشترط فيه أن يكون عظيم الثقافة أو عالما فذا أو قانونيا ضليعا أو مفاوضا جبارا فمسؤوليات رئيس الدولة فى نظام رئاسى، كما هو

الحال فى مصر عديدة ومتشعبة والمشاكل أمامه لا تنتهى، سواء كانت تتعلق بمعالجة رفع مستوى المعيشة أو الإسكان أو التعليم أو غزو الصحراء.. الخ.. وليس فى مقدور البشر التمكن من ذلك جميعا.

كل ما كان مطلوبا هو ألا ينفرد بالحلول أو يتصدى للمشاكل دون مشورة وزرائه ومستشاريه وخبرائه، ووراءه وتحت أمره أجهزة الدولة متكاملة حافلة بكل الإمكانيات، وشعب متطلع لمباركة وتقدير كل الانجازات.

وكان لديه بما له من ماض وطنى ونضال طويل ومقدرة على الخطابة وشخصيته التى لا تخلو من جاذبية وخلق ليس بشرير، ما يمكنه من تحقيق الكثير على أساس صلب لا تذروه الرياح وعليه يعود فضل النجاح وإليه ينسب. ولكنه لم يشأ أن يقتنع بأن عصر الفرد قد انتهى وأننا دخلنا فى عصر الكومبيوتر.

وفيما يتعلق بى وبالطاقم الممتاز الذى كان يعمل معى مستخدما كل إمكانيات وأجهزة الوزارة، فلم نكن نكل أو نمل أو نترك شيئا للمقادير، كنا نزوده بانتظام بالمعلومات والتطورات والتقارير أولا بأول، وأشهد بأنى لم أترك مقابلة يجريها تتعلق بالقضية، سواء كانت المقابلة على انفراد أو بحضورى إلا وزودته بمذكرة شاملة بخلفية الموضوع وموقفنا إزاءه، وما نستهدفه منه وما نقبله وما نرفضه والحجج التى نستند إليها وتلك التى ندفع بها الحجج المضادة وأعزز ذلك كلما أمكن بايضاح شفهى شخصيا أو فى التليفون لو كان بعيدا.

ولكن للأسف فى كثير من الأحيان كان وقته ومشاغله لا تسمحان بالقراءة أو كان يكتفى بإلقاء نظرة سريعة على المذكرة دون أن يستوعبها أو يتكاسل ببساطة عن القراءة معتمدا على قدرته على التصرف بشكل أو بآخر.

وحتى استكمل الصورة أقرر أنه كان – إذا ما قرأ المذكرات – يعجب بها ويوافق عليها ويلتزم بها إلا فيما ندر، كانت ثقته بى وبأمانتى فى العرض وإخلاصى فى القصد هائلة لا تهتز، كان يكن لى إعزازا ومحبة حقيقية ويسمح لى فى حضرته بما لم يكن يتقبله من أحد ويحرص على عدم إغضابى أو جرح شعورى، إلا أن نفاد صبره وتلهفه على النجاح كانا أقوى من أن يحتويها صدره فراح – من وراء ظهرى – يتلمس طريقا خلفيا عسى أن يختصر الوقت ويحقق المراد.

الفصل الخامس عشر

وأين أصحاب القضية ؟

عدت من ألمانيا إلى القاهرة يوم ٢٣ فبراير (شباط) واتصلت تليفونيا بالرئيس السادات فى الإسماعيلية حيث كان يقيم وقتها فطلب منى التوجه لمقابلته فى صباح اليوم التالى. وعندما قابلته كان يجلس مع السيد ممدوح سالم رئيس الوزراء فى إحدى غرف الاستراحة وكان يرتدى جلبابا وفوقه عباءة عربية من الصوف، واستفسر عن صحتى وعن زيارتى لألمانيا، ولم يلبث الحديث أن تطرق إلى موضوع اغتيال يوسف السباعى والفاجعة التى أعقبته فى مطار لارناكا. وقد انتقدت بشدة عملية إرسال قوات كوماندوز مصرية إلى قبرص لاختطاف قاتلى يوسف السباعى ونقلهم إلى مصر، وقلت إنه بغض النظر عن نجاح العملية أو فشلها فإنها عملية اعتداء على سيادة دولة أخرى ولا تليق بمركز مصر فى المجتمع الدولى وسمعتها الأدبية فضلا عن أن قبرص دولة صديقة وأن أقل القليل كان يقتضى التفاهم مع الحكومة القبرصية قبل الإقدام على هذه المغامرة وزاد الطين بلة الفشل الذريع الذى حاق بالعملية والمأساة المروعة التى نتجت عنها وتركنى السادات أتكلم ثم قاطعنى فجأة وصاح فى انفعال : يعنى نسيبهم يقتلوا فينا ونقعد نتفرج علشان نبقى هفية.

وأجبته : وماذا كانت النتيجة، لقد فقدنا ثمانية عشر ضابطا فى العملية وفقدنا الطائرة التى نقلتهم وتدهورت علاقاتنا بقبرص والعالم كله يدين العملية كما فشلت

العملية فى تحقيق أهدافها، وقلت : أن هذا موضوع خطير جدا ويجب إجراء تحقيق فورى لمعرفة المسؤول عن هذه العملية، فقال السادات فى غضب شديد (أنا الذى أمرت بهذه العملية).

ضرورة التنسيق وكبش الفداء

فقلت : إنى أدرك مشاعرك بشأن اغتيال يوسف السباعى وضحايا العملية ولكننا فى موقف دقيق يتحتم معه ضبط الأعصاب، ونحن فى غنى عن المشاكل التى خلقتها هذه العملية. وأضفت : إننا جميعا معرضون لحوادث اعتداء كما حدث ليوسف السباعى، وإذا لم تكن ردود فعلنا هادئة ومدروسة فسندخل فى مشاكل فرعية نحن فى غنى عنها، وأن الوضع يقتضى إنشاء جهاز يختص ببحث أسلوب التصرف بدون انفعال فى الأحوال الطارئة مثل حادث يوسف السباعى.

وبالفعل أرسلت مذكرة بعدها بأيام اقترحت فيها ضرورة دعم وسائل التنسيق والتخطيط على مستوى الأجهزة العاملة فى مجالات الأمن القومى والشؤون الخارجية، وإنشاء لجنة فرعية دائمة منبثقة عن مجلس الأمن القومى على مستوى الفنيين من مساعدى الوزراء تمثل فيها وزارات الخارجية والداخلية والحربية والمخابرات العامة وأية جهات يرى الاستفادة من خبرتها حسب موضوعات البحث، وتتولى وزارة الخارجية أمانة هذه اللجنة، وتجتمع اللجنة عند حدوث تطورات طارئة تستدعى ذلك لإعداد الدراسات والاقتراحات التبادلية بالنسبة للموضوعات ذات الأهمية من وجهة نظر الأمن القومى لمصر وعرضها على الرئيس، إلا أن الموضوع ضاع فى زحمة الأحداث ولم يبت فيه.

فقد أدت مأساة مطار لارناكا إلى تطور خطير أدى إلى تصدع فى المبادرة بفتح ثغرة محرجة فى موقفنا إزاء القضية الفلسطينية وجاء ذلك على هوى إسرائيل بالطبع. فقد كان مصرع ضباط الكوماندوز المصريين فاجعة قومية مؤثرة بمعنى الكلمة أثارت حزن وسخط وغضب الشعب المصرى ولكن الأخطر من ذلك أنها أثارت التساؤلات حول مغزى العملية نفسه، وهل كانت ضرورية ومن المسئول عنها ؟ وكان لابد من تحويل مجرى سيل الهياج والسخط بعيدا عن الذين أمروا (فكروا) بالعملية وخططوا لها

وأقدموا عليها، ووجدوا كبش الفداء فى جنسية قاتلى يوسف السباعى الفلسطينية، فقام الإعلام المصرى بحملة عنيفة ضد منظمة التحرير الفلسطينية وضد الفلسطينيين أينما كانوا أولئك الجاحدين المجرمين الذين قابلوا تضحيات مصر ودخولها فى أربع حروب من أجلهم بقتل أبنائها. وبالطبع لم يلق أحد بالا إلى البيان الذى سارعت منظمة التحرير الفلسطينية بإصداره أثر مقتل يوسف السباعى تدين وتستنكر بكل شدة الاعتداء عليه، ولو أراد أحد أن ينتظر نتيجة التحقيق مع القاتلين ليتبين هل قاما بارتكاب جريمتهما من تلقاء نفسيهما أم أن وراءهما جهة ما وكنه هذه الجهة إن وجدت هل هى عربية أم هل هى إسرائيلية؟ ولم لا ومن هو المستفيد المباشر ؟ ولم يشأ أحد أن يتذكر أو يذكر بأن من قتل الضباط المصريين فى المطار لم يكن الفلسطينيون وإنما الجنود القبارصة وهم يصدون غزوا أجنبيا فاجأهم، وشارك مجلس الشعب الذى ناقش العملية فى حملة الكراهية ضد الفلسطينيين، وصدرت إجراءات ضد الفلسطينيين المقيمين فى مصر تتعلق بأرزاقهم وإقامتهم والمزايا التى منحت لهم من قبل مصر بعد أن قامت إسرائيل بطردهم وتشريدهم من وطنهم وديارهم منذ سنة ١٩٤٨ وما بعدها.

حاولت فى خضم هذا البحر الهائج أن أوقف هذا التيار الجارف وأنبه إلى مخاطره على مبادرة السادات وكل ما نجحت فى تحقيقه بعد أن هدأت العاصفة هو تجميد تنفيذ الإجراءات التى صدرت ضد الفلسطينيين المقيمين فى مصر، حيث كان من الصعب إلغاؤها، لما فى ذلك من إقرار بعدم مناسبتها أو عدالتها.

محام وخصم

ولا خلاف على أن السلام الشامل الذى بنى السادات مبادرته على أساسه لا يمكن تحقيقه إلا بحل القضية الفلسطينية حلا عادلا فهى لب وجوهر المشكلة وبالتالى فإن حلها يشكل العمود الفقرى للمبادرة، فاذا كسر انكسرت بالتالى، أيضا فان العنصر الفلسطينى فى تحقيق السلام الشامل حيوى وأساسى وعليه فكيف يتأتى لمن تطوع ونصب نفسه محاميا عن هذا العنصر أن يخاصم من يدافع عنه ويعاديه أو يتجاهله ويستبعده ؟

وقد لاحظت وأنا أستمع فى ألمانيا لخطاب الرئيس السادات فى الكنيست قبل تعيينى وزيرا للخارجية أنه أغفل الإشارة فى الخطاب إلى ذكر منظمة التحرير

الفلسطينية بوصفها الممثل الشرعى الوحيد للشعب الفلسطينى وفقا لقرارات مؤتمر القمة العربى فى الرباط فى سنة ١٩٧٤. إلا أنى لم أعلق وقتها على ذلك أهمية فالمنظمة وضعها مسلم به عربيا بل ودوليا تقريبا، إلا أننى عندما قرأت كتاب موشى ديان استرعى نظرى فقرة وردت فى الحديث الذى دار بينه وبين الدكتور بطرس غالى وزير الدولة للشئون الخارجية وهما فى السيارة، فى الطريق من المطار إلى القدس بعد وصول الطائرة التى حملت الرئيس السادات والوفد المرافق له، نصها : (ولمس الحديث أيضا منظمة التحرير الفلسطينية واقترحت عليه أنه يحسن ألا يطلب السادات من إسرائيل التفاوض مع هذه المنظمة. وأنه إذا فعل فسيواجه رفضا قويا. ووعد غالى بأن ينقل إلى رئيسه وبالفعل عندما خطب السادات فى الكنيست فى اليوم التالى لم يذكر منظمة التحرير الفلسطينية).

والواضح أن ما ذكره ديان كان السبب فى عدم إشارة الرئيس السادات إلى المنظمة فى خطابه أمام الكنيست وهو أمر يدعو إلى الدهشة ويستعصى على الفهم لعدة أسباب :

أولا : إن سياسة مصر الثابتة المعلنة منذ عهد الرئيس عبد الناصر وبعده هى تأييد ومساندة حركات التحرير فى كل مكان وعلى رأسها ومن باب أولى منظمة التحرير الفلسطينية، التى كان السادات نفسه من أشد المتحمسين لاعتبارها الممثل الشرعى الوحيد للشعب الفلسطينى. وقد ألقت مصر بكل ثقلها مع باقى الدول العربية فى عام ١٩٧٤ فى استصدار قرارات الجمعية العامة للأمم المتحدة، بدعوة منظمة التحرير الفلسطينية بوصفها الممثلة للشعب الفلسطينى إلى المشاركة فى مناقشات الجمعية العامة، وكذلك دعوتها للمشاركة فى اللجان والمؤتمرات والمنظمات التابعة للأمم المتحدة بصفة مراقب، وقد صدرت هذه القرارات بأغلبية ضخمة وهو ما يعتبر اعترافا دوليا بالمنظمة.

ثانيا : أنه لو كان الأمر مراعاة ما تقبله إسرائيل أو ترفضه مما يتضمنه الخطاب، إذن لتعين على السادات ألا يشير إلى الانسحاب الإسرائيلى الكامل من الأراضى المحتلة، أو إلى حقوق الشعب الفلسطينى المشروعة. وهو ما رفضته إسرائيل قبل إلقاء السادات لخطابه وبعد إلقائه، وكل ما كان على إسرائيل أن تفعله هو رفض التفاوض مع المنظمة شأن رفضها الانسحاب ولحقوق الشعب الفلسطينى كما فعلت.

ثالثا : أن الخيار الذى كان مطروحا فى مؤتمر الرباط بشأن تمثيل الشعب الفلسطينى كان ينحصر بين الملك حسين وبين منظمة التحرير الفلسطينية، وقد قرر الملوك والرؤساء فى المؤتمر اختيار المنظمة ممثلا شرعيا وحيدا للشعب الفلسطينى بالإجماع، حيث قرر الملك حسين فى النهاية ألا يشذ عن إرادة المجتمعين. وإغفال ذكر المنظمة أمام الكنيست - عن قصد - مؤداه تمييع وتجهيل القيادة السياسية للشعب الفلسطينى فيصبح وكأنه جسد بلا رأس وقضية بلا صاحب وهذا بالطبع يتمشى مع أهداف إسرائيل التى تسعى إلى اختيار من تتفاوض معه من بين الفلسطينيين الذين تختارهم على هواها.

ولعل من المفارقات العجيبة أن الرئيس السادات الذى رفض مطلب الملك حسين أثناء مؤتمر الرباط سنة ١٩٧٤م فى أن يقوم بتمثيل الشعب الفلسطينى باعتبار أكثر من نصف سكان الأردن من أصل فلسطينى - وصوت مع باقى الملوك والرؤساء على أن تكون منظمة التحرير هى الممثل الشرعى الوحيد للشعب الفلسطينى - لم يلتزم بذلك فى ممارسته التفاوض مع إسرائيل بشأن الضفة الغربية بل إن الأمر تطور إلى إغفال المنظمة بل فعل السادات النقيض فعاد وأسند إلى الملك حسين دورا فى إطار السلام الذى وقعه فى كامب ديفيد دون تفويض من هذا الأخير أو موافقته كما سنبين.

وأعود من هذا الاستطراد إلى موضوع منظمة التحرير الفلسطينية. وكنت أثناء أن كنت سفيرا لمصر فى بون على صلات طيبة مع عبد الله الأفرنجى ممثل المنظمة فى ألمانيا الغربية، وكان شابا جادا مخلصا مجدا فى أداء مهمته فى ظروف صعبة بالنظر إلى حساسية ألمانيا وقتها فى كل ما يتعلق باليهود وإسرائيل، وكان يضعنى فى الصورة بالنسبة لأوضاع المنظمة الصعبة ومشاكلها الداخلية والخارجية. وفى اعتقادى الشخصى أن منظمة التحرير الفلسطينية قد اتخذت قرارا متسرعا باندفاعها إلى الانضمام إلى جبهة الرفض والمشاركة فى مؤتمر هذه الجبهة الذى عقد فى طرابلس فى أعقاب المبادرة، خاصة وأن لمصر دورا رئيسيا فى القضية يقتضى أن تحرص المنظمة على إبقاء قنوات الاتصال بينها وبين مصر مفتوحة دائما، وإن كانت دول الرفض مثل سوريا والجزائر وليبيا تملك أن تتخذ القرار الذى تراه، فإن وضع المنظمة لم يكن يسمح لها باتخاذ مثل هذا القرار بهذه البساطة. كان وضعا دقيقا حساسا .. فهى ليست دولة لها مواردها وإمكانياتها الخاصة وإنما تعتمد فى ممارسة نضالها الحربى

والسياسى لتحرير الأرض الفلسطينية على الدول العربية إلى حد كبير، وتقتضى ظروفها تلك الاحتفاظ بتوازن ليس سهلا من هذه الدول وانحيازها لدولة عربية ضد أخرى يؤثر على قدرتها ويسبب لها مصاعب هى فى غنى عنها. ولا أقول إنه كان على المنظمة أن تنصاع لمبادرة الرئيس السادات وتقبل دعوته للمشاركة فى مؤتمر القاهرة التحضيرى الذى أعلنه، فهذا بدوره كان أمرا صعبا إن لم يكن مستحيلا وقد فاجأها السادات بمبادرته دون استشارة أو تفاهم مسبق ويوقفها فى نفس الموقف الذى حدث بإسراعها للإنضمام إلى جبهة الرفض، وإنما كنت أعتقد أنه كان فى وسع قيادتها السياسية اتخاذ موقف متأن مرن لا يقطع صلاتها بأى طرف، حتى تتبلور الأمور، ويتسنى لها تحديد موقفها عن طريق الحوار مع الأطراف العربية جميعا.

استمرار صلتنا بالمنظمة

وأيا كان الحال فقد حرصت من البداية على استمرار الصلات بالمنظمة وكنت دائما ألح على الرئيس السادات فى ذلك، وأقول له إن حدوث قطيعة بين مصر والمنظمة التى اعترفت بها أكثر من مائة دولة سيلحق ضررا بالغا بالقضية الفلسطينية، ويبدو معه تصدى مصر لحل القضية الفلسطينية وكأنه ينطلق من فراغ. وكنت أغذيه أولا بأول بالتصريحات المعتدلة التى تصدر عن أعضاء المنظمة المعتدلين، كما ألححت عليه فى الإذن بعودة (جمال الصورانى) ممثل المنظمة فى القاهرة حتى يكون جسرا للتفاهم مع قيادته السياسية. كذلك حرصت على مقابلة كل من حضر من أعضاء المنظمة أو مؤيديها، وشجعت معاونى الوزارة ممن تربطهم صلات سابقة بأعضاء المنظمة على مواصلة الحوار معهم وكلفت سفيرنا فى الأردن بأن يوالى الاتصال بالعمد والمشايخ والشخصيات الفلسطينية فى الضفة الغربية ويطمئنهم إلى سلامة الموقف المصرى وإخلاص مساعيه لحل القضية الفلسطينية وإزالة ما يتردد من شكوك حول اتجاه مصر إلى حل جزئى أو منفرد مع إسرائيل.

كذلك فقد نجحنا عن طريق مساعينا الدبلوماسية فى إفشال مساعى إسرائيل لدى الدول التى تعترف بالمنظمة أو تسمح لها بإقامة مكاتب لها فيها بسحب الاعتراف بالمنظمة وإغلاق مكاتبها فقد رفضت الدول جميعا ذلك.

وفى أحاديثى مع وزير الخارجية فانس ومعاونيه حرصت على إبراز أهمية مشاركة المنظمة فى التسوية واستعداد قيادتها فى تحقيق حقوق الشعب الفلسطينى بالطريق السلمى إن أمكن، مؤكدا على شرعية أعمال المقاومة التى يقومون بها ضد إسرائيل طالما تحتل غصبا أراضيهم، وأن آخر من يحق له وصف الكفاح الفلسطينى بالإرهاب هم الإسرائيليون الذين أدخلوا الإرهاب فى منطقة الشرق الأوسط وعلى رأسهم رئيس الوزراء الإسرائيلى الذى كانت الحكومة البريطانية تعرض مكافأة قدرها عشرة آلاف جنيه استرلينى لمن يقبض عليه بوصفه أرهب الإرهابيين.

السادات يعبر عن قلقه

أواخر شهر فبراير (شباط) جاء روى أثرتون إلى مصر وفقا للدور المتفق عليه فى كامب ديفيد لينتقل بين مصر وإسرائيل سعيا وراء التوصل إلى اتفاق على إعلان المبادىء. وقد شاركت فى اجتماع أثرتون بالرئيس السادات فى الإسماعيلية كما حضره معى السفير أحمد ماهر مدير مكتبى ولم تكن قد حدثت تطورات ذات أهمية منذ زيارتنا القريبة للولايات المتحدة إلا قرار صدر بعد وصول أثرتون إلى المنطقة من مجلس الوزراء الإسرائيلى بعزم إسرائيل على مواصلة سياسة إنشاء مستعمرات جديدة وتوسيع المستوطنات القائمة.

وشرح السادات بهذه المناسبة من جديد أن مناحم بيجن لم يستجب لروح مبادرته، وأشار إلى التعقيدات التى يثيرها فى كل مناسبة وتحريفه للوقائع ولتصريحات السادات. ثم رأى السادات أن يرسل رسالة خاصة إلى بيجن يحملها معه اثرتون عند زيارته إسرائيل، وكلفنى بإعدادها على أساس النقاط التى تناولها الحديث مع أثرتون. ولعله من المفيد أن أشير إلى ما تضمنته الرسالة لتوضيح آمال الرئيس السادات وطموحه وتفاؤله فى أن تحقق المبادرة التى قام بها غايتها.

استهل الرسالة بأنه يسعده أن يحملها إلى بيجن المستر أثرتون الذى يبذل باسم الولايات المتحدة جهودا حميدة لمساعدة الطرفين على تحقيق التسوية الشاملة وفقا لنظرية السادات فى وجوب خلق الظروف لإقامة علاقات حسن جوار بكل ما تعنيه الكلمة وهو ما يقتضى ألا يتعدى طرف على أرض الغير أو سيادته أو شرفه وكبريائه.

وعبر عن قلقه من أن الأمور تسير فى اتجاه خاطىء لا يتمشى مع روح زيارته للقدس حيث إنه بدلا من الاتفاق على المسائل الجوهرية يجرى الخلاف على الكلمات والصياغات فى حين أنه لو اتفق على الجوهر فيما يتعلق بالانسحاب والقضية الفلسطينية وأمن الأطراف لسهلت صياغته.

وأشار إلى أسفه أنه رغم اجتماعه ببيجن فى القدس والإسماعيلية يجد نفسه فى نفس الوضع الذى كان سائدا قبل زيارته للقدس بسبب ما أثارته إسرائيل فى اجتماعات كل من اللجنة السياسية واللجنة العسكرية من مفاهيم بالية. وذكر أنه يوافق على استمرار أثرتون فى مهمته، وكذلك على استئناف اجتماعات اللجنتين السياسية والعسكرية من حيث المبدأ شريطة ألا تؤدى اجتماعاتهما إلى خذلان آمال العالم فى تحقيق السلام. وقال إنه يوافق على أن إسرائيل تحتاج إلى الأمن ولكن يجب الاتفاق أيضا على ألا يكون الأمن على حساب الأرض أو السيادة.

وفيما يتعلق بالقضية الفلسطينية التى أعلن دائما أنها جوهر المشكلة فيجب على إسرائيل ألا تثيرها فى إطار الأرض أو السيادة أو على أساس إنكار الحقوق المشروعة للشعب الفلسطينى. وأنه يقر بحقيقة احتياجات إسرائيل ولمواجهتها فإنه مستعد فى خلال الفترة الانتقالية بين توقيع الاتفاقية إلى حين ممارسة حق تقرير المصير أن يشارك بالنسبة لقطاع غزة مع إسرائيل والفلسطينيين والأمم المتحدة لضمان الأمن، وبالنسبة للضفة الغربية فإنه يرى أن تتولى الأمم المتحدة الأمر فى البداية حسبما اتفق مع الملك حسين، ويمكن بعد ذلك الاتفاق على إطار رباعى يضم الأمم المتحدة وإسرائيل والملك حسين والفلسطينيين لضمان أمن إسرائيل فى خلال المرحلة الانتقالية فى الضفة الغربية.

وذكر أن جبهة الرفض والاتحاد السوفيتى ينشطون لإفشال مبادرته ولكنه يتصدى لهم ولن يتراجع عنها وأن أعمال الإرهاب - كما حدث بالنسبة لمقتل يوسف السباعى - لن تثنيه عن عزمه على تحقيق السلام، ولكن مناحم بيجن هو الذى يغذى الرافضين بمواقفه المتعنتة بالمادة التى يستخدمونها ضد مبادرته للسلام.

وأنه للأسف فإن إسرائيل مازال تفكيرها يدور حول الحصول على مزايا استراتيجية والحصول على أرض الغير، ولكن الأرض ليست شيئا يمكن التنازل عنه وفيما عدا الأرض والسيادة فإنه مستعد لإعطاء كل ما تتطلبه طبيعة السلام كما أثبت

بزيارته للقدس وبدعوته بيجن إلى الإسماعيلية وموافقته على القيام باتصالات مباشرة في مؤتمر القاهرة التحضيري ثم في اللجنتين السياسية والعسكرية.

كيف يفكر بيجن

ولم يلبث أن عاد أثرتون حاملا رد بيجن على رسالة السادات في رسالة مؤرخة في ٥ مارس (آذار) سنة ١٩٧٨. واقتبس هنا عدة فقرات من نص هذه الرسالة كنموذج ليلقى الضوء على تفكير بيجن وأسلوبه في معاملة السادات. كتب بيجن :

« .. واسمح لي الآن أن أنتقل إلى موضوعات أخرى ضرورية للحوار بيننا. إنك تشكو من أننا مازلنا لسوء الحظ منهمكين في معالجة الصياغات. إننا جميعا معنيون بذلك لأن معاونيك يا سيادة الرئيس يعرضون علينا « صياغات » ليس لها إلا معنى واحد: أن تتعهد إسرائيل بالانسحاب إلى الخطوط التي كانت قائمة قبل حرب الأيام الستة الدفاعية. وهذا مفهوم قديم يعود إلى خريف سنة ١٩٦٧. وكما ذكرت في الإسماعيلية فإن إسرائيل ليست ملزمة بمقتضى القرار رقم ٢٤٢ بمثل هذا الانسحاب، ولا هو مطلوب منها الموافقة على شرط مسبق كهذا، ففي مايو ويونية (أيار - حزيران) ١٩٦٧ كنا مهددين يا سيادة الرئيس بتدمير استقلالنا بل - وفي الحقيقة - شعبنا. وأذكر جيدا عندما تقابلنا آخر مرة أنك أنت نفسك تذكرت شعار تلك الأيام « ألقوا بهم في البحر » إسرائيل دافعت عن نفسها ».

« وكما تعلم فإن القاعدة الكبيرة في القانون الدولي أنه في حالة ممارسة حق الدفاع الوطني الأصيل عن النفس، فإن تعديلات إقليمية تتقرر في معاهدات السلام. ولو كان الأمر غير ذلك فإن خريطة أوروبا جميعها والشرق الأقصى يجب أن تتغير فورا ..».

« وفي خطابك فإنك تستمر في اعتناق تكوين دولة فلسطينية بعد فترة انتقالية في جوديا وسماريا وقطاع غزة. سيادة الرئيس يجب على أن أقول ثانية كما شرحت في الإسماعيلية، إن مثل هذه الدولة مهما كان الشكل الذي تتخذه فسوف تشكل خطرا داهما لإسرائيل، وإن فترة سنوات انتقالية قليلة لن تزيل هذا الخطر ولا يمكن أن يعيش أي شعب على وقت مفترض. أن الخطر المميت يجب ألا يخلق ».

«وفي المقترحات التي قدمت لك أدخلت الحكومة الإسرائيلية طريقا وفكرة جديدة

ونحن نلتزم باقتراحنا فى حكم إدارى كامل للفلسطينيين العرب الذين يعيشون فى جوديا وسماريا وقطاع غزة. بينما يتأكد الأمن للفلسطينيين اليهود. وعند سماعك هذا منى فى الإسماعيلية فإن رد فعلك – ومرة ثانية فإنى أتذكر كلماتك بكل الوضوح – كان « إنها خطوة إلى الأمام » وخطوة كهذه من الصعب وصفها إذن بأنها « قديمة » أو أنها « خطوة إلى الوراء ».

« إننى مسرور لما قرأته فى خطابك عن رغبتك فى الاستمرار فى مباشرة جهود السلام، وأنك لست ضد استئناف المباحثات فى إطار اللجنة السياسية واللجنة العسكرية، التى اتفقنا على إنشائهما أثناء حديثنا الطيب فى الإسماعيلية، ولذلك فأنى اقترح عليك مباشرة يا سيادة الرئيس أن تبدأ هذه المفاوضات من جديد ..».

ولم يكن ما جاء فى خطاب بيجن مفاجئا لى، ولم أكترث به كثيرا فقد كان يخيل لى أننا فى موقف مريح نسبيا بعد أن ألقينا عبء تحريك الموقف الإسرائيلى على الولايات المتحدة الأمريكية حسبما تم عليه الاتفاق فى زيارتنا الأخيرة لها. وانصرفت تماما إلى استغلال هذه الفسحة من الوقت فى إعادة ترتيب بيتنا من الداخل ومحاولة إصلاح ذات البين مع أشقائنا العرب.

الفصل السادس عشر

حرب وسط مباحثات السلام

فى بداية شهر مارس (آذار) كان العمل فى وزارة الخارجية يجرى على قدم وساق لدراسة كيفية الاستفادة من فرصة سانحة هى اجتماع مجلس الجامعة العربية المقرر عقده فى النصف الثانى من شهر مارس (آذار) بمقر الجامعة فى القاهرة. وكان اجتماعا دوريا عاديا لبحث بعض الموضوعات المتعلقة بميزانية الجامعة ومسائل إدارية أخرى. وكان المقرر عقده على مستوى السفراء العرب المعتمدين لدى الجامعة العربية.

وبالنسبة لى كان الأمر يعنى أكثر من ذلك بكثير. ذلك أنه كان أول اجتماع لمجلس الجامعة يحل بعد زيارة الرئيس السادات للقدس، ومن ثم كان له مغزى ودلالات فيما يتعلق بمن يحضر الاجتماع ومن لا يحضره والمستوى الذى ينعقد على أساسه ومسار واتجاهات العمل فى جلساته.

صحيح أن هذا قد لا يعنى مصر مباشرة. فجامعة الدول العربية لها شخصيتها الاعتبارية المستقلة وكون أن القاهرة هى مقر اجتماعاتها بحكم ميثاق الدول العربية لا يعنى أن من يحضر تلك الاجتماعات يقر السياسة المصرية ولو ضمنا، بل هى منبر لمهاجمة هذه السياسة لمن يشاء. وهو وضع مماثل إلى حد ما لمقر الأمم المتحدة فى نيويورك حيث هو حق لكل دولة عضو فى الأمم المتحدة فى حضور جلساتها بصرف النظر عن علاقاتها بالولايات المتحدة التى يقع المقر فى أراضيها.

وكان هناك احتمال أن تقاطع الاجتماع دول جبهة الرفض : سوريا والجزائر وليبيا واليمن الجنوبية وكذلك العراق ومنظمة التحرير الفلسطينية، وهى عضو عامل فى الجامعة. ولكن كان الأخطر من ذلك هو احتمال قيام هذه الدول بالتأثير على عدد من الدول الأخرى التى لم تتخذ موقفا صريحا من المبادرة بالقبول أو الرفض لمقاطعة الاجتماع بدورها.

ومن ثم فقد رأينا أن التحرك بسرعة والسعى بكل جهد لتحقيق انعقاد الاجتماع على مستوى الوزراء وضمان مشاركة العدد الأكبر من أعضاء الجامعة لما فى ذلك من دلالات مظهرية من ناحية، ومن الناحية الثانية وهى الأهم هى أن تتاح لى الفرصة وأنا فى بلدى للالتقاء بمن قد يحضر من الوزراء العرب الاجتماع لأقدم نفسى لهم بوصفى وزيرا جديدا للخارجية المصرية ولأؤكد سلامة الموقف المصرى وصدق نواياه فى تحقيق تسوية شاملة للنزاع العربى الإسرائيلى ودحض ما يردده البعض بشأن التوصل إلى حل جزئى أو اتفاق منفرد مع إسرائيل.

كان يعنينى للغاية إجراء حوار معهم استمع إلى فكرهم وأنقل إليهم عسانا أن نهتدى إلى سبيل يحفظ الجبهة العربية من التردى إلى انهيار كامل مما يؤثر على موقفنا فى المباحثات مع إسرائيل خاصة بعد الموقف العنيف والعنيد الذى اتخذته جبهة دول الرفض ومنظمة التحرير الفلسطينية من مبادرة السادات.

ولست أدعى خبرة واسعة فى الشؤون العربية، كما لم يكن لى معرفة سابقة بوزراء الخارجية العرب - وإن كنت قد قابلت بعضهم أثناء عملى الدبلوماسى فى الخارج عند قيامهم بزيارات للدول التى كنت معتمدا فيها - وهدانى تفكيرى إلى الاستعانة بأستاذى محمود رياض الذى عاصر مشكلة النزاع العربى الإسرائيلى منذ بدايتها، وشارك فى الوفد المصرى فى مباحثات رودس سنة ١٩٤٩ التى أسفرت عن توقيع اتفاقيات الهدنة بين مصر وإسرائيل، والتى تبعها توقيع اتفاقيات مماثلة بين إسرائيل وسوريا والأردن ولبنان، ثم عمل وزيرا للخارجية المصرية لمدة سبع سنوات متصلة وبعد ذلك انتخب أمينا عاما للجامعة العربية فى سنة ١٩٧٢. وهو شخصية جادة حنكتها التجارب ويحظى باحترام وتقدير الجميع كما أنه حجة ومرجع فى الشؤون العربية فضلا عن علاقاته الوثيقة بالرؤساء والملوك العرب ووزراء خارجيتهم.

المبادرة لن تنجح

وكان رأى محمود رياض أن المبادرة التى قام بها السادات لن تنجح فى تحقيق التسوية الشاملة للنزاع العربى الإسرائيلى، نظرا لتكالب إسرائيل على التمسك بالأراضى العربية المحتلة وفقا لمطامعها التوسعية من جهة، ومن جهة أخرى نظرا للانقسامات التى أحدثتها المبادرة بين الدول العربية مما أثر على التضامن العربى الذى بلغ أقصاه فى حرب سنة ١٩٧٣ وبعدها، والذى زرعت بذوره اتفاقيات فض الاشتباك التى أبرمتها مصر وإسرائيل. ومع ذلك فقد كان يرى أن المبادرة قد حدثت وأصبحت حقيقة واقعة ويتحتم التعامل معها على هذا الأساس.

وكان أكثر ما يعنيه فى هذا المجال هو إنقاذ الجبهة العربية من التفكك ومحاولة الحفاظ على قدر من التضامن بين الدول العربية يكون ذخيرتها ومنطلقها متى ثبت فشل المبادرة، وبالتالى كان يعنيه عدم عزل مصر أو انعزالها عن العالم العربى، لذلك فقد استجاب تماما لرجائى فى بذل مساعيه الحميدة ليتم عقد اجتماع مجلس الجامعة على مستوى الوزراء.

ومن الناحية الأخرى كان الملك الحسن الثانى ملك المغرب والذى كان مؤيدا ومتحمسا لمبادرة الرئيس السادات يبذل جهدا كبيرا فى نفس الاتجاه.

وبالفعل بدأت البرقيات تصل الوزارة بقبول بعض وزراء الخارجية العرب المشاركة فى الاجتماع الواحد وراء الآخر وبدا الأمر مشجعا ومبشرا بالخير.

وفى هذه الأثناء حدث تطور خطير أدى إلى عواقب وخيمة وزاد الموقف تعقيدا بين مصر وسوريا ومنظمة التحرير الفلسطينية، ففى يوم ١١ مارس (آذار) قامت مجموعة من الفدائيين الفلسطينيين بعملية جريئة، إذ تمكن نحو عشرة منهم عن طريق استخدام قوارب من المطاط من الرسو على الشاطئ الإسرائيلى بالقرب من حيفا حيث نزلوا وتمكنوا من الاستيلاء على عربة أوتوبيس، واتجهوا بها نحو تل أبيب حيث تصدت لهم القوات الإسرائيلية وقامت معركة بين الطرفين قتل فيها غالبية الفدائيين العشرة، كما قتل فيها نحو خمسة وثلاثين إسرائيليا إلى جانب عدد من الجرحى، وكانت غالبية القتلى نتيجة انفجار الأوتوبيس بمن فيه عندما هاجمته القوات الإسرائيلية. وبطبيعة الحال بتنا نتوقع رد الفعل الإسرائيلى.

الرد الاسرائيلى على العملية الفدائية

أصدرت وزارة الخارجية المصرية تصريحا في يوم ١٢ مارس (آذار) نصه :

« إن الحادث الذى وقع أمس فى إسرائيل إنما يعتبر تأكيدا جديدا بصحة الموقف المصرى الذى عبرت عنه مبادرة الرئيس السادات للسلام من ضرورة الإسراع بإيجاد التسوية السلمية الشاملة لمشكلة الشرق الأوسط، ومن أن السلام لا يمكن أن يتحقق فى المنطقة إلا بتسوية المشكلة الفلسطينية من جميع جوانبها وتمكين الشعب الفلسطينى من ممارسة حقه المشروع فى تقرير مصيره ».

إن سياسة رفض الاعتراف بالحقوق العربية المشروعة هى التى أدخلت المنطقة خلال الثلاثين عاما الأخيرة إلى دائرة العنف وإزهاق الأرواح التى تستهدف مبادرة الرئيس السادات الخروج منها عن طريق إقرار الحق والعدل ».

وفى ساعة متأخرة من ليلة ١٤ مارس (آذار) جاء الرد الإسرائيلى فى شكل عدوان شامل مدمر على جنوب لبنان بما لا يتناسب بحال مع العملية الفلسطينية الفدائية التى اتخذتها إسرائيل ذريعة له، وبشكل يفضح وينضح بالنوايا الإسرائيلية المعروفة والمبيتة لضم جنوب لبنان وفقا لمخططها التوسعى والاستيلاء على منابع نهر الليطانى.

فقد قام أكثر من ثلاثين ألف جندى إسرائيلى من القوات البرية والجوية والبحرية بغزو واسع النطاق لجنوب لبنان بزعم مطاردة الفدائيين الفلسطينيين والقضاء على قواعدهم فيه، واستخدم الجيش الإسرائيلى الأسلحة الأمريكية الفتاكة فكانت تحصد الأحياء دون تمييز بين لبنانى وفلسطينى فدائيا كان أو لاجئا طردته إسرائيل من وطنه، ودون تمييز بين رجل أو سيدة أو طفل أو طفلة، وحاق الخراب والدمار حيثما حل الغزاة الإسرائيليون فدمرت أكثر من تسعين قرية آمنة وهرعت طوابير اللاجئين التعسة تحمل جرحاها وتجرجر أطفالها فى اتجاه بيروت هربا من القتل والدمار وبلغ عدد النازحين أكثر من مائة ألف.

وكان يعاون إسرائيل فى غزوها لجنوب لبنان الطابور الخامس من المليشيا المسيحية اللبنانية بقيادة الرائد سعد حداد الضابط اللبنانى المنشق وعميل إسرائيل وقرينها فى التعصب العنصرى.

غير أن الغزو الإسرائيلى قوبل من جانب رجال منظمة التحرير الفلسطينية والقوى الوطنية اللبنانية ببسالة وشجاعة منقطعة النظير فقتل وجرح من القوات المعتدية المئات، كما دمر الكثير من الأسلحة والعتاد الإسرائيلى، ولم ينجح الغزو الإسرائيلى فى نهاية الأمر فى تحقيق أحد أهدافه الرئيسية بالقضاء على المقاومة الفلسطينية.

الدرس الفلسطينى

فى صباح اليوم التالى للغزو الإسرائيلى لجنوب لبنان اتصلت تليفونيا بالرئيس السادات فى استراحة القناطر الخيرية لأعرض عليه البيان الذى أعددته لإصداره باسم وزير خارجية مصر حول العدوان الإسرائيلى على لبنان إلا أنى لم أتمكن من محادثته لأنه كان لا يزال نائما. وعاودت الاتصال به بعد ذلك عدة مرات فى فترات متباعدة دون جدوى. فبادرت بإصدار البيان دون انتظار رأى السادات فيه إذ كان الموقف محرجا للغاية بالنسبة لمصر خاصة أمام العالم العربى وهى ترى الجيش الإسرائيلى ينتهك سيادة لبنان بالاعتداء على أراضيها والتعدى على قراها وأهاليها، ويمارس عملية إبادة منظمة للفلسطينيين دون أن تحرك ساكنا.

وفى الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر اتصل بى السادات تليفونيا فى الوزارة وسألنى فى صوت ملؤه التثاؤب عن السبب الذى طلبته تليفونيا من أجله عدة مرات فى الصباح فأجبته بأن الأمر يتعلق بالهجوم الإسرائيلى على لبنان.

فقال السادات ضاحكا : «هل أعطوهم العلقة ولا لسه ؟»

ولم يخطر ببالى ما يقصده، فقلت متسائلا «أفندم ؟» فقال «يعنى أدبوهم ولا لسه ؟» وفهمت أخيرا أنه يقصد إن كان قد تم للإسرائيليين تلقين الفلسطينيين درسا بسبب العملية التى قام بها الفدائيون داخل إسرائيل منذ أيام.

وكان الدم يندفع إلى شرايين رأسى وأنا أجيبه « لقد حدث العكس ولقن الفلسطينيون الاسرائيليين درسا ». وشرعت أقص عليه آخر المعلومات التى وصلتنى عن المقاومة الباسلة التى يتصدى بها الفلسطينيون والقوى الوطنية اللبنانية للهجوم الإسرائيلى، إذ يبدو أنهم كانوا قد أعدوا أنفسهم إعدادا جيدا لتوقعهم قيام إسرائيل بعملية مضادة داخل لبنان. وكان يستمع لكلامى فى شئ من الدهشة، ثم أخبرته عن البيان الذى أصدرته فقال : « حسنا فعلت » وانتهت المكالمة.

وكنت أتفهم شعوره بعض الشئ – وإن لم أتفق معه – فقد كان غاضبا على منظمة التحرير الفلسطينية لانضمامها لجبهة الرفض وتهجمها عليه. كما أنه اعتبر – وكان هذا تقديرى أيضا – العملية الفدائية التى قاموا بها داخل إسرائيل موجهة ضد مبادرته لإحراجه أمام الدول العربية وقطع الطريق على من قد يفكر فيها فى الانضمام إلى مبادرته وخاصة الأردن، إلا أن الأمر كان فى رأيى أكبر من غريزة التشفى.

الرسالة الأولى من نوعها

وبعدها عندما صدر كتاب وايزمان « معركة السلام » فى سنة ١٩٨١ قرأت فيه الفقرة التالية : « وبعد دقائق قليلة من اجتياز أول دبابة إسرائيلية لحدود جنوب لبنان، دق جرس التليفون فى مكتب « اليعازر ريمون » رئيس وفدنا فى القاهرة، وبالرغم من الساعة المتأخرة فى الليل صدرت تعليمات القيادة العامة فى تل أبيب إلى ريمون للاتصال برئيس المخابرات المصرية « الجنرال شوكت » ليوافيه برسالة مهمة. ولم يكن الأمر سهلا لأن العسكرى « النوبتجى » كان يخشى أن يوقظ جنراله فى مثل هذه الساعة غير المعتادة. وأخيرا اقتنع بعد إلحاح ريمون.

«منذ وقت قصير» أخطر ريمون شوكت : « بدأت قواتنا عملية محدودة على الحدود اللبنانية لإزالة قواعد الإرهابيين من المنطقة، وأتعشم أن هذه العملية المحدودة لن تعطل المحادثات بين بلدينا ».

« كان هذا هو جوهر الرسالة – الأولى من نوعها – التى تلقاها رئيس المخابرات العسكرية المصرية، بعد أن اتفق على نصها بين بيجن وديان وأنا (أى وايزمان) ».

وعادت بى ذاكرتى إلى المحادثة التليفونية بينى وبين السادات منذ ثلاث سنوات وفهمت سر لهجته الهادئة ونبراته الضاحكة وهو يسألنى عن درس التأديب، فقد كان يعلم – قبل ذهابه إلى النوم – من الرسالة التى تلقاها أن اسرائيل بدأت « عملية محدودة » على الحدود مع لبنان، كما فهمت سر دهشته وأنا أنقل إليه أخبار المعركة، كان قد صحا لتوه من النوم عندما طلبنى ولم يكن يخطر بباله أن « العملية المحدودة » قام بها جيش قوامه ثلاثون ألف جندى معزز بالطائرات والدبابات والأساطيل.

تجريح الموقف السورى

وكما كانت العملية الفدائية الفلسطينية داخل إسرائيل والهجوم الإسرائيلى الذى أعقبها على جنوب لبنان محرجة لمصر، فقد كانت بدورها محرجة لسوريا وبشكل مباشر.

فقد اضطرت سوريا إلى التدخل العسكرى فى لبنان بعد اشتعال الحرب الأهلية فى سنة ١٩٧٥ بين القوى الوطنية اللبنانية والمقاومة الفلسطينية من ناحية وبين القوات اليمينية المسيحية من الناحية الثانية، مما أصبح يهدد وحدة لبنان ويعرضها للانقسام والتحلل. وقد نجح الجيش السورى فى سنة ١٩٧٦ فى السيطرة على الموقف بعد أن دخل معارك طاحنة مع الجانبين على التوالى وفى ٢٥ نوفمبر (تشرين الثانى) سنة ١٩٧٦ أقر مؤتمر القمة العربى الاستثنائى الذى انعقد فى القاهرة، الوجود العسكرى السورى فى لبنان، داخل إطار قوات الأمن العربية الذى قرر تشكيلها.

وكانت قرارات المؤتمر تقضى بتوفير الضمانات اللازمة لتثبيت وقف إطلاق النار فى لبنان والحفاظ على المقاومة الفلسطينية والتأكيد على رفض تقسيم لبنان تحت أية صورة من الصور وعلى عدم التدخل فى شؤونه الداخلية.

إلا أن الجيش السورى فى لبنان كان يمثل العمود الفقرى داخل قوات الأمن العربية فلم يكن اشتراك باقى الدول العربية وهى اليمن الشمالية واليمن الجنوبية والسودان والإمارات العربية وليبيا إلا اشتراكا بقوات رمزية فى الواقع.

ولا شك أن قيام الجيش الإسرائيلى بغزو جنوب لبنان فى الوقت الذى توجد لسوريا قوات داخل لبنان تصل إلى نحو عشرين ألف جندى سورى، دون أن تحرك ساكنا بل وتسعى إلى تلافى الاشتباك مع القوات الإسرائيلية بكل السبل كان يشكل إحراجا بالغا لسوريا. ومهما يكن من سلامة وحكمة الموقف السورى بعدم الدخول فى معركة مع الجيش الإسرائيلى لم تختر مكانها أو تحدد زمانها وتفرض عليها نتيجة عملية فدائية فى لحظة عابرة إلا أن المظهر العام خاصة أمام الرأى العام العربى كان يصيبها بالحرج خاصة وأنها ترفض مبادرة السلام مع إسرائيل التى قام بها الرئيس السادات وتلعب دورا رئيسيا فى جبهة الصمود والتصدى التى تكونت عقب المبادرة.

ولم يحاول السادات أن يفكر بعمق وإمعان فى الموقف الناشئ عن الغزو الإسرائيلى للبنان أو أن يعهد إلى مستشاريه بدراسته من جميع الوجوه لاتخاذ الخط الذى يتسق مع خطورة الوضع ومع المصلحة العربية بل ومع مصلحة مصر نفسها، وإنما ترك العنان لانفعالاته وأصدر تعليماته لوزير الإعلام ولرؤساء تحرير الصحف للقيام بحملة إعلامية ضخمة لتجريح الموقف السورى وتعريته (وكشف عوراته) ببيان زيف موقف سوريا مما تدعيه من صمود وتصد وتقاعس جيشها عن مواجهة الغزو الإسرائيلى الذى يعتدى على سيادة لبنان وعن الدفاع عن المقاومة الفلسطينية التى يؤويها وسرد تاريخ سوريا الأسود فى المذابح التى قامت بها ضد الفلسطينيين فى تل الزعتر وغيرها..

وعبثا حاولت إقناع السادات بوقف هذه الحملة المتدفقة، وكنت أخشى أن تندفع سوريا تحت ضغوط الإحراج والتشهير إلى الاشتباك مع القوات الإسرائيلية، مما قد ينشأ عنه أوضاع خطيرة لا يمكن التكهن بنتائجها ليس فقط على صعيد الشرق الأوسط بل على الصعيد الدولى، وستكون من بين نتائجه الجانبية القضاء المبرم على مبادرة السلام التى قام بها.

وقلت للرئيس السادات : إن هذا الموقف يذكرنى بما حدث فى مايو (آيار) ١٩٦٧ عندما كانت بعض الدول العربية وخاصة سوريا والأردن تهاجم تصريحات الرئيس عبد الناصر باستعداده للحرب مع اسرائيل وتعيره بأنه ما كان يعلنها لولا أنه يتستر وراء حاجز قوات الطوارئ التابعة للأمم المتحدة والتى تفصل بينه وبين إسرائيل على الحدود المصرية وفى قطاع غزة مما حدا به فى النهاية إلى أن يطلب من يوثانت السكرتير العام للأمم المتحدة سحب هذه القوات لتحل محلها قوات الجيش المصرى، وكان ذلك من الذرائع التى تعللت بها إسرائيل لشن حرب ١٩٦٧ مما أدى إلى احتلالها للأراضى العربية الذى نعانى منه الآن.

كذلك شرحت له رأيى فى أن موقفنا من الهجوم الإسرائيلى يجب أن يرتكز على إعلان تضامننا مع لبنان وسوريا ومنظمة التحرير إزاء الخطر الذى يتهددها وعلى إدانة وشجب العدوان الإسرائيلى بكل قوة، خاصة وأنها تقوم به فى الوقت الذى تتفاوض فيه معنا على السلام، وأن مصلحتنا هى فى عدم تكريس الفرقة والمرارة التى

نتجت عن المبادرة فإننا مضطرون إلى أن نرتد إلى عالمنا العربى سواء فى الحرب أو السلام وسواء فشلت المبادرة أو نجحت وإلا فكيف سيتحقق - جدلا - ما طالب به الرئيس السادات فى القدس من انسحاب إسرائيل من الجولان وحل القضية الفلسطينية والقطيعة راسخة بينه وبين سوريا ومنظمة التحرير ؟

والأكثر من ذلك أن مهاجمتنا لسوريا من هذه الزاوية ترتد وتنعكس علينا بدورها فبيتنا من الزجاج إذ نحن ملتزمون بمقتضى ميثاق الدفاع العربى المشترك بأن نهب عسكريا لنجدة لبنان أو أية دولة عربية عضو فى الميثاق إذا ما تعرضت لعدوان خارجى فما البال ونحن أكبر الدول العربية وأشدها بأسا. إلا أنه - مرة ثانية - كان الانفعال وكانت الغريزة أقوى من كل شئ.

احراج الولايات المتحدة

وكان الطرف الثالث الذى أصابه الحرج بعد مصر وسوريا من جراء الهجوم الإسرائيلى على لبنان هو الولايات المتحدة الأمريكية نفسها من ناحيتين، الأولى أن الولايات المتحدة كانت قد أكدت مرارا للعديد من العواصم العربية أنها لن تسمح بأى عدوان إسرائيلى على لبنان.

والثانية أن إسرائيل استخدمت فى هجومها العدوانى على لبنان الأسلحة الأمريكية المتطورة مثل طائرات الفانتوم وقنابل البلى (الإنشطارية) الفتاكة وذلك بالمخالفة للاتفاقية المعقودة بينها وبين الولايات المتحدة منذ عام ١٩٥٢ والتى بمقتضاها لا يتم تسليم إسرائيل هذه الأنواع من الأسلحة إلا بعد تعهدها بعدم استخدامها فى الهجوم على الغير. وقد أكدت وزارة الخارجية الأمريكية رسميا فى شهر ابريل (نيسان) ١٩٧٨ « أن القوات الإسرائيلية قد استخدمت قنابل البلى الأمريكية الفتاكة المضادة للأفراد ضد السكان المدنيين أثناء غزوها لجنوب لبنان منتهكة بذلك القوانين الخاصة بالأسلحة الأمريكية. فضلا عن أن الاتفاقية التى تم بمقتضاها تسليم مثل هذه الأسلحة لإسرائيل تقضى بعدم استخدامها إلا فى حرب واسعة النطاق وضد الأهداف العسكرية فقط دون الأهداف المدنية ».

والأهم من ذلك أن الولايات المتحدة كانت تقدر مخاطر الموقف فيما لو تطور إلى اشتباك بين القوات الإسرائيلية والسورية على الأراضى اللبنانية وما قد يؤدى إليه

وقوع مثل ذلك من تعقيدات على المستوى الدولى وخاصة بالنسبة للاتحاد السوفيتى، ومن هنا سارعت الخارجية الأمريكية بإصدار بيان رسمى يدعو إسرائيل إلى الانسحاب من جنوب لبنان على أن يقترن ذلك بإعداد ترتيبات للأمن لضمان عدم تكرار هجمات المقاومة الفلسطينية على إسرائيل من الأراضى اللبنانية.

ولم يلبث أن أدرك الرئيس السادات بدوره خطورة الموقف فى لبنان وأن من شأن عدم معالجته بسرعة القضاء المبرم على مباحثات السلام، فطلب إعداد خطاب عاجل للرئيس كارتر يحثه على التدخل الجاد للعمل على انسحاب القوات الإسرائيلية من لبنان. وقد سلمته للسفير الأمريكى فى ١٧ مارس (آذار) وأورد هنا منه بعض الفقرات:

« .... وأرجو أن أوضح بروح الصداقة التى تتطلب المصارحة التامة أن هذا الانسحاب (الإسرائيلى) يجب أن يتم فورا. ويجب العمل على أن يفهم الإسرائيليون أن الموقف الحالى الناشئ عن هجومهم واسع النطاق واحتلالهم لأجزاء كبيرة من جنوب لبنان ملئ بالمخاطر ويخلق توترات متصاعدة قد تؤذى مباحثات السلام التى يلتزم كلانا نحوها بحزم، ويجب أن تدرك إسرائيل أن أعمالها، التى من الواضح أنها لا تتناسب مع حادث الأوتوبيس - الذى عبرت عن الأسف - بشأنه، تقدم الحجج للذين يعتقدون أن حكومة إسرائيل غير مخلصة فى رغبتها لمقابلة عزمنا على التوصل إلى سلام شامل وعادل ودائم...

أما بشأن مشكلة الأمن - والتى أنا أعرفها تماما - فأعتقد أنها قد تحل جزئيا بوضع الجيش اللبنانى أو قوات الأمم المتحدة على الحدود بين إسرائيل ولبنان ولكن هذا فى رأيى يجب أن يرتبط بقبول إسرائيل - على الأقل - بصياغتك الخاصة بحل المشكلة الفلسطينية من جميع نواحيها. وهذا فى الواقع هو الطريق الوحيد لضمان الأمن الدائم ومنع الفلسطينيين الذين يعانون من الإحباط من الاندفاع إلى طريق العنف.

وأعتقد أن لدينا فرصة حقيقية لتحول هذه الأحداث المؤسفة إلى مناسبة لدفع جهودنا نحو السلام، ولكن الأسبقية الأولى هى أن يتم الانسحاب بأسرع ما يمكن، ويتبع ذلك بخطوات فورية فى الاتجاه الذى أشرت إليه ».

وبالفعل تقدمت الولايات المتحدة بمشروع قرار وافق عليه مجلس الأمن فى ١٩ مارس (آذار) برقم ٤٢٥ يقضى بأن تكف إسرائيل فورا عن عملها العسكرى ضد وحدة

وسلامة أراضى لبنان والمبادرة بسحب قواتها من الأراضى اللبنانية، كما يقضى القرار بوضع قوات للأمم المتحدة فورا فى جنوب لبنان تكون تابعة لحكومة لبنان ».

وتلكأت إسرائيل كالعادة فى تنفيذ الانسحاب الذى ينص عليه القرار شأن موقفها الثابت من سيل القرارات الصادرة من الأمم المتحدة ضدها على مدى أكثر من ثلاثين عاما وكأن الأمم المتحدة لم تصدر فى تاريخها إلا قرارا واحدا مقبولا لها هو تقسيم فلسطين إلى دولة فلسطينية وأخرى يهودية، وهو ما سارعت إسرائيل بتنفيذه فأقامت دولتها وسرعان ما تحولت إلى الخطوة التالية فى تنفيذ مخططها التوسعى لتلتهم أراضى الدولة الأخرى التى نص عليها القرار فاحتلت على مراحل أجزاء كبيرة من الأراضى التى خصصها القرار للدولة الفلسطينية. ولم تلبث أن احتلت فى سنة ١٩٦٧ باقى هذه الأراضى فى الضفة الغربية وغزة وها هى تسعى إلى تكريس الاحتلال وإقرار الأمر الواقع حتى تتهيأ لها ظروف ضمها وليذهب الشعب الفلسطينى ومن ورائه الأمم المتحدة إلى الجحيم.



طعنة عشواء

وسط هذا الجو المضطرب بدأت وفود الدول العربية تصل إلى القاهرة الواحد بعد الآخر للاشتراك فى اجتماع مجلس الجامعة العربية فى ٢٧ مارس (آذار) ١٩٧٨ وحضر الاجتماع ممثلون عن الدول العربية جميعا عدا سوريا وليبيا والجزائر واليمن الجنوبية التى قاطعت الاجتماع احتجاجا على زيارة الرئيس السادات للقدس، أما منظمة التحرير فقد شاركت فى الاجتماع مما أسعدنى كثيرا، وشارك فى الاجتماع أربعة عشر وزيرا للخارجية، وكان ذلك فى حد ذاته ذا مغزى كبير.

وقد تحدثت فى الاجتماع فأشرت إلى الآثار العميقة التى أحدثتها مبادرة السلام فى الرأى العام الأمريكى الذى ضللته الدعايات الإسرائيلية طويلا، وإلى ما نتج عنها من خلاف بين الحكومة الأمريكية والحكومة الإسرائيلية بسبب رفض إسرائيل للسلام الشامل، وذكرت أن التفاعلات الناشئة عن طرح المبادرة فى القدس قد وصلت إلى داخل إسرائيل نفسها.

كما أكدت على التزام مصر بالتسوية الشاملة المبنية على الانسحاب الإسرائيلى من جميع الأراضى العربية المحتلة عام ١٩٦٧م ، وتحقيق حقوق الشعب الفلسطينى المشروعة وعلى رأسها حقه فى تقرير المصير.

وعرض السيد محمود رياض الأمين العام للجامعة الموقف مركزا على ضرورة استعادة التضامن العربى، خاصة بعد رفض إسرائيل الاستجابة إلى مطلب السلام الشامل وبعد قيامها بالعدوان الواسع على جنوب لبنان. واقترح بالتالى السعى إلى وحدة العمل العربى عن طريق مؤتمر قمة عربى لمواجهة التحدى الإسرائيلى.

كما تقرر فى الاجتماع الموافقة على اقتراح وزير خارجية الكويت الشيخ الصباح تشكيل لجنة لتصفية الخلافات العربية بين مصر والدول العربية الرافضة للمبادرة. وفعلا تشكلت لجنة للتضامن العربى برئاسة الرئيس السودانى جعفر نميرى وعضوية الأمين العام للجامعة العربية ووزراء خارجية السعودية والكويت والأردن والإمارات العربية واليمن الشمالية، كما قرر المجلس عقد مؤتمر قمة عربى على مستوى القمة فى أقرب فرصة.

وكان جو الاجتماعات طيبا بوجه عام وباعثا على الأمل فى إمكانية كسر حدة الخلافات العربية التى تعصف بها ويحقق قدرا من التفاهم بينها. إلا أن القيمة الحقيقية لهذا الاجتماع كانت فيما أتاحه لى من اتصالات جانبية غير رسمية مع وزراء الخارجية العرب.

ففى مساء يوم وصولهم زرت الأمير سعود الفيصل وزير خارجية السعودية فى جناحه بفندق هيلتون واستمر لقاؤنا أكثر من ثلاث ساعات كان شابا وسيما، متأصلة فيه سمات الارستقراطية العربية العريقة، ذكيا ذا ثقافة عالية ونسب كريم. وكنت أشعر وأنا القاه لأول مرة أنى أعرفه من قبل ربما لأنى كنت أكن اعجابا وتقديرا كبيرين لوالده الراحل الملك فيصل.

كما كنت أتابع قبل أن أتولى وزارة الخارجية أحاديثه وتصريحاته فى الصحافة العالمية وكنت أعجب باتزانه ومنطقه والتزامه.

وقد قدمت نفسى إليه والتزمت الصراحة التامة معه فيما يتعلق بالمبادرة وأكدت له ثقتى فى عزيمة الرئيس السادات على تحقيق السلام الشامل واستحالة الانحراف عنه إلى حل جزئى أو منفرد، لأن طبيعة الموقف تأبى ذلك، وذكرت له أن هذا كان شرط قبولى العمل معه وزيرا للخارجية ولو لمست غير ذلك لتركت الوزارة على الفور.

وأعربت له عن الأهمية البالغة فى أن تقوم المملكة العربية السعودية بمساندته ودعمه بما لها من إمكانات ضخمة وقوة تأثير ضاغطة على الولايات المتحدة الأمريكية. هذا إلى جانب سعى السعودية لرأب الصدع الذى أحدثته المبادرة فى العالم العربى والذى هو أخطر ما يهدد قضيتنا.

وقد جرى الحديث بيننا ببساطة ويسر ودون كلفة واتفقنا على أن نكون على اتصال مستمر نتبادل المعلومات وننسق المواقف قدر الإمكان، وعندما تركته كنت أشعر بأن علاقة صادقة قوامها الصراحة والتفاهم والثقة المتبادلة قد نشأت بيننا.

وبعد ساعة التقيت بالأمير سعود الفيصل من جديد فى جناح الشيخ صباح وزير خارجية الكويت الذى كان قد دعا باقى وزراء الخارجية العرب والأمين العام للجامعة إلى عشاء غير رسمى.

ودار بينى وبين الحاضرين مناقشات امتدت إلى ما بعد الثانية صباحا، وكان الشيخ صباح يقوم بدور المدعى العام ضد المبادرة، وكنت أقوم بدور المحامى عنها. وفى أحيان كثيرة كانت الأسئلة توجه إلى، كما لو كنت المتهم إلا أن الجو العام كانت تسوده الصراحة والألفة والأخوة، وقد أتاح لى هذا الاستجواب ايضاح ما حققته المبادرة من إيجابيات وتبسيط ما يدور حولها من شكوك وانتهيت إلى أن أحدا لا يستطيع أن يقطع بأن المبادرة قد فشلت حتى الآن، فالموقف المصرى من التسوية الشاملة ثابت مستمر والتحولات والتفاعلات فى العالم أجمع حتى داخل إسرائيل تتجه فى صالح السلام الشامل.

وأعتقد أنى كنت موفقا فى عرضى، كما بدا لى أن الحاضرين قد لمسوا فى حديثى ملامح الصدق والإخلاص والاقتناع بما أقوله، وربما ساعد على ذلك ما تردد عن خلفيتى الوطنية، كما كان موقفى فى القدس أثناء اجتماعات اللجنة السياسية قد لاقى تقديرا فى بعض الدوائر العربية.

تخريب التقارب العربى ..

وفى أثناء اجتماعات مجلس الجامعة فى اليوم التالى أبدى لى الأمير سعود الفيصل رغبته فى مقابلة الرئيس السادات فوعدته بتحديد موعد له معه. وعندما عدت إلى مكتبى

اتصلت بالرئيس وأبلغته برغبة الأمير فقال أنه متوعك ومشغول، فقلت : أنني لا أستطيع أن أعتذر له، وليس ذلك من المصلحة، وإزاء إلحاحي وافق على مقابلته في استراحة القناطر في الساعة الخامسة من بعد ظهر اليوم التالي ٢٨ مارس (آذار) وطلب مني أن أحضر المقابلة معه.

وفي ظهر اليوم التالي كنت في مكتبي وكان معي السفير أحمد عثمان وكيل الوزارة والسفير أحمد ماهر مدير مكتبي، وكنت أسرد عليهما ما دار بيني وبين الوزراء العرب وأنا أشعر بالفرح والتفاؤل نتيجة ما أسفر عنه. عندما دق جرس التليفون المؤمن المباشر، وكان المتحدث الرئيس السادات الذي سألني عن كيفية سير الأمور مع الوزراء العرب وأجبته بأنها كانت طيبة وأني أرسلت اليه مذكرة بذلك فقال :

على فكرة يا محمد عزرا وايزمان أرسل لي برقية (عن طريق البعثة الإسرائيلية) يطلب الحضور إلى القاهرة وقد رددت عليه بموافقتي على ذلك.

وأجبته في ذهول « وكيف توافق على ذلك والوزراء العرب مجتمعون في القاهرة والجيش الإسرائيلي يحصد الأرواح وينشر الدمار في لبنان؟».

فقال « لابد وأن لديه رسالة مهمة يريد أن ينقلها إلي ».

قلت « ولماذا لا يرسلها عن طريق السفارة الأمريكية حسب ما يجري عليه العمل؟ أو عن طريق المحطة الإسرائيلية ».

قال : « وماذا نخسر من حضوره والاستماع إليه؟ وليس هناك داع لأن يعلم أحد بحضوره إلى مصر ».

وجن جنوني وأنا أرد عليه « نخسر الكثير، أن اختياره الحضور في هذا الوقت الذي يجتمع فيه الوزراء العرب هنا ليس اعتباطا، إنه تخريب متعمد لأي تقارب عربي مع مصر، أما إذا كنت مصرا على عدم إلغاء دعوته فيجب أن يعلن عن وصوله فأنا أتعامل مع الناس على أساس الثقة ولست مستعدا لهدم سمعتي التي ظللت أبنيها وأحافظ عليها طوال عمري ».

فقال غاضبا « طبعا سأعلن عن وصوله فأنا لا أعمل فى الظلام ولا أخشى أحدا ».

وعدت أرجوه فى هدوء أن يلغى زيارة وايزمان أو يرجئها على الأقل فى الوقت الحالى فقال السادات « أنت أصلك لا تعرف وايزمان إنه صديقى ».

وهنا انفجرت صائحا : أتنسى أنه عضو حزب حيروت، إن أمامى الآن تصريحات وايزمان منذ أيام فى التليفزيون الأمريكى وهو ملتزم فيها بخط مناحم بيجن مائة فى المائة. ماذا يعنى أنه صديقك؟ لعنة الله عليه وعلى أبيه.

وسمعت صوته وهو يقول فى عصبية « طيب يا محمد أفندى، طيب يا محمد أفندى » .. ثم سمعت صوت سماعة التليفون وهو يغلقها فى وجهى.

لقاء السادات وسعود الفيصل ..

كنت أتجاذب الحديث مع الأمير سعود الفيصل والسيارة تنطلق بنا فى اتجاه القناطر الخيرية. وكنت قد استعدت هدوئى بعد المكالمة التليفونية العاصفة مع الرئيس السادات وتناولتنى الحيرة بين الصمت وبين أن أقول للأمير ما حدث. ثم أثرت السكوت إذ تغلب على الأمل فى أن أنجح فى إقناع الرئيس السادات بالغاء زيارة وايزمان دون ما داع لإثارة ضجة حولها.

وعند وصولنا أدخلنا الى أحد صالونات الاستراحة وبعد دقائق لحق بنا السادات وبعد أن حيانا جلسنا وسكت فترة وبدا لى أنه فى إحدى حالات الشرود التى تنتابه أحيانا. ثم قال موجها الحديث للأمير « أنا سعيد للغاية أنك تقابلت أخيرا مع محمد كامل وأنا على ثقة من أنكما ستتفاهمان مع بعضكما تماما. وستجده شجاعا صادقا لا يعرف الالتواء وأنا أرجو أن تقوم بينكما علاقة إخاء وتعاون ».

ورد الأمير بأن ذلك قد حدث بالفعل، وأنه يتطلع إلى قيام اتصال وثيق بيننا كما تكلمت بدورى فى نفس الاتجاه. ثم ساد السكون فترة أخرى. وتكلم الأمير فنقل إلى الرئيس السادات تحيات وتمنيات كل من الملك خالد والأمير فهد، فرد عليه السادات وحمله تحياته وتمنياته اليهما.

ثم شرع يستفسر عن عدد من الأمراء كالأمير سلطان والأمير تركى .. وأجابه الأمير سعود الفيصل على استفساراته، ثم عاد السكون مرة ثالثة، فبادرت برواية ملخص لما دار فى الاجتماعات وبعض الطرائف التى تخللتها وعاد السكون من جديد.

ولم يلبث أن قطعه الرئيس السادات موجها الحديث إلى الأمير فذكر أن وايزمان وزير الدفاع الإسرائيلى قد طلب منه الحضور إلى القاهرة، وأنه أذن له فى ذلك لأنه الوحيد الذى يستطيع التفاهم معه من بين الطاقم الإسرائيلى، وأنه يعتقد أنه يحمل معه، أنباء عن تحول فى الموقف الإسرائيلى المتعنت مما يقتضى الأمر بحثه معه وأنه سيستمع إليه على كل حال ويقرر ما يفعله على ضوء ذلك. ونظر إلى الأمير والدهشة تغلف وجهه ولم يعلق بكلمة.

ثم استرسل السادات فى الحديث فعبر عن ثقته فى نجاح مبادرته رغم ما يثيره بيجن من عقبات بعقليته المتحجرة ونظرياته التوسعية وأنه - أى بيجن - سيضطر للتراجع إزاء الضغوط الدولية عليه وخاصة من الولايات المتحدة بل من داخل إسرائيل نفسها. ومرة ثانية عاد السادات يحمل الأمير تحياته وتمنياته للملك خالد وأفراد العائلة وانتهت المقابلة.

أرجوك افعل ..

وفى طريق العودة إلى القاهرة لم يكف الأمير الفيصل عن ترديد الأسئلة وكان يبدو أنه يوجهها لى ولنفسه فى ذات الوقت : لماذا يفعل الرئيس السادات ذلك؟ ولماذا فى هذا الوقت والوزراء العرب فى القاهرة؟ لماذا لا يفسح الفرصة لإعادة التضامن العربى الذى يعملون بكل جهدهم على إنقاذه؟ وإذا كانت هناك مصلحة فى لقاء وايزمان فهل الوقت مناسب لذلك وجيش إسرائيل يغزو لبنان؟ ..

وكنت أجيبه بأنى أتفق معه تماما فى كل هذا، وأنى أبلغت السادات برأيى بل ووقعت مشادة بيننا فى التليفون، ولكنى أؤكد له بأن الرئيس السادات لم يقبل حضور وايزمان بسوء نية، وإنما ربما يعتقد أنه ليس هناك خسارة فى الحوار والمناقشة وربما يطمع فى أن يقنعه بالانسحاب من لبنان أو بالعمل على تغيير الموقف الإسرائيلى أو ما شابه ذلك. وقبل وصولنا الى فندق الهيلتون سألنى الأمير الفيصل عن رأيى فى أن

يبرق للملك خالد ليرسل عاجلا إلى الرئيس السادات رسالة يرجوه فيها العدول عن استقبال وايزمان فى القاهرة. فأجبته إنى أوافق على هذه الفكرة بكل تأكيد ورجوته أن يفعل، كما وعدته بأنى سأثير الموضوع مع الرئيس من جانبى من جديد.

وصدقته مرة أخرى..

وفى المساء حضر الوزراء والسفراء العرب ورجال الجامعة العربية حفل العشاء الذى أقمته تكريما لهم بمناسبة انتهاء اجتماعات مجلس الجامعة، وألقيت كلمة استأذنتهم ضاحكا فى بدايتها فى القائها باللغة العربية المصرية حتى أتحاشى أغلاط النحو والهجاء أمامهم وهم أساطين اللغة العربية. وكانت كلمة قصيرة وبسيطة أكدت فيها من جديد عزم مصر على تحقيق الانسحاب الإسرائيلى الكامل من جميع الأراضى العربية وتحقيق حقوق الشعب الفلسطينى المشروعة، كما أكدت حرصنا البالغ على التضامن العربى وترحيبنا بكل جهد يسعى لإزالة سوء التفاهم الذى نشأ بين مصر وبعض الدول العربية الشقيقة.

وفى صباح اليوم التالى ٢٩ مارس (آذار) بدأ الوزراء العرب العودة إلى بلادهم، وفى المساء أعلن عن وصول وزير الدفاع الإسرائيلى وايزمان إلى القاهرة.

وبعدها بيومين طلبنى الرئيس السادات فى التليفون وقال إن وايزمان لم يحمل معه جديدا فى زيارته، وأنه طلب منه قبل عودته إلى إسرائيل أن يبلغ مناحم بيجن أنه لم يقم حتى الآن بالرد على مبادرة السلام، وأن مصر لا تبحث عن تسوية منفردة أو جزئية وإنما تسعى الى سلام شامل على أساس الإنسحاب الإسرائيلى الكامل من جميع الأراضى العربية المحتلة.

ولم يكن أمامى ما يدعو إلى عدم تصديقه.

الفصل الثامن عشر

القصة من الجانب الآخر بدون تعليق

ومضت ثلاث سنوات دون أن أعلم بما حدث فى لقاء السادات مع وايزمان فى القاهرة فى يومى ٢٠ و ٢١ مارس (آذار) ١٩٧٨م خلاف ما ذكره لى الرئيس السادات - إلى أن أرسل لى أحد أصدقائى فى الخارج نسخة من كتاب عزرا وايزمان «المعركة من أجل السلام» الذى صدر فى مارس (آذار) ١٩٨١م.

وكم تمنيت لو لم يكتب وايزمان كتابه أو لو كان قد أسقط منه ما دار بينه وبين السادات أثناء تلك الزيارة. أو لم يقع الكتاب فى يدى وأطلع عليه. فقد أثار فى نفسى مرارة كبيرة وشعرت أنه كان يغرر بى وأطعن من الخلف، أو بالأحرى تطعن الجهود المخلصة الصادقة التى كنت أبذلها مع زملائى فى الوزارة على حساب أعصابنا وصحتنا عسى أن نحقق للسادات ولبلدنا وقضيتنا من قبله ما نعتقد أنه تعزيز لموقفنا فى المفاوضات بما يكفل لنا النجاح أو على الأقل ألا يصيبنا إلا بأقل الخسائر.

ناهيك عن التردى فى الهوة السحيقة الذى حدث فى النهاية وتذكرت بعد قراءة كتاب وايزمان قصة «جورج أو رول» «مزرعة الحيوانات» وتذكرت شخصية «الرفيق نابليون» الخنزير وشخصية سنوبول «الحصان» - وأرجو ألا يخل بتواضعى إذا قلت أنى أعتقد - أنه بالنسبة لشخصية هذا الأخير - بأنى أكثر منه ذكاء وأقل منه براءة ولعل قراءتى لكتاب وايزمان وكتاب ديان كانت من الدوافع التى حدت بى إلى المسارعة بتدوين تجربتى فى هذه المذكرات.

وأبادر بالتحفظ فأقول إنى لا أستطيع أن أقطع من الصادق ومن الكاذب. فقد قال لى السادات أن وايزمان هو الذى أرسل إليه بطلب الحضور إلى القاهرة ومقابلته. وكتب وايزمان فى كتابه أن العكس هو ما حدث، أى أن السادات هو الذى أرسل إليه يطلب حضوره إلى القاهرة.

اذن أحدهما قد كذب فيما يتعلق بواقعة من دعا من. أما باقى ما دار فى المقابلات التى تمت بينهما – وهو خطير جدا – فلم يخبرنى السادات بشئ عنه مكتفيا بما ذكره لى عن نتيجة المقابلات مع أنه أبلغ وايزمان نقل الرسالة التى أشرت إليها سابقا إلى بيجن. وبالتالى فان ما كتبه تفصيلا عما دار فى هذه المقابلات هو الرواية الوحيدة المطروحة أمامنا وقد تكون صادقة وقد لا تكون وهو أمر لا أستطيع الحكم عليه.

وأنتقل بعد ذلك إلى رواية وايزمان لعل القارئ يستخلص منها لنفسه الجواب.

الرسالة السرية ..

يقول وايزمان «نقلت الينا محطتنا فى القاهرة» «زاهانا» رسالة شفرية أحيت الأمل – فقد كان زملائى فى القيادة العامة وفى وزارة الدفاع يرون أنه ليس هناك ثمة إمكانية لاستئناف مباحثات السلام طالما أن قواتنا تقوم بعمليات نشطة فى لبنان – ولكن الرسالة – ذات السرية القصوى أربكت كل تنبؤاتنا – كان الرئيس المصرى يطلب منى الحضور ومقابلته فى يوم ٣٠ مارس (آذار) ١٩٧٨م» ويعبر وايزمان عن شعوره الشديد بالفرح عندما تلقى هذه البرقية ويقول أنه اتصل على الفور برئيس الوزراء بيجن وأخبره بمحتواها.

فبادر بيجن بدعوة مجلس الوزراء للاجتماع لبحث الموضوع ثم يقول وايزمان «فى الوقت الذى أبرق فيه السادات لى، كانت القاهرة مكتظة بوزراء الخارجية العرب الذين اجتمعوا (لحضور) مؤتمر للجامعة العربية. ودعوة لوزير دفاع إسرائيل بينما القوات الإسرائيلية ترابط على الأراضى اللبنانية كانت تحديا سافرا للعالم العربى.

ثم يسرد أنه أبلغ مجلس الوزراء أن الموضوع دقيق وأن المصريين طلبوا فى برقيتهم ألا نعلن شيئا عن المقابلة مسبقا. وأنه سأل فى اجتماع المجلس عما يقوله للمصريين وأن بيجن أجابه «أن على وزير الدفاع أن يقول أنه ليس هناك أحد فى إسرائيل يقبل

فك المستوطنات، وأن ما تطلبونه أيها المصريون هو الانسحاب الكامل وإقامة دولة فلسطينية، قل لهم كلا الأمرين غير مقبول فهل هم مستعدون للتقدم بشئ آخر.

ويضيف وايزمان أن وزير التجارة والصناعة ييجال هورفيتز قال فى المجلس «أن عيزرا وايزمان دعى إلى القاهرة لأنهم يتخيلون أنه أقرب إليهم. ويجب عليه أن يخبر السادات أن يجد صيغة لا تعيدنا إلى حدود ١٩٦٧ .. بعد زيارة رئيس الوزراء للولايات المتحدة واتخاذ كارتر جانب مصر. فان مزاج السادات يحلق فى السماء وعينيه فى السحاب، وستنمو ثقته فى نفسه ما لم يعده شخص ما إلى صوابه» .. وأخيرا قرر مجلس الوزراء الإسرائيلى الموافقة على سفر وايزمان إلى القاهرة على أن يصطحب معه أهارون باراك المستشار القانونى لمجلس الوزراء.

ويذكر وايزمان أن عدسات التلفزيون كانت فى استقباله فى المطار وعند وصوله إلى مقر الرئيس السادات مما يدل على عزم السادات على المضى فى السعى للسلام برغم حرج مركزه هو ودولته بسبب الهجوم العسكرى الإسرائيلى على لبنان وأن الرئيس السادات صافحه بحرارة وقال له «أنى أرحب بوزير الدفاع وأسعد بوصوله ويجب أن تعلم أنه كانت هناك معارضة لحضورك إلى هنا - كان الملك خالد ملك السعودية، وحتى وزارة خارجيتى كانت أيضا ضد ذلك، ولكنى أردت أن أراك».

ويحكى وايزمان بعد ذلك أنه كان يشعر بالمصاعب التى تحيط بالرئيس السادات من قبل الدول العربية وكذلك على الصعيد الداخلى حيث بدأ هجوم الأحزاب المعارضة على مباحثات السلام فى التصاعد.

كما كانت هناك محاولات من قبل الطلبة للتظاهر ضدها ويقول وايزمان أن المعارضة الأخطر - من وجهة نظر السادات ومن وجهة نظر الإسرائيليين - كانت تلك التى تجئ من رجال وزارة الخارجية وأن الإسرائيليين لاحظوا ذلك منذ اجتماع الإسماعيلية حيث أظهر رجال الخارجية المصرية «عدم مرونتهم» باصرارهم على عدم إمكان تحقيق السلام دون حل القضية الفلسطينية!!.

ثم يمضى وايزمان فيروى المناقشة التى دارت بينه وبين الرئيس السادات وهم جلوس تحت شجرة «السكامور» الفارعة فى حديقة استراحة القناطر الخيرية. وفى نهايتها يقول أنه عندما لخصت لنفسى حديثى مع السادات شعرت بمزاج أفضل.

فمثلا كان الرئيس المصرى غير مهتم بدولة فلسطينية وكان مستعدا لأن يترك مستوطناتنا فى الضفة الغربية فى مكانها، وكان مستعدا للحلول محل الملك حسين فيما لو رفض هذا الاشتراك فى المفاوضات، وكنت سعيدا لسماع أهارون باراك لحديثنا لأنه بدون شهادته لم يكن أحد فى إسرائيل ليصدقنى.

ويذكر وايزمان بعد ذلك أنه زاره فى المساء فى قصر الطاهرة حيث كان يقيم الدكتور مصطفى خليل سكرتير عام الحزب الحاكم والدكتور بطرس غالى والفريق الجمسى، ثم يقول وأنا أنقل هنا من كتابه بالحرف الواحد :

«أجرى البروفيسير باراك والجمسى وزير الدفاع حديثا مثمرا، فقد انسحبا لحديث طويل، عرض خلاله الجمسى محادثات سرية بين بلدينا تتم فى القاهرة أو فى إسرائيل أو فى أى مكان آخر، وقال الجمسى أنه إذا رغب الطرفان فيمكن إدخال الأمريكيين فى المحادثات، وهدف المباحثات سيكون إعداد تفاصيل الترتيبات للضفة الغربية وغزة وللمحادثات الثنائية بين إسرائيل ومصر. وفى نهاية المحادثات يوقع على وثيقتين بالحروف الأولى فى السر.

وتتضمن الوثيقة الخاصة بالترتيبات فى الضفة الغربية وغزة إعلانا للنوايا فمن وجهة نظر مصرية يجب أن يكون هناك إعلان إسرائيلى عن الاستعداد للانسحاب من الضفة الغربية وغزة – فيما عدا تلك النقاط التى تستمر قواتنا فى احتلالها لاعتبارات الأمن مثل مستوطنات على نهر الأردن أو فى أعالى سلسلة الجبال. وعندئذ سيعلن السادات أن مصر وإسرائيل قد اتفقتا على إعلان نوايا ويدعو دول المواجهة للدخول فى مفاوضات على أساس ثنائى.

ثم ينتظر عدة أسابيع يوقع بعدها اتفاقية سلام مع إسرائيل بالنسبة لسيناء واذا دخل الأردن فى الصورة فيتولى حسين موضوع «جوديا وسماريا» وغزة واذا رفض حسين الدخول فى المفاوضات فيدخل السادات مكانه ويوقع على اتفاقية لتغطية الضفة الغربية وغزة.

وبمقتضى الاتفاقية تبقى المستوطنات القائمة ويسمح لليهود بإقامة مستوطنات على الأراضى الخاصة التى يشترونها وكذلك سيتم البحث عن حل للأراضى الحكومية لكى

تطرح للبيع ليشتريها اليهود ويرابط الجيش الإسرائيلى فى قواعد متفق عليها مثل تلك القائمة على نهر الأردن.

واذا حدث أى نشاط لمنظمة التحرير الفلسطينية فى الضفة الغربية وغزة فيكون للجيش الإسرائيلى اليد الطليقة فى التعامل مع الإرهابيين، أما المستوطنات فى سيناء فتبقى تحت السيادة المصرية ويحصل سكانها على الجنسية المصرية ولا يتمتعون بحماية الجيش الإسرائيلى.

التزام السادات..

ويذكر وايزمان بعد ذلك أنه كان لديه سبب وجيه للرضا وأنه كان يعزم أن يشير فى تقريره إلى مجلس الوزراء الإسرائيلى أن تقدما كبيرا قد تحقق وأنه كان يستعد فى صباح يوم ٣١ مارس (آذار) للعودة إلى إسرائيل عندما تلقى مكالمة تليفونية عاجلة من الفريق الجمسى يدعوه للذهاب معه إلى القناطر الخيرية لمقابلة الرئيس السادات، وأنه عندما قابله لاحظ عليه التوتر بشكل غير عادى.

وقال السادات وأعود للاقتباس «بعد مقابلة كارتر لبيجن، سألنى كارتر عما إذا كنت مصرا على دولة فلسطينية، وقد فكرت فى ذلك كثيرا وقادنى تفكيرى إلى الاقتراح بعيد المدى الذى قدمته لك بالأمس، وبعد مقابلتك بالأمس قابلت فى المساء ممثلين فلسطينيين عن غزة ولم يقبلوا أفكارى إنهم يريدون تقرير المصير. وفى هذه المرحلة فإن التأييد الفلسطينى لنا مهم، نظرا لمعارضتهم لا أستطيع القول إن خطة الأمس مازالت قائمة.. إن لدينا مشكلة فأنا أعرف حدودى ولن أقترح شيئا لا استطيع أن أنفذه ولكن عندما أتقدم بعرض فأنا التزم به. والآن بالنظر لمعارضة الفلسطينيين فأنى لا أعلم إذا كنت أستطيع الالتزام بما عرضته.

لذلك فإنى أعود إلى الموقف الذى كان قائما أول أمس : يجب على بيجن أن يظهر المرونة فأنا لا أطلب دولة فلسطينية فقط رابطه مع الأردن يفهم منها ضمنا أنه لا توجد دولة فلسطينية وكان هذا رأيى قبل مبادرة السلام وهذا هو رأيى الآن وسيكون هناك استفتاء..».

وهنا قاطعه وايزمان قائلا : ان الاستفتاء غير مقبول لنا دعنا نعود إلى حديثنا بالأمس وإلى اقتراحى عقد معاهدة سلام مع مصر كمرحلة أولى انك رجل شجاع. لقد

طردت الروس وقمت بمبادرة السلام ويجب أن يكون لديك الشجاعة للوصول بها إلى «نتيجة» ولكن الأمر قد انتهى!!

ويعلق وايزمان على ما حدث بأن التحول المفاجئ فى موقف الرئيس كان مؤسفا للغاية ويبرر ما يتهمه به نقاده من أنه لا يثبت على حال ويتراجع عن تنفيذ تعهداته التى سبق أن التزم بها.

أما أنا فقد لاح لى الرئيس السادات فى دور جديد متقمصا هذه المرة الشخصية المزدوجة لدكتور جيكل ومستر هايد. أم أنه لم يكن دورا ؟.

وان كنت أسفت على شئ فهو أن وايزمان لم يسارع بعد مقابلته للسادات فى القناطر الخيرية بنشر ما دار بينهما بدلا من الانتظار ثلاث سنوات حتى يحكى القصة فى كتابه. اذن لكنت تركت منصب وزير الخارجية منذ ذلك الحين ووفرت على نفسى عذاب الطريق عبر الساعات والأيام والشهور حتى وصلت إلى مؤتمر كامب ديفيد.

الفصل التاسع عشر

وقفة تأمل

وقبل أن أنتقل إلى المرحلة التالية من الأحداث والتطورات رأيت التريث قليلا فقد شعرت وقتها بالصورة تهتز أمامى أو بالأحرى أمام الرئيس السادات ولمست الحاجة إلى وقفة تأمل نعيد فيها تقييم موقفنا على ضوء ما حدث منذ قام الرئيس السادات بزيارة القدس حتى غزا الجيش الإسرائيلى جنوب لبنان حتى لا نجد أنفسنا تحت ضغط الأحداث قد انحرفنا دون أن نشعر إلى طريق غير الذى نستهدفه وبالفعل قمنا فى وزارة الخارجية بدراسة الموقف وقدمت للرئيس السادات فى يوم ١٨ مارس (آذار) ١٩٧٨ المذكرة التى أعدها السفير أحمد ماهر فى هذا الشأن بعنوان «ملاحظات حول الموقف السياسى الراهن» وهى توضح الموقف دون حاجة إلى تعليق وهذا نصها.

تمهيد ..

يمر الموقف السياسى الراهن بمرحلة تحتاج إلى وقفة تأمل لإمعان الفكر وإعادة التقييم، بحثا عن عوامل القوة وتنميتها وتلمس نقاط الضعف وتلافيها وتثبيت الخطوط العريضة لسياستنا الخارجية حتى لا يؤثر التحرك التكتيكى على الأهداف الاستراتيجية.

ومما يدعو إلى ذلك بعض الظواهر - منها :

١- تمسك إسرائيل بسياسة التوسع وعدم تقديم أى تنازلات والعمل على امتصاص الآثار الايجابية لمبادرة السلام المصرية عن طريق التغطية على القضايا الرئيسية بقضايا أخرى فرعية (آخرها العدوان على جنوب لبنان).

٢- الخلافات والانقسامات والحرب الإعلامية على الساحة العربية، وهو ما يشجع إسرائيل على التعنت من ناحية ولا يدفع الولايات المتحدة لممارسة ضغوط فعالة على إسرائيل من ناحية أخرى.

٣- شعور متزايد في كثير من الدول الأفريقية والآسيوية أن مصر أصبحت تعتمد أكثر مما يجب على الولايات المتحدة الأمريكية، وأن مصر أخذت بعض المواقف التى تثير قلق بعض الدول الصغيرة (النزاع المصرى الليبى والذى أدى إلى انتهاك مسلح، موقفنا من النزاع الصومالى - الأثيوبى عند بدئه، وموقفنا من الأوضاع الداخلية فى تشاد وحادث الطائرة المصرية فى نيروبى، واحتجاز طائرتين كبيرتين فى مطار القاهرة، وأحداث مطار لارنكا فى قبرص، وموقفنا من منظمة التحرير الفلسطينية والفلسطينيين بصفة عامة).

٤- اتباع أجهزة الإعلام المصرية أسلوبا مثيرا فى معظم الأحيان، يلجأ إلى التجريح الشخصى لرؤساء وكبار المسؤولين فى الدول التى نختلف معها فى التكتيك ولكننا نتفق فى الأهداف الاستراتيجية. كما تلجأ هذه الأجهزة إلى المبالغة أو الانتقال المفاجئ من موقف معين إلى موقف آخر مخالف دون تمهيد كاف، الأمر الذى لا يخدم أهدافنا السياسية ويضعنا فى بعض الأحيان فى مواقف متناقضة.

وتؤثر هذه الظواهر - كما تتأثر - إما سلبا أو إيجابا بالعوامل الأساسية التى تقوم عليها سياستنا الخارجية وهى :

١- الأوضاع الداخلية (اقتصاديا وسياسيا واجتماعيا وعسكريا).

٢- وحدة الصف العربى.

٣- تعدد محاور الحركة فى مجال العلاقات الدولية.

ويمكن تناول كل عامل منها بايجاز على النحو التالى :

أولا - الأوضاع الداخلية

تعد الأوضاع الداخلية (اقتصاديا واجتماعيا وعسكريا) أهم مصدر من مصادر قوة سياستنا الخارجية، بل إن سياستنا الخارجية ما هي إلا انعكاس لسياستنا الداخلية. ومن ثم تتضح أهمية إعطاء الاهتمام الأساسى لوحدة وتماسك الجبهة الداخلية وإشعار المواطنين بالمشاركة والتجاوب المؤثر عن طريق التركيز على بعض القضايا مثل:

١- تخفيف الأعباء المعيشية عن الشعب عن طريق :

أ - تحسين مستوى الخدمات الأمر الذى يؤدى إلى زيادة الدخول الحقيقية دون حدوث تضخم.

ب - الحزم فى تطبيق القوانين.

٢- تدعيم الثقة بين الجهاز التنفيذى والشعب عن طريق :

أ - التزام كل مسؤول بتحقيق سياسته المعلنة.

ب - البدء بحل المشكلات التى لا تحتاج إلى تمويل خارجى وتتصل بالحياة اليومية للناس.

ج - زيادة كفاءة الجهاز الإدارى وتبسيط اجراءاته.

د - التزام أجهزة الإعلام بالموضوعية والبعد عن التجريح الشخصى.

هـ - إحكام الرقابة والمتابعة وتطبيق مبدأ الثواب والعقاب.

٣- التنسيق والتعاون بين أجهزة الدولة ضمانا لسلامة اتخاذ القرارات وتلافيا للازدواج وضياع الجهد.

ثانيا - وحدة الصف العربى

١- إذا كانت مصر بموقعها وسكانها وإمكانات التنمية الكامنة فيها قوة فى حد ذاتها، فان التفاف غالبية الدول العربية حولها قوة مضافة لها والعالم العربى هو المجال المؤثر لمصر.

من هذا المنطلق تأتى أهمية الحرص على وحدة الصف العربى ولو عند الحد الأدنى من نقاط الاتفاق وأهمية الحفاظ على دورنا الفعال فى الشؤون العربية بدون

إثارة أية حساسيات لدى الدول العربية وإشعارها دائما أن رأيها حتى لو خالفناه إلا أننا نحترمه.

٢- وأن استمرار الانقسامات والمحاور فى العالم العربى تحمل فى طياتها عدة مخاطر قد تؤدى إلى :

أ- حدوث استقطاب للدول العربية بين القوتين العظميين.

ب- إتاحة الفرصة وعلى نطاق واسع للتدخل الأجنبى فى الشؤون العربية.

ج- إتاحة الفرصة لبعض القوى التى تسعى إلى عزل مصر عن مجالها الحيوى وإدخالها فى صراع مع حلفائها الطبيعيين فى العالم العربى.

٣- وانطلاقا مما سبق قد يرى البدء بأسرع ما يمكن وبالتدريج فى العمل على استعادة وحدة الصف العربى سواء عن طريق أجهزة الإعلام كمرحلة أولى، أو عن طريق الدول العربية التى تسعى لنفس الهدف (السعودية - السودان - الأردن - دولة الامارات) تمهيدا لإعادة العلاقات مع الدول العربية التى قطعنا علاقاتنا معها، أو عن طريق جامعة الدول العربية.

٤- يلاحظ أن خلافاتنا مع الدول العربية تنبع فى الجزء الأكبر منها عن الخلاف حول أسلوب تناول قضية الشرق الأوسط وليس حول الأهداف.

ويمكن أن نوضح للدول العربية - خاصة دول الرفض - أن المبادرة المصرية لم تفرط فى أى حق عربى ويمكن استثمارها فى عزل إسرائيل دوليا بعد أن كشفنا للعالم كله زيف ادعاءات السلام التى يغطى بها ساسة إسرائيل أهدافهم التوسعية وإنكارهم للحقوق المشروعة للشعب الفلسطينى.

٥- إن سوريا وليبيا والفلسطينيين حلفاء مهمون لمصر ويرتبط أمنهم بأمن مصر ويمكن بالتعاون والتنسيق معهم خلق قوة ضغط فعالة، سواء على الولايات المتحدة أو إسرائيل، ويحسن فى علاقاتنا مع هذه القوى الثلاث أن نأخذ فى الاعتبار العوامل التى تحكم كل منها :

أ - إن سوريا فى حاجة لأن نتعاون معها سواء فى الحرب أو السلام ولكنها واقعة تحت مؤثرات منها :

- ضغط البعث
- تورطها الاختيارى فى لبنان
- ضغط العناصر الفلسطينية
- الخوف من الانقلابات العسكرية
- الخوف من أن تتركها مصر وحدها فى مواجهة إسرائيل.

ويمكن الآن بعد أن تم استيعاب المبادرة المصرية ، بدء حوار مع سوريا تمهيدا لإعادة العلاقات معها.

ب - أما ليبيا فهى والسودان المجال الحيوى الطبيعى لمصر وإن أمكن تحقيق تكامل بين الدول الثلاث حيث يتوافر المال والأرض الصالحة للزراعة والعنصر البشرى - لأصبحوا قوة فعالة وعلى ضوء خطة التكامل مع السودان، وفى نفس الوقت وجود جالية مصرية متغلغلة فى جميع أوجه النشاط فى ليبيا رغم قطع العلاقات معها، فقد يرى بدء حوار مع ليبيا فى جامعة الدول العربية لإعادة فتح مكتب مصرى فى ليبيا لرعاية شؤون المواطنين المصريين هناك كخطوة أولى نحو تحسين العلاقات.

إنه ليس من مصلحتنا ترك ليبيا سواء للمعسكر الاشتراكى أو لغيره خاصة وأن ليبيا بدأت تتجه للحصول على الخبرات الفنية فى بعض المجالات من دول أخرى (الأردن - تركيا) وقد يمكن التوصل إلى صيغة نستوعب بها العقيد القذافى مع التغاضى عن تقلباته.

جـ- أما الفلسطينيون - فإن القضية الفلسطينية جزء لا يتجزأ من الأمن القومى لمصر، حيث ستظل إسرائيل - باعتبارها جسما غريبا زرعته القوى الكبرى فى المنطقة - هى العدو المباشر لمصر، حتى لو أمكن التوصل إلى تسوية سلمية، ومن ثم فإن دعمنا للموقف الفلسطينى فيه تقوية لموقفنا - إن سلما أو حربا - وأن شعور الفلسطينيين بالضياع، وبالحصار من كل جانب يدفعهم إلى تصرفات يائسة لا ينبغى أن تؤثر على موقفنا من الفلسطينيين حتى لا تزيد شعورهم باليأس.

إن حرصنا على منظمة التحرير رغم أخطاء بعض قادتها يقابل إصرار إسرائيل على رفض حتى مجرد الاعتراف بحق تقرير المصير للشعب الفلسطينى، بينما هو

شريك على الأقل فى الأرض التى أنشئت عليها الدولة اليهودية.

٦- ان ما قدمته مصر للدول العربية كثير ولكن إشعارها أننا نمن عليها أو أننا نادمون على ما قدمناه وأننا سئمنا الاستمرار فى هذا الدور سيؤدى ذلك إلى :

أ - نفور الشعوب العربية من هذا الأسلوب.

ب - كراهية الشعب المصرى لكل ما هو عربى.

والنتيجة عزل مصر عن مجالها الحيوى فى عصر سمته التكتلات والوحدات السياسية الكبيرة وفى مرحلة نحن فى أمس الحاجة فيها إلى وقوف الأمة العربية كلها بما تملك من ثروة وقوة إلى جانبنا فى مواجهة تحديات السلام الذى لن يتحقق بدون قوة عربية فعالة تسانده.

ثالثا - تعدد محاور الحركة فى مجال العلاقات الدولية

إن تعدد محاور حركة السياسة الخارجية المصرية فى مجال العلاقات الدولية يحقق لنا أهدافا منها :

١- تجنب الاستقطاب الدولى.

٢- محاصرة إسرائيل بالمؤيدين لقضيتنا وتحديد مؤيديها.

٣- الاحتفاظ بالمواقع التى اكتسبناها وعدم جعل أحدها بديلا للآخر.

وأن تحقيق ذلك يقتضى ما يلى :

١- توازن علاقاتنا مع القوتين العظميين على ضوء

أ - مواقع التأييد التى اكتسبناها فى الولايات المتحدة وأوروبا الغربية.

ب - انهاء العلاقة الخاصة التى كانت قائمة بيننا وبين الاتحاد السوفيتى.

جـ - تعدد مصادر سلاحنا.

وتحقيق توازن علاقاتنا مع كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى يقتضى الخروج بالتدريج من مرحلة الفتور الشديد التى تمر بها علاقاتنا بالاتحاد السوفيتى وغالبية دول أوروبا الشرقية - خاصة وأن الاتحاد السوفيتى قد أبدى

رغبته فى تنشيط العلاقات السوفيتية المصرية . واستجابتنا لذلك تنبع من عدة اعتبارات منها :

أ - دور الاتحاد السوفيتى فى أية تسوية لقضية الشرق الأوسط.

ب - رصيد الاتحاد السوفيتى فى تأييده قضايانا سياسيا وعسكريا.

جـ - دور الاتحاد السوفيتى فى المنطقة المحيطة بنا فى أفريقيا والعالم العربى.

د - الحد من جهود السوفيت الرامية إلى عزل مصر والتأثير على أوضاعها الداخلية؟

هـ - استخدام تحسين علاقاتنا مع موسكو للضغط على الولايات المتحدة الأمريكية.

ويمكن أن يبدأ ذلك بعودة السفير المصرى إلى موسكو ليبدأ اتصالات مع كبار المسؤولين السوفيت من هذا المنطلق.

٢- علاقاتنا بالدول الأفريقية

إن رصيدنا السياسى كبير فى أفريقيا ولكنه بدأ فى السنوات الأخيرة فى التناقص لصالح بعض الدول الأخرى (الجزائر - ليبيا) وليس الوقت متأخرا لتنشيط تحركنا السياسى والاقتصادى فى أفريقيا مع إعادة تأكيد الأسس الثابتة لسياستنا تجاه أفريقيا وهى :

أ - احترام الحدود الدولية القائمة والتى اقرتها منظمة الوحدة الأفريقية والأمم المتحدة وأننا لا نؤيد الانفصال أو أى اتجاه لتغيير الحدود.

ب - عدم التدخل فى الشؤون الداخلية للدول الأفريقية. وأن تدخل أطراف أخرى أفريقية فى شؤون جاراتها لا يستوجب تدخلنا وإنما يدفعنا إلى الوساطة لتسوية النزاع.

جـ- محاربة التفرقة العنصرية بجميع صورها وحكومات الأقلية البيضاء العنصرية ومناصرة حركات التحرير التى تقاومها خاصة فى ناميبيا وروديسيا وجنوب أفريقيا.

د - دعم التعاون العربى - الأفريقى.

هـ - مقاومة التدخل الأجنبى فى القارة سواء من الكتلة الشرقية أو الغربية.

إن الدول الأفريقية لديها حساسية مفرطة تجاه قضايا الحدود والتدخل فى الشؤون الداخلية، وأن ما تردد عن مساعداتنا للصومال وموقفنا من حادث الطائرة المصرية فى نيروبى، وقبلها نزاعنا مع ليبيا قد أثار كثيرا من المخاوف لدى الدول الأفريقية ويمكن أن نستغل بوادر تحسن العلاقات مع أثيوبيا ونهاية الصراع الصومالى الأثيوبى لإيفاد عدد من المبعوثين إلى دول القارة لتوضيح مواقفنا.

٣- أما بالنسبة لدول عدم الانحياز، فإن تحقيق التوازن فى علاقاتنا بالقوتين العظميين يساعد على تنشيط اتصالاتنا بدول مجموعة عدم الانحياز وتبادل الزيارات بين كبار المسؤولين المصريين ونظرائهم فى تلك الدول فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية.

٤- أما دول أوروبا الغربية فقد حققت سياستنا فيها نجاحا ملموسا ولكنه يحتاج إلى متابعة مع التركيز على دور دول أوروبا الغربية فى تحقيق التنمية الاقتصادية والتكنولوجية فى مصر والعالم العربى لأن دور أوروبا السياسى يسير على بعد خطوة وراء الولايات المتحدة الأمريكية، وهذا يتطلب دراسة وتجهيز مشروعات استثمارية إنتاجية تشارك الدول الأوروبية فى تنفيذها سواء بالخبرة أو المال لأن تجاربهم مع العالم العربى أظهرت أن كثيرا من القروض لم تستوعب فى مشروعات عملية.

خاتمة

١- لقد أثبتنا للعالم كله بما لا يدع مجالا للشك صدق نيتنا فى السعى نحو السلام العادل والدائم وقدمنا أقصى ما يمكن أن نقدمه فى سبيل ذلك وأبدينا استعدادنا التام لتقديم كل ما يضمن أمن إسرائيل فى مقابل انسحابها من الأراضى العربية المحتلة والإقرار بحق تقرير المصير للشعب الفلسطينى وقد تحملت مصر بسبب ذلك لوم الدول العربية وانقسامها بين مؤيد ومعارض وصامت.

ولم تتخل إسرائيل عن تعنتها وتوهمت أنها حققت نصرا سياسيا بتفاوض مصر المباشر معها وأن الواقع يبعد العرب عن مطالبهم السابقة ويحول انتباههم الى

مجرد المطالبة بتغيير الواقع الجديد الذى تخلقه إسرائيل على الأراضى العربية التى استولت عليها بالقوة.

٢- إن التعنت وعدم الواقعية والغرور الإسرائيلى الذى يعوق كل جهد نحو السلام قد يتطلب فى المرحلة الراهنة والقادمة تركيز اهتمامنا على:

أ - تدعيم الجبهة الداخلية.

ب - استعادة وحدة الصف العربى.

جـ- تحقيق توازن فى علاقاتنا مع كل من واشنطن وموسكو.

د- تنشيط اتصالاتنا بالمجموعات الدولية والإقليمية فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية وأوروبا الغربية.

هـ - اتباع خط إعلامى ودبلوماسى قوى ومتشدد يعتمد على

- مبادرة السلام المصرية وعدم استجابة إسرائيل لها.
- تحسين علاقات مصر مع جبهة الصمود (الرفض).
- اقتراب انتهاء مدة اتفاق فصل القوات فى سيناء (أكتوبر ١٩٧٨).

٣- إن إسرائيل لا تفهم ولا تستند إلا إلى منطق القوة معتمدة على أن الرأى العام العالمى، وإن كان يتعاطف مع الضعفاء فإنه لا يحترم إلا الأقوياء. ومن واقع تجربة حرب أكتوبر (تشرين الأول) سنة ١٩٧٣م فإن إسرائيل لن تفيق من أحلامها الصهيونية التوسعية إلا إذا عاملناها بنفس المنطق .. منطق القوة التى نملك والدول العربية الشقيقة الكثير من أسبابها.

الفصل العشرون

نحو تنفيذ السيناريو

عقب عودة الرئيس السادات من زيارة الولايات المتحدة فى فبراير (شباط) ١٩٧٨ شرعت الولايات المتحدة فى اتخاذ خطوات نحو تنفيذ المراحل الأولى من السيناريو الذى تم الاتفاق عليه بين الجانبين المصرى والأمريكى فى كامب ديفيد فوجه الرئيس الأمريكى الدعوة إلى رئيس الوزراء الإسرائيلى لزيارة واشنطن وكان المفروض أن تتم الزيارة فى أوائل شهر مارس (آذار) إلا أن أحداث لبنان أدت إلى تأجيلها إلى يوم ١٢ مارس (آذار).

وكان كارتر يستهدف من دعوة بيجن التأثير عليه وحثه على تعديل الموقف الإسرائيلى السلبى إلى موقف أكثر إيجابية مما يسمح باستئناف المباحثات المباشرة بين مصر وإسرائيل. وكان الجانب المصرى كما أشرت فى حينه قد اتخذ موقفا حازما أثناء مباحثات كامب ديفيد بأنه لن يعود إلى التفاوض مع إسرائيل بحال إلا إذا تقدمت إسرائيل بعناصر إيجابية تسمح بذلك وتعهدت الولايات المتحدة بالسعى لدى إسرائيل لتحقيق ذلك.

وليس من شك فى أن الجانب الأمريكى وبالذات الرئيس كارتر ووزير الخارجية فانس قد بذلا جهودا نشيطة صادقة تستند إلى نوايا حسنة لمحاولة تغيير الموقف الإسرائيلى وإخراجه من قالب الجمود الذى التزم به منذ زيارة الرئيس السادات للقدس، فقد التزم الجانب الأمريكى فى المباحثات التى جرت مع رئيس وزراء إسرائيل

ووزير خارجيتها بالمبادىء التى تضمنها بيان البيت الأبيض الصادر فى ٨ فبراير (شباط) بعد انتهاء زيارة الرئيس السادات من انطباق القرار رقم ٢٤٢ الخاص بالانسحاب على جميع الجهات وكان القصد من ذلك إبراز أن القرار يشمل الانسحاب الإسرائيلى من الضفة الغربية وغزة، وليس فقط من سيناء والجولان وهو ما كانت تسعى حكومة بيجن إلى تلافيه بكل السبل - كذلك الالتزام بحل القضية الفلسطينية من جميع وجوهها على أساس الحقوق المشروعة للشعب الفلسطينى ومشاركته فى تقرير مصيره حسب الصياغة التى أعلنها كارتر وعرفت باسم «صياغة أسوان» وأخيرا ما أورده البيان الأمريكى من عدم شرعية المستوطنات فى الأراضى المحتلة وأنها تمثل عقبة فى طريق السلام.

وسبق أن أشرت إلى مهاجمة وزير الخارجية فانس للمستوطنات فى ١٠ فبراير (شباط) بعد مغادرة الرئيس السادات للولايات المتحدة وإعلانه فى مؤتمر صحفى وجوب إزالتها كما قام كارتر بتحركات لمست العصب الحساس لدى إسرائيل، إذ اجتمع مع زعماء الجاليات اليهودية فى الولايات المتحدة وأوضح لهم تصلب الموقف الإسرائيلى وإعاقته لجهود السلام ونجح فى اجتذاب العديد من هؤلاء إلى صفه وإقناعهم بأن إسرائيل تعمل عن عمد لتقويض الفرصة التى أتاحتها مبادرة السادات للسلام. وكذلك اجتمع بلجنة مجلس الشيوخ للعلاقات الخارجية ولجنة الكونجرس للشئون الدولية، وتكلم معهما فى نفس الاتجاه وكسب تعاطف الكثيرين من الشيوخ والنواب.

ويقول ديان فى كتابه «الاختراق» وكان أهم حدث بعد الظهر هو ظهور الرئيس كارتر أمام أول اللجان .. ماذا سيقول؟ وكيف سيقوله؟ كنا متخوفين وسريعا ما شعرنا بأنه كان لدينا سبب جيد لذلك، فبعد أن غادرنا البيت الأبيض بقليل قام جهاز المعلومات التابع لوزارة الخارجية والبيت الأبيض بحملة واسعة طرحت موقفنا بشكل معاد يظهر إسرائيل بشكل فظ قاس ومتمرد، رافض للمقترحات التى يمكن أن تجلب السلام. واتجهت الصحافة الأمريكية إلى مسايرة رأى حكومة الولايات المتحدة وحتى أصدقاء إسرائيل فى مجلس النواب والشيوخ - يهود وغير يهود - ساندوا الرئيس فى إطرائه للسادات ونقده لإسرائيل وتوترت العلاقات بين كارتر وبيجن للغاية. وفشلت محاولات فانس وديان للاتفاق على إعلان للمبادىء حول القضية الفلسطينية.

مستقبل الضفة وغزة ..

وفى ٢٦ أبريل (نيسـان) ١٩٧٨ وصل ديان إلى واشنطن من جديد تلبية للدعوة التى وجهها إليه وزير الخارجية الأمريكى فانس ودارت بينهما محادثات محورها مستقبل الضفة الغربية وغزة وبمعنى آخر مستقبل الشعب الفلسطينى. وكان الموقف الإسرائيلى يقوم على أساس تنفيذ مشروع الحكم الذاتى الذى رفضته مصر عندما قدمه بيجن فى الإسماعيلية.

أما الولايات المتحدة فكانت تعتبره يصلح مبدئيا كمنطق للتفاوض - وكان المشروع الإسرائيلى يطالب بفترة انتقالية مدتها خمس سنوات يقوم فيها حكم إدارى ذاتى فلسطينى تحت السيطرة السياسية والعسكرية الإسرائيلية وبمقتضاه لا يجوز لأى طرف عربى أو إسرائيلى أن يطالب بالسيادة على الضفة الغربية وقطاع غزة طوال مدة السنوات الخمس الانتقالية.

ومن الواضح أن السبب الذى تطلب من أجله إسرائيل تعليق المطالبة بالسيادة خلال الفترة الانتقالية هو أنه ليس لديها أى سند شرعى تستند إليه فى المطالبة بالسيادة ولا تستطيع أن تبنى ذلك على أساس احتلالها غير المشروع لهذه الأراضى أو على أساس ادعاءاتها الواهية فى أن الضفة الغربية وغزة كانتا أرض أجدادهم فى غابر الزمان، بينما تستطيع الأردن المطالبة بالسيادة على أساس أن تلك الأراضى كانت جزءا من المملكة الأردنية الهاشمية منذ قامت بضمها سنة ١٩٤٨ وإن كان لطرف أن ينازع الأردن فى مطلب السيادة على هذه الأراضى ، فهذا الطرف هو الشعب الفلسطينى وحده، وأما إسرائيل فخارج الموضوع تماما.

أما موقف الأردن فى المطالبة بالسيادة فهو لا ينقص فى أقل القليل عما تدعيه إسرائيل من سيادة على الأراضى الفلسطينية التى تم لها الاستيلاء عليها بالقوة خارج نطاق الأراضى المخصصة للدولة اليهودية بمقتضى قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة والذى قضى بتقسيم فلسطين إلى دولة عربية ودولة يهودية والذى كان شهادة ميلاد إسرائيل.

أما الحق الأصيل بلا منازع فى السيادة على أراضى الضفة الغربية وغزة فهو حق الشعب الفلسطينى صاحب الأرض التى يعيش عليها منذ آلاف السنين والذى قضى قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة سالف الذكر بتخصيصها للدولة الفلسطينية بنفس الأداة التى خصص بها أراض للدولة اليهودية.

إذن فما تسعى إليه إسرائيل من تعليق السيادة لمدة السنوات الخمس إنما يرجع إلى نواياها التوسعية الخبيثة فى اغتصاب هذه الأراضى من أصحابها الشرعيين عن طريق استغلال هذه الفترة الزمنية فى اتخاذ إجراءات وإنشاء أوضاع من شأنها استمرار سيطرتها الفعلية على الضفة الغربية وغزة إلى أن تتمكن من ضمها فى النهاية بشكل أو بآخر.

وبمعنى آخر أن إسرائيل تطلب أن يمتنع صاحب الحق عن المطالبة به ليعطيها الوقت والفرصة لتهيىء نفسها لتجرده منه وتغتصبه لنفسها ولا أعلم ما هو أكثر بجاحة من ذلك.

وأعود بعد هذا الاستطراد إلى المباحثات التى جرت بين وزير الخارجية الأمريكى ووزير الخارجية الإسرائيلى بشأن مستقبل الضفة الغربية وغزة. فعبثا حاول فانس الحصول على إجابة واضحة فى هذا الشأن من ديان الذى ظل يراوغ ويحاور بدعوى أن الإجابة عن هذا السؤال سابقة لأوانها وأنه يمكن لمن يشاء من الأطراف أن يطلب مناقشة الموضوع بعد انتهاء السنوات الخمس.

إلا أن ذكاء سايروس فانس لم يكن يخفى عليه النوايا الإسرائيلية المبيتة ولا هو قبل هذا اللف والدوران فأنهى المباحثات بأن وجه للحكومة الإسرائيلية سؤالين : هل إسرائيل مستعدة بأن تتعهد فى نهاية الفترة الانتقالية (خمس سنوات) بأن موضوع السيادة على الضفة الغربية وغزة سيبت فيه؟ وإذا كان الرد بالإيجاب فما هى الكيفية التى سيتم بها اتخاذ القرار؟

وظلت الحكومة الإسرائيلية تماطل فى الرد يوما بعد يوم وأسبوعا بعد أسبوع حتى اضطرت فى النهاية إلى تقديمه إلى الحكومة الأمريكية.

وكان الرد الإسرائيلى غامضا مائعا وملتويا إلى حد أن وصفه بعض المسؤولين الأمريكيين بأنه «ليس برد».

تفاؤل مشوب بالحذر..

كان الرئيس السادات سعيدا ومتفائلا بسبب الخلاف الذى نشب بين الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل والذى كان ولا شك نتيجة للمباحثات الناجحة التى قام بها فى رحلته إلى الولايات المتحدة.

أمـا نحن فى وزارة الخـارجـيـة فكنا ننظر بعين الارتيـاح إلى الخـلاف الأمـريكى الإسـرائيلى ولكنه ارتيـاح مشـوب بالحذر والترقب فلم يكن يغيب عنا أن مـعركة السـلام ستستغرق وقتا طويلا.

ولم نكن من السذاجة بحيث نقلل من مـدى النفوذ الصـهيونى فى الولايات المتحدة وقدرة إسرائيل على التأثير بما يحقق تجاوز الخلافات الأمريكية الإسرائيلية، خاصة وأن الرئيس كارتر كان فى حاجة إلى اللوبى اليهودى وإلى أصوات الكثيرين من مؤيدى إسرائيل فى الكونجرس لإقرار معاهدة بنما، وكذلك مشروعه للطاقة وكلاهمـا كان يلقى معارضة قوية بالإضافة إلى قرب موعد انتخابات الكونجرس فى نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩٧٨ وكلها مناسبات تمرست إسرائيل على اتقان استغلالها عن طريق منظماتها فى الولايات المتحدة للصيد فى الماء العكر.

غير أن الخلاف الإسرائيلى الأمريكى كان يمثل بالنسبة لنا شيئا آخر مـهما وهو أنه يفسح لنا مزيدا من الوقت لتدعيم مركزنا التفاوضى على أسـاس العناصر التى سبق الإشـارة إليـهـا، ويؤكد لنا مـن جديد سلامـة مـوقـفنـا من وجـوب تحاشى الدخـول فى مفاوضات ثنائية مع إسرائيل وتحميل الولايات المتحدة عبء تحريك الموقف الإسرائيلى شريطة أن تبدو مصر دائما أنها لا تغلق الباب أمام السلام ولم تضع حدا لجهودها فى سبيله.

ومن الناحيـة الأخرى فقد بدا أن الرئيس كارتر يتجه إلى تنفيذ السيناريو الذى تم الاتفاق عليه بين مصر وأمريكا فى كامب ديفيد فى شهر فبراير (شباط) مما يستدعى - إذا كانت واشنطن تنوى التقدم بأفكارها عن التسوية - أن نبادر بالتنسيق معها من الآن قبل أن تبلور هذه الأفكار فى صورتها النهائية ضمانا لأن تكون متفقة قدر الإمكان مع الموقف المصرى.

النقاط التسع الأمريكية ..

وبالفعل كان الدكتور غربال سفيرنا فى واشنطن قد بعث إلينا بورقة تتضمن تسع نقاط تحوى تصورا أوليا أمريكيا لما يمكن أن يكون نواة فيما بعد لمشروع أمريكى تتقدم به الولايات المتحدة بعد أن تكون مصر قد تقدمت بمشروعها الخاص بالضفة الغربية وغزة حسبما تم الاتفاق عليه فى كامب ديفيد فى شهر فبراير (شباط).

ثم لم يلبث أثرتون أن حضر إلى القـاهرة فـى ٢٠ أبريل (نيسـان) حـيث قـابلتـه مع السفير أيلتس وأملى علينا نص النقاط التسع سالفة الذكر وقد ذكرت لأثرتون أن هذه

النقاط على ما قد يكون فيها من بعض نواح إيجابية إلا أنها صيغت حول مشروع مناحم بيجن للحكم الذاتى الذى قدمه فى الاسماعيلية ومتشربه بأفكاره وقلت إننا نرفض مشروع بيجن تماما وبالتالى فان الأفكار التى تضمنتها النقاط التسع بعيدة جدا عما يمكن أن نقبله وأنها لا ترقى إلى ما نتوقعه من الولايات المتحدة عند تقدمها بمشروعها.

ورد أثرتون أن الورقة التى قدمناها لهم فى أوائل مارس (آذار) الماضى أثناء زيارته الأخيرة لمصر بشأن الضفة الغربية وغزة تعتبر أساسا طيبا من وجهة نظرنا إلا أنه يغلب عليها طابع العموم ولا تتضمن تفصيلات وكانت الورقة المصرية تدور حول انسحاب إسرائيل من الضفة الغربية وقطاع غزة وضمانات لكفالة الأمن للأطراف، وأنهم ربما استقوا بعض النقاط مما ورد فى مشروع بيجن الذى كان تحت أيديهم وغنيا بالتفصيلات. وحثنا على التقدم بمشروع أكثر تفصيلا خاصة فيما يتعلق بضمانات الأمن وقد أجبته بأننا سندرس الأمر. إلا أنى أود قبل كل شئ أن أؤكد أمرين أساسيين:

الأول : إنى أود أن أشرح له تصورى للعمود الفقرى فى أى مشروع تتقدم به الولايات المتحدة فيجب أن يستبعدوا تماما من تفكيرهم التقدم بمشروع وسط بين مشروع اسرائيلى وآخر عربى حول الضفة الغربية وغزة يكون نوعا من الخلط بينهما إذ أن ذلك لن ينتج إلا مسخا مشوها لن يؤدى إلى شئ.

وقلت له : أنه عندما تتقدم الولايات المتحدة الأمريكية بمشروع فيجب أن يكون قائما على أساس المواقف الأمريكية الرسمية المعلنة والثابتة فى الأمم المتحدة بمعنى :

- أنه فيما يتعلق بالانسحاب المنصوص عليه فى القرار ٢٤٢ فيجب أن يكون من جميع الأراضى المحتلة فيما عدا تعديلات طفيفة فى الحدود. فهذا هو الموقف الأمريكى الثابت والمعلن.

- تأكيد الموقف الأمريكى بعدم الاعتراف بالقرار الإسرائيلى الخاص بضم القدس.

- الالتزام بقرار الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم ١٩٤ الخاص بحق اللاجئين الفلسطينيين الذين أجبرتهم إسرائيل فى حرب ١٩٤٨ على ترك بلادهم فى العودة أو التعويض عن أملاكهم والذى صوتت أمريكا فى صالحه واستمرت فى ذلك على مدى السنين.

– حل القضية الفلسطينية من جميع وجوهها على أساس الحقوق المشروعة للشعب الفلسطينى، بما فى ذلك مشاركته فى تقرير مصيره وهى الصيغة التى أعلنها الرئيس كارتر فى أسوان فى يناير (كانون الثانى) الماضى.

– الموقف الأمريكى الثابت بشأن عدم شرعية المستوطنات الإسرائيلية المقامة فى الأرض المحتلة.

وهكذا فان المشروع الأمريكى عندما يطرح يجب أن يعكس تعهدات الولايات المتحدة السابقة كدولة عظمى تحترم وتتقيد بمواقفها الثابتة المعلنة.

والأمر الثانى : الذى أكدت عليه هو أن تقوم الولايات المتحدة قبل التقدم بمشروعها بعرضه علينا لمناقشته والتشاور فيه.

وعقب أثرتون بأن الأمر الأول هو منطق يصعب عليه أن يجادل فيه، أما بالنسبة للأمر الثانى فقد أكد بأنهم سيقومون بعرض مشروعهم عندما ينتهون من إعداده علينا لمناقشته قبل التقدم به.

كيف تسرب السر..

ولعله من المناسب هنا أن أشير إلى أن ما اتفق عليه فى كامب ديفيد من أنه فى حالة تعذر الحركة وجمودها بسبب رفض مصر وإسرائيل – كل لمشروع الآخر – تتقدم الولايات المتحدة بمشروع أمريكى كان على أكبر درجة من السرية بيننا وبين الأمريكيين. ذلك أنه كان ما يطالب به الرئيس السادات وهو ما كان يعبر عنه بضرورة قيام الولايات المتحدة بدور الشريك الكامل فى المفاوضات بينما كانت إسرائيل تعمل بكل السبل على أن يظل التفاوض بين مصر وإسرائيل ويقتصر الدور الأمريكى على دور الوسيط أو السمسار الشريف، كما كانت تعبر عنه. وكانت نظرية إسرائيل أن يسهل عليها رفض أى مطلب مصرى لا يروق لها بينما الأمر ليس بهذه السهولة إذا جاء من قبل الولايات المتحدة التى تعتمد عليها إسرائيل فى كل شىء كما كانت إسرائيل تدرك أن مشروعا أمريكيا قد يعكس المواقف الأمريكية بالنسبة لقضية الشرق الأوسط التى أشرت إليها أو بعضها كما سيعكس بالضرورة مصالح الولايات المتحدة الحيوية فى العالم العربى وعلاقاتها الوطيدة بالدول العربية المعتدلة. وهو ما يضع إسرائيل فى موقف محرج بين أن تقبل ما تحكم به الولايات المتحدة ويكون دون مطالبها الجشعة وبين أن ترفضه لتصبح على خلاف مع الولايات المتحدة وهو ما لا تقدر عليه.

وكانت الخشية الأمريكية من تسرب ما اتفق عليه فى كامب ديفيد فى هذا الشأن هو أن تتعرض إمكانية تقدمها فى مرحلة ما بمقترحات أو مشروع أمريكى للإجهاض، وتسلب منها إذا كان سيتعرض الجانب الأمريكى فى هذه الحالة لضغوط من قبل الجماعات اليهودية والصهيونية ورجال الكونجرس المؤيدين لإسرائيل لا قبل له بها وتموت الفكرة فى مهدها مما يصعب معه أن تقوم لها قائمة بعد ذلك.

وقد حدث بالفعل أن تسرب إلى الصحافة ما يفيد أن كارتر وعد بالتقدم بمقترحات أمريكية في وقت ما. وقامت الدنيا وقعدت، وقد بادرنا بنفيه من ناحيتنا كما قامت الولايات المتحدة بنفس الشيء ولا أدرى مصدر الخبر، فقد كان ما دار فى كامب ديفيد سرا مغلقا فى صدور من حضروا الاجتماع وكانوا محصورين بالاسم سواء من الجانب المصرى أو من الجانب الأمريكى، إلا أن الأمور ما لبثت أن هدأت ربما لالتزام الطرفين بنفيهما ولأنه كان يصعب على إسرائيل تصور أن يقدم رئيس أمريكى على مثل هذه المخاطرة بالنسبة لها مما يعرض موقفه فى الداخل للتآكل.

اجتماع الغردقة..

حدد الرئيس السادات ظهر يوم ٢٢ أبريل (نيسان) لمقابلة أثرتون فى الغردقة على شاطىء البحر الأحمر وكان ينزل وقتها فى أحد الشاليهات الملحقة بفندق شيراتون.

وقد سافرت إليها بالطائرة فى الصباح الباكر وكان يصحبنى السفير أسامة الباز والسفير أحمد ماهر.

وفى التاسعة صباحا ذهبت لمقابلة الرئيس وكان يجلس معه السيد حسنى مبارك، وكان الرئيس السادات يبدو مستريحا وفى حالة نفسية طيبة. فاغتنمت الفرصة وعرضت عليه الموافقة على تعيين السيد محمد رياض وزير الدولة للشؤون الخارجية السابق – والذى اعتبره السادات مستقيلا لتردده فى السفر معه إلى القدس فى ١٩ نوفمبر (تشرين الثانى) سنة ١٩٧٧ بعد استقالة وزير الخارجية اسماعيل فهمى – فى منصب الأمين المساعد للجامعة العربية وكان الأمين العام محمود رياض قد طلب منى التحدث مع الرئيس فى ذلك نظرا لقرب انتهاء عقد الأمين المساعد سيد نوفل وعدم رغبة الأمين العام فى تجديده، وبعد تردد بعض الوقت وافق السادات.

ثم عرضت عليه النقاط التسع التى حملها أثرتون والذى سيقوم بعرضها عليه عند مقابلته له. وأبديت ملاحظاتى المبدئية عليها. وأبلغته رأيى فى وجوب أن يتطابق أى

مشروع أمريكى يقدم مع المواقف الأمريكية المعلنة من بنود قضية الشرق الأوسط. كما استرعيت نظره إلى وجوب التأكيد على أثرتون بأن تقوم الولايات المتحدة بالتشاور معنا قبل التقدم بأى مشروع كما قدمت له مذكرة بملاحظاتنا الأساسية على النقاط التسع ثم استأذنت فى الانصراف إلى أن يحين موعد المقابلة.

وخرجت إلى الشاطىء وكان الجو صحوا مشمسا والنسيم منعشا، وكان السكون يخيم على المكان لا يقطعه إلا صوت الأمواج الصغيرة وهى تتلاشى على رمال الشاطىء فى نغم غامض رتيب، والبحر يمتد على مرمى البصر فى بساط أزرق جميل تتناثر عليه زوارق الصيد هنا وهناك.

خلعت سترتى ورباط عنقى وحذائى ومشيت على حافة الشاطىء حيث تتقدم الأمواج تعانق الرمال ثم ترتد لتعود من جديد فى حركة أزلية لا تنتهى، غير مكترثة بما يجرى على وجه الأرض بين البشر من شقاء وصراع.

وشعرت لأول مرة منذ توليت وزارة الخارجية بالبهجة والسعادة تغمرنى وأنا بعيد عن الأوراق والمناقشات والتليفونات والاجتماعات وعادت بى الذكريات إلى الماضى حيث كانت تتتابع تجارب الحياة الحلو منها ثم المر ثم الحلو مرة أخرى وهكذا. وقت أن كنت طليقا أنعم بالحرية قبل أن تكبلنى هذه المسؤولية الخطيرة دون خيار منى والتى باتت تسيطر على فكرى وتلتهم كل وقتى وتأكل صحتى وتعصف بأعصابى. ومضت ساعتان لم أشعر بمرورهما إلا بعد أن استدعيت لحضور اجتماع الرئيس السادات بأثرتون.

حضر الاجتماع من الجانب الأمريكى أثرتون والسفير الأمريكى أيلتس ومن الجانب المصرى السفير أسامة الباز والسفير أحمد ماهر. وعرض أثرتون النقاط الأمريكية الواحدة بعد الأخرى وكان الرئيس السادات يبدى ملاحظاته على كل منها ويسألنى عن رأيى فيها ثم يعود ويقول لأثرتون نعم هذه النقطة يجب حذفها وتلك يجب تعديل لغتها وصياغتها.

وشرح أثرتون أن النقاط التسع لا تشكل مشروعا وإنما هى مجرد تصور عام بدون تحديد وأنهم حرصوا على عرضها علينا لمناقشتها والاستماع إلى رأينا وأن أهم ما يستهدفونه هو تحديد مصير الضفة الغربية وغزة فى النهاية (بعد الفترة الانتقالية) وهو ما تعمد إسرائيل إلى التهرب منه والمراوغة فيه بكل الطرق.

وهكذا مضى الاجتماع فى جو طيب بناء، وفى النهاية أكد الرئيس السادات لأثرتون على وجوب عرض أى مشروع أمريكى علينا للتشاور والتنسيق قبل طرحه. وذكر له

بوضوح أنه يفضل ألا تتقدم الولايات المتحدة بمشروع على الاطلاق على أن تتقدم بمشروع يضر بالقضية العربية ويوقعنا فى الحرج ويؤثر على موقف الولايات المتحدة فى العالم العربى جميعه.

وقد وعد أثرتون بعرض أى مشروع علينا ووافق على رأى الرئيس فى خطورة التقدم بمشروع لا يرقى إلى تحقيق أساسيات حل النزاع العربى الإسرائيلى.

الرد على أثرتون..

عند عودتنا إلى القاهرة كلفت ثلاثة من مجموعة العمل المصرية هم السفراء أسامة الباز وعبد الرؤوف الريدى - مدير إدارة التخطيط بالوزارة - وأحمد ماهر السيد بالاجتماع بالمستر أثرتون ومساعديه وذلك لإجراء مناقشة تفصيلية للجوانب الفنية والقانونية والصياغات المتصلة بالنقاط التى شملها حديث الرئيس السادات مع المبعوث الأمريكى أثرتون فى الغردقة، وقد عقدت المجموعتان اجتماعين سريين فى يومى ٢٣ و٢٤ أبريل (نيسان) وحرص الجانب المصرى منذ البداية على تأكيد الطبيعة الفنية لهذه المناقشات بحيث لا تشكل محصلتها أى ارتباط من جانبنا.

وكانت المناقشات طيبة ونجح الجانب المصرى فى إقناع الجانب الأمريكى بوجهات نظره فى غالبية النقاط ووعد الجانب الأمريكى بأخذ ملاحظاتنا وآرائنا فى الاعتبار عند إعداد مشاريعه وقدمت للرئيس مذكرة بما تناولته مناقشة الجانبين.

كذلك بعث الرئيس السادات برسالة شخصية إلى الرئيس كارتر فى ٢٣ أبريل (نيسان) حملها أثرتون معه عند عودته إلى واشنطن اقتبس هنا بعض فقراتها.

« ... لقد دار بينى وبين السفير أثرتون حديث طويل سيعرضه عليك بالكامل. ولقد أحاطنى بالنقاط التى تشكل الخط العام لأفكار حكومتكم بشأن الضفة الغربية وغزة. وأرجو أن أخبرك - بروح المصارحة والصداقة - السائدة بيننا أن مثل هذا الاقتراح الأمريكى يعقد المسائل بالنسبة لنا. وسيكون له انعكاسات سلبية فى العالم العربى. فبدلا من أن يساهم فى توسيع دائرة المفاوضات وتشجيع أطراف أخرى للمشاركة فيها والتخلى عن موقفهم - انتظر لترى - فسيشجع ذلك دولا عربية كالسعودية لاتخاذ موقف سلبى. كما سيمد ذلك بالذخيرة أولئك الذين يحاولون تخريب مساعينا نحو السلام».

«وإذ فهمت من السفير أثرتون أن هذه الأفكار تعكس حقيقة المشروع الوحيد - المطروح رسميا وهو مشروع بيجن للحكم المحلى - فقد أذنت له أن يقدم إلى الجانب الإسرائيلى فى الوقت الملائم، اقتراحاتنا بشأن الضفة الغربية وغزة المقدمة للولايات المتحدة فى يوم ٦ مارس (آذار) ١٩٧٨ .. وأنا أعرف أن اقتراحاتنا ذات طبيعة عامة ولكنك تدرك أنها لا يمكن أن تكون أكثر تحديدا حيث إن هذا هو حد تفويضنا، لأننا لسنا الدولة العربية الوحيدة المعنية بحل القضية الفلسطينية. وأعتقد مع ذلك بأنها ستكون كافية للسماح للولايات المتحدة لإعداد حل وسط يلتزم بموقفك المعلن بشأن المشكلة وعلى وجه الخصوص بالبيان الذى ألقيته فى أسوان..»

أسباب التأجيل !!

وكان هناك اتفاق بين مصر والولايات المتحدة على أن تؤجل هذه الأجهزة التقدم بمقترحاتها حول تسوية القضية إلى ما بعد نهاية شهر مايو (أيار) لسببين رئيسيين :

الأول : أن تكون زيارة مناحم بيجن رئيس الوزراء الإسرائيلى للولايات المتحدة بمناسبة الاحتفال بمرور ثلاثين عاما على إقامة دولة إسرائيل قد تمت. وكان بيجن يعول على استغلال الجو العاطفى الذى يحيط بهذه المناسبة بالنسبة لليهود الأمريكيين لتعزيز مركزه الذى كان قد أصابه التزعزع بين الجماعات والمنظمات اليهودية فى الولايات المتحدة، حيث نجحت الإدارة الأمريكية فى إظهاره بمظهر الرافض لفرصة السلام التاريخية التى أتاحتها مبادرة الرئيس السادات - ليستخدم ذلك فى الضغط على الادارة الأمريكية لتجاوز الخلاف الذى نشب بينه وبينها.

أما السبب الثانى فيعود إلى أن تكون الفترة الزمنية المحددة للكونجرس الأمريكى للاعتراض على صفقة الأسلحة الأمريكية للمملكة العربية السعودية ومصر قد انقضت دون مباشرة الكونجرس الأمريكى لحقه فى الاعتراض.

وكانت هذه الصفقة تتضمن شراء المملكة العربية السعودية لطائرات فانتوم من طراز (إف ١٥) وخمسين طائرة لمصر من طراز (إف ٥) - العتيق والذى لا قبل له بالتصدى للطائرات الحديثة - إلا أن الرئيس السادات كان مهتما بتمرير الصفقة حتى يضع - على حد قوله - سابقة لمبدأ تزويد الولايات المتحدة لمصر بالسلاح.

وغنى عن البيان أن إسرائيل كانت تسعى بكل جهد لعدم إتمام هذه الصفقة إلا أن جهودها باءت بالفشل فى النهاية.

الخروج عن السيناريو..

إلا أنه بعد عودة أثرتون إلى واشنطن وقبل نهاية شهر أبريل (نيسان) حملت إلينا الأنباء تطورا مقلقا، أوضح بجلاء ضعف حصانة مواقف الإدارة الأمريكية إزاء مراكز القوى الصهيونية المعززة لإسرائيل فى الولايات المتحدة.

فكما اسلفت القول كان الخلاف قد احتدم بين كارتر وبيجن حول عدة أمور منها مدى تطبيق القرار رقم ٢٤٢ وانتهى الأمر وقتها إلى أن وجهت الحكومة الأمريكية إلى الحكومة الإسرائيلية السؤالين اللذين أشرت إليهما بشأن مصير الضفة الغربية وغزة فى نهاية مدة السنوات الخمس الانتقالية. وكان الأمر المنطقى أن تنتظر الولايات المتحدة رد إسرائيل على هذين السؤالين قبل اتخاذ أية مواقف أو خطوات جديدة.

إلا أنه يبدو أن الرئيس كارتر لم يلبث أن أصابه الذعر وارتعدت فرائصه بسبب زيارة مناحم بيجن للولايات المتحدة للاشتراك فى احتفالات الجاليات اليهودية بذكرى ثورة اليهود فى وارسو، وكذلك بمرور ثلاثين عاما على إقامة دولة إسرائيل.

فسارع كارتر بعد وصول بيجن إلى نيويورك وقبل أن يقابله فى الحفل الذى أقامه فى البيت الأبيض بهذه المناسبة والذى دعا إليه أكثر من ألف ومائتى حاخام وزعيم يهودى - سارع إلى الإدلاء بتصريحات نشرتها جريدة (النيويورك تايمز) فى ٣٠ أبريل (نيسان) ١٩٧٨، عبر فيها عن اعتقاده بأن «تسوية مشكلة الشرق الأوسط ستتحقق دون إقامة دولة فلسطينية مستقلة فى الضفة الغربية، وأن مستقبل الضفة الغربية سيرتكز بدرجة أساسية على المشروع الذى أعده مناحم بيجن لمنح الحكم الذاتى للفلسطينيين العرب، وأن التسوية الدائمة لمشكلة الشرق الأوسط، لن تتطلب انسحابا كاملا من الأراضى العربية المحتلة، وأن الاعتبار الأهم فى سياسته والذى سيستمر هو أمن إسرائيل فوق كل شىء».

وكانت هذه التصريحات تعنى تبنى الرئيس الأمريكى لمواقف تساير مطامع إسرائيل وتناقض الحقوق العربية على طول الخط، بل تناقض المواقف الأمريكية المعلنة والمسجلة بشأن تسوية النزاع العربى الإسرائيلى منذ حرب ١٩٦٧.

وكان أخطر ما فيها أن مناحم بيجن سيسجل على كارتر هذه التصريحات وسيحملها بتفسيرات ربما أوسع مما كانت تقصده ولن يستطيع كارتر منه فكاكا.

والأكثر من ذلك أن تلك التصريحات كانت تمثل خروجا على السيناريو الذى اتفق عليه بين مصر والولايات المتحدة فى كامب ديفيد فى شهر فبراير (شباط) الماضى،

والذى التزمت الولايات المتحدة بمقتضاه بالضغط على إسرائيل حتى تعتنق تحولا إيجابيا فى موقفها المتعنت بما يسمح باستئناف المباحثات التى قطعت أثناء اجتماع اللجنة السياسية فى القدس. فقد كانت هذه التصريحات أبعد ما تكون عن الضغط على إسرائيل بل بالعكس كان فيها تشجيع واضح على استمرارها فى مواقفها الجامدة المتعنتة.

كذلك كان السيناريو المتفق عليه يتطلب قبل تقدم الولايات المتحدة بأى موقف أمريكى الانتظار حتى تتقدم مصر بمشروع خاص بالضفة الغربية وغزة حتى يكون أمام الولايات المتحدة مشروعان أحدهما إسرائيلى والآخر مصرى قبل أن تتقدم هى بمشروعها.

وأود الاشارة هنا إلى أن تلك التصريحات كانت مثلا بارزا على التذبذب والتأرجح الذى يحيط بشخصية الرئيس الأمريكى كارتر، ما بين الحفاظ على الصورة (Image) التى خاض بها انتخابات الرئاسة الأمريكية فى ١٩٧٦، صورة الرجل الصلب ذى المبادىء، المتمسك بالعدالة والمثل، المؤمن والمنادى بحقوق الإنسان فى كل مكان، وبين ما يعتمل فى أعماق نفسه من حرص وطموح وتلهف على عدم تعريض مركزه الداخلى لما قد يؤثر على فرص إعادة انتخابه رئيسا للولايات المتحدة بعد انتهاء مدة رئاسته الأولى والبقاء فى البيت الأبيض. وذلك باسترضاء إسرائيل وبالتالى كسب تأييد جماعات الضغط الصهيونى المساندة لها، ولو سبب ذلك أضرارا بالمصالح الأمريكية فى المدى الأبعد ونقضا لمبادئه وتغافلا وتعاميا عن حقوق الإنسان بالنسبة لمستقبل شعب بأكمله يعيش هناك فى فلسطين ضحية لظلم ومآسى الاحتلال الإسرائيلى غير المشروع.

ملامح تحت السطح ..

وقد استدعيت السفير الأمريكى أيلتس على الفور وطلبت منه النص الكامل للتصريحات التى نشرتها (النيويورك تايمز) منسوبة إلى الرئيس الأمريكى كارتر وإيضاحا لما تعنيه هذه التصريحات الغريبة وأكدت له من جديد أن موقف مصر الثابت هو أن جوهر مشكلة الشرق الأوسط هو المشكلة الفلسطينية وأن مصر ترفض مشروع بيجن للحكم الذاتى الذى سيستهدف إبقاء السيطرة الإسرائيلية على الضفة الغربية وغزة رفضا باتا. وترى أن هذا المشروع يعكس بوضوح النوايا التوسعية لحكومة بيجن وخرقها لجميع المواثيق والقرارات الدولية. وأن حل القضية الفلسطينية يستلزم إنسحاب

إسرائيل التام من جميع الأراضى العربية المحتلة فى ١٩٦٧ وتمكين الشعب الفلسطينى من ممارسة حقوقه المشروعة وعلى رأسها حقه فى تقرير مصيره.

وأبلغت السفير أيلتس بأن تصريحات كارتر فيها تراجع عن المواقف الأمريكية التى سبق أن أعلنتها. كما أبلغته بمخالفة هذه التصريحات لما تناولته المحادثات فى كامب ديفيد والسيناريو الذى اتفق عليه فيها.

وأوضحت له أنه يستحيل علينا إعادة التفاوض مع إسرائيل فى ظل مواقفها المتجمدة أو فى ظل تصريحات كارتر التى ستزيدها تعنتا. وشعرت من المقابلة بأن أيلتس لم يكن سعيدا على الإطلاق بتصريحات كارتر.

وقد حضر أيلتس لمقابلتى فى اليوم التالى وأبلغنى بأن ما نسب من تصريحات للرئيس كارتر لا يعنى تغييرا فى الموقف الأمريكى كما تضمنه البيان الصادر من البيت الأبيض فى ٨ فبراير (شباط) عقب زيارة الرئيس السادات لواشنطن.

كما أكد لى بصفة خاصة أن الولايات المتحدة لا تعتبر مشروع بيجن بشأن الحكم الذاتى للضفة الغربية وغزة أساسا صالحا للتسوية ، حيث إنه لا يتضمن إتاحة الفرصة للشعب الفلسطينى للمشاركة فى تقرير مستقبله. وقد أخبرت السفير بأن الحكومة المصرية ستدرس الإيضاحات والتأكيدات الأمريكية التى قدمها وسوف تقرر على ضوء ذلك ما إذا كانت تعتبرها كافية.

وقد عرضت الموضوع على الرئيس السادات واقترحت عليه أن نعد له خطابا قويا منه إلى الرئيس كارتر فى صدد تلك التصريحات إلا أنه ذكر لى أن ما نقله لى السفير الأمريكى من تأكيدات فيه الكفاية ولا داعى لتصعيد الموضوع.

أما بالنسبة لى فقد اعتبرت هذه التصريحات مؤشرا إلى عدم إمكان الاطمئنان للرئيس كارتر وبدت لى تصريحاته تشكيلا لملامح التفكير الأمريكى الكامنة تحت السطح بشأن تسوية مشكلة الشرق الأوسط وأخذت ذلك فى اعتبارى.

الفصل الحادى والعشرون

وأين نذهب إذا فشلت المبادرة ؟

فى هذه الأثناء انتهت مجموعة العمل المشكلة من السفراء أسامة الباز ونبيل العربى مدير الشئون القانونية بالوزارة وعبد الرؤوف الريدى مدير ادارة التخطيط وأحمد ماهر السيد من إعداد مشروع بشأن الضفة الغربية وقطاع غزة وكان المشروع مبنيا على فكرة طرحها الرئيس السادات فى حديث له مع صحيفة (نيويورك تايمز)، أساسها أن تخضع الضفة الغربية للإدارة الأردنية - وليست كجزء من الأردن، كما كان الحال قبل ١٩٦٧ - وأن يعود قطاع غزة إلى الإدارة المصرية كما كان قبل حرب ١٩٦٧، وذلك بعد انسحاب إسرائيل.

وكنت - رغم تحفظى السابق بعدم الخوض فى القضية الفسطينية إلا من حيث إقرار المبادئ - مرتاحا إلى هذا المشروع لأنه يقطع الطريق على إسرائيل فى مناقشة حق تقرير المصير للشعب الفلسطينى فهو حق مشروع أصيل ثابت له بمقتضى المواثيق الدولية، كما هو ثابت بالنسبة لكل الشعوب ولا شأن لإسرائيل به فهو لا يستمد من موافقتها عليه ولا يسقط من معارضتها له. فمتى تم انسحاب إسرائيل من الضفة الغربية وغزة طبقا للقرار رقم ٢٤٢ وللمبدأ الذى ينص عليه صراحة فى عدم جواز الاستيلاء على الأراضى المحتلة بالقوة، تصبح مسألة تقرير الفلسطينيين لمستقبلهم مسألة عربية داخلية داخل الإطار العربى ولا شأن لأى أطراف خارجية بها.

وكان الملك حسين قد أبدى رأيه فى مؤتمر القمة العربى فى الرباط ١٩٧٤ بأن يتم الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية ممثلا شرعيا للشعب الفلسطينى، ولكن لا تكون هى الممثل الوحيد باعتبارأن نصف سكان الأردن هو من أصل فلسطينى حتى يتسنى للأردن المشاركة فى أية مفاوضات أو نشاط دولى متعلق بتنفيذ قرارى مجلس الأمن ٢٤٢و٣٣٨.

وفى هذه الحالة أكد الملك حسين «أنه سيعمل من أجل تحقيق الانسحاب الإسرائيلى من كافة الأراضى العربية المحتلة وفى مقدمتها القدس، وبالنسبة للضفة الغربية فان الأردن يتعهد بعد تحريرها بأن يترك الاختيار لأبنائها ليقرروا المصير الذى يريدونه بحرية تامة وتحت إشراف دولى محايد، وأضاف الملك حسين : أن الجدل حول مستقبل الضفة الغربية ليس له ما يبرره قبل أن يتم استخلاصها من أيدى الاحتلال الإسرائيلى».

وفى بداية شهر مايو (آيار) سلمت نسخة من المشروع[1] إلى السفير الأمريكى أيلتس لنقلها إلى حكومته لدراسته. ولمناقشته مع الجانب الأمريكى عند سفرى إلى الولايات المتحدة فى الجزء الأخير من هذا الشهر للمشاركة فى الدورة الخاصة بنزع السلاح التى ستعقدها الجمعية العامة للأمم المتحدة فى نيويورك.

قصة النفايات الذرية..

وقد حدثت فى ذلك الوقت واقعة، أرى أن أشير إليها لأنها تبين البساطة والسطحية التى كان يقابل بها الرئيس السادات بعض المسائل شديدة التعقيد والخطورة.

فقد اتصل بى وزير الكهرباء والطاقة فى الصباح المبكر ليوم ٣ مايو (آيار) وطلب أن يمر على بعد ساعة لنتوجه معا فى سيارته إلى شبرا الخيمة للاستماع إلى الخطاب الذى سيلقيه الرئيس السادات بمناسبة الاحتفال بعيد العمال فى أول مايو (آيار).

ووافقت على ذلك وفى الطريق إلى مكان الاحتفال قال الوزير : إنه يريد التحدث معى فى أمر عاجل وفتح حقيبة أوراقه وأخرج منها ملفا قدمه لى، وقال «إن الموضوع

(١) نص المشروع المصرى المقدم من وزير الخارجية إلى السفير الأمريكى ايلتس على الضوء المقترحات الأمريكية - راجع اللحق رقم (١) فى صفحة رقم ٥١٣.

يتعلق بابرام اتفاقية بين مصر والنمسا تتسلم مصر بمقتضاها نفايات الوقود النووى الناتجة عن استهلاك المفاعلات الذرية فى النمسا، لتقوم مصر بحفظها وتخزينها فى أراضيها.

وذكر أنه توجد فى منطقة غرب قناة السويس كثبان جيرية تصلح لهذا الغرض، وقال إن مصر ستستفيد بخبرة تكنولوجية كبيرة من وراء هذه العملية تفيدنا للغاية عند إنشاء مفاعلات ذرية فى مصر لتغطية احتياجاتنا للطاقة.

أما عن وجه الاستعجال فى الموضوع فهو أن دولا أخرى تسعى بكل السبل للحصول من النمسا على هذه المخلفات الذرية ومن بينها إيران وأن الشاه يعرض على النمسا مبالغ طائلة فى سبيل ذلك، غير أن المستشار كرايسكى من واقع الصداقة التى تربطه بالرئيس أنور السادات يفضل إعطاء هذه المواد لمصر مجانا بل إن النمسا ستتبرع لمصر بمبلغ مليون شلن نمساوى !! (حوالى ٥٠ ألف دولار) للمساهمة فى إقامة مستشفى جديد بها.

وأضاف وزير الكهرباء والطاقة «أنه قد عرض هذا الموضوع عقب عودته من النمسا مؤخرا على الرئيس السادات الذى تحمس له ووافق عليه وطلب منه السير فى إجراءات تنفيذه، وأنه لذلك يرجو أن أعد له تفويضا منى بوصفى وزيرا للخارجية فى توقيع الاتفاقية مع النمسا على الفور وقبل أن تطير الصفقة من أيدينا!!

وبعدها بيومين ذهبت لمقابلة الرئيس السادات لأعرض عليه بعض المسائل وكان يقيم وقتها فى كنج مريوط، وتقع فى الصحراء الغربية فى منطقة اشتهرت منذ قدماء المصريين بجوها الجاف المنعش، والذى هو فى حد ذاته علاج للكثير من أمراض الصدر، وكان السادات ينزل فى استراحة صغيرة ذات حديقة جميلة كانت تستأجرها الحكومة المصرية من مالكها اليونانى.

وأثرت مع الرئيس السادات – وكان معه السيد حسنى مبارك نائب الرئيس – الموضوع الذى حدثنى بشأنه وزير الكهرباء وعلمت منه أن الوزير قد عرضه عليه، وأنه وافق عليه بالفعل من حيث المبدأ، وقلت للرئيس السادات : إنى لست خبيرا فى هذه الشؤون ولكن ما أعلمه أن الدول الأوروبية جميعا تواجه مشاكل فى تخزين مخلفات الوقود النووى ويريحها ويسعدها أن تتخلص منها، وأن شطرا كبيرا من الشعوب

الأوروبية يعارض بشدة إقامة المفاعلات الذرية فى أراضيه رغم الاعتراف بوجوب زيادة مصادر الطاقة، وتقوم المظاهرات فيها ضد ذلك، وأن الموضوع محل جدل وليس هناك ما يدعونا إلى تعريض مناخ مصر الجميل - وهو من نعم الله عليها - لمخاطر التلوث ومضاعفاته. وأنه مهما تكن هناك من فائدة فنية حسبما يدعى وزير الكهرباء لهذا المشروع فلا شك أنه ستكون له آثار جانبية خطيرة تطيح بما قد يكون له من فوائد.

وذكرت أن منطقة القنال التى اختارها الوزير لتخزين هذه المواد تقع فى متناول أى هجوم إسرائيلى، كما قد يؤثر تخزين هذه المواد على الملاحة فى قناة السويس وعلى البيئة فى المنطقة جميعا. فضلا عن أنى لا أستطيع التكهن برد الفعل الشعبى إزاء التصور بأن مصر ستصبح مخزنا للنفايات الذرية للدول الغنية.

وخلصت من ذلك إلى أنى أرى ضرورة عدم اتخاذ أية خطوة قبل إجراء دراسات فنية متعمقة - ودون أى استعجال - لتغطية الموضوع من جميع جوانبه وتشكيل لجنة لذلك تشترك فيها وزارات الخارجية والدفاع والصحة والزراعة والصناعة والرى.

واستمع الرئيس إلى نهاية حديثى وقال «أضف إلى اللجنة التى تقترحها أكاديمية البحث العلمى وهيئة قناة السويس، واتفق مع السيد ممدوح سالم رئيس الوزراء على تشكيل هذه اللجنة ومتابعة دراستها على أن يحاط ذلك بسرية تامة».

ثم عرضت على الرئيس صورة الرسالة التى أرسلتها إلى كورت فالدهايم السكرتير العام للأمم المتحدة بشأن النتائج الخطيرة التى تترتب على الأنشطة غير المشروعة التى تقوم بها إسرائيل فى الأراضى المصرية المحتلة انتهاكا لوحدة مصر الإقليمية ولسيادتها الدائمة على مواردها الطبيعية.

فإلى جانب استيلاء إسرائيل على البترول المستخرج من الأراضى المحتلة فى سيناء، شرعت إسرائيل مؤخرا فى القيام بعمليات واسعة للبحث والتنقيب عن البترول فى الأراضى وفى المياه المصرية.. وبلغت بها الوقاحة إلى أن رسمت خطا وهميا وسط مياه خليج السويس - وهو خليج داخلى يقع بأكمله داخل المياه المصرية الإقليمية - واعتبرت أن النصف الشرقى من مياه الخليج داخل فى مياهها الإقليمية بالتبعية لاحتلالها لسيناء.

وكانت تمنع نشاط شركات البترول المصرية والأجنبية التى تعمل فى مصر من مزاولة نشاطها فى هذا النصف الشرقى من الخليج وتخطى الخط الوهمى المذكور وتتحرش بها مما كان يؤثر على سير أعمال هذه الشركات ويعوق إنتاجها.

وقد طلبت من السكرتير العام للأمم المتحدة فى نهاية الرسالة إدراج شكوى مصر من الانتهاكات الإسرائيلية فى جدول أعمال الجمعية العامة لمناقشتها.

وكذلك أطلعت الرئيس السادات على صورة الرسالة التى أرسلتها إلى وزير الخارجية الأمريكى سيروس فانس فى نفس الموضوع وطالبته فيها بضرورة تحذير الشركات الأمريكية التى تمارس أعمال البحث والتنقيب عن البترول فى أراضينا المحتلة ومياهنا الإقليمية لصالح إسرائيل وتحميلها المسؤولية الكاملة عن هذه العمليات غير المشروعة.

وكنت قد تحدثت إلى الرئيس فى هذا الموضوع بعد أن أثاره معى وزير البترول المصرى. إلا أنه أشار وقتها بارجاء إثارته حتى لا يؤدى ذلك إلى عرقلة المباحثات مع إسرائيل.

إلا أنى رأيت عدم إمكان السكوت عليه حفاظا على حقوقنا وبادرت دون إخطاره بارسال تلك الرسائل. وقد عبر الرئيس عن ارتياحه لقيامى بذلك وقال : إنه سيطالب إسرائيل عند التوصل إلى السلام بالتعويض عن كل قطرة استولت عليها من سيناء أو من مياهنا الاقليمية.

الرغبة فى زيارة السعودية ..

ثم تحدثت مع الرئيس فى الغرض الأساسى من مقابلتى له وهو رغبتى فى زيارة السعودية لإجراء مباحثات مع المسؤولين فيها. وكنت قد تحدثت معه من قبل فى هذا الشأن إلا أنه كان يسوف، ويطلب منى إرجاء ذلك إلى وقت آخر، ولكنى أصررت فى هذه المرة وشرحت له أن الهدف الرئيسى من زيارة السعودية هو إقناعها باتخاذ موقف أكثر وضوحا فى تأييد الجهود المصرية من أجل السلام: ويتلخص هذا الموقف فى إعلان السعودية عن تأييدها للمبادرة وأن تكثف اتصالاتها بالولايات المتحدة الأمريكية لتضغط على إسرائيل لاتخاذ مواقف إيجابية وكذلك لتقوم بحث المملكة الأردنية الهاشمية على المشاركة فى جهود السلام.

وأشرت له إلى تصريح صدر وقتها من السيد أحمد زكى اليمانى وزير النفط فى السعودية مفاده أنها ستخفض من إنتاجها البترولى وستوقف دعمها للدولار الأمريكى إذا لم يوافق الكونجرس على صفقة الطائرات الأمريكية للسعودية. وذكرت أنه من المفيد إقناع السعودية باستخدام نفس الأسلوب فى تأييد جهود السلام المصرية وأخيرا وافق السادات على سفرى وإن اقتراح تأجيل زيارتى إلى حين جلاء القوات الإسرائيلية عن لبنان. وقد أجبته ضاحكا أن ذلك قد يؤدى إلى عدم إتمام الزيارة على الاطلاق. فوافق على أن اقوم بها قبل سفرى إلى نيويورك لحضور الدورة الخاصة بنزع السلاح فى أواخر شهر مايو (آيار).

وعرضت عليه من جديد الموافقة على إعادة السفير المصرى إلى موسكو ولكنه طلب إرجاء ذلك فى الوقت الراهن إلا أنه وافق على ما اقترحته من تحريك علاقاتنا بدول شرق أوروبا التى أصابها الجمود عن طريق السماح لبعض الوزراء الفنيين مثل وزراء الصناعة والكهرباء والزراعة بزيارة بعض الدول الشرقية تلبية لدعوات سابقة على المبادرة كانوا قد تلقوها من تلك الدول.

الرئيس نميرى يتوسط لاعادة العلاقات العربية ..

وفى ٧ مايو (آيار) وصل الرئيس السودانى نميرى إلى مصر بعد أن قام بزيارة سوريا بوصفه رئيسا للجنة التضامن العربى. وقد استقبله الرئيس السادات فى استراحة كنج مريوط وحضرت المقابلة.

وشرح الرئيس نميرى نتائج زيارته لدمشق ومحادثاته مع الرئيس السورى حافظ الأسد، وذكر أنه اقترح عليه التوسط لاعادة العلاقات الدبلوماسية بين مصر وسوريا، كما اقترح عليه الموافقة على الاشتراك فى مؤتمر قمة عربى لبحث الأوضاع الراهنة والعمل على استعادة التضامن العربى. وقال أن الرئيس الأسد رد عليه بأنه لا يمانع فى كلا الأمرين بشرك أن يعلن الرئيس السادات فشل مبادرته للسلام، وأن يعلن كذلك عن وقف الاتصالات الثنائية بين مصر وإسرائيل.

وأعاد السادات تأكيده السابق – قبل سفر الرئيس نميرى إلى دمشق – من أنه على استعداد للاستجابة إلى مسعى لجنة التضامن العربى فى إعادة العلاقات الدبلوماسية مع دول الرفض، وكذلك استعداده للمشاركة فى مؤتمر قمة عربى شريطة أن يسبقه

إعداد جيد. إلا أنه لا يستطيع الإعلان عن فشل مبادرته لسبب بسيط وهو اقتناعه بنجاحها الذى تتضح آثاره يوما بعد يوم فى تحول الرأى العام العالمى نحو تأييد القضية العربية وانعزال إسرائيل عن المجتمع الدولى.

أما عن الإعلان عن وقف الاتصالات الثنائية بين مصر وإسرائيل فقال السادات : إن المباحثات بين مصر وإسرائيل موقوفة من الناحية الواقعية سواء فى اللجنة السياسية أو فى اللجنة العسكرية ولكنه لا يستطيع الإعلان رسميا عن وقف المباحثات بين مصر وإسرائيل، لأن إسرائيل ستستفيد من ذلك فى تصوير المبادرة التى قام بها بأنها مناورة تكتيكية وليست عرضا حقيقيا لإقامة السلام الأمر الذى يطيح بالمكاسب التى حققتها المبادرة فى الرأى العام العالمى.

وأضاف الرئيس السادات أنه مع ذلك وحتى يفسح المجال أمام مهمة الرئيس نميرى فى استعادة التضامن العربى فانه يتعهد بألا تتم اتصالات مصرية إسرائيلية فى المستقبل سواء فى مصر أو فى إسرائيل. وأنه إذا اقتضى الحال اجتماع وزير خارجية مصر مع وزير خارجية إسرائيل فسيعمل على أن يتم اللقاء بينهما فى دولة ثالثة مثل رومانيا.

وسافر بعد ذلك الرئيس نميرى لاستكمال زيارته لباقى الدول العربية سعيا وراء تحقيق مهمته.

محاولة تخريب اللقاء العربى ..

فى يوم ٢٤ مايو (آيار) سافرت بالطائرة المستير الخاصة بالرئيس إلى جدة وكان يصحبنى السفير أحمد ماهر وبعض أعضاء مكتبى بالوزارة .. وكان فى استقبالنا بمطار جدة الأمير سعود الفيصل وزير خارجية السعودية وبعض كبار رجال وزارة الخارجية. وقد صحبنى الأمير إلى مقر الضيافة، وكان شعورى بمقابلة الأمير سعود من جديد هو شعور بلقاء أخ وصديق قديم وكنت أحس بأنه يشعر بذلك بدوره.

وبعد أن تناولنا الغداء بمقر الضيافة اتصل بى الأمير سعود الفيصل وذكر أنه سيحضر إلى مقر الضيافة لتبادل الحديث معى فيه بدلا من تكليفى بعناء الذهاب لوزارة الخارجية للقيام بذلك.

وفى الساعة الرابعة حضر الأمير سعود الفيصل، وحضر اللقاء بيننا، الذى دام نحو ساعتين، السفير أحمد ماهر وقد شرحت له تطورات الموقف منذ تقابلنا فى القاهرة فى شهر مارس (آذار) الماضى.

وكان محور تفكير الأمير هو وجوب العمل على وقف التدهور الذى حاق بالمعسكر العربى والعمل على استعادة التضامن العربى فى أسرع وقت وبكل الوسائل، وهذا يقتضى من وجهة نظر المملكة العربية السعودية اتخاذ خطوات لتصفية الخلافات العربية الناشئة عن مبادرة السادات وبالذات العلاقات بين مصر وسوريا بوصفهما من دول المواجهة مع إسرائيل، تمهيدا لعقد مؤتمر قمة عربى يتفق فيه على موقف موحد استنادا لمقررات مؤتمر القمة العربى فى الرباط ١٩٧٤. وأشار الأمير إلى أن قرارات مؤتمر الرباط لم تستبعد الحل السلمى مع إسرائيل طالما يحقق انسحابها من الأراضى العربية المحتلة ويحقق حقوق الشعب الفلسطينى المشروعة فى تقرير مصيره.

وقال الأمير إنه قد وضح لهم فى السعودية نتيجة الاتصالات التى أجريت مع سائر الدول العربية، وكذا الاتصالات التى قام بها الرئيس نميرى - بوصفه رئيسا للجنة التضامن العربى - أن العقبة فى سبيل التصالح وعقد مؤتمر قمة عربى تمسك جبهة الرفض - وسوريا بالذات - بأن يسبق الإعداد عقد هذا المؤتمر إعلان من الرئيس السادات بأن مبادرته قد فشلت وتعهد منه بانهاء الاتصالات بين مصر وإسرائيل.

وقد كان سعود الفيصل مقتنعا بأن مبادرة الرئيس السادات لن تحقق غرضها بسبب جمود الموقف الإسرائيلى وعدم تجاوبه معها .. ومن ثم كان يرى أن الوقت قد حان لا ليعلن الرئيس السادات فشله، كما كان يطلب الرئيس الأسد، وإنما ليعلن فقط إنهاء الاتصالات مع إسرائيل لعزوفها عن التجاوب مع السلام. وذكر الأمير الفيصل أن العالم سيتفهم ذلك، وأن وقف الاتصالات المصرية الإسرائيلية قد جاء نتيجة لمواقف إسرائيل الرافضة للسلام العادل الشامل.

وأضاف الأمير : أنه متى صدر هذا الإعلان من مصر فسينفتح الطريق أمام المصالحة العربية من خلال إنعقاد مؤتمر قمة عربى، ويكون عودا إلى مقررات مؤتمر القمة فى الرباط والتى لا تستبعد الحل السلمى كما أشار فى السابق.

وقد شرحت للأمير أنى لست أقل حرصا منه أو إدراكا للأهمية القصوى لتصفية الخلافات العربية وجمع شملها لمواجهة الموقف .. وأشرت إلى إعلان الرئيس السادات

استعداده لاستئناف العلاقات الدبلوماسية مع الدول العربية التى قطعت معها هذه العلاقات، وكذلك استعداده للمشاركة فى مؤتمر قمة عربى فى أى زمان أو مكان. غير أنى أرى أن قيام مصر باعلان إنهاء الاتصالات مع إسرائيل فى هذه المرحلة يضر ولا ينفع وشرحت له الجوانب الايجابية التى نتجت عن المبادرة وأشرت إلى المظاهرات التى قامت فى إسرائيل، وإلى تقدم ثلاثمائة ضابط وجندى إسرائيلى بعريضة إلى رئيس الوزراء الإسرائيلى بأنهم يفضلون السلام على احتلال أرض الغير، وهو أمر له دلالته. وكذلك التحول الذى حدث على صعيد الرأى العام العالمى وبالذات فى الرأى العام الأمريكى، والذى انعكس على موقف الحكومة الأمريكية نفسها بحيث مررت صفقة الطائرات الحربية للسعودية ومصر رغم معارضة شرسة من إسرائيل وجماعاتها الضاغطة فى الولايات المتحدة وهو مؤشر لا يمكن التقليل من أهميته ومغزاه بأى حال.

وقلت : إنه من الناحية الفعلية فان الاتصالات بين مصر وإسرائيل موقوفة ومجمدة منذ سحب الوفد المصرى فى اللجنة السياسية من القدس وقطع مباحثاتها فيما عدا زيارة وايزمان إلى القاهرة فى شهر مارس (آذار) الماضى والتى كانت خطأ سنعمل على عدم تكراره. وأن الموقف الحالى كما اتفقنا عليه مع الولايات المتحدة فى زيارة الرئيس لواشنطن فى شهر فبراير (شباط) الماضى، وهو امتناعنا عن الدخول فى أية مباحثات مع إسرائيل إلى أن تغير إسرائيل من موقفها السلبى الذى اعتنقته منذ بداية المبادرة، وأننا ألقينا عبء تغيير الموقف الإسرائيلى - إلى موقف إيجابى - على عاتق الولايات المتحدة التى قبلت ذلك. ونتيجة لذلك وجهت الحكومة الأمريكية إلى الحكومة الإسرائيلية سؤالين مبدئيين حول مصير الضفة الغربية وغزة بعد انتهاء الفترة الانتقالية منذ شهر أبريل (نيسان) الماضى. وهو ما وضع الحكومة الإسرائيلية فى مأزق وأعجزها عن الادلاء برأيها بوضوح حتى هذه اللحظة، فلم تقدم الإجابة عن هذين السؤالين.

وأنى أرى إزاء ذلك انتظار الرد الإسرائيلى وسيكون واحدا من اثنين :

فاما أن يكون ردا إيجابيا بالنسبة لمستقبل الشعب الفلسطينى وممارسة حقه فى تقرير المصير .. وفى هذه الحالة فما الذى يمنع من استئناف المباحثات مع إسرائيل على هذا الأساس ؟ بل وإنضمام أطراف عربية أخرى لها ؟ وإما أن يكون ردا سلبيا وهو الأرجح - وفى هذه الحالة نكون فى حل من إعادة المباحثات مع إسرائيل.

وأكثر من ذلك فانى أضمن له - هكذا اعتقدت وقتها - عدم استئناف المحادثات مع إسرائيل فى المستقبل حيث إنى نجحت فى إقناع الرئيس السادات بذلك. ومراجعة لتصريحاته المعلنة الثابتة فى الفترة الأخيرة تؤكد ذلك حيث يعلن أنه لا عودة إلى المباحثات إلا إذا تخلت إسرائيل عن الأرض والسيادة. وأنه متى أعلنت ذلك اقتصرت المباحثات على مسائل أمن الأطراف وعلاقات حسن الجوار والسلام وهو ما لا تستطيع دولة عربية أن تحتج عليه أو تعارضه.

والخلاصة إنى أتفق معه تماما فى وجوب إنهاء المباحثات المصرية مع إسرائيل - ما لم تتخذ منها إسرائيل موقفا إيجابيا وهو أمر مستبعد ولا تشير إليه دلائل الحال. ثم عودة مصر إلى موقف عربى موحد. غاية ما هناك أن الخلاف بيننا فى التوقيت وأنى أرى وجوب تخير أحسن الفرص لذلك، وهو الوقت الذى نطمئن فيه إلى أننا وصلنا إلى تطوير الموقف الأمريكى وتثبيته، فيما يتعلق باقتناع الولايات المتحدة - حكومة وشعبا - بأن ربيبتها إسرائيل هى التى ترفض السلام العادل الشامل وتعمل على تقويض مبادرة الرئيس السادات فى هذا الاتجاه .. وأنا أركز على الولايات المتحدة بالذات باعتبارها السند الوحيد ذا الحول والقوة لإسرائيل، ومتى تخلت عن حماية احتلالها غير المشروع لأراضى الغير وإجهاض حقوقه يكون قد حدث تحول جذرى فى الموقف برمته لا تستطيع معه إسرائيل الصمود طويلا فى وجه مطلب السلام.

عندئذ نعلن إنهاء المباحثات مع إسرائيل دون أن نتعرض لمن يتهمنا بأننا لم نكن جادين فى السعى إلى السلام. ولا يستطيع أحد أن يجرؤ أن يطلب منا أن نمضى فى التفاوض مع طرف يعلن فى صلافة وعناد أنه يريد الاحتفاظ بالأراضى العربية التى اغتصبها بالقوة بالمخالفة للمواثيق والقرارات الدولية. وفوق ذلك وإضافة عليه يريد أن يجبرنا على منحه الأمن والسلام حتى يتسنى له استغلال أراضينا وإذلال شعبنا فى اطمئنان وسكينة تحت سمعنا وبصرنا وباجازة منا.

وهنا يأتى دور السعودية فى الإعداد من الآن للحظة التى نعلن فيها إنهاء المباحثات مع إسرائيل، وذلك بتمهيد الطريق نحو إعادة العلاقات العربية إلى حالتها الطبيعية والتجهيز لعقد مؤتمر القمة العربى تمهيدا لمواجهة إسرائيل بموقف عربى متحد سواء فى مؤتمر دولى، أو باستصدار قرارات جديدة من مجلس الأمن أو غير ذلك، مع إعداد أنفسنا فى جميع الأحوال لخوض الحرب لتحرير أراضينا وإنقاذ شعبنا الفلسطينى إذا اقتضى الحال.

وقد سألنى الأمير سعود الفيصل عن المهلة الزمنية التى أراها مناسبة قبل إعلان إنهاء المباحثات مع إسرائيل فقلت : أنها فى تقديرى لن تتجاوز شهرين أو ثلاثة على الأكثر.

وأبدى الأمير تفهما وتقبلا لما عرضته وأكد أنه سيواصل على مستواه كوزير لخارجية السعودية اتصالاته بالدول العربية، وكذلك بوصفه عضوا فى لجنة التضامن العربى التى يرأسها نميرى، بالتعاون معه وسائر أعضاء اللجنة لتصفية الجو العربى والإعداد لمؤتمر القمة متى أعلنت مصر إنهاء المباحثات مع إسرائيل. وطلب منى أن نستمر على اتصال للتشاور والتنسيق وأنه قبل أن يحين وقت إعلان القرار المصرى لوقف المحادثات مع إسرائيل فسيقوم الملك خالد والأمير فهد ولى العهد ورئيس الوزراء بالاتصالات النهائية مع الملوك والرؤساء العرب وقد عبر عنهما(الملك وولى العهد)، بأنهما المدفعية الثقيلة للمملكة العربية السعودية.

وقد شملت مناقشاتنا موضوع مؤتمر القمة وهل يكون مؤتمرا موسعا تشارك فيه الدول العربية جميعا، أم مؤتمرا محدودا تشارك فيه دول المواجهة ومنظمة التحرير الفلسطينية والسعودية، وربما دولة أو دولتان أخريان. ولم نستقر على رأى وتركنا ذلك تحدده طبيعة التطورات والظروف. كذلك تناول حديثنا أهمية قيام المملكة العربية السعودية بحث الولايات المتحدة الأمريكية، بما للسعودية من إمكانيات وعلاقات خاصة معها، على ممارسة الضغط على إسرائيل والالتزام بالمواقف الأمريكية المعلنة حول تسوية النزاع العربى الإسرائيلى.

وعند هذا الحد انتهى حديثنا فى تلك الجلسة، وتركنى الأمير فيصل ثم عاود الاتصال بى تليفونيا ليخبرنى بأنه قد تحددت الساعة السابعة مساء لمقابلة الأمير فهد وأنه سيمر على ليصحبنى إلى تلك المقابلة وقد استنتجت أنه بعد انتهاء حديثى معه بعد الظهر توجه لمقابلة الأمير فهد وأحاطه بمضمون ما دار بيننا.

وقد دامت مقابلتى مع الأمير فهد - التى جرت فى حضور عدد من المسؤولين السعوديين - نحو نصف ساعة، كان محور حديثه خلالها هو أنه لا أمل يرجى من التفاوض مع إسرائيل وأنه قد ثبت رفض الحكومة الإسرائيلية التجاوب مع مبادرة الرئيس السادات، فلا داعى للاستمرار فى محادثات لن ينتج عنها إلا زيادة الريب والشكوك والتمزق العربى. وأنه يتحتم على العرب مواجهة إسرائيل جبهة واحدة ويجب

تصفية الخلافات العربية وعقد مؤتمر قمة عربى لهذا الغرض. وأكد استعداد المملكة السعودية لبذل كل جهودها فى هذا السبيل ، كما أشاد بحكمة السياسة البترولية التى تتبعها السعودية.

وفى المساء أقام الأمير سعود الفيصل مأدبة عشاء تكريما لى حضرها عدد كبير من الشخصيات السعودية والسفراء العرب وكان من بينهم سفراء لدول من دول الرفض. ويبدو أنهم استجابوا لدعوة وزير الخارجية السعودى تكريما له.

الأسلوب الإسرائيلى ..

وعدت إلى القاهرة فى اليوم التالى وكنت سعيدا متفائلا بما تم الاتفاق عليه بينى وبين الأمير سعود الفيصل، فقد وضحت أمامنا معالم الطريق الذى نسلكه فيما لو فشلت المبادرة بسبب رفض إسرائيل للسلام الشامل، وكان هذا يعزز موقفنا فى التمسك بحقوقنا ويدعم معنوياتنا فى التفاوض.

وقابلت الرئيس السادات وعرضت عليه ما جرى فى زيارتى للسعودية. وقد عبر عن سروره بنجاحى فى تأجيل ما يطالبنا به العرب من إعلان انهاء المباحثات مع إسرائيل. إلا أنه لم يعلق على غير ذلك، ولم يعر اهتماما بالسيناريو الذى اتفقت عليه مع وزير خارجية السعودية.

وعندما عدت إلى مكتبى فى الوزارة أطلعت على مذكرة سرية أعدها السفير أسامة الباز بشأن واقعة حدثت أثناء غيابى فى السعودية هذا مضمونها :

١- كان الفريق الجمسى قد أبرق لوايزمان منذ أيام مستعلماعما يتبع بالنسبة للمجموعة العسكرية الإسرائيلية التى مازالت موجودة فى مصر منذ وقف اجتماعات اللجنة العسكرية (كان هؤلاء الأفراد موجودين فى قصر الطاهرة ثم نقلوا مؤخرا إلى فيلا مرفقة بقاعدة جناكليس الجوية).

٢- اقتنص وايزمان هذه الفرصة على الفور ورد على الفريق الجمسى مقترحا أن يحضر ومعه باراك (المحامى العام) للتباحث حول هذه النقطة ومسائل أخرى متعلقة بالتسوية السلمية.

٣- تم الرد عليهم فى نفس يوم وصول برقية وايزمان (أمس الخميس ٢٥ مايو (آيار).

وتضمن ردنا النقاط الآتية :

أولا : أن المجموعة العسكرية الإسرائيلية لا تفعل شيئا فى الوقت الحاضر وقد أبقيناها حتى الآن من قبيل المجاملة.

ثانيا : أنه لا جدوى من اللقاءات ما لم يكن هناك جديد فى الموقف، يتمثل فى أفكار أو نقاط إيجابية محددة كفيلة بإخراج الموقف من حالة الجمود. وبصراحة فإن هذا يتطلب تغييرا فى الموقف الإسرائيلى لأن عقد مزيد من الاجتماعات دون أن نوفر هذا العنصر يضر أكثر مما ينفع لأنه يعطى الناس آمالا زائفة وانطباعات كاذبة ثم يصابون بالإحباط بعد تبين حقيقة عدم حدوث تقدم، ولا يصح أن يقال أن المقصود من الاجتماعات هو التعرف على رأى الطرف الآخر فى نقاط معينة، لأننا تجاوزنا المرحلة الاستطلاعية. وإسرائيل تعلم جيدا ما يمكن وما لا يمكن أن نقبله فلماذا نجتمع إذن إن لم يكن هناك جديد؟

ثالثا : إذا كان لديهم جديد يستحق البحث والمناقشة فإن الفريق الجمسى يكون مستعدا للالتقاء به فى بلد ثالث وعلانية لا سرا ولأننا لا نحب أن نعمل فى الخفاء.

وعاد إلى ذاكرتى حضور وايزمان الأخير إلى القاهرة أثناء اجتماع وزراء الخارجية العرب بها فى شهر مارس (آذار) ولم أملك إلا أن أتساءل : هل كان طلب وايزمان الحضور إلى القاهرة أثناء وجودى فى السعودية، مجرد مصادفة أم أن إسرائيل ترقب وترصد كل تحرك من ناحيتنا نحو أشقائنا العرب حتى تسارع بالعمل على تشويهه وتخريبه؟

الفصل الثاني والعشرون

من أجل عيون الرئيس كارتر!

في ٢٧ مايو (آيار) طرت إلى نيويورك للمشاركة فى الدورة الخاصة للجمعية العامة للأمم المتحدة بشأن نزع السلاح والتى عقدت بناء على اقتراح مجموعة دول عدم الانحياز.

وقد تضمن الخطاب الذى ألقيته فى الجمعية الفقرات التالية بشأن إسرائيل :

« وبقدر ما نعتبر المنطقة الخالية (من الأسلحة النووية) فى أمريكا اللاتينية نموذجا يحتذى به فى إقامة المناطق الخالية من السلاح النووى وخطوة مهمة فى سبيل نزع السلاح، إلا أن الوضع فى أفريقيا وفى الشرق الأوسط مختلف تماما. ذلك أن توافق الأهداف بين جنوب أفريقيا وإسرائيل وكلتاهما تتبع سياسة عدوانية تتسم بالتحدى للإرادة الدولية وتتميز باقتراف المخالفات الجسيمة المتكررة لأحكام الميثاق وقواعد القانون الدولى يجعل التواطؤ بينهما فى المجال النووى تهديدا مباشرا للسلام والأمن فى هاتين المنطقتين بل فى العالم بأسره. فقد سعينا فى دأب مع الدول الأفريقية الشقيقة لتنفيذ إعلان « أفريقيا لا نووية ».

وعلى الرغم من تأييد وتدعيم المجتمع الدولى لهذا المسعى إلا أن تصميم النظام العنصرى فى الجنوب الأفريقى على المضى فى محاولاته للحصول على السلاح النووى من أجل دعم سياسته العنصرية العداونية، قد حال دون المضى قدما نحو التنفيذ العملى لهذا الإعلان.

أما فى منطقة الشرق الأوسط ذات الوضع الاستراتيجى المتميز فإن ارتباط ما يدور فيها من أحداث بالأمن والسلم الدوليين هى حقيقة تدركها مصر. ومن ثم تقوم سياستها على استقرار أوضاع عادلة فى المنطقة حتى تجنبها حدوث مواجهات بين القوى المختلفة، إيمانا منها بأن نتائج أية مواجهات قد تقود العالم إلى حافة حرب عالمية ثالثة. ولا شك أن ما عانته المنطقة من حروب بسبب مخططات التوسع الإسرائيلى، يجعل المجتمع الدولى يقدر الفوائد الجمة التى ستعود عليه من توفير ظروف السلام العادل والدائم فى المنطقة وتحويلها بأكملها إلى منطقة سلام. ومن هنا جاءت المبادرة الإيرانية المصرية منذ سنوات أربع، لإعلان الشرق الأوسط منطقة خالية من السلاح النووى كمساهمة إيجابية فى مجهودات نزع السلاح وفى الحفاظ على السلم والأمن الدوليين.

وقد ثابرنا وسعينا لتحقيق هذا الهدف المتفق مع رغبة دول المنطقة والمدعم بالتأييد الدولى، ولكن صوت إسرائيل كان الصوت الوحيد الذى نشذ عن الاجماع الدولى طوال السنوات الأربع الماضية عند طرح الموضوع فى الدورات المتعاقبة للجميعة العامة، بل هى مازالت ترفض حتى الآن الانضمام إلى معاهدة منع الانتشار، كما وأنها ترفض وضع جميع أنشطتها النووية تحت نظام ضمانات الوكالة الدولية للطاقة الذرية.

واسمحوا لى يا سيادة الرئيس أن أعلن من فوق هذا المنبر، أن هدف مصر هو أن تبقى منطقة الشرق الأوسط خالية من الأسلحة النووية. وإذا كانت إسرائيل سوف تعوق هذا الهدف حتى تترك لمطامعها ومحاولاتها فى هذا المجال فرصة التحقيق بالتعاون مع جنوب أفريقيا بالذات، فإن على المجتمع الدولى ممثلا فى الأمم المتحدة أن يتخذ من الخطوات اللازمة طبقا لأهداف ومبادئ الميثاق ما يمنع تهديد السلم والأمن الدوليين بمثل هذه المحاولات غير المسؤولة، آخذين فى الاعتبار نص روح قرار مجلس الأمن رقم « ٢٥٥ لسنة ١٩٦٨ ».

وقد كان مندوبو الدول العربية فى الأمم المتحدة من ناحية، ومندوب إسرائيل فيها من الناحية الأخرى، يترقبون موقف مصر فى الدورة الخاصة لنزع السلاح وينظرون إليه بمثابة اختبار لنواياها. وبينما شعر المندوبون العرب بارتياح لما جاء فى الخطاب حول إسرائيل، فقد غضب الجنرال حاييم هرتزوج مندوب إسرائيل فى الأمم المتحدة غضبا شديدا ويبدو أنه كان يتوقع أن تعزف مصر عن مهاجمة إسرائيل من فوق منبر الأمم المتحدة بسبب مباحثات السلام التى بدأت بينهما منذ زيارة الرئيس السادات للقدس.

فضلا عن أن الربط بين جنوب أفريقيا وإسرائيل فى مجال التسلح النووى قد أصاب إسرائيل فى عصب حساس، ذلك أن العلاقات الوثيقة التى تربط إسرائيل بجنوب أفريقيا كانت العقبة الكؤود التى تحول دون إسرائيل واستعادة مركزها فى القارة الأفريقية بعد أن قامت الدول الأفريقية جميعا ـ فيما عدا ـ مالاوى ـ بقطع علاقاتها بإسرائيل أثر حربها العدوانية فى عام ١٩٦٧[١].

تهدئة العلاقات القبرصية المصرية ..

أثناء إقامتى فى نيويورك قابلت عددا من وزراء خارجية الدول الذين حضروا للمشاركة فى الدورة الخاصة لنزع السلاح، وقد كان محور الحديث يدور أساسا حول الموقف الراهن من المباحثات بين مصر وإسرائيل واحتمالات الفشل والنجاح فيها. واجتمعت بكورت فالدهايم السكرتير العام للأمم المتحدة وكنت حريصا منذ توليت وزارة الخارجية على أن يكون للأمم المتحدة دور فى أية تسوية نتوصل إليها مع إسرائيل، على أساس أن أية تسوية ستستند على أحكام ميثاق الأمم المتحدة والقرارات الصادرة من الأمم المتحدة بشأن النزاع العربى الإسرائيلى، سواء من الجمعية العامة أو من مجلس الأمن. وكانت إسرائيل تحاول إخراج المباحثات بعيدا عن مظلة الأمم المتحدة. كذلك كنت حريصا على أن تظل دعوة السكرتير العام للأمم المتحدة لمؤتمر دولى لبحث مشكلة الشرق الأوسط فى إطار الأمم المتحدة. كتمهيد لمؤتمر جنيف كباب يمكن أن نطرقه إذا رغبت إحدى الدول العربية فى الانضمام إلى المباحثات أو فى حالة فشل المباحثات الثنائية بين مصر وإسرائيل. كذلك تناولت محادثاتى مع السكرتير العام موضوع استغلال إسرائيل للموارد الطبيعية فى سيناء، من بترول وغيره، وكذلك موضوع انسحاب إسرائيل من جنوب لبنان. وقد عبر لى فالدهايم عن ضيقه وتبرمه الشديد من أسلوب الخداع والالتواء الذى تمارسه إسرائيل لتسويف تنفيذ قرار مجلس الأمن رقم ٤٢٥ بانسحابها من لبنان.

واجتمعت بالرئيس القبرصى كبريانو ـ والذى كان يقيم بنفس الفندق ـ وكانت مصر قد قطعت علاقاتها الدبلوماسية بقبرص بعد أحداث مطار لارناكا. وكان الرئيس

---

(١) ومن الأمور الملفتة للنظر فى ذلك الوقت أنه جرت بعد أيام من هذا الخطاب انتخابات مجلس المحافظين لوكالة الطاقة الذرية فى فيينا ورشحت مصر نفسها للعضوية عن افريقيا وحاولت جمهورية النيجر منافستنا ولكن امكن اقناعها بالتنازل عن ترشيح نفسها. وفوجئنا بعد ذلك بالولايات المتحدة الأمريكية تصر على ترشيح جنوب افريقيا ضد مصر وإصرارها على إجراء التصويت. وقد تم ذلك ونجحت مصر بفضل الدول الأفريقية ودول عدم الانحياز ودول مجموعة الكتلة الشرقية.

السادات يتخذ موقفا عنيفا من قبرص ورئيسها لرفضه تسليم قاتلى يوسف السباعى لمصر، إلى حد أن السادات كان يلقب فى أحاديثه وخطاباته الرسمية الرئيس كبريانو بأنه زعيم القبارصة اليونانيين، مما يحمل على الفهم بأن الرئيس السادات يوافق على تقسيم قبرص بين القبارصة اليونانيين والقبارصة الأتراك، وهو ما يخالف الموقف المصرى المعلن بالاعتراف بوحدة الدولة القبرصية. وقد عبر الرئيس القبرصى عن أسفه الشديد للأحداث الدامية التى أدت إلى الاطاحة بالعلاقات التقليدية الطيبة التى تربط مصر بقبرص منذ آلاف السنين، وشرح لى صعوبة موقفه من إمكانية تسليم قاتلى يوسف السباعى، باعتبار أن ذلك يخل بسيادة قبرص التى وقعت الجريمة على أراضيها، وأشار إلى استعداده مع ذلك بعد مضى فترة من الوقت تهدأ فيها الأمور إلى إيجاد طريقة لتسليمهما لمصر.

وكنت من ناحيتى أعارض تماما مطلب الرئيس السادات فى تسلم قاتلى السباعى وإجراء محاكمتهما من جديد وتنفيذ حكم الاعدام عليهما فى مصر، فقد كنت حريصا على عدم اشتعال المشاعر العنيفة من جديد بين المصريين والفلسطينيين وهو ما كان سيؤدى إليه حتما إعادة المحاكمة وتنفيذ حكم الاعدام. وكان يهمنى للغاية إنهاء هذا الفصل المأساوى فى العلاقات المصرية الفلسطينية، الأمر الذى تستفيد منه إسرائيل وحدها ويؤثر سلبا على موقفنا فى المباحثات التى تستهدف أساسا حل القضية الفلسطينية بوصفها جوهر النزاع العربى الإسرائيلى. ولذا فلم أشر فى حديثى مع الرئيس كبريانو إلى طلب التسليم، وكل ما أصررت عليه هو أن تقوم قبرص بتنفيذ الحكم الصادر عليهما فى أقرب وقت واتفقنا على العمل على تهدئة العلاقات بين البلدين تمهيدا لعودة العلاقات الدبلوماسية.

التنازل لمرة واحدة فقط ؟!

وفى ٢ يونيه (حزيران) قابلت وزير الخارجية سيروس فانس حيث دعانى إلى غداء عمل فى الجناح الذى ينزل فيه بفندق بلازا، وكان معى الدكتور عصمت عبد المجيد مندوبنا الدائم فى الأمم المتحدة والدكتور أشرف غربال سفيرنا فى واشنطن والسفير أحمد ماهر السيد. ومن الجانب الأمريكى حضر المستر أندرو يونج المندوب الأمريكى فى الأمم المتحدة والسفير أثرتون والمستر سوندرز مساعد فانس للشرق الأوسط. وكان مدار الحديث الرئيسى هو المشروع المصرى بشأن الضفة الغربية وغزة والذى كنا قد

قدمنا لهم صورة منه فى بداية شهر مايو (آيار) والمبنى على أساس انسحاب إسرائيل وخضوع إدارة الضفة الغربية لاشراف الأردن وإدارة قطاع غزة لإشراف مصر. وقد أبدى فانس والجانب الأمريكى اهتماما بالمشروع المصرى وتقبلا له، من حيث المبدأ، واستوضحوا عن بعض نقاطه. وكانت ملاحظاتهم الأساسية أنه لا يتضمن تفصيلات كافية فيما يتعلق باجراءات الأمن وقد رجا فانس لو استطعنا إضافة مثل هذه التفصيلات حيث إن إسرائيل تتعلل دائما بموضوع الأمن وقد وعدته ببحث الأمر عند عودتى إلى القاهرة.

وذكر فانس أنهم مازالوا ينتظرون رد إسرائيل على السؤالين الأمريكيين الموجهين لها بشأن مستقبل الضفة الغربية وغزة وأضاف فانس أنه لا يتوقع أن تكون الردود إيجابية وأنه يفكر على أى حال فى زيارة منطقة الشرق الأوسط. بعد أن يتلقوا ردود إسرائيل، فإذا كانت إيجابية فهو يرى أنه يمكن إجراء جولة أخرى من المباحثات المباشرة بين مصر وإسرائيل. أما إذا كانت سلبية فسيقدم المشروع المصرى إلى إسرائيل وبعد ذلك تتقدم الولايات المتحدة باقتراحاتها وأفكارها. وقد وافقت على ذلك وذكرت أنه فى حالة اعتبار الولايات المتحدة ردود إسرائيل إيجابية فهذا لا يكفى، بل يجب أن تكون كذلك فى تقديرنا نحن، ولن نقبل استئناف المحادثات المباشرة مع إسرائيل إلا إذا كانت الردود إيجابية بالفعل وليس مجرد تلاعب فى الصياغة يعطى انطباعا خاطئا بأنهم قد حركوا موقفهم.

وكان الرئيس السادات قد طرح بعض القوانين والإجراءات المقيدة للحرية فى استفتاء شعبى يوم ٢٢ مايو (آيار) بزعم أنها لحماية الجبهة الداخلية والسلام الاجتماعى وتشمل تطهير الأحزاب القديمة من العناصر التى ادعى أنها أفسدت الحياة السياسية فى مصر، وتكليف المدعى الاشتراكى بالتحقيق مع الصحفيين المصريين الذين يهاجمون سياسته. كما قامت السلطات المصرية بطرد بعض المراسلين الأجانب. وكان لهذه الإجراءات انعكاسات سلبية على الرأى العام الأوروبى والأمريكى حيث هاجمتها وسائل الإعلام واعتبرتها تراجعا من الرئيس السادات عن الديمقراطية التى كان يتشدق بها دائما، كما رأت فيها مؤشرا على ضعف الجبهة الداخلية فى مصر. وقد وجهت إلى الكثير من التساؤلات حول هذه الإجراءات أثناء وجودى فى نيويورك كذلك ما كان يردده من تحديد شهر أكتوبر (تشرين الأول) كتاريخ لانهاء المباحثات المباشرة مع إسرائيل.

وغادرت نيويورك إلى باريس حيث أمضيت يومين قابلت خلالهما وزير الخارجية الفرنسية « لويس دى جوينجو » وسألنى عن تطورات الموقف بشأن المباحثات مع إسرائيل. وكانت فرنسا غير متفائلة بنجاح هذه المباحثات، وقد التزمت منذ قيام السادات بزيارة القدس بموقف التحفظ والحذر والامتناع عن المجاهرة بالتأييد لمبادرته حرصا على علاقاتها النشيطة مع باقى الدول العربية. غير أن معظم الحديث تركز على المشاكل الأفريقية فى القرن الأفريقى وزائير وتشاد والتى كانت تسبب قلقا بالغا لفرنسا.

ووصلت إلى القاهرة فى مساء يوم ١٠ يونيه (حزيران) وفى ١١ يونيه (حزيران) زار السفير الأمريكى أيلتس الرئيس السادات وقدم له ورقة تتضمن بعض الاقتراحات الأمريكية بتعديلات على المشروع المصرى يرون أنه من المفيد أن يشتمل عليها.

وفى ١٢ يونيه (حزيران) سافرت إلى الاسكندرية لمقابلة الرئيس السادات الذى كان يقيم فى استراحة المعمورة وقد استقبلنى بترحاب وعرضت عليه نتائج رحلتى ومقابلاتى، وبالذات ما لمسته من تقبل الجانب الأمريكى لفكرة المشروع المصرى واعتبارهم إياه مشروعا معقولا ومنطقيا، وإن كانوا يرون أنه يحسن أن يشتمل على تفصيلات إضافية فى مجال الأمن. فأبلغنى بأنه قد أحال إلى المقترحات الأمريكية التى سلمها له أيلتس فى هذا الصدد وطلب بحثها وتعديل المشروع المصرى بما قد يكون مقبولا ومناسبا لها.

كذلك أشرت إلى القلق وعدم الارتياح الذى لمسته فى الولايات المتحدة وفرنسا إزاء القوانين والإجراءات التى طرحها الرئيس السادات للاستفتاء الشعبى وما تحمله من معانى الارتداد عن الديمقراطية وضعف الجبهة الداخلية وذكرت أن إسرائيل وراء تحريك وسائل الإعلام الأمريكية فى هذا الاتجاه.

ورد السادات قائلا « مساكين فهم لا يفهمون أوضاعنا هنا وأن الإجراءات التى اتخذتها تعنى مزيدا من الديمقراطية فى مصر » !!

وكنت أتأهب للانصراف بعد أن انتهيت من عرض ما لدى من مواضيع عندما قال لى الرئيس « على فكرة يا محمد .. الرئيس كارتر اتصل بى تليفونيا واقترح على عقد اجتماع ثلاثى بين وزراء خارجية مصر وإسرائيل والولايات المتحدة وقد ألح على فى

ذلك، وقد أبلغته بموافقتى على مبدأ عقد هذا الاجتماع بشرط أن يتم خارج مصر وإسرائيل، كما وعدت الرئيس نميرى ».

وكنت قد بدأت أضيق ذرعا بتصرفاته فى وضعى أمام الأمر الواقع دون أن يحفل بأخذ رأيى أو مشورتى وقلت « لقد توالت تصريحاتك بأنك لن تعود إلى التفاوض المباشر مع إسرائيل ما لم تغير هذه من موقفها، ومنذ أقل من أسبوعين اتفقت مع السعودية على أن تظل المباحثات مع إسرائيل موقوفة ما لم تفعل إسرائيل ذلك، وهم (السعوديون) يمارسون اتصالات مع الدول العربية على هذا الأساس، تمهيدا لإجراء تصالح عربى واجتماع قمة فى الوقت المناسب، وفضلا عن كل ذلك فقد وجهت الحكومة الأمريكية إلى إسرائيل سؤالين حول مستقبل الضفة الغربية وغزة منذ أكثر من شهر ولم تقم إسرائيل حتى الآن بالرد على هذين السؤالين، فكيف نوافق على مبدأ الاجتماع مع إسرائيل قبل معرفة ردودها وتقدير ما إذا كانت إيجابية أم لا ؟ والأكثر من ذلك أن فانس قد أبلغنى بأنه غير متفائل على الاطلاق بأن الردود الإسرائيلية ستكون إيجابية. وأضفت : إنى بصراحة غير مطمئن إلى مواقف الرئيس كارتر التى تتسم بالتذبذب، فمنذ عشرة أيام كنت مع وزير الخارجية فانس وأمضيت معه وقتا طويلا ولم يشر لى من قريب أو بعيد إلى مثل هذا الاجتماع وكل ما ذكره أنه بعد أن تصلهم الردود الإسرائيلية فإنه سيقوم بزيارة المنطقة للتفاهم على الخطوة التالية ».

وقال الرئيس السادات : « لقد ألح على كارتر فى القبول وأنت تعلم مدى حرصى على التدخل الأمريكى بيننا وبين إسرائيل، وأن تقوم أمريكا بدور الشريك الكامل فى المفاوضات ولا أريد إغضاب الرئيس كارتر » .. فقلت : « إنى أقدر ذلك ولكننى لا أتفهم الموقف الأمريكى فهو لا ينفذ السيناريو الذى اتفقنا عليه فى كامب ديفيد، وكلما سعينا إلى تحسين الموقف مع الدول العربية فاجأونا بما يقضى على هذه الإمكانية ونحن فى أشد الحاجة إلى الدول العربية وخاصة الأردن، وإلا سنبقى وحدنا نعالج مسائل لا نملك التفاوض فيها لأننا غير مفوضين من أصحاب الشأن أو نحظى بموافقتهم. وقال السادات : إن الملك حسين لا يريد اتخاذ موقف وهو ينتظر حتى تقدم له الضفة الغربية على طبق من فضة. وأضاف الرئيس : على كل حال فقد ابلغت الرئيس كارتر أن موافقتى على اجتماع الوزراء الثلاثة هى تنازل منى من أجل خاطره وأكدت عليه أن ذلك يتعلق باجتماع واحد فقط وأخير فوافق على ذلك واقترح عقد الاجتماع فى لندن ».

أسلوب الخطوط المتعرجة ..

عند عودتى كلفت مجموعة العمل بدراسة المقترحات الأمريكية بالتعديلات التى ترى إدخالها على المشروع المصرى بشأن الضفة الغربية وغزة، وقد قامت المجموعة بذلك وأعدت مشروعا جديدا ضمنته بعض المقترحات الأمريكية بعد تعديلها بما يتفق مع مواقفنا ووافقت عليها كما وافق عليها الرئيس السادات.

وكان المستر هارولد سوندرز مساعد وزير الخارجية الأمريكى لشؤون الشرق الأوسط قد ألقى فى يوم ١٣ يونيه (حزيران) بيانا سياسيا أمام اللجنة الفرعية للعلاقات الخارجية التابعة لمجلس النواب قال فيه « إن الموقف الأمريكى يتلخص الآن فى معرفة موقف إسرائيل من الضفة وغزة وأنه يتعين على إسرائيل أن تعلن انسحابها من هذه الأراضى التى كانت خاضعة للانتداب البريطانى وكانت خارج حدود إسرائيل سنة ١٩٦٧ ».

وأضاف سوندرز أن موضوع الانسحاب من هذه الأراضى يجب أن يتم الاتفاق عليه كأمر أساسى مع استمرار مناقشة قضايا الأمن والسيادة وأنه إذا لم تعلن إسرائيل ذلك فإن الأردن ودولا أخرى لن تستطيع الانضمام إلى المفاوضات، وذكر أن واشنطن ترى أن مستقبل الضفة الغربية يرتبط بوجود روابط مع الأردن وأن قيام دولة فلسطينية يعتبر حلا واقعيا.

وفى ١٥ يونيه (حزيران) استقبلت السفير أيلتس وقدمت إليه مشروعنا المعدل وكان عنوانه « اقتراحات تتعلق بالانسحاب من الضفة الغربية وقطاع غزة وترتيبات الأمن [1] .. »

وأكدت على السفير ضرورة عدم تقديم مشروعنا من جانبهم للجانب الإسرائيلى قبل رد إسرائيل على السؤالين الخاصين بالضفة وغزة فى التوقيت الذى نتفق عليه مع الجانب الأمريكى. وذكر السفير أنهم يتوقعون أن يصل مجلس الوزراء الإسرائيلى إلى موقف فى اجتماعه التالى خلال أيام وأن بيجن يحاول الوصول إلى حل وسط. حيث إن هناك خلافات كبيرة داخل مجلس الوزراء حول الرد.

---

(١) نص المشروع المعدل والمقدم من وزير الخارجية المصرى إلى السفير الأمريكى أيلتس بتاريخ ١٠ يونيه (حزيران) - راجع الملحق رقم (٢) صفحة رقم ٥١٦.

وأشرت إلى طلب الرئيس كارتر من الرئيس السادات الموافقة على عقد اجتماع لوزراء الخارجية الثلاثة وقلت : هذا لا يتفق مع السيناريو الذى اتفق عليه بيننا، وأن على أمريكا أن تضغط على إسرائيل لتعديل موقفها كشرط لمثل هذا الاجتماع فقال : إن هذا ربما يكون صحيحا ولكن مركز الرئيس الأمريكى يكون أقوى لو حدثت جولة جديدة من المباحثات والتزمت إسرائيل بالموقف السلبى. ففى هذه الحالة يستطيع أن يقنع الكونجرس والرأى العام الأمريكى بأنه اضطر لتقديم مقترحات أمريكية إزاء جمود الموقف الإسرائيلى.

وعلقت بقولى : إنه للأسف فإن موقف بيجن هو الموقف الوحيد الذى لا يحيد عن الخط الذى التزم به بينما كل من الرئيس كارتر والرئيس السادات يمشيان فى خطوط متعرجة خطوة إلى الأمام وخطوة إلى الخلف وهذا يشجع بيجن على التمادى فى تشدده.

وفى يوم ١٧ يونيه (حزيران) قدمت للرئيس السادات المذكرة التالية :-

« أتشرف بأن أعرض على سيادتكم ما يلى بشأن الاقتراح الأمريكى بعقد لقاء فى لندن :

١- إنه من الواضح من الأنباء الواردة من إسرائيل أن مجلس الوزراء الإسرائيلى فى ورطة، إذ أنه منقسم على نفسه بالنسبة للرد على سؤالى الولايات المتحدة. وفى هذه الظروف فإن قبولنا للاقتراح الأمريكى قد يعطى الفرصة للحكومة الإسرائيلية للخروج من ورطتها وتجنب الرد على السؤالين انتظارا لما يسفر عنه اللقاء.

ولقد كان إدراكنا لضرورة عدم إتاحة الفرصة لبيجن لتجنب الرد هو الذى جعلنى أخطر السفير الأمريكى - بناء على تعليمات سيادتكم - بألا يقدموا ورقتنا إلى الجانب الإسرائيلى قبل أن يرد هذا الأخير إيجابيا على السؤالين الأمريكيين.

كما أن هذا الموقف يتفق مع الموقف الأمريكى الذى عبر عنه علنا فى الفترة الأخيرة كل من سوندرز وأثرتون من أن ردود إسرائيل الإيجابية ضرورة لاستئناف المباحثات المباشرة.

٢- ومن جهة أخرى فقد أدليتم سيادتكم بتصريحات تتضمن أننا مستعدون لجولة أخرى من المفاوضات إذا جد جديد فى الموقف الإسرائيلى. كما أبلغتم سيادتكم ذلك للرئيس نميرى.

٣- إن إسرائيل قد مضى عليها شهر أو أكثر دون الرد على السؤالين الأمريكيين وليس هناك ما يدعو لأن تبدو مصر متلهفة فتقبل على الفور الاقتراح الأمريكى بشأن اللقاء.

وفى هذا الصدد أشير إلى ما يلى :

(أ) إذا كنا سنقبل اللقاء كتنازل للرئيس كارتر، فيجب أن يقترن ذلك بتعهد من جانبه بأن يكون المشروع الأمريكى بشأن الضفة الغربية وغزة أقرب ما يكون إلى مقترحاتنا وأفكارنا.

(ب) إننا يمكن أن نبلغ أمريكا موافقتنا من حيث المبدأ على أن نطالبها فى نفس الوقت بأنه لن يمكن لنا إتمام اللقاء فعلا إلا إذا جاءت الردود الإسرائيلية بشكل يوحى بأن هناك تقدما فى موقف الحكومة الإسرائيلية.

(جـ) أما بالنسبة للتوقيت فإذا كان فانس لا يستطيع الوجود فى لندن إلا فى الفترة المقترحة [1] فإنه يمكن عقد اللقاء بعد ذلك وبعد ورود الرد الإسرائيلى، فى واشنطن أو فى أى مكان آخر يناسب فانس، بل قد يمكن التفكير فى تأجيل اللقاء إلى ما بعد جولة فانس فى المنطقة وعلى ضوء ما يستطيع خلالها تحقيقه من تقدم فى الموقف الإسرائيلى.

(د) إن طلب ديان اللقاء [2] جزء من الصراع الداخلى بينه وبين بيجن من جهة، وبينه وبين وايزمان من جهة أخرى. وعلى أحسن الفروض فإنه ليس هناك ما يضمن أن أى اتفاق مع ديان سينال موافقة مجلس وزراء إسرائيل فى الوقت الذى يبدو هناك احتمال لسقوط حكم بيجن لأسباب صحية أو سياسية [3] .

٤- إن مصر تستهدف العمل على ضم دول أخرى للمفاوضات وهو ما تشاركها فيه أمريكا، وقبول اللقاء دون أن يستند إلى تحرك إيجابى فى الموقف الإسرائيلى لا يخدم هذا الغرض.

---

(١) كان السفير الأمريكى قد ابلغنا أن فانس يناسبه أن يتم اللقاء فى ٩ يوليه (تموز).

(٢) أرسل ديان يقترح الحضور للقاهرة لمقابلة الرئيس عن طريق السفارة الأمريكية واعتذرنا عن قبول ذلك.

(٣) كانت الأنباء تؤكد وجود خلاف جوهرى بين بيجن وبعض وزرائه من ناحية وبين بيجال يادين نائب رئيس الوزراء ووايزمان وزير الدفاع وبعض الوزراء من ناحية ثانية حول الردود الإسرائيلية، كما كانت تدور شائعات قوية حول تدهور صحة بيجن واحتمالات عدم استمراره فى رئاسة الوزارة.

وبناء على ذلك فقد ترون سيادتكم أن نرد على أمريكا بما يلى :

(أ) إننا نوافق من حيث المبدأ على عقد اللقاء.

(ب) إنه يجب أولا انتظار رد إسرائيل فإذا كان إيجابيا فنعقد اللقاء.

(جـ) إنه ليس من المهم عقد اللقاء فى لندن، وإذا كانت ظروف المستر فانس لا تسمح له بالتغيب عن واشنطن إلا فى الفترة المقترحة، فيمكن عقد اللقاء فى واشنطن فى الوقت المناسب.

(د) إنه يمكن التفكير فى عقد اللقاء على ضوء ما تسفر عنه جولة مستر فانس فى المنطقة من تطور إيجابى على الموقف الإسرائيلى.

ليس ردا ..

فى اليوم التالى ١٨ يونيه (حزيران) ردت إسرائيل على السؤالين الموجهين إليها منذ حوالى شهرين وكان الرد كما يلى :

« إنه بعد مرور خمس سنوات من تطبيق الحكم المحلى والإدارى فى « جوديا وسماريا » وقطاع غزة فإن الحكومة الإسرائيلية توافق على بحث طبيعة العلاقات المستقبلية بين الأطراف إذا اقترح ذلك أى طرف.

وإن الوصول إلى اتفاق يقتضى مفاوضات بين الأطراف أنفسهم، وأن يشارك فى هذه المفاوضات ممثلون عن سكان الأراضى من المنتخبين وفقا لنظام الحكم المحلى الإدارى ».

ولا أظن أن فى هذا الرد - إن جاز وصفه بأنه رد - ما يحتاج إلى تعليق.

الفصل الثالث والعشرون

إسرائيل ترفض المشروع المصرى قبل تقديمه ..

كان الرد الإسرائيلى أكثر من سلبى ولم يكن أحد يستطيع أن يجادل فى ذلك حتى أصدقاء إسرائيل فى الولايات المتحدة. وصرح هودنج كارتر المتحدث الرسمى باسم وزارة الخارجية الأمريكية معبرا عن أسف أمريكا لأن الحكومة الإسرائيلية لم ترد على الأسئلة الأمريكية، وأن ما أجابت به لا يعتبر ردا ولكن الحقيقة أن الرد الإسرائيلى كان يحمل فى طيات صياغته المعقدة الغامضة رسالة بسيطة واضحة، هى أن إسرائيل لا تعتزم بحال الانسحاب من أراضى الضفة الغربية وقطاع غزة بعد الفترة الانتقالية، وأن هذه الفترة ما هى إلا فسحة من الزمن تعمل إسرائيل خلالها على تكريس احتلالها لتلك الأراضى تمهيدا لضمها وابتلاعها. كل ما هناك أنها ستمن على الفلسطينيين التعساء الذين يعيشون على تلك الأراضى بحكم محلى إدارى تحت السيطرة الإسرائيلية كشأن النظام الذى كان يحكم طائفة المنبوذين فى الهند.

وبالنسبة لى فقد كنت أرى أن رد إسرائيل قد حسم الموقف وأغلق الباب نهائيا على إعادة التفاوض المباشر بيننا وبين إسرائيل، وأصبح على الولايات المتحدة أن تتحمل مسؤوليات ما تعهدت به لنا من تقديم مقترحاتها على أساس ما أعلنته وأكدته مرارا من انطباق الانسحاب المنصوص عليه فى قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ على جميع الأراضى المحتلة، والذى قام المستر سوندرز باعادة تأكيده فى البيان الرسمى الذى ألقاه أمام لجنة العلاقات الخارجية التابعة لمجلس النواب الأمريكى منذ أيام قليلة.

وقد بدا لى واضحا أن مبادرة الرئيس كارتر بالاتصال تليفونيا بالرئيس السادات - بعد مغادرتى نيويورك - والاتفاق معه على قبول اجتماع ثلاثى لوزراء خارجية مصر وإسرائيل والولايات المتحدة، كان الباعث عليها معلومات مؤكدة على أن الرد الإسرائيلى سيكون سلبيا .. بل أكثر من ذلك فليس فى مقدورى استبعاد حدوث تنسيق بين الولايات المتحدة وإسرائيل لضمان استمرار المفاوضات المباشرة بين مصر وإسرائيل رغم رفضها التحرك، ربما لتأكيد عزل مصر عن العالم العربى والعمل على جرها إلى متاهات تنتهى بها إلى الصلح المنفرد.

وأعقبت الرد الإسرائيلى فترة من الارتباك تعددت فيها التصرفات المصرية والأمريكية وتعددت مقابلاتنا مع السفير الأمريكى، كما تبادل السادات وكارتر الرسائل. وقد أعلنت من جانبى أن الرد الإسرائيلى يعكس تصميم إسرائيل على مشروع الحكم المحلى الذى قدمته فى الإسماعيلية والذى رفضناه فى حينه ولا نزال نرفضه وتجاهل تماما مبدأ الانسحاب وأننا إزاء ذلك لا نستطيع - ولا نرى أية فائدة - فى استئناف المباحثات مع إسرائيل.

وأعلن السادات أمام اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى العربى (الحزب الوحيد فى مصر وقتها) أن الرد الإسرائيلى غير إيجابى وغير محدد، وأن موقفنا مازال الاستعداد لمناقشة ضمانات وترتيبات الأمن ولكنا لن نتفاوض على شبر واحد من الأرض العربية.

محاولة تأمين الاتفاق ..

ونشط السفير الأمريكى أيلتس يحاول تأمين الاتفاق الذى تم بين كارتر والسادات - قبل الرد الإسرائيلى - على اجتماع وزراء الخارجية الثلاثة وكان موقفى أن هذا الاتفاق قد سقط وانتفت الفائدة منه بعد رد إسرائيل.

إلا أنه لم يلبث أن توصل إلى اقناع الرئيس السادات الذى ربما أراد أن يقتنع بفائدة عقد هذا الاجتماع على أساس ما يعوله كارتر من أهمية قصوى على الاجتماع، تمكنه من تنفيذ الخطة التى اتفق عليها فى سيناريو كامب ديفيد. ذلك أن الرئيس كارتر يصعب عليه للغاية أن يتقدم بمقترحات أمريكية لحل النزاع ما لم يثبت للرأى العام الأمريكى وبالذات للجماعات اليهودية والصهيونية وأعضاء الكونجرس المتعاطفين مع

إسرائيل أن التفاوض المباشر بين مصر وإسرائيل قد استنفد نفسه وأصبح من المقطوع به أنه لن يؤدى إلى نتيجة، وأن ليس هناك من وسيلة أكثر فاعلية لاثبات ذلك من اجتماع بين الوزراء الثلاثة فإذا لم يسفر عن نتيجة فإنه يسهل عليه عندئذ التقدم بالمقترحات الأمريكية.

إلا أن الخطة المتفق عليها بين مصر والولايات المتحدة فى كامب ديفيد كانت أمرا بالغ السرية ولا يمكن الإعلان عنها كسبب لعقد الاجتماع الثلاثى. ومن الناحية الأخرى كان يصعب على مصر بعد إعلان الرد الإسرائيلى الرافض أن تعلن موافقتها على اجتماع وزراء الخارجية والتفاوض من جديد مع إسرائيل على مرأى ومسمع من العالم وبالذات من الدول العربية والشعب الفلسطينى.

ولم يلبث أن وجد الأمريكيون ضالتهم المنشودة فى المشروع المصرى بشأن الضفة الغربية وغزة والذى كنا سلمناه لهم واشترطنا عليهم عدم تسليمه لإسرائيل قبل أن ترد على الأسئلة الأمريكية وبعد التشاور بيننا وبين الجانب الأمريكى، وأصبحت الواجهة التى تبرر اشتراك مصر فى مباحثات جديدة مع إسرائيل والولايات المتحدة هى طرح المشروع المصرى - الذى يجرى إعداده - بوصفه عنصرا جديدا من المباحثات ربما أدى إلى توصل الطرفين إلى صيغة مقبولة لهما. وصدرت تصريحات أمريكية تمهد لذلك، كما أعلن فى ٢٤ يونيه (حزيران) عن اقتراح أمريكى باجتماع بينى وبين فانس وديان فى ٩ يوليه (تموز).

إلا أن مجلس الوزراء الإسرائيلى اجتمع فى يوم ٢٥ يونيه (حزيران) وصرح المتحدث الرسمى للحكومة الإسرائيلية بعد الاجتماع بأن إسرائيل ترفض الاقتراح المصرى كلية ودون تحفظ لأنه يشكل من وجهة نظرها شرطا مسبقا للسلام بينما تصر إسرائيل على ألا تكون هناك شروط مسبقة.

وأصدرت وزارة الخارجية المصرية تعليقا على القرار الإسرائيلى برفض المشروع المصرى جاء فيه :

« إن هذا القرار يثير مرة أخرى التساؤل حول حقيقة النوايا الإسرائيلية فإنه من الغريب أن إسرائيل التى انتظرت أكثر من شهر لإعداد رد على أسئلة الحكومة الأمريكية لا يعتبر فى الواقع ردا بل تكرارا لمواقف سابقة تتسم بالتعنت وعدم الرغبة

الحقيقية فى التمشى مع جهود السلام المخلصة تسارع الآن إلى رفض مشروع مصرى لم يتم بعد الانتهاء من إعداده، وبالتالى لا تعلم إسرائيل من تفصيلاته شيئا ».
وكأن إسرائيل بموقفها - الذى يدل على عصبيتها وانزعاجها من الصدى الذى تعنيه فى العالم الفكرة التى طرح الرئيس السادات خطوطها العامة فى تصريحاته الصحفية - تحاول أن تغلق الطريق أمام الجهود من أجل السلام - وهى نفس المحاولة التى ظهرت فى رد فعلها إزاء الأسئلة التى وجهتها إليها الحكومة الأمريكية بهدف إيجاد الأساس الملائم للسير قدما فى طريق السلام العادل الشامل الذى شقه الرئيس السادات والذى سعت إسرائيل منذ البداية لوضع العقبات والعراقيل فيه.

رد مخيب للآمال..

وأربك إعلان الحكومة الإسرائيلية رفض المشروع المصرى من قبل تقديمه الولايات المتحدة إذ أفسد عليها ذريعة استغلال المشروع المصرى فى عقد اللقاء الثلاثى، فسارع الرئيس كارتر يوم ٢٦ يونيه (حزيران) باعلان أن رد إسرائيل على الأسئلة الأمريكية جاء مخيبا للآمال وأنه يشعر بالأسف لرفض إسرائيل مشروع مصر قبل أن يتم إعداده فى الصياغة النهائية، وأضاف أنه سيكون من المناسب اجتماع الوزراء الثلاثة وأن مصر وإسرائيل قد يكون لديهما مقترحات جديدة عند عقد الاجتماع وأن الاجتماع يمكن أن يتم بعد أن تنتهى صياغة المقترحات المصرية ويتم إرسالها إلى إسرائيل عن طريق واشنطن.

وسارعت إسرائيل بالتراجع عن رفضها للمشروع المصرى فصدر بيان رسمى من مجلس الوزراء الإسرائيلى فى ٢٧ يونيه (حزيران) يعلن أن مصر لم تقدم خطة سلام لإسرائيل ومن ثم لم ترفض إسرائيل مثل هذه الخطة !!. ومن ثم أعيد فتح الباب أمام الاجتماع الثلاثى على أساس طرح المشروع المصرى.

وعاد بيجن فأدلى بتصريح يدعو فيه مصر لاستئناف المباحثات مع إسرائيل فنشرت ردا عليه تضمن « أن رئيس وزراء إسرائيل يتناسى أن جهود السلام الحالية قد بدأت بمبادرة الرئيس السادات التى استهدفت القضاء على حواجز الشك والسير قدما وبإخلاص فى طريق التسوية الشاملة العادلة لمشكلة الشرق الأوسط على الأسس التى تبناها المجتمع الدولى، وهى الانسحاب الكامل والاعتراف بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطينى وضمان الأمن لجميع الأطراف.

وإذا كانت هذه الجهود المخلصة قد واجهت المصاعب التى أدت إلى توقف المباحثات، فإن مرجع ذلك إلى المواقف التى اتخذها بيجن والتى تدل على أنه لم يتخل عن المفاهيم البالية التى لا يمكن أن تصلح أساسا لإقامة سلام راسخ ومستقر. ولعله من الغريب أنه فى الوقت الذى يطالب فيه بيجن مصر بتقديم مشروع للسلام، فإنه يتناسى أنه سارع يجمع مجلس وزرائه لإعلان رفض مشروع مصرى للسلام حتى قبل أن ننتهى من إعداد هذا المشروع، وهو موقف من جانب بيجن يدل على أنه ـ على عكس ما يدعيه ـ يسعى باستمرار إلى اغلاق أى باب قد يؤدى إلى تحقيق السلام الذى تتطلع إليه شعوب المنطقة ..»

وفى هذه الأثناء عقد فى القاهرة اجتماع طارئ للجامعة العربية على مستوى الوزراء ـ لم تحضره دول الرفض ـ لبحث شكوى الجمهورية العربية اليمنية ضد اليمن الديمقراطية لدورها فى اغتيال الرئيس اليمنى أحمد الغاشمى. وكان قد قتل من جراء انفجار عبوة ناسفة حملها إليه مبعوث من عدن فى شكل رسالة من رئيس اليمن الديمقراطية. وبعد انتهاء الاجتماعات فى المساء ذهبت إلى مقابلة وزير خارجية السعودية وتحدثنا حتى ساعة متأخرة من الليل، وكان معنا وزير خارجية البحرين وهو صديق شخصى للأمير الفيصل. ولم أجد بدا من أن أصارحه بأنى اضطررت إلى عدم الالتزام بما اتفقت معه عليه فى جدة من وقف الاتصالات المباشرة بيننا وبين إسرائيل لموافقة السادات على ما عرضه عليه كارتر من اجتماع ثلاثى للوزراء، وشرحت له الظروف وأكدت عليه أن هذه ستكون المرة الأخيرة .. وقد أبدى تفهما للظروف وعبر عن أمله فى أن يكون هذا هو اللقاء الأخير بالفعل.

كما أعلنت الولايات المتحدة فى ذلك الوقت أن الرئيس كارتر سيوفد المستر مونديل نائب الرئيس الأمريكى إلى إسرائيل ومصر حاملا رسالة إلى كل من مناحم بيجن والسادات تستهدف تحريك جهود السلام فى الشرق الأوسط.

وفى أول يوليه (تموز) صرح الرئيس كارتر بأنه لا يتوقع أن تكون مقترحات السلام المصرية مقبولة تماما لإسرائيل ومهمة الدور الأمريكى أن يبحث إمكانية الوصول إلى حل وسط من خلال دراسة أوجه الاتفاق وأوجه الخلاف بين وجهتى النظر.

وقال كارتر : أنه إذا لم تثمر الجهود المقترحة لعقد اجتماعات بين وزراء الخارجية الثلاثة فى لندن للوصول إلى حل وسط فلن يكون أمامنا سوى العودة إلى الأمم المتحدة ومؤتمر جنيف (١) .

وقد أذعت تصريحا عقب ما أدلى به كارتر ذكرت فيه أن تصريحات الرئيس كارتر غير مشجعة على الاطلاق وأننا لا نعرف بالضبط ما يقصده الأمريكيون عندما يتحدثون عن ضرورة إيجاد صيغة وسط فيما يتعلق بالضفة الغربية وغزة، وذلك أن مطالبنا عادلة ويقرها المجتمع الدولى كما أن هناك مبادئ لا تقبل المساومة.

موافقة دون مناقشة ..

وفى ٣ يوليه (تموز) وصل مونديل إلى الاسكندرية قادما من إسرائيل ونقلته طائرات الهيلكوبتر والوفد المرافق له من مطار جناكليس إلى استراحة الرئيس السادات فى المعمورة، وكنت قد اتفقت مع الرئيس السادات على أن نشرط قبولنا الاجتماع الثلاثى بأن يكون الموقف الأمريكى الذى سيقدم بعد فشل الاجتماع متفقا مع الموقف المصرى وليس صيغة وسط بين الموقفين المصرى والإسرائيلى حسبما ورد فى تصريحات كارتر الأخيرة.

إلا أنه بمجرد أن أبلغ مونديل الرئيس السادات بموافقة مناحم بيجن على اشتراك وزير خارجيته فى الاجتماع الثلاثى فى لندن سارع السادات بابلاغه بموافقته بدوره على الاجتماع دون مناقشة .. وعندما راجعت السادات فى ذلك قال انه وجد من الأحسن ألا يربط موافقته بشروط طالما أن بيجن وافق على الاجتماع بلا شروط وإلا ظهرنا بمظهر المتشدد !!

وبعد انتهاء المحادثات بين الرئيس السادات ونائب الرئيس مونديل عقدا مؤتمرا صحفيا بحديقة الاستراحة أعلن فيه مونديل أن الرئيس السادات قد قبل دعوة الرئيس كارتر لاشتراك وزير خارجيته فى الاجتماع الثلاثى .. وأن بيجن بدوره كان قد وافق على اشتراك موشى ديان فى الاجتماع وأنه تحدد يوم ١٧ يوليه (تموز) ١٩٧٨ لعقد الاجتماع.

---

(١) الأهرام ٣/٧/ ١٩٧٨م

وأكد الرئيس السادات موافقته على إيفاد وزير خارجيته إلى لندن كما أعلن أن مصر قدمت مشروعها للسلام إلى النائب مونديل الذى سوف ينقله إلى كارتر ثم ينقله كارتر إلى إسرائيل، ورفض الرئيس السادات التصريح بأية تفاصيل تتعلق بالمشروع المصرى وقال : أنه سيعلن بالكامل عقب أن تتسلمه إسرائيل. وأضاف السادات أن مصر تبذل أقصى جهودها للتوصل إلى السلام وانها على استعداد للذهاب إلى مؤتمر جنيف، ولكن جنيف بدون ترتيبات مسبقة وإعداد جيد تعنى الفشل، والفشل يعنى كارثة.

وعن الاجتماع الثلاثى فى لندن قال الرئيس السادات « لقد قدمت إلى المستر مونديل بعض المقترحات الخاصة بهذا الاجتماع كمقترحات بديلة مثلا فقد اقترحت أن يتم اللقاء فى العريش عاصمة سيناء ولكنى وافقت على أن يتم الاجتماع فى لندن ». وأرجو أن استرعى نظر القارىء إلى هذه الفقرة التى ستكون لها عواقب فيما بعد. وبعد انتهاء المؤتمر الصحفى تقدم منى وليام كوانت - عضر مجلس الأمن القومى الأمريكى وكان من ضمن الوفد المرافق لمونديل - وسألنى : هل يقصد السادات عقد اجتماع ثلاثى فى لندن يعقبه اجتماع آخر فى العريش ؟ ..

وأجبته على الفور : بل اجتماع واحد فقط. فالسادات تكلم عن العريش كبديل لاجتماع لندن وأضفت أن الحقيقة أن الموقف لم يكن يقتضى أى اجتماع على الاطلاق..» وضحك كوانت.

مشروع الضفة وغزة ..

كان الرئيس السادات قد طلب منى أن أعد نفسى للسفر معه إلى فيينا فى أوائل شهر يوليو (تموز) تلبية لدعوة من المستشار برونو كرايسكى وأشار لى وقتها إلى احتمال دعوة كرايسكى لشيمون بيريز رئيس حزب العمل الإسرائيلى للذهاب إلى فيينا فى نفس الوقت وترتيب لقاء بينه وبين الرئيس السادات. وكانت صحيفة « الأهرام » قد أشارت فى يوم وصول مونديل إلى القاهرة إلى خبر دعوة كرايسكى للسادات لزيارة فيينا، وقد انتهز الصحفيون فرصة المؤتمر الصحفى فوجهوا إلى الرئيس السادات بعض الأسئلة حول هذه الزيارة، منها سؤال حول ما إذا كان سيقابل شيمون بيريز أثناء وجوده فى النمسا ورفض السادات الاجابة عن هذا السؤال. وبعد انتهاء المؤتمر

قال لى الرئيس السادات : إنه أعاد التفكير فى دعوته لى لمصاحبته إلى النمسا وانه رأى من الأوفق عدم سفرى معه لأنه سيجتمع فى النمسا مع شيمون بيريز والمستشار الألمانى السابق ويللى براندت والمستشار برونو كرايسكى بوصفهم زعماء أحزاب واجتماعه سيكون بوصفه رئيسا للاتحاد الاشتراكى العربى وبالتالى فإن الاجتماعات ستكون لها صفة حزبية وليست رسمية، ووجودى كوزير للخارجية قد يكون فيه إحراج لى حيث أنه من غير المستساغ حضورى اجتماعات حزبية. وأخبرته بأنى أتفهم ذلك ولا داعى لسفرى بالفعل خاصة وأن لدى عملا كثيرا للإعداد لاجتماع لندن.

وفى ٤ يوليه (تموز) سلمت الولايات المتحدة لإسرائيل المشروع المصرى [1] بشأن الضفة وغزة، وفى يوم ٥ يوليه نشرت مصر النص الكامل للمشروع وقد لقى المشروع ترحيبا من قبل الدول الأوروبية وتأييدا من قبل الأردن.

---

(١) راجع الملحق رقم (٢) صفحة رقم ٥١٦.

الفصل الرابع والعشرون

صدق أو لا تصدق

في الساعة السادسة والنصف من صباح يوم ٧ يوليه (تموز) استيقظت على رنين التليفون كان المتحدث السيد حسنى مبارك نائب رئيس الجمهورية، وسألنى ضاحكا : إنت لسه نايم يا محمد بك ؟ فقلت إنى كنت نائما بالفعل فقد سهرت لمدة طويلة أمس فقال : هل رتبت نفسك للسفر إلى النمسا ؟ فقلت : إنى غير مسافر وقد أخبرنى الرئيس بذلك منذ أيام فقال : بل ستسافر فقد كنت أتحدث مساء أمس مع الرئيس فطلب منى أن أبلغك بأن تعد نفسك للسفر معه، وسيستقل الرئيس الطائرة من مطار جناكليس فى الساعة الحادية عشرة قبل ظهر اليوم. وسأسافر بالطائرة إلى جناكليس لأكون فى وداعه فأرجو أن تقابلنى فى مطار ألماظة المطار الحربى بجوار هليوبوليس لنسافر معا. وأيقظت بدورى أحمد ماهر ثم النقيب عمرو حمدى ضابط الحراسة وكان معه جواز سفرى وأبلغتهما بالاستعداد للسفر والمرور على فى الساعة التاسعة للتوجه معا إلى المطار. وقامت زوجتى باعداد حقيبة سفرى على عجل، كما اتصلت بسكرتيرتى فى الوزارة لإبلاغها بإلغاء مواعيدى خلال الأسبوع القادم.

ووصلنا إلى مطار جناكليس فى العاشرة والنصف وقدم الرئيس وكانت بصحبته السيدة زوجته من الاسكندرية بطائرة هليكوبتر وبعد انتهاء مراسم وداعه أقلعت الطائرة فى الساعة الحادية عشرة إلى فيينا.

لن أذهب للعريش ..

كان الرئيس صائما كعادته كل يوم خميس، وجلست فى مقعدى بالطائرة مع أحمد ماهر نراجع بعض الأوراق حتى الساعة الواحدة، ثم توجهت إلى مقصورة الرئيس، وجلست معه ومع السيدة زوجته، وظللنا نتحدث فى ذكريات قديمة وأمور عامة إلى أن جرفنا الحديث إلى الاجتماع الثلاثى لوزراء الخارجية المقرر عقده فى لندن بعد عشرة أيام وقال الرئيس إنه لا يتوقع أن يحقق الاجتماع أية نتائج إيجابية، ولكنه سيساعد الرئيس كارتر فيما بعد للتقدم بالمقترحات الأمريكية. فضلا عن أنه سيكون مجالا لفضح مزاعم إسرائيل فى انها لا ترغب فى السلام. وأضاف الرئيس السادات : الحقيقة انى كنت أرغب أن يعقد هذا الاجتماع فى مدينة العريش وليس فى لندن فهى أولا فى أرضنا وهى عاصمة سيناء وهذا له دلا لته. وثانيا فهى قريبة من القاهرة وإسرائيل وتستطيع إذا اثير أمر يحتاج إلى التشاور أن تغادر العريش. وتكون معى فى خلال نصف ساعة ثم تعود، كما أنه إذا قررت أطراف عربية أخرى مثل سوريا والأردن الانضمام إلى المباحثات فستكون العريش على مسافة قريبة من دمشق وعمان. وقلت للرئيس : إنه من ناحيتى فلا يمكن أن أقبل الذهاب إلى العريش. فقال السادات : ولماذا ؟ فقلت : ان لدى سببين. الأول : أنك وعدت الرئيس جعفر نميرى. عندما قابلته فى شهر مايو (آيار) بأنه إذا اقتضى الأمر عقد مباحثات مباشرة بين مصر وإسرائيل فانك ستعمل على أن يتم ذلك خارج مصر وإسرائيل وفى دولة ثالثة كرومانيا، وذلك حرصا على مشاعر الدول العربية التى كانت تطالب باعلان وقف الاتصال المباشر بيننا وبين إسرائيل وحتى نفسح المجال أمام مهمة لجنة التضامن العربى برئاسة نميرى. وابتسم الرئيس وقال : أنا لم أقل خارج مصر وإسرائيل وإنما قلت خارج القاهرة والقدس. فقلت : لا يا ريس أنا متذكر جيدا أنك قلت خارج مصر وإسرائيل وأن هذا ما فهمه الرئيس نميرى ونقله إلى العرب على كل حال.

سكت الرئيس برهة ثم قال : وما هو السبب الثانى الذى لا تريد الذهاب إلى العريش من أجله ؟ قلت : السبب الثانى هو أنى أفضل أن أشنق على أن أذهب إلى العريش لأتفاوض مع الإسرائيليين على أرضى وتحت العلم الإسرائيلى وفى حراسة القوات الإسرائيلية المحتلة. ونظر إلى الرئيس فترة دون أن يعلق ثم نهض واقفا وقال : إنه سيذهب لينام قليلا للراحة من عناء الصيام قبل الوصول إلى فيينا وترك المقصورة إلى غرفة نومه.

لا تدعه وحيدا ..

بقيت وحدى مع السيدة جيهان السادات التى دعتنى إلى تناول الغداء معها، وكانت تكن لى بعض التقدير منذ زيارتها الأولى إلى ألمانيا الغربية فى عام ١٩٧٤ ـ وقت أن كنت سفيرا بها ـ وقد كانت زيارة ناجحة للغاية وتركت شخصية السيدة جيهان السادات أثرا طيبا باقيا فى نفوس كل من قابلتهم من المسؤولين وفى نفوس الشعب الألمانى عامة.

وفى أثناء الغداء قالت لى : بالله يا محمد بك لا تترك الرئيس وحده عند مقابلته لشيمون بيريز فى فيينا. فقلت « الحقيقة أنى محرج. ورويت لها ما ذكره لى الرئيس السادات عندما أبلغنى بعدوله عن سفرى معه إلى النمسا منذ أيام باعتبار أن المقابلات التى ستجرى فيها غير رسمية وأنها على المستوى الحزبى ولن يحضرها وزراء خارجية، وأنى لم أعلم بتغيير هذا القرار إلا فى الساعة السادسة والنصف من صباح هذا اليوم نفسه ». فقالت ؛ لا لا أرجو ألا تتركه وحده إطلاقا مع هؤلاء الجماعة، فإن الإسرائيليين فى غاية الخبث والدهاء والرئيس رجل صريح وما فى قلبه على لسانه وسيعمدون حتما إلى الإفادة من ذلك واستغلاله « وقلت » ولماذا لا تطلبين منه أنت ذلك؟ « قالت » لا أستطيع فهو يغضب إذا حدثته فى شؤون العمل، وهو يحبك ويثق فيك ولن يمانع فى حضورك معه إذا طلبت أنت منه ذلك ». وقلت « سأحاول ».

وانتهى الغداء وشكرتها واستأذنتها فى الانصراف وعدت إلى مقعدى فى الطائرة إلا أن حديثها ظل يرن فى أذنى ويجول فى فكرى، ترى ما الذى دعاها إلى ما قالته لى؟

إنها سيدة ذكية قوية الملاحظة وهى قريبة منه، ثم أن لديها من الكبرياء ما يحول دون إفصاحها عن ملاحظاتها ومشاعرها، ولكنها تعلم أن العلاقة بينى وبين زوجها تعود إلى أكثر من ثلاثين عاما وأنها تستطيع أن تثق فى. لماذا هى قلقة ؟ لابد أنها لاحظت شيئا ما على السادات، ربما أنه لم يعد يعالج الأمور بما تقتضيه مسؤولياته الخطيرة من دراسة وتبصر، ربما شعرت أن الغرور قد أصابه وأنه تجاوز مراحل الحذر، ربما أنه يسرف فى التفاؤل ولم يعد يحفل برأى غيره وربما وربما. ولكن شيئا ما دفعها إلى ما قالته لى. ومر برأسى خاطر، ترى هل كانت السيدة جيهان وراء عدول السادات عن قراره بعدم اصطحابى معه إلى النمسا وقراره فى آخر لحظة بأن أسافر معه ؟

لقاء التهامى ..

وهبطت الطائرة فى مطار فيينا وكان فى استقبال الرئيس السادات رئيس الجمهورية والمستشار برونو كرايسكى. ونزلنا فى فندق «إمبريال » الذى يعود بالخيال إلى أيام عظمة الامبراطورية النمساوية الهنغارية وقصص ومآسى أسرة الهابسبورج التى حكمتها طوال قرون حتى نهاية الحرب العالمية الأولى.

وأرسل لى الرئيس السادات يدعونى إلى العشاء معه فى جناحه - الإفطار بالنسبة له - وذهبت إليه فى الساعة السابعة مساء وتحدثنا فى أمور شتى ثم انتقلنا إلى غرفة المائدة وواصلنا الحديث ونحن نتناول الطعام. وفى منتصف العشاء دخل سكرتير الرئيس وأبلغه أن السيد حسن التهامى قد حضر فطلب منه السادات أن يدعوه ليشاركنا العشاء. ودخل التهامى وعانق الرئيس السادات الذى قدمنى له فصافحنى بحرارة وكان شخصا وسيما ذا عينين زرقاوين وشارب ولحية مدببة، طويل القامة، قوى البنية، تبدو عليه معالم القوة والحيوية والصحة ويشع من عينيه بريق غريب.

كانت هذه المرة الأولى التى أقابله فيها، كنت قد سمعت عنه روايات وأساطير غريبة منها أنه كان فى صدر شبابه يعيش حياة متحررة صاخبة ثم تحول فجأة إلى الدين وإلى التصوف، وكان من الضباط الأحرار الذين قاموا بثورة ٢٣ يوليه (تموز) ١٩٥٢ وعمل فى المخابرات العسكرية ثم عين سفيرا لمصر فى النمسا لسنوات طويلة فى الستينيات ثم أمينا عاما للمؤتمر الاسلامى ومنها أنه كان على اتصال مع الجن والأنبياء ويتحدث مع الموتى.

وقال الرئيس السادات إنه كان يتوق لأن ألتقى بحسن التهامى الذى كان عضوا فى الجناح العسكرى للجمعية السرية التى كان السادات من أفرادها بينما كنت أنا عضوا فى الجناح المدنى لها .. وقال التهامى : إنه كان يتطلع للقائى وأنه يعرف عنى الكثير منذ كنت فى السجن ولعلى لا أعلم أنه كان قد أعد خطة مؤكدة النجاح ليهربنا من السجن فيما لو حكم علينا بالإدانة فى قضية الاغتيالات السياسية عام ١٩٤٦. وظل يروى قصصا عن بطولاته وجسارته تتضمن أعمالا خارقة لا يصدقها العقل ولكنه كان يرويها بتأكيد وثقة لا تقبل المناقشة وكان حديثه رغم ما فيه من مبالغات وجنوح إلى الخيال ظريفا مسليا على غرار قصص « الف ليلة وليلة ».

وقد فهمت أنه كان قد سبقنا إلى النمسا منذ مدة لاعداد زيارة السادات لها وترتيب اللقاء بينه وبين شيمون بيريز، وأنه كان يستعين فى ذلك برجل أعمال نمساوى يهودى من أصدقاء المستشار كرايسكى يدعى كارل كاهان، وبعد انتهاء العشاء عاد كل منا إلى غرفته.

قبل مقابلة بيريز..

وكنت قد قدمت إلى الرئيس السادات يوم ٥ يوليه (تموز) قبل سفره إلى فيينا، مذكرة بمواقف حزب العمل الإسرائيلى ورئيسه بيريز من تسوية نزاع الشرق الأوسط ومستقبل الضفة الغربية ويتضح منها أن الخلاف الرئيسى بين بيجن وبيريز هو حول الضفة الغربية ومدى انطباق القرار ٢٤٢ عليها، وإمكانية إقامة دولة فيدرالية من الأردن والضفة مع إقامة وجود عسكرى إسرائيلى فى الضفة الغربية.

وليس هنا محل مناقشة موقف حزب العمل بشأن التسوية وإنما ضمنت مذكرتى استرعاء نظر الرئيس السادات إلى بعض النقاط وقد جاء فيها :

إن لقاء سيادتكم مع بيريز سيسبق بوقت قصير اللقاء الثلاثى فى لندن بين وزراء خارجية مصر والولايات المتحدة وإسرائيل وقد ترون سيادتكم إزاء هذه الظروف :

(أ) أن أى مرونة فى المواقف المصرية قد يعلن عنها بيريز أو تتسرب عن طريقه إلى الحكومة الإسرائيلية قد تجعل هذه الأخيرة تتشدد فى اجتماع لندن على أساس أن المواقف التى سنتمسك بها فى لندن ليست آخر كلام لدى مصر. وفى هذا الصدد قد أوردت الأنباء أن بيريز رد على هجوم ديان عليه بسبب مقابلته لسيادتكم وخاصة قبل اجتماع وزراء الخارجية فى لندن - بأنه سوف يطلع الحكومة الإسرائيلية على نتائج المقابلة.

(ب) وقد يلجأ بيريز أيضا إلى تسريب أى مواقف مصرية تتسم بالمرونة على أساس أنه هو الذى استطاع التوصل إليها مستغلا ذلك فى سعيه للوصول إلى الحكم. وإذا كان ذلك فى حد ذاته ليس بالأمر السيئ لأنه قد يساعد على تقويض مركز بيجن، فإنه قد يظهر مصر بالازدواجية فى المواقف، ويشجع الحكومة الأمريكية على الضغط علينا لمزيد من المرونة تتعدى الدرجة التى نحن على استعداد للذهاب إليها.

الضيق من حديث السادات ..

وفى اليوم التالى ٨ يوليه (تموز) اجتمع الرئيس السادات بشيمون بيريز وشارك فى الاجتماع كرايسكى وويللى براندت مستشار ألمانيا السابق والذى خلف كرايسكى فى رئاسة الاشتراكية الدولية. وبعد الاجتماع عقد الأربعة مؤتمرا صحفيا وكانت تصريحاتهم فى المؤتمر تدور حول وجوب التوصل إلى تسوية شاملة عادلة وأعلنوا أنه حدث تبادل جاد لوجهات النظر المختلفة وأعلن براندت عن سعادته بنجاح الاشتراكية الدولية فى عقد لقاء بين الرئيس السادات وبيريز رئيس حزب العمل الإسرائيلى فى نطاق مبادئ الاشتراكية الدولية الخاصة بحل المنازعات الدولية عن طريق الحوار السلمى الذى تسوده روح التضامن الإنسانى.

وقد ذكر لى السادات بعد المؤتمر أن الاجتماع كان طيبا وأن بيريز على خلاف بيجن متفتح وعلى استعداد لتقديم تنازلات وأنه اتفق معه على ايجاد صيغة توائم بين متطلبات أمن إسرائيل وحقوق الشعب الفلسطينى.

وفى المساء أقام المستشار كرايسكى وزوجته حفل عشاء محدود حضره الرئيس السادات والسيدة زوجته والمستشار السابق ويللى براندت ورئيس البرلمان النمساوى وزوجته ووزير الخارجية وزوجته وأنا.

ودار الحديث حول موضوعات شتى إلى أن أشار كرايسكى إلى أن الوقت قد حان لاشتراك الملك حسين فى مباحثات السلام حتى يمكن حل القضية الفلسطينية، خاصة وأن المشروع المصرى يطالب بعودة الضفة الغربية إلى الإدارة الأردنية. فرد الرئيس السادات بأن الملك حسين يتبع سياسة انتهازية فهو لا يريد المخاطرة بأى شئ وينتظر حتى نقدم له الضفة الغربية كهدية. وقال أن ما وصف به الملك حسين، من أنه يتخذ القرار غير المناسب فى الوقت المناسب، هو وصف صحيح، فقد انضم الملك حسين إلى الرئيس عبد الناصر فى حرب ١٩٦٧ وكانت النتيجة أنه فقد الضفة الغربية ورفض الانضمام إلى مصر فى حرب ١٩٧٣ وفاته المشاركة فى النصر الذى حققه العرب فيها. وأضاف الرئيس السادات : إنكم تعلمون بطبيعة الحال أن الملك طلال والد الملك حسين قد مات مجنونا وأن لديه معلومات أن الملك حسين بدأت تظهر عليه أعراض الشيزوفرانيا. وقد تضايقت مما ذكره السادات وشعرت بأن باقى الحاضرين قد شاركونى هذا الشعور وانبرى كل من كرايسكى وبراندت يشيدون بسياسة الملك حسين وبشجاعته وذكائه. ويعبرون عن تفهمهم للظروف الصعبة التى تحيط بالأردن.

ورقة اليهود السرية ..

انتهت زيارتنا لفيينا وكان المقرر أن نقضى بعدها بضعة أيام فى منطقة « سالز كمرجوت » وهى منطقة البحيرات بالقرب من سالزبورج للراحة والاستجمام. وفى طريقنا إلى مطار سالزبورج وكان قد ركب الطائرة معنا السيد حسن التهامى دار حديث حول وزير خارجية إسرائيل موشى ديان وكان السادات لا يشعر بالارتياح نحوه على الاطلاق بخلاف شعوره نحو وايزمان وزير الدفاع. وفجأة قال حسن التهامى أنه يعتقد أن ديان هو المسيح الكذاب الذى تنبأت التوارة بظهوره وأنه قد واجهه بذلك عندما قابله فى المغرب. وهنا قاطعه السادات قائلا « يا حسن .. مش عاوزين نجيب سيرة الموضوع ده الآن » وسكت التهامى. ولم أكن أعرف وقتها أنه سبق المبادرة اجتماع بين حسن التهامى وموشى ديان فى المغرب بترتيب من الملك الحسن الثانى [1] .

ومن مطار سالزبورج ركبنا السيارات واخترقنا منطقة من أجمل مناطق العالم تكسوها الجبال والوديان والبحيرات حتى وصلنا إلى فندق قلعة فوشل والذى كان الرئيس السادات قد نزل فيه منذ ثلاث سنوات عندما قابل الرئيس الأمريكى السابق فورد ونزلت فى بانجلو صغير جميل تابع للفندق على حافة البحيرة.

وفى المساء مر على أحمد ماهر ثم ذهبنا لتناول العشاء فى قاعة الطعام بالفندق وكنا نفحص قائمة الطعام عندما دخل القاعة حسن التهامى ولمحنا عن بعد فاتجه إلى مائدتنا وسألنا إذا كنا نسمح له بمشاركتنا ورحبنا به وجلس معنا، وما هى إلا دقائق حتى كان منطلقنا فى الحديث يروى قصصه ومغامراته وتطرق الحديث إلى الديانة اليهودية فقال : إنه تعمق فى دراستها وقرأ التوراة والتلمود وتسنى له الإطلاع على وثائق ومخطوطات قديمة من بينها وثيقة سرية لا يعرف بأمرها أحد فيما عدا قلة معدودة من أحبار اليهود وتعتبر ذات سرية مطلقة وتتحدث هذه الوثيقة عن أن اليهود سيعيشون فى الشتات لأكثر من ألفى سنة يعودون بعدها إلى القدس كى يذبحوا. ولم نفهم فسألناه كيف يكون ذلك ؟ فقال إن الله بعد أن أغضبه اليهود حكم عليهم بالخروج من القدس والعيش فى المنفى مشردين فى أنحاء الأرض وأنهم تظلموا إلى الله وأعلنوا عن توبتهم والتمسوا من الله غفرانه، وآية ذلك أن يعودوا إلى القدس أرض الميعاد على

---

(١) كتاب ديان.

أن يذبحوا بعدها وبذلك يكونون قد تطهروا من آثامهم وتابوا عن معصيتهم لله وأزالوا غضبه ونالوا عفوه.

وقال حسن التهامى : إنه بعد أن اطلع على هذه الوثيقة ظل يوالى البحث والتقصى إلى أن ذهب إلى انجلترا وقابل كبار أحبار اليهود فيها، وذكر أنهم أصيبوا بالذهول ثم بالذعر عندما اطلعهم على معرفته بما تضمنته الوثيقة المذكورة وعبثا حاولوا أن يعرفوا منه كيف اطلع على هذا السر الخطير، ووقع فى روعهم فى النهاية أن اطلاعه عليه ومجيئه إليهم هو إشارة إلهية فطلبوا منه أن يعود إليهم بعد ستة أشهر. وبالفعل سافر إليهم بعد ستة أشهر وقابلهم فقالوا له إنهم تداولوا فى الأمر وأن ما جاء فى الوثيقة صحيح، ورجوه أن يعطيهم مهلة مدتها خمس سنوات حتى يرتبوا أمورهم. ونظر التهامى إلى ساعته - وكانت قد بلغت الحادية عشرة والنصف ولم يبق غيرنا فى قاعة الطعام - فقام وحيانا وانصرف وتابعته أنا وأحمد ماهر بعيوننا حتى خرج من القاعة وانفجرنا ضاحكين فى نفس اللحظة.

وليصدق القارئ أو لا يصدق، ولكن هذه القصة كانت السند المستتر لبعض الاقتراحات التى ترددت فى فكر الرئيس السادات بعد ذلك بشهرين أثناء مؤتمر القمة الثلاثى فى كامب ديفيد بخصوص حل مشكلة القدس، كما سأروى فى حينه.

صيحة حسن التهامى ..

وفى اليوم التالى ١٠ يوليه (تموز) أرسل لى الرئيس السادات لأقابله فى الساعة العاشرة صباحا لنقوم بنزهة فى البحيرة. وكنت فى طريقى إلى الفندق عندما قابلت حسن التهامى فصافحنى وذكر أنه اتخذ قرارا بأن يهدينى أرشيفه السرى بأكمله ليكون تحت يدى فى الوزارة، وهو يتضمن وثائق سرية ومعلومات وبيانات على أكبر قدر من الأهمية وذلك لتقديره لى ولوطنيتى وأنه رفض تسليمه لأى وزير من وزراء الخارجية السابقين. ثم انتقل إلى الحديث عن الاجتماع الثلاثى القادم فى لندن فقال لى أنه يعرف موشى ديان جيدا ثم أضاف : عندما تقابله إذا لاحظت أنه يراوغ فى الحديث معك فما عليك إلا أن تقبض يدك اليمنى وأنت تنظر إليه ثم ترفعها أمام وجهه وتفرد أصابعك أمام وجهه وأنت تصيح « يا تهامى » وستجد أنه سيعود إلى رشده على الفور وبذلك تستطيع التفاهم معه. وفى هذه الأثناء حضر أحد أفراد السكرتارية

وأبلغني أن الرئيس سيغادر غرفته بعد دقائق لبدء النزهة فى البحيرة فحييت حسن التهامى وانصرفت.

وركبنا زورقا صغيرا يعمل بموتور تحركه بطاريات كهربائية وجلست مع الرئيس فى المقعد الخلفى وفى المقعد الأمامى كان قائد الزورق وبجانبه أحد رجال الحرس وانساب الزورق على مياه البحيرة التى تعكس مياهها صور الجبال المحيطة وخضرة الأشجار وزرقة السماء وكان الجو صحوا مشمسا والهدوء شاملا إلا من صوت الأمواج التى يحدثها الزورق وهو يشق المياه. وبعد نصف ساعة وصلنا إلى الشاطئ الآخر من البحيرة حيث نزلنا إلى مقهى جميل تحيط به الأزهار من كل جانب ولم يلبث أن تجمهر عدد كبير من المصيفين يرغبون فى مصاحفة الرئيس ويرجون توقيعه على بطاقات وصور فوتوغرافية للمكان، وكان واضحا أنهم يكنون اعجابا كبيرا بالسادات وتطلعا إلى توفيقه فى تحقيق السلام. ولمدة طويلة استمر الرئيس فى مصافحتهم الواحد بعد الآخر وتوقيع بطاقاتهم وفى هذه الأثناء كان قد انضم إلينا أحمد ماهر الذى كان قد تبعنا مع عمرو حمدى ضابط حراستى فى زورق آخر، وجلسنا نحن الثلاثة فى المقهى نحو ساعة شربنا خلالها عصير التفاح « ايفل زافت » وفرض الجو الشاعرى المحيط إطار الحديث فكان عن جمال الطبيعة ومباهج الحياة بعيدا عن السياسة والمشاكل وبعد ساعة ركبنا الزورق عائدين إلى الفندق.

الرد على بيان كرايسكى ..

بعد عودتى إلى الشاليه اتصل بى تليفونيا حمدى عزام المستشار الصحفى لسفارتنا فى بون والذى حضر إلى النمسا لتغطية زيارة الرئيس السادات وذكر أن بيانا صحفيا صادرا عن ويللى براندت وبرونو كرايسكى باسم الاشتراكية الدولية قد أذيع باللغة الألمانية وأنه يعد ترجمته وسيوافينى بها خلال ساعة.

وعكفت أنا وأحمد ماهر على دراسة البيان وقد ورد فيه أن براندت وكرايسكى يعتقدان أن المبادئ التالية تمثل بصدق فكر حركة الاشتراكية الدولية بشأن تسوية النزاع فى الشرق الأوسط. وأنهما يعتزمان على ضوء ذلك عرض تلك المبادئ أثناء اجتماع مكتب الاشتراكية الدولية فى باريس فى شهر سبتمبر (أيلول) القادم.

وتلا ذلك النص على المبادئ وهى أربعة، الأول : يتعلق بأن يتم إقرار السلام عن طريق التفاوض المستمر. والثانى : إن السلام يجب أن يستند إلى علاقات طبيعية

وإقامة نظام تعاون إقليمى فى المنطقة. والمبدأ الرابع : يتعلق بتسوية المشكلة الفلسطينية وهو تكرار لصيغة أسوان. ولم يكن لنا اعتراضات جوهرية على صياغة هذه المبادئ الثلاثة.

أما المبدأ الثالث فكان ينص على « أن عنصرا مهما من عناصر التسوية السلمية يقوم على أساس إقامة حدود آمنة وفقا لقرارى مجلس الأمن رقم ٢٤٢ و٣٣٨. وستنسحب إسرائيل من كل قطاع وفقا للحدود الآمنة التى يتفق عليها. أما تحديد حدود السلام بالضبط فيجب أن يتقرر عن طريق مفاوضات السلام. ويجب أيضا أن يكون هناك نص على نزع السلاح وترتيبات أمن لإسرائيل فى تلك المناطق التى تتطلب مثل هذه الترتيبات.

وتلاشت آثار نزهة الصباح فقد كان هذا كلاما خطيرا وأخذا بالنظرية الإسرائيلية فى الأمن الإقليمى الذى يستهدف التوسع تحت ستار الأمن وهو ما يخالف صراحة القرار رقم ٢٤٢ الذى ينص صراحة على مبدأ عدم جواز اكتساب الأراضى بالقوة. ويزيد من خطورة البيان أنه صدر من براندت وكرايسكى بعد اجتماعهما بالرئيس السادات وشيمون بيريز، مما يفهم منه ضمنا موافقة الرئيس السادات على ما جاء فيه. وكان سكوتنا على هذا البيان يعنى بالتالى موافقتنا عليه. ويفتح المجال أمام ديان فى اجتماع لندن القادم ليطلب أن تكون النقاط الأربع بمثابة إعلان للمبادئ التى تحكم التسوية، خاصة وأن شيمون بيريز كان قد أذاع تصريحا بأن الرئيس السادات أبلغه أنه على استعداد لسحب مشروعنا بشأن الضفة الغربية وغزة إذا وافقت إسرائيل على إعلان مبادئ. كما أن هذا البيان قد يشجع الولايات المتحدة على أن تشكل اقتراحاتها فى نفس الاتجاه. يضاف إلى كل ذلك أن الاشتراكية الدولية تمثل قوة سياسية دولية يعتد بها وإذا ما وافق مكتب الاشتراكية الدولية فى اجتماعه القادم فى باريس على المبادئ التى اشتمل عليها بيان براندت وكرايسكى فإنها تكتسب نوعا من الوزن الذى يجب عدم الاستخفاف به.

وشرعت مع أحمد ماهر على الفور فى إعداد بيان يوضح موقفنا من بيان كرايسكى وبراندت ويؤكد موقفنا من الانسحاب ومن ترتيبات الأمن، التى يجب أن تكون دولية وليست إسرائيلية، ولمصلحة الجميع وليس لمصلحة إسرائيل وحدها. وما أن انتهينا منه حتى ذهبت لمقابلة الرئيس السادات فى جناحه وكانت الساعة السابعة مساء ووجدته

جالسا مع السيدة جيهان مرتديا الروب دى شامبر وهما يشاهدان التليفزيون. ودعانى الرئيس للجلوس معهما فجلست ولم أشأ مفاتحته فى الموضوع أمام زوجته وظللنا نتبادل أحاديث خفيفة لمدة خمس دقائق وكنت على عجل من عرض البيان الذى أعددناه عليه حتى نذيعه فى وقت مناسب بحيث تنشره صحف الصباح فى نفس وقت نشر بيان براندت وكرايسكى. فسألت الرئيس إذا كان قد اطلع على بيان كرايسكى وبراندت فقال لا، ماذا جاء به ؟ فقلت إنه « زى الزفت ». وهنا أدركت السيدة جيهان السادات أنى أريد أن أحدثه على انفراد فتركتنا وغادرت الغرفة. وشرحت له ما جاء فى المبدأ الثالث للبيان، فقال إنه لم يوافق على مثل ذلك. وسألته عما أذاعه بيريز من استعداده لسحب المشروع المصرى إذا وافقت إسرائيل على المبادئ فقال : إنه لم يقل ذلك بالضبط وإنما أبدى استعداده للمرونة وأنه إذا وافقت إسرائيل على إعلان جيد للمبادئ فما المانع ؟ وقلت : أن بيجن لم يحد خطوة عن مشروعه للحكم الذاتى منذ عرضه علينا فى الاسماعيلية ومن الخطأ أن نبدى استعدادا لسحب مشروعنا حتى من قبل مناقشته مع إسرائيل فى اجتماع لندن وما لم يشعر الاسرائيليون والأمريكيون بأننا نتمسك بما نقدمه فسيعملوا على الإفادة من ذلك، وفكر الرئيس برهة ثم قال « أصدر بيانا بوجهة نظرنا فى بيان الاشتراكية الدولية » وقلت « لقد أعددت بالفعل بيانا وأحضرته معى لعرضه عليك قبل نشره ». وقرأت عليه مشروعنا وعندما وصلت إلى ذكر إمكان موافقتنا على تعديلات طفيفة فى الضفة الغربية على أساس متبادل لأسباب إنسانية أو إدارية قال السادات : أضف « أو لأسباب أمنية » وقلت إن هذا بالذات ما نعترض عليه: فقال « ولكنى وافقت بيريز على التوصل إلى صيغة توازن بين أمن إسرائيل وحقوق الشعب الفلسطينى » فقلت « إن الأمن ممكن تحقيقه بوسائل شتى ولا نستطيع قبول أن يكون ذلك عن طريق ضم إسرائيل لأراض عربية » وفكر السادات برهة ثم قال « إذن اكتف بعبارة تعديلات طفيفة دون إشارة إلى كونها إنسانية أو إدارية » وفعلت ذلك.

وكنا حريصين على أن يصدر بياننا فى الصحف المصرية فى صباح اليوم التالى وقد ظل أحمد ماهر يملى البيان فى التليفون على القاهرة لمدة تزيد على الساعة بسبب رداءة الاتصال التليفونى ولكنه نشر فى النهاية فى صباح اليوم التالى.

الفصل الخامس والعشرون

مقابلة بين السادات والسكرتير العام للأمم المتحدة ..

في اليوم التالى ١١ يوليه (تموز) استقبل الرئيس السادات كورت فالدهايم سكرتير عام الأمم المتحدة وقد حضرت المقابلة. وانقل فيما يلى، بدون تعليق، الحديث الذى جرى فيها لأنه يوضح جوانب من تفكير السادات كما تضمن حديثه بعض المفاجآت لى :

فالدهايم: لقد انتهزت فرصة وجودى فى النمسا لقضاء بضعة أيام للراحة مع ابنتى التى تقيم فى منزل قريب من هنا لزيارتكم وسأبقى هنا حتى موعد انعقاد مؤتمر القمة الأفريقى فى الخرطوم الذى دعيت إلى حضوره.

السادات: إنى سعيد بهذه الفرصة للتحدث إليك وسنتقابل فى الخرطوم لأنى سأحضر مؤتمر القمة الأفريقى بدورى.

فالدهايم: ماذا عن الموقف الآن ؟

السادات: جهود كرايسكى كانت مدهشة، فقد أرسل لى لأوافق على لقاء شيمون بيريز ولقد اجتمعت مع كرايسكى وبراندت وبيريز أول أمس. إن موقف بيجن متشدد جدا وقد ذكر لى « كاهان » أنه رجل مجنون. وكان « ناحوم جولدمان » قد قال لى نفس الشىء ثم أرسل لى بعد ذلك مبعوثا يحثنى على الصبر ومواصلة المباحثات. لكن بيجن يثير دائما صعوبات وقد قلت

« لونديل » إنى أوافق على اجتماع وزراء الخارجية فى لندن تلبية لدعوة « كارتر » رغم يقينى من أن شيئا لن ينتج عن هذا الاجتماع. وبيجن يريد استبعاد الولايات المتحدة بكل طريقة من المباحثات.

فالدهايم: كنت أظن أنه حريص على دور الولايات المتحدة ؟

السادات: لا، لا، إنهم لا يريدون الولايات المتحدة وأنا أرى أنه يجب الاحتفاظ بأمريكا كشريك كامل فى المباحثات. وقبل حضورى إلى هنا طلب ؛ فايتسمان » أن يقابل « الجمسى » ولكن الجمسى رفض لعدم وجود عناصر جديدة فى الموقف الإسرائيلى خاصة بعد الرد السلبى على أسئلة أمريكا، وأنا مازلت معجبا « بفايتسمان » لأنه يقدر أهمية تحقيق السلام. ولم أجد أى خلاف بينى وبين شيمون بيريز خاصة بالنسبة للقدس والضفة الغربية وهى أصعب المسائل بالنسبة لإسرائيل. آراؤنا متفقة. شيمون وأنا !!

فالدهايم: هل بيريز مستعد للانسحاب من الضفة الغربية وغزة ؟

السادات: نعم بشرط الجلوس معا لمناقشة ترتيبات الأمن.

فالدهايم: تقصد النقاط الست [1] إنى أجدها متفقة تماما مع قرارات الأمم المتحدة وأنا سعيد لأن دور الأمم المتحدة واضح فى المشروع المصرى.

السادات: اجتماع لندن لن يحقق شيئا لأن ديان منضم الآن إلى بيجن تماما. ديان يحب المظاهر ويغار من وايزمان الذى تربطنى به علاقة صداقة وديان كذاب وقد طلب منى كارتر مرارا أن أقابل ديان ولكنى رفضت. ولا أعتقد أن محمد - يقصدنى - وديان سيصلان إلى شىء « فى اجتماع لندن » وسيسعى ديان لتحسين صورة إسرائيل.

فالدهايم: لقد أحدثت زيارتك لواشنطن تغييرا هائلا فى الرأى العام الأمريكى كما أحدثت انقساما فى صفوف الجاليات اليهودية ؟

السادات: حذرت محمد من أن ديان لن يقطع المفاوضات لأنه يسعى مع بيجن لتحسين صورة إسرائيل أمام العالم واليهود وهما يريدان أن يستبعدا أمريكا طالما أن هناك مفاوضات مباشرة بين مصر وإسرائيل.

---

(١) النقاط الست المتعلقة بالأمن التى أوردناها فى المشروع المصرى الخاص بالضفة الغربية وغزة. راجع الملحق رقم (٢) صفحة رقم ٥١٦.

اتفقت مع أمريكا ـ وهذا كلام سرى للغاية ولعلمك الشخصى ـ بعد فشل اجتماع لندن أن تكون الخطوة التالية أن يتقدم كارتر بمشروعه للتسوية والا فسنذهب إلى الأمم المتحدة. ليس هناك تفاصيل وخطة كارتر لن تتضمن تفاصيل بل المبادئ العامة. ولكن يجب أن تكون منصبة على المسائل الرئيسية. ثم نذهب بعد ذلك إلى الأمم المتحدة المؤتمر « يقصد المؤتمر الذى دعا إليه فالدهايم » أو مجلس الأمن ثم نذهب بعد ذلك إلى جنيف. لقد ذكرت دائما أن كل شيء هو تحضير لجنيف ولم استبعد جنيف أبدا فأنا أسعى إلى السلام وهذا لن يتحقق إلا باجتماع كل الأطراف.

إسرائيل تخشى جنيف لأن روسيا وسوريا ستحضرانه وكذلك سيكون الموقف الأمريكى قد تغير.

ولكنى متفق مع بيريز على جميع الأمور ! ذكرت له بالنسبة للقدس، فلا تقسيم للمدينة ولكن هناك ميلا مربعا من القدس العربية يجب أن يكون تحت علم عربى ! .. وليكن العلم الأردنى وتكون هناك إدارة عربية ومجلس إدارة مشترك بين الإدارة الإسرائيلية والعربية.

وبالنسبة للضفة الغربية سيصدر اليوم (١) بيان من الاشتراكية الدولية وقد وافقت بيريز على هذا البيان أمس (٢) . والبيان يعالج أساسا الضفة الغربية وقد اخترنا شيمون وأنا لغة تقول : إن الحدود مع الضفة الغربية يجب أن تحقق أمن إسرائيل وتطلعات الفلسطينيين .. وهذا يعنى تعديلات طفيفة فى الحدود .. ونظر إلى السادات وأضاف .. ولكنى سأغير بعض العبارات فى البيان.

وسألنى بيريز عن موقف الملك حسين فأجبته بأنى أوفدت السيد حسنى مبارك من أسبوعين إلى الأردن والسعودية ومعه مشروعى بشأن الضفة الغربية وغزة ليناقش المشروع معهما وقد صدر بيان أردنى يؤيد مشروعى تماما وعلنا.

---

(١) كان البيان قد صدر بالأمس ١٠ يوليه (تموز)

(٢) يقصد يوم لقاء بيريز قبلها بثلاثة أيام فى ٨ يوليه (تموز)

فالدهايم: لقد اطلعت عليه وأسعدنى كثيرا وهذا أمر فى غاية الأهمية.

السادات: أعتقد أنه عندما يقدم الأمريكيون مقترحاتهم فستكون هناك معركة إسرائيلية أمريكية ولكنى أعلم أن كارتر سيخوض هذه المعركة حتى النهاية. كما أن كثيرا من الجماعات اليهودية ستضغط على إسرائيل.

وأعتقد أننا سنمر بمرحلة خطيرة فى شهر أكتوبر عندما يطلب منا تجديد مدة قوات الطوارئ « التابعة للأمم المتحدة » ولم اتخذ قرارا حتى الآن. ولكن من هنا حتى سبتمبر (أيلول) سيحدث الكثير خاصة بعد أن تتحمل أمريكا مسؤولياتها كشريك كامل. ولكنى سأخبرك فى سبتمبر (أيلول) بما يستقر عليه رأيى بطريقة سرية.

فالدهايم: أكون شاكرا لك ذلك للغاية لأنه يجب على أن أتقدم بتقريرى إلى مجلس الأمن.

السادات: لا تنسى يا محمد أن تذكرنى بارسال ما سأقرره فى سبتمبر (أيلول) إلى المستر فالدهايم.

فالدهايم: أريد أن أخبركم بأنى سأتوقف فى دمشق لمدة أربع وعشرين ساعة وأنا فى طريقى إلى حضور مؤتمر القمة الأفريقى فى الخرطوم. وسأرسل لكم ما يدور بينى وبين المسؤولين السوريين. والسبب فى هذه الزيارة هو أن القوات الدولية فى لبنان لا تلقى تعاونا من قبل سوريا وقد طلبت منها إرسال قوات الردع العربية إلى بعض المناطق حتى أتلافى حدوث اشتباكات بين الأمم المتحدة والفلسطينيين ولكن سوريا رفضت ذلك. وسأنتهز الفرصة وأتحدث مع الرئيس الأسد فى الوضع فى الشرق الأوسط فهل تطلبون منى شيئا.

السادات: إنهم غارقون فى لبنان ولن يخرج الأسد سالما وتستطيع سؤالهم ما شئت ولكنهم لن يجيبوا عليك والسبب الحقيقى هو أنهم يريدون ضم لبنان.

فالدهايم: مشكلتنا أن إسرائيل تسلح المسيحيين وبالذات قوات سعد حداد وقد طلبت من الرئيس كارتر مساعدتنا فى أن تتولى الأمم المتحدة هذه المنطقة لأنى أخشى أن تبدأ منظمة التحرير الفلسطينية القتال فى جنوب لبنان.

وقد اتفقت مع ياسر عرفات على عدم القتال فى الجنوب فوافق على ذلك والتزم به - فيما عدا الحادثة التى وقعت مع القوات الفرنسية - وأخشى إن لم نغط حزام الأمن بقواتنا أن يبدأ القتال وهو ما سوف يؤدى إلى انفجار المنطقة. ولا أدرى ماذا سيحدث عندئذ وكيف سيتصدى مجلس الأمن لمثل هذا الموقف. وما هو مدى تأثير سوريا على منظمة التحرير فى رأيك ؟

السادات: مائة فى المائة .. وعرفات يرسل لى سرا كى أترك له مكانا حتى ينضم إلى المفاوضات وأنا اعتزم إشراك أهالى الضفة الغربية وبعض العناصر المعتدلة فى منظمة التحرير مثل خالد الحسن وغيره. ولكنى لن أخبرهم بذلك حتى يحين الوقت المناسب فإن أعدى أعداء الفلسطينيين هم قياداتهم. سمعت اليوم أن محطات الإنذار المبكر تتولاها الأمم المتحدة.

فالدهايم: طبعا ذلك ضد رغبات إسرائيل التى تريد إبعاد الأمم المتحدة.

السادات: ذكر لى جولدمان وكاهان أن بيجن ميؤوس منه ولكنهم نصحونى بأهمية أن يأتى التغيير من داخل إسرائيل نفسها وأنه يجب أن نكون على حذر شديد حتى لا يستغل بيجن الفرصة ويجمع الشعب الإسرائيلى وراءه.

فالدهايم: تذكر أنى أثناء مؤتمر القاهرة التحضيرى اقترحت عقد مؤتمر للأطراف فى نيويورك تحت مظلة الأمم المتحدة. وقد وافقتم وقتها على ذلك وأريد أن أسألكم عن شعوركم نحو هذه الفكرة الآن ؟

ولقد كان الاتحاد السوفيتى فى البداية يؤيد فكرتى ربما لأنها ضد فكرتك ولكن السفير الروسى فى نيويورك زارنى وقدم لى مذكرة من موسكو تذكر فيها أنها لا ترى الموافقة الآن على مشروعى وترغب فى الذهاب إلى جنيف مباشرة، وقد أجبت السفير الروسى بأنى أعتقد أن حلقة ما يجب أن توصل بين مؤتمر القاهرة ومؤتمر جنيف الذى يجب أن يكون المرحلة النهائية ولذلك فاقترح أن يكون المؤتمر الذى دعوت إليه هو هذه الحلقة وقد شعرت أن السوفيت لم يغلقوا الباب نهائيا أمام ذلك.

السادات: أترك لك الخيار إما فى نيويورك ثم جنيف وإما جنيف رأسا هذا متروك لتقديرك. وأنا لا أخاف المقابلة فى نيويورك أو فى جنيف. إسرائيل هى

التى تخاف من ذلك. وقد ناقشت فانس فى هذا الموضوع وهو يؤيد الفكرة ولكنه طلب منى مؤخرا أن ننتظر لندن أولا ثم نلتقى ونقرر على ضوء ذلك.

فالدهايم: أشكرك على هذا لأنه يهمنى معرفة رأيكم مقدما حتى أستطيع أن أمهد لعقد المؤتمر.

السادات: دع الموقف للأمريكان الآن وإذا لم يفعلوا شيئا فسنتفاهم على الخطوة التالية.

فالدهايم: معك الحق أعتقد أن من الأفضل الآن انتظار المقترحات الأمريكية لنرى رد فعلها. وقد اقترحت على سيروس فانس أنه إذا احتاج إلى الأمم المتحدة لتحريك الموقف يستطيع عقد مؤتمر نيويورك.

السادات: من ناحيتى أعطيك « كارت بلانش » وأترك لك حرية التصرف تماما ولكن أرى تأجيل ذلك إلى ما بعد تقديم المقترحات الأمريكية.

الفصل السادس والعشرون

هيا بنا نسقط بيجن

بعد انتهاء مقابلة الرئيس لفالدهايم اتصل بى السيد حسن التهامى وذكر أن لديه أمرا مهما يريد أن يحدثنى بشأنه والتقينا بالفعل فقال التهامى : إن الموقف الداخلى فى إسرائيل أصبح مهلهلا، فمن ناحية : حدث انقسام فى الرأى العام وظهرت تيارات قوية تطالب بالسلام ولو تطلب ذلك رد الأراضى المحتلة إلى أصحابها، كما حدث انشقاق داخل الحكومة الإسرائيلية نفسها حول عدد من الموضوعات، منها إقامة المستوطنات ومنها الخلاف على الرد الإسرائيلى على أسئلة الحكومة الأمريكية وازدادت المعارضة أمام بيجن وأصبح رمزا للجمود، وتهديدا بالخطر وبإضاعة فرصة السلام التى سنحت بمبادرة الرئيس السادات، فضلا عن أن حالته الصحية فى تدهور مستمر وأن النزاع بينه وبين وايزمان وعدد من الوزراء قد أضحى واضحا عنيفا وأن هناك تقاربا بين بيريز ووايزمان، وذكر أن مصادره الخاصة توافيه بأدق الأنباء من داخل إسرائيل نفسها، وأنه لابد لنا من استغلال هذه الأوضاع وأن نضرب والحديد ساخن. وقد حققنا نجاحا كبيرا بترتيب اللقاء بين الرئيس السادات وشيمون بيريز رئيس حزب العمل المعارض لأن من شأنه تعزيز مركز بيريز وزيادة إضعاف مركز بيجن، وأن الخطوة التالية هى أن ندعو وايزمان الآن لمقابلة الرئيس السادات هنا فى فوشل مما سيؤدى إلى زيادة انهيار مركز بيجن وسقوط حكومته، الأمر الذى سيؤدى إلى تشكيل حكومة جديدة تكون أكثر اعتدالا ويمكن التعامل معها.

وأنا أنفر من التآمر والوقيعة بطبعى، فضلا عن اقتناعى بأنه سلاح خطر وذو حدين وممكن أن يرتد على صاحبه وليس هناك ما يدعو إليه طالما أن طريقنا واضح أمامنا ولدينا خط نتبعه.

فقلت : إن ما تذكره عن الوضع الداخلى فى إسرائيل صحيح إلى حد كبير ولا شك أنه يعود علينا بالفائدة لأنه يشكل ضغطا على سياسة بيجن الرافضة للتسوية الشاملة ولكن يجب أن ندرك أن مبعث السخط الداخلى فى إسرائيل شعور جارف من الرأى العام الإسرائيلى. إن تشدد بيجن قد يؤدى إلى ضياع فرصة السلام التى طرحها الرئيس السادات ونحن نساعد على ذلك بتأكيد تمسكنا بحقوقنا من ناحية والتأكيد على رغبتنا واستعدادنا لتقديم كل الضمانات لأمن إسرائيل والعيش معها فى سلام، وفى علاقات حسن جوار. ومن الناحية الثانية أنا أرى أن نستمر فى التوجه إلى الرأى العام الإسرائيلى على أساس هذا الخط .. وإن الأفضل ترك هذه التفاعلات داخل إسرائيل تنمو وتطرد دون تدخلنا بحيث يأتى التغيير من داخل إسرائيل نفسها وأنه فى اللحظة التى يحس فيها الشعب الإسرائيلى أننا نعمل على الوقيعة بين زعمائه وإسقاط حكومته فسيكون رد فعله الطبيعى والتلقائى هو الالتفاف من جديد حول بيجن وحكومته.

إلا أن التهامى لم يقتنع بما قلته وظل يردد أهمية عدم إضاعة هذه الفرصة وفى النهاية قال لماذا لا نذهب إلى الرئيس السادات ونعرض الأمر عليه ؟ فقلت إنى لا أحب اقحام الرئيس السادات فى هذه الشكليات الفرعية وأن العالم ينظر إليه نظرة كبيرة على أساس أنه رجل يسعى إلى السلام القائم على الحق والعدل. وأن الرئيس السادات حضر إلى هذه البقعة لقضاء أيام قليلة للاستجمام والراحة ويجب أن نعمل على توفير ذلك له كما أنى بدورى فى حاجة إلى الراحة.

وفى المساء لم أجد أثرا لحسن التهامى ولم يحضر إلى قاعة الطعام كالمعتاد.

لنحكم الحصار حول بيجن ..

فى اليوم التالى ١٢ يوليه (تموز) أبلغنى أحد أفراد السكرتارية أن الرئيس يرغب فى مقابلتى أنا والسيد حسن التهامى فى الساعة العاشرة والربع من صباح اليوم فى شرفة الفندق.

وذهبت إلى الشرفة فى الساعة العاشرة وجلست مع السيد حسن كامل رئيس الديوان الجمهورى والسفير أحمد عثمان الذى كان قد تولى منصبه كسفير لمصر فى النمسا منذ أسابيع قليلة ومع أحمد ماهر نشرب القهوة ونطل على منظر البحيرة والجمال الرائع، وفى الساعة العاشرة والربع تماما دخل الرئيس السادات إلى الشرفة ومعه السيد حسن التهامى فذهبت وحييته وجلست على منضدته أنا وحسن التهامى. وقال الرئيس لقد طلبتكما لنناقش موضوعا عاجلا وهو أنى أفكر فى دعوة وايزمان للحضور إلى هنا ومقابلتى فما رأيكما .. ولم يتكلم التهامى. فقلت: وما الفكرة من وراء حضور وايزمان إلى هنا ؟ فقال: لنحكم الحصار على بيجن ونزيد الضغط عليه. فقلت : يا ريس إن وايزمان وزير فى حكومة بيجن وهو عضو فى حزب حيروت، وربما يكون أكثر اعتدالا من بيجن وربما أنه على خلاف معه فى بعض وجهات النظر إلا أن ذلك لايعنى أنه سينضم إلينا ضد بيجن. قال السادات : وما المانع من حضوره والحديث معه وهو يستطيع أن ينقل وجهة نظرنا إلى بيجن. قلت : ولم العجلة فى ذلك ؟ إنى سأسافر فى خلال أيام معدودة إلى لندن للمشاركة فى الاجتماع الثلاثى مع ديان وفانس. وسنطرح مشروعنا خلال هذا الاجتماع وسينقل ديان وجهة نظرنا إلى حكومته وليس هناك ما نقوله لإسرائيل فى الوقت الحالى إلا عرض مشروعنا وهذا من اختصاص وزير الخارجية الإسرائيلى وسيكون موجودا فى لندن فماذا سنقول لوايزمان الآن ؟ .. فقال التهامى : إن حضور وايزمان الآن ومقابلته للرئيس سيغيظ ديان وسيزيد حدة الخلاف بين وايزمان وبيجن وبين وايزمان وديان. فقلت : إنه يجب أن نتبع سياسة النفس الطويل وأمامنا الآن اجتماع لندن فلماذا لا ننتظر لنقرر على ضوء نتائجه الخطوة التالية ؟ إن التوجه لوايزمان قد يكون له ما يبرره بعد انتهاء الاجتماع الثلاثى. أما الآن فلن يحقق شيئا اللهم إلا حرق وايزمان نفسه .. وساد السكون عدة دقائق قطعه الرئيس السادات بقوله: أكتب يا حسن، وأخرج التهامى نوتة وقلما واستعد للكتابة وأملى عليه السادات برقية منه إلى الفريق الجمسى وزير الدفاع يطلب منه الاتصال بوايزمان عن طريق البعثة الإسرائيلية فى جناكليس للحضور لمقابلة الرئيس غدا ويطلب من الفريق الجمسى الحضور بدوره. وانتهى الاجتماع.

وفى صباح اليوم التالى ١٢ يوليه (تموز) كنت أتناول الإفطار مع أحمد ماهر فى شرفة الفندق عندما وصل الفريق الجمسى حوالى الساعة التاسعة والنصف ولم يكن الرئيس قد غادر غرفته بعد وجلس معنا الفريق الجمسى لتناول قدح من القهوة

وأعطانى جرائد الصباح التى أحضرها معه من القاهرة وكان من المفارقات العجيبة أن قرأت فى الصفحة الأولى من « الأهرام » عنوانا بالخط العريض « الجمسى لن يلتقى بوايزمان قبل تحديد نتائج مؤتمر لندن » ويقول الخبر « أكد الفريق الجمسى أنه لن تكون هناك لقاءات جديدة بين العسكريين فى مصر وإسرائيل قبل أن يحدث شيء جديد يوضع للمناقشة وكان وايزمان قد بعث إلى الجمسى مؤخرا يطلب الاجتماع به قبل اجتماع لندن الثلاثى ورفض الجمسى ».

الغضب يملأ صدرى ..

وفى الساعة الثالثة بعد الظهر وصل وايزمان وزير الدفاع الإسرائيلى إلى شرفة فندق « شلوس فوشل » .. وكان معه كارل كاهان وقد صافح الفريق الجمسى كما صافحنى وقد تركتهما وذهبت إلى الجلوس مع بعض زملائى وأبلغ الرئيس السادات بوصول وايزمان ولم تمض دقائق حتى أرسل يستدعيه لمقابلته فى جناحه بالفندق فغادر الشرفة مع الفريق الجمسى الذى صحبه إلى المقابلة ثم لم يلبث بعد فترة وجيزة أن ترك وايزمان مع الرئيس السادات فى لقاء منفرد.

واستمرت المقابلة نحو ثلاث ساعات وبعدها عاد وايزمان إلى الشرفة حيث كان فى انتظاره الفريق الجمسى وكاهان الذى بقى معهما لمدة دقائق ثم اتجه نحوى وذكر أنه يشرفه لو قبلت دعوته للعشاء مع الفريق الجمسى ووايزمان فى مطعم جميل يطل على منظر رائع. وقد اعتذرت بأنى مشغول إلا أن ثلاثتهم ألحوا على فى الحضور فقلت إنى سأحضر لقضاء بعض الوقت معهم قبل العشاء وفعلا توجهت مع ماهر إلى المطعم المذكور وكان فعلا يطل على منظر خلاب وتبدو أضواء القرى المتناثرة بين الجبال وهى تتلألأ، وبعد ربع ساعة عدت وماهر إلى الفندق حيث أخبرونى بأن الرئيس السادات سأل عنى وترك رسالة بأن أذهب إلى لقائه فى غرفته حال عودتى من الخارج.

وتوجهت إلى غرفته بخطى ثقيلة وقلب مهموم واستقبلنى الرئيس بحرارة وقال « لقد طلبتك لأخبرك بما تم بينى وبين وايزمان وأعتقد أنها كانت مقابلة مفيدة وناجحة، رغم أنك كنت معترضا عليها، لقد أخبرت وايزمان أن تصرفات بيجن ستؤدى إلى ضياع فرصة السلام، وأنه قد ثبت لى أنه لا يفقه شيئا فى السياسة، ولو كان لديه حس سياسى لكان قدم لى مقابلا لمبادرتى بذهابى إلى القدس، ولكنه عجز عن فهم مدلول

المبادرة وقابلها بالتشدد والمراوغة مما أثار عليه حنق العالم كله، وعلى سبيل المثال كان يستطيع أن يقوم بمبادرة بسحب القوات الإسرائيلية من سيناء إلى خط العريش - رأس محمد، ولو فعل ذلك فإنه سيكون قد نقل الكرة إلينا ويكون الدور علينا فى اتخاذ خطوة مقابلة ولكن جموده وجشعه أعمياه عن القيام بأى تحرك. وقلت لوايزمان إنى لا أستطيع الاستمرار إلى ما لا نهاية فى مباحثات عقيمة بدون جدوى وأنه ما لم يحدث تحول فى الموقف الإسرائيلى قبل شهر أكتوبر (تشرين الأول) (فترة انتهاء مدة قوات الطوارئ) فسيكون الموقف خطيرا بالفعل. واقترحت على وايزمان أن يقنع بيجن بضرورة عمل شىء قبل هذا التاريخ كأن يعيد إلى مصر مدينة العريش - ونرفع عليها العلم المصرى وبذلك نستطيع أن نذهب إليها للتفاوض مع الإسرائيليين كما تستطيع ذلك سوريا والأردن متى قررتا الاشتراك فى المباحثات (وعاد إلى ذاكرتى حديثنا فى الطائرة حول العريش) كذلك يعيد إلينا جبل سيناء الذى اعتزم أن أنشئ فيه مجمعا للأديان الكتابية الثلاثة اليهودية والمسيحية والاسلام يكون رمزا للارتباط بين هذه الأديان الثلاثة والمحبة والسلام فى المنطقة التى كلم الله فيها موسى [(1)] » .. وسكت لم أعلق بشىء على ما قاله الرئيس وبعد برهة قال « ماذا بك يا محمد هل هناك ما يضايقك ؟ » وشعرت بالغضب يملأ صدرى حتى يكاد ينفجر وقلت « لا شىء » .. فقال « يبدو عليك التعب. اذهب وحاول أن تستريح فأمامك عمل كثير فى لندن » وتركته وانصرفت. كان قد أصابنى شعور بالاشمئزاز والسخط من السادات وبيجن والتهامى وعلى عملى كوزير خارجية. ما هذا العبث ؟ ألم يجد السادات وسيلة لقضاء بعد الظهرية - فى هذه البقعة الجميلة التى حضر إليها للراحة والاستجمام غير استدعاء وايزمان من آخر الدنيا ليقول له هذا الكلام الفارغ؟ أيعقل ونحن نطالب بانسحاب إسرائيل من سيناء والجولان والضفة الغربية وغزة أن نستدعى وزير الدفاع الإسرائيلى كى نلتمس وساطته لدى بيجن حتى يمن علينا باعطائنا العريش لتصبح جزيرة فى بحر الاحتلال الإسرائيلى لأراضينا وكى يعيد إلينا جبل سيناء ليبنى عليه السادات هرما له ؟ وفوق كل ذلك يصبح الدور علينا إذا استجاب بيجن لالتماسنا فى تقديم التنازلات. لقد أدت المقابلة بين وايزمان والسادات والتى كانت بايحاء من حسن التهامى إلى تعقيدات سأرويها فى حينها.

---

(١) راجع كتاب وايزمان - المعركة من أجل السلام - صفحة ٢١٢ وما بعدها.

عدت إلى غرفتى وكان أحمد ماهر فى انتظارى وقبل أن أقص عليه ما حدث أطلعنى على برقيات صحفية تفيد أن محطة سى . بى . إس (C.B.S) الأمريكية قد أذاعت الخبر التالى « يبدو أن كلا من مصر وإسرائيل قد وافقتا على استمرار مفاوضات السلام على مستوى الوزراء بعد انتهاء مؤتمر لندن القادم وأن الاجتماعات القادمة سوف تجرى فى العريش وسيتحدد موعد اجتماع العريش فى اجتماع لندن »، ثم خبر ثان « إسرائيل تعلن موافقتها على اقتراح مصر استكمال المباحثات بعد انتهاء مؤتمر لندن فى العريش » ! و« ديان يقول إن إسرائيل مستعدة لحضور اجتماعات العريش وإنه يتوقع أن تشمل محادثات السلام فى اجتماع لندن القادم ثلاث نقاط :

١- مقترحات السلام المصرية الأخيرة

٢- خطة السلام الإسرائيلية

٣- وضع إطار لاستمرار المباحثات بين مصر وإسرائيل.

وكان واضحا أن الولايات المتحدة سواء من تلقاء نفسها أو بالتواطؤ مع إسرائيل هى التى اختلقت هذا الخبر الكاذب من أساسه، والذى يتنافى مع الموقف المصرى مائة فى المائة، وعملت على تسريبه عساها تفلح فى إحراجنا وخضوعنا للأمر الواقع ونقبل الالتزام بجولة أخرى من المباحثات مع إسرائيل حتى قبل أن يبدأ الاجتماع الثلاثى فى لندن وقبل أن نعلم ما سوف يسفر عنه. وتذكرت سؤال وليام كوانت لى بعد انتهاء المؤتمر الصحفى للسادات وونديل فى الاسكندرية ولعنت اللحظة التى نطق فيها السادات باسم العريش فى ذلك المؤتمر كبديل لاجتماع لندن.

تأجيل لحظة الحقيقة ..

كان هدف الولايات المتحدة من دفع عملية التفاوض المباشر بين مصر وإسرائيل إلى الاستمرار هو إرجاء مواجهة « لحظة الحقيقة » THE MOMENT OF TRUTH بأن نضطر إلى إعلان مقترحاتها فى مواجهة إسرائيل وفقا لما تعهد به الرئيس كارتر فى سيناريو كامب ديفيد فى فبراير (شباط) الماضى .. ولعله من المضحك المبكى أن أقوى دولة فى العالم ترتجف أمام دولة صغيرة - اصطنعتها مع الاتحاد السوفيتى وزرعتها فى وسط الدول العربية - وتتهرب وتتردد فى أن تطلب منها الالتزام بالشرعية الدولية والانسحاب من أرض الغير التى احتلتها بقوة السلاح الأمريكى وبوازع من الجشع والتوسع.

تفعل الولايات المتحدة ذلك وهى تعلم تماما أن اجتماعا مصريا إسرائيليا ثانيا أو ثالثا أو رابعا لن ينتج شيئا لأن إسرائيل ترفض أن تنزع مخالبها من أراضينا وأن ترخى من قبضة يدها على عنق الشعب الفلسطينى، وليس أدل على ذلك أن إسرائيل رفضت الرد بصلافة على الأسئلة التى وجهتها إليها الولايات المتحدة نفسها حول مستقبل الضفة الغربية كشرط لاستئناف المباحثات بعدها إذا ما كان ردها إيجابيا.

تفعل ذلك غير حافلة بما سوف يسببه استمرار هذه الاجتماعات العقيمة لمصر من إذلال ومهانة وتقويض لمركزها فى العالم العربى ولاعتبارها أمام المجتمع الدولى.

أما عن مسارعة إسرائيل بالإعلان عن موافقتها على عقد اجتماعات تالية لاجتماع لندن فأمر طبيعى وهدية من السماء، وإلا فأى شىء يحقق لها تكريس الانقسام فى العالم العربى وعزل مصر عنه وانعزاله عنها، أكثر من أن تجرجر مصر حول العالم فى متاهات مباحثات تعلن إسرائيل سلفا وجهارا أنها لن تؤدى إلى انسحاب من الأراضى العربية المحتلة أو إلى إقرارها بحقوق الشعب الفلسطينى الذى أقتلعته من أرضه وشردته فى الآفاق.

وقلت لماهر أنى لا أبالى بمثل هذه المناورات من جانب الولايات المتحدة أو من إسرائيل فكل منهما يعرف طريقه ويحاول تحقيق مصالحه ومثل هذا يجب أن نتوقعه وعلينا ترجع مسؤولية مقاومته والتغلب عليه وذكرت أنى لن أشارك فى اجتماع تال لاجتماع لندن ما لم يتضح فى هذا الاجتماع تحول فى الموقف الإسرائيلى يبرر اجتماعا لاحقا.

ولكن المشكلة الأولى بالنسبة لى أصبحت تصرفات الرئيس السادات العفوية المرتجلة والتى يفاجئنا بها دون سابق إنذار والتى تشكل خروجا وانحرافا عن الخط السياسى والتكتيكى الذى نتبعه، وغالبا ما ينتهى ذلك إلى أوضاع تسىء إلى موقفنا مما يتطلب منا جهودا إضافية لإصلاحه. وقلت ألا يرى أسلوب الجانب الآخر ؟ وأن مناحم بيجن لا يقدم على خطوة قبل أن يقتلها بحثا مع مجلس وزرائه. وأضفت أنى أصبحت فى حيرة من أمره وأجد صعوبة كبيرة فى العمل معه ورويت لماهر قصة حضور وايزمان إلى فوشل وكيف أن السادات استطلع رأيى فى استدعائه فأجبته بأمانة بأنى لا أوافق عليه لأسباب أعتقد أنها وجيهة ومنطقية إلا أنه كان قد اتخذ القرار فى نفسه قبل سؤالى، فاستدعاه دون أن يبدى لى أسبابه فى ذلك. وكنت مستعدا

للتغاضى عن ذلك لو أنه كانت لديه أسباب قوية لمقابلة وايزمان - اختار ألا يطلعنى عليها لسبب ما - ولكنه عندما أبلغنى بنتيجة المقابلة وجدتها سخيفة وأن الأمر لم يكن غير نزوة استبدت به دون إعداد أو دراسة.

وهدأ ماهر من روعى وقال : إن مسؤوليات السادات ضخمة مرهقة وأنه يلجأ أحيانا إلى مثل هذه التصرفات بدافع القلق من مرور الوقت دون أن تحقق مبادرته شيئا محسوسا وأنه يظن أنه بمثل هذه التصرفات يدفع الأمور إلى التحرك. وقال إن وجودى إلى جانب الرئيس السادات له أهمية قصوى فهو يقدرنى ويستمع إلى دون أن يغضب وليس ذلك الحال بالنسبة للآخرين الذين ربما يفضلون عدم الإفصاح له عن آرائهم حرصا على مرضاته وأنها على كل حال مسؤوليتى المباشرة كوزير لخارجيته.

وشرعنا نقيم زيارة السادات للنمسا وكانت النتائج فى نظرنا سلبية. ففى الاجتماع مع شيمون بيريز أقر السادات وجهة نظر إسرائيل فى الأمن الإقليمى، عندما وافق على تلك الصيغة التى ذكرها أمامى لفالدهايم التى تقوم على التوازن بين أمن إسرائيل وتطلعات الشعب الفلسطينى، وقد أصدر ويللى براندت وكرايسكى بيانهما على هذا الأساس كما سبق إيضاحه.

كما أنه فى اجتماعه مع وايزمان تخطى الحديث عن مشروعنا بشأن الضفة الغربية وغزة وهو الأصل إلى الحديث عن جزئيات لا تقدم بل تؤخر - عن استرداد مصر للعريش ولجبل سيناء - وهو ما يعتبر نشازا وخروجا عن خطنا الثابت المعلن والتحول إلى مسائل هامشية لا قيمة لها.

وفى اليوم التالى ١٤ يوليه (تموز) ركبنا الطائرة عائدين إلى مصر.

سأستقيل إذا اقتضى الأمر..

وزارنى السفير الأمريكى أيلتس يوم ١٥ يوليه (تموز) حيث تكلمنا فى بعض الترتيبات المتصلة باجتماع وزراء خارجية مصر والولايات المتحدة وإسرائيل، والذى كان مقررا أن ينعقد فى فندق تشرشل فى لندن ثم قررت الحكومة البريطانية نقل مكان انعقاده إلى قلعة ليدز فى مقاطعة كنت لاعتبارات تتعلق بالأمن، وفى أثناء الحديث سألنى أيلتس بطريقة عرضية عن رأيى فى الموقف لو اضطرتنا الأحداث إلى تأجيل حل المشكلة الفلسطينية لمرحلة لاحقة وإجراء حل جزئى بيننا وبين إسرائيل حول سيناء. فقلت إن

هذا مستحيل لأنه سيهدم المبادرة التى تقوم على التسوية الشاملة للنزاع العربى الإسرائيلى وسيؤدى ذلك إلى عواقب وخيمة فى المنطقة. فقال أيلتس وماذا لو ارتأى الرئيس السادات أن الأفضل التوصل إلى ذلك مرحليا ؟ فقلت : إن الأمر عندئذ سيكون واضحا بالنسبة لى سأستقيل من الوزارة. فقال أيلتس منزعجا : أرجو ألا تفعل ذلك !

وقلت لأيلتس أنى أريد بهذه المناسبة أن أتحدث معه فى موضوع دقيق وهو أن الرئيس السادات يعمل باخلاص من أجل تحقيق السلام الشامل وهو مستعد لاتخاذ قرارات شجاعة فى هذا السبيل ولكنه - أى السادات - كما لا يخفى على أيلتس، يشتط أحيانا ويرتكب بعض الأغلاط والتجاوزات والحماقات، وهو يثق فى السفير أيلتس ويبوح له بأفكاره بصوت عال، وأنى أرجو منه عدم استغلال هذا الضعف الذى يعترى شخصية السادات فى بعض الأحيان، بأن ينقلها إلى حكومته فتقوم هذه برصد هذه الأخطاء والحماقات عليه وتكبله بها وتبنى مواقفها على أساسها فهذا أسلوب غير عادل وغير شريف. وقلت إنى سمحت لنفسى بمصارحته بهذا الأمر لأنى أثق فيه من ناحية ومن ناحية أخرى لأنه رجل ذكى وأنا أعلم أنه يدرك تماما ما أقصد ولا داعى للتظاهر بيننا بغير ذلك.

ولم يبد على أيلتس أى أثر للدهشة مما قلت وقال ببساطة : ولكنه الرئيس وأنا سفير ومن واجبى أن أحيط حكومتى علما بكل شىء .. وأجبته بأنى أحاول أن أحمى السادات من نفسه وفى استطاعته دائما (أى أيلتس) التحدث معى فى أى أمر مما أشرت إليه وسأحاول أن أراجعه (أى الرئيس) فيه وأن المسألة ليست شخصية بل إنها لحماية مسيرة السلام نفسها وإتاحة الفرصة أمامها لتحقيق غايتها، وقال أيلتس أنه يتفهم قصدى.

وكانت آثار رحلة النمسا لا تزال تنعكس على نفسيتى وحدث فى مساء ذلك اليوم ما زاد من إحباطى. كنت جالسا فى بيتى مع أحمد ماهر ندرس بعض الأوراق التى أعددناها للاجتماع الثلاثى عندما طلبنى السيد حسنى مبارك فى التليفون فى الساعة الحادية عشرة مساء وأبلغنى تعليمات من الرئيس السادات بشأن الاجتماع الثلاثى فى قلعة ليدز، وقلت : ولكن لدى عدة موضوعات للمناقشة مع الرئيس قبل سفرى - وكان قد تحدد يوم ١٧ يوليه (تموز) للسفر فقال أن الرئيس لديه بعض المشاغل وأنه سيكون على اتصال تليفونى معى - فى لندن - طوال المؤتمر وغضبت وقتها وقلت إنى لا

استطيع العمل بهذه الطريقة. وكانت علاقتى بالسيد حسنى مبارك تقوم على الاحترام المتبادل والصراحة فقد كان رجلا جادا أمينا لا يعرف الالتواء.

وبعدها بساعة اتصل بى السيد حسنى مبارك من جديد وقال إن الرئيس وافق على أن يقابلنا فى الساعة الحادية عشرة من صباح الغد فى استراحة المعمورة. وبعد أن انتهيت من عرض الأسلوب الذى سنتبعه فى مؤتمر قلعة ليدز قال الرئيس أريد أن أسألك سؤالا فقد لاحظت عليك تغيرا فى المدة الأخيرة : هل تناقش خططنا مع بعض رجال المعارضة وهل هناك من يؤثر عليك ؟ قلت غاضبا « كيف أناقش أسرارنا مع الغير ؟ إن أحدا لا يؤثر على فى شىء وأنا أعمل بوحى أفكارى بعد مناقشتها مع الخبراء والفنيين فى الوزارة فى نطاق سرية مطلقة ».

فقال « دعنى أسألك عن شخص معين هو نبيل العربى - وكان السفير نبيل العربى سفيرنا الحالى فى نيودلهى يعمل مديرا للإدارة القانونية بوزارة الخارجية وتربطه صلة نسب بالسيد محمد حسنين هيكل رئيس مجلس إدارة « الأهرام » السابق والذى كان يتخذ موقفا معارضا لمبادرة السادات - قلت: « إن نبيل العربى موظف كفء، وملتزم ويقدر المسؤولية، وأنا أثق فى أنه لا يمكن أن يطلع أحدا على أسرار العمل ».

وغلبنى الانفعال فأضفت أنت تعلم أنى لم أسع للعمل وزيرا للخارجية وأنا قبلت قرارك بتعيينى فى هذا المنصب بوازع من الصلة القديمة بيننا وكواجب وطنى حتى أستطيع أن أعاونك فى خدمة قضيتنا، وأنا لا أخاف منك ولست حريصا على منصب أو جاه ولا يسعنى إلا أن أدلى برأيى بصراحة وأمانة، والقرار فى النهاية لك وإذا رأيت فى أى لحظة أن أترك الوزارة فلا تتردد بحكم علاقتنا السابقة وسأترك الوزارة على الفور وبالشكل الذى تراه سواء باقالتك لى أو باستقالتى بدعوى أن صحتى لم تعد تتحمل أعباء العمل ».

وتأثر الرئيس السادات وقال : وأنا أخذتك وزيرا للخارجية لهذه الأسباب، ولأنى أثق فى إخلاصك ونزاهتك فلست أريد موظفا ينفذ ما أقول دون مناقشة وليس هناك ما كان يدعو لانفعالك لقد وجهت إليك سؤالا وقبلت إجابتك وانتهى الأمر.

وصافحنى الرئيس متمنيا لى حسن التوفيق فى اجتماع قلعة ليدز وغادرت المعمورة مع السيد حسنى مبارك عائدين إلى القاهرة لأسافر فى اليوم التالى إلى لندن.

الفصل التاسع والعشرون

بين جدران قلعة ليدز

استقل الوفد المصرى فى الاجتماع الثلاثى طائرة الرئيس ظهر يوم ١٧ يوليه (تموز) وكان الوفد يتكون منى ومن السفراء أسامة الباز ونبيل العربى وعبد الرؤوف الريدى وأحمد ماهر السيد والسكرتير الأول أحمد أبو الغيط من مكتبى، وهو من الشبان الذين يبشرون بمستقبل باهر، وكان الجو فى الطائرة مرحا سعيدا فقد كانت المجموعة متآلفة متضامنة تعمل بروح الفريق وتشعر بمسؤولياتها الوطنية والعربية، وفوق ذلك كنا نحمل معنا إلى مائدة المباحثات مشروعا قويا محصنا يصعب رفضه أو النيل منه على أساس موضوعى ومعقول.

وعند وصولنا إلى مطار هيثرو بالقرب من لندن كان فى استقبالنا مندوب عن وزارة الخارجية البريطانية والسفير المصرى سميح أنور. ونظرة عابرة على المطار كانت توضح مدى إجراءات الأمن التى اتخذتها السلطات البريطانية لاستقبال الوفود الثلاثة عند وصول كل منها فقد كان المكان يعج بالقوات والسيارات المصفحة والدبابات.

وانتقلنا إلى إحدى قاعات المطار حيث تجمع عدد من مراسلى الصحف ووكالات الأنباء، وقد ألقيت عليهم كلمة قلت فيها « إن هذا الاجتماع كما هو معروف يعقد بمبادرة من الحكومة الأمريكية فى متابعتها لجهودها لتحقيق سلام عادل ودائم فى الشرق الأوسط، وأننا حضرنا إلى هنا بقلوب وعقول مفتوحة لأننا مصممون على استكشاف جميع السبل لتحقيق الهدف الذى تتطلع إليه جميع شعوب المنطقة وإننا

نأمل أن تكون هذه الروح متبادلة من قبل الحكومة الإسرائيلية، وإذا كانت هذه هى السبل فلا شك أننا سنستطيع تحقيق التقدم المرجو.

إن السلام ممكن أن يتحقق وتقوم علاقات حسن جوار طبيعية، ويتحقق أمن جميع الأطراف طالما أن طرفا منها لا يحاول استعمال هذه الآمال المشروعة كستار يخفى أهدافا وطموحات لا تتفق مع قانون الشعوب ولا مع الروح التى حضرنا بها .. إن التوسع لا يبنى الثقة وضم أراضى الغير لا يخلق أمنا حقيقيا أو دائما والتعدى على حقوق الغير وسيادته يؤدى حتما إلى الاحباط والعنف .. وهذه الحقائق الأولية التى يعترف بها العالم جميعا يجب أن تكون المبادئ الهادية لهذا الاجتماع وعدم الالتزام بها سيؤدى إلى إعاقة السلام وسيتحمل المسؤولون عن ذلك مسؤولية ثقيلة وخطيرة أمام شعبهم وأمام العالم أجمع ».

وركبنا الهيلكوبتر إلى قلعة ليدز على بعد نحو ستين ميلا فى قلب مقاطعة كنت .. وطرنا فوق مناظر ساحرة يبدو فيها الريف الانجليزى فى أحلى صورة، وعندما وصلنا إلى القلعة انتابنى شعور بالأسف والحسرة لأنى لا أزورها سائحا أو لقضاء وقت للراحة. كانت تبدو كدرة جميلة فى بحر من الهدوء والسكينة يحيط بها عقد من المياه الفضية التى تعكس أسوار القلعة وأبراجها وعلى سطحها تسبح أسراب من البجع الأسود والأبيض تتهادى فى عظمة وكبرياء وحول كل ذلك مساحات شاسعة من التلال والوديان تغطيها الخضرة الغنية وتتناثر فيها أشجار البلوط الباسقة والتى تعود أعمارها إلى مئات السنين.

وقد أنشئت القلعة فى القرون الوسطى فى عهد وليام الفاتح، وشهدت قرونا من التاريخ الانجليزى، وقد عاش فيها الملك هنرى الثامن حقبة من الزمن مع زوجته الثانية آن بولين قبل أن يطيح برأسها.

ودخلت القلعة ورحب بنا المشرف عليها وقادنا إلى الغرف التى خصصت لنا وكانت تشكل جناحا مستقلا بذاته كما خصص جناح لكل من الوفد الأمريكى والوفد الإسرائيلى، وعندما دخلت غرفتى شعرت بأنى فى عالم آخر كانت غرفة شاسعة ذات سقف مرتفع وفى مواجهة بابها شباك عريض مرتفع ذو ثلاثة أضلاع يطل على بانوراما خلابة، وفى وسط الحجرة سرير عال ذو أربعة أعمدة وفوقه سقف من المخمل

وعلى الجدران كانت هناك لوحات زيتية لبعض الشخصيات الانجليزية التى عاشت وماتت قبل ميلادى بمئات السنين وبعض مناظر الصيد وكنت لا أملك إحساسا ملحا بالتاريخ والماضى السحيق بكل ما فيه من روائع ومآس.

وقبل العشاء اجتمعت الوفود الثلاثة فى قاعة الاحتفالات لتناول بعض المشروبات وكسر الجليد بينها، ووقفت بعض الوقت مع سيروس فانس، وانضم إلينا موشى ديان والذى لم التق به منذ اجتماعات اللجنة السياسية فى القدس فى شهر يناير (كانون الثانى) الماضى. ودار الحديث بعيدا عن العمل حول أمور شتى وكان هناك تمثال أسود من البرونز لقط مصرى من العصر الفرعونى استأثر باهتمام ديان وحديثه والذى كان مولعا بالآثار.

وتحدثت بعد ذلك مع هيرمان أيلتس الذى قال لى إن وايزمان قد أبلغ صامويل لويس السفير الأمريكى فى تل أبيب ما دار بينه وبين الرئيس السادات فى سالزبورج. وذكر أيلتس أن رواية وايزمان للويس كانت مطابقة لرواية السادات لأيلتس حول المقابلة، إلا أنه أضاف أن وايزمان طلب من الرئيس ضرورة الكف عن محاولة إيجاد الفرقة داخل صفوف حكومة إسرائيل. وذكر أن روح وايزمان المعنوية كانت عالية بعد عودته من سالزبورج ولكنها انخفضت إلى الحضيض بعد اجتماع مجلس الوزراء الإسرائيلى، وذكر وايزمان أنه لو تلقى دعوة من الرئيس السادات لزيارته فى مصر فانه يشك فى أن يسمح له بتلبيتها، وقد تعرض لهجوم شديد فى مجلس الوزراء قاده أرييل شارون بينما كان بيجن يتفرج عليه. كما أخبرنى أيلتس أن ديان قد اجتمع طويلا مع وايزمان قبل سفر ديان إلى قلعة ليدز وألمح أيلتس إلى أن هناك احتمالا أن تعتبر إسرائيل ما قاله الرئيس السادات لوايزمان فى سالزبورج بمثابة اقتراحات مصرية جديدة، وسارعت بنفى ذلك وقلت أنه ليس لدينا ما نناقشه هنا غير المشروع المصرى السابق تقديمه لإسرائيل عن طريق الولايات المتحدة ورجوته أن يبلغ فانس بأنه ليس لدينا أية مقترحات جديدة.

ودخلنا إلى قاعة العشاء وحول منضدة طويلة جلس أعضاء الوفود، وقدمت لنا أطعمة فاخرة تكذب سمعة المطبخ الانجليزى المتواضعة، وقد أشاعت جيى فانس زوجة وزير الخارجية الأمريكى والتى كانت تجلس قبالتى جوا من المرح بأحاديثها الظريفة.

المشروع الإسرائيلى .. والمشروع المصرى ..

وفى الساعة الحادية عشرة مساء زارنى فانس وكان معه أيلتس وحضر المقابلة أحمد ماهر وأبلغنى فانس أنه اجتمع بديان قبل حضوره لزيارتى وأنه يود التفاهم معى على بعض النقاط قبل بدء الاجتماعات.

وقال إنه وجد على ضوء دراستهم للمشروع الإسرائيلى - مشروع الحكم الذاتى - والمشروع المصرى الخاص بالضفة الغربية وغزة نقاط التقاء فكل منهما يتضمن فترة انتقالية لمدة خمس سنوات ونوعا من الحكم الذاتى خلال هذه الفترة، كما يتضمنان ترتيبات أمن خلال الفترة الانتقالية وحتى بعدها وأن يكون هناك دور للأردن إذا شاء خلال فترة الانتقال وأن هدف المشروعين هو إقامة سلام حقيقى وعلاقات طبيعية.

وأضاف فانس أن الخلاف الحقيقى يتعلق بما بعد السنوات الخمس وبالانسحاب ومشاركة الفلسطينيين فى تقرير مصيرهم، وعبر عن اعتقاده بأن صيغة أسوان قد تحل هذا الخلاف، وقال إن الخلاصة فى رأيه إن هناك أرضية مشتركة فى المشروعين أكبر مما كان يتوقع قبل مقارنتهما ولذا فإنه يرى من المفيد خلال الاجتماعات استكشاف الأرضية المشتركة وتحديد نقاط الخلافات ومناقشتها بصراحة.

وقلت : إننا نقدر دوره ولكن الأسلوب الذى يقترحه سيؤدى إلى لا شىء لأن المشروعين مختلفان تماما فى الفلسفة والهدف النهائى. مشروع مصر يقوم على تطبيق قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ بينما مشروع إسرائيل يعكس موقفها الذى يتجاهل القرار ٢٤٢ ويدعى عدم انطباقه على الضفة الغربية وغزة وبالتالى فإن أى نقاط إلتقاء هى ظاهرية مادامت نقطتا البدء والانتهاء مختلفتين تماما.

وأضفت أنه إذا قيل أن هناك فى تلك الظروف نقاط التقاء فسيخرج ديان ليقول إن مصر تقبل كذا وكذا بهدف الاساءة لوضعنا العربى، مع أن أى توافق فى الفرعيات لا قيمة له إلا فى إطار الاتفاق على الأساسيات.

وقال فانس أنه يقدر ذلك تماما وأنه سيتعرض للأساسيات، والولايات المتحدة ملتزمة بما اتفقت عليه معنا فى كامب ديفيد من قبل، ولكنها تحتاج - كى تلعب الدور المتفق عليه - إلى أن تكون قد حدثت مناقشة مباشرة وجادة للمشروعين تؤدى إلى تحديد نقاط الخلاف وتوسيع رقعة الاتفاق حتى يكون منطقيا بعد ذلك، قيام الولايات

المتحدة كطرف مهتم وصديق للطرفين بالتقدم بمقترحاتها فيكون ذلك مقبولا داخليا ودوليا وإسرائيليا، ويحصل موقف أمريكا على تأييد أكبر.

وقلت : إننا نريد التعاون والمساعدة على قيام الولايات المتحدة بالدور المتفق عليه وانه ليس لدى مانع من أن يتولى فانس إذا شاء إيضاح ما يراه من نقاط لقاء أو خلاف، ولكنى سأحرص دائما على إيضاح أن النقاط غير المتفق عليها هى النقاط الأساسية، التى هى وحدها كفيلة بأن توصلنا إما إلى تسوية أو إلى طريق مسدود وفق ما تتخذه إسرائيل من مواقف. وسأل فانس عن كيفية إنهاء الاجتماع وقال إنه يقترح أن يعلن بأن الاجتماع كان مفيدا وأنه اتفق على اجتماع تال فى زمان ومكان محددين.

فقلت : إنى لا أستطيع الموافقة مسبقا على اقتراحه بأن نقول إن الاجتماع كان مفيدا وأننا اتفقنا على اجتماع تال، فليس لدى تعليمات بالارتباط باجتماع لاحق، وهذا يتوقف على الموقف الإسرائيلى فإذا كان إيجابيا يمكن النظر فى ذلك.

فقال فانس : انه لا يريد ربطنا بشىء وأنه لا يصر على إعلان مشترك، ويفكر فى أن يصدر هو تصريحا يقول فيه : إن الاجتماع كان فرصة لمناقشات جادة وأنه أمكن حصر نقاط الاختلاف والالتقاء، وأنه سيتوجه إلى المنطقة فى بداية أغسطس للإعداد للاجتماع الجديد وسوف يسبقه أثرتون.

فقلت : لا مانع لدى إلا فيما يتعلق بالإشارة لاجتماع جديد، وأرجو أن يكتفى بذكر زيارة المنطقة كما أنى سأعلق من ناحيتى على نقاط الالتقاء والخلاف حسبما شرحت له.

واستفسر فانس عما يمكن أن تطرحه مصر من ترتيبات الأمن. فقلت : النقاط الست التى عرضها الرئيس السادات فضلا عن أنه يمكن بحث ترتيبات أمن اضافية عند اشتراك الأطراف الأخرى لذلك يجب أن تلتزم إسرائيل من حيث المبدأ بالانسحاب، ثم تجرى مباحثات موسعة يشترك فيها الأردن والفلسطينيون، تطرح خلالها كل التصورات عن الأمن بما لا يمس الأرض والسيادة.

وكانت النقاط الست هى :

١- إقامة مناطق منزوعة السلاح.

٢- إقامة محطات إنذار مبكر تدار بواسطة طرف ثالث على جانبى الحدود.

٣- إقامة مناطق تحدد فيها نوعيات الأسلحة.

٤- وضع قوات الأمم المتحدة على طول الحدود وشرم الشيخ.

٥- اعتبار مضيق تيران ممرا دوليا مائيا.

٦- إنشاء لجنة عسكرية مصرية - إسرائيلية.

فقال فانس : إن اهتمامهم بدخول الأردن فى المباحثات قد خف، وذكر أن الرئيس السادات قد أبلغ وايزمان فى سالزبورج بأنه مستعد للدخول فى الضفة الغربية وحده دون الأردن.

فقلت : إنه من المستحيل أن تقوم مصر وحدها دون الأردن بذلك، وأن حديث الرئيس مع وايزمان ربما كان يعالج حالة رفض الأردن المشاركة فى المباحثات رغم توافر ظروف مقبولة وهو احتمال غير وارد، لأن الأردن سينضم حتما إذا تعهدت إسرائيل بالانسحاب.

فقال فانس : إنه من المحتمل جدا أن يثير ديان فى الاجتماع ما جرى فى مقابلة وايزمان والرئيس السادات.

فقلت : إننى حضرت هنا لمناقشة المشروع المصرى الذى سلمناه لهم وسلموه بدورهم إلى إسرائيل، وأن تلميحات إسرائيل بوجود مشروع مصرى آخر بزعم أن ذلك تم فى لقاء السادات بوايزمان لا أساس لها، وأن مقابلة وايزمان للسادات جرت فى إطار آخر وأنا لا أعلم عنها شيئا وأرفض الكلام على أساسها.

وعاد فانس يلح فى أنه يمكن إذا أثار ديان ما دار بين الرئيس السادات ووايزمان، أن أؤكد ذلك مع اشتراط أن يقترن ذلك بالانسحاب الإسرائيلى. فقلت : إنى أرفض ذلك تماما وأنى لن أخرج بحال عن إطار الحديث فى المشروع المصرى وأنى على استعداد للتوسع فى ايضاح ترتيبات الأمن فى الحدود التى يمكن أن تعالجها مصر وحدها مع إيضاح أنه عند دخول الأطراف الأخرى الأردن والفلسطينيين يمكن طرح أفكار أخرى.

وسأل فانس عما يمكن أن يضيفه انضمام الأردن للمباحثات بالنسبة للأمن. فأجبته بأن هناك نقاطا أساسية لا يمكن مناقشتها فى غياب الأردن والدولة الفلسطينية مثل التعديلات الطفيفة فى الضفة الغربية.

وأضفت إنى لن أقبل أن يحاول ديان الإفلات من مواجهة الحقائق الأساسية بجرنا إلى متاهات التفصيلات والإجراءات، وأن السؤال الأساسى الذى يجب أن يرد عليه هو الموافقة على مبدأ الانسحاب والرد على ما هو هدفهم الحقيقى، لأن ذلك هو الذى سيحدد إطار المناقشة ويحدد ما إذا كانت فرصة هناك للتقدم أم لا.

وقلت : إن الأولوية الأولى هى العمل على جذب الأطراف العربية الأخرى إلى المفاوضات ولن يتحقق ذلك عن طريق الانسياق وراء المناورات الإسرائيلية بل عن طريق اتخاذ الولايات المتحدة مواقف تتفق مع مبادئها المعلنة، وتتناسب مع حجم وطبيعة علاقتها بإسرائيل، وأن اتاحة الفرصة لإسرائيل للافلات بعد أن تمت محاصرتها يعرض المنطقة لأخطار داخلية وخارجية كثيرة.

وفى نهاية اللقاء سألنى فانس عن رأيى فى أن يكون الاجتماع القادم بمشاركة وزراء الخارجية والدفاع من الجانبين، فقلت دعنا من الحديث عن اجتماع لاحق قبل أن نعرف ما سيسفر عنه الاجتماع الحالى.

وقد أرسلت برقية إلى الرئيس السادات الذى كان يتأهب للسفر إلى الخرطوم للاشتراك فى مؤتمر القمة لمنظمة الوحدة الأفريقية بما دار بينى وبين فانس وقد وصلنى منه فى اليوم التالى البرقية التالية :

١- أوافق على الخط الذى التزمته ولا تتزحزح عنه ولكن يجب أن تظهر مرونة الموقف المصرى أمام العالم فى لندن وأن تكسب دائما فانس إلى صفنا.

٢- عند مناقشة أى موضوع مع ديان يلزم التمسك بالمعلومات التى عندك، وإذا ذكر ديان أية موضوعات جديدة بحجة أن وايزمان ناقشها مع الرئيس فى سالزبورج تعتذر بأنه ليس لديك صلاحيات للبت فى هذا الموضوع وأنك لا تعلم عنه شيئا.

٣- لا تلتزم بموعد أى اجتماع قادم أو مكانه لأنه من الواضح أن ديان يحرص على اجتماع قادم فى العريش إلا إذا كانت هناك عناصر جديدة فى الموقف الإسرائيلى.

هل يصنع من « الفسيخ شربات » ؟!..

فى الساعة التاسعة من صباح اليوم التالى عقد الاجتماع الأول بين الوفود الثلاثة المصرية والأمريكية والإسرائيلية، وبعد كلمة قصيرة من وزير الخارجية فانس عبر فيها

عن آماله فى إحراز تقدم نحو التوصل إلى الحل السلمى. أعطى الكلمة لموشى ديان الذى شرح المشروع الإسرائيلى الخاص بالحكم الذاتى، وقال أنه مجرد اقتراح قابل للمناقشة والتعديل، وانهم لا يريدون التدخل فى حياة « الفلسطينيين العرب » بل يسعون إلى العيش معهم جنبا إلى جنب وقال : إن المشروع يتضمن إلغاء الحكم العسكرى بهدف إنهاء وضع سيطرة إسرائيل على الفلسطينيين العرب حتى يمكن لهم أن يتولوا أمورهم بأنفسهم كما أن المشروع يتضمن إمكان إعادة النظر فيه بعد خمس سنوات.

وطلب ديان من « باراك » المدعى العام الإسرائيلى شرح مشروعهم تفصيلا. وقام باراك بشرح المشروع الإسرائيلى محاولا إضفاء مسحة تجعله يبدو مقبولا إلا أنه فشل فى أن يصنع من الفسيخ شربات ـ كما نقول فى مصر. ومهما حاور وداور فقد ظل هدف المشروع واضحا جليا وهو أن يتيح لإسرائيل فسحة زمنية فى ظل استمرار احتلالها وسيطرتها على الضفة الغربية وغزة تعمل خلالها على خلق واقع جديد على الأرض وزرعها بالمستوطنات والمستوطنين الإسرائيليين مما يغير من تكوينها السكانى. بالاختصار خلق أوضاع من شأنها أن تؤدى فى النهاية إلى ضم هذه الأراضى إلى إسرائيل وهو بيت القصيد. وخلص باراك من شرحه إلى أن المشروع الإسرائيلى يؤجل حل المشكلة الإقليمية ولكنه يعالج حل مشكلة الفلسطينيين العرب والفلسطينيين اليهود للدواعى الانسانية.

وعندما انتهى من شرحه قلت : إننا لا نوافق على المشروع الإسرائيلى والذى سبق أن رفضناه منذ البداية عند تقديمه فى الاسماعيلية، لأنه يتناقض مع قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ والذى يقضى بعدم جواز اكتساب الأرض عن طريق القوة وينص على الانسحاب من الأراضى المحتلة فضلا عن أنه يغفل حقوق الشعب الفلسطينى المشروعة ويحولهم إلى مواطنين من الدرجة الثانية وهم يعيشون فى عقر دارهم وعلى أرضهم فى ظل الاحتلال العسكرى الإسرائيلى، ثم طلبت من أسامة الباز أن يتولى شرح المشروع المصرى وقد فعل ذلك بطريقة رائعة قوية ومؤثرة أوضحت معقولية ومنطقية المشروع والتزامه بقرارات الأمم المتحدة الخاصة بالنزاع العربى الإسرائيلى من جميع جوانبه، ولم يترك ثغرة يستطيع منها الجانب الإسرائيلى، النيل من المشروع.

وبعد انتهاء الباز من طرح مشروعنا، شرح ديان يلف ويدور فقال : هل مصر مستعدة لتوقيع اتفاق سلام بالنسبة لسيناء والضفة الغربية وقطاع غزة - أو حتى غزة وحدها - إذا امتنع الأردن بسبب ما عن الدخول فى المفاوضات ؟

ورد عليه أسامة بأن هذا سؤال افتراضى لا محل له، إذ أن الاتفاق على مبدأ الانسحاب سيجذب الأردن حتما إلى المشاركة فى المباحثات.

فقال ديان أن النقاط الست الخاصة بترتيبات الأمن تشمل حرية المرور فى مضيق تيران، وهو يسأل بهذه المناسبة هل ترى مصر أن مشروع إسرائيل بشأن سيناء مقبول كأساس للتفاوض ؟

ورد أسامة بأن هذا موضوع خارج عن نطاق البحث المطروح، وهو مستقبل الضفة الغربية وغزة.

وسأل ديان عن توقيتات المشروع المصرى ؟

وأجابه أسامة إنها أولا : الاتفاق على المشروع، وثانيا : مباحثات بين مصر والأردن وإسرائيل للاتفاق على بداية فترة الانتقال وترتيب تسليم السلطة فى الضفة الغربية للأردن وفى قطاع غزة لمصر، وثالثا : انتخابات المجلس الفلسطينى الذى يختص بإدارة الاقليم وباختيار الممثلين الفلسطينيين فى المباحثات الرباعية بين مصر والأردن وممثلى الشعب الفلسطينى وإسرائيل والخاصة بوضع تفصيلات المرحلة الانتقالية ووضع الجدول الزمنى للانسحاب. وهنا قال ديان أنهم يرفضون قرارات الأمم المتحدة الخاصة باللاجئين كما أنهم يرفضون قيام دولة فلسطينية.

وقال فانس : إن هناك فرقا بين دولة فلسطينية مستقلة ودولة فلسطينية متحدة مع الأردن وتساءل عن سبب رفض ديان للحل الفيدرالى، وأجاب ديان بأنهم لم يبحثوا هذا الاحتمال.

وانتهى على ذلك الاجتماع الأول بعد أن دام أربع ساعات. والحق أن أسامه الباز سيطر تماما على هذا الاجتماع ولم يفلح الجانب الإسرائيلى مرة واحدة فى إحراجه أو تعجيزه عن الرد على أى سؤال أو استفسار ردا شافيا واضحا مفحما، وكان نجم الاجتماع بلا مراء مما ملأنا بالفخر وحاز إعجاب الجانب الأمريكى وأدى إلى شعور الإسرائيليين بالإحباط.

وقد وصف ديان أسامة الباز فى الفصل الخاص باجتماعات ليدز بما يلى :

« إن المتحدث المصرى الرئيسى (الباز) وهو قانونى خريج جامعة هارفارد واسع الاطلاع، حاد قاطع، نحيف ضعيف البنية، ذو وجه شاحب. وكان يحاول الابتعاد عن الجانب الاجتماعى لهذه المحادثات بقدر الإمكان، وكان يجلس صامتا عند الغداء يلتقط طعامه، ولكنه كان يعود إلى الحياة على مائدة المباحثات. وكانت قوته تكمن فى حدة لسانه ودرايته الفائقة بأى موضوع مطروح للبحث وفى وضوح صياغاته وأجوبته القاطعة فى المناقشات والتى كانت تتسم بالتهجم فى بعض الأحيان. ولا أستطيع القول بما إذا كان ملتزما حقيقة باحراز اتفاق سلام أم لا ».

الشعب والأرض معا ..

وبعد الغداء عاودنا الاجتماع من جديد فى الساعة الثالثة بعد الظهر واستكمل أسامة الباز شرح توقيتات المشروع ونقاط الأمن الست وعلق عليها ديان بأن وجود قوات للأمم المتحدة فى المناطق المنزوعة السلاح ليس له قيمة، وذكر أنهم لا يثقون فى الأمم المتحدة، وأكد أن ترتيبات الأمن يجب أن تتضمن وجودا عسكريا إسرائيليا فى الضفة الغربية وغزة، حتى بعد انتهاء الفترة الانتقالية، كما أكد على وجوب نزع السلاح بالكامل من الضفة الغربية وغزة فيما عدا السلاح الإسرائيلى.

وهنا قال فانس : إنهم يرون استبعاد وجود قوات فلسطينية فى المناطق محدودة التسلح والقوات، مع إمكانية وجود قوة بوليس فلسطينية واستفسر عن كيفية منع الارهاب خلال الفترة الانتقالية فرد عليه ديان بأنه إذا ما أمكن حل مشكلة اللاجئين الفلسطينيين عن طريق توطينهم (يقصد توطينهم فى الدول العربية التى يعيشون فيها) فسينتهى الارهاب.

وسأل فانس ديان لماذا لا يوافقون على اتحاد فيدرالى بين دولة فلسطينية والأردن ؟

وأجاب ديان إنهم لا يعترضون على أن الضفة الغربية تشكل وطنا (للفسطينيين العرب) .. ولكن يجب أن يكون لليهود حقوق متساوية فيها وقال إن إسرائيل تفرق بين الشعب والأرض، وهى تحاول حل مشكلة الشعب عن طريق حكم ذاتى إدارى أما الأرض فلا تستطيع إسرائيل الموافقة على اعتبار الاسرائيليين أجانب عند إقامتهم فى الضفة الغربية.

وقلت إننا نرفض تماما فكرة فصل الشعب عن الأرض وأن إسرائيل تحاول معاملة الشعب الفلسطينى صاحب الأرض كمخلوقات أدنى مع أن لهم حقوقا متساوية مع كل الشعوب بما فى ذلك حقهم فى تقرير مصيرهم.

وسألنى ديان هل يعنى ذلك حق الفلسطينيين فى إقامة دولة مستقلة ؟

فقلت بالتأكيد ولا يستطيع أحد المجادلة فى ذلك من حيث المبدأ .. ومع ذلك فرغبة فى تلافى اعتبار الأمن الذى يثيرونه فقد عبرنا عن رأينا فى أن تكون الدولة الفلسطينية مرتبطة بالأردن ونحن مستعدون لأن نبذل مساعينا فى هذا الاتجاه.

ووجهت لديان سؤالا مباشرا : ماذا تريدون ؟ هل تقبلون تنفيذ القرار رقم ٢٤٢ على الضفة الغربية وقطاع غزة أم لا ؟

ورد ديان قائلا : إن القرار ٢٤٢ لا يتطلب الانسحاب من كل الأراضى وأن قيام إسرائيل بالغاء الحكم العسكرى هو التفسير الإسرائيلى لتطبيق القرار، وأن إسرائيل مستعدة لمناقشة أى أفكار لتحقيق حل وسط بالنسبة لأراضى الضفة الغربية على نمط مشروع الون.

فقلت : ذلك مرفوض تماما. وسألته : ما هو هدفكم .. الأمن أم التوسع أم كلاهما معا ؟

ورد ديان بأن العودة إلى حدود ١٩٦٧ غير مقبولة لهم لأنها لا تحقق لهم الأمن وأنهم لا يثقون فى وجود قوات الأمم المتحدة ولا يمكنهم المخاطرة بالانسحاب الآن فقد يحدث تغيير ما فى الأردن يؤدى إلى تهديد مناطقهم السكانية التى لا يتجاوز عرضها ١٨ كيلومترا وأن إسرائيل تريد قسما من الأراضى فى الضفة لأن ذلك يحقق أمنها، كما أنه من الضرورى وجود قوات إسرائيلية فى الضفة فى إطار أى ترتيبات للأمن وبدون ذلك لا تعتبر إسرائيل نفسها آمنة.

وقلت لديان « إنك تعيش فى الماضى عندما كانت الحرب هى أساس العلاقات. إن مصر تعرض الآن فلسفة متكاملة لسلام حقيقى، وهو ما لا يمكن حدوثه على أساس اغتصاب حقوق الغير .. ويجب على إسرائيل أن تتفهم هذا الموقف الجديد وأن تتفاعل مع مبادرة الرئيس السادات ولقد أثبتت تجربة الماضى أن التوسع لا يحقق السلام أو الأمن ولن يحققه فى المستقبل ».

وهنا توتر جو الاجتماع فطلب فانس رفع الجلسة.

هل ترضخ إسرائيل ؟

وفى المساء حضر فانس بصحبة أيلتس إلى غرفتى وكان معى أحمد ماهر وقال فانس: إنه مازال يرى ضرورة عقد اجتماع تال لاجتماع ليدز يحضره وزراء خارجية ودفاع مصر وإسرائيل، ويبرر ذلك بأنه يمكن لمثل هذا الاجتماع بحث ترتيبات الأمن بالتفصيل لأن هذه هى النقطة التى تستغلها إسرائيل لرفض الانسحاب، وقال أنه يرغب فى إعلان الموافقة على هذا الاجتماع فى الاجتماع الختامى الذى سيعقد غدا.

وقلت لفانس إن لدى تعليمات صريحة واضحة من الرئيس السادات بعدم الارتباط باجتماع جديد ما لم يحدث تحول فى الموقف الإسرائيلى. وأضفت : انه منذ ساعات قليلة أعلن موشى ديان أمامك وأمام الوفد الأمريكى جميعا أن إسرائيل لن تنسحب من الضفة والقطاع وأنها لن تقبل بديلا عن الأرض لأمن إسرائيل.

فقال فانس : إنهم يحتاجون لاجتماع آخر حتى يستطيعوا إعلان موقفهم. قلت انه يجب قبل ذلك أن تتفق مصر والولايات المتحدة على نقاط المقترحات الأمريكية، ومتى تم ذلك فإذا وضح لنا أنهم (الأمريكيون) فى حاجة داخليا لاجتماع آخر قبل إعلان الموقف الذى نتفق عليه معهم فلا شك أن الرئيس السادات سيولى الأمر رعايته عندما يناقشه فيه وأنا شخصيا أرى أن اجتماعات ليدز كافية لاعلان مواقفهم.

وقال فانس أن مشروعهم سيكون قريبا جدا من الموقف المصرى. فقلت : وماذا سيكون موقفهم إذا رفضت إسرائيل المشروع الأمريكى عند تقديمه ؟

ونظر إلى فانس وقال : سأخبرك .. ولكن أرجو اعتبار ما سأقوله لك ذا سرية مطلقة وألا تطلع عليه أحدا سوى الرئيس ونائبه فقط ووعدته بذلك فقال انه بعد أن يتقدموا بمقترحاتهم سيتخطى الرئيس كارتر الكونجرس حتى لا يصطدم بمعارضة أنصار إسرائيل ويتوجه إلى الشعب الأمريكى رأسا ويلقى بيانا يعلن فيه الموقف الأمريكى وأسبابه ثم يعملون بعد ذلك على كسب تأييد الكونجرس وتأييد الجماعات اليهودية ويأملون أن يؤدى ذلك إلى رضوخ إسرائيل للمقترحات الأمريكية، وإن لم تفعل فإنهم يعتزمون اللجوء إلى مجلس الأمن واستصدار قرارات جديدة على أساس مقترحاتهم.

وهنا ذكر أيلتس أن مونديل نائب الرئيس الأمريكى يعارض هذا السيناريو ولكن الإدارة الأمريكية مصممة عليه.

وقلت إنى أثق فى فانس، كما يثق الرئيس السادات فيه وفى الرئيس كارتر، وإنى أقدر هذا السيناريو ولكن المهم هو اتفاقهم معنا على مقترحاتهم قبل تقديمها .

لا مانع لدى ..

وفى صباح اليوم التالى حضر فانس من جديد لزيارتى قبل بدء اجتماع الوفود الثلاثة وأخبرنى بأنه تحدث فى الصباح المبكر طويلا مع ديان على ضوء اجتماعه معى أمس وأنه أبلغه بضرورة أن تتعرض إسرائيل لموضوع السيادة ومستقبل الضفة الغربية وقطاع غزة بعد الفترة الانتقالية، لأن مصر لا يمكن أن تقبل وضعا يبدو فيه أن الاحتلال الإسرائيلى سيستمر مستقبلا. وقال : إن ديان رد عليه بأنه واع لكل ذلك، وأنه يعتقد الآن أن إجابات إسرائيل عن الأسئلة الأمريكية كان يجب أن تكون أكثر إيجابية.

وقال فانس أنه أبلغ ديان أيضا ضرورة التفرقة بين ضم الأراضى واحتمال وجود قوات إسرائيلية خاضعة لسيادة دولة أخرى بناء على اتفاق مسبق، وأنه يمكن بحث وجود بعض قوات إسرائيلية لدواعى الأمن فى الضفة الغربية بعد انتهاء الفترة الانتقالية إذا ما تم الاتفاق على ذلك فى المفاوضات الموسعة. وذكر أن ديان طلب منه إثارة هذه الموضوعات مع بيجن عند زيارته للمنطقة.

وعاد فانس يستطلع رأيى فى أن يعلن للصحافة بعد انتهاء الجلسة الختامية أنه سيزور المنطقة لبحث الموقف وإمكانية عقد اجتماع آخر. وأجبته بأنه ليس لدى مانع من ذلك.

القدس عربية ..

وفى صباح اليوم التالى ١٩ يوليه (تموز) عقدت الوفود الثلاثة جلستها الختامية وسأل ديان فى بدايتها عن التعديلات الطفيفة فى الضفة الغربية ومداها وطبيعتها، وأجبت بأن المبدأ هو الانسحاب، وعندما تعلن إسرائيل التزامها بذلك فإن موضوع التعديلات الطفيفة فى الضفة الغربية يمكن بحثه فى الاجتماعات الموسعة المكلفة ببحث ترتيبات الأمن، وأن موقف مصر أن تكون التعديلات لمصلحة الطرفين ولأسباب إدارية أو إنسانية وفى أضيق نطاق ولكن القرار ليس قرارنا فى النهاية ويجب أن يوافق عليه الأردن ومندوبو الشعب الفلسطينى.

وسأل ديان : وماذا عن القدس ؟ فأكدت أن الانسحاب يشمل القدس العربية ولكننا لا نريد إقامة حواجز أو عوائق.

فقال ديان هل تقبلون اتفاقا خاصا بشأن حرية الوصول إلى الأماكن المقدسة ؟ وأضاف : أنه لا يعنى أن يكون ذلك بديلا عما نقدمه ؟

فقلت من الطبيعى أن يشمل الاتفاق نصا على حرية التنقل والوصول إلى الأماكن المقدسة ولكن المبدأ هو عودة القدس الشرقية للعرب.

فقال ديان : إنهم قالوا إن كل شىء قابل للتفاوض بما فى ذلك القدس، وأن قرار ضمها لإسرائيل لا يعنى أنها ليست محل تفاوض. وأضاف أن رأيه الشخصى هو أن مشكلة القدس ليست صعبة مادام الجميع يتفقون على أنها تضم أماكن مقدسة للأديان كلها وعلى حرية التنقل وعدم تقسيم المدينة وأضاف أنه يمكن إيجاد صيغة لحل مشكلة القدس ترضى الجميع.

وتلا فانس مشروع بيانه الصحفى الذى سيذيعه بعد المؤتمر ووفق عليه.

وقال ديان أنه سيعلن ـ إذا لم يسمع من الجانب المصرى ما يخالف مواقف مصر المعلنة ـ وسيتحدث عن أن الاجتماع كان مفيدا فى إيضاح مواقف الأطراف حيث تمت مناقشة كل التفاصيل.

وقلت : إن مصر مستعدة مائة فى المائة للسلام، ولكل ترتيبات الأمن، وعلاقات حسن الجوار، بشرط عدم المساس بالأرض العربية أو السيادة عليها. وطلبت من ديان أن ينقل ذلك لحكومته ويطالبها باتخاذ المواقف الإيجابية حتى نحقق السلام وانتهت اجتماعات قلعة ليدز.

تقييم الاجتماعات..

وقد يكون من المناسب الإشارة إلى تقييم لاجتماعات قلعة ليدز على النحو التالى :

١- استطعنا تفنيد المشروع الإسرائيلى الخاص بالحكم الذاتى تماما، ومن الناحية الأخرى نجحنا فى أن نجعل المشروع المصرى محور الحديث والمناقشات، ولم يستطع الجانب الإسرائيلى أن يجد فيه أى ثغرة، وكان فى موقف الدفاع طوال الوقت.

٢- بعد محاولة ديان اللف والمراوغة، اضطر فى النهاية تحت الضغط المصرى وأمام الجانب الأمريكى إلى الافصاح صراحة عن نياتهم الحقيقية بالنسبة لاستمرار الاحتلال والرغبة فى التوسع ورفض الاعتراف بالحقوق الوطنية للشعب الفلسطينى وأصبح الجانب الأمريكى شاهدا مباشرا على ذلك.

٣- رفضنا الالتزام باجتماع تال رغم الضغوط الأمريكية فى هذا الاتجاه انتظارا لما يصدر عن مجلس الوزراء الإسرائيلى بعد أن يقدم ديان تقريره إليه وبعد زيارة اثرتون وفانس للمنطقة.

٤- كان الموقف الأمريكى هو الاستماع أغلب الوقت مع توجيه أسئلة قليلة لديان طابعها انتقادى للمواقف الإسرائيلية.

٥- أسر لى فانس بما ينوى الرئيس الأمريكى كارتر القيام به فى حالة تقدم الولايات المتحدة بمقترحاتها ورفض إسرائيل الاذعان لها، من توجه الرئيس الأمريكى إلى الشعب الأمريكى مباشرة وعزمه على الالتجاء إلى مجلس الأمن إذا اقتضى الأمر بعد ذلك، وهو موقف له دلالته فى استعداد الولايات المتحدة التصدى لإسرائيل بقوة فى حالة رفضها المقترحات الأمريكية. إلا أن المقلق فى الموقف الأمريكى هو ما ذكره فانس لديان من ضرورة التفرقة بين ضم إسرائيل للأراضى وبين حصولها على حق الاحتفاظ بقوات إسرائيلية فى أراض تحت سيادة غير إسرائيلية. إذ يشير ذلك إلى أن الولايات المتحدة تفكر فى بقاء قوات إسرائيلية بصفة دائمة فى الأراضى التى تنسحب منها إسرائيل فى الضفة الغربية. وقد أبلغت فانس أن هذا الأمر لا يبت فيه إلا الشعب الفلسطينى صاحب الأمر.

٦- لم يحاول ديان إثارة موضوع ما تم فى لقاء الرئيس السادات بشيمون بيريز فى فيينا أو ما دار بينه وبين وايزمان فى فوشل، وقد يرجع ذلك إلى رفضى القاطع الخوض فيه عندما أشار لى فانس إلى احتمال إثارة ديان ذلك فى الاجتماع وإن كان ديان قد حاول عن طريق أسئلته الحصول منا على تأكيدات فى هذا الشأن ولم نعطه الفرصة لذلك.

٧- حاول ديان فى مرحلة ما، نقل الحديث إلى سيناء وقد رفضنا مجاراته، وأكدنا أن الموضوع المطروح للبحث هو الإنسحاب من الضفة والقطاع وترتيبات الأمن.

الفصل الثامن والعشرون

ولا حبة رمل بدون مقابل..

بعد عودتى إلى مصر إثر انتهاء مؤتمر ليدز، استمرت الولايات المتحدة فى تسريب أنباء عن اجتماع ثلاثى تال لاجتماع ليدز بين وزراء خارجية مصر والولايات المتحدة وإسرائيل.

وتعددت الأماكن التى تضمنتها هذه الأنباء لعقد الاجتماع، فهى مرة تذكر العريش كمقر للاجتماع، وأخرى تشير إلى أنه سيتم فى محطة الإنذار المبكر الأمريكية فى أم خشيبة بسيناء التى أقيمت فى المنطقة العازلة التى تفصل بين الخطوط المصرية والخطوط الإسرائيلية، ومرة ثالثة أنه سيعقد على ظهر إحدى بوارج الأسطول الأمريكى السادس فى عرض البحر الأبيض.

وقد كان هذا الأسلوب الأمريكى فى الإعلان عن اجتماعات تالية دون سبق الاتفاق عليها معنا يثير دهشتى، خاصة، وقد أوضحت بجلاء للجانب الأمريكى أكثر من مرة عندما أثار هذا الموضوع قبل انعقاد مؤتمر ليدز، ثم فى أثناء المحادثات الجانبية التى جرت بينى وبين سيروس فانس خلال المؤتمر، أننا لن نوافق على اجتماع جديد مع إسرائيل ما لم تعلن عن تحول إيجابى فى موقفها فكيف يتصورون أننا نوافق على ذلك بعد إعلان موشى ديان فى اجتماعات ليدز إصرارهم على مواقفهم السابقة وتصريحه الحاسم أمام فانس والوفد الأمريكى بأنه لا بديل عن حل وسط إقليمى فى الضفة الغربية.

ومن الناحية الأخرى توالت التصريحات الإسرائيلية فى تنسيق مع التصريحات الأمريكية فى هذا الشأن إلى حد أن أعلن مناحم بيجن رئيس الوزراء الإسرائيلى فى يوم ٢٣ يوليه (تموز) أن موشى ديان وعيزرا وايزمان سيجتمعان يوم ٣ أغسطس (آب) مع وزير الخارجية ووزير الدفاع المصريين فى محطة الإنذار المبكر الأمريكية فى سيناء. وأوضح أنه سبق أن وافق سيروس فانس على هذا الاجتماع.

كيف؟ فأين الطرف الثالث الذى قرروا الاجتماع معه وعلى أى أساس؟ أين مصر؟ يحددون تاريخ الاجتماع ومكانه والمشاركين فيه من جانبهم دون أخذ رأيها وموافقتها، بل على الرغم من رفضها لمبدأ الاجتماع الجديد من أساسه لاعتبارات مشروعة وهى أنها تتمسك بتطبيق القرار رقم ٢٤٢ الذى يحكم تسوية النزاع العربى الإسرائيلى، والقاضى بانسحاب إسرائيل من الأراضى العربية التى تحتلها عنوة مقابل قيام سلام حقيقى تحميه كل ضمانات الأمن للأطراف جميعا.

يصرون على الاجتماع معها ورنين صوت موشى ديان وزير خارجية إسرائيل فى اجتماعات ليدز لايزال يتردد فى الآفاق من أنه يصر على اقتسام الأراضى التى يحتلونها مع أصحابها العرب، وأنه لا بديل عن ذلك. وهو فصل الختام.

ولم أكن أرى أن هذا الأسلوب الذى يعتمد على إحراجنا ووضعنا أمام الأمر الواقع أو اظهارنا بمظهر التعنت لرفضنا اللقاء من جديد، هو السبيل اللائق للتعامل بين الدول من الناحية العملية أو الأخلاقية.

ولم يكن هذا ما تعهدت به الولايات المتحدة فى فبراير (شباط) الماضى فى كامب ديفيد من أنها تأخذ على عاتقها تحويل الموقف الإسرائيلى المتصلب بالقدر الذى يسمح باستئناف المفاوضات بين الأطراف على أساس يؤمل معه أن يؤدى إلى السلام الشامل.

ولم يكن هذا السبيل لحماية مبدأ المفاوضات نفسه من الذبول أو التردى ثم الاستبعاد فى النهاية كوسيلة لحل المنازعات متى ثبت أن اجتماعات الأطراف لا تؤدى رغم تواليها إلا إلى ترديد كل طرف لمواقفه الثابتة، وبينما يستند الطرف المصرى إلى حسن النية والشرعية الدولية وهى الأساس الذى يمكن إقامة السلام عليه على دعائم راسخة، يستند الجانب الإسرائيلى إلى سوء النية وإلى شهوة التوسع وإهدار حقوق

الإنسان الآثم، وهو ما لا يمكن أن يؤدى إلى سلام دائم، وإن أدى إلى اتفاق عن طريق الإذعان من قبل صاحب الحق أمام قوة وبطش المعتدى الغاصب، فإنه يكون اتفاقا هشا يحمل فى أحشائه جراثيم فنائه وهذا هو درس التاريخ.

فى مفترق الطرق ..

وكان رأيى أن ما أسفر عنه مؤتمر ليدز قد أدى بنا إلى مفترق طرق، فلقد انصب المشروع المصرى الذى طرحناه فى ذلك الاجتماع على الضفة الغربية وغزة، باعتبار أن القضية الفلسطينية هى لب النزاع العربى الإسرائيلى وجوهره. وكان المشروع قائما ببساطة على الانسحاب الإسرائيلى من تلك الأراضى الفلسطينية مقابل ضمانات وترتيبات أمن للأطراف جميعا. وهو تطبيق أمين للقرار ٢٤٢ أما وقد رفضت إسرائيل الانسحاب، وأعلنت موقفها النهائى من أنه لا بديل عن اقتسام الأرض، فكان هذا فى رأيى نهاية المطاف بالنسبة لمرحلة من المبادرة يتعين فيها علينا إيقاف المباحثات مع إسرائيل وعدم استئنافها إلا فى حضور وبمشاركة أصحاب الشأن، وهم ممثلو الشعب الفلسطينى الذين يملكون وحدهم قبول أو رفض أية تنازلات إقليمية.

وكان مشروعنا يتطلب لاعتبارات عملية مشاركة الأردن فى المفاوضات ليس بوصفها صاحبة السيادة على الضفة الغربية، وإنما بوصفها مشرفة على إدارة الضفة الغربية التى يتولاها ممثلو الشعب الفلسطينى أثناء الفترة الانتقالية شأنها شأن مصر فى تولى الإشراف على الإدارة الفلسطينية لقطاع غزة خلال تلك الفترة. وذلك تمهيدا لممارسة الشعب الفلسطينى لحقه فى تقرير المصير داخل الإطار العربى.

فإذا فشلت الجهود لمشاركة الأردن فى المفاوضات تعين علينا الامتناع عن التفاوض مع إسرائيل بشأن القضية الفلسطينية أمام الموقف الإسرائيلى الذى يصر على اقتطاع أجزاء من الأراضى الفلسطينية، فنحن لا نملك التنازل عن أراضى الغير ولم يفوضنا أصحاب الشأن فى ذلك. ويبقى أمام مصر الخيار بين أمرين، الأول أن تواصل التفاوض مع إسرائيل للتوصل إلى حل جزئى أو منفرد بالنسبة لسيناء وحدها، وهو ما كان يعلن الرئيس السادات عن رفضه باستمرار منذ البداية.

والثانى هو العودة إلى العرب والعمل على استعادة التضامن العربى وتنفيذ الاستراتيجية التى تم الاتفاق عليها فى مؤتمر القمة العربى فى الرباط ١٩٧٤ سواء

بالنسبة للحل السلمى أو الحل العسكرى إذا تعذر حل النزاع سلميا بسبب تمسك إسرائيل بالأراضى المحتلة.

وقد عرضت الأمر على الرئيس السادات بعد مقابلتى له إثر عودتى من مؤتمر ليدز، وأوضحت له رأيى فى أن يكون اجتماع ليدز هو آخر الاجتماعات بيننا وبين إسرائيل فى هذه المرحلة رغم الإلحاح الأمريكى علينا فى عقد اجتماعات أخرى، وذكرت له أن موافقته على اجتماع وزراء الخارجية الثلاثة فى ليدز رغم سلبية الردود الإسرائيلية على الأسئلة الأمريكية كان تنازلا شخصيا منه من أجل الرئيس كارتر ولمرة واحدة حسبما أكد لى.

وأن استدراجنا إلى الموافقة على اجتماع جديد دون تحول ظاهر معلن فى الموقف الإسرائيلى مؤداه أن تعتقد الولايات المتحدة ومن ورائها إسرائيل أننا لا نتمسك بمواقفنا المعلنة، مما يؤدى إلى تراخى الجانب الأمريكى فى أخذ مطالبنا المعلنة على نحو جدى ويغريهم بمساومتنا عليها، كما يشجع إسرائيل على التمادى فى مواقفها المتشددة، وفى نفس الوقت يذكى شكوك العرب فى مواقفنا ونوايانا ويؤدى إلى زيادة تآكل موقفنا داخل المعسكر العربى.

وأن من شأن كل ذلك أن ينعكس على الموقف الأمريكى عندما تتقدم الولايات المتحدة بمقترحاتها من أجل التسوية، فيبتعد عن الموقف المصرى اعتقادا منه باستعدادنا لتقديم تنازلات فى النهاية ويقترب من الموقف الإسرائيلى المتشدد حرصا على عدم رفضه لما تقدمه الولايات المتحدة من مقترحات.

وعلى الجانب الآخر يعقد عودتنا إلى العرب لإعادة تنظيم صفوفنا والقيام باستئناف مساعينا الجماعية لمواصلة العمل على تحقيق التسوية السلمية، سواء عن طريق العودة إلى مؤتمر جنيف مرورا بمؤتمر فالدهايم التحضيرى أو بدونه أو عن طريق الالتجاء لمجلس الأمن من جديد.

واقترحت على الرئيس أن نقوم بالخطوات التالية :

١- إجراء مباحثات عاجلة مع الملك حسين للتعرف على استعداده للمشاركة فى المفاوضات. مما ينشىء وضعا جديدا يهيىء لنا قبول التفاوض مع إسرائيل من جديد إذا اقتضى الحال.

٢- إعطاء الإشارة إلى المملكة السعودية لتبدأ اتصالاتها بالأطراف العربية الأخرى للعمل على تسوية الخلافات بيننا والإعداد لمؤتمر قمة عربى موسع أو محدود وحسبما تقتضيه الظروف، حسبما تم الاتفاق عليه بينى وبين المسؤولين السعوديين فى مايو (آيار).

٣- مطالبة الولايات المتحدة بتنفيذ ما تعهدت به فى كامب ديفيد فى أوائل العام، والعمل على أن يكون مشروعها عندما تتقدم به قريبا من الموقف المصرى ومتفقا مع قرار مجلس الأمن، وتفسيرها المعلن له من انطباقه على جميع الجهات، وأن يكون موقفها انعكاسا لمواقفها المعلنة بالنسبة لباقى نقاط النزاع العربى الإسرائيلى مثل المستعمرات وعودة اللاجئين.

وقد اقتنع الرئيس السادات بوجهة النظر بشأن عدم قبولنا عقد اجتماع جديد مع إسرائيل، كما وافق على سفرى إلى الأردن لإجراء مباحثات مع الملك حسين، ولكنى شعرت منه ببعض التردد ربما حرصا منه على عدم الاصطدام برغبة الولايات المتحدة الملحة فى استمرار الاجتماعات، وربما تحرجا من العودة إلى العرب بعد أن خاصمه فريق منهم وهاجمه. أو اشفاقا من إعلان أن مبادرته قد أصابها الفشل، وقد أكدت له أنه لا يمكن القول بفشل المبادرة بعد أن نجحت فى تعرية المواقف الإسرائيلية الرافضة للسلام، وأننا عندما نعود إلى العرب ويعودون إلينا فسنحمل معنا رصيدا ضخما مما أنجزته المبادرة فى كسب الرأى العام الأمريكى والعالمى إلى صفوفنا.

غير أن تطورات مفاجئة لم تلبث أن قضت على ما كان يساور الرئيس السادات من تردد، ودفعته إلى اتخاذ موقف حاسم بعدم قبول أى اجتماع جديد مع إسرائيل مهما كانت النتائج وحتى لو أغضب ذلك الولايات المتحدة.

فقد تفجرت أزمة عنيفة نتيجة الحديث الذى دار بين الرئيس السادات ووزير الدفاع الإسرائيلى عيزرا وايزمان فى « فوشل » حول رد إسرائيل لمدينة العريش.

ففى أعقاب انتهاء مؤتمر ليدز بدأت وسائل الإعلام الإسرائيلية تلوك الموضوع بأن أعلنت أن الرئيس السادات قد طلب من وايزمان أن تعيد إسرائيل إلى مصر مدينة العريش وجبل سيناء كبادرة على حسن النية وإجراء مقابل لمبادرة السادات بزيارة القدس فى نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩٧٧.

ثم أعلن راديو إسرائيل أن مجلس الوزراء سيناقش فى جلسته القادمة الاقتراح الذى تقدم به الرئيس السادات لمناحم بيجن عن طريق وايزمان، وأن عددا من الوزراء قد بدأوا ينظرون للاقتراح المصرى بصورة إيجابية.

ثم بدأت الشخصيات السياسية الإسرائيلية تصور ما ذكره السادات لوايزمان على أنه مشروع مصرى جديد، وصرح رئيس المجموعة البرلمانية لائتلاف الليكود بأن إسرائيل يمكن أن ترد بالإيجاب على طلب الرئيس السادات، ولكن ذلك لا يمكن أن يتم إلا بعد استئناف المفاوضات الفعلية بين البلدين. وأعلن المتحدث باسم الحزب الليبرالى بأن الرئيس السادات يطلب فى الواقع من إسرائيل عقد اتفاق دون أن يقدم لها ما يقابله، وطالب الحزب الوطنى الدينى بأن يقدم الرئيس السادات مبادرة من جانبه بالمقابل، كأن يعلن تخليه عن طلب إزالة المستوطنات الإسرائيلية فى شمال سيناء.

وأعلنت الدوائر العسكرية بأنها لا تستطيع أن تدلى برأى قبل أن تطلع على شروط الاتفاق المحتمل فى موضوع العريش، ومعرفة وضع المطارات والمعسكرات الإسرائيلية القريبة من المدينة وكذلك وضع الطريق بين العريش ومصر.

ثم لم يلبث أن أعلن بيجن فى مؤتمر صحفى يوم ٢٣ يوليه (تموز) أن مجلس الوزراء الإسرائيلى قد قرر بأغلبية ساحقة رفض الطلب الذى تقدم به الرئيس السادات لإعادة العريش وجبل سيناء إلى مصر، لأنه « ليس من حق أى شخص أو أية دولة أن تحصل على شىء مقابل لا شىء» وأن مجلس الوزراء الإسرائيلى قد كلفه (أى بيجن) بأن يبعث برسالة إلى الرئيس السادات بأن مثل هذه «التنازلات» لا يمكن أن تتم إلا على أساس قاعدة المعاملة بالمثل.

وفى حديث أجرته محطة التليفزيون الأمريكية «سى.بى.إس» مع مناحم بيجن أعلن أن مشروعه للحكم الذاتى فى «جوديا وسماريا» يعتبر تنازلا رئيسيا من قبل إسرائيل، وأنه رفض طلب مصر الخاص بعودة العريش وجبل سيناء للإدارة المصرية، واتهم بيجن مصر بأنها رفضت مبدأ حل وسط إقليمى بشأن الضفة الغربية وغزة فى مؤتمر ليدن، وقال : إن وزير الخارجية المصرى قد أجاب ثلاث مرات «بلا» على سؤال موشى ديان عما إذا كانت مصر على استعداد لبحث هذه التنازلات الإقليمية.

وفى اليوم التالى ٧/٢٤ أعلن رئيس الوزراء الإسرائيلى أمام الكنيست «بأن إسرائيل لن تتنازل عن أية حبة رمل فى سيناء كهدية، ولكنها على استعداد للتفاوض على أساس تبادل التنازلات».

وأضاف بيجن «إذا كان الرئيس السادات على استعداد لتوقيع معاهدة سلام فإننا على استعداد لمواصلة السعى من أجل التوصل إلى تسوية بالصبر والمثابرة والصلابة المطلوبة .. وفى حالة عدم التوقيع على المعاهدة فإننا سنسعى لإقامة علاقة تعايش سلمى مع جيراننا، مثل العلاقات التى سادت أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية بين دول غرب أوروبا ودول شرق أوروبا .. غير أنه لو وافق السادات على إجراء مفاوضات مباشرة معنا مرة أخرى فإننا سنتقدم له اقتراحا معينا فى مقابل إعادة العريش وجبل سيناء إليه». وفسر المراقبون الإسرائيليون هذا الاقتراح المعين بأن إسرائيل ستطلب اعترافا مصريا بالمستوطنات الإسرائيلية وتسهيلات عسكرية فى سيناء .

الحلم ينهار..

وجن جنون السادات، وهو يرى حلمه الكبير الذى غلفته مبادرته والذى تعلقت به آمال الملايين فى إقامة سلام شامل دائم يعم منطقة الشرق الأوسط جميعها بكل ما يحمله ذلك من معان سامية يتداعى، وما نتج عنه من نتائج مثمرة ينهار ويتقوض، ليقيم على أنقاضه مناحم بيجن، السمسار وتاجر العبيد الغريب القادم من بعيد، حانوتا صغيرا لفك الرهونات والمقايضة واستبدال العقارات والبيع والشراء، بضاعته رمال سيناء وجبالها وربوع فلسطين وتلالها ومرتفعات الجولان ووديانها، كل ذلك يطرحه للبيع والمبادلة بالربا الفاحش والتقسيط غير المريح وبالقطعة، بالمتر والقصبة، بالرطل والأوقية، بالنكلة والمليم، والثمن غير محدد بل يخضع للفصال والمساومة، والوقت فسيح وهنيئا للأشطر، وتشمل المعاملات أيضا حقوق الإنسان ومصائر الشعوب ومستقبل العائلات والأفراد. يبيع بضاعة يحوزها بالغصب ولا يملكها إلى صاحبها الشرعى، على نحو ما يقول المثل المصرى «من دقنه وافتله».

وبدأ رد فعل السادات عنيفا مدويا، فقد تلقى الفريق الجمسى وزير الدفاع رسالة موجهة من مناحم بيجن إلى الرئيس السادات عن طريق البعثة العسكرية الإسرائيلية فى جناكليس، وهى الرسالة التى أعلن بيجن عقب اجتماع مجلس الوزراء الإسرائيلى

أنه سيرسلها إلى الرئيس السادات، وأعلن عن مضمونها أمام وكالات الأنباء، من أنه لن يسمح بتنازلات من جانب واحد، ولن تحصل مصر على العريش دون مقابل، وأنه سينتظر رد الرئيس السادات عليها فإذا أجابه الرئيس بقبول مبدأ التفاوض على أساس قاعدة المعاملة بالمثل، فإنه سيرحب بمقابلته والاجتماع به لاستئناف التفاوض.

وقد رفض الفريق الجمسى تسلم الرسالة بناء على تعليمات الرئيس السادات باعتبارها تتناول موضوعات سياسية تخرج عن اختصاصه كرجل عسكرى. وعاود بيجن إرسال الرسالة من جديد عن طريق السفارة الأمريكية، فقام السفير هيرمان أيلتس بمقابلتى وقدم لى الرسالة، وقد اعتذرت عن عدم قبولها بدورى على أساس أننا نرفضها من الناحية الشكلية لأن رئيس الوزراء الإسرائيلى قد أذاع مضمونها لوكالات الأنباء قبل أن يرسلها إلى الرئيس السادات وهو ما يخالف السلوك الدبلوماسى المتعارف عليه.

كما أننا نرفضها موضوعيا لرفضنا للتصور الذى قدمه بيجن من أن موضوع العريش وجبل سيناء يمثل مشروعا مصريا جديدا، بالإضافة إلى رفضنا لما أعلنه بيجن من وجوب تقديمنا تنازلات إقليمية واستراتيجية مقابل استردادنا لأراضينا المحتلة أو لأجزاء منها.

واتصل بى الرئيس السادات، وطلب إعداد رسالة منه إلى الرئيس كارتر توضح التطورات التى حدثت فى مؤتمر ليدز وبعده، وافتضاح النوايا الإسرائيلية فى الإصرار على الحصول على تنازلات إقليمية فى الأراضى العربية المحتلة، وأنه والحال كذلك لا فائدة ترجى من استئناف الاجتماعات مع الجانب الإسرائيلى على نحو ما كانت تسعى إليه الولايات المتحدة الأمريكية.

وكان من المقرر أن أسافر إلى الأردن فى صباح يوم ٢٦ يوليه (تموز) لمقابلة الملك حسين، إلا أن الرئيس السادات طلب عقد مجلس الأمن القومى فى صباح ذلك اليوم مما اضطرنى إلى تأجيل سفرى إلى عمان إلى ما بعد انتهاء اجتماع المجلس.

وقد اجتمع المجلس فى استراحة الرئيس السادات بالمعمورة فى الإسكندرية، وفى بداية الجلسة طلب منى الرئيس أن أعرض على المجلس ما دار فى مباحثات مؤتمر ليدن، وبعد أن انتهيت من ذلك قام الرئيس السادات بشرح موضوع العريش وجبل

موسى وهاجم موقف بيجن بشدة، وأعلن أنه لن يتنازل بحال عن بوصة من الأراضى العربية المحتلة، وأنه لم يقم بمبادرته وزيارة القدس لينتهى الأمر إلى مثل ذلك، وأنه بعد أن وضح موقف بيجن فإنه يتعين وقف المباحثات مع إسرائيل لأنها لن تجدى نفعا، بل قد تؤدى إلى تفاقم الموقف وزيادة تشدد الأطراف فى مواقفها، وأعلن أنه قرر لذلك طرد البعثة العسكرية الإسرائيلية فى جناكليس حيث لم يعد لوجودها مبرر.

وهنا حاول الدكتور مصطفى خليل رئيس الاتحاد الاشتراكى - ورئيس الوزراء فيما بعد - أن يتكلم ليعبر عن اعتقاده بأن طرد البعثة الإسرائيلية مسألة حساسة، وقد تؤدى إلى تعقيد الموقف، إلا أن الرئيس السادات هز رأسه بالرفض ووجه الكلام إلى الفريق الجمسى وطالبه باتخاذ الإجراءات ليتم ترحيل البعثة الإسرائيلية من مصر خلال ثمان وأربعين ساعة.

وشعرت بيد الدكتور مصطفى خليل والذى كنت أجلس على يساره وهى تربت على كتفى فالتفت إليه فقال «أرجوك يا محمد أن تحدث الرئيس وتقنعه بالعدول عن هذا القرار أو على الأقل تأجيله فى الوقت الحالى».

وسألته : لأى سبب يرى ذلك ؟ فأجاب «لأن البعثة العسكرية تتبع وايزمان بوصفه وزير الدفاع، وسيكون طردها بمثابة صفعة له وهو الوحيد الذى تربطنا به علاقات صداقة وتفاهم فى الحكومة الإسرائيلية، وأن هذا مؤداه قطع وسيلة اتصالنا بالجانب الإسرائيلى». فقلت «أتريد منى أنا أن أطلب من الرئيس العدول عن قراره بطرد البعثة الإسرائيلية، وأنا الذى كنت أسعى لإبعادها منذ توليت وزارة الخارجية؟!! وذلك من أجل خاطر وايزمان؟ فليذهب وايزمان والبعثة العسكرية إلى الجحيم، إن هذه البعثة ليست إلا مركز تجسس رسمى علينا. وإذا كانت هناك حاجة لاتصال جديد مع إسرائيل فيمكن أن يتم ذلك عن طريق السفارتين الأمريكيتين فى القاهرة وتل أبيب ».

وطلب منى الرئيس السادات أن أقرأ مشروع الخطاب الذى أعددناه للرئيس الأمريكى كارتر، وقد رأيت أن أكتب ترجمته العربية هنا بنصها حتى يستخلص القارىء لنفسه موقف الرئيس السادات فى هذه المرحلة، والتى كانت تشكل بلا شك مفترق طرق بعد انتهاء مباحثات مؤتمر ليدز ، وقبل أن تسفر التطورات عن الاتفاق على عقد مؤتمر القمة الثلاثى الذى عقد بين الرئيس كارتر والرئيس السادات ورئيس الوزراء مناحم بيجن فى كامب ديفيد فى بداية شهر سبتمبر (أيلول) ١٩٧٨.

صديقى العزيز الرئيس كارتر :

على ضوء التطورات الأخيرة فى الشرق الأوسط، أرجو أن أتبادل الآراء معك، حسبما جرى عليه العمل بيننا، حتى يتسنى تقييم الموقف ودراسة أية خطوات ممكنة يلزم اتخاذها حتى نقترب من هدفنا المشترك : تسوية عادلة ودائمة وسلام شامل فى المنطقة.

وأعتقد أننا قد وصلنا إلى مفترق طرق مهم ومصيرى، وأنه من المفيد فى هذا المنحنى التأمل مليا فيما حدث بعد زيارتى للقدس.

لقد كان الهدف ولا يزال من مبادرتى للسلام، كما أعلنت فى خطابى أمام الكنيست فى ٢٠ نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩٧٧ هو تحقيق السلام. قلت فى هذا الخطاب «لقد حضرت إليكم لبناء حياة جديدة وإقامة السلام .. وأن هناك لحظات تأتى فى تاريخ الأمم والشعوب، تحتم على أولئك الذين يتمتعون بالحكمة والنظر الثاقب، التغلب على الماضى بكل تعقيداته ورواسبه، والتقدم إلى الأمام نحو آفاق جديدة. ويجب علينا جميعا التعالى فوق كل صورة من صور التعصب وخداع النفس وفوق نظريات التفوق».

وأضفت «إن العالم العربى لا يسعى إلى السلام العادل الدائم من موقف ضعف أو عدم استقرار. بل إنه يحوز جميع إمكانيات القوة والاستقرار. ومن ثم فإن موقفه ينبع من إرادة خالصة لتحقيق السلام، ومن إدراك متحضر أنه حتى يمكن تفادى كارثة محققة تصيب الجميع، فلا بديل لدينا عن إقامة سلام عادل ودائم ، سلام لا تزلزله العواصف ولا تؤثر عليه الشكوك أو تهزه النوايا السيئة».

وفى هذا الخطاب نفسه، أعلنت أن السلام ممكن بشرط أن تعود الأراضى العربية المحتلة عام ١٩٦٧ إلى أصحابها، وأن يعترف بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطينى. وكان هذا هو موقفنا الثابت الذى كررته مرارا، نعم للسلام، وللأمن، وللعلاقات الطبيعية، علاقات حسن الجوار، ولكن الأرض والسيادة فإننا لا نستطيع التنازل عنها ولن نفعل. وكانت كل تصرفاتى نابعة من إيمانى العميق وشعبى بالسلام.

ولسوء الحظ فإن هذه الروح لم تقابل بمثلها. فمنذ اللحظة الأولى وضح أن رئيس الوزراء بيجن لم يستطع التغلب على أحلامه الخطرة، وأنه لم يكن مستعدا لمواجهة الحقائق والاندماج باخلاص فى مسيرة السلام.

وفى خلال جميع الاجتماعات التى تلت زيارتى للقدس، فى اجتماع القاهرة التمهيدى وفى الإسماعيلية، وفى اجتماعات اللجنتين السياسية والعسكرية، كان موقف حكومة بيجن هو التشبث بالأفكار البالية.

ومع ذلك ولأن مطلب السلام هو هدف عزيز، فقد سيطرنا فى كل مرة على شكوكنا المتزايدة نحو حقيقة نوايا الحكومة الإسرائيلية، على أمل أن يتفهموا فى النهاية أن السلام يتسأهل التخلى عن مطامع الكم والتوسع.

وهذا ياسيادة الرئيس هو الالتزام الوحيد الذى نطلبه منهم، وهو ما يرفضون الالتزام به. ومع ذلك فعندما اعتقدتم أن جولة أخرى من المباحثات المباشرة ضرورية حتى تتيح للولايات المتحدة تحديد موقفها، وتستعد للدور الإيجابى الذى اتفقنا عليه فى كامب ديفيد، فقد وافقت على اجتماع لوزراء الخارجية الثلاثة فى لندن بالرغم من شكوكى وتحفظاتى. فلقد تراءى لى أن ذلك فرصة طيبة كى نشرح للإسرائيليين مباشرة مشروعنا الذى يعالج لب وجوهر النزاع : وهو المشكلة الفلسطينية.

إن هذا المشروع كما تعلم، مبنى على الترجمة الصحيحة للقرار ٢٤٢، ولالتزامات جميع الأطراف، كما نص عليها ذلك القرار. إنه يحول إلى حقائق المعادلة :

(الانسحاب + الأمن = السلام وعلاقات حسن الجوار الطيبة)

وقد كان ذلك من الوضوح بمكان حتى أن وزير الخارجية الإسرائيلى لم يستطع، - فى حضور الوزير فانس - أن يعلن أنه يرفض مشروعنا».

ولكن من الناحية الأخرى، أعلن بوضوح - أيضا فى حضور الوزير فانس - أن إسرائيل لا تريد التخلى عن الأراضى التى تحتلها، وأنها تريد أن يستمر احتلالها العسكرى، وأن تضم إليها أراضى عربية، وأنها تنكر على الشعب الفلسطينى حقوقه المشروعة، وترفض الخضوع لقرارات الأمم المتحدة الخاصة باللاجئين الفلسطينيين.

عزيزى السيد الرئيس

إذا كان الغرض من اجتماعات قلعة ليدن، هو إيضاح مواقف الأطراف حتى يمكن للولايات المتحدة أن تمارس مسؤولياتها التى وافقت على تحملها كشريك كامل، فأنى

أعتقد أن هذا قد تحقق . ولن يكون من المفيد فى تقديرى المشاركة فى اجتماع جديد فى الوقت الذى يستمر فيه الموقف الإسرائيلى على جموده. فلن يكون أمام الأطراف إلا ترديد مواقفهم، بل وربما إحاطة هذه المواقف بتشدد أكثر، ونواجه فى النهاية بموقف أكثر تعقيدا. ولهذا السبب أشعر، بأنه ما لم توضح إسرائيل نية مخلصة لتبنى مواقف وسياسات تساعد مسيرة السلام. فإن اجتماعا جديدا لا يمكن تبريره. ويؤكد ذلك أكثر أن التصريحات والمواقف الإسرائيلية بعد محادثات ليدز قد أوضحت إصرار المسؤولين الإسرائيليين على استمرار المضى فى هذا الطريق الخطر.

إنهم يحاولون خلط المواضيع، وجذبنا نحو مسائل فرعية، وإنى أشعر أحيانا بأن المستر بيجن يحاول معالجة مسيرة السلام كمبادلة تجارية وأن يحلها على أساس المقايضة. وهذا تشويه لروح مبادرتى، وسيقودنا إلى لا شىء، إننا لا نطالبهم بتنازلات، فالأرض أرضنا ولا نملك التنازل عنها.

إن السلام لا يمكن أن ينبنى على «أساس المقايضة» ولا يمكن أن يقوم ويستمر إلا إذا كان قائما على العدل وإلا إذا استطاع خلق ظروف من شأنها إتاحة قيام علاقات حسن جوار طيبة. وبغير ذلك فإن أى اتفاق سيحمل فى طياته بذور الخلاف والنزاع. وللأسف فإن التصريحات الإسرائيلية تبين أنهم لم يتوصلوا بعد لهذه النتيجة المنطقية وأنهم يتبنون مواقف مماثلة لتلك التى اقتضت سحب الوفد المصرى فى اللجنة السياسية فى القدس، حتى نحرم بيجن من فرصة هدم مسيرة السلام نهائيا.

السيد الرئيس

سيحضر الوزير فانس قريبا إلى المنطقة، وسأناقش معه كل الموضوعات. ولكنى أردت أن تعترف مقدما على تفكيرى الحالى بكل الصراحة والإخلاص. أعتقد أن مسيرة السلام يمكن إنقاذها شريطة العمل على أن تفهم الحكومة الإسرائيلية أنها لن يسمح لها بالاستمرار فى استغلال مسيرة السلام كستار لمطامعها وأهدافها غير المشروعة، وإلا فستواجه بموقف محفوف بالمخاطر الكبيرة.

إن ما نهدف إليه ونعمل من أجله أنت وأنا يا سيادة الرئيس هو السلام، إننا نعمل من أجل المستقبل. وإذا اختار المستر بيجن أن ينظر معنا فى نفس الاتجاه، فسنكون

قريبين جدا من هدفنا. وعلى العكس فإنه إذا اختار أن يظل أسيرا لمطامعه القديمة ونظرياته البالية الخاطئة، فإنه سيتحمل أمام العالم بأسره وأمام شعبه المسؤولية المروعة فى ضياع فرصة نادرة ».

المخلص

محمد أنور السادات

ووافق الرئيس السادات على إرسال الخطاب إلى الرئيس كارتر كما هو بدون تعديل، وقال سيد مرعى «إن لغتك الإنجليزية ممتازة» فقل «إن الذى صاغ الخطاب بالإنجليزية هو أحمد ماهر السيد وليس أنا» فنظر إلى سيد مرعى وقال «لم أر طوال حياتى شخصا يعمل بالسياسة مثلك يرفض أن ينسب إلى نفسه فضلا» فقلت «إنى لا أعمل بالسياسة وإنما أحاول أن أؤدى واجبى نحو وطنى».

وهرعت مع أحمد ماهر إلى مطار الإسكندرية لنستقل الطائرة إلى مطار ألماظة حيث استبدلنا بها طائرة الميستير الخاصة بالرئيس السادات وطارت بنا فى الساعة الثالثة والنصف متجهة إلى عمان.

الفصل التاسع والعشرون

مقابلة مع الملك حسين

كانت الشمس قد أوشكت على الغروب عندما هبطت طائرتنا فى مطار عمان، وقد استغرقت الرحلة نحو ثلاث ساعات بسبب اضطرارنا الى اتخاذ طريق غير مباشر لتفادى الطيران فوق سيناء المحتلة وفوق إسرائيل.

وكان فى استقبالنا وزير الإعلام الأردنى بوصفه وزيرا للخارجية بالنيابة، وقد اصطحبنا إلى أحد صالونات المطار حيث تجمع عدد من مراسلى الصحف والإذاعة والتليفزيون، وأجبت على ما وجهوه من أسئلة. وفى هذه الأثناء اتصل الملك حسين بالمطار يستعلم عن وصولنا فلما علم بذلك طلب إبلاغى بأنه سيكون فى انتظارنا بالقصر الملكى حالما ننال قسطا من الراحة من عناء السفر.

وذكر لى وزير الخارجية بالنيابة أن الملك كان قلقا من تأخر وصولنا آملا أن نصل قبل أن يحل الظلام بسبب الظروف المضطربة فى المنطقة، وأنه كان يوالى الاتصال بالمطار على فترات متقاربة ليستعلم عن أخبار وصولنا. ولذلك رأيت من اللائق أن نتجه من المطار مباشرة إلى القصر الملكى حتى لا نطيل انتظاره.

وكنت وما زلت أكن للملك حسين إعجابا وتقديرا خاصين، ولا شك أنه شخصية متميزة بين الملوك والرؤساء العرب، وقد تولى السلطة فى ظروف صعبة بعد اغتيال جده الملك عبد الله أثناء خروجه من المسجد الأقصى بعد أن أدى الصلاة فيه فى ١٩٥١، وقد حدث ذلك على مرأى الملك حسين الذى كان لا يزال طفلا.

وهو يتميز بالشجاعة والذكاء والكياسة والبلاغة ويتمتع بشخصية جذابة، وقد مرت به منذ توليه الملك سلسلة متتالية من المحن والتجارب الخاصة والعامة صمد لها فشحذت إرادته وأكسبته صلابة وزادته حكمة وجعلت منه سياسيا محنكا.

واستقبلنا الملك بترحيب وبشاشة، ودخلت معه غرفة مكتبه ودعانى إلى الجلوس، ولم أكد أجلس حتى وجدت نفسى أخرج علبة السجائر وأضع سيجارة فى فمى وأهم بإشعالها، ثم تداركت الأمر وانتزعت السيجارة وقلت للملك «إنى آسف فأنا لا أستطيع الكلام دون تدخين فهل يسمح لى بذلك » فقال مبتسما «تفضل» وقلت إنى آسف أيضا لأن أقابله بهذا الشكل دون أن أغسل وجهى من عناء السفر ودون أن أغير ملابسى رغم أنى أحضرت معى بذلة جديدة خصيصا لمقابلته، ولكنى لم أشأ أن أطيل انتظاره، وضحك الملك وقال «اعتبر نفسك فى منزلك». وسأل عن صحة الرئيس السادات فنقلت إليه تحياته وذكرت أنه يجدد له دعوته لزيارة القاهرة فقال إنه سبق أن تلقى دعوة من الرئيس السادات عن طريق النائب حسنى مبارك وأنه يأمل أن يلبيها فى أقرب فرصة. كما أشار إلى أنهم يتابعون تصريحاتى وتحركاتى منذ توليت وزارة الخارجية، وأنه تكونت لديهم فكرة طيبة عنى عززها ما ذكره بشأنى سفيرهم فى بون إبراهيم عز الدين الذى كان زميلا لى أثناء كنت سفيرا فى ألمانيا الاتحادية، واستمر الحديث فى أمور عامة نحو ثلث ساعة ثم دعانى الملك إلى الخروج إلى شرفة القصر، حيث كان فى انتظارنا السيد عبد الحميد شرف رئيس الديوان الملكى – ورئيس الوزراء فيما بعد – ووزير الخارجية بالنيابة وسفيرنا فى عمان عزت عبد اللطيف وأحمد ماهر السيد وبدأت المباحثات.

وشرحت بالتفصيل المشروع المصرى الخاص بالضفة الغربية وقطاع غزة، ثم ما دار فى مباحثات مؤتمر ليدز وطلبت منه أن يشارك بأكبر ما يمكن أن يساهم به فى المرحلة القادمة خاصة فى التأثير على الولايات المتحدة لتتخذ موقفا فيه مزيد من الالتزام بمبادىء المشروع المصرى.

وقال الملك : إنهم درسوا مشروعنا وأعلنوا عن تأييدهم له ثم عرض موقفهم بالتفصيل وألخصه على النحو التالى :

١– إنهم حريصون على السلام على أساس انسحاب إسرائيل من الأراضى المحتلة، واستعادة القدس العربية، وإقرار حقوق الشعب الفلسطينى. وإنهم شعروا بإمكانية

ذلك فلن يتخلف الأردن عن تحمل المسؤولية والقيام بدوره.

٢- إنه يصعب اشتراك الأردن فى إدارة الضفة الغربية مع بقاء قوات إسرائيلية فيها، إذ ستكون هذه القوات فى هذه الحالة هى القوة الحقيقية فى الإقليم.

٣- إن هناك عقبات كثيرة فى طريق تحقيق السلام منها التعنت الإسرائيلى، ولكن الأخطر منه هو ضعف الموقف العربى وتشتته.

٤- ذكر الملك أنه أكد للمبعوث الأمريكى الفريد آثرتون عندما زاره الأخير مؤخرا، أنه ليس لدى العرب حد أدنى وحد أقصى للمناورة لأن المطالب العربية تتعلق بالأرض والسيادة وهى أمور لا تحتمل ولا تقبل المساومة، وقال إن آثرتون أبلغه بأن الولايات المتحدة تفكر فى التقدم بأفكارها.

٥- نوه الملك بأهمية ما تقوم به مصر من جهود من أجل تحقيق السلام، وقال إنه رغم عدم استشارته ومفاجأته بالمبادرة بينما كان يسعى ويستعد إلى الاتجاه لمؤتمر جنيف، فقد سارع بالإعلان عن تأييدها وقام بجولة فى الخليج لحث دول المنطقة على اتخاذ موقف إيجابى منها، مما أثر على علاقته بسوريا.

٦- قال الملك حسين إن هدفه الثابت هو بناء موقف عربى أكثر تضامنا للحيلولة دون تعرض المنطقة لانتفاضات سلبية نتيجة الانقسام مما يعرقل جهود السلام.

٧- وذكر أنه خلال زيارته لسوريا فى الأسبوع السابق لمس تغيرا فى موقفها واستعدادا للاتجاه إلى مؤتمر جنيف. وقد كان الرئيس الأسد ملتزما حدوده دائما فى حديثه عن الرئيس السادات، وأبدى الأسد عدم تفهمه لقيام مصر بالهجوم على مناحم بيجن وحده، مع أن مواقف حزب العمل الإسرائيلى لا تقل - كما أثبتت تجارب الماضى - تعنتا عن موقف بيجن وإن كانت أكثر التواء وذكاء.

٨- وتكلم الملك عن السعودية فقال : إنه يصعب فهم موقفها، فكل طرف يخرج من الحديث معهم بانطباع أنهم يتفقون معه، وأشار إلى ما حدث خلال زيارة النائب حسنى مبارك له عندما نقل إليه استعداد السعودية لتشجيع الأردن على القيام بدور تجاه الضفة الغربية، ولكنه عندما قام هو (الملك) بزيارة السعودية أنكروا ما نقله النائب وذكروا أن موقفهم ثابت لا يتغير. وقد تألم الملك عندما بلغه فيما بعد أن الرئيس السادات يتهمه بأنه غير موقفه بشأن التدخل فى الضفة الغربية. والحقيقة

أن موقف السعودية الذى يعبر عنه السعوديون دائما ويضغطون على الملك حسين أحيانا بسببه، هو تأييد قيام دولة فلسطينية مستقلة عن الأردن مما يحقق الأمن السعودى ويمنع التيارات غير المرغوب فيها من التسرب إلى حدودهم.

٩- وأكد الملك أنه ملتزم بمقررات مؤتمر القمة فى الرباط بشأن حق تقرير المصير للشعب الفلسطينى، وذكر أن الأمير فهد ولى عهد السعودية يسعى لإيجاد اتصال وحوار بين الأردن ومنظمة التحرير الفلسطينية، كما أن الرئيس الأسد تطرق معه فى الحديث إلى نفس الموضوع، كما أشار الملك إلى أنه قد جرت اتصالات مباشرة بينه وبين الفلسطينيين لنفس الغرض إلا أن شيئا لم يتحقق بعد.

١٠- أيد الملك خطورة الوضع فى لبنان وضرورة مراقبته بحذر شديد لما قد يؤدى إليه من توريط سوريا والأردن.

١١- ركز الملك فى حديثه طويلا على القدس والتوسعات والتغييرات التى يقوم بها الإسرائيليون فيها، وقال إن أهمية القدس الإسلامية تستدعى تعبئة الدعم والتأييد الإسلامى وأنه يعمل على ذلك وكانت زيارته الأخيرة لإيران فى نفس هذا الاتجاه.

١٢- وبالنسبة للوضع الدولى وخطر التطويق الشيوعى يرى الملك خطورة ذلك، وأن الأمر يقتضى بناء موقف عربى أكثر تماسكا وتضامنا لمواجهة هذا المد. وهو الضمان الوحيد فى ذات الوقت الذى يمكننا من التصدى لإسرائيل وأطماعها التوسعية على حساب الأراضى العربية.

وانتهى الملك من حديثه فشكرته وقلت إننا نقدر ظروف الأردن الصعبة ولكننا ندرك دوره الحيوى فى أية تسوية للنزاع العربى الإسرائيلى، وإننا نرجو منهم ونطالبهم بالتفكير فى الأسلوب المناسب لتحركهم، وإننا نعول عليهم ونتوقع مشاركتهم معنا فى المرحلة الخطيرة القادمة، كما أننا نتفق معهم تماما فى وجوب العمل على استعادة التضامن بين الدول العربية دعما لاستراتيجيتنا، وفيما يتعلق بما ذكره عن خطر التطويق الشيوعى قلت : إن هذا يعتبر مدخلا آخر للضغط على الولايات المتحدة للتحرك بشكل فعال ولتمارس بدورها الضغوط على إسرائيل فى اتجاه التسوية السلمية الشاملة.

وكان الوقت قد قارب منتصف الليل فاستأذنت الملك حسين فى الانصراف، ونهض الملك قائلا : تعال معى أريك شيئا قبل انصرافك، وتبعته إلى حافة شرفة القصر وأشار

بيـده فـى اتجـاه بقـعـة يعلوها وهج من النور وسط الظلام الدامس، وقـال «هـذه هى القدس»، وسـاد السكون وشـعـرت برعـشـة تسـرى فى أوصـالى وتفـاعلت فى صـدرى مشاعر متباينة من الحزن والأسى والحنين والأمل والعزم والإصرار. وانصرفنا عائدين بعد أن ودعنى الملك طالبا منى أن أنقل للرئيس السادات تحياته وتمنياته وشكره على إيفاد وزير خارجيته للتشاور، وضرورة مداومة الاتصال والتنسيق لأن هذا هو الأسلوب الأمثل حتى لا يفاجأ طرف بموقف الطرف الآخر.

واجب الأردن..

وفى صبـاح اليـوم التـالى ٢٧ يوليـه (تموز) قـمت بزيـارة رئيس الوزراء الأردنى مـضـر بدران وعرضت الموقف، ومـا تم من لقاءات بين الرئيس السادات مع بيريز فى فيينا ومع وايزمان فى سالزبورج. كما عرضت تفصيلا ما دار فى اجتماعات قلعة ليدز، كما تحدثت عن أهمية تفكير الأردن فى القيام بدور نشيط خاصة عند زيارة سيروس فانس للمنطقة على ضوء شواهد بأن الولايات المتحدة قد تكون مستعدة لتقديم أفكارها كما أشـرت إلى أن إسرائيل تسعى لدى الولايات المتحدة لاستبعاد مشاركة الأردن فى جهود التسوية.

وقد عرض مضر بدران وجهة نظره على النحو التالى :

١- ثبت من الممارسة صحة موقف الأردن فى مؤتمر الرباط من أن تتولى الأردن المطالبة باسترداد الضفة الغربية، إلا أن الملك حسين اضطر فى النهاية إلى الالتزام بما قرره المؤتمر من اعتبار منظمة التحرير الفلسطينية الممثل الشرعى الوحيد للشعب الفلسطينى رغم عدم اقتناعه بذلك، حيث إن الشرعية الأردنية فى الضفة الغربية كانت خير دعم للموقف العربى خاصة وأن إسرائيل ترفض الاعتراف بالمنظمة ولا ترضى بالتعامل معها.

٢- إن حـزب العـمل الإسـرائيلى لا يقل تطرفـا عن ائتـلاف الليكود فى هـدف ابتـلاع الأردن، وزعماء حزب العمل هم الذين أقاموا خلال سنوات الاحتلال العشر (منذ ١٩٦٧) المستعمرات وأعدوا خطط التوسع، وغاية الأمر أن مناحم بيجن يعلن عن أهداف التوسع بشكل سافر وقح.

٣- لدى إسرائيل خطط جاهزة لمحاولة إسقاط النظام الأردنى وإقامة نظام فلسطينى محله يدور فى فلك إسرائيل، وبذلك تحل المشكلة الفلسطينية نهائيا بسيطرة

الفلسطينيين على أراضى الدولة الأردنية. وإسرائيل تجهز كوادر فلسطينية لاستخدامها فى الوقت المناسب كما كانت تفعل قبل حرب ١٩٦٧ بالنسبة للضفة الغربية.

٤- أكد الملك حسين للرئيس الأسد أثناء زيارته الأخيرة لدمشق أنه ثبت أن مصر لا تسعى لسلام منفرد، وقد لاحظوا مرونة فى موقف سوريا ورغبة فى العودة إلى مؤتمر جنيف.

٥- الوضع العسكرى الأردنى له حدوده، وهم عسكريا فى موقف صعب، ولذا فرغبتهم فى السلام صادقة ولكن قدرتهم على التحرك تحكمها صعوبة الظروف التى يواجهونها عربيا وفلسطينيا.

٦- أرسل «برجينسكى» مستشار الرئيس الأمريكى للأمن القومى رسالة لهم أخيرا تدعو الأردن إلى الاشتراك فى جهود السلام، وقد ردوا بأنهم لا يضعون شروطا مسبقة، ولكن يجب الاتفاق على الأسس التى يقوم عليها اشتراكهم وهى ضرورة التأكد من مبدأ الانسحاب الإسرائيلى من أراضى الضفة الغربية، وحق الشعب الفلسطينى فى تقرير مصيره على أرضه، مع استعدادهم لتقديم كافة الضمانات للأمن عدا التنازل عن الأرض.

٧- إن أثرتون لم يأت بجديد فى زيارته الأخيرة لعمان، وكان ذلك هو أيضا انطباع الأمير سعود الفيصل عندما اجتمع به فى السعودية.

٨- وعن الموقف الإسرائيلى قال إن بيجن يهدف لتحقيق مشروع آلون، وإن ما يطرحه الإسرائيليون حاليا عن الحكم الذاتى سبق أن طرحه حزب العمل الإسرائيلى فى سنة ١٩٧٤تحت اسم الإدارة المدنية، وقد قام الأردن وقتها بتحذير أبناء وموظفى الضفة من التمشى مع هذا المخطط مما أدى إلى إفشاله. وتركز إسرائيل حاليا على الحصول على أكبر قدر من المهاجرين اليهود الجدد لابتلاع الأرض، ولا يتصور أن ترضى إسرائيل بالانسحاب إلا تحت ضغط القوة العربية الذاتية.

وقد قلت للسيد مضر بدران : إننا لا نهتم بوضع بيجن، وهل يبقى أو يسقط، كما أننا لا نرى خلافات أساسية بينه وبين حزب العمل ، أو أن تعرض بيجن للمتاعب أو سقوط وزارته سيشكل ضغطا على الموقف الإسرائيلى.

وإنما تركيزنا الأساسى فى الوقت الحالى هو على الولايات المتحدة لتحريكها إلى تبنى مواقف أقرب وأكثر تفهما للموقف العربى. ولا شك أن إعداد الأرضية والتفهم للموقف العربى فى الولايات المتحدة على المستوى الحكومى والرأى العام والكونجرس يسهل تحرك الحكومة الأمريكية على النحو الذى تريده، وقد حققت مبادرة الرئيس السادات الكثير فى هذا الاتجاه، إلا أن جهدا عربيا فى نفس الاتجاه مطلوب ومفيد.

وذكرت أن لدى أمريكا حاليا أفكارا تكاد تتبلور فى وقت قريب جدا، ونحن نحاول دفعهم إلى أن تكون أفكارهم متمشية مع مواقفنا واتجاهاتنا. ومن ثم فأنا أرى أن على الأردن واجبا ومسؤولية فى أن يتحرك وينشط ويتحدث بقوة مع فانس، كما أنه يكون من المفيد أن يتخذ الأردن مواقف أكثر إيجابية فى دعم جهود مصر التى تبذلها لتحقيق الأهداف العربية.

أكثر الناس معرفة بالضفة..

وقد استخلصت لنفسى من حديثى مع الملك حسين ثم مع رئيس وزرائه مضر بدران عدة أمور :

الأمر الأول: أن رئيس الوزراء الأردنى لديه تحفظات كثيرة على مبادرة السادات، ولا يؤمن بمقدرتها على تحقيق نتائج إيجابية، وبالتالى فإنه يجب التزام الحذر إزاءها وعدم الزج بالأردن فى غمارها، لأن ذلك يشكل مغامرة غير مأمونة النتائج. وهو أقرب إلى الموقف السورى وإلى التوجه من جديد إلى مؤتمر جنيف.

والأمر الثانى: وهو مهم للغاية أن الأردنيين - بحكم أن الضفة الغربية كانت جزءا من المملكة الهاشمية الأردنية منذ ضمها الملك عبد الله سنة ١٩٤٨ إلى وقت أن استولت عليها إسرائيل فى سنة ١٩٦٧. وبحكم إدارتهم لها وتغلغلهم فيها طوال العشرين سنة الماضية، وبحكم الجوار اللصيق والاختلاط الوثيق وبحكم روابط الدم والقربى والنسب، وأكثر من ذلك كله بحكم الحفاظ على أمنهم ومستقبلهم، وقد أصبحت القوات الإسرائيلية ترابط على حدودهم السابقة على ضم الضفة الغربية - هم (الأردنيون) بحكم ذلك كله أكثر الناس معرفة بالضفة الغربية وأقدرهم على متابعة ما يجرى فيها من تطورات وما يعتمل داخلها من تفاعلات.

فقد شعرت من حديثى مع مضر بدران بالذات والذى دام ساعات أنه متعمق فى دراسة جغرافية الضفة، ويعرف كل تل وكل تبة، كل حقل وكل بستان، كل قرية وكفر، يعرف أصل عائلاتها وأصهارهم وما يملكون وكيف يرزقون، ومن يتعامل مع إسرائيل ومن لا يفعل، من يناصر المنظمة ومن يعاديها، ثم هو يعلم أولا بأول بكل خطوة تقدم عليها إسرائيل فى الضفة، ويستطيع قياس الرأى العام فيها وما يحدث فيه من تحولات، وما يؤثر عليه سلبا أو إيجابا بدقة كبيرة.

والنتيجة التى خلصت إليها من كل ذلك أنه لا يمكن تقرير مستقبل الضفة الغربية وبالتالى حل القضية الفلسطينية بمنأى عن الأردن، فلابد من وجوده فى أية تسوية ولو مرحليا، إلى أن تتم استعادة الأرض حتى يمكن أن يتم طرح الأمر على أهلها ليختاروا مصيرهم، سواء بالانضمام إلى الأردن أو بإقامة دولة فلسطينية مستقلة أو دولة تتحد فيدراليا مع الأردن.

الأمر الثالث: هو أن الملك حسين كان يشعر بمرارة قاسية لأن أحدا فى مؤتمر القمة العربى فى الرباط سنة ١٩٧٤ لم يحاول أن يستمع إلى رأيه فى أن يفوضه المشاركون فى المؤتمر فى أن يكون المطالب باسترداد الضفة الغربية المحتلة باعتبارها أرضا أردنية، شأن سيناء بالنسبة لمصر، والجولان بالنسبة لسوريا، كما رفضوا ما اقترحه من أن يتم تفويضه هو والمنظمة جنبا إلى جنب فى استعادة الضفة الغربية، بحيث لا تصبح المنظمة هى الممثل الشرعى الوحيد وتزول بذلك عنه أية صفة فى المطالبة بالضفة الغربية، إذن لكان الموقف قد اختلف جوهريا ولسقطت حجة إسرائيل المصطنعة فى أنها - وهى ترفض التفاوض مع المنظمة - لا تجد ممثلا للضفة تتعامل معه. وكما أسلفت القول، فإن سيادة الأردن على الضفة الغربية - وإن لم تعترف بها الدول العربية وقت ضمها للأردن - إلا أنها لا تقل فى أقل القليل عن ما تدعيه إسرائيل من سيادة على الأراضى الفلسطينية التى احتلتها على مر السنين خارج الأراضى التى خصصها لها قرار الجمعية العامة بتقسيم فلسطين إلى دولة فلسطينية ودولة يهودية سنة ١٩٤٨ والذى على أساسه قامت إسرائيل.

ورغم هذه المرارة التى يعانيها الملك حسين فقد تيقنت بصدق استعداده وعزمه على تحمل مسؤولياته فى الضفة الغربية والمشاركة فى المفاوضات الخاصة باستردادها، إلا أن الأمر بالنسبة له ليس بهذه البساطة إذ تحيط به تعقيدات شائكة حساسة وريب وشكوك من قبل منظمة التحرير الفلسطينية أولا ثم من قبل بعض الدول العربية التى عزلته فى مؤتمر القمة بالرباط من تولى هذه المسؤولية بالنسبة للضفة الغربية.

ومن ثم فقد كان محقا فى تردده فى الإقدام على هذا الأمر دون ما تفويض واضح من قبل الفلسطينيين والدول العربية، أو دون تأكيد أمريكى صريح بأن المفاوضات سوف تتم على أساس مبدأ انسحاب إسرائيل من الضفة. ودخوله إلى حلبة المفاوضات دون أن يتحقق هذان الشرطان أو أحدهما يكون مغامرة لا يقدم عليها عاقل ولا أحد يستطيع الادعاء عليه بأنه ليس كذلك.

التحرك بعد مبدأ الانسحاب ..

بعد انتهاء مقابلتى لرئيس الوزراء الأردنى توجهت إلى منزل الشريف عبد الحميد شرف تلبية لدعوته إلى الغداء ولمزيد من التشاور والمناقشة، وكان عبد الحميد شرف شابا ذكيا لامعا وله حظوة كبيرة عند الملك حسين الذى كان يحبه ويثق فيه ويستمع إليه.

وقد شارك فى الغداء من الجانب الأردنى رئيس الوزراء ووزير الخارجية بالنيابة ووزير الداخلية، ومن ناحيتنا كان معى سفيرنا فى عمان وأحمد ماهر السيد، وقد تميزت هذه الجلسة بالصراحة الممزوجة بالثقة والرغبة المخلصة فى التفاهم والتعاون.

وبدأت الحديث بأن قلت إن هناك ظواهر ومؤشرات بأن أمريكا تستعد لتقديم أفكارها بشأن تسوية النزاع العربى الإسرائيلى، ومن ثم فيجب التكاتف للتأثير والضغط على الموقف الأمريكى حتى يجىء أقرب ما يكون إلى الموقف العربى، وذكرت أن إسرائيل تحاول التقليل من شأن المشروع المصرى الخاص بعودة غزة إلى الإدارة المصرية وعودة الضفة الغربية إلى الأردن، على أساس الادعاء بأن الأردن غير مستعد للمشاركة فى المفاوضات مما يجعل المشروع المصرى غير ذى موضوع.

وأن ديان أوشك فى مؤتمر ليدز فى اتصالاته الجانبية مع فانس على إقناعه بهذا المنطق، وهو ما تصديت له فى حينه مؤكدا أنه ليس هناك ما يحول دون اشتراك الأردن

وإقبـاله على التفـاوض متى مـا ثبت أنه يجرى على أسـاس تنفيذ القرار رقم ٢٤٢ القاضى بالانسحاب الإسرائيلى من الأراضى المحتلة. ولذا فإنى أرى وجوب أن يتخذ الأردن فى هذه المرحلة المهمة موقفا واضحا صريحا يدحض الحجة الإسرائيلية ويساعد أمريكا على بلورة أفكارها فى الاتجاه المطلوب ويدعم الموقف العربى.

ودارت مناقشة طويلة بعد ذلك أكد فيها مضر بدران أن الأردن لا يستطيع التحرك فى فراغ، وأنهم مستعدون للتحرك إذا اطمأنوا إلى أن مبدأ الانسحاب ليس محل خلاف.

وقلت وما المانع فى أن تعلن الأردن تعليق اشتراكها فى المفاوضات على شرط أن تقوم الولايات المتحدة بتأكيد موقفها من ضرورة انسحاب إسرائيل من الضفة الغربية، فإذا لم تقم الولايات المتحدة بذلك تكون الأردن فى حل عدم المشاركة؟ فيمكن فى رأيى أن تصدر الأردن - دون أن يقيدها ذلك فى شىء - بيانا رسميا يوضح استعدادها للدخول فى المفاوضات على أساس المشروع المصرى إذا أكدت الولايات المتحدة موقفها من ضرورة انسحاب إسرائيل من الضفة الغربية، ويمكنهم إذا شاءوا أن يضيفوا إلى ذلك ضرورة ممارسة الشعب الفلسطينى لحقه فى تقرير المصير، حتى لا يثيروا شكوك بعض رجال منظمة التحرير الفلسطينية.

وحاول مضر بدران أن يجادل فى قيمة مثل هذا الإعلان، خاصة وأن موقفهم معروف لدى أمريكا بل ولدى إسرائيل وحتى لدى دول جبهة الرفض، وهو أنهم مستعدون للمشاركة فى التفاوض إذا تأكدوا سلفا أن نهايته هى الانسحاب.

وقال عبد الحميد شرف : إن المعنى الذى ذكرته ورد فى تصريحات كثيرة للملك حسين عقب قيام الرئيس السادات بمبادرته مباشرة.

وقلت : إن إصدار بيان من الأردن بالمعنى الذى ذكرته يكون له وقع مهم فى هذا الوقت بالذات بعد طرح المشروع المصرى المبنى على مشاركة الأردن، وما لمسته فى ليدز من استعداد أمريكا لتقبله وقبل زيارة فانس للمنطقة. ما هو الاعتراض على مثل ذلك وما هو الضرر منه؟

وبدا على عبد الحميد شرف الاقتناع بالفكرة وحسم المناقشة بقوله إنه واثق بأن الملك والحكومة الأردنية يمكنها إيجاد صياغة تتفق وما اقترحته، وأنه سيعرض الأمر على الملك حسين. وأضاف عبد الحميد شرف أن الأمر المهم هو متابعة الضغط على

الولايات المتحدة، وأن الأردن مستعد للاتصال بالدول العربية وخاصة السعودية ودول الخليج وحتى سوريا لتحقيق ذلك، كما أنه ينصح أن تركز مصر على السعودية لممارسة ضغوطها على الولايات المتحدة قبل وأثناء زيارة فانس.

وانتهى الغداء وودعنا الشريف عبد الحميد شرف معبرا عن سعادته بلقائى، وعن أهمية وفائدة استمرار التشاور بيننا وتنسيق المواقف، وغادرنا منزله إلى المطار لنعود إلى القاهرة، وشعرت بأن الزيارة إلى الأردن كانت إيجابية وأنها أضافت حجرا جديدا فى بناء التصالح والتعاون العربى.

لصوص الماشية ..

وتوجهت من مطار ألماظة إلى منزلى حيث أخذت حماما ساخنا وجلست أمام التليفزيون لمشاهدة خطاب الرئيس السادات فى جامعة الإسكندرية بمناسبة يوم ٢٦ يوليو (تموز) ١٩٥٢ عندما تنازل الملك فاروق إلى ولى عهده الطفل «فؤاد» وغادر مصر نهائيا إلى إيطاليا على ظهر يخته «المحروسة» حيث ظل هناك حتى وفاته.[١]

وقد تضمن الخطاب هجوما عنيفا على رئيس الوزراء الإسرائيلى مناحم بيجن، حيث وصفه بأنه يرفض إعادة الأرض التى سرقها إلا إذا استولى على أجزاء منها. كما كان يفعل لصوص الماشية فى مصر حينما يرفضون ردها إلى صاحبها إلا إذا تقاضوا منه ثلث أو نصف قيمتها. وقال إنه لن يسمح بأن يتحول معبد السلام الذى أقمناه إلى مكان تجارة، كما تاجروا فى معبد الرب فى السابق.

ومع ذلك فإننى أقول للشعب اليهودى فى إسرائيل وفى أوروبا والعالم أجمع «إن لإسرائيل الحق فى السلام، والحق فى حسن الجوار، أما السيادة فمرفوضة وكذلك استلاب الأرض المسروقة».

رسالة من الأردن ..

وأعود للحديث عن زيارتى للأردن، فقد سلمنى سفيرها فى القاهرة رسالة شخصية بخط اليد فى مظروف مغلق من الشريف عبد الحميد شرف رئيس الديوان الملكى الهاشمى اقتبس منها ماجاء متعلقا بزيارتى وبعض التطورات التى تلتها :

---

(١) وافق الرئيس السادات على دفن جثمان الملك السابق فاروق فى مصر وفقا لرغبته التى أبداها فى وصيته.

عمان فى ١٩٧٨/٨/١٤

«إلى الأخ الوزير حفظه الله

أبعث إليكم بصادق المحبة والمودة وأرجو أن تكونوا على ما يرام من الصحة وراحة البال (وإن كانت الأخيرة مستبعدة!).

لقد سعدنا كثيرا بلقائك فى عمان، وكانت مناسبة ممتازة للقاء والتعارف وتبادل الرأى الأخوى، مع العلم بأننا جميعا شعرنا بأننا نعرفك من وقت طويل.

وقد سر جلالة الملك بلقائك وكذلك باقى الإخوة المسؤولين عندنا. وقد فهمنا من خلال الزيارة واللقاء وجهة نظر مصر بالدقة والتفصيل من التطورات الأخيرة، ونأمل أن نكون قد نقلنا لكم تقديرنا للموقف وحرصنا على التعاون الوثيق فيما فيه المصلحة القومية المشتركة.

بعد مغادرتكم زارنا سمو الأمير فهد ثم السيد أثرتون المبعوث الأمريكى، لإيضاح موقف بلاده وتبادل الرأى، كما قام السيد رئيس الوزراء مضر بدران بزيارة دمشق فى إطار الاجتماعات الدورية التى تجرى بين الأردن وسوريا لتنسيق الجوانب الاقتصادية والفنية والزراعية والمشروعات المشتركة التى تتحقق بالتعاون بين البلدين وفيما يلى بعض التفاصيل :

١- زيارة الأمير فهد كانت فرصة طيبة جدا للبحث فى القضايا المشتركة التى تهمنا جميعا. وقد رحبنا بهذه المبادرة من الإخوة السعوديين بالنظر لميلهم عادة إلى الحذر الشديد والتحفظ فى أخذ المبادرات العربية، وخاصة ما يتعلق فيها بتنسيق المواقف بالنسبة للقضايا الخلافية والتى تثير اختلافا فى وجهات النظر العربية.

وكان جلالة الملك حسين فى مناسبات لقاء سابقة مع جلالة الملك خالد وسمو الأمير فهد وغيرهما قد دعا الإخوة السعوديين للتحرك فى الإطار العربى لبناء التضامن الذى يقوم على مواقف إيجابية لا سلبية.

وقد كان موقف الأمير فهد خلال زيارته متفقا مع موقفنا، أى أنه كان مع تدعيم التضامن العربى دون أن نفقد كعرب، الرصيد العالمى الكبير الذى تكون خلال الأشهر الأخيرة نتيجة لجهود مصر فى كشف التعنت الإسرائيلى وصلافة إسرائيل العدوانية.

وقد اتفق الجانبان على متابعة الجهد المشترك لتأمين الجهد العربى لجهود التضامن، وكذلك طرح أمام سمو الأمير فهد الموضوع الذى حملتموه، والمتعلق بمتابعة الاتصال بالولايات المتحدة، وتثبيت المواقع الإيجابية التى وصلتها، وعدم فتح المجال أمامها للارتداد تحت الضغوط الصهيونية، إلى مواقف مناصرة للمواقف الإسرائيلية، وعلى وجه التحديد اتفق على محاولة عدم السماح للموقف الأمريكى بالانزلاق نحو البحث عن نقطة وسط آلية بين الموقف الإسرائيلى والمشروع المصرى العربى. واتفقنا على متابعة الجهود فى هذا المجال.

٢- زيارة أثرتون جاءت بعد زيارة المستر فانس لمصر[١] وطرح فكرة كامب ديفيد، وقد ركز أثرتون على النقاط التالية :

(أ) إن مبادرة الرئيس كارتر بالدعوة لمؤتمر كامب ديفيد جاءت نتيجة اتجاه الجهود السلمية نحو أزمة تهدد بالتدهور السريع والخطير.

(ب) إن الرئيس الأمريكى - بدعوته - يضع الرئاسة الأمريكية فى الميزان، ويرمى بثقلها فى ميدان الجهود السلمية. وهذا تقدم كبير كما أنه تطلب شجاعة ومغامرة سياسية من الرئيس الأمريكى وحكومته.

(جـ) الولايات المتحدة ستلتزم، خلال لقاء كامب ديفيد، بجميع المبادىء والمواقف التى أعلنها الرئيس الأمريكى وأبلغ القادة العرب، وبينهم جلالة الملك، بها .

(د) طلب أثرتون التدعيم والمساندة من العرب «المعتدلين»!

وقد صرح جلالة الملك عقب الاجتماع بتأييد المبادرة والتحرك الأخير من قبل الولايات المتحدة، كما أعرب عن أمله فى أن يكون لقاء كامب ديفيد فرصة لدفع قضية التسوية العادلة إلى الأمام بالاستناد إلى قرار مجلس الأمن ٢٤٢ بتفسيره الصحيح - ومبادىء الانسحاب والحقوق الفلسطينية وتقرير المصير، كما انتهز جلالة الملك الفرصة خلال المباحثات لإعادة عرض موقفنا، بعد أن توسع فى شرح دلائل «تآكل» أو (EROSION) الموقف الأمريكى وانزلاقه نحو التراجع أمام الضغط الإسرائيلى.

---

(١) تمت زيارة فانس لمصر فى ١٩٧٨/٨/٧م.

وقد رد أثرتون مؤكدا أن ذلك غير وارد وأن الولايات المتحدة سترمى بثقلها خلال المفاوضات. لقد انتقدنا الأفكار التى كان حملها أثرتون سابقا حول مستقبل التسوية للضفة الغربية وغزة - والتى وصفها المسؤولون لاثرتون بأنها موقف وسط غير معتدل بين الحد الأدنى العربى - الذى مثله المشروع المصرى - والمطامع الإسرائيلية المعلنة حول الاحتفاظ بالأرض الفلسطينية، الضفة وغزة. وقال أثرتون إن الأحداث قد تجاوزت هذه الأفكار - التى كان قد أسىء فهمها - وإن الرئيس الأمريكى شخصيا يقوم بمبادرة جديدة مهمة للغاية.

٣- من خلال اتصالنا بالإخوة السوريين، لا تغيير فى موقفهم. ولكن الملاحظ أن ردود فعلهم تجاه التطورات الأخيرة كانت معتدلة. ونحن لا نألوا جهدا فى تفسير التطورات لهم بروح إيجابية، وحريصون على استمرار الاتصال وتبادل الرأى لما فى هذا الأمر من فائدة.

آمل ألا أكون أطلت عليك ...»



قبلة على جبين السادات ..

قبل وصول ألفريد أثرتون إلى مصر، وفقا لما اتفق عليه فى اجتماعات ليدز أدلى هودنج كارتر المتحدث الرسمى للخارجية بتصريحات تمهد لزيارة أثرتون، ففى ٢٥ يوليه (تموز) صرح بأن الولايات المتحدة تجرى مباحثات مع كل من مصر وإسرائيل بشأن اجتماع الشرق الأوسط القادم، والذى يتوقع ويأمل سيروس فانس أن يتم انعقاده، وقال إنه لم يتقرر بعد المكان المحدد للاجتماع غير أن سيناء تعد أحد الاحتمالات التى يجرى بحثها.

وقال : إن الانطباع العام لدى الولايات المتحدة هو أن الاجتماع سيعقد، حيث أبلغت كل من مصر وإسرائيل الولايات المتحدة أنهما مصرتان على إيجاد حل سلمى لنزاع الشرق الأوسط.

وفى ٢٦ يوليه (تموز) صرح بأن الولايات المتحدة تقدر الجهود التى قامت بها إسرائيل أثناء اجتماعات ليدز وبعدها للسعى إلى إيجاد حلول للمشكلات الرئيسية التى تعوق المفاوضات، وأن هذه الجهود يمكن أن تؤدى إلى نتائج إيجابية تذيب جمود الموقف الراهن. والحقيقة أن الحيرة وشيئا من الإحباط أصابنى من جراء معاودة الولايات المتحدة لهذا النوع من التصريحات بشأن اجتماعات قادمة دون أن تستند على أى أساس من الواقع، اللهم إلا إذا كان أساسها تنسيقا أمريكيا إسرائيليا يصرون

على أن نتجرعه رغم أنفنا، ورغم علمهم التام بأن أية اجتماعات جديدة سيصيبها الفشل، والسبب هو جمود الموقف الإسرائيلى ليس إلا.

غير أنى رأيت أن التصريح الثانى للمتحدث الرسمى الأمريكى قد جاوز الحدود وبلغ حد الاستفزاز. فأين هى تلك الجهود الإسرائيلية التى يمتدحها ويشيد بها والتى قامت بها إسرائيل فى اجتماعات ليدز؟

فلقد كنا هناك كما كان الأمريكيون ولم نر أو نسمع كما لم يروا أو يسمعوا شيئا من هذه الجهود التى ستؤدى إلى نتائج إيجابية تذيب الجمود، اللهم إلا إذا كانت الولايات المتحدة تعتبر إصرار وزير الخارجية الإسرائيلى - فى نهاية المؤتمر - بوقاحة على ضرورة اقتسام الأراضى العربية المحتلة بينهم وبين أصحابها هو جهد إيجابى!

وكان كل ذلك يعتمل فى صدرى وفى فكرى عندما استقبلت المستر أثرتون بعد ظهر يوم ٢٨ يوليه (تموز) عقب الجولة التى قام بها لكل من السعودية والأردن وإسرائيل، وكنت له مستعدا.

وقد حضر المقابلة مع أثرتون السفير هيرمان أيلتس، وكان معى مدير مكتبى أحمد ماهر، وقد دامت المناقشات نحو ثلاث ساعات.

وبدأ أثرتون الحديث فأشار إلى النجاح والتوفيق الذى حققه الوفد المصرى فى مباحثات ليدز التى وصفها بأنها كانت مفيدة، خاصة وقد عالجت الموضوعات بشكل تفصيلى وإن لم يترتب عليها تغيير فى المواقف الأساسية لكل طرف، ومن ثم فإن الخلافات الجوهرية بين مصر وإسرائيل مازالت قائمة.

ولذلك ولضرورة تحديد المواقف تماما فلابد من استمرار المفاوضات حتى تتمكن الولايات المتحدة من تنفيذ التفاهم الذى تم الاتفاق عليه بين مصر وأمريكا فى كامب ديفيد بشأن قيام أمريكا بدور نشيط، وأن آراء الرئيس كارتر فى هذا الشأن ثابتة بدون تغيير.

وعليه فإن الولايات المتحدة ترغب فى الحصول على موافقة مصر فى الالتزام باستمرار المفاوضات المباشرة من خلال جولة أخرى واحدة فقط يجتمع فيها وزيرا الخارجية والدفاع المصريان بنظيريهما فى إسرائيل وبمشاركة وزير خارجية أمريكا حتى تستطيع الولايات المتحدة أن تطرح أفكارها. إذ أن قيام أمريكا بذلك من فراغ

سيؤدى إلى فشل التحرك الأمريكى، وأضاف أنه يحمل معه رسالة من الرئيس كارتر إلى الرئيس السادات فى هذا الشأن.

ثم تحدث بعد ذلك عن زيارته للسعودية والأردن فقال : إن الهدف من الزيارة كان لشرح التقييم الأمريكى لمحادثات ليدز وأسباب كونها مفيدة، ثم إطلاعهم على الاستراتيجية الأمريكية. وقال أنه حاول الحصول على تفهمهم وتشجيعهم للجهود الأمريكية وتأييدهم لعقد جولة جديدة من المفاوضات المباشرة، وأنه أوضح لهم أن هذا ليس مطلبا إسرائيليا وإنما هو اقتراح أمريكى لإيضاح الدور الأمريكى أمام الرأى العام الداخلى فى أمريكا.

وأضاف أثرتون أنه يعترف بصراحة بأنه لم ينجح فى إقناعهم فهم لا يريدون جولة أخرى من المفاوضات إلا إذا كانت ستحقق نتائج إيجابية. فكل من الأمير سعود الفيصل والملك حسين لديه شكوك. وقد أوضح الملك حسين أنه رغم الضغوط السورية عليه فإنه لن يشترك فى المفاوضات، إلا أنه لن يضع العقبات فى سبيلها حتى تتبين له النتائج، كما قال الأمير سعود الفيصل أنه إذا أصرت الولايات المتحدة على جولة جديدة من المباحثات فإنه لن يهاجم ذلك بشكل مباشر.

سأتحدث بصراحة ..

وقلت بعد أن انتهى أثرتون من كلامه : إنى سأتحدث معهم بمنتهى الصراحة جريا على عادتى، ولأنى أرى أن هذا هو الأسلوب الوحيد للحفاظ على الثقة القائمة بيننا من الاهتزاز. فلعلكم تذكرون أن وزير الخارجية فانس قد أثار معى فى ليدز موضوع الاتفاق على عقد اجتماع لاحق حتى من قبل أن تبدأ المباحثات فى ليدز، وقد ذكرت له حينئذ أنى أرى أنه لا يمكن الاتفاق مسبقا على اجتماع جديد قبل إنهاء اجتماعات ليدز ومعرفة الموقف الإسرائيلى، فضلا عن أن لدى تعليمات واضحة من الرئيس بعدم الارتباط باجتماع آخر إلا إذا أظهر الموقف الإسرائيلى مرونة، وإلا فاننا نضيع وقتنا ونبدد جهودنا ونسمح لإسرائيل بأن تناور وتحاول الإيحاء بوجود تقدم زائف، مما يتيح لها العمل على تحقيق هدفها فى تقليص الدور الأمريكى، ومع ذلك فقد قلت للمستر فانس إنه يمكن عندما يحضر إلى المنطقة بعد انتهاء اجتماعات ليدز أن يتحدث مرة أخرى فى موضوع عقد اجتماع جديد - يكون الأخير - إذا ما بدا له استعداد جاد من إسرائيل لمفاوضات جدية على الأسس التى تتفق مع قرارات الأمم المتحدة.

وقد أوضح ديان في ليدز موقف إسرائيل تماما :

(أ) استمرار الاحتلال الإسرائيلي للضفة الغربية وغزة.

(ب) التمسك بالأمن الإقليمي أي ضم الأراضي المحتلة بالقوة.

(ج) رفض الالتزام بالقرارات الخاصة باللاجئين.

(د) رفض أي نوع من تقرير المصير بالنسبة للشعب الفلسطيني.

(هـ) التمسك بدعاوى السيادة الإسرائيلية.

(و) التمسك بالمستوطنات، وبما أسماه حق اليهود في ألا يكونوا أجانب في الضفة الغربية.

ومع ذلك فقد طلب مني فانس أن يعلن هو عن أمله في عقد لقاء آخر وهذا من حقه، ولكننا تحفظنا على مثل ذلك اللقاء في الجلسات وفي العلن وأعلنت - كما أعلن الرئيس- أننا مستعدون لعقد لقاء آخر، إذا غيرت إسرائيل مواقفها. وأعلنا عن موقفنا بوضوح.

سلام : نعم. أمن : نعم، علاقات حسن جوار : نعم.

أما الأرض والسيادة فلا مساومة عليهما.

وتلت ذلك مواقف إسرائيلية تؤكد التمسك بالأرض وبالمواقف الجامدة المتعنتة وحركات مسرحية بشأن العريش وجبل سيناء، وكان ذلك لخلق البلبلة وتحويل الأنظار بعيدا عن صلب الموضوع، واتجه بيجن إلى «التجارة» وقال إنه لن يرد حبة رمل من سيناء بدون مقابل.

وكل هذا أوضحه الرئيس السادات في رسالته إلى الرئيس كارتر يوم ٢٦ يوليو (تموز) وهي رسالة واضحة صريحة تنطلق من ثقة الرئيس كارتر، وحرصه على عدم إتاحة الفرصة أمام بيجن لنسف عملية السلام نهائيا.

وهنا فإن لي عتابا شديدا على الموقف الأمريكي : فرغم وضوح موقفنا من الاجتماع الجديد، وإبلاغنا ذلك للجانب الأمريكي في صراحة وبدون مواربة. والأساس الذي يستند إليه رفضنا لمثل ذلك الاجتماع، فقد ظل المسؤولون الأمريكيون يصرحون

ويؤكدون أن الاجتماع سيعقد، وكأننا قصر مسلوبو الإرادة، وزاد عليهم الإسرائيليون بتحديد زمان ومكان الاجتماع استنادا إلى معلومات ادعوا أنها جاءتهم منكم.

وكأن المقصود من ذلك إحراج مصر، وإلقاء اللوم عليها، وجرها إلى اجتماع جديد غير مفيد بل ضار لنا عربيا ودوليا ومصريا. ورغم وضوح جمود وتشدد الموقف الإسرائيلى، يتجرأ المتحدث الرسمى الأمريكى (هودنج كارتر) فيدلى بتصريحات يذكر فيها بلا حياء أن الولايات المتحدة تقدر جهود إسرائيل التى أبدتها فى اجتماع ليدز، وما بعده للسعى لحلول للمشكلات الرئيسية التى تعوق المفاوضات، وأن هذه الجهود يمكن أن تؤدى إلى نتائج إيجابية تذيب جمود الموقف الراهن !!

مع أن مواقف إسرائيل هى الجمود ذاته والتمسك بالأرض والاحتلال. ما هذا .. أأنتم لا تفهمون أم تظنون أننا لا نفهم؟ ماذا قال ديان فى اجتماعات ليدز؟ ألم يقل أمامكم وتحت سمعكم وبصركم إنه مستعد لبحث اقتراح عربى بالحل الوسط الإقليمى .. أى أنه يطالبنا بأن نعرض عليه الاحتفاظ بأرضنا حتى يقبل أن يساومنا على مساحة الأرض التى يود الاحتفاظ بها ويتعطف ويمن علينا برد الجزء الذى لا يريده. ألم يعلن أنه مستعد لبحث السيادة على الضفة الغربية وغزة بعد خمس سنوات، وهو يعلم وأنتم تعلمون أن هذا أمر مرفوض تماما فلا سيادة لإسرائيل ولا حق لها فى الادعاء بها؟

هل هذا هو الموقف والجهد الذى سيذيب الجمود؟

وفى هذا الصدد فقد أدهشنى ما ذكره السفير أيلتس من أن ديان لم يعرض فى ليدز مشروع آلون، فهل علينا أن نلهج بشكره على ذلك؟ وسواء عرضه أو لم يعرضه فليس لذلك قيمة، فهل مشروع آلون يزيد على ما أوضحه ديان بجلاء من أنه يتمسك بالأرض؟

والأعجب من ذلك أن يقول أيلتس إنه من المفيد أن ديان لم يعرض تنفيذ مشروع آلون ، وإلا لكان على أمريكا أن تأخذ هذا فى الاعتبار، كيف نتفهم ذلك؟ هل معنى هذا أنه إذا عرضت إسرائيل احتلال مصر كلها مثلا فإن على أمريكا أن تأخذ هذا فى الاعتبار فتتقدم اقتراحا وسطا بأن تحتفظ إسرائيل بنصف مصر أو ثلثها مثلا؟ وكيف يتسنى لنا أن نحتفظ بثقتنا فى معقولية وعدالة ما ستقدمه الولايات المتحدة من أفكار فى النهاية؟

إن لأمريكا مواقف معلنة واضحة بالنسبة للانسحاب والمستعمرات وحقوق الشعب الفلسطينى. ومصر موقفها فى منتهى المرونة حين تعلن أنها تقبل كل ترتيبات الأمن وإقامة علاقات السلام وحسن الجوار، فى مقابل الانسحاب الإسرائيلى، وهذه هى المعادلة التى نص عليها القرار ٢٤٢ كما نفهمها، وكما فسرتها أمريكا منذ صدور القرار.

ولذلك فإن هذا هو الذى يجب أن تأخذه الولايات المتحدة فى الاعتبار عندما تقدم مقترحاتها. لا أن تأخذ فى الاعتبار مواقف إسرائيل ورغباتها فى التوسع مما لا يتفق مع أى منطق أو عدل أو قانون.

ثم هناك قصة نقاط الالتقاء ونقاط الاختلاف. وقد أوضحنا لكم تماما فى ليدز موقفنا من أن هذه عملية لا معنى لها ولا فائدة منها، إلا السماح لإسرائيل بالخداع والكذب والغش وهذا ما لا نقبله ولا يليق بكم أن تقبلوه. إن النقطة الأساسية هى : هل تنسحب إسرائيل أم لا؟ ونحن نعلم أن السعوديين أوضحوا لكم ذلك، والأردنيين الذين أبدوا استعدادهم للانضمام إلى المفاوضات إذا وضح أنها ستنتهى بالانسحاب، وهذا موقف منطقى لأن علينا عندما نبدأ الطريق أن نعرف إلى أين يصل بنا.

إن الدول العربية الصديقة تقول أنه لا جدوى من بيجن ولا من غيره، وأن على أمريكا اتخاذ مواقف حازمة. فإذا جاءت أفكاركم حلا وسطا ممسوخا لا يحل المشكلة الرئيسية وهى الانسحاب فإن كل الجهود تكون عبثا وهباء، ولن تؤدى إلا إلى تعقيد الأمور بالنسبة لمصر وبالنسبة لأمريكا، وإلى استمرار النزاع وضياع الفرصة الفريدة أمام السلام. كما أن ذلك يتيح للاتحاد السوفيتى محاولة العودة إلى المنطقة استغلالا لما سيصيب العرب من خيبة أمل. وإن سابقة دالاس والسد العالى فى ٥٦ ليست ببعيدة.

إننا لا نفهم لماذا تطلبون اجتماعا آخر.. فلقد اتضحت المواقف تماما فى لندن، ووضح أن هناك ركودا كاملا، وبالتالى فإن الوقت قد حان لتقدم أمريكا مشروعها بعد التفاهم عليه بيننا.

أما إذا كان المقصود مجرد اجتماعا فإن هذا يحرجنا بعد أن أعلنا وأكدنا أننا لن نجتمع إلا بوجود عناصر جديدة فى الموقف الإسرائيلى، ونحن لم نفاجئكم بهذا الإعلان بل لقد أخطرناكم بموقفنا خلال الاجتماعات المغلقة، وبدلا من أن تأخذوا هذا

فى الاعتبار، استمرت تصريحاتكم تؤكد وجود اجتماع وكأن الهدف هو إظهار أن مصر تنقاد إلى أى شئ، وهذا ما لا نقبله منكم أو من غيركم.

ثم إنكم تعرفون تماما أن إسرائيل تريد استبعاد الجميع بمن فيهم أنتم من العملية، فإذا عقدنا اجتماعا فى هذه الظروف فإننا نعطيها الفرصة لأن تؤثر على الرأى العام الأمريكى بأن تقول له «إن الاتصالات المباشرة مستمرة فما الداعى لأن تقدم أمريكا أفكارها أو مقترحاتها.. يجب أن تتركونا نحل مشاكلنا مع المصريين». وعندئذ تجد الولايات المتحدة أنها - رغم أنفها - لا تستطيع الوفاء بما وعدت وتعهدت به فى كامب ديفيد.

إننا لا نطالبكم بالانحياز لنا، بل بالتمسك بالمبادئ التى تؤمنون بها والتى أعدتم تأكيدها بعد زيارة السادات فى البيان الصادر من البيت الأبيض فى ٨ فبراير (شباط) ١٩٧٨. إن السادات يثق بكارتر وبكم، ونرجو ألا تفعلوا ما يسئ إلى هذه الثقة، ولا تحاولوا أن تسيئوا إلى مركز السادات بعد أن جعلته ثقته فيكم يغامر بالكثير.

إذا كنتم تريدون اجتماعا، فقولوا لنا ما هو التغيير الذى لمستموه فى إسرائيل مما يجعل من الواقعى تصور إمكان حدوث تقدم. ولقد سمعتم من السعودية ومن الأردن ما سمعناه نحن منهم من أنه لا جدوى من استمرار المباحثات المباشرة، وقد بدأنا نقتنع بذلك رغم حرصنا على استمرار مسيرة السلام والمبادرة، فهل لديكم من زيارتكم لإسرائيل أمس ما تستطيعون به إقناعنا وإقناع السعودية والأردن بأن اجتماعا جديدا يكون مفيدا ومثيرا ويحقق تقدما ولو بسيطا؟ إذا كان الأمر كذلك فنحن مستعدون، أما بدون ذلك فنحن لسنا على استعداد لتضييع وتحمل مذلة الانصياع لمناورات بيجن وأنا أعنى ما أقول.

وقد التزم أثرتون موقف الدفاع طوال المقابلة، ولم يستطع أن يقدم جوابا شافيا، وعبثا حاول إثنائى عن رفض قبول الاجتماع الجديد، والحقيقة أنه كان يشعر فى قرارة نفسه - شأنه شأن السفير أيلتس - بأننا محقون تماما فى موقفنا وليس هناك ما يمكن أن يوجهوه إليه من نقد أو ملامة وانتهى الاجتماع.

أهمية الاجتماع القادم..

حدد الرئيس السادات الساعة الحادية عشرة والنصف من صباح ٣٠ يوليه (تموز) لاستقبال المستر أثرتون فى استراحة المعمورة بالاسكندرية. وقد أمضيت مع الرئيس

السادات ساعة قبل بدء الاجتماع أحطته فيها بما دار بينى وبين أثرتون وقلت له : يجب أن يعلم الأمريكيون أننا عندما نقول شيئا نتمسك به، وأنى شخصيا لن أستطيع بحال المشاركة فى اجتماع جديد مع الجانب الإسرائيلى ما لم يحدث تغيير فى موقفهم يبرر ذلك، وأقرنى الرئيس السادات على موقفى، وقال إنه لا يتفهم الموقف الأمريكى خاصة بعد الرسالة الطويلة الواضحة التى أرسلها إلى كارتر يوم ٢٦ يوليه (تموز).

وفى بدء الاجتماع نقل المستر أثرتون إلى الرئيس السادات تحيات وتمنيات الرئيس كارتر، وذكر أنه يحمل منه رسالة تلقاها أمس. ورد عليه الرئيس السادات بشكر الرئيس كارتر، وطلب من أثرتون نقل أطيب تحياته له ولأسرته وأن يبلغه أنه (أى السادات) مازال متفائلا رغم كل شئ.

ثم قرأ السفير أيلتس نقاط رسالة كارتر وقد تضمنت شكر الرئيس السادات على الصراحة التى تناول بها الموقف فى رسالته يوم ٢٦ يوليو (تموز) وأمله فى استمرار المشاورات وتبادل الآراء وتفهم الرئيس كارتر وتقديره للقلق الذى يساور الرئيس السادات بسبب البطء فى التحرك نحو التسوية السلمية، وهو ما يقتضى منهما معا الاستمرار فى جهودهما دون كلل حتى لا تتحقق رغبة من يريدون الفشل لجهود السلام.

وقال إنه، وإن كانت محادثات ليدز مفيدة إلا أنها لم تحل المشاكل الأساسية القائمة بين مصر وإسرائيل، ومن ثم يجب مواصلة السير حسب التفاهم والاتفاق الذى توصلت إليه مصر وأمريكا فى كامب ديفيد، ولذا فيجب أن تظهر مصر رغبتها فى استمرار التفاوض، وذلك بالموافقة على عقد جولة أخرى من المباحثات بمشاركة وزراء الخارجية والدفاع فى مصر وإسرائيل وحضور وزير الخارجية الأمريكى. وأنه متى تم الاتفاق على ذلك فسيحضر المستر فانس للمنطقة حاملا رسالة خاصة من الرئيس كارتر.

وعبر الرئيس السادات عن تقديره للرئيس الأمريكى وقال : إننى قد نقلت إليه ما دار فى حديثى مع أثرتون أول أمس، وأنه يود قبل مناقشة الموقف أن يحيطه أثرتون بما دار بينه وبين الجانب الإسرائيلى فى زيارته الأخيرة لإسرائيل، خاصة وقد وافق وجوده فى إسرائيل إعلان الرئيس السادات رفضه تلقى الرسالة التى بعث إليه بها بيجن، لأنه قد

أذاع مضمونها قبل ذلك على العالم. كما وافق الخطاب الذى ألقاه فى جامعة الأسكندرية يوم ٢٧ يوليه (تموز). وكذا عما تم فى زيارته للسعودية والأردن . وقال أثرتون :

أولا: هناك خلافات داخل الحكومة والكنيست .. والكثيرون غير سعداء ويشعرون بالإحراج من الطريقة التى نشرت بها أحاديثكم مع وايزمان فى سالزبورج، والطريقة التى عالج بها بيجن وحكومته الموضوع.

ثانيا: إن موقف بيجن فى الكنيست مازال كما هو، فمازال يتمتع بأغلبية الأصوات ولا توجد مؤشرات لتغيير سريع.

ثالثا: إنه تقابل مع بيجن ومع ايجال يادين ومع ديان ومع وايزمان وتبادل معهم تقييم أمريكا لمحادثات ليدز. وأثناء أحاديثه معهم قدم اقتراحات عن إمكانيات تعديل موقفهم بالنسبة لما يمكن أن يحدث بعد انتهاء فترة السنوات الخمس الانتقالية، وأن بيجن ظل يستمع له دون أن يبدى أى رأى. وهذا أمر له دلالته. ففى الماضى كان بيجن يرد بسرعة وسكوته هذه المرة يعنى أنه لم يرفض تماما!! ويرى بعض من حوله أنه فى حالة ذهنية أكثر مرونة، ويقدمون مثالا على ذلك أنه قال أمام بعضهم أنه كان من الممكن طرح صياغة جديدة للإجابات الإسرائيلية عن الأسئلة الأمريكية !! وكان ديان قد بحث بعد اجتماعات ليدز إمكانية تعديل الردود الإسرائيلية.

وأن بيجن قد وافق أخيرا على إمكان مناقشة مسألة السيادة على الضفة الغربية وغزة بعد انتهاء فترة السنوات الخمس الانتقالية.

وقال أثرتون إنه و إن كان ذلك موقفا مازال غير مرض ولا يرد على الأسئلة الأمريكية. إلا أنه يجب مقارنته بالنقطة التى انطلق منها بيجن، وفى هذه الحالة يمكن اعتباره تقدما يفتح بعض الاحتمالات. فهناك بعض الآراء التى تفسر ذلك فى إسرائيل بأن حكومة بيجن لا تستبعد لأول مرة تصور احتمال أن السيادة العربية يمكن أن يعترف بها. وقد رددت بعض الصحف هذا المعنى ولم تقم الحكومة بنفيه. وفى محادثاتى معه ومع بعض رجال حكومته لم ينفوه، وهذا يمكن اعتباره على أنه يفتح الباب قليلا !!

رابعا: وبالنسبة للهجوم الشخصى على بيجن، فإن البعض يستنكر هذا الهجوم الخارجي عليه، ويقولون إنه سيؤدى إلى أثر عكسى وهذا أيضا شعورى الشخصى. وسوف أعود إلى إسرائيل انتظارا لحضور المستر فانس، وكنت قد تركت معهم (الإسرائيليين) بعض الاستفسارات.

خامسا: بالنسبة لزيارته للسعودية والأردن كرر المستر أثرتون ما ذكرته فى مقابلتى السابقة له.

وقال المستر أثرتون إنه يود قبل أن ينتهى من كلامه أن يشرح لماذا ترى الولايات المتحدة أهمية للاجتماع القادم الذى يقترحونه، فالهدف الأمريكى مازال ثابتا مثل ما اتفقنا عليه فى كامب ديفيد ولكن المسألة هى كيفية تحقيقه؟ فإنه يلزم للحصول على تأييد داخلى للرئيس كارتر، ولإحداث التأثير الأكبر داخل إسرائيل أن يكون من الواضح أن المفاوضات قد استمرت واستنفدت نفسها ووصلت فى النهاية إلى طريق مغلق، وهو ما تشعرون به أنتم فى مصر وفى السعودية وفى الأردن. إلا أنهم فى أمريكا فإن الرأى العام لم يتفهم ذلك بعد.

الخلاف على نقطتين ..

وقلت لقد تحدثنا طويلا بالأمس وأمس الأول فى هذا الشأن والخلاف الرئيسى بيننا يقوم على نقطتين : الأولى هى أسلوب المعالجة الأمريكية لاجتماع تال دون تقدير لظروفنا ووجهة نظرنا، والثانية : أن أفكارهم الأولية لا تحقق ما نريده بحال فهى تتفق مع ما يعمل بيجن على تحقيقه، وهو أن يكون الالتزام الإسرائيلى مقصورا على التفاوض خلال الفترة الانتقالية. فى حين أن موقفنا يؤكد على أن تكون نقطة البدء هى التزام إسرائيل بتنفيذ الانسحاب مقابل ضمانات الأمن.

وأكدت للمستر أثرتون أنهم إذا كانوا يفكرون فى التقدم بحل وسط بين المشروع الإسرائيلى والمشروع المصرى فإننا لن نصل إلى شىء. وقلت إننا عرضنا على الجانب الإسرائيلى فى ليدز مشروعنا بشأن الضفة الغربية وغزة فكان ردهم الإصرار على اقتسام الأرض وقد رفضنا ذلك، ونحن على استعداد أن نتلقى اقتراحاتهم عليه عن طريق الجانب الأمريكى على أن تكون جادة وليست على نحو ما ذكره المستر أثرتون، من أن المستر بيجن على استعداد لبحث موضوع السيادة بعد مضى السنوات الخمس. ونحن نقترح إذا كانت أمريكا ترغب فى استئناف المفاوضات المباشرة فى

غياب التزام إسرائيلى بالانسحاب أن تتقدم بمشروع - بعد التشاور معنا - ينص على المواقف الأمريكية المعلنة بشأن الانسحاب وغيره.

وبمعنى آخر فإننا لا نستطيع استئناف المباحثات المباشرة من جديد دون أن تكون نقطة البدء هى التزام إسرائيلى بأن محورها سيكون الانسحاب، أو إذا لم يتسن ذلك فلابد أن يكون هناك التزام يتضمنه المشروع الأمريكى بأن محل التفاوض هو تنفيذ الانسحاب مقابل ضمانات الأمن للأطراف. وبغير مثل هذا الالتزام الإسرائيلى أو الأمريكى تكون عودتنا إلى التفاوض من قبيل الحرث فى البحر.

وأضفت أن هناك مسألة أخرى هى أن المشروع المصرى يقوم على مشاركة الأردن فيما يتعلق بإدارة الضفة الغربية خلال الفترة الانتقالية، ومعروف أن الأردن قد علق مشاركته فى المفاوضات على أساس أن يكون مفهوما منذ البداية أنها ستنتهى بالانسحاب، ومعنى هذا أنه فى غياب الأردن تصبح المفاوضات بين مصر وإسرائيل مقصورة على قطاع غزة وحده دون الضفة الغربية، وهذا ما لا يمكن قبوله لأنه يعتبر تفتيتا للقضية الفلسطينية وتقطيعا لأوصالها. وقد وضحت النوايا الإسرائيلية فى العمل على استبعاد الأردن وبالتالى فى إسقاط المشروع المصرى.

وقال أثرتون : ربما لم أشرح موقفى بوضوح أمس، إننا نطالب إسرائيل فعلا بالتزام منها بالتفاوض، وربما يكون هناك غموض فيما يتعلق بالانسحاب ولكننا نطالبهم فعلا بالانسحاب.

وقلت : إننا لن نتفاوض من جديد على القرار ٢٤٢ فقد تم ذلك فى مجلس الأمن، وإنما يجب أن نقصر التفاوض على تنفيذ القرار ٢٤٢.

موقف ديان الوقح ..

وتكلم الرئيس السادات فقال : بعد أن استمعت إلى رسالة الرئيس كارتر وإلى تقييم المستر أثرتون للموقف، فيجب أن تتذكروا أنه قبل اجتماع لندن (ليدز) أعلنت موقفى بأنى لن أوافق أبدا على الجلوس مع الإسرائيليين إلا إذا ظهرت عناصر جديدة فى موقفهم. ولكن عندما طلب منى الرئيس كارتر عقد جولة أخرى من المباحثات فقد وافقته على ذلك، ولصداقتى له فقد قبلت أن يتم الاجتماع فى ليدز بدلا من العريش التى كنت أفضلها مكانا للاجتماع.

وكنت أعتقد بعد مبادرتى للقدس أننا تجاوزنا مرحلة الشكوك والعقد، إلا أنه وضح لى أن الإسرائيليين يخلقون الصعوبات ويضعون العقبات أمام كل شىء، وقد ظهر ذلك فى جميع المراحل فى القدس وفى الإسماعيلية وفى اجتماعات اللجنة السياسية واللجنة العسكرية التى وافقت بيجن على تشكيلهما بمجرد اقتراحه ذلك.

ورغم معرفتى بأن هدفهم هو التوسع والحصول على أراض جديدة وحدود جديدة لإسرائيل ترضى جشعهم وتحقق أحلامهم ، فقد كان هدفى وتفكيرى دائما هو دفع عملية السلام وتمهيد الطريق أمامهم للتحرك إلا أنهم تغافلوا عن كل ذلك وسيطر الطمع على تصرفاتهم. ثم جاءت اجتماعات ليدز. وجاءت اللحظة التى كنت أتوقعها ليخرجوا على السطح بموقفهم الحقيقى المبيت وهو الاستيلاء على الأرض.

وفى حديثى مع الرئيس كارتر – قبل المبادرة – فى شهر أبريل (نيسان) ١٩٧٧ ناقشنا ثلاثة موضوعات هى : الأرض، وطبيعة السلام، والمشكلة الفلسطينية، ولم يكن هناك خلاف جوهرى بيننا إلا على طبيعة السلام. فقد كنت أعتقد أنه ليس من السهل بعد عداء استمر ثلاثين سنة الانتقال إلى علاقات السلام الطبيعية دفعة واحدة. وكان كارتر قد اجتمع بالإسرائيليين قبلى وقالوا له إن كل ما يطمحون إليه هو الاعتراف بدولتهم والتفاوض المباشر معهم وتطبيع العلاقات وإقامة علاقات تعاون وسلام.

وقد قالوا لكارتر وقتها إن هذه الطلبات يستحيل أن يوافق عليها أى زعيم عربى. وفى شهر نوفمبر (تشرين الثانى) تجاوزنا كل ذلك وأعلنا قبولهم فى المنطقة واستعدادنا للدخول معهم فى مفاوضات مباشرة والاعتراف بهم وتقديم ضمانات الأمن التى يطلبونها، وكذلك استعدادنا لتطبيع العلاقات وفتح الحدود والتعاون والتعايش.

وهذا هو موقفى حتى الآن، وهو ما لم يكونوا يتصورونه فى أحلامهم ولكن غلب عليهم طبعهم فى أن يأخذوا كل شىء ثم يطالبوا بالمزيد. ثم ظهرت الحقيقة واضحة جلية فى مؤتمر ليدز عندما قدمنا لهم مشروعنا وعرضنا عليهم نقاط الأمن الست، وأعلنا أننا لا نعارض حتى فى أن تقوم أمريكا بعقد تحالف دفاعى وعسكرى معهم. فكان جوابهم أنهم يصرون على أن تشتمل ترتيبات الأمن اقتسام الأراضى المحتلة ونحن بطبيعة الحال لا نملك التنازل عن الأرض.

وقد كان موقف بيجن فى غاية الغطرسة والتبجح عندما أعلن أنه لن يعيد حبة رمل إلا بالثمن، كما كان موقف ديان وقحا عندما قال : إنهم لا يستطيعون تقديم هدايا لنا

بمناسبة عيد الميلاد (الكريسماس) بدون مقابل. ولذلك أعطيت أوامرى بأن تعود المجموعة العسكرية الإسرائيلية فورا إلى إسرائيل.

والرئيس كارتر يطلب فى رسالته الأخيرة عقد اجتماع جديد مع إسرائيل بحضور فانس واشتراك وزيرى الخارجية والدفاع فى البلدين. وإنى آسف لأن موقفى الآن هو أننا لن نجلس مع إسرائيل على أى مستوًى إلا عندما يعلنون أن الأرض خارج أى تسوية وسط. ونحن فى المقابل مستعدون للذهاب إلى نهاية العالم لتقديم كافة ترتيبات الأمن. ويجب ألا نسمح بإضاعة وإهدار سنوات فى النقاش والجدل حول كلام ديان عن التقابل فى منتصف الطريق والحلول الوسط وغير ذلك.

الأرض والسيادة يجب أن تخرج تماما عن إطار المساومة، فنحن لا نعيش فى غابة ينتزع فيها البعض أرض الآخرين. وهم فى إسرائيل وبيجن بالذات يحاول أن تتحول إسرائيل على حساب أرضنا العربية إلى دولة كبرى فى المنطقة وأن يحصل مع ذلك على الأمن والسلام فى نفس الوقت.

انقذوا صورة بلادكم ..

وسكت السادات قليلا ثم قال فى صوت قوى يشوبه بعض الانفعال : مصر وأمريكا تربطهما صداقة قوية، ونحن نريد الحفاظ على تلك الصداقة وتدعيمها وزيادة التعاون معكم، ولكن البنتاجون لايزال حتى هذه اللحظة يزود إسرائيل مرتين فى اليوم الواحد بالمعلومات التى تتعلق بأمننا عن طريق الأقمار الصناعية الأمريكية، ونحن ليس لدينا صورا جوية عن إسرائيل ويهمنا بالطبع الحفاظ على أمننا.

والواقع أننى مندهش للغاية من موقفكم وكيف تسمحون لإسرائيل أن تستغلكم بهذا الشكل، فأنتم تقدمون لها كل شىء، ومع ذلك يتحداكم بيجن بكل صلف ولا تستطيعون أمامه حراكا. وبالنسبة لموضوع إمداد البنتاجون لإسرائيل بالخرائط الجوية المتعلقة بأمننا فنحن حريصون على ألا نشوه صورة أمريكا أمام شعوبنا، وأنا أطلب منكم رسميا وسريا فى نفس الوقت إطلاعنا على كل ما فعلته أمريكا وتفعله الآن فى مجال إمداد إسرائيل بالمعلومات الخاصة بأمننا وفى كل المجالات الأخرى، لأن هذا يجب أخذه فى الاعتبار حتى لا يعلنوا بكل تبجح أنهم يرفضون أن تضغط عليهم أمريكا، ويكفى أن تسألوا كيسنجر عما طلبته منكم إسرائيل بعد أربعة أيام من حرب أكتوبر (تشرين الأول) وما قدمتموه لها وقتها وبعدها من أسلحة متطورة.

وأرجو أن تنقلوا إلى صديقى الرئيس كارتر أنى لن أحرجه وكل ما أطلبه أن تنقذوا صورة بلادكم أمام الشعوب العربية، خاصة وأن الغطرسة وقلة الأدب الإسرائيلية هى بسبب الأسلحة الأمريكية التى تغدقونها على إسرائيل وبسبب تعاون البنتاجون معها.

وسيعرف شعبى حتما أن كل ما تفعلونه هو مساندة الاحتلال الإسرائيلى للأراضى العربية. ويمكننى أن أقول ذلك للرأى العام ولكنى لن أفعل بسبب صداقتى ومحبتى للرئيس كارتر وعرفانى للشعب الأمريكى. ولكن نصيحتى لكم أن تحاولوا إصلاح صورة أمريكا وستجدون أنى صديق قوى يعتمد عليه.

والواقع أن الملك خالد أرسل لى أخيرا رسالة يطلب فيها أن أقطع أى اتصال مع إسرائيل بعد أن ثبت أن لا فائدة ترجى من وراء ذلك. وأنى أرى أن على أمريكا الآن أن توضح موقفها وحتى هذه اللحظة فإنكم لم تفعلوا ذلك. ونحن مستعدون للاستماع إلى كل جديد، ولكنى أؤكد استعدادنا للمفاوضات المباشرة ولكل ترتيبات الأمن والدخول فى علاقات طبيعية وحدود مفتوحة وكل ما يمكن تصوره لا يشمل التخلى عن سنتيمتر واحد من الأرض، وعلى إسرائيل أن تنسحب من كل مستوطناتها فى الضفة الغربية، ولقد كان موقفكم دائما منذ ١٩٦٧ بما فى ذلك جولد برج الصهيونى هو انسحاب إسرائيل من الضفة الغربية مع إمكان إجراء تعديلات طفيفة فى الحدود. ولست أطالب إسرائيل بأن يتم الانسحاب أولا فيمكنهم أن يعلنوا عن قبولهم لمبدأ الانسحاب بضمان أمريكى.

إن هدف إسرائيل هو إخراج أمريكا من المفاوضات بأى شكل حتى تجلس معنا على انفراد، وكنت مستعدا لذلك لو أنهم يريدون العيش كدولة طبيعية فى الشرق الأوسط ولكنهم لا يريدون ذلك، وسأصمم دائما على الوجود الأمريكى فى المفاوضات لأننا نريد أن تكونوا شهودا على تصرفاتهم. وقد طلبوا منى بالفعل أن يتم التفاوض بيننا بدون مشاركة أمريكا، ولكنى رفضت وقلت لوايزمان عندما قال لى إنى سأحصل على عرفان العالم كله لجهودى من أجل السلام: إنى سأعطى هذا الفضل (GRACE) للرئيس كارتر.

أرجو أن تنقلوا كل ذلك إلى كارتر وإلى فانس حتى يكون فى اعتباره عندما يضع خططه لرحلته القادمة إلى المنطقة. وأن توضحوا لكارتر أنى لا أود إحراجه بأى طريقة وقد أرسلت له خطابا بما حدث فى النمسا وبعدها.

ويجب أن تعلموا أننا لا نريد أن نضطر لرفض أى مشروع تتقدم به أمريكا إذا حاول إرضاء إسرائيل عن طريق إيجاد حل وسط. وإذا كان موقفى هذا سيؤدى إلى إحراج كارتر فأرجو أن توضحوا له أنه ليس لدى خيار آخر. والمهم عندى ألا يخرج بشىء يسىء إلى صورته فى منطقتنا لأنه صديقى. كل ما نطالبكم به هو أن تكونوا واضحين مع الإسرائيليين وأن تقولوا لهم : هل أنتم مستعدون لإسقاط أطماعكم فى الأرض والسيادة وأن تجلسوا مع العرب للتفاوض من أجل السلام؟

المستر أثرتون : من المؤكد ياسيادة الرئيس أننا سنبلغ الرئيس كارتر بكل ما قلته لنا وهو يبادلكم أطيب المشاعر والعالم كله يعلم قدر المحبة والاحترام الذى تكنه أمريكا لكم. وأنا أتفق معكم فى أن المفاوضات قد تستمر لسنوات طويلة ولو لم نكن معكم طرفا فيها لاستمرت فعلا لسنوات، ولكن أمريكا لن تسمح بذلك ووجودنا كطرف يمنع ذلك. ولكن من الصعب علينا أن نعلق آمالا على المستقبل إذا لم يكن هناك سبيل لاستئناف المفاوضات، وبالنسبة لالتزاماتنا فى كامب ديفيد فإننا مصممون عليها، ولكنى لا أعرف كيف يمكن الاضطلاع بدورنا دون استمرار عملية التفاوض الحالية.

المبادرة الثانية ..

الرئيس السادات : هذا أمر مفهوم ومنطقى ونحن طبعا مستعدون للتفاوض والتحلى بالصبر والمرونة ولكن إسرائيل هى التى تضع العراقيل. والموقف واضح فهى تحتل أراضينا وتريد الاستيلاء على جزء منها. لا تقوموا بوضعى فى موقف يقوم فيه رئيس وزراء إسرائيل بالإعلان فى رسالة رسمية أن موقف إسرائيل هو عدم إعطاء شىء دون الحصول على ثمنه، وإنى كنت أتفهم ذلك لو أنهم يعطون شيئا من جيوبهم أو أراضيهم، ولكن هم لصوص سرقوا أراضينا ونحن لسنا فى غابة. لقد كان القول الفصل الذى حسم موقفنا هو ما أعلنوه فى اجتماعات ليدز ثم فى مناقشات الكنيست وقرارات الحكومة بألا يردوا شيئا بدون مقابل. ونحن فى هذا لا ننفعل بل نعالج الأمور بهدوء. إننى عندما قابلت وايزمان لم أطلب منه العريش وإلا كنت طلبت سيناء بالكامل، لقد كنت أبحث معه المستقبل واقترحت أن تكون الاجتماعات مستقبلا فى العريش وبئر سبع ويجب أن يعلم الإسرائيليون أنى لست ضعيفا، وأنهم لن يحصلوا منى على أى تنازلات بالنسبة للأرض. وقد قلت لوايزمان حاولوا أن تكسبوا ثقة الشعب المصرى عن طريق عدم المساس بأرضه، وستكسبون ود هذا الشعب ولن تقلقوا من ناحيتنا أبدا.

إن مبادرتى الثانية الآن بعد مبادرة نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩٧٧ هى أننى مستعد لكل شىء فيما عدا الأرض والسيادة أو محاولة خلق دولة عظمى فى المنطقة تفرض إرادتها علينا. وأن شعب مصر ربما يتفهم أن تكفل أمريكا الأمن لإسرائيل، بشرط أن تقولوا لإسرائيل ألا تستخدم السلاح الذى تقدمونه لها فى التوسع والاستيلاء على أرض الغير، وإلا فسيوجه شعبى اللوم لكم ولن يكون ذلك بسبب خطئى.

المستر أثرتون : سوف ترى يا سيادة الرئيس أن آراءنا ومواقفنا ستكون واضحة للجميع، ونحن نأسف لأننا نعتقد أننا كنا قريبين من النقطة التى كنت تريدها.

الرئيس السادات : الواقع أنكم لم تكونوا قريبين أبدا وستظلوا بعيدين عن تحقيق أى شىء طالما أن هدفهم هو الأرض، ويجب أن تظهر مفاهيم جديدة وعناصر جديدة.

المستر أثرتون : لم أقصد أننا كنا قريبين من تحقيق اتفاق بينكم وبين إسرائيل، وإنما قصدت أننا كنا قريبين من تحقيق ما اتفقنا عليه فى كامب ديفيد. وأننا حتى نستطيع تنفيذ ما اتفقنا عليه فى فبراير (شباط) ١٩٧٨ يجب أن نجد الإطار التفاوضى لتحقيق ذلك.

الرئيس السادات : هذا منطقى لأنه لا يمكن تحقيق أى شىء دون الجلوس إلى مائدة التفاوض، وكان السوفيت قد طلبوا منى أن أجلس مع جولدا مائير فى طشقند سنة ١٩٧٢ ولكنى رفضت لأنى كنت مهزوما. واليوم عندما تطلبون منى أن اجتمع معهم بعد أن أبلغنى بيجن بشكل نهائى أن سياسته هى عدم إعادة الأرض بدون مقابل فإننى لن أقبل ولا تحاولوا إحراجى.

السفير أيلتس : ألا يمكن القول إنكم افترضتم تطبيع العلاقات فى مقابل إعادة الأرض.

الرئيس السادات : لقد قلت أكثر من هذا.

السفير أيلتس : ما اقترحه الآن هو : ألا يمكن النظر فى استخدام ما عرضته سيادتك عليهم – وهو أكثر مما كانوا يحلمون به – فى إطار صفقة متكاملة، ألا يمكن أن يتحقق ذلك من خلال اجتماع آخر؟

الرئيس السادات : لقد استمعتم إلى ما قلته وأرجو أن تنقلوه إلى الرئيس كارتر، وأنا أترك الأمر كله له وللكونجرس وللرأى العام الأمريكى.

المستر أثرتون : نحن نعلم أن الرئيس كارتر يشعر بالتزام نحوكم وأنه يشعر بأنه لكى ينفذه فهو يحتاج إلى العملية التى شرحناها لكم، ونحن لدينا مشكلة ونحتاج إلى جولة أخرى من المفاوضات. ونرجو بهذه المناسبة ألا يتم التصريح بشىء إلى الصحافة حتى لا تغلق الباب.

الرئيس السادات : لقد أوضحت لكم موقفى كما أوضحته لشعبى فى خطابى يوم ٢٧ يوليه (تموز).

المستر أثرتون : بالنسبة للعناصر الجديدة التى تطلبونها، هل يكفى القول بأن الولايات المتحدة تعلن أنها تشعر بأن هناك تقدما !!

محمد ابراهيم كامل : بالطبع لا. ولكن إذا التزمتم فى دعوتكم إلى الاجتماع بالنص على أن أساس الاجتماع هو تنفيذ الانسحاب المنصوص عليه فى القرار ٢٤٢.

الرئيس السادات : لا .. لا .. لا، لقد وصلنا إلى قمة الموقف وهو سلام أم لا سلام. وأرجو أن تبلغوا الرئيس كارتر أن إسرائيل غير مستعدة للسلام وأن بيجن لن يحقق السلام. وهم يشعرون بأن لديهم حرية اتخاذ القرارات ونحن أيضا لنا نفس الحرية. وليشهد العالم كله من هو على حق ومن هو على باطل. وبعد افتضاح موقفهم سيحكم العالم على هذا الطفل الذى بالغتم فى تدليله. وسوف يأتى اليوم الذى يشعرون فيه بأنهم حطموا آخر أمل فى السلام. ونحن على ثقة بأننا سنكسب فى النهاية ونستعيد أراضينا رغم المتاعب والصعوبات.

السفير أيلتس : أتفهم ما قلته سيادتكم بما تطلبه من إسرائيل، ولكن كيف نضمن ذلك فى مشروع اقتراح أمريكى؟

الرئيس السادات : إذا سألتنى عن رأيى فى كيفية معالجة الموضوع ، أقول لا تخوضوا فى التفاصيل بل قدموا ورقة تشير إلى مبدأ عدم جواز اكتساب أراضى الغير عن طريق القوة. وما سبق أن أعلنتموه من أن المستوطنات غير شرعية. متى قلتم ذلك يمكن للأطراف أن تجلس معا لمناقشة كل المسائل بما فيها الأمن. ولا يمكن لأحد أن يعترض على الأمم المتحدة وقراراتها، كما لا يستطيع أحد أن يوافق على جواز اكتساب أراضى الغير بالقوة. والعالم كله يعلم أن إسرائيل لا يمكن أن تعيش بدون مساعدتكم. وقد أبلغنى جولدمان بأنه اتصل بايرليخ وزير مالية إسرائيل وشيمون بيريز. وأن الكل يتطلع إلى أمريكا لكى تتخلص من الرجل بيجن ويجب على أمريكا أن تمارس مسؤولياتها.

المستر أثرتون : سيادة الرئيس : ولكن كيف نقدم مشروعنا دون مفاوضات؟

محمد إبراهيم كامل : لقد كانت هناك مفاوضات فى ليدز. وقد أعلنوا أمام الوفد الأمريكى بوضوح عن إصرارهم على اقتسام الأرض. ويمكن للولايات المتحدة على أساس ما دار فى هذا المؤتمر أن تتقدم بمشروعها. دون حاجة إلى جرنا إلى مسرحية مفاوضات جديدة.

السفير أيلتس : سيادة الرئيس، عندما اقترحنا عقد اجتماع ليدز لم نكن نتوقع أن ينتج عنه شىء إيجابى، وكان السيناريو أن كل جانب سوف يشرح موقفه، ثم يحضر أثرتون وفانس إلى المنطقة ويعقد فى النهاية اجتماع آخر[1]، ثم نقدم نحن مقترحاتنا ولقد سرنا على هذا الأساس. ويجب أن نتجنب أن نظهر وكأننا نحاول فرض شىء على أى طرف والموضوع المهم الآن هو حاجتنا الضرورية لجولة أخرى من المفاوضات كى نقدم مقترحاتنا. ومحمد كامل يقول إنه لا حاجة لاجتماع جديد لنفعل ذلك، إلا أننا على ثقة بأنه بدون هذا الاجتماع سنعطى الانطباع بأننا نحاول أن نفرض رأيا محددا على أحد الأطراف، ولذلك فنحن نعتقد أنه من الحكمة عقد اجتماع جديد. وأرجو أن أسأل سيادتكم : هل إذا صدر بيان أمريكى عام يتضمن خطوطا عريضة فهل يعنى ذلك أنكم توافقون على حضور اجتماع آخر؟

الرئيس السادات : إنى أنصحكم أن تأخذوا وقتكم، ولا تتقدموا بأى شىء يسىء إلى صورتكم فى المنطقة. ونحن لا نريد أن تتقدم أمريكا باقتراح محدد لأنه لن يرضى أحدا. إنى أرى ألا تدخلوا فى التفصيلات وألا يتناول البيان غير المبادىء التى لا يختلف عليها اثنان، ولذا فكل ما أطلبه من الولايات المتحدة عندما تجد ذلك مناسبا أن تصدر بيانا تقول فيه :

إنه طبقا للنظام الأخلاقى الدولى، ولمبادىء وروح ميثاق الأمم المتحدة ولأحكام قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢. فإن حل النزاع بين الطرفين يستلزم إنهاء احتلال الأراضى، وقيامهما بالتفاوض على الأمن والسلام، وإن أمريكا ستشترك معهما فى المفاوضات.

---

(١) لم يشر لى الرئيس السادات بشىء عن اجتماع ليدز عند عودتى من نيويورك، بل قال لى إنه وافق على الاجتماع مجاملة للرئيس كارتر على أن يكون اجتماعا أخيرا (راجع الفصل الثالث عشر من هذا الكتاب).

ويمكن للرئيس كارتر أن يضع كل ما يراه بالنسبة لترتيبات الأمن التى يجب أن ترضى احتياجات الطرفين. كذلك يمكن أن يشير إلى كل ما يتعلق بالتطبيع والاعتراف والحدود المفتوحة وعلاقات التعاون بين الجيران. وأن يستكمل كل ذلك بضمانات وأن تبدى أمريكا استعدادها للمشاركة فى هذه الضمانات.

السفير أيلتس : هذا يختلف عما سبق أن اتفقنا عليه.

الرئيس السادات : طبعا فهناك عنصر مؤسف جديد، ظهر فى اجتماعات ليدز، ثم تأكد فى خطاب بيجن الذى ينم عن الجشع والغطرسة وقلة الأدب.

السفير أيلتس : واضح أن هذا الخطاب قد ضايقكم جدا.

الرئيس السادات : لا .. فى الواقع، ولكنه فضح خبايا نفسه، وكنت أرجو ألا يكون الأمر كذلك. ومعنى هذا أننا وصلنا إلى نقطة تحول، فإما أن تستمر عملية السلام الحالية بعد أن توضع لها الضوابط ويتحقق بذلك السلام القائم على العدل. وإما أن نترك لإسرائيل فرصة الكسب بالنقاط، لأنهم فى الحقيقة ليس لديهم أى قضية يمكن الدفاع عنها، وإذا لم نتصد لهم فسيكسبوا اللعبة كلها وتضيع فرصة السلام من بين أيدينا.

وانتهى الاجتماع، ورافقت المستر أثرتون والسفير أيلتس حتى باب الغرفة حيث كان يتجمع خارجها عدد من رجال الصحافة. ثم عدت واتجهت إلى الرئيس السادات وقبلته على جبينه وأنا أقول برافو يا ريس. وابتسم الرئيس السادات وقال: وماذا كنت تتوقع يا سى محمد؟

الفصل الحادى والثلاثون

القفز إلى القمة.. لماذا ؟

غادر المستر أثرتون مصر عائدا إلى واشنطن وهو يحمل معه قرار الرئيس السادات النهائى برفض الموافقة على الاشتراك فى اجتماع وزراء الخارجية والدفاع الذى اقترحته الولايات المتحدة، وتصميمه على أن أية مفاوضات مباشرة جديدة يجب أن تتم على أساس استبعاد الأرض والسيادة من دائرة التفاوض.

وقد أصاب هذا الموقف الحكومة الأمريكية بخيبة أمل إذ وضع نهاية لما كانت تصر عليه من استمرار التفاوض المباشر، وفرض عليها البحث عن طريق آخر.

وقد أسفر هذا البحث عن اتخاذ الحكومة الأمريكية قرارا بتخطى محاولتها فى عقد اجتماع للأطراف على المستوى الوزارى والقفز إلى المستوى الأعلى بعقد مؤتمر قمة ثلاثى يحضره الرئيس السادات ورئيس الوزراء بيجن والرئيس كارتر.

وتقرر أن يسافر وزير الخارجية فانس إلى الشرق الأوسط حاملا معه دعوة الرئيس كارتر لهذا المؤتمر إلى كل من مناحم بيجن وأنور السادات. كما تقرر أن تشمل مهمته زيارة السعودية والأردن لمحاولة تهدئة مخاوفهما وحثهما على إعلان تأييدهما لعقد مؤتمر القمة الثلاثى، والذى اعتبر بمثابة مغامرة بكل المقاييس، خاصة فيما يتعلق بمستقبل الرئيس كارتر السياسى ولهذا أحيط الغرض من زيارة فانس إلى المنطقة بالكتمان الشديد.

وقبل أن أشرح خلفية اتخاذ هذا القرار، أشير إلى واقعتين حدثتا فى ذلك الوقت :

الأولى: أن الأمير فهد ولى عهد السعودية زار الإسكندرية فى أعقاب مغادرة أثرتون لها واجتمع بالرئيس السادات وبارك موقفه فى رفض استئناف المفاوضات، كما أعرب عن استعداده لممارسة دور السعودية فى العمل على جمع الشمل العربى من جديد تمهيدا لعقد مؤتمر قمة عربى.

الثانية: أن بعض التقارير الصحفية نسبت إلى وزير الخارجية الأمريكى أنه صرح أمام لجنة العلاقات الخارجية فى مجلس الشيوخ بأن قرار الرئيس السادات برفض مواصلة المفاوضات المباشرة مع إسرائيل يعتبر عقبة فى سبيل السلام. وقد قمت باستدعاء السفير الأمريكى على الفور وطلبت منه تفسيرا لهذا التصريح.

وقد نفى السفير علمه بذلك، ووافانى فى اليوم التالى بنص التصريح الذى أعلنه فانس ويدور حول اعتقاده بوجوب أن تكون هناك مفاوضات بين الأطراف حتى يتسنى للجانب الأمريكى - متى اصطدمت هذه المفاوضات بعقبات - أن يتقدم باقتراحات لمحاولة التغلب عليها.

وأعود لشرح خلفية هذا القرار الأمريكى بالقفز فوق الاجتماعات على المستوى الوزارى إلى الدعوة لعقد مؤتمر قمة ثلاثى فى كامب ديفيد. وأحاول أن أتلمس ذلك مما دار فى الاجتماع الذى عقده المستر هارولد سوندرز مساعد وزير الخارجية الأمريكى للشرق الأوسط مع مندوبى الصحافة الأمريكية المعتمدين لدى وزارة الخارجية وذلك فى يوم ٣ أغسطس (آب) ١٩٧٨ بوزارة الخارجية بقصد إحاطتهم بأسباب زيارة وزير الخارجية فانس للمنطقة .

وقد سجلت وقائع هذا الاجتماع فى محضر بلغ تسعا وأربعين صفحة وأحيط بدرجة من السرية، وعلى أساس التزام الحاضرين بعدم الإفصاح أو الإشارة عن مصدر ما قد ينشرونه من معلومات أو تعليقات أو تحاليل حول زيارة فانس المرتقبة إلى الشرق الأوسط .

وقائع الاجتماع ..

بدأ سوندرز الاجتماع بشرح الخط الذى كانت الخارجية الأمريكية تعول على السير فيه ومواصلته، وهو استمرار التفاوض المباشر، الأمر الذى وضع السادات نهاية له فى

ـابلته الأخيرة مع أثرتون يوم الأحد ٢٠ يوليه (تموز). وأن هذا هو السبب الذى تقرر أن يسافر فانس من أجله إلى المنطقة لمحاولة استطلاع كيفية استئناف معالجة الموضوع.

ذكر سوندرز أنهم يعتبرون أن محادثات ليدز كانت مفيدة لأنها أفرزت على مائدة المفاوضات مادة كثيرة وعميقة. وهو ما تحتاج إليه الولايات المتحدة حتى تستطيع مساعدة الطرفين على تشكيل «الحلول الوسط». وبالنسبة لمشكلة الضفة الغربية وقطاع غزة - شديدة التعقيد - ظهرت بعض الأفكار التى تساعد على بلورة تفكير الطرفين بدرجة يبدو معها أن المسائل المستحيلة الحل هى فى النهاية يمكن حلها، وذلك فى مجال الأمن وفى مجال اجتذاب الأردن إلى دائرة المفاوضات وغير ذلك من المجالات.

وكان التخطيط الأمريكى هو أن تمتد هذه المحادثات بشكل أكثر تفصيلا فى اجتماع تال للأطراف يحضره وزراء الخارجية والدفاع فى الأسبوع القادم، بقصد زيادة وضوح المواقف وحتى يتبين للأطراف النطاق الذى عليهم اتخاذ القرارات الخطيرة الخاصة بالأرض فيه، ولكن ما حدث هو أن السادات قرر فجأة أنه لا يستطيع الاستمرار فى هذه المباحثات إلا بعد أن يحسم موضوع مستقبل الأرض.

وقال سوندرز إن قرار السادات يرجع فى رأيه إلى سببين : الأول، أنه فقد صبره وثقته فى أسلوب التفاوض المباشر لأنه يعتقد أن الإسرائيليين يستخدمونه فى المماطلة وكسب الوقت من ناحية، وأن الأمريكيين من الناحية الثانية يستخدمونه كوسيلة لتحاشى قيامهم باتخاذ القرار العام، والذى هو فى رأيه أن تقوم الولايات المتحدة بممارسة الضغط على إسرائيل لتعلن التزامها بالانسحاب من غالبية أراضى الضفة الغربية وقطاع غزة.

وذكر سوندرز أن نفاد صبر السادات هى صفة مميزة فيه فقد ذهب إلى القدس فى الخريف الماضى، عندما نفد صبره من الطريقة الأمريكية فى الإعداد للتوجه إلى مؤتمر جنيف والذى شعر بأنها لن تؤدى إلى شئ. وهو الآن فعل نفس الشئ بعد نفاد صبره من المفاوضة، ويسمى موقفه الجديد (عدم استئناف التفاوض إلا بعد استبعاد الأرض والسيادة) مبادرته الثانية ويضعها على نفس مستوى مبادرته الأولى بزيارة القدس.

والسبب الثانى هو أن أصدقاء السادات فى العالم العربى يقولون له إن موقفه فى العالم العربى يتآكل ويتدهور. فلا شك أن السعوديين مثلا قلقون حقيقة من أن يفقد

أحد زعماء العرب المعتدلين اعتباره فى العالم العربى، ويشعرون بأنه لابد من عمل شئ لإعادته إلى الصف العربى، وقد فتحوا الباب لعودته إليه بطريقة لا تريق ماء وجهه، وأن عليه بطبيعة الحال أن يفكر فى ذلك متى شعر بأن مبادرته بالذهاب إلى القدس لن تحقق شيئا.

والمشكلة أنه «إذا تخندق السادات فى موقفه بأنه لن تكون هناك مفاوضات حتى تحل مشكلة الأرض، فإن ذلك يشكل موقفا محترما له فى العالم العربى، ولكنه موقف ليس سهلا بالنسبة لما نريده من استمرار المفاوضات»، وأضاف سوندرز أنهم يشعرون بأن الوقت يجرى من بين أيديهم فيما يتعلق باستمرار التفاوض الذى هو مسألة حيوية بالنسبة للمصالح الأمريكية المهمة، وكذلك بالنسبة لمصالح أصدقائهم فى المنطقة.

وخلص سوندرز إلى أن الغرض من زيارة فانس لكل من القدس والإسكندرية هو إجراء محادثات مفصلة مع كل طرف لمعرفة الكيفية التى يريد بها استئناف المفاوضات، حتى يتمكن من تقييم الموقف ومعرفة أين نقف الآن، وبالتالى فإنه من الصعب التكهن بالخطوة التالية قبل عودة فانس إلى واشنطن وتقديم تقريره إلى الرئيس كارتر.

نظرية الحلول الوسط..

وانتقل بعد ذلك إلى الأسئلة التى وجهها الحاضرون، وإلى إجابات مساعد وزير الخارجية الأمريكى لشؤون الشرق الأوسط عنها.

سؤال حول ما إذا كانت زيارة فانس ستؤدى إلى أن تمارس الولايات المتحدة ضغطا على إسرائيل تحقيقا لما يريده السادات؟ نفى سوندرز بشدة أن يكون هذا هو التفكير الأمريكى، فلن ينصاع فانس لأى طرف وبخاصة لما يطلبه السادات، وإنما تقوم الخطة الأمريكية على استمرار المفاوضات بأى شكل مع مطالبة الطرفين بأن يفكرا على أساس «الحلول الوسط» بالنسبة للمسائل الرئيسية.

وأجاب عن سؤال عما إذا كانت الولايات المتحدة ستتقدم بخطة للسلام؟ بأنه كانت هناك خطط أمريكية للسلام مثل «مبادرة روجرز» ومثل «تقرير بروكنز». وقد يعتقد البعض أن مثل هذه الخطط يمكن فرضها على الأطراف، ولكن ذلك غير ممكن لأنها صنعت فى الولايات المتحدة وفى فراغ دون استشارة الأطراف، ولذا فلن تتقدم الولايات المتحدة بمثل هذه الخطط. وإنما يدور التفكير الأمريكى حول ترك الأطراف تتفاوض،

ويكون موقف الجانب الأمريكى – متى ظهرت فجوات بين الأطراف – أن يتقدم باقتراحات لسد هذه الفجوات.

وعلى سبيل المثال، ففى جولات المكوك التى قام بها كيسنجر فى أثناء مباحثات فض الاشتباك سنتى ١٩٧٤و ١٩٧٥ كان يستمع لكل طرف ثم يقول فى النهاية «حسنا، يخيل إلى أنكم تستطيعون الالتقاء مع الطرف الآخر إذا قبلتم هذه الأرضية المشتركة» أو يقول «هذه هى الطريقة التى يمكن بها حل هذه النقطة الصعبة». ومثال آخر، ففى مجموعة اتفاقيات فض الاشتباك توجد وثائق تحت عنوان «اقتراح أمريكى» والسبب فى ذلك يرجع إلى أن أحد الأطراف طلب من الولايات المتحدة أن تتقدم باقتراح أمريكى «لأننا لا نستطيع التقدم باقتراح يمس سيادتنا ويحدد حقنا فى وضع قواتنا على أراضينا، ولكن إذا جاء الاقتراح من أمريكا فسنقبله».

وعليه فإن الاقتراحات الأمريكية لن تأتى إلا نتيجة لما تسفر عنه المفاوضات، ولن تتقدم الولايات المتحدة بمشروع متكامل كما يريد السادات، ولن يكون تدخلنا لصالح مصر أو لصالح إسرائيل ولكن سيكون على أساس «الحل الوسط». وسئل عما إذا كانت إسرائيل على استعداد لتغيير موقفها من الانسحاب من الضفة الغربية وفقا للتفسير الأمريكى للقرار رقم ٢٤٢؟ فقال إنه لا يعتقد أن إسرائيل غيرت موقفها، كما أنها مازالت تصر على أن يظل موضوع السيادة على الضفة الغربية وغزة معلقا، وموقف إسرائيل هو أنها تود أن ترى ما سيحدث فى الضفة الغربية وقطاع غزة وأن تؤجل بحث المسألة الإقليمية إلى ما بعد، فهى لا تريد أن تلتزم بشىء مسبقا وتشعر بأن المفاوضات تكون أكثر واقعية إذا دارت فى إطار موقف حقيقى ينشأ على الأرض نتيجة تطورات حدثت فى خلال خمس سنوات. والموقف المصرى يريد أن يبت فى مستقبل الأرض الآن ثم التفاوض على التفاصيل.

وبالنسبة للحكومة الأمريكية فإن موقف إسرائيل – وليس ذلك بالضرورة لأنه موقف إسرائيل – هو الأكثر تمشيا مع طريقة المعالجة الأمريكية للأمور. فمن الصعب التمشى مع الموقف المصرى بحل موضوع الأرض أولا ثم مناقشة التفاصيل!! وتعتقد الولايات المتحدة أن هناك «حلولا وسطا» بين الموقفين وهذا هو المجال الذى يمكن للولايات المتحدة أن تعمل فيه.

وعن سؤال يفترض مقدرة الولايات المتحدة على التوفيق بين الطرفين فى نقاط الخلاف غير الجوهرية ولكن ما هو الحال لو كانت الفجوة بين الطرفين واسعة جدا بما

يهدد بفشل المباحثات نهائيا؟ هل تقوم الولايات المتحدة باقتراح - لمعالجة هذه الفجوة- يبدو بالنسبة لإسرائيل أنه تسوية مفروضة ويبدو للمصريين أنه ممارسة للولايات المتحدة لدور الشريك الكامل؟

أجاب سوندرز بأنه يجب التمييز بين نوعين من الخلافات، فهناك مسائل يمكن العثور على حلول وسط لها بين الأطراف بمساعدة الجانب الأمريكى أو بدونها. ولكن هناك موضوعا رئيسيا يتعلق بمسألة ما إذا كانت ومتى تلتزم إسرائيل بترك الضفة الغربية. وبصراحة فهو لا يستطيع القول كيف تتقدم الولايات المتحدة باقتراح لمعالجة ذلك، ولكنه يعود فيقول «ومع ذلك فأعتقد أنه حتى هذا الموضوع توجد طرق لمعالجته، ويكون اقتراح أمريكى فيها مفيدا بمعنى أن هناك عدة طرق لاتخاذ هذا القرار، فعلى الجانب الأقصى يمكن الإصرار على أن إسرائيل يجب أن توافق اليوم أنها فى وقت معين فى المستقبل ستنسحب من الضفة الغربية تماما».

ولا أعتقد أن أى شىء يمكن أن تقوله الولايات المتحدة أو تفعله يمكن أن ينتج هذا القرار. ولكن على الصعيد الآخر يمكن القول ببساطة «حسنا لقد جئنا للتفاوض على حل قضية الضفة الغربية فدعونا فقط نبدأ فى المفاوضات ودعونا لا نضع ضوابط أو خطوطا إرشادية للمفاوضين حول إلى ماذا ستنتهى إليه (المفاوضات)، حسنا فى نقطة وسط .. هنا نحاول أن نجد طريقا فى هذه الأرض المتوسطة»!!

وأجاب عن سؤال عما يعنيه بأن المهم هو أن تستمر الأمور فى المسير؟ أن ما يعنيه هو أقرب إلى صياغة غامضة VAGUE FORMULATION مؤداها أن تعود مسيرة المفاوضات من جديد لتعالج من جديد بطريقة رئيسية نفس المسائل التى كنا نعالجها حتى الآن. وأنه لا يستطيع تحديد الكيفية التى يتم بها ذلك، وهل تكون عن طريق محادثات مكوكية أو فى مؤتمر، وهل تكون محادثات مباشرة أو غير مباشرة إلا بعد عودة فانس من زيارته وتقديمه تقريره إلى الرئيس.

وعن سؤال آخر حول أن فانس يسعى إلى معرفة الحد الأدنى لمواقف الطرفين وكيف أنهم لم يتوصلوا إلى معرفة ذلك طوال هذا الوقت. قال إنه لا يمكن معرفة الحد الأدنى حتى نصل إلى النقطة التى يتحتم اتخاذ القرارات فيها.

هل تمنعون الفشل ؟

وثمة سؤال أخير وجه إلى سوندرز يحمل فى طياته الإجابة ويوضح حقيقة الموقف وأنقله هنا حرفيا «لقد بدأت (الحديث) بالقول بأننا بتنا قريبين جدا من أن ينفد الوقت (من بين أيدينا). ولقد حاولت أن أجمع فى ذهنى كل ما قلته وكيف يتفق مع بعضه البعض. ويخيل إلى أنه يمكن القول إنك تحاول أن تمنع هذا الشىء (الموقف) من الانهيار.

فليس هناك برنامج. وأنتم تخافون التقدم ببرنامج. الإسرائيليون فى حالة تجمد. والعرب يبتعدون عن المفاوضة. والبرنامج الوحيد الذى لديكم حقيقة هو مجرد الاستمرار فى الكلام حتى تمنعوا اعترافا معلنا بأن الموضوع قد فشل، مبادرة السادات وكل ما تعلق بها».

وقد يكون من المناسب أن أضيف إلى ما سبق إجابات سوندرز على بعض الأسئلة الأخرى عسى أن تلقى الضوء أكثر على ملامح التفكير الأمريكى. سئل لماذا لم تمارس الحكومة الأمريكية الضغط لتحقيق حل منفرد بين مصر وإسرائيل بدلا من إضاعة الجهد فى محاولة تحقيق اتفاق عريض يشمل الفلسطينيين المعتدلين والأردنيين؟ فأجاب بأن المشكلة هى أن السادات قد أوضح بحزم يوم الأحد الماضى (أثناء مقابلته لأثرتون) أنه لن يتفاوض بتاتا حتى يحل موضوع الأرض، بحيث لا تشملها عملية التفاوض، ولذا فيستحيل علينا إعادة عملية المفاوضات إلا إذا تصدينا لموضوع الضفة الغربية وغزة.

والإسرائيليون يريدون الحل المنفرد كما هو معلوم، ولم نحاول فرض أنفسنا فى هذا المجال. ولكن السادات كان يصر دائما على أنه لا يستطيع المضى وحده فى حل الخلاف المصرى الإسرائيلى ما لم يتحقق شىء على الجبهات الأخرى. وقد قال إنه مستعد أن يكون فى غاية المرونة لما يجرى على الجبهات الأخرى، ولكنه لا يستطيع أن يظهر وكأنه يتخلى عن القضية الفلسطينية وباقى العرب.

ولذلك فقد كان يطالب باستمرار وبإصرار على حاجته إلى إعلان مبادىء.

حتى لا يجتمع العرب ..

وعن سؤال حول ما يحدث لو فشلت أمريكا فى استئناف المفاوضات بين مصر وإسرائيل. قال سوندرز : إن السياسة المعقولة الوحيدة بالنسبة للولايات المتحدة فى

الشرق الأوسط هى العمل على مواصلة السعى نحو السلام حتى نستطيع الاحتفاظ بعلاقاتنا مع كل الجبهات فى الشرق الأوسط. هذا هو محور استراتيجيتنا بالنسبة للشرق الأوسط وإذا فقدنا هذا المحور تصبح الولايات المتحدة ليس لها سياسة معقولة فى الشرق الأوسط.

إن ما نحاول أن نفعله هو بناء وتدعيم تحالف بين الدول العربية المعتدلة : السعودية ومصر والأردن والمغرب وتونس والكويت ومحاولة جذب سوريا إلى ذلك التحالف. وهذه الاستراتيجية لها أسباب عديدة : أسباب تتعلق بالعمل من أجل السلام، وأسباب تتعلق بالبترول، وأسباب تتعلق باحتواء الاتحاد السوفيتى .. وهذا هو المدخل لما نريده فى هذه البقعة من العالم.

وإذا فشلنا فى إعادة المفاوضات من جديد فسينتج عن ذلك تحرك نحو مؤتمرات القمة العربية ونحو ذلك، مما يؤدى إلى تشدد الموقف العربى ويخلق وضعا يكون من الصعب معه العودة إلى المفاوضات من جديد.

إذن تكون النتيجة الأولى هى مؤتمر قمة عربى يجمع العرب ويضع نهاية لمبادرة السادات ولكل شىء فيما عدا العودة إلى مؤتمر جنيف، أو شيئا من هذا القبيل أى نعود إلى حيث كنا من سنة مضت.

وإذا استمرت حالة اللا حرب واللا سلم فليس معنى ذلك أن السادات سوف يسقط على الفور. ولكن ستكون هناك مخاطرة بتحركات فى هذا الاتجاه بالنسبة لمصر وسوريا، وإذا حدث ذلك فسينتج عنه وضع مختلف للغاية فى الشرق الأوسط بالنسبة للولايات المتحدة وبالنسبة لإسرائيل.

ولذلك يجب علينا الاستمرار فى دفع عملية السلام التى من شأنها أن يظل العرب منشغلين .. وهذا ينمى علاقاتنا مع الدول العربية الرئيسية التى نحتاج لها ويسمح لنا فى نفس الوقت بالاحتفاظ بعلاقاتنا الوثيقة بإسرائيل. وفى النهاية نكون على علاقة وثيقة بالشرق الأوسط. «ومن الناحية الفنية فإن النقطة التى سيحدث فيها ذلك (توقف المفاوضات نهائيا) هى عندما يتفقون (الدول العربية) على مؤتمر قمة عربى. ولدى الأمل فى أن يستطيع وزير الخارجية فانس أن يقدم له (السادات) ويقترح عليه ما يكفى لنعمل بمقتضاه. بما يحول دون اتخاذ هذا القرار. (الاشتراك فى مؤتمر قمة عربى)».

شكوك فى الموقف الأمريكى ..

وعندما انتهيت من قراءة محضر اجتماع سوندرز - الذى وقعت صورة منه بين يدى بعد أسبوعين من تاريخ الاجتماع - ازدادت شكوكى فى الموقف الأمريكى وتزعزعت ثقتى فى النوايا الأمريكية فقد تواترت إجابات سوندرز عن الأسئلة الخاصة باحتمال تقدم الولايات المتحدة بمشروع للسلام، على نحو لا يدع مجالا للشك فى أن الموقف الأمريكى يعتمد أولا وأخيرا على استمرار المفاوضات حتى ينتج عنها حل وسط نتيجة تنازلات من الطرفين، وليس ذلك فيما يتعلق بضمانات الأمن أو تطبيع العلاقات. حيث مجال التوصل إلى الحلول الوسط مفتوح وممكن وإنما فى صلب الموضوع، أى فيما يتعلق بالأرض والسيادة التى أعلن الرئيس السادات أنهما خارج دائرة التفاوض.

إذن فقد نحت الولايات المتحدة جانبا القرار رقم ٢٤٢ الذى يعتبر تنفيذه أساس التسوية السلمية المتفق عليه دوليا ومصريا وإسرائيليا.

وتناست المواقف الأمريكية المعلنة من وجوب الانسحاب الإسرائيلى من الضفة الغربية وغزة، مع إمكانية إجراء تعديلات طفيفة فى خطوط الهدنة والبيان الصادر من البيت الأبيض عقب زيارة السادات فى ٨ فبراير (شباط) ١٩٧٨ .

والأكبر من ذلك أنها غضت الطرف عما تعهد به الرئيس كارتر للرئيس السادات فى السيناريو الذى اتفق عليه أثناء تلك الزيارة، وبمقتضاه أن تتقدم مصر بمشروع بشأن الضفة الغربية وغزة، وأنه إذا رفضت إسرائيل ذلك المشروع تتقدم الولايات المتحدة بمشروع أمريكى بعد أن تطلع مصر عليه لمناقشته قبل تقديمه.

ذهب كل ذلك أدراج الرياح وتحول الموقف الأمريكى إلى موقف، مبناه دفع الأطراف - أو بالأحرى دفع مصر - إلى مواصلة التفاوض مع إسرائيل حتى يتم التوصل إلى حل وسط بشأن الأراضى، رغم وضوح نية إسرائيل المبيتة فى ضم الأراضى العربية كما أعلنها ديان صراحة فى مؤتمر ليدز.

وبالتالى أصبحت عملية التفاوض المستمر بالنسبة للولايات المتحدة غاية فى حد ذاتها ليس فقط تعلقا بأمل أن توافق مصر فى النهاية على تنازلات إقليمية فى الضفة الغربية التى لا تملكها، وإنما لأن البديل ، وهو وقف التفاوض، سيؤدى إلى عودة مصر إلى العرب وعقد مؤتمر قمة عربى والعودة إلى مؤتمر جينف. حيث يتم التفاوض

بحضور الأطراف أصحاب الشأن وتحت الرئاسة المشتركة للاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة، وهذا ما لا تريده الولايات المتحدة ولا إسرائيل. فالقصد إذن عزل مصر عن الدول العربية والانفراد بها لإجراء تسوية منفردة وتكريس الفرقة فى العالم العربى.

وحتى يمكن تخطى المأزق الناشىء عن إصرار السادات على عدم العودة إلى المفاوضات المباشرة من جديد إلا إذا استبعدت الأرض والسيادة من دائرة التفاوض، ولتفادى عودة مصر إلى العالم العربى، وفتح الباب من جديد أمام مؤتمر جنيف، الأمر الذى يعنى فى النهاية فشل الدور الأمريكى فى إحراز نتائج فى المفاوضات الثلاثية، لجأت الولايات المتحدة إلى فكرة الدعوة إلى مؤتمر القمة الثلاثى فى كامب ديفيد وكان الطعم الذى استخدمته لاستدراج السادات هو إعلانها أنها قررت القيام بدور الشريك الكامل فى المفاوضات.

سوف تدخل التاريخ يا محمد

كان شهر رمضان المعظم قد بدأ عندما سافر سيروس فانس إلى المنطقة حيث وصل إلى القدس فى ٥ أغسطس (آب) ١٩٧٨ وأجرى مباحثات مع رئيس الوزراء الإسرائيلى ومعاونيه استمرت يومين فى جو تحوطه السرية التامة، وقد أذاع راديو صوت أمريكا أن هناك تكهنات فى الشرق الأوسط، بأن الولايات المتحدة قد تنظم عقد مؤتمر قمة ثلاثى يضم الرئيس كارتر والرئيس السادات ومناحم بيجن رئيس وزراء إسرائيل.

وأضاف الراديو أن بيجن صرح بأنه مستعد لدراسة هذا الاقتراح إذا عرض. ومن ناحية أخرى صرح بيجن بأنه أثناء مباحثاته مع فانس لم تطلب الولايات المتحدة من إسرائيل إجراء أى تعديل فى موقفها من قضية الشرق الأوسط، وأنه يتعين على الرئيس المصرى أن يوافق على عقد اجتماع قمة ثلاثى دون شروط مسبقة، وفيما عدا ذلك التزم كل من الجانب الأمريكى والجانب الإسرائيلى الصمت التام فيما يتعلق بالهدف من زيارة فانس، وأعلن الأخير أنه سيكون مستعدا للتحدث بالتفصيل بعد استكمال مباحثاته مع الرئيس السادات.

وقبل أن انتقل إلى زيارة فانس فى الإسكندرية .. أشير إلى أن إسرائيل قد انتهزت زيارة فانس للمنطقة للقيام بحملة إعلامية واسعة بالتنسيق مع أعوانها فى الولايات

المتحدة لمحاولة استعادة الأرضية التى فقدتها منذ المبادرة والتشويش على موقف مصر، ومحاولة إلقاء اللوم عليها فى تعثر المفاوضات وبث بذور الشقاق بين مصر والولايات المتحدة وأهم ملامح هذه الحملة ما يلى :-

١- محاولة تصوير الموقف المصرى كما عبر عنه الرئيس السادات فى لقائه مع المستر اثرتون فى ٣٠ يوليه (تموز) بشأن وجوب إخراج الأرض والسيادة من دائرة التفاوض، بأنه تحول من مصر إلى موقف جديد مبنى على التشدد والادعاء بأن مصر لم تفسح للمفاوضات فرصتها الكاملة. وفى هذا الصدد صرح بيجن بعد مقابلته لفانس بأن الموقف المصرى من التشدد وعدم المرونة بحيث أنه يجعل استمرار الحوار فى الشرق الأوسط مستحيلا.

٢- محاولة إسناد هذا الموقف المصرى إلى ضغط سعودى مزعوم، والإيحاء بأن مصر أمامها طريقان متعارضان، فإما الاستمرار فى السعى نحو السلام وإما التحول إلى طريق التضامن العربى.

٣- إن إسرائيل لم تتوان عن بذل كل جهد لتحقيق السلام، وقد قدمت بالفعل كل أفكارها بما فى ذلك فكرة تسوية جزئية مع مصر بشأن سيناء، وأن الدور على مصر الآن للتقدم بأفكارها، وأن اتفاقا مؤقتا بين مصر وإسرائيل سيكون أمرا طيبا من شأنه أن يفتح المجال فيما بعد أمام اتفاق شامل. وفى هذا الصدد صرح مناحم بيجن بأنه مازال ملتزما بخطته بمنح حكم ذاتى محدود تحت الإشراف العسكرى الإسرائيلى « لعرب » الضفة الغربية وقطاع غزة، وأنه فضلا عن ذلك مستعد لمناقشة مسائل السيادة على « جوديا وسماريا » وغزة بعد خمس سنوات من إبرام اتفاق السلام، وتنفيذ خطته للحكم الذاتى « للفسطينيين العرب ».

٤- استغلال الاختلاف المصرى الأمريكى حول أسلوب الاستمرار فى جهود السلام للتغطية على حقيقة أن المواقف الأمريكية المعلنة بالنسبة للموضوع أقرب إلى الموقف المصرى منها إلى الموقف الإسرائيلى، ومحاولة تعميق هذا « الخلاف التكتيكى » بين القاهرة وواشنطن حتى ينعكس ويطغى على « التوافق الاستراتيجى » بين مصر والولايات المتحدة بالنسبة لعناصر التسوية (الانسحاب بانطباق القرار ٢٤٢ على كل الجبهات، القضية الفلسطينية - صيغة أسوان، عدم مشروعية المستوطنات).

٥- التركيز على أن الرئيس السادات يستخدم الولايات المتحدة كوسيلة للضغط على إسرائيل، وأنه يعمد منذ عدة أشهر إلى خلق جو من الأزمة والتوتر بهدف إرغام الأمريكيين فى النهاية على التقدم بمشروع أمريكى للسلام يكون قريبا قدر الإمكان من الموقف المصرى.

٦- وفى غمار كل ذلك لم يغفل مناحم بيجن أن يزج بلهجة التهديد والوعيد، حيث لوح فى تصريح له باحتمالات التجاء إسرائيل إلى الحرب الوقائية بما يحمله ذلك من محاولة لإرهاب مصر وأمريكا وتصعيد التوتر السائد فى المنطقة.

أهمية عنصر الزمن ..

وفى ٧ أغسطس (آب) وصل وزير الخارجية سيروس فانس إلى الإسكندرية قادما من القدس، وكانت بصحبته مجموعة من معاونيه من بينهم اثرتون وسوندرز وكوانت، وقد نزلوا فى فندق فلسطين [(١)] الذى أقيم بحدائق قصر الملك السابق فاروق بالمنتزه. وتحددت الساعة الثامنة والنصف مساء لاستقبال الرئيس السادات للمستر فانس باستراحة المعمورة، وفى الساعة الرابعة بعد الظهر عقد اجتماع بين الجانب الأمريكى برئاسة فانس والجانب المصرى برئاستى، ولم يتكلم فانس فيه كثيرا وقد انتهزت الفرصة لشرح الموقف المصرى بعد اجتماعات قلعة ليدز وتفنيد الادعاءات الإسرائيلية وإيضاح ما نطلبه من الولايات المتحدة ..

وقد بدأت بالتأكيد على تمسك مصر بجهود السلام واستمرارية هذا الموقف منذ خطاب الرئيس السادات فى الكنيست فى نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩٧٧ وبما أبديناه من استعدادنا للالتزام به فى مجال الأمن والسلام وعلاقات حسن الجوار، بما يتجاوز كثيرا التزاماتنا بمقتضى القرار ٢٤٢ كما أبديت استعدادنا للسير فى طريق التفاوض المباشر مع إسرائيل شريطة أن يكون ذلك على أسس واضحة تعطى السلام فرصة حقيقية.

---

(١) رفض الوفد الإسرائيلى فى مباحثات اتفاقية السلام المصرية الإسرائيلية فيما بعد دخول فندق فلسطين الذى كان معدا للمباحثات لمجرد أنه يحمل اسم فلسطين، وبالمقابل أصر مناحم بيجن - فيما بعد أيضا - على ضرورة عقد المباحثات الخاصة بالحكم الذاتى الفلسطينى فى القدس بوصفها عاصمة إسرائيل الأبدية.

وقلت : إننا لا نضع شروطا مسبقة للمفاوضات كما تدعى إسرائيل، بل إن ما نطالب به هو تنفيذ قرارات الأمم المتحدة بينما إسرائيل هى التى تضع شروطا مسبقة بإصرارها على الاحتفاظ بالأرض مهما تم الاتفاق عليه من ضمانات السلام، وهى بذلك تخالف قرارات الأمم المتحدة كما تخالف المواقف التى عبرت عنها الولايات المتحدة نفسها علنا مرارا من عناصر التسوية وهى :-

(أ) الانسحاب من الأراضى المحتلة ما عدا تعديلات طفيفة فى الضفة الغربية.

(ب) عدم شرعية المستعمرات الإسرائيلية فى الأرض المحتلة.

(جـ) صيغة أسوان بالنسبة لحل المشكلة الفلسطينية.

(د) عدم شرعية استغلال إسرائيل للبترول والثروات المعدنية فى سيناء.

كذلك فإن الولايات المتحدة قد أعلنت أكثر من مرة أنه إذا تعثرت المفاوضات فإنها ستكون فى حل من تقديم أفكارها.

وأبرزت أن التضامن العربى ليس بديلا فى رأينا عن مبادرة السلام وأن موقف مصر هو العمل على التضامن العربى والترحيب به مع احتفاظها بحريتها فى أسلوب تحقيق التسوية السلمية الشاملة التى اتفق العرب جميعا عليها فى مؤتمر القمة فى الرياض سنة ١٩٧٤. وقلت : إنه يتعذر علينا الدخول فى مفاوضات جديدة بعد أن أعلنت إسرائيل الشروط المسبقة التى تحاول فرضها على أية مفاوضات، وهى الاحتفاظ بأراض عربية واستمرار الاحتلال الإسرائيلى، وأن المواقف التى عبر عنها ديان محاولا الإيحاء بأنها تتضمن مرونة فى الموقف الإسرائيلى لا تمثل بالنسبة لنا أى تقدم، فإبداء الاستعداد لمناقشة السيادة على الضفة الغربية بعد خمس سنوات ليس فيه جديد بالنسبة لمشروع بيجن الذى تضمن أن تبقى السيادة « معلقة » خلال فترة الانتقال، مع أن إسرائيل ليس لها أدنى سند فى المطالبة بأية سيادة على الضفة وغزة.

وأما ما أعلنه من استعداد لمناقشة « الحل الوسط الإقليمى » إذا عرضت مصر ذلك فمعناه ببساطة أن تسلم مصر مقدما لإسرائيل بحق مزعوم فى الاحتفاظ بأراض عربية.

إن الولايات المتحدة تستطيع أن توفر الأساس الملائم لاستئناف المفاوضات المباشرة، وإذا كانت الولايات المتحدة تقول إنها لا تستطيع أن تقدم مشروعا مفصلا إلا

فى إطار مفاوضات جارية، فلقد أوضح الرئيس السادات لاثرتون أنه لا يطالب أمريكا بتقديم مشروع مفصل بل يطالبها بمشروع يتضمن مبدأين :

الأول : عدم جواز الاستيلاء على الأراضى بالقوة، وأن الانسحاب يجب أن يشمل جميع الأراضى ويمكن للولايات المتحدة أن تذكر موافقتها على إجراء تعديلات طفيفة فى الضفة الغربية.

والثانى : عدم شرعية المستوطنات الإسرائيلية فى الأراضى المحتلة ..

وهذان المبدأن يتفقان مع ما أعلنته أمريكا مرارا ولا يثيران أمام الإدارة الأمريكية الصعوبات التى قد يثيرها تقديم مشروع مفصل. ويمكن على أساسهما بدء مفاوضات مصرية إسرائيلية، بل إن ذلك يساعد على تحقيق الهدف الذى تسعى إليه الولايات المتحدة ومصر فى توسيع نطاق المفاوضات لتشمل دولا عربية أخرى مثل الأردن.

وانتهيت إلى التركيز على أهمية عنصر الزمن والمخاطر التى تحيط بالمنطقة من جراء تعثر جهود السلام نتيجة للمواقف الإسرائيلية المتعنته، وضرورة أن تضطلع الولايات المتحدة بدورها لدفع عملية السلام وتفويت الفرصة على بيجن لمحاولة الإساءة إلى علاقات الصداقة بين العالم العربى وأمريكا، فى المساهمة فى الإساءة إلى صورة الولايات المتحدة لدى الشعوب العربية.

ولم يفصح المستر فانس عن أى شىء من مضمون رسالة الرئيس كارتر إلى السادات، أو بشأن محادثاته الأخيرة فى إسرائيل.

الرحلة إلى المجهول ..

وفى الساعة الثامنة والنصف مساء وصل سيروس فانس والوفد الأمريكى إلى استراحة المعمورة حيث كان الرئيس السادات فى انتظاره على مائدة أعدت فى الحديقة للاجتماع، وكان موجودا من الجانب المصرى نائب الرئيس السيد حسنى مبارك ورئيس الوزراء ممدوح سالم ووزير الدفاع الجمسى وأنا والدكتور بطرس غالى، وبعد تبادل التحية جلس الجانب الأمريكى مع الجانب المصرى حيث قدمت المرطبات وقام مراسلو الصحافة والتليفزيون بالتصوير وبعد انتهاء ذلك بدقائق اصطحب الرئيس السادات المستر فانس إلى مسافة بعيدة عن مرمى السمع وجلسا منفردين. واستمر

اجتماعهما إلى ما بعد منتصف الليل، ثم عادا إلى حيث كان يجلس باقى أفراد الجانبين المصرى والأمريكى وصافح فانس الرئيس السادات وباقى المجتمعين واستأذن فى الانصراف وصحبته فى سيارته .. وقد أخبرنى فانس ونحن فى الطريق إلى فندق فلسطين - وكان وجهه يفيض بالسعادة وصوته يمتلىء بالحماسة - بأن الرئيس السادات قد قبل دعوة الرئيس كارتر لمؤتمر القمة الثلاثى الذى اقترح عقده فى كامب ديفيد فى ٥ سبتمبر (أيلول) المقبل بعد انتهاء شهر رمضان وعيد الفطر، وأن مناحم بيجن كان قد وافق بدوره على هذا الاجتماع عندما زاره فى القدس وأضاف فانس أن كل شىء سيصبح على ما يرام، وأنه لابد من تحقيق النجاح فى هذا المؤتمر، وإلا فسيعنى الأمر نهاية مستقبل الرئيس كارتر السياسى، ولذلك فسيلقى بكل ثقله فى الميزان. وأنهم سيبذلون غاية جهدهم فى تحقيق السلام الذى ننشده وسيقومون بدور إيجابى نشيط فى المباحثات.

ومشيت مع فانس حتى باب المصعد، وكنت أهم بدخوله معه للتوجه إلى غرفتى بالفندق عندما طرأت لى فكرة عابرة فودعته وعدت إلى خارج الفندق، وركبت سيارتى وطلبت من السائق التوجه إلى استراحة المعمورة من جديد.

والحق أن فكرة عقد مؤتمر قمة ثلاثى بين كارتر والسادات وبيجن قد باغتتنى تماما، ولم أكن أتوقعها على الإطلاق، وإنما كان تفكيرى منصرفا إلى أن مهمة فانس هى محاولة إقناع الرئيس السادات من جديد بالموافقة على اجتماع جديد على مستوى وزراء الخارجية والدفاع. وأنهم قد يعرضون عليه ضمانات أمريكية تكفل إحراز تقدم فى المباحثات على النحو الذى ننشده، مما قد يغريه على الموافقة على عقد مثل هذا الاجتماع .. والواقع أنى كنت محقا بعض الشىء فى استبعاد دعوة الرئيس كارتر لمؤتمر قمة ثلاثى فى الوقت الذى وصل فيه الخلاف المصرى الإسرائيلى إلى زاوية تبلغ مائة وثمانين درجة .. الأمر الذى يجعل تدخل الرئيس الأمريكى ضربا من المقامرة والمغامرة بالمخاطر بكل المقاييس ..

كانت الساعة قد قاربت الواحدة بعد منتصف الليل عندما وصلت إلى استراحة المعمورة، وكنت أخشى أن يكون الرئيس السادات قد أوى إلى فراشه. والحقيقة أنه لم يكن هناك ما يبرر الاستعجال فى مقابلتى له، وكنت أستطيع إرجاء ذلك إلى صباح

اليوم التالى، إلا أنى كنت قلقا وأرغب فى معرفة رد فعله بالنسبة لفكرة مؤتمر القمة، وفى هذه الاثناء قابلت السيد حسن كامل رئيس الديوان الجمهورى وهو يوشك على الانصراف وسألته عن الرئيس فقال إنه يتناول طعام السحور .. فى الحديقة .. وتوجهت معه إلى حيث كان يجلس الرئيس على مائدة حفلت بكل أنواع الطعام التى يتميز بها شهر رمضان، وعندما رآنى دعانى إلى الجلوس معه، إلا أنه لم يقل شيئا وظل منهمكا فى تناول الطعام بشهية طيبة، وبعد فترة من الصمت قلت : لقد أخبرنى فانس عن موضوع مؤتمر القمة فى كامب ديفيد وأنك وافقت على حضوره فقال: « نعم .. نعم .. إن هذا هو ما كنت أسعى منذ البداية من أجله وهو أن تقوم أمريكا بدور الشريك الكامل وقد نقل لى فانس تأكيدات الرئيس كارتر بأنه سيقوم بذلك، ولا تنس أن كارتر سيضحى بمستقبله إذا فشل هذا المؤتمر. ولذلك فإنى واثق ومطمئن من أننا سننجح، لأن نجاح المؤتمر أو فشله فى أيدينا، وقد آن الآوان لتضغط أمريكا على إسرائيل وتضع مناحم بيجن فى حجمه الحقيقى ومكانه، ألم أقل لك بأنى متفائل وأن مبادرتى لا يمكن أن تفشل ؟» وقلت: « إن شاء الله ستنجح » ولم أجد ما أقوله غير ذلك وساد الصمت بعض الوقت، فأخذت عنقودا من العنب وشرعت التقط حباته وبعد فترة قال السادات « أتذكر أيام أن كنا فى السجن ؟ سوف تدخل معى التاريخ يا محمد » وأجبت تلقائيا « إن شاء الله » وأحسست بشىء من الرهبة تعترينى وبدت لى كامب ديفيد كأنها رحلة إلى عالم غامض مجهول، ولم أستطع أن استوعب فكرة مؤتمر القمة الثلاثى سواء بما لها أو بما عليها.

فجأة وجدتنى أقول : إننى احتاج إلى اجازة ! .. فنظر إلى الرئيس باندهاش قائلا : ماذا تقصد ؟ إن أمامنا عملا كثيرا. فرددت : إننى أعرف ولذلك احتاج إلى ثلاثة أو أربعة أيام للراحة .. فقال : لم لا تذهب إلى شاطئ سيدى عبد الرحمن ؟ فقلت : هذه فكرة طيبة فعلا ..

انتهى الرئيس من طعامه وأرسل يستدعى السيد حسن كامل، وعندما حضر قال له: يا حسن سيكون الوفد المصرى فى محادثات كامب ديفيد مكونا من حسن التهامى ومنك (أى حسن كامل) ومحمد كامل، وبطرس غالى وأسامه الباز فأبلغهم بذلك حتى يستعدوا .. وصافحت الرئيس ثم عدت إلى الفندق.

الانفعالات الشخصية ..

فى صباح اليوم التالى ٨ أغسطس (آب) اجتمعت مع المستر فانس، وكان مدار الحديث الأوضاع المتردية فى لبنان .. كان فانس معنيا للغاية بهذا الأمر، وسألنى عن رأيى فى الوجود السورى فى لبنان فقلت : إننى سأكلمه بصراحة وإن رأيى فى هذا الشأن يخالف تماما رأى الرئيس السادات الذى ينادى بالانسحاب السورى من لبنان ورفع الأيدى الخارجية عنه .. وأشعر بأنه مدفوع فى ذلك بانفعالات شخصية تجاه الرئيس الأسد .. بينما أنا أرى أنه فى الظروف الراهنة فإن الوجود السورى فى لبنان هو أهم العناصر الفعالة فى كفالة شىء من الاستقرار فيها، والحيلولة دون تردى الأوضاع إلى فوضى شاملة لا تستطيع سوريا تحمل انعكاساتها عليها .. ولو تم انسحاب القوات السورية من لبنان فلا مناص من أن ينفجر الموقف تماما وتتفتت لبنان إلى شظايا من الدويلات والفرق المتناحرة، وهذا هو ما تسعى إليه إسرائيل خدمة لمخططاتها التوسعية فى لبنان، وإن إسرائيل ولو ادعت ظاهريا أنها قد سحبت قواتها من جنوب لبنان، إلا أنها فى الواقع لم تفعل فقد زرعت ركيزة لها هناك ممثلة فى عصابات الرائد اللبنانى المنشق سعد حداد الذى تمده بالأسلحة والعتاد بدعوى حماية المسيحيين فى لبنان، وهى من الحجج القديمة التى كانت تتعلل بها الدول الاستعمارية فى القرن التاسع عشر مبررا للاستعمار، وتطلق يده الآثمة فى الجنوب حتى يؤمن لها طريقا مفتوحا إلى جنوب لبنان فى أى وقت تختاره، وينشر الفوضى والاضطراب فى المنطقة باعتداءاته على قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة ومنعها من ممارسة واجباتها، وكذلك منعه كتيبة من الجيش اللبنانى من دخول الجنوب، وهو بهذا يعمل على تقويض الحكومة الشرعية فى لبنان وانهيارها حتى يهيئ لإسرائيل الصيد فى الماء العكر، وتحقيق أطماعها التوسعية فى لبنان، وقد وجدت فانس متفهما لكل ما قلت ومتجاوبا معه.

الشريك الكامل ..

وفى الظهر صدر بيان من البيت الأبيض يعرب عن اغتباط الرئيس كارتر لقبول كل من الرئيس السادات ورئيس الوزراء بيجن دعوته للذهاب إلى كامب ديفيد فى الخامس من سبتمبر للاجتماع معه للبحث عن « إطار » للسلام فى الشرق الأوسط .. وأضاف أن

كلا من الزعماء الثلاثة سيصطحب معه عددا محدودا من مستشاريه الرئيسيين وأنه لم تحدد مدة معينة للاجتماع.

وفى المساء وبعد الإفطار عقد الرئيس السادات ووزير الخارجية فانس مؤتمرا صحفيا فى استراحة المعمورة، وكان محور معظم الأسئلة هو موضوع قيام الولايات المتحدة بدور الشريك الكامل فى المباحثات التى ستجرى فى كامب ديفيد. وقد عبر الرئيس السادات عن سروره بقبول الولايات المتحدة فى النهاية القيام بهذا الدور الذى تفرضه مسؤولياتها الدولية وكان مما قاله فى إجاباته عن السبب فى قبوله التفاوض المباشر من جديد مع بيجن. أنه يذهب إلى كامب ديفيد لا ليلتقى بمناحم بيجن وإنما تلبية لدعوة الرئيس كارتر له بالذهاب، أما فانس فقد أعلن أن الولايات المتحدة على استعداد لأن تلعب دور الشريك الكامل باعتبار أن سلام الشرق الأوسط ليس مهما لها وحدها، وإنما للعالم أجمع. كما تضمنت إجاباته حول دور الشريك الكامل أن مساعيهم ستدور فى إطار قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢.

وفى صباح اليوم التالى ٩ أغسطس (آب) طار فانس إلى واشنطن وطار وليام كوانت إلى إسرائيل ليحيط حكومتها علما بما دار فى مباحثات فانس مع السادات، وطار اثرتون متوجها إلى السعودية والأردن، ليحيطهما بالتطورات وليسعى إلى الحصول على تأييدها لعقد مؤتمر القمة الثلاثى فى كامب ديفيد. أما أنا فأخذت السيارة مع عائلتى وتوجهت إلى شاطئ سيدى عبد الرحمن.

مضاربة أمريكية ..

يقع شاطئ سيدى عبد الرحمن على خليج من خلجان البحر الأبيض المتوسط، ويبعد عن الاسكندرية نحو ١٢٠ كليومترا كما تفصله بضعة كيلومترات عن قرية العلمين حيث دارت المعركة الفاصلة التى غيرت مجرى الحرب فى شمال أفريقيا بين قوات الحلفاء بقيادة مونتجمرى وقوات الفيلق الأفريقى الألمانى بقيادة روميل.

ويتميز الشاطئ بالهدوء والجفاف ونسيم البحر المنعش والرمال البيضاء الناعمة ومياه الخليج الهادئة المتلألئة ذات اللون الفيروزى (التركواز)، ولا يوجد على الشاطئ سوى فندق صغير ومجموعة من الشاليهات وبعض أشجار التين والنخيل.

وكانت هذه أول إجازة لى منذ عينت وزيرا للخارجية، وأول مرة اجتمع بعائلتى وابنى أحمد وعلى اللذين لم أكن أراهما إلا لماما وأنا مجهد مكدود مشدود، وعزمت على أن أكرس هذه الأيام القليلة لهما وللراحة. وأن أفصل ذهنى تماما عما يدور خارج هذا الشاطئ الجميل المنعزل. وقد نجحت فى ذلك إلى حد كبير فلم أحاول الاطلاع على الصحف أو حتى سماع نشرات الأخبار الإذاعية، وكنت أمضى الوقت بين المشى والسباحة والاستلقاء على رمال الشاطئ ولعب الطاولة والشطرنج والبلياردو ..

إلا أنى لم أستطع أن أدفع نفسى بعيدا عن التفكير فى مؤتمر كامب ديفيد القادم الذى كان يلح على فى بعض الأحيان، وكان محور هذا التفكير هو الموقف الأمريكى الذى كان يحيرنى كثيرا .. ما الذى حدا بالرئيس كارتر إلى المقامرة بمستقبله السياسى وتعريض مركزه بوصفه رئيسا للولايات المتحدة الأمريكية للفشل فى الوقت الذى وضح فيه التناقض الجذرى بين كل من الموقف المصرى والموقف الإسرائيلى ؟ لماذا عرض فانس اقتراح القمة الثلاثى على رئيس الوزراء الإسرائيلى قبل أن يعرضه على الرئيس السادات هل كان ذلك اعتباطا ؟ إن المنطق كان يقتضى مفاتحة الرئيس السادات أولا بوصفه الطرف الذى كان يرفض عقد اجتماع وزارى ثلاثى جديد ما لم يحدث تحول فى الموقف الإسرائيلى. بينما كان الطرف الإسرائيلى متلهفا على استئناف الاجتماعات بالاتفاق مع الجانب الأمريكى، ولو تم الاتصال أولا بالجانب المصرى لأفسح ذلك الفرصة أمامه لرفض الاقتراح ما لم يقترن بضمانات أمريكية محددة لحدوث هذا التحول فى الموقف الإسرائيلى. فى حين أن طرح الاقتراح على الرئيس السادات بعد عرضه على بيجن أولا وقبوله للاجتماع يضع الرئيس السادات أمام الأمر الواقع، ويفرض عليه القبول وإلا لظهر أو أظهر بمظهر المتعنت المتراجع عن الاستمرار فى مسيرة السلام.

· ترى ماذا حدث حقيقة فى الساعات الطويلة التى قضاها فانس منفردا بمناحم بيجن فى القدس، ثم فى تلك التى قضاها بعد ذلك منفردا بالسادات فى حديقة المعمورة؟ هل قدم أحدهما أو كلاهما تنازلات ؟ إن ما قاله لى الرئيس السادات بعد اجتماعه بفانس هو أن الرئيس كارتر وعد بأن يقوم بدور الشريك الكامل، ويلقى بكل ثقله فى هذا الاتجاه بمفهوم السادات، بينما أعلن بيجن عقب انتهاء مقابلاته مع فانس فى القدس أن :

« الولايات المتحدة لم تقدم لإسرائيل أى طلب لتغيير موقفها من قضية الشرق الأوسط » [1] وإذا كانت قد قدمت تنازلات فى خلال تلك الاجتماعات المنفردة التى عقدها فانس مع مناحم بيجن ثم مع الرئيس السادات فماذا يمكن أن تكون ؟

هل يمكن تصور أن يكون بيجن قد أبلغ فانس أنه قد عدل عن أطماعه التوسعية فى ضم الضفة الغربية وقطاع غزة، وهى حلم عمره الذى عاش وكافح من أجله، وهو الذى أعلن فور توليه رئاسة الوزراة الإسرائيلية أن « جوديا وسماريا » هى أراض إسرائيلية محررة وهو ما عاد وأكده موشى ديان منذ أسبوعين فى اجتماعات قلعة ليدز من أنه لا بديل عن الحل الإقليمى ؟

وعلى الجانب الآخر هل يمكن تصور أن يكون السادات قد أبلغ فانس أنه قد عدل عن التمسك بأن تكون الأرض والسيادة خارج دائرة المفاوضات والمساومات ؟ بل هل هو يملك التنازل عن أرض ليست أرضه وعن حقوق شعب بأسره وهو الذى ذهب إلى القدس من أجل حل مشكلته ؟

فى اعتقادى أنه لا مناحم بيجن ولا أنور السادات قد تعهد لفانس أو أبدى استعداده للتنازل عن شيء مما سبق.

إذن فما الذى تسعى إليه الولايات المتحدة أو تأمل فيه من عقد مؤتمر القمة الثلاثى فى كامب ديفيد ؟

انتهى فكرى إلى أن فكرة مؤتمر القمة ما هى إلا مضاربة من قبل الولايات المتحدة الأمريكية على جولة أخرى من المباحثات على مستوى الرؤساء ستدفع طرفا ما أو كليهما إلى تقديم تنازل جوهرى، وسبيل ذلك هو أن يمارس الرئيس الأمريكى بكل ما يتدجج به من نفوذ مادى ومعنوى وشخصى الضغط على كل من مناحم بيجن وأنور السادات بلا هوادة أو شفقة - إذا اقتضى الحال - ليرغم أحدهما أو كليهما على تقديم أقصى حد من التنازلات، حتى يستطيع فى النهاية الخروج بحل وسط ملوحا ومهددا بما تستطيع أمريكا أن تمنحه أو تمنعه وكلاهما إزاءها غير حصين.

يفعل الرئيس كارتر ذلك وهو يضع نصب عينيه أن الفشل فى التوصل إلى حل - أيا كان هذا الحل - ستكون ضحيته هيبة الولايات المتحدة ونهاية مستقبله السياسى.

---

(١) اذاعة راديو إسرائيل يوم ١٩٧٨/٨/٧م

ولم يكن هذا التصور الذى انتهيت إليه يثير فى نفسى كثيرا من القلق فإذا انحرف الموقف الأمريكى وانحاز إلى الجانب الآخر .. فى كامب ديفيد فليس ذلك خاتمة المطاف، إن الامكانيات العربية هائلة وإن قضيتنا قوية واضحة عادلة، وإن موقفنا لا يحتمل المساومة. فمستقبلنا ومصير الأمة العربية جميعا فى الميزان، وكل ما علينا هو الصمود والتمسك بحقوقنا المشروعة وبهدفنا فى تحقيق السلام الشامل، وأن نقول لا لغير ذلك وليس هناك قوة تستطيع أن تجبرنا على أن نسلم بالتفريط فى أراضينا أو فى سيادتنا عليها أما هيبة الولايات المتحدة فليست مسؤوليتنا وأما مستقبل جيمى كارتر فليس شأننا ..

وتذكرت ما قاله لى الرئيس السادات وهو يتناول طعام سحوره فى حديقة المعمورة من أن نجاح المؤتمر أو فشله فى أيدينا، ولم يخالجنى شك فى أنه يعى ويفهم مضمون هذه العبارة الحكيمة الحقيقية، وافترضت أن ما يقصده بها هو نجاحنا نحن وليس نجاح صديقه جيمى كارتر ولكنى كنت من الغافلين.

الفصل الثالث والثلاثون

يصوم بينما يعمل الآخرون

عدت من سيدى عبد الرحمن إلى القاهرة وقد زادتنى تلك الإجازة القصيرة نشاطا وحيوية. وبدأت على الفور مع مجموعة العمل التى تتكون من أسامة الباز وأحمد ماهر السيد ونبيل العربى وعبد الرؤوف الريدى بالإضافة إلى مجموعة من مستشارى الوزارة وخبرائها فى الإعداد للقاء القمة فى كامب ديفيد.

فتتالت الاجتماعات وطالت المناقشات وبحثت جميع الافتراضات والتوقعات وتعددت المذكرات والدراسات . وكان الجميع يعملون بروح الفريق وبهمة وجدية مقدرين عظم المسئولية ومدركين لأهمية اجتماعات كامب ديفيد، وما يمكن أن تسفر عنه من نتائج خطيرة فى اتجاه أو فى آخر.

لن يسفر عن خسارة..

وكان تقديرنا أن اجتماع كامب ديفيد إن لم يحقق لنا كسبا فإنه لا يمكن أن يسفر بالنسبة لنا عن خسارة أو إضرار بقضيتنا. كان تصورنا أنه من المستبعد تماما أن ينتهى هذا المؤتمر – فيما خلا حدوث معجزة – إلى التوصل إلى تسوية شاملة نهائية للنزاع العربى الإسرائيلى، وأن الأمر لا يعدو أحد احتمالين كلاهما طيب لنا. الأول : أن ينجح الرئيس كارتر فى كسر الجمود الإسرائيلى فى التشبث بالأراضى العربية المحتلة

مما يعتبر تقدما على طريق تنفيذ القرار ٢٤٢ ويسمح باجتذاب أطراف عربية أخرى إلى دائرة المفاوضات فى جولات أخرى تالية .

والاحتمال الثانى : أن يفشل المؤتمر فى تحقيق أى تقدم فى هذا الاتجاه ولن نكون من الخاسرين شريطة أن يبدو واضحا جليا - أمام أمريكا والعالم أجمع - أن وزر الفشل تتحمله إسرائيل وحدها بتمسكها غير المشروع بالأراضى المحتلة بالحرب وإجهاضها بذلك لتحقيق السلام الشامل العادل الذى نمد أيدينا لها به. وهذا فى حد ذاته يمثل بالنسبة لنا كسبا ويشكل لنا منطلقا إلى خطوات تالية. ومبادرة السلام تحاصر إسرائيل وتحقق كل يوم عائدا جديدا فى كسب الرأى العام الدولى والمستقبل أمامنا.

وفى أنحاء العالم جميعا كان مؤتمر كامب ديفيد المرتقب محل اهتمام كبير سواء من قبل الأجهزة الرسمية فى الدول المعنية التى تأخذ فى تقييم المواقف وإعداد دراساتها وسياستها على ضوء نجاح المؤتمر أو فشله، وما قد يستتبعه ذلك من نتائج أو مضاعفات، أو من قبل أجهزة الإعلام التى كانت توالى نشر وإذاعة التعليقات والتحليلات والتكهنات.

وفى إسرائيل كان مناحم بيجن يواصل الاجتماعات بمجلس وزرائه وبلجان الكنيست وبالمستشارين والخبراء التى كانت تستمر الساعات الطوال للإعداد لاجتماعات كامب ديفيد.

كذلك كان الحال فى الولايات المتحدة حيث خصص الرئيس كارتر جانبا كبيرا من وقته للتحضير للمؤتمر. إلى حد أنه كان يمضى أياما وليالى بأكملها بعيدا عن واشنطن يختلى فيها بمعاونيه ومستشاريه لهذا الغرض.

وأين كان الرئيس السادات وماذا كان يعمل؟ كان يواصل صيامه متجولا بين استراحاته فى المعمورة والإسماعيلية والسويس وبورسعيد، وكنت أتصل به تليفونيا حيثما كان لأحيطه علما بما نعمل ولاستطلاع رأيه فى بعض النقاط، وشعرت من قبله ببعض عدم الاكتراث. فكان غالبا ما يوافق على كل ما أقول أو يبدى بعض الملاحظات الثانوية غير المفيدة.

كان يمضى نهاره فى تكاسل واسترخاء، وبعد أن يتناول إفطاره فى المغرب كان يمضى الكثير من أمسياته منشغلا بتنظيم الحزب الوطنى الديمقراطى الذى أعلن إنشاءه برئاسته فى خطابه بجامعة الإسكندرية يوم ٢٧ يوليه (تموز) الماضى. فكان يستقبل الشخصيات والوفود التى هرعت إلى إعلان انضمامها الى الحزب الجديد لغرض أو لآخر. ويشكل اللجان ويوزع المناصب ويقيم الندوات ويلقى المحاضرات، يتكلم فى أى شىء فى التاريخ والسياسة والاقتصاد، فى فلسفة الحياة ورسالة الأحزاب. فى التكنولوجيا الحديثة وفى القيم وأخلاق القرية، أو يستعيد ذكريات كفاحه الوطنى أو مآثر مبادرته للسلام، أو أى موضوع معين يخطر له، والمستمعون يتصدرهم المحافظ وكبار المسؤولين ينصتون بلا معقب سوى الاستحسان والتصفيق.

التهرب من المقابلة..

وعندما وصلنا فى إعدادنا للمؤتمر إلى مرحلة تقتضى العرض عليه والحصول على موافقته طلبت من الرئيس أن يستقبلنى وفريق العمل الذى يعاوننى، إلا أنه طلب إرجاء ذلك بدعوى أنه صائم ويرهقه العمل فى رمضان. فعادوت طلبى بعد أيام وعاود التهرب والتسويف، وأصابتنى الدهشة، فمنذ تعيينى وزيرا للخارجية لم يكن يمضى أسبوع إلا وتتعدد فيه مكالماتنا التليفونية أو مقابلاتنا فى أمور أقل أهمية مما نحن مقدمون عليه، ولم أستطع تفسيرا لسلوكه وعدم اكتراثه بموضوع قد يكون جوهريا بالنسبة له شخصيا وبالنسبة لمصر ولمستقبل منطقة الشرق الأوسط كلها، هل هو مجرد استهانة وعدم تقدير لأهمية الإعداد الجيد للمؤتمر؟ هل هو فرط ثقة منه فى نجاحه معتمدا على نفسه فقط؟ هل هو ارتكان إلى وعود قاطعة نقلها إليه فانس من كارتر بألا يقلق وأنه سيؤازره على طول الخط؟ أم هل هو يدبر فى عقله شيئا آخر يريد أن يحتفظ به لنفسه حتى اللحظة الأخيرة مثلما فعل عندما فاجأ العالم بزيارته للقدس؟ وبدأ القلق يعترينى.

وأخيرا طلبته فى استراحة الإسماعيلية وقلت له : إنى لا أستطيع الاستمرار فى العمل بهذا الأسلوب، وإننا لسنا ذاهبين إلى كامب ديفيد للنزهة أو للسياحة، ولابد أن نتفق على مواقفنا والاستراتيجية التى سنتبعها فى المؤتمر، وإلا فإننى لن أذهب على الإطلاق، فقال الرئيس السادات إنه سيقابلنى بالطبع قبل المؤتمر وإنه قد حدد لذلك يوم ٢ سبتمبر (أيلول) – أى قبل السفر بيومين اثنين – حيث سيدعو مجلس الأمن القومى إلى الاجتماع فى استراحته بالإسماعيلية.

وفى تلك الأثناء زارنى السفير الأمريكى هيرمان أيلتس عدة مرات قبل سفره إلى واشنطن للمشاركة فى التحضير للمؤتمر والانضمام إلى الوفد الأمريكى فيه. وكان ينقل لى فى تلك الزيارات الترتيبات المتعلقة بالمؤتمر مثل : العدد المقرر لكل وفد حيث إن أماكن الإقامة محدودة فى كامب ديفيد وتوزيع هذه الأماكن على الوفود وما استقر عليه رأى الرئيس الأمريكى من حظر نشر أية أنباء عما يدور داخل اجتماعات المؤتمر، وذلك حرصا على إتاحة جو هادىء للمجتمعين بعيدا عن التوتر والمؤثرات الخارجية أو المزايدات. وكان من أغرب ما نقله إلى السفير أيلتس هو ما قرره الرئيس كارتر من أن تستمر مدة انعقاد المؤتمر لأسبوع على الأقل، فقلت : هذا حكم بالسجن على من يحضرون المؤتمر؟ فقال إن المقصود هو إفساح الفرصة لكسر الجمود وتليين المواقف ثم أضاف مبتسما أنه كذلك نوع من الاحتياط حتى لا يتكرر ما حدث فى القدس عندما قرر الرئيس السادات سحب الوفد المصرى فى اجتماعات اللجنة السياسية قبل أن تستكمل اجتماعاتها المقررة. ومن ناحيتى عاودت التأكيد على السفير أيلتس على ضرورة أن تتضمن الاقتراحات الأمريكية فى المؤتمر مواقف أمريكا المعلنة بالنسبة للانسحاب والمستوطنات وصيغة أسوان بشأن القضية الفلسطينية، وضرورة عرض أى مشروع أمريكى علينا للتشاور قبل تقديمه وقد أكد لى وعودهم السابقة بذلك.

كذلك أبلغنى السفير أيلتس أن المستر اثرتون قد نجح فى أثناء زيارته لكل من السعودية والأردن فى حثهما على إعلان تأييدهما لمؤتمر القمة الثلاثى، ووصلنا من الرياض وعمان ما يؤيد ذلك بعد أن أكد لهم المستر اثرتون صراحة أن الموقف الأمريكى فى الاجتماعات سيكون أقرب ما يكون إلى الموقف المصرى.

وقبل أيام من انعقاد مجلس الأمن القومى زارنى فى مكتبى السيد كمال حسن على مدير المخابرات العسكرية وعضو المجلس وقدم لى مذكرة بتقييم المخابرات للموقف واقتراحاتها بشأن مؤتمر كامب ديفيد. وكانت المذكرة تتضمن جدولا تفصيليا بكل نقاط النزاع العربى الإسرائيلى، والحد الأدنى الذى يمكن أن تقبل به مصر فى كل نقطة وقد قرأتها فى حضوره وعبرت له عن تقديرى واغتباطى، حيث إن ما جاء بها يكاد يطابق الموقف الذى انتهت إليها وزارة الخارجية مائة فى المائة.

وفى يوم ٢٩ أغسطس (آب) أى قبل اجتماع مجلس الأمن القومى بخمسة أيام

أرسلت إلى الرئيس السادات المذكرة التالية، وهى خلاصة ما أسفرت عنه جهودنا المكثفة بشأن أهدافنا فى كامب ديفيد، والاستراتيجية التى نقترح السير عليها لتحقيق هذه الأهداف :

٢٩ أغسطس (آب) ١٩٧٨

سرى للغاية

مذكرة

للعرض على السيد رئيس الجمهورية

عن اجتماع كامب ديفيد الثلاثى

أولا : مقدمة

١- إن اجتماع كامب ديفيد يعتبر خطوة ناجحة من وجهة النظر المصرية جاءت نتيجة الموقف المصرى الذى استطاع :

(أ) إثبات مرونة مصر مع عدم تخليها عن المبادىء الأساسية للإستراتيجية العربية.

(ب) كشف المواقف الإسرائيلية أمام الرأى العام العالمى والأمريكى.

(جـ) إجبار الولايات المتحدة على قبول تغيير طبيعة دورها من الوسيط إلى الشريك الكامل، وإلقاء الرئيس كارتر بكل ثقله الشخصى والرسمى فى الميزان، من أجل التقدم فى طريق التسوية. وهذا العنصر يزداد أهمية فى ضوء أن المواقف الأمريكية الرسمية والمعلنة أقرب إلى المواقف المصرية منها إلى المواقف الإسرائيلية.

(د) الحصول على تأييد السعودية والأردن.

٢- وفى مواجهة هذا النجاح المصرى فإن إسرائيل تسعى - وستظل تسعى داخل المؤتمر وخارجه - لإجبار الحكومة الأمريكية على التخلى عن فكرة الاضطلاع بدور الشريك الكامل الذى يفصح عن آرائه الخاصة به، إلى دور الوسيط الذى يحاول التوفيق بين المواقف المتعارضة للأطراف.

وهى فى ذلك تستغل :

(أ) مراكز القوى الصهيونية فى الولايات المتحدة للضغط على الرئيس كارتر وتحذيره من التقدم بمقترحات أمريكية.

(ب) محاولة الظهور بمظهر مخادع من المرونة، والإيحاء بأن إسرائيل تتحرك. وأن استمرار المفاوضات من شأنه فى حد ذاته أن يخلق ديناميكية تسهل الوصول إلى اتفاق بين الأطراف دون تدخل الولايات المتحدة.

وفى هذا الصدد فقد صدرت عدة تصريحات من شيوخ أمريكيين تحذر الحكومة الأمريكية من التقدم بمشروع خاص بها، وتبرز مزايا استمرار الحوار المباشر المصرى - الإسرائيلى. كما أن التصريحات الإسرائيلية حاولت خلق انطباع بالمرونة :

(أ) فهى تحاول تضخيم فكرة استعدادها لمجرد بحث موضوع السيادة بعد فترة السنوات الخمس.

(ب) تحاول الادعاء بأنها تعد عدة بدائل كإثبات لحسن نيتها، وأن استعدادها لبحث فكرة الحل الوسط الإقليمى، إذا طرحتها مصر هو تنازل كبير.

(جـ) تحاول خلق انطباع بأنها تريد تسهيل الأمور على مصر بعدم إصرارها على توقيع اتفاقية سلام، واستعدادها لقبول «حل جزئى نهائى» هو فى الواقع يحقق كل ما تطالب به إسرائيل فى مجال تطبيع العلاقات، بينما لا يحقق شيئا من المطالب العربية التى تناضل مصر من أجلها.

٣- وخلاصة القول أنه بينما المتصور هو أن تدخل الرئيس كارتر شخصيا يعتبر عامل ضغط على الولايات المتحدة للتوصل إلى تسوية عادلة حتى لا تصاب هيبة الرئيس الأمريكى بضربة نتيجة للفشل، فإن إسرائيل ستحاول أن تجعل من هذا التدخل ذاته عنصر ضغط على مصر وذلك عن طريق :

(أ) التلويح بأن عدم تقديم مصر لتنازلات من شأنه أن يضر بمركز الرئيس كارتر.

(ب) التلويح بحملة إعلامية تحاول الإيحاء بأن فشل اجتماع كامب ديفيد سيكون نتيجة لمواقف مصر، وتبرئة إسرائيل من مسؤولياتها الحقيقية فى فشل الاجتماع.

وليس من شك فى أن إسرائيل بما لها من ركائز داخل المجتمع الأمريكى والإدارة الأمريكية ذاتها - تملك من إمكانيات التأثير على القرار الأمريكى فى الاتجاه الذى تريده، ما لا تملكه مصر، مما يوجب علينا الحذر الشديد فى توجهنا السياسى داخل الاجتماع وتوجهنا الإعلامى أثناء الاجتماع وبعده.

٤- ومن الجدير بالذكر أن محاولات إسرائيل المشار إليها، قد انعكست فى المواقف الأمريكية، إذ نلمس أن الحكومة الأمريكية بعد أن قبلت الاضطلاع بدور الشريك الكامل، عادت تبدى ترددا فى هذا الشأن وتحاول أن تنفى نيتها فى التقدم بمشروع أمريكى متكامل. وقد يكون هذا الموقف الأمريكى مجرد تكتيك مرحلى لمواجهة الضغوط الإسرائيلية، ولكنه قد يكون أيضا رضوخا أو بداية رضوخ أمريكى - لأسباب متعددة منها أسباب داخلية لقرب انتخابات الكونجرس - لمراكز القوى الصهيونية. وهو أمر يجب أن نأخذه فى الاعتبار.

ثانيا : أهداف الاجتماع

١- إن المفهوم الأساسى هو أن الاجتماع يستهدف التوصل إلى اتفاق عام على مبادىء للتسوية تصلح للتطبيق على جميع الجبهات، وتتناول جميع جوانب المشكلة، وتتيح توسيع دائرة المفاوضات لتشمل أطرافا أخرى كالأردن فى مرحلة أولى، ولضمان تأييد عربى واسع لجهود السلام.

٢- إلا أنه يبدو الآن أن الولايات المتحدة تفكر فى ألا يقتصر الاجتماع على « المبادىء » بل يتجاوزه إلى التطرق إلى تفاصيل متعلقة بالضفة الغربية وغزة والمشكلة الفلسطينية.

ثالثا : أهداف مصر من الاجتماع

١- إن هدف مصر بالنسبة لإعلان المبادىء أن يكون أوضح ما يكون وألا يترك مجالا لاختلافات حول تفسيرات لنصوص غامضة تعود بنا إلى الدائرة المفرغة التى استهدفت مبادرة السيد الرئيس الخروج منها.

٢- وبالنسبة للمشكلة الفلسطينية، فإن هدف مصر هو الخروج بصيغة تتفق مع المشروع الذى تقدمت به[1] والذى يستهدف تحقيق :

(أ) الانسحاب من الضفة الغربية وغزة.

(ب) حق الشعب الفلسطينى فى تقرير مصيره.

وفى نطاق هذين الهدفين فإن المجال يمكن أن يتاح لإظهار قدر من المرونة فى التطبيق .

رابعا : استراتيجية مصرية مقترحة فى الاجتماع

١- إن التصور الأمريكى هو أن يستمر الاجتماع حوالى أسبوع، والهدف المحتمل من ذلك هو استغلال تلك الفترة نسبيا لتليين المواقف. ومن هنا فإن السلوك المصرى الأمثل هو البدء بموقف متشدد نسبيا وإظهار المرونة تدريجيا فى الحدود التى نضعها سلفا، على أن تبدو تلك المرونة دائما استجابة للموقف الأمريكى. وقد يكون من المفيد قبل التطرق إلى صياغات محددة بحث فلسفة التسوية والتصور العام لها.

٢- كما أنه من المهم أن تعمل مصر أثناء الاجتماع على التركيز على تفنيد المواقف الإسرائيلية، وإثبات أنها لا تصلح أساسا للتسوية وأنها ستصل بالاجتماع إلى طريق مسدود، مما يدفع الولايات المتحدة إلى التدخل لتجنب الفشل عن طريق تقديم مقترحاتها وفى مجال التفنيد يمكن التركيز على :

(أ) أن التوسع بدعاوى الأمن - علاوة على مخالفته للقانون الدولى - لا يحقق الأمن لأنه سيجعل الطرف الذى سلبت منه أرضه متحفزا دائما لاستردادها، وأن الأمن الحقيقى هو أن تكون إسرائيل مقبولة من جيرانها، وهذا لن يتأتى إلا بشعورهم بأن إسرائيل لا تطمع فى أرضهم ولا تريد سلبهم حقوقهم.

(ب) أن الادعاء بأن إقامة المستوطنات هو عنصر من عناصر السلام لأنه يتيح الحياة معا للعرب واليهود، فكرة خاطئة ولا تستقيم، لأن المستعمرات هى فى الفكر

(١) المشروع الذى قدمناه فى مؤتمر قلعة ليدز.

الإسرائيلى جزر إسرائيلية منفصلة ومسلحة وسط أرض العرب. وإذا أراد اليهود أن يعيشوا مع العرب حقا فإن معنى هذا أن يكون لهم - مثل أى أجنبى - طلب حق الإقامة على أساس فردى.

٣- وإزاء احتمال عدم توصل الاجتماع إلى نتائج إيجابية، فإنه من المهم أن يحقق الموقف المصرى توازنا دقيقا بين :

(أ) التمسك بالأساسيات فى مواقفنا.

(ب) تغليف ذلك فى إطار من المرونة الواضحة التى تستهوى الرأى العام الأمريكى والعالمى. مما يتيح لنا أن ننجح فى أن يقترن فشل الاجتماع بما يلى :

- وضوح مسؤولية إسرائيل عن الفشل.
- وضوح توافق الموقفين المصرى والأمريكى فى مواجهة موقف إسرائيلى متعنت وجامد فى جوهره الحقيقى رغم محاولات الخداع.
- إقناع الولايات المتحدة بأن فكرة استمرار المفاوضات لمجرد التفاوض لن تصل إلى النتائج التى ترجوها أمريكا.

وإذا استطعنا تحقيق هذا الهدف، فإنه يمكن بحث وسائل إظهار تجميع الموقف العربى - الذى يعقب هذا الفشل - كاستمرار لمبادرة السلام المصرية وليس بديلا عنها.

٤- ولا شك أن عدم تحقيق الاجتماع لنتيجته - مع توافر الظروف التى شرحناها فى البند السابق - أفضل من التوصل إلى نتيجة غامضة تتيح لإسرائيل الاستمرار فى المراوغة. مما يجعل تلك النتيجة تنقلب فى النهاية علينا.

خامسا : الموقف من عناصر التسوية

يكون موقفنا هو الإصرار على الانسحاب الكامل من جميع الأراضى العربية المحتلة فى سنة ١٩٦٧ وحق الشعب الفلسطينى فى تقرير مصيره، ثم يمكن من خلال المباحثات واستجابة لمبادرات أمريكية أن يندرج على النحو التالى:

١- الانسحاب

(أ) من المهم أن تؤكد صيغة الانسحاب مبدأ عدم جواز الاستيلاء على الأراضى بالقوة، ومبدأ عدم المساس بالحدود الدولية القائمة.

(ب) بالنسبة لصيغة « تعديلات فى الحدود فى الضفة الغربية تحقق الأمانى الفلسطينية وأمن إسرائيل » فإنها رغم أنها – فى مفهومنا – تعتبر واضحة فإنها تتيح لإسرائيل الفرصة لتفسيرات تخرج بها عن المفهوم المصرى.(١)

(جـ) وبالتالى فإن الأوفق على ضوء إدراكنا للأساليب الإسرائيلية هو تعديلها على النحو التالى :

- وصف التعديلات بأنها طفيفة.
- تجنب استعمال تعبير « الحدود » والنص على « الخطوط فى الضفة الغربية».
- النص على أن التعديلات الطفيفة يجب أن تحظى بموافقة ممثلى الشعب الفلسطينى الذين يملكون وحدهم القرار النهائى الملزم بشأنها.
- عدم الربط بين «الأمانى الفلسطينية» و «الأمن» وتخصيص فقرة خاصة للحديث عن «حقوق الشعب الفلسطينى» وليس عن الأمانى الفلسطينية.

(د) وعلى ضوء ما سبق فيمكن أن نقبل فى النهاية – فى مرحلة متقدمة من المباحثات – أن يكون النص الخاص بالانسحاب هو :

« الانسحاب من الأراضى العربية المحتلة فى سنة ١٩٦٧، مع إمكان إجراء تعديلات طفيفة على الخطوط فى الضفة الغربية تتفق عليها الأطراف لاعتبارات إدارية وإنسانية ولتحقيق أمنها المتبادل ».

٢- القضية الفلسطينية

(أ) رفض اعتبار مشروع بيجن أساسا للحل.

(ب) التمسك فى المباحثات باعتبار المشروع المصرى أساسا للمباحثات مع الاستعداد

---

(١) وهى الصيغة التى كان السادات قد وافق عليها فى اجتماعه بشيمون بيريز فى فيينا، والتى صدرت فى بيان الاشتركية الدولية الذى أصدره برانت وكرايسكى فى يونيه (حزيران) ١٩٨٧.

للقبول بصيغة أسوان بعناصرها الثلاثة : حل المشكلة الفلسطينية من جميع جوانبها، الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني وحقه فى المشاركة فى تقرير مستقبله، مع الإصرار على عدم قبول الجانب الأمريكى أى تعديل إسرائيلى لأى عنصر من هذه العناصر، باعتبار أن الصيغة أمريكية يجب أن يلتزم بها المفاوض الأمريكى.

٣- القدس

نؤكد انطباق الانسحاب الإسرائيلى على القدس العربية وتأكيد السيادة العربية عليها، وفى نفس الوقت يمكن أن تتقدم مصر بمقترحات مفصلة لتحقيق فكرة الحفاظ على الطابع الفريد للمدينة عن طريق ضمانات لحرية المرور والعبادة وعدم إقامة حواجز فى المدينة.

٤- ترتيبات الأمن

التقدم بمقترحات مصرية مفصلة عن ترتيبات الأمن على جميع الجبهات على أساس النقاط المصرية الست، وعن الضمانات لاستمرار تلك الترتيبات (ضمان مصر والأردن، ضمانات دولية جماعية أو ثنائية).

٥- علاقات السلام

التقدم بتصور مصرى متكامل لما تعنيه علاقات السلام، مع عدم الارتباط فى معاهدات السلام بأية إجراءات محددة قد تعتبر انتقاصا من المبدأ المتعارف عليه دوليا من خضوع العلاقات بين الدول لمبدأ السيادة وحرية الاختيار.

٦- المستعمرات

التمسك بالموقف المصرى - الأمريكى بعدم شرعية المستعمرات وضرورة إزالتها مع إمكان إظهار المرونة فى توقيت وأسلوب تصفية تلك المستعمرات، على أن يتم الاتفاق على وقف كل نشاط إسرائيلى فى هذا المجال فورا.

٧- اللاجئون

(أ) التمسك بحق النازحين بعد سنة ١٩٦٧ فى العودة إلى الضفة الغربية وغزة واشتراكهم فى تقرير مستقبل الضفة الغربية وغزة.

(ب) الاستعداد لمناقشة أسلوب ومعدلات تنفيذ قرار الأمم المتحدة المتعلق بلاجئى سنة ١٩٤٨، بحضور جميع الأطراف.

(جـ) رفض مناقشة من تسميهم إسرائيل باللاجئين اليهود من الدول العربية.

سادسا : الخلاصة

١- إن الموقف المصرى يحسن أن يكون متشددا فى المراحل الأولى من اجتماع كامب ديفيد، ثم نستجيب تدريجيا إلى مبادرات أمريكية لتظهر المرونة دون المساس بالمبادىء الأساسية التى تستند إليها مواقفنا.

ومن عناصر المرونة الإضافية التى يمكن إظهارها إذا رأينا ذلك :

(أ) إطالة فترة الانسحاب.

(ب) السماح خلال الفترة الانتقالية بوجود عسكرى إسرائيلى محدود فى أماكن محددة.

(جـ) التوسع فى ترتيبات الأمن على ألا تمس بمبدأى الانسحاب والسيادة.

(د) التوسع فى مفهوم السلام وعلاقات السلام.

٢- وفى نفس الوقت نشجع الولايات المتحدة على الإفصاح عن مواقفها المعلنة القريبة من مواقفنا.

٣- فإذا انتهى الاجتماع بالفشل بعد ذلك نكون فى وضع من التعاون مع أمريكا واستجاب لدعوتها للمرونة. وبالتالى نتجنب محاولة إسرائيل إلصاق تهمة الفشل بنا. وهذا فى حد ذاته رصيد يمكن البناء عليه فى تخطيطنا المستقبلى. ويجب فى هذه الحالة أن نحرص على ألا تطالبنا الولايات المتحدة بعقد اجتماع جديد مع إسرائيل، قبل أن تتخذ هى موقفا حازما تفرض على إسرائيل قبوله.

٤- أما إذا انتهى الاجتماع بالتوصل إلى إعلان مبادىء يعتبر تقدما فى طريق تنفيذ القرار ٢٤٢ ويؤدى إلى دخول الأردن فى المفاوضات وإلى الحصول على تأييد السعودية، فإن المتصور أن تتلو ذلك سلسلة من المفاوضات مما يقتضى دراسة خاصة لتنسيق إيقاع حلقاتها والإطار الذى تتم فيه (مؤتمر جنيف أو غيره).

مع عظيم الاحترام،

محمد إبراهيم كامل

وزير الخارجية

الفصل الرابع والثلاثون

تصرفات غريبة وعلامات استفهام

فى الساعة السابعة والنصف من مساء ٣ سبتمبر (أيلول) وصلت إلى مطار ألماظة الحربى يصحبنى السفير أحمد ماهر، وبدأ أعضاء مجلس الأمن القومى(١) يفدون تباعا وما إن اكتمل جمعهم حتى ركبنا الطائرة الأنتينوف - سوفيتية الصنع - التابعة لسلاح الطيران وانطلقت بنا إلى الإسماعيلية. وفى المطار ركبنا السيارات التى كانت فى انتظارنا وتوجهنا إلى جزيرة الفرسان حيث تقع استراحة الرئيس السادات.

وقبل أن تتوقف السيارة أمام مدخل الاستراحة لمحت السفير أسامة الباز بالقرب من المبنى ولم أدر سبب وجوده فى الإسماعيلية، فقد قابلته أمس فى الوزارة ولم يخبرنى بشىء، وأشرت له بيدى محييا فرد التحية ثم لم يلبث أن اختفى كالشبح.

أين «همت» ؟

قادنا الحرس إلى التراس الفسيح الذى يطل على البحيرات المرة التى تجتازها قناة السويس، حيث كان الرئيس السادات جالسا أمام التليفزيون الذى كان يذيع

---

(١) أعود إلى التذكير يشمل مجلس الأمن القومى: رئاسة السادات وعضوية نائب رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء ورئيس مجلس الشعب ورئيس الاتحاد الاشتراكى العربى ووزراء الدفاع والخارجية والداخلية ورئيس المخابرات، والسيد حسن التهامى.

إحدى حلقات الفوازير الاستعراضية التى كانت تقوم الفنانة نيللى ببطولتها طوال ليالى شهر رمضان بنجاح كبير.

ووقف الرئيس السادات لاستقبالنا وعندما جاء دورى فى مصافحته خيل إلى أن استقباله لى يعتريه شيء من الفتور لم أعهده من قبل، خاصة وقد مضت مدة طويلة دون أن أقابله ولكنى لم أعر ذلك كثيرا من الاهتمام. ثم تركنا الرئيس واتجه إلى داخل الاستراحة حيث تابعنا بعض الوقت الاستعراض التليفزيونى وقدمت إلينا الحلويات والمكسرات والمشروبات المعتادة فى شهر رمضان، وفى هذه الأثناء أحضرت منضدة مستطيلة إلى الشرفة وصفت حولها المقاعد، ولم يلبث أن عاد الرئيس ودعانا إلى أخذ أماكننا حول مائدة الاجتماع وساد السكون برهة، ثم تلفت الرئيس حوله وفجأة صفق بيديه فحضر أحد رجال الحرس على الفور وقال الرئيس «أين همت وسعد زغلول؟ استدعهما وجهز لهما مكانا بالقرب من منضدة الاجتماع» وهرع الحارس إلى الخارج وبعدها بدقيقة وصلت السيدة همت مصطفى مديرة التليفزيون ومندوبته المعتمدة لدى الرئيس والسيد سعد زغلول نصار المسؤول عن الشؤون الصحفية بالرئاسة حاملين أوراقا وأقلاما وجلسا إلى المائدة التى أعدت لهما بالقرب من مكان جلوس الرئيس.

وعقدت الدهشة لسانى فاجتماعات مجلس الأمن القومى هى أخطر الاجتماعات وما يثار فيها ويتداول داخلها مفروض فيه أنه على أكبر درجة من الأهمية والسرية، وكانت الاجتماعات تجرى دون تسجيل محاضر عما يدور فيها من مناقشات ومعلومات، وفى نهاية كل اجتماع كان الرئيس يكلف - إذا وجد ذلك من المناسب - أحد أعضاء المجلس وقد يكون رئيس الوزراء أو وزير الخارجية أو وزير الداخلية بإذاعة بيان بما يرى إذاعته بشأن موضوع الاجتماع.

وكان هذا الاجتماع بالذات والمخصص لمناقشة الخطة المصرية فى كامب ديفيد خطيرا للغاية، إذ سيتناول المسائل الاستراتيجية والتكتيكية التى سنتبعها فى المؤتمر وهى أمور غاية فى الحساسية وذات سرية قصوى، وإذا كان المطلوب هو تسجيل محضر سرى بما يدور فى الاجتماع فكان من الممكن أن يعهد إلى أحد أعضاء المجلس بذلك.

ولم يعر أى من الحاضرين أى التفات لما حدث، أما أنا فشعرت بعدم الارتياح وبشيء من الغضب. ولم يكن بينى وبين السيدة همت مصطفى أو السيد سعد زغلول

إلا كل ود، ولكنى أحسست أن وجودهما فيه نوع من الحجر على حريتى فى الحديث فلن أستطيع أن أبوح أمامهما بأسرار غاية فى الدقة والخطورة، ولا أنا أستطيع أن أناقش الرئيس وأن أعارضه إذا اقتضى الحال فى حضورهما دونما حرج. وتركت مقعدى وتوجهت نحو الرئيس لاسترعى نظره إلى الأمر، ولكنى عندما وصلت إليه تداركت نفسى بسرعة، إذ أن الأمر لن يخرج عن إحراجه أو إحراج نفسى، لأنه كان من الصعب عليه أن يطلب منهما الانصراف بعد أن دعاهما إلى الحضور أمام أعضاء المجلس، أما أنا فماذا يكون موقفى لو رفض الأخذ بملاحظاتى وأصر على حضورهما؟ ونظر إلى الرئيس وقال : «فيه حاجة يا محمد» فقلت : «إن أسامة الباز وأحمد ماهر هنا وأرجو أن يسمح لهما بحضور الاجتماع، فقال : لا مانع، وبالفعل أرسلت فى استدعائهما وحضرا الجلسة.

وأرجو أن استرعى نظر القارىء قبل أن أنقل هنا حديث الرئيس السادات إلى أنه قد يدهش أو يصدم لما يبدو فى هذا الحديث من تناقضات وعبارات مبتورة غير كاملة، والقفز من موضوع إلى آخر وما يشوبه من انفعال والحقيقة أنى أنقل هذا الحديث ويعترينى شعور بالأسف والخجل، فليس هذا فى رأيى هو المستوى الذى يليق أن يتكلم به رئيس جمهورية مصر العربية فى اجتماع مجلس الأمن القومى الذى يضم أصحاب أعلى المناصب فى الدولة. ولكنى أسلم بطبيعة الحال بأن ذلك اليوم لم يكن من أحسن أيامه.

إطار السلام المفاجىء..

بدأ الرئيس السادات الحديث بمقدمة استعرض فيها تاريخ النزاع العربى الإسرائيلى وهزيمة ١٩٦٧ ثم حرب أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٧٣ التى مكنته من القيام بمبادرته للسلام وزيارة القدس فى ١٩٧٧، واستعرض ما حققته هذه المبادرة من مكاسب ضخمة فى الرأى العام الأمريكى والدولى، وأشار إلى تعنت وتصلب بيجن ومحاولته التخلص من هذه المبادرة، واتخاذه موقفا متشددا جامدا على أمل الوصول إلى حل جزئى أو منفرد. إلا أننا واجهنا ذلك بموقف ثابت مما أدى فى النهاية إلى تطور الموقف الأمريكى وقبول أمريكا القيام بدور الشريك الكامل الذى كنا نسعى من البداية إلى تحقيقه. وأن اجتماع القمة الثلاثى الذى دعا إليه الرئيس كارتر فى كامب ديفيد مماثل

للزيارة التى قام بها هو إلى القدس لهدم جدار الشك وإزالة الحواجز النفسية، وهو ما نجحنا فيه عالميا بل وإسرائيليا فيما عدا بيجن وبطانته.

وقال الرئيس «عندما زارنى فانس حاملا دعوة الرئيس كارتر لمؤتمر القمة فى كامب ديفيد قبلت الدعوة على الفور وأخبرته أنى كنت أنوى أن اقترح عليهم فكرة عقد مؤتمر القمة ولكنهم سبقونى ولكنى سألت فانس سؤالين :

الأول : على أى أرض تقف أنت والرئيس كارتر ؟ والثانى : إلى أى مدى أنتم مستعدون للذهاب فى هذا اللقاء بالنسبة للتسوية الشاملة [1] ؟ وأجابنى فانس : إننا نقف على أرض صلبة، والرئيس كارتر مستعد للذهاب إلى آخر المدى، وقد وصل إلى الحد الذى لم يعد يهتم بانتخابه رئيسا لأمريكا للمدة الثانية طالما أنه سيحل نزاع الشرق الأوسط ويدخل التاريخ كبطل للسلام، ولذلك فإن الرئيس كارتر لم يحدد تاريخا لانتهاء المؤتمر، وترك جدوله مفتوحا لهذا الاجتماع».

«وعلى هذا الأساس وافقت على حضور المؤتمر. ذكر فانس أن هناك علامات مشجعة من بيجن وأجبته بأننا نفتح صفحة جديدة وأن اجتماع كامب ديفيد أخطر من زيارتى للقدس، ولكن بيجن يهون من شأن الاجتماع وسيحاول العمل على أن تتلوه اجتماعات أخرى، كما سيحاول أن يطلب من كارتر أن يقوم بدور السمسار الشريف فقط، ولكنى سأصر على دور الشريك الكامل».

«وفى مجلس الوزراء الإسرائيلى لم يعرض بيجن أى شىء جديد وسيتمسك فى كامب ديفيد بمشروع الحكم الذاتى فى الضفة وغزة اللى عرضه علينا ورفضناه فى الإسماعيلية، وبيجن متفق مع ديان وعازلين عزرا وايزمان بالكامل. ولكن فى تقديرى أن معركة بيجن خاسرة .. وقد سألت فانس هل تعلمون أن ما سيحدث فى كامب ديفيد هو مواجهة؟ إذا لم يكن هذا مفهومكم فلن يتحقق شىء فى المؤتمر. وقد طلبت من أيلتس (السفير الأمريكى) قبل عودته إلى واشنطن أن يذكر الرئيس كارتر بأن أية مقترحات أمريكية إذا كان فيها أى مساس بالأرض والسيادة فليعلم مقدما أنى سأرفضها».

وسكت الرئيس لحظة ثم قال «وهنا سنقع فى مشكلة سوف يستغلها بيجن، لأن حدود سنة ١٩٦٧ تسيطر على الشعب الإسرائيلى فمثلا تل أبيب معرضة للضرب من

(١) وذكر فى ذلك بالأسئلة التى قال الرئيس السادات أنه وجهها إلى الرئيس شاوشيسكو فى بوخارست: هل بيجن رجل قوى؟ هل هو راغب فى السلام؟ والتى اتخذ قرار المبادرة على أساسها.

القدس، بيجن محضر نفسه فى كامب ديفيد على أنى سأطلب إعلان مبادىء، وسيسعى إلى حل منفرد معنا أو حل جزئى. مثل الانسحاب من سيناء حتى خط العريش - رأس محمد، ولكنى لم أقم بمبادرتى من أجل حل منفرد أو حل جزئى.

وسيكون موقف بيجن أن العودة إلى حدود سنة ١٩٦٧ تنطبق على سيناء وعلى الجولان، ولكنها لا تنطبق على الضفة الغربية وقطاع غزة لأنها تهدد الأمن الإسرائيلى، وهذا حقيقى لأنه ممكن ضرب تجمعات داخل إسرائيل من هذه الأراضى (الضفة وغزة)».

«ورأيى فى استراتيجيتنا أن حكاية إعلان المبادىء مش مشكلة تناقش على مستوانا فى كامب ديفيد. فاجتماع كامب ديفيد هو التطبيق على الواقع لمبادرة القدس، وعلى مستوى الرؤساء الثلاثة فإن مسألة إعلان المبادىء لم يعد من المجدى أن نناقشها لأنها ستعطى الفرصة لبيجن للتلاعب. بمعنى أنى قررت أن نناقش «إطار للسلام» وليس «إعلان مبادىء» نستعد بهذا الاطار للسلام - واحنا شغالين فيه - ونقطع الطريق على مناورات بيجن، إن القرار ٢٤٢ بينص فى مقدمته على عدم جواز احتلال الأرض بالقوة، طيب ده لازم يتنفذ، أما مناقشة ترتيبات الأمن فى الضفة الغربية فأنا أوافق عليه، ورأيى رغم أنى تسلمت برقيتين من خالد (الملك) وحسين (الملك) ليه بتزايدوا علينا؟ (ولم يرد على السؤال) .. مشروعنا إطار السلام لازم يكون أكثر من إطار، بمعنى أن يكون واضحا ومحددا ويبين الخطوات لحل القضية، ولا نترك لفظا مبهما مع بيجن وإلا فمش حنخلص.

المطلوب أن نكسب الرأى العام العالمى والرئيس كارتر إلى صفنا، وهذا سيؤدى إلى سقوط بيجن. الموقف الأمريكى يهدف إلى البحث عن إطار للسلام فى الشرق الأوسط، والحد الأدنى اللى حيتمسكوا به هو الاتفاق على استمرار المفاوضات بين مصر وإسرائيل بعد انتهاء كامب ديفيد. والحد الأقصى هو إعلان مبادىء يحكم عملية التفاوض وأمريكا فى مباحثات الدول الأربع وفى مبادرة روجرز وفى قرار مجلس الأمن كانت دائما تصر على اتفاق الطرفين على حدود آمنة ومعترف بها. وهناك نقطتان سيتضمنهما مشروعنا لإطار السلام.

الأولى: خاصة بالضفة الغربية وغزة وكنا فى فيينا قد وافقنا مع كرايسكى وبرانت وشيمون بيريز على صيغة ترسم الحدود بحيث تحقق الأمانى المشروعة للفلسطينيين

والأمن لإسرائيل. ولابد أن تحدث تنازلات فى الضفة. المهم أن نناقشها مع بيجن ونحدد مداها حتى لا يتراجع فيها.

والثانية: تقرير المصير للفلسطينيين بعد خمس سنوات فترة انتقالية، غزة تعود لمصر والأردن تأخذ الضفة والجميع يؤيد ذلك.

وإذا رفض الملك حسين – لأنه محضر نفسه يلطش الضفة ويعملها محافظة أردنية- إذا رفض فلن أتردد – بدعوى أنى غير مؤهل للكلام نيابة عن الفلسطينيين – مش حيهمنى لأنى مؤهل لحل مشكلة مصر ولا أستطيع حل مشكلة مصر بدون حل مشكلة فلسطين لأنها أساس القضية.

نريد وضع موديل والجميع أحرار فى الدخول أو الخروج، وسأخبرهم بصراحة بأن قرار الحرب والسلام فى يد مصر ومصر تتكلم باسم نصف الأمة العربية وزيادة.

وفيما يختص بموضوع الدولة الفلسطينية فسينص مشروعنا على موقفنا المعلن منذ ثلاث سنوات وهو : «للفلسطينيين حق تقرير المصير مع رابطة مع الأردن». أريد أن أذهب إلى أقصى مدى وسأعترض على الـ P.L.O. (منظمة التحرير الفلسطينية) حتى لو قبلتهم إسرائيل.

وسيكون إطار السلام ربطة متكاملة PACKAGE DEAL وسنطالب بضمانة أمريكية وبضمانات من مجلس الأمن ومن الأعضاء الدائمين فيه.

الاصطلاح المرفوض..

وأنهى الرئيس السادات حديثه، وسأل : هل يريد أحد أن يتكلم؟ ولم يبد أحد رغبة فى ذلك. فنظر إلى الرئيس وقال فى صوت هادئ خيل إلىّ أنه يحمل شيئا من التحدى «محمد، عاوز تقول حاجة؟» وقلت والغضب يعصف فى صدرى «طبعا عاوز أقول حاجات كثيرة » وسمعت صوت أحمد ماهر وهو يهمس فى أذنى «تكلم بهدوء يا محمد بك ».

واعترف أن حديث السادات قد أخذنى على غرة تماما. فقد كنت أتوقع أن يكون محور حديثه المذكرة التى أرسلتها إليه منذ أيام بشأن استراتيجيتنا فى مؤتمر كامب ديفيد، والتى هى خلاصة عمل شاق وجهد متواصل ودراسات متعمقة قامت بها وزارة الخارجية وهى الجهة الفنية المتخصصة.

إلا أنه لم يشر إليها بكلمة واحدة من قريب أو بعيد، بل هاهو ذا يفاجىء مجلس الأمن القومى ووزير خارجيته نفسه وعضو وفد التفاوض المصرى قبل السفر إلى كامب ديفيد بأربع وعشرين ساعة بمشروع اسمه «إطار السلام» ولد سفاحا فى الظلام. بل إنه حتى لم ينته بعد من إعداد هذا المشروع ووضعه على الورق ولم يفصح إلا عن لمحات مما يتضمنه، فكيف لنا أن نناقشه أو نستوعبه؟ إلا أن هذه اللمحات تضمنت مسائل غاية فى الخطورة. واخترت أن أبدأ الكلام فيما بدا لى أنه أخطر ما قاله وهو ما ذكره بشأن موافقته على صيغة «ترسيم الحدود بين الضفة الغربية وغزة وبين إسرائيل بما يحقق أمانى الفلسطينيين وأمن إسرائيل».

قلت : إن الموافقة على هذه الصيغة تعنى تخلينا عن هدف استراتيجى ثابت، وتراجعا عما أعلنه الرئيس وأكده باستمرار من التمسك بوجوب إخراج الأرض والسيادة من دائرة التفاوض، وتعنى فى نفس الوقت أننا وافقنا على نظرية الأمن الإسرائيلية التى أعلنا مرارا وتكرارا وبحق أن حرب أكتوبر قد هدمتها إلى الأبد، وبالتالى أننا سلمنا بما تطالب به إسرائيل من تنازلات إقليمية فى الضفة وغزة بدعوى حماية أمنها. وهذا لن يجدينا نفعا مع بيجن، فمتى انتزع منا اعترافا بأن أمن إسرائيل يقتضى تعديل الحدود فسيتمسك بأن أمن إسرائيل يشمل أراضى الضفة وغزة جميعا، وربما يطلب تطبيق نفس المبدأ على سيناء والجولان، وهو ما يتفق مع أطماعه التوسعية المعلنة. وسنكون قد ألحقنا ضررا جسيما بالقضية الفلسطينية دون أن نحقق سلاما أو استقرارا.

إن استعمال اصطلاح «الأمانى الفلسطينية» تجاوزته الأحداث، وهو اصطلاح قديم استخدمته انجلترا فى وعد بلفور سنة ١٩١٧ حينما لم يكن لليهود من سند فى المطالبة بوطن قومى فى فلسطين، إلا التمنى أما ما ينطبق على الفلسطينيين فهو تعبير «الحقوق المشروعة للشعب الفلسطينى» وهذا حقهم الأبدى وهذا ما قررته الجمعية العامة للأمم المتحدة، وما استقر عليه الاجماع الدولى. فما بالنا نستبدل به ذلك الاصطلاح المائع المهزوز.

ثم كيف يحق لنا أن نتفاوض على تنازلات إقليمية فى الضفة الغربية وغزة؟ وهل نملك التنازل عن أرض ليست بارضنا دون إجازة أو تفويض من أصحابها الشرعيين؟ إننا إن حاولنا ذلك فلن نجنى من ورائه إلا زيادة الطين بلة واستعداء العرب جميعا -

معتدلين ومتشددين - وقطع الطريق على الأردن وعلى ممثلى الشعب الفلسطينى فى الاشتراك فى المفاوضات ..».

ولم يعلق الرئيس السادات بشىء على ما قلته، وبدأ يسمح لمن يطلب من أعضاء المجلس الكلمة، فتكلم السيد سيد مرعى وتكلم الدكتور مصطفى خليل ولم يمس أى منهما ما قلت بخير أو بسوء، وكأنى لم أقل شيئا. وإنما تفرعا إلى الحديث عن نقاط أخرى كالاستعلام عن الموقف الأمريكى أو مصير المستعمرات فى سيناء، والوحيد الذى تعرض لما قلت كان الفريق الجمسى إذ اشار فى كلمته إلى أنه يوافق وزير الخارجية على أن تستبعد الأراضى من ترتيبات الأمن لما فى ذلك من عواقب قد تمس أراضى سيناء نفسها، وانبرى السيد حسن التهامى موجها الحديث إلى «يا أخ محمد لماذا تعترض على تعبير أمانى الشعب الفلسطينى؟ إن كلمة أمانى ترجمتها بالانجليزية هى ASPIRATIONS وهى أقوى من كلمة حقوق RIGHTS».

وحرت فى الإجابة عليه ولم أجد غير كلمة «ربما»، وتذكرت المذكرة التى قدمها إلى السيد كمال حسن على منذ أيام قليلة - وكان يجلس فى مواجهتى - فحاولت أن استرعى نظره إلىّ عسى أن يسعفنى بكلمة إلا أن جهدى ذهب عبثا.

انت فاكر نفسك دبلوماسى ..

وانتهى الاجتماع وانتقل الرئيس ومن ورائه أعضاء المجلس إلى مدخل الشرفة حيث وقف والتفوا حوله يقدمون له التهانى بعيد الفطر المبارك الذى يبدأ غدا وأطيب التمنيات له بالنجاح والتوفيق فى مؤتمر كامب ديفيد. وقال الرئيس إنه متفائل وعلى ثقة من النجاح فى هذا المؤتمر ثم التفت إلى وقال «جهز نفسك يا محمد للسفر بعد بكره» وقلت «أنا جاهز، وهناك نقطة أريد أن اقترحها على سيادتكم وهى أن الأمريكيين قد أبلغونا بأن مدة المؤتمر هى أسبوع على الأقل، وقد توافق على أن نبدأ فى الأيام الأولى بمواقف أكثر تشددا من تلك التى يتضمنها المشروع المصرى حتى نفسح الفرصة أمامنا لإبداء نوع من المرونة أمام الأمريكيين، بدلا من أن نعرض مشروعنا للضغوط والتنازلات إذ طرحناه فى البداية».

وكأنما كان ينتظر منى كلمة ليطلق شيئا حبيسا فى نفسه، فقد شرع يقهقه ضاحكا بطريقة مسرحية تدل على التسفيه، ثم قال بصوت جهورى هز المحيطين به «بقى إنت

فاكر نفسك دبلوماسى ياسى محمد؟» ثم قهقه من جديد وقال «والله ما انت دبلوماسى، أسبوع إيه اللى انتظره ياسى محمد؟ أنا لازم أول ما حوصل أقدم مشروعى على طول وأفرقع المؤتمر وتنى راجع مصر بعد ثمانية وأربعين ساعة بالكتير». وغالبت نفسى حتى لا أقهقه ضاحكا بدورى على سخافة ما قاله، وعلى منظره وهو يقوله وسط هذا الجمع المختار من كبراء الدولة وقادتها، وشعرت بالدهشة، فلم يسبق له أن خاطبنى بهذه الطريقة أمام أحد من قبل. وأحسست بقوة غريبة تسرى فى أوصالى، وقلت وقد اعتلت وجهى ابتسامة عريضة لم أستطع التحكم فيها «إنت حر يا ريس طبعا، وعلى كل حال أنا لم أدع أبدا أنى دبلوماسى خطير».

وركبنا الطائرة الأنتينوف عائدين إلى القاهرة، وفى الطريق تشعب الحديث إلى العديد من الموضوعات بين الجد والدعابة، إلا أن أحدا لم يشر إلى أو يعلق على ما جرى فى اجتماع مجلس الأمن القومى، ولماذا التفكير فيما مضى وفات، أما المستقبل فسيتكفل الرئيس بكل شىء فيه وعلى بركة الله . وليفكر كل فى كيف سيمضى إجازة العيد التى تبدأ غدا.

تفسير الألغاز..

وأمضيت ساعات الليل حتى الفجر أسترجع الأحداث والتطورات الأخيرة، وأحاول فك الرموز والألغاز وأحلل تصرفات السادات الغريبة، واستنبط خبايا ما يدور فى رأسه، واكتشف مراميه ومقاصده، عسى أن أنتهى إلى تصور عام أستطيع على ضوئه أن أحدد أين أقف وماذا أستطيع أن أفعل؟

وأول ما توصلت إليه هو أنه تجنب عن عمد وسبق إصرار أن يقابلنى طوال المدة التى مضت منذ أن قابله فانس فى استراحة المعمورة يوم ٧ أغسطس (آب) ووجه إليه الدعوة إلى مؤتمر القمة حتى اجتماع مجلس الأمن القومى فى الإسماعيلية فى ٢ سبتمبر (أيلول) قبل تاريخ السفر إلى كامب ديفيد مباشرة فى ٤ سبتمبر (أيلول). ولم يكن تهربه من الرد على مكالماتى التليفونية العديدة، أو اعتذاره عن عدم استطاعته مقابلتى بحجة أنه متعب من الصيام، أو تعلله بمسؤوليته ومشاغله فى إنشاء حزبه الجديد إلا تخابثا وتمويها وتسترا على غرض فى نفسه، على نحو ما كان يفعل عندما كان يعد لحرب أكتوبر (تشرين الأول) حتى فاجأ إسرائيل بعبور القناة، مع فارق بسيط وهو أنى وزير خارجيته هو ولست وزير خارجية إسرائيل.

ولماذا يتهرب الرئيس من لقائى؟ لأنه قرر إجراء تعديل جذرى فى الموقف المبدئى الذى التزمنا به منذ بداية المبادرة، وهو ألا تنازل عن الأرض والسيادة وفقا لقرار مجلس الأمن ٢٤٢، وهو الموقف الذى أكده بشكل درامى قاطع حاسم فى المقابلة الطويلة مع اثرتون وأيلتس يوم ٢٠ يوليه (تموز) الماضى، وأعلن فيها بأنه لن يعود إلى التفاوض المباشر مع إسرائيل إلا إذا وافقت على إخراج الأرض والسيادة من مجال التفاوض، بل إنه سمى ذلك بمبادرته الثانية بعد مبادرته الأولى بزيارة القدس.[١]

ولكن متى وأين وكيف حدث التغيير فى موقف السادات؟ انتهى فكرى إلى أن ذلك قد حدث فى أثناء الاجتماع الذى تم بينه وبين سيروس فانس يوم ٧ أغسطس (آب) فى حديقة المعمورة ليقدم له دعوة الرئيس كارتر إلى مؤتمر كامب ديفيد. فلقد استمرت خلوتهما ساعات طويلة بدأت فى نحو الساعة التاسعة مساء وامتدت إلى ما بعد منتصف الليل - وربما لم يقرر السادات هذا التغيير فى تلك الجلسة ولكن المؤكد أن فانس زرع فى رأسه بذرته فى ذلك الاجتماع - ومن السذاجة أن نتصور أن فانس أمضى كل هذا الوقت لكى يؤكد للسادات أن أمريكا سوف تمارس دور الشريك الكامل، وأن ذلك سيعنى أنها سوف تؤيد الموقف المصرى تماما فى وجوب الانسحاب الإسرائيلى الكامل من كل الأراضى العربية المحتلة. بينما باقى أعضاء الوفدين المصرى والأمريكى يجلسون يتثاءبون فى الانتظار على بعد ثلاثين مترا منهما. وقد بنيت استنتاجى هذا على أساس :

أولا : إن الموقف الأمريكى كان يهدف منذ البداية إلى توسيع دائرة المواضيع محل التفاوض إلى أقصى حد، حتى تتاح له - بوصفه طرفا ثالثا - فرصة كسر الجمود فى أى موضوع مطروح فينعكس ذلك على باقى الموضوعات، ويوجد بداية خيط للحل ونوعا من قوة الدفع. ويبدو ذلك جليا فى جدول الأعمال[٢] الذى اقترحته أمريكا لاجتماع اللجنة السياسية فى القدس فى يناير (كانون الثانى) ١٩٧٨، فرغم أن المنطق كان يتطلب الاتفاق أولا على المبادىء التى تحكم التسوية السلمية، فإذا ما تم ذلك جرى التفاوض على تطبيق هذه المبادىء، نجد أن جدول الأعمال الأمريكى يشمل بنودا ثلاثة :

---

(١) راجع الفصل الثامن عشر.

(٢) راجع الفصل الخامس (هل تخاف الذهاب للقدس)

- إعلان مبادىء يحكم المفاوضات الخاصة بتحقيق تسوية سلمية شاملة فى الشرق الأوسط.

- خطوط استرشادية للمفاوضات المتعلقة بمسائل الضفة الغربية وقطاع غزة.

- عناصر معاهدات السلام بين إسرائيل وجيرانها.

وفى اجتماع الرئيس السادات بالرئيس كارتر فى كامب ديفيد فى شهر فبراير (شباط) الماضى ألح علينا الجانب الأمريكى فى تقديم مشروع مصرى بشأن الضفة الغربية وغزة[1] وعدم الاكتفاء بإعلان المبادىء عسى أن ينجحوا فى اختراق بعض نقاطه.

وفى اجتماعات ليدز[2] حاول فانس جريا على نفس الفلسفة البحث عن نقاط التقاء بين المشروع المصرى والمشروع الإسرائيلى، ومحاولة توسيع ذلك بأمل العثور على منفذ.

ثانيا: لقد دعا الرئيس كارتر إلى مؤتمر القمة بعد أن رسخ الخلاف الجذرى بين الموقفين المصرى والإسرائيلى. وأصبح يشكل مأزقا لا مخرج منه Stalemate فهل يتخيل عاقل أن الرئيس الأمريكى (بموافقة مستشاريه) يقدم على الإطاحة بمستقبله السياسى وبهيبة الولايات المتحدة بهذه البساطة؟ لابد أنه بنى تدخله على أساس الحل الوسط[3]، وهل كان يخفى عليه أو على أحد أن بيجن كالحائط لا يتزعزع، وتسانده جماعات الضغط الصهيونية ورجال الكونجرس وفى أيديهم تمرير سياسته أو شلها؟ إذن لماذا لا يحاول مع السادات؟ ولابد أن فانس – وهو محام بارع – قد أحاط مطلبه فى وجوب إجراء تنازلات فى الضفة الغربية، بأنها ستكون فى أضيق الحدود، ولابد أنه قال إن كارتر فى مأزق وإن مركزه ومستقبله مهدد وإنه يتطلع إلى الرئيس السادات لإنقاذه، وإنه لن ينسى للسادات هذا الجميل وسيعوضه عنه خيرا عندما يتم انتخابه للمرة الثانية، ويكون فى مركز يمكنه من الضغط بكل قوة على إسرائيل لحل المشكلة الفلسطينية حلا عادلا كريما. وإنه سيفتح خزائن أمريكا لمصر، ويكون سلاحها ملك يديه وإن وإن ..

---

(١) راجع الفصل السابع (السيناريو)

(٢) راجع الفصل السادس عشر (بين جدران قلعة ليدز)

(٣) راجع الفصل التاسع عشر

ثالثا: إن الرئيس السادات حرص فى حديثه فى مجلس الأمن القومى على إيضاح أن فكرة «إطار السلام» هى من اختراعه ومن بنات أفكاره. إلا أن لسانه لم يلبث أن انفلت خلال حديثه فقال : «إن الموقف الأمريكى يهدف إلى البحث عن إطار للسلام».

وليكن، فلم يكن لدى اعتراض على فكرة «إطار السلام» فى حد ذاتها طالما أنها تتمسك بأهدافنا الاستراتيجية الثابتة - صحيح أنى كنت ضد أن نقدم مشروعا جديدا فى كل اجتماع، فقد تقدمنا فى القدس بمشروع إعلان مبادىء. ثم عدنا وقدمنا فى ليدز مشروعا خاصا بالضفة الغربية وغزة، فى الوقت الذى التزمت فيه إسرائيل بمشروعيها الخاصين بسيناء وبالحكم الذاتى اللذين قدمهما بيجن فى الإسماعيلية فى ٢٥ ديسمبر (كانون الأول) دون أى تعديل - ولكن إذا كان الرئيس يرى أن يقدم مشروعا جديدا بإطار للسلام، فكان الواجب يحتم عليه أن يطلب من وزارة الخارجية منذ البداية دراسة هذا المشروع وإعداده، ثم يناقشه معى ومع الخبراء الفنيين، فإذا ما انتهينا إلى رأى وصيغة نهائية أمكن عندئذ عرضه على مجلس الأمن القومى إذا شاء، أما أن يظل الرئيس نائما فى فترة بيات كالثعابين، ثم يصحو ليفاجئنا بمشروع جديد لم يشاور أحدا فيه من المختصين، ولم يستكمل إعداده بعد - والمؤتمر يبدأ فى صبيحة اليوم التالى أو الذى يليه - فليس هذا مقبولا شكلا أو موضوعا. وليس بمثل هذا الاستهتار والعفوية تعالج الأمور الجادة الخطيرة. ومع ذلك كنت مستعدا رغم أنفى للتجاوز عن كل ذلك، ومواجهته باعتباره بلية نزلت من السماء، فهكذا هو أنور السادات، وهو الرئيس، ولكن الذى لم أكن استطيع التجاوز عنه هو ما أفصح عنه فى حديثه فى مجلس الأمن القومى من أنه قد قبل بنظرية الأمن الإسرائيلية، إذن فقد حاد عن الأهداف التى لا يملك هو أو غيره التنازل عنها، والذى كان لا يفتأ يتشدق بالتمسك بها فى تصريحاته المعلنة.

وأعود إلى الاستطراد فى تصورى لما كان يجول فى عقل الرئيس السادات. فلو أنه اجتمع بى قبل اجتماع مجلس الأمن القومى لكان من الطبيعى أن يكون موضوع الاجتماع مناقشة المذكرة التى أعددناها فى الوزارة والتى أرسلناها إليه سلفا، وكان بالتالى عليه أن يبت فيها بالقبول أو التعديل أو بالرفض، ولكن إلى ماذا كان يستطيع الاستناد فى رفضها؟ لقد تضمنت المذكرة تمسكا بالأساسيات فى موقفنا،

والاستراتيجية التى رسمت فيها كانت كفيلة - إذا ما طبقناها بذكاء - بالتوصل إلى أحد أمرين فإما أن نكسب أو لا نخسر.

وذلك سواء ناصرتنا أمريكا أم خذلتنا، وسواء تعنت بيجن أو تهاون. بمعنى أنه إما أن تنتهى المباحثات بالتوصل إلى إعلان مبادىء يعتبر تقدما على طريق تنفيذ القرار ٢٤٢ يؤدى إلى دخول الأردن فى المفاوضات والحصول على تأييد السعودية مما يفتح الأبواب نحو التسوية الشاملة فى النهاية، وإما أن ينتهى الاجتماع دون تحقيق ذلك، وفى هذه الحالة فلن تستطيع إسرائيل إلحاق تهمة الفشل بنا أمام الجانب الأمريكى، ويبقى أمامنا مفتوحا باب تجميع الموقف العربى كاستمرار لمبادرة السلام وليس كبديل لها.

كل هذا طيب، وكان يستقيم فى ظروف أخرى كأن يكون الاجتماع الثلاثى على المستوى الوزارى وليس الرئاسى. إلا أن عاملا جديدا قد طرأ وهو دخول الرئيس الأمريكى كارتر بشخصه إلى حلبة الصراع، مما يوجب عليه (السادات) توخى الحذر وأن يهيىء لنفسه كل المرونة فى مواجهة أى موقف.

فبرئاسة كارتر للوفد الأمريكى فى كامب ديفيد لم تعد المواجهة بين السادات وبيجن وحده، بل تفرعت وأصبحت تشمل نوعا من المواجهة مع الرئيس الأمريكى نفسه، وإن اختلفت الأسباب. ذلك أن نجاح المؤتمر أو فشله أصبح فى نظر العالم يعنى نجاح كارتر أو فشله - وهذا ما كانت تردده وسائل الإعلام فى كل مكان حتى أصبح شعارا- وكيف ينجح كارتر (ولم يعد نجاحه يعنى بالضرورة نجاح التسوية الشاملة العادلة) إذا لم يتوصل إلى حل وسط؟ ذلك يعنى أن يتنازل بيجن عن شىء ويتنازل السادات بالمقابل عن شىء، وإذا كان بيجن يستطيع جدلا أن يتنازل عن شىء لا يملكه، فهل يستطيع السادات بدوره أن يتنازل عن ما يملكه غيره؟ وبينما العلاقة بين أمريكا وإسرائيل متينة تقوم على روابط تاريخية ومعنوية بل واستراتيجية تساندها ركائز راسخة فى الإدارة وفى الكونجرس وفى المجتمع والرأى العام الأمريكى، ويتوج ذلك التزام أمريكى شبه مقدس بحماية أمن إسرائيل ومصالحها، فإن العلاقة المصرية الأمريكية هى علاقة وليدة ناشئة بعد طول خصام وهى بعد هشة غضة العود وربما أظهر ما فيها طابع شخصى يتمثل فى العلاقة بين السادات وكارتر.

وإسرائيل تستطيع أن تتحمل بسهولة وتستوعب إغضاب الرئيس الأمريكى دون أن تهتز أو تتأثر روابطها الوثيقة بالولايات المتحدة. أما هو (السادات) فإلى أين يتوجه إذا تسبب فى فشل الرئيس الأمريكى ونال غضبه وحلت عليه نقمته؟ لقد هدم جسورا كثيرة مع الدول العربية ومع دول عدم الانحياز ومع الاتحاد السوفيتى ومع غير هؤلاء. إن الموقف غير مريح، فماذا إذن؟

إذن فلابد أن يدخل (الرئيس السادات) كامب ديفيد مجردا متحررا من أى قيد سواء كان ارتباطا بآراء معاونيه أو فكرهم أو كان ذلك موقفا ثابتا أو هدفا معلنا أو كان خطة عمل أو استراتيجية مرسومة سلفا، حتى مشروعه هو - الذى يجرى إعداده - «إطار السلام» قرر أن يلقى به فى أتون المفاوضات فى أيامها الأولى وفى قمة تشدد الأطراف، حتى يحترق فيصبح حرا طليقا لا يقيده مشروعه نفسه، يكيف مواقفه حسبما يتراءى له على ضوء التطورات وكل ما يهم أن تكون عينه دائما على الرئيس الأمريكى وألا يعكر صفوه ومزاجه.

وحتى يدشن هذا الموقف التحررى الجديد قبل سفره فليتناسى وزارة الخارجية وليلق بأوراقها، وبنتاج كدها وفكرها فى سلة المهملات، وليعلن بملء فمه أمام مجلس الأمن القومى الموقر. أنه يوافق على تنازلات فى الأراضى المحتلة، فهل من معترض؟ ثم ليعلن أمام كبار رجالات دولته بأن وزير خارجيته لا يفقه شيئا فى الدبلوماسية عسى أن يخرس لسانه الطويل وأن يتعظ.

كان هذا ما انتهى إليه تصورى على ضوء الأحداث والتصرفات التى أشرت إليها وقد أكون محقا وقد أكون مخطئا. ولكن ليأذن لى القارىء فى أن أقرر أنه أقرب إلى الحقيقة، فإننى بحكم مسؤوليتى كوزير للخارجية مضطر إلى البحث والتقصى عما يدور فى رأس الرئيس السادات (لأن شخصيته بها الكثير من الغموض والتعقيد) - شأن اضطرارى بحكم هذه المسؤولية ذاتها لمحاولة معرفة ما يدور فى الفكر الإسرائيلى والأمريكى قدر الإمكان - وفضلا عن ذلك فلدى بعض المعرفة بمفاتيح شخصيته من واقع التجربة والعشرة الطويلة، وشىء من الفراسة مما يؤهلنى لقراءة السادات وما يعتمل داخله.

وبقيت نقطتان – قبل أن أنتقل إلى مؤتمر كامب ديفيد، ولكنى أعتقد أن ما تناولته من وقائع وتحليل هو أمر أساسى لفهم ما حدث فى كامب ديفيد، وفيه أمور كثيرة لا تفسير لها إلا إذا كان القارىء مزودا بهذه الخلفية.

الأولى : أن السادات لم يكن يستطيع أن يصوغ بنفسه مشروعه «إطار السلام» فإلى من يلجأ؟ اختار الرئيس السادات السيد أسامة الباز ليقوم بذلك لعدة اعتبارات منها : أن الباز يعمل بصفتين الأولى أنه وكيل وزارة الخارجية. والثانية أنه مدير مكتب نائب الرئيس، إذن فالرئيس السادات قد عهد بهذا العمل إلى أحد معاونى الرئاسة الذى تربطه فى نفس الوقت صلة قوية بعمل وزارة الخارجية، بل إنه كان أحد أعمدة مجموعة العمل التى تعد التخطيط لمؤتمر كامب ديفيد بالوزارة. والاعتبار الثانى أن الباز متمكن من قضية النزاع العربى الإسرائيلى تماما. وفى نفس الوقت فإنه بارع فى الصياغة – وهى عملية بالغة الدقة والتعقيد – بعنصريها القانونى والسياسى.

وأضيف أنى لم أجد غبارا على أسامة الباز فى قبول هذه المهمة التى كلفه بها الرئيس السادات فى اللحظة الأخيرة، والتزامه بتعليماته بالاحتفاظ بها سرا للوقت المناسب فهو أولا يعمل برئاسة الجمهورية، ثم إنها تعليمات صادرة من رئيس الدولة، وله أن يكلف من يرى من موظفيها بما يراه.

ومن ناحيتى فإنه وإن أغاظنى وأقلقنى التحول الذى لجأ إليه السادات فى اللحظة الأخيرة بملابساته التى أشرت إليها، فقد شعرت بالارتياح عندما علمت بأنه عهد إلى أسامة بصياغة المشروع. فأنا أثق فى شعوره الوطنى وفى ذكائه وكفاءته وكنت على يقين بأن ما سينتجه قلمه وفكره سيكون مشروعا قويا متماسكا ملتزما بمواقفنا الاستراتيجية وهذا ما حدث، فقد أعد مشروعا جيدا متكاملا يصلح أساسا للتسوية الشاملة العادلة لو تدرجنا إليه فى الوقت المناسب، لولا أن السادات بما جبل عليه من تسرع وتبديد كان يزمع أن يلقى به وقودا فى المرحلة الأولى من المباحثات، كما أشرت وكما فعل بالفعل حسبما سيأتى بيانه.

والنقطة الثانية : أنه خطرت لى فى تلك الظروف فكرة الاستقالة وأمعنت التفكير فيما ولد هذا الخاطر فى نفسى، فوجدته يعود إلى شعور قوى بالإحباط والإشفاق على

نفسى. فمنذ توليت عملى وزيرا للخارجية وأنا أبذل جهدا خارقا وشاقا دون انقطاع، فقد كنت أعمل يوميا أكثر من خمس عشرة ساعة ما بين المقابلات والاجتماعات والاطلاع على البرقيات وقراءة التقارير وملاحقة التطورات على مستوى العالم والتفكير واتخاذ القرارات. وحتى الساعات القليلة التى كنت أنامها كان عقلى الباطن يعمل إلى حد أنى كنت كثيرا ما أستيقظ لأسجل على الورق فكرة عنت لى وأنا نائم، ثم أعود لأستكمل نومى القلق، وتبدأ الدائرة من جديد فى اليوم التالى وهكذا. ورغم الإرهاق والتوتر والمشاكل الصحية فلم أكن أشكو أو أتبرم، كنت أشعر بأن القدر قد شاء أن يضعنى أمام موقف جليل الخطر والأهمية يهون فى سبيله كل جهد وعناء وتضحية. بل على العكس كان كل جهد أبذله يمدنى براحة نفسية ويزيدنى عزما وطاقة شريطة أن أشعر أنه موجه لخدمة القضية التى نسعى إلى حلها، وهى تحقيق السلام العادل الشامل. ويدخل فى ذلك التصدى للحيل والمناورات الإسرائيلية ومتابعة ومعالجة المواقف الأمريكية المتغيرة، والعمل على اكتساب ثقة الدول العربية واجتذابها، إما أن أجد نفسى مضطرا من وقت لآخر إلى أن أترك كل ذلك جانبا وأوجه وقتى وجهدى لمعالجة وإصلاح مشاكل وأزمات إضافية عارضة نتيجة نزوات السادات المظهرية وتقلباته العشوائية وتصرفاته المفاجئة دون سبب أو سابق إنذار أو استشارة أو تشاور فقد كان أمرا لا يطاق ولا يحتمل ويزعزع الثقة فى القيادة ويثير اليأس من إمكان تحقيق أى تقدم والحفاظ على أى مكاسب أو منجزات، ويضعف الروح المعنوية فى بذل أى جهد وعمل. ويكفى أن أذكر القارىء ببعض أمثلة وردت سابقا – وهى قليل من كثير– منها قرار الرئيس السادات المفاجىء بسحب الوفد المصرى من اجتماع اللجنة السياسية بالقدس، ومنها دعوته لوزير الدفاع الإسرائيلى وايزمان إلى القاهرة بينما يغزو الجيش الإسرائيلى لبنان. وبينما يجتمع فيها وزراء الخارجية العرب ثم مرة ثانية دعوته لوايزمان لمقابلته فى سالزبورج (فوشل) وإثارته لقضية العريش وجبل موسى، ومقابلته لشيمون بيريز فى فينا، وما أسفرت عنه من بيان الاشتراكية الدولية الخطير وما أثاره كل ذلك من مشاكل إضافية وفرعية اقتضت معالجة وجهدا كنا فى غنى عنه، وأثرت على مسيرتنا أو ميعت خطنا الواضح وطغت على ما حققناه من تقدم . وها هو ذا ونحن على مشارف منعطف خطير هو اجتماع كامب ديفيد يطلع علينا بما طلع به فى اجتماع مجلس الأمن القومى فى الإسماعيلية، فبالله كيف لا أفكر بكل ذلك؟ إلا أنى لم ألبث أن نحيت كل هذه الأفكار جانبا وأفقت من المرارة التى كانت تعترينى وشعرت

أنه من المستحيل أن أتخلى عن واجبى بالوقوف إلى جانب السادات وهو مقبل على ذلك الاختيار الخطير فى كامب ديفيد، وقدرت المسؤوليات الهائلة التى ينوء بها كاهله وقررت أن أقف بكل ما أوتيت من قوة إلى جانبه أشد أزره وأحميه من نفسه وشعرت بمسؤوليتى مضاعفة لأنى كنت الوحيد الذى يتجاسر على التصدى له ومناقشته دون تردد أو وجل. ربما من واقع علاقتنا القديمة التى صاغتها ظروف الكفاح التى جمعتنا ضد الاستعمار البريطانى فى الأربعينيات، والتى انصهرت وترعرعت فى غياهب السجن ولم يكن ليخطر على بالنا وقتها أن القدر سيجمعنا من جديد وهو رئيس لجمهورية مصر العربية وأنا وزير لخارجيتها.

بدون تعليق

نشرت جريدة الأهرام القاهرية فى صدر صفحاتها الأولى الصادرة يوم ٣١ أغسطس (آب) ١٩٧٨ بشأن اجتماع مجلس الأمن القومى بالإسماعيلية يوم ٣٠ أغسطس (آب) ١٩٧٨ :

« مصر ترفض أية اتفاقيات جزئية أو ثنائية وتتمسك بالحل الدائم والعادل ».

« الرئيس السادات يؤكد لمجلس الأمن القومى :

- لا تنازل عن الحقوق المشروعة للشعب الفلسطينى.
- وانسحاب إسرائيل من جميع الأراضى العربية.

الإسماعيلية من حمدى فؤاد : فى الاجتماع الطارىء لمجلس الأمن القومى أكد الرئيس أنور السادات أن مصر ترفض أية اتفاقيات ثنائية أو حلول جزئية، وأن هدف مصر من اشتراكها فى مؤتمر كامب ديفيد على وجه التحديد :

١- الحل الشامل بمعنى رفض أى حل جزئى أو ثنائى.

٢- الحل الدائم والعادل بمعنى رفض أى حل مؤقت أو مرحلى.

وقد أكد الرئيس السادات أنه لا تنازل عن انسحاب إسرائيل من جميع الأراضى العربية المحتلة، ولا تنازل عن الحقوق المشروعة للشعب الفلسطينى بما فى ذلك حقه فى تقرير مصيره، وقضية القدس ووضعها فى التسوية النهائية، وحق كل دولة فى العيش فى سلام داخل حدودها الآمنة».

الفصل الخامس والثلاثون

فى الطريق إلى كامب ديفيد

فى الساعة العاشرة من صباح الاثنين ٤ سبتمبر (أيلول) ١٩٧٨ وصلت مع باقى أعضاء الوفد المصرى فى مؤتمر كامب ديفيد إلى مطار أبو صوير لنكون فى انتظار الرئيس السادات عند وصوله من السويس حيث أدى صلاة عيد الفطر فى اليوم السابق، ثم نسافر إلى باريس لقضاء ليلة نتوجه بعدها إلى أمريكا.

ويقع مطار أبو صوير فى الصحراء الشرقية وهو مطار حربى وليس به استعداد لاستقبال الركاب أو الزوار المدنيين. ولذلك أقيم صوان كبير ليحمى الزائرين الذين حضروا لوداع الرئيس من الشمس والحرارة، وبينهم كبار رجال الدولة والجيش وعدد كبير ممن أعلنوا انضمامهم للحزب الوطنى الديمقراطى الذى شكله الرئيس السادات.

وقبل وصول الرئيس حضر إلى السيد ماهر محمد على المحامى والسيد منصور حسن - وزير الثقافة فيما بعد - وكلاهما كان ممن عهد إليهم السادات بدور تنفيذى فى تنظيم حزبه الجديد - وسألانى : متى ستنضم للحزب؟ فقلت إنى لن أنضم إليه. فقال ماهر محمد على : ولكنك وزير الخارجية، فقلت : ولقد كنت كذلك قبل إعلان تشكيل الحزب. فصاح ماهر محمد على : ولكنك كنت عضوا فى الحزب الوطنى القديم وأنت فى فجر شبابك فكيف لا تنضم للحزب الوطنى الجديد وأنت صديق الرئيس؟ فقلت : هذا صحيح ولكنى لم أعد من أعضاء الحزب الوطنى القديم، لأنى خالفت مبادئه

التى تنادى بأنه لا مفاوضة إلى بعد الجلاء[1] وهأنذا كما ترى فى طريقى إلى كامب ديفيد للتفاوض قبل أن يتم الجلاء.

وعقدت الدهشة لسان ماهر محمد على ونظر إلى متشككا فى رجاحة عقلى. والواقع أنى بعد أن عينت وزيرا للخارجية ألح لى مرة السيد ممدوح سالم رئيس الوزراء ورئيس حزب مصر - الذى أوعز الرئيس للحكومة بتشكيله بعد التصريح بتشكيل الأحزاب - ألح لى أمام الرئيس بالانضمام إلى الحزب وقلت له وقتها : إنى أعتبر نفسى فى مهمة قومية فوق الأحزاب، وبعدها كان السيد فؤاد محيى الدين سكرتير عام الحزب يرسل إلى بصفة دورية دعوة للانضمام للحزب وبها الاستمارة الخاصة بذلك، ولكنى كنت أهمل الرد.

ولم يلبث أن وصل الرئيس بصحبة السيدة زوجته وبعض أولاده وحفيده حيث سبقوه إلى ركوب الطائرة أما هو فتبعهم بعد أن صافح طابور المودعين الطويل الذى امتد من باب الصوان حتى مدخل الطائرة. توجهت بعد ذلك إلى مقعدى فى الطائرة وربطت حزام الأمان وشرعت فى قراءة صحف الصباح. بعد اقلاع الطائرة بنحو نصف ساعة أرسل الرئيس السادات يستدعينى وعندما دخلت إلى صالونه حيث كان يجلس مع أفراد عائلته. رحب بى ترحيبا حارا ودعانى إلى الجلوس معهم حيث تجاذبنا أطراف الحديث فى موضوعات شتى بعيدة عن السياسة، وكان متلطفا معى للغاية، وكأنما يحاول أن يمحو من ذاكرتى ما دار بيننا فى جلسة مجلس الأمن القومى الأخيرة.

فى باريس نزل الرئيس السادات فى قصر «مارينيه» وقد قام الرئيس الفرنسى جيسكار ديستان بزيارته فى قصر الضيافة، وهى مجاملة خارجة عن العرف المألوف، ودعاه إلى العشاء معه فى قصر الأليزيه فى المساء.

أما باقى الوفد فقد تناولنا العشاء فى وزارة الخارجية «بالكيه دورسيه» بدعوة من وزير شؤون الرئاسة جان فرانسوا بونسيه ووزير الدولة للشؤون الخارجية أوليفيه ستيرن فى غياب وزير الخارجية الفرنسى، وقد وضح لنا من المناقشات أن الجانب الفرنسى كان مفرطا فى التشاؤم من أن يؤدى مؤتمر القمة فى كامب ديفيد إلى أية

---

(١) كان الحزب الوطنى الذى اسسه الزعيم مصطفى باشا كامل لتحرير مصر من الاستعمار البريطانى ينادى بأنه لامفاوضة إلا بعد الجلاء، ليصرف جهود الشعب المصرى إلى العمل على إجلاء الانجليز بكل الوسائل

نتائج إيجابية. وقد بنوا تقديراتهم على أساس قناعتهم بأن مناحم بيجن لن يتزحزح قيد أنملة عن مواقفه المتصلبة.

وأن الرئيس كارتر ليس فى وضع يسمح له بممارسة ضغط فعال على إسرائيل وهو مقبل على الانتخابات النصفية للكونجرس. كما كان الفرنسيون مشفقين من التشتت والانقسام الذى حاق بالدول العربية منذ المبادرة. وقلقين من تردى الأوضاع فى إيران حيث كان مركز الشاه يتدهور بسرعة فائقة، وكانوا يخشون أن يركب الشيوعيون مد الثورة الإسلامية حتى سقوط نظامه، ثم يستولوا على مقاليد الأمور فى النهاية.

مشروع إطار السلام..

بعد ظهر اليوم التالى ٥ سبتمبر (أيلول) غادرنا باريس متجهين إلى الولايات المتحدة – وقد تخلفت عائلة الرئيس فى باريس – وفى الطائرة أطلعت لأول مرة على مشروع إطار السلام بعد أن انتهى إعداده فى اللحظة الأخيرة وكان عنوان المشروع «إطار التسوية السلمية الشاملة لمشكلة الشرق الأوسط[1]» ويبدأ بديباجة تتضمن فلسفة وأسس السلام، ويلى ذلك تسع مواد :

المادة الأولى: تتضمن تصميم الأطراف على التوصل لتسوية شاملة بتوقيع معاهدات السلام على أساس التنفيذ الكامل للقرارين ٢٤٢، ٣٣٨ بجميع أجزائهما.

المادة الثانية: إن إقامة السلام تستلزم الوفاء بما يلى :

أولا: انسحاب إسرائيل من الأراضى المحتلة طبقا لمبدأ عدم جواز الاستيلاء على الأرض بطريق الحرب. يتم الانسحاب من سيناء والجولان إلى الحدود الدولية. ومن الضفة إلى خطوط الهدنة الأردنية الإسرائيلية فى سنة ١٩٤٩ .. وإذا اتفق على تعديلات طفيفة فيجب ألا تعكس ثقل الغزو .. وتطبق إجراءات الأمن فى الضفة بهدف التجاوب مع تطلع الطرفين إلى تحقيق أمنهما والحفاظ على حقوق وأمانى الشعب الفلسطينى.

يتم الانسحاب من غزة إلى خطوط الهدنة المصرية الإسرائيلية فى سنة ١٩٤٩.

(١) النص الكامل للمشروع – راجع الملحق رقم (٣) صفحة رقم ٥١٨.

ثانيا: إزالة المستوطنات الإسرائيلية فى الأراضى المحتلة وفقا لجدول زمنى.

ثالثا: ترتيبات الأمن وتشمل النقاط الست السابق ذكرها فى المشروع المصرى الخاص بالضفة الغربية وغزة (المقدم فى ليدن) وقد أضيف إليها ترتيب جديد هو وجوب انضمام جميع الأطراف إلى معاهدة منع انتشار الأسلحة النووية وتعهدهم بعدم إنتاجها أو حيازتها - ومما يذكر أن مصر كانت قد وقعت على هذه المعاهدة بينما كانت إسرائيل ترفض الانضمام إليها ومازالت حتى الآن.

رابعا: تعهد الأطراف بحل ما يثور من منازعات بينهم بالطرق السلمية. ويقبلون الاحتكام إلى الاختصاص الإلزامى لمحكمة العدل الدولية بالنسبة للمنازعات الناجمة عن تفسير إطار السلام.

خامسا: إلغاء الحكومة العسكرية الإسرائيلية فى الضفة وغزة وانتقال السلطة إلى الجانب العربى على نحو سلمى منظم. وتكون هناك فترة انتقالية لا تتجاوز خمس سنوات يتولى الأردن الإشراف على إدارة الضفة ومصر الإشراف عليها فى غزة، وذلك بالتعاون مع ممثلى الشعب الفلسطينى المنتخبين انتخابا حرا والذين يمارسون السلطة المباشرة فور إلغاء الحكومة العسكرية الإسرائيلية، ويمارس الشعب الفلسطينى حقه الأساسى فى تقرير مصيره. وسوف توصى مصر والأردن بأن يكون الكيان الوطنى الفلسطينى مرتبطا بالأردن. وتمكين اللاجئين الفلسطينيين من ممارسة حقهم فى العودة أو التعويض وفقا لقرارات الأمم المتحدة.

سادسا: تنسحب إسرائيل من القدس إلى خط هدنة ١٩٤٩ وتعود السيادة والإدارة العربية إلى القدس العربية. ويشكل مجلس بلدى مشترك للمدينة من عدد متساو من الأعضاء الفلسطينيين والإسرائيليين للإشراف على المرافق العامة والنقل والمرور والخدمات البريدية والهاتفية والسياحة فى المدينة.

ويتعهد الأطراف بضمان حرية العبادة وحرية الوصول إلى الأماكن المقدسة وزيارتها دون أى تفرقة أو تمييز.

سابعا: بالتوازى الزمنى مع تنفيذ النصوص المتعلقة بالانسحاب سوف يمضى الأطراف إلى إقامة العلاقات التى تقوم عادة بين الدول التى هى فى حالة سلام، ويشمل ذلك الاعتراف الكامل، إنهاء المقاطعة العربية، حرية المرور فى قناة السويس.

ثامنا: تتعهد إسرائيل بدفع تعويضات شاملة عن الأعمال التى قامت بها قواتها المسلحة ضد السكان والمنشآت المدنية واستغلالها للموارد الطبيعية فى الأرض المحتلة.

المادة الثالثة: بمجرد توقيع هذا الإطار الذى يعتبر كلا متوازنا ومتكاملا .. تكون الأطراف الأخرى مدعوة للانضمام إليه فى إطار مؤتمر جنيف للسلام.

المادة الرابعة: سوف يشترك ممثلو الشعب الفلسطينى فى محادثات السلام التى تجرى بعد توقيع هذا الإطار.

المادة الخامسة: تشترك الولايات المتحدة فى المحادثات المتعلقة بكيفية تنفيذ الاتفاقيات والتوصل إلى الجدول الزمنى المحدد لتنفيذ التزامات الأطراف.

المادة السادسة: تبرم معاهدات السلام فى خلال ثلاثة أشهر من توقيع هذا الإطار.

وتتضمن المواد : السابعة والثامنة والتاسعة : مطالبة مجلس الأمن بضمان معاهدات السلام واحترام أحكامها، وبضمان الحدود بين الدول الأطراف. وكذلك ضمان الأعضاء الدائمين فى مجلس الأمن. وضمان الولايات المتحدة لتنفيذ الإطار والمعاهدات التى توقع وفقا له تنفيذا كاملا وبحسن نية .

ولا «سنت» واحد ..

وما إن انتهيت من دراسة المشروع حتى توجهت إلى صالون الرئيس ووجدته وحده، فجلست «وسألنى هل قرأت المشروع»؟« فقلت » نعم وهو ممتاز جدا فهو متكامل وكل حكم وكل كلمة فيه تستند إلى القانون والمنطق والشرعية ويمكن الدفاع عنها وعرضها بكل قوة وإقناع.

ولكن رأيى مازال هو عدم تقديم المشروع فى المرحلة الأولى حتى نستكشف موقف الرئيس كارتر ومدى استعداده للتحرك وحتى نفضح موقف بيجن الذى لن يتغير فى رأيى وسيظل على تشدده وتعنته « فقال » ولماذا اللف والدوران طالما أنك تقول إن المشروع قوى ويمكن الدفاع عنه؟ سأطرح المشروع منذ البداية على كارتر وبيجن والمسألة تتوقف فى النهاية على هل الرئيس كارتر مستعد فعلا ليقوم بدور الشريك الكامل الذى وافق عليه وممارسة الضغط على بيجن أم لا؟ فإن لم يكن الأمر كذلك فلماذا نضيع الوقت سدى؟ سأحزم حقائبى وأعود إلى مصر لأعد نفسى للخطوة التالية ».

وشعرت بالارتياح لكلامه فقد كنت أتوجس خيفة من إطالة أمد التفاوض، إذ لم يكن الغرض منه فى رأيى – مع وضوح المواقف وثباتها – إلا مصيدة للتنازلات وبينما يتمسك بيجن بالتصلب والعناد، وهو فى مركز مريح بحكم وضع يده على الأراضى المحتلة، فلم يكن الحال كذلك بالنسبة للسادات الذى كان عرضة للتقلبات ونفاد الصبر والذى كان يعتريه القلق بسبب الجمود الذى أصاب مبادرته، وقلت «إنى أتفق معك فى هذا، وكل ما هناك أننا نحتاج إلى إخراج جيد حتى لا يحملنا الرئيس كارتر مسؤولية الفشل التى يجب أن نحملها لبيجن». فقال «لقد أخبرنى فانس أن كارتر مستعد للذهاب إلى آخر المدى ولو أدى الأمر إلى عدم تجديد انتخابه لفترة تالية، وهو مقتنع بأنه لو نجح فى تحقيق السلام فسيكون بطلا عالميا بكل المعايير».

وساد السكون برهة ثم قلت «إذا عرضت مشروعنا فى البداية فيجب التمسك بكل أحكامه بكل قوة وعدم قبول إجراء أى تعديل، إلا إذا عدل بيجن مواقفه وليس فى هذا ما يغضب الرئيس كارتر، فإذا كان مناحم بيجن يتمسك بكل فاصلة وكل نقطة فى مشروعيه اللذين قدمهما فى الإسماعيلية رغم عدم معقولية أو شرعية أو عدالة هذين المشروعين، فمن حقنا التشبث بدورنا بمواقفنا ومشروعنا، من باب أولى لأنها مبنية على الشرعية الدولية وعلى قرارات الأمم المتحدة وعلى الحقوق الثابتة.

وإذا اقتضى الأمر فى النهاية إجراء بعض تنازلات غير أساسية فى مواقفنا فيمكن أن نفعل هذا، وعلى سبيل المثال يمكن التساهل فى قيمة التعويضات التى نطالب بها إسرائيل لاستغلالها غير المشروع لثروات سيناء المعدنية طوال سنوات الاحتلال » وقال

الرئيس « أبدا ولا سنت واحـد. لابد أن أحـصـل على تعـويض عن كل قطرة بتـرول سـرقوها من أراضينا أو مياهنا الإقليميـة[1].« .. وقلت »إن مدة المؤتمر طويلة وستكون معركة أعصـاب مضنية « وقال الرئيس » بل لنضع أعصـابنا فى ثلاجة وماذا نخشى؟ إن زمام الموقف بأيدينا، وفى طريق عودتنا سوف نمر على المغرب لقضاء يوم أو يومين للراحـة»، وقلت : «بل أرى أن نذهب إلى السـعـودية. قـال : ولماذا السـعـودية؟» قلت : «لنحيط الملك خالد والأمير فهد بنتائج ما توصلنا إليه، فإن كنا نجـحنا فى تحقيق تقدم فـيمكن دعـوة الملك حسين للحـاق بنا فى السـعـودية، وإن لم نكن، يكون قـد آن الأوان لنتشاور مع السعودية حتى يبادروا بالإعداد لمؤتمر القمة العربى». وحول الرئيس وجهه إلى شباك الطائرة وأخذ يرقب بحر السحب الذى نطير فوقه ولم يتكلم.

وعدت إلى مقعدى وضغطت على المفتاح الذى يحرك ظهره إلى الوراء واستغرقت فى ذكريات بعيدة عادت بى إلى أيام الطفولة وسنوات الشباب .. كم كانت الحياة مرحة جميلة وكم جرت السنون، ولم ألبث أن استسلمت للنوم، ولم أفق إلا على صوت مضيفة الطائرة تدعونا إلى الامتناع عن التدخين وربط أحزمة الأمان، وتعلن عن هبوط الطائرة خلال دقائق فى قاعدة أندروز الجوية.

فى معزل عن العالم ..

وفتح باب الطائرة ودخلها الدكتور أشرف غربال سفيرنا فى واشنطن بصحبة مسز دويل مديرة المراسم بالخارجية الأمريكية. ثم تبعنا الرئيس السادات وهو ينزل من الطائرة إلى بساط أحمر وقد اصطف طابور شرف يمثل قوات من الجيش والطيران والبحرية. وتقدم من الرئيس والتر مونديل نائب الرئيس الأمريكى وسيروس فانس للترحيب به ثم عزفت موسيقى البحرية السلام الجمهورى المصرى، فالسلام الوطنى الأمريكى، وألقى المستر مونديل كلمة قال فيها «بالنيابة عن الرئيس كارتر والشعب الأمريكى نرحب بك ثانية فى الولايات المتحدة بقلوب مخلصة، وإن شعبنا يكن إعجابا بالغا لحكمتكم وشجاعتكم وحنكتكم السياسية ».

ورد الرئيس السادات بكلمة عبر فيها عن شكره للاستقبال الذى قوبل به وقال «إننا مهتمون بإقامة سلام عادل وشامل فى الشرق الأوسط، ولقد كنا نرى دائما أن الولايات

(١) لم تحصل مصر على «ولاسنت» من هذه التعويضات.

المتحدة هى الأكثر جدارة فى عملية السلام، لقد أتينا هنا فى مفترق طرق حاسم، والتحدى أمامنا هائل، ولكن ليس أمامنا فرصة غير قبول هذا التحدى لأننا لا نستطيع أن نخيب آمال العالم فى السلام ولا وقت لدينا الآن للمناورات ولا للأفكار البالية ..».

ثم صافح الرئيس طابور المستقبلين وكان يضم سفراء الدول العربية فى واشنطن التى لم نقطع علاقاتنا الدبلوماسية معها وأعضاء سفارتنا فى واشنطن وأعضاء وفدنا الدائم فى نيويورك، وحيا مجموعة من الطلبة المصريين حضرت لاستقباله، ثم ركبنا مع فانس طائرة الهليكوبتر وفى أقل من ساعة هبطت بنا داخل معسكر كامب ديفيد.

وبالقرب من مهبط الهليكوبتر كان يقف الرئيس كارتر وزوجته السيدة روزالين والمستر بريجنسكى مستشار الرئيس للأمن القومى والمستر هارولد سوندرز مساعد وزير الخارجية للشرق الأوسط والمستر ألفريد أثرتون والسفير الأمريكى فى القاهرة هيرمان أيلتس والسفير الأمريكى فى تل أبيب صاموئيل لويس والمستر وليام كوانت عضو مجلس الأمن القومى، وقد عانق الرئيس كارتر الرئيس السادات عند نزوله من الطائرة وبعد تبادل التحية بين المستقبلين والزوار اصطحب الرئيس كارتر وزوجته الرئيس السادات إلى «البانجلو» المخصص لاقامته خلال المؤتمر واسمه «دوجوود» DOGWOOD كما تم توزيع باقى أعضاء الوفد المصرى على الأماكن المخصصة لهم، وقد نزلت والدكتور بطرس غالى والسيد حسن كامل والسفير أشرف غربال فى «بانجلو» اسمه «مابل» MAPLE يقع على بعد ثلاثين مترا من «دوجوود» الذى كان يفصله عن «أسبن» ASPEN مقر الرئيس الأمريكى نفس المسافة وتقع المنازل الثلاثة على رؤوس مثلث متساوى الأضلاع تقريبا.

أما منزلنا فكان يحوى غرفتى نوم تضم كل منهما سريرين وملحق بها حمام ويتوسطها صالة معيشة كبيرة تحوى أثاثا بسيطا مريحا وفى وسطها مدفأة كبيرة وعلى الجانب المواجه لها شباك زجاجى بطول الحائط يطل على غابة صغيرة جميلة من أشجار «البرش» و «الصنوبر».

وقد اخترت الغرفة الداخلية وشاركنى فيها بطرس غالى، بينما نزل كل من حسن كامل وأشرف غربال فى الغرفة الثانية.

وبعد نصف ساعة حضر أحمد ماهر ومعه السكرتير الأول أحمد أبو الغيط الملحق بمكتبى – وهو من الشبان الذين يبشرون بكل خير – ودعيانى إلى الخروج، والمشى لاستكشاف أنحاء المعسكر، فتخلصت من البدلة التى كنت لا أزال أرتديها ولبست قميصا وبنطلونا و (بلوفرا) وخرجت معهما.

كان الخريف قد بدأ والهدوء يسيطر على المكان فيما عدا صوت النسيم وهو يحف بأغصان الأشجار وهمس أوراقها وهى تتساقط بتكاسل وقد تغير لونها من الأخضر إلى سيمفونية من الألوان العسلية والأرجوانية والبنية، وفى الجو لسعة من البرد المنعش الذى يحث على الحركة والنشاط، والسناجب تسعى على الأشجار بحثا عن الطعام تجمعه لمواجهة جدب الشتاء، وسرنا إلى حافة المعسكر التى تطل على واد فسيح ينتهى إلى سلسلة من الجبال المتوسطة تشكل على البعد حائطا يدفع إلى الكشف عما يخفيه وراءه .

وظللنا نمشى بين الغابات حتى وصلنا إلى مجموعة من المبانى الصغيرة تشكل محور نشاط المعسكر، وتضم إحداها قاعات مريحة للجلوس ومكتبة حافلة بالكتب وملحق بها قاعة طعام تتسع لنحو ثلاثين شخصا ومطبخ، وفى بناء آخر مواجه صالة صغيرة للسينما وقاعة للبلياردو وبعض الغرف المخصصة للاجتماعات وبعض المكاتب الإدارية، كذلك اكتشفنا ملاعب للتنس وحوض سباحة وساحة للنيشان على الأطباق الطائرة، وكانت هناك مجموعة كبيرة من الدراجات (البسكلت) لمن يريد التنقل بين أنحاء المعسكر أو لمن يريد التريض، كما كانت هناك عدة سيارات تعمل بالبطارية تسير بغير صوت ودون إحداث تلوث بالهواء.

وعدنا أدراجنا إلى مقر إقامتى، ولم يلبث أن حضر السفير أيلتس لزيارتى وأبلغنا أن الوفد الإسرائيلى برئاسة مناحم بيجن سيصل بعد ساعة وستغلق علينا بعد ذلك أبواب كامب ديفيد ونظل فى معزل عن العالم حتى ينتهى المؤتمر بشكل أو بآخر، وأنه قد أعد مركز لمراسلى الصحف والإذاعة والتليفزيون فى قرية قريبة من المعسكر، وسيكون المصدر الوحيد للمعلومات عما يجرى داخل أسوار كامب ديفيد هو ما ينقله جودى باول المتحدث باسم البيت الأبيض، حيث سيعقد بالمركز مؤتمرا صحفيا يوميا بشأن ما يجرى داخل المؤتمر من أنشطة، دون التعرض لموضوع المباحثات وتطوراتها من قريب أو بعيد.

وتوجهنا بعد ذلك إلى المطعم برفقة السفير أيلتس حيث التقينا بباقى أفراد الوفد المصرى وتناولنا طعاما شهيا، وكان الذى يعد الطعام ويقوم بالخدمة فى المطعم مجموعة من الشباب الفلبينيين وبعضهم من الطلبة الذين يدرسون فى الجامعات الأمريكية.

وذهبت بعد العشاء ومعى بطرس غالى وحسن كامل وأشرف غربال لزيارة الرئيس السادات فى «دوجوود » وكان فى حجم المنزل الذى ننزل فيه، وان اختلف عنه فى أنه كان أكثر ارتفاعا منه ويقتضى الأمر الصعود إليه بسلم خشبى نحو عشر درجات، وكان أثاثه أكثر أناقة ويتصل بصالة المعيشة فيه تراس خشبى تظلله شجرة كبيرة كان المكان المفضل لجلوس السادات خلال إقامتنا، وكثيرا ما تمت اجتماعات الوفد المصرى مع الرئيس فيه.

وقد كان السادات فى حالة معنوية طيبة وأخبرنا أنه قام بزيارة الرئيس كارتر للمجاملة، وأنه سيجتمع به على انفراد اجتماع عمل فى الساعة العاشرة من صباح اليوم التالى.

ودخلت سريرى ودخل بطرس غالى السرير المجاور، ولم نتكلم لبعض الوقت، ثم قلت «لقد دخلنا كامب ديفيد بسلام، ترى كيف سنخرج منه؟ هذا هو السؤال ». ولم يرد على بطرس لأنه كان قد دخل فى سبات عميق.

الفصل السادس والثلاثون

زئير الأسد وحكمة القرود

في صباح اليوم التالي اجتمع الرئيس السادات بالرئيس كارتر على انفراد في «أسبن» مقر إقامة الرئيس الأمريكي، ودام الاجتماع نحو ساعة، بعد عودته ذهبت وبطرس غالي لزيارته وكان في حالة معنوية طيبة فأخبرنا أنه شرح مشروعنا «إطار السلام» للرئيس كارتر الذي استمع إليه بتمعن دون تعليق، وأنه أوضح له أن المشروع يتضمن ترتيبات أمن تزيد عما تضمنه مشروعنا بشأن الضفة وغزة الذي عرضناه في «ليدز» وأنه يأمل ألا يثير بيجن العقبات.

وقد أخبره كارتر أنه سيلتقي برئيس الوزراء الإسرائيلي على انفراد ثم يجتمع ثلاثتهم بعد الظهر، كما عبر كارتر عن أهمية مؤتمر كامب ديفيد وقال إنه إذا فشل المؤتمر، فقد يعني ذلك انعدام الأمل في استئناف المفاوضات المباشرة من جديد، مما سيعقد الأمور ويضيع فرصة فريدة لتحقيق التسوية بالإضافة إلى أن هذا الفشل سيؤثر على مركزه الحالي وعلى مستقبله السياسي.

ورد عليه السادات بأنه إذا فشل المؤتمر فلن يكون هو السبب في فشله وإنما بيجن إذا استمر في تشدده وتعنته، ودعانا السادات إلى أن نتمشى معه قليلا ليتعرف على المنطقة المحيطة وقال لنا «تصوروا أن الرئيس كارتر الساذج المسكين أخبرني أنه يخشى أن يموت الأسد (الرئيس السوري) لأن ذلك سيكون مصيبة كبيرة» وكانت قد

راجت فى ذلك الوقت شائعات بأن الرئيس السورى يعانى من سرطان فى الحلق وأن حالته خطيرة.

وفى الطريق قابلنا بيجن راكبا إحدى السيارات الكهربائية فأوقفها ونزل منها وصافح الرئيس متمنيا أن يكون فى صحة طيبة، كما صافحنى وقال «كيف حالك ياسيادة الوزير؟» ثم عانق بطرس غالى وقال للرئيس «إن بيتر صديقى وقد طلب منى عندما قابلته أثناء زيارتك الشهيرة للقدس أن أناديه باسم (بيتر)» ثم حيانا وركب سيارته متجها إلى «أسبن» وبعد فترة رافقنا الرئيس حتى باب منزله وانصرفنا.

وفى قاعة الطعام قابلنا لأول مرة أعضاء الوفد الإسرائيلى وكانوا يجلسون حول مائدة مستديرة يتناولون طعامهم يتوسطهم بيجن وزوجته - والذى استمر يتناول طعامه فى المطعم طوال فترة المؤتمر على خلاف الرئيس السادات الذى لم يزره على الاطلاق وكان يتناول طعامه وحيدا فى مقر إقامته - وكان يبدو على الإسرائيليين المرح وقد حييناهم من بعيد وجلسنا حول مائدتنا، بينما ترك وايزمان مكانه وجاء إلينا وصافحنا ثم جلس معنا برهة أعرب فيها عن تمنياته بنجاح المؤتمر ثم عاد إلى مائدته.

وفى المساء، وقبل توجهنا إلى المطعم لتناول العشاء، مررنا على الرئيس السادات الذى كان يشاهد إحدى حلقات المسلسل التليفزيونى المعروف «جذور» ROOTS وأخبرنا أنه قرأ مشروعنا على كارتر وبيجن وسلم الأخير نسخة منه، واتفق الثلاثة على العدول عن فكرة الاتفاق على إعلان مبادىء وأن يكون هدف المباحثات فى كامب ديفيد هو التوصل إلى إطار للتسوية السلمية الشاملة، يتيح للأطراف العربية الأخرى الدخول فى مفاوضات على أساسه.

كما اتفق على أن يجتمع الثلاثة من جديد فى اليوم التالى بعد أن يكون بيجن قد درس المشروع ليبدى ملاحظاته وآرائه بشأن ما يتضمنه. وعند دخولنا قاعة الطعام كان الإسرائيليون جالسين حول مائدتهم، إلا أن جو المرح الذى كان يحيط بهم أثناء الغداء كان قد فارقهم وحل محله جو من العبوس والجدية. فقلنا لابد وأن هناك ما يقلقهم، فانتقل المرح إلى مائدتنا.

وربما كان ما عكر صفوهم هو اطلاعهم على المشروع المصرى، ومن يراجع ما كتبه كل من بيجن، وديان، ووايزمان، عما دار فى اجتماع الوفد الإسرائيلى بعد أن عاد

إليهم بيجن من الاجتماع الثلاثى حاملا معه صورة المشروع المصرى بإطار السلام لا يسعه - إن كان منصفا - إلا التعجب. فكأن المشروع المصرى هو غاية الكفر والإلحاد. وكأنه يرمى إلى اقتلاع أظافر إسرائيل من أصابعها. وكأنه قمة الصفاقة، والوقاحة، والتخريف. فى حين أن ما عالجه المشروع المصرى لا يعدو أن يكون تطبيقا أمينا وموضوعيا لأحكام قرار مجلس الأمن ٢٤٢ الذى ارتضاه المجتمع الدولى، ووافقت عليه إسرائيل نفسها والذى من شأنه عودة الحقوق إلى أصحابها، وأن تنعم إسرائيل مع باقى دول المنطقة بالأمن والسلام مما يفتح أمامهم جميعا أبواب السعادة والتقدم والرخاء.

ولا تفسير لذلك فى رأيى إلا أن الإسرائيليين يتشبثون بذلك الاعتقاد الواهم العنصرى الذى يسيطر على فكرهم ويحكم تصرفاتهم بأنهم شعب الله المختار، وبالتالى فإن شهواتهم وأنانيتهم وشرورهم هى أمور تعلو وتسمو على حقوق من ليس منهم أيا كانت شرعية هذه الحقوق وعدالتها، فليس ذلك من شأنهم ولا هو يستأهل لحظة تفكير أو تأمل من جانبهم، وأتحفظ وأقول إننى لا أعمم وإنما أقصد أن مثل هذا الفكر هو الذى يوجه الطغمة الإسرائيلية الحاكمة وعلى رأسهم مناحم بيجن.

ملاحظات أمريكية ..

فى اليوم التالى ٧ سبتمبر (أيلول) اتصل بى سيروس فانس وطلب أن أقابله فى التراس الملحق بمبنى قاعة الاجتماعات فى الساعة الحادية عشرة، وذهبت مع أحمد ماهر فى الوقت المحدد ولم يلبث أن حضر فانس وكان يصحبه والتر مونديل نائب الرئيس الأمريكى، وقال فانس إنه اطلع على مشروعنا «إطار السلام» وإنه يود مناقشة بعض النقاط وإبداء بعض الملاحظات الأولية عليه.

والنقطة الأولى تتعلق بالبند الثانى من المادة الثانية والتى تنص على «إزالة المستوطنات الإسرائيلية فى الأراضى المحتلة طبقا لجدول زمنى يتفق عليه خلال الفترة المشار إليها فى المادة السادسة[1]»، وقال فانس إن الموقف واضح بالنسبة للمستعمرات الإسرائيلية فى سيناء، وإنهم يتفقون معنا فى وجوب إزالتها، أما المستوطنات فى

(١) تنص المادة السادسة على (تبرم معاهدات السلام خلال ثلاثة اشهر من تاريخ توقيع الأطراف المعنية لهذا « الإطار » إيذانا ببدء عملية السلام وانطلاق ديناميكية السلام والتعايش).

الضفة وغزة فإزالتها مشكلة كبرى، ولن يمكن التوصل بأى حال إلى موافقة إسرائيل على ذلك لأن ذلك يهدد أمنها.

وكنت أعلم بالطبع باستحالة قبول إسرائيل لذلك، ولكنى قلت «إن هذه المستعمرات تشكل تعديا غير مشروع على الأراضى العربية المحتلة، وأنتم أنفسكم تقرون بعدم مشروعيتها وبأنها عقبة فى سبيل السلام، فكيف نطمع فى قيام سلام وهذا العدوان المجسد على الأراضى العربية قائم دون إزالة؟ إما أننا سنتوصل إلى تحقيق سلام حقيقى دون مشاكل تطيح به أو أننا لننجح فى تحقيق السلام على الإطلاق!!».

ودارت مناقشة تمسكت بموقفى خلالها إلى أن قال مونديل «ما رأيك هل توافق على تجميد المستوطنات القائمة فى الضفة وغزة؟» وانتهى الأمر بأن عرضوا النقاط التالية :

(١) تجميد المستوطنات لمدة خمس سنوات.

(٢) تحويل بعض المستوطنات المدنية إلى معسكرات فيما لو أتفق على بقاء القوات الإسرائيلية فى معسكرات محددة خلال الفترة الانتقالية.

(٣) إجراء مفاوضات خلال الفترة الانتقالية تشترك فيها الأردن والفلسطينيون تتناول مستقبل المستوطنات.

وانتهيت إلى أن قلت «إنى شخصيا موافق مبدئيا على التجميد لمدة السنوات الخمس، مع التحفظ بعرض الأمر على الرئيس بعد بحثها مع باقى أعضاء الوفد المصرى. وبشرط أن يشمل التجميد عدم توسيع رقعة المستعمرات القائمة أو إنشاء مستوطنات جديدة بالطبع».

وفى قرارة نفسى كنت سعيدا بهذا الحل، خاصة وقد جاء اقتراحه من قبل الجانب الأمريكى، ثم أبدى فانس الملاحظات التالية :

١- أنه فيما يتعلق بالقدس لا يشير المشروع المصرى إلى عدم تجزئة المدينة UNDIVID-ED CITY

٢- فترة الأشهر الثلاثة الواردة فى المادة الثالثة يحسن أن يذكر بدلها «بدون إبطاء PROMPTLY ».

٣- سأل هل الاختصاص الإلزامى لمحكمة العدل الدولية - المشار إليه فى البند رابعا من المادة الثانية - له سوابق؟

٤- كما رأى أنه يحسن إلغاء البند ثامنا من المادة الثانية بشأن تعهد إسرائيل بدفع تعويضات عن الأضرار التى سببتها للسكان والمنشآت المدنية، واستغلالها لثروات الأراضى المحتلة باعتبار أنه قد يثير مشاكل.

٥- وقال إنه يقترح كذلك إلغاء المادة التاسعة لأن المادة الثامنة تغطيها.

٦- واقترح أن يكون التعبير الخاص بقيام أمريكا بعمل شىء هو «ستدعى الولايات المتحدة THE U.S. SHALL BE INVITED ». وقد وعدته ببحث هذه الملاحظات والرد عليه.

وشعرت وأحمد ماهر بالارتياح وبالتفاؤل إزاء الموقف الأمريكى، فإذا كانت هذه ملاحظاتهم الأولية على المشروع المصرى «فعلى العين والرأس» فذلك يعنى بمفهوم المخالفة أنهم يوافقون على الأساسيات فى مشروعنا فيما عدا موضوع إزالة المستوطنات فى الضفة الغربية وغزة، ومع ذلك، فقد تقدموا بحل عملى من شأنه وضع حد لانتشار خطر الاستعمار الاستيطانى السرطانى فى أنحاء الضفة الغربية وقطاع غزة، وهو التطبيق العملى للمخطط الإسرائيلى الذى يستهدف ضم ما تبقى من الأراضى الفلسطينية إلى إسرائيل.

هل أبدو بهذه السذاجة ؟

وبعد عودة الرئيس السادات من اجتماعه الثانى بالرئيس كارتر ومناحم بيجن، توجهت مع التهامى وحسن كامل وبطرس غالى وأشرف غربال وأسامة الباز إلى مقر إقامته وجلسنا معه فى التراس الخشبى. وقد حكى لنا أنه دارت بينه وبين بيجن مناقشة عنيفة حول المستوطنات الإسرائيلية فى سيناء، عندما أعلن بيجن أنه لن يتخلى عن هذه المستوطنات بأى حال، وأن المسألة ليست مجرد رغبة أو نزوة فى الاحتفاظ بهذه المستوطنات للذكرى وإنما لأنها تشكل حزام أمن يحمى إسرائيل من الهجمات عليها وأنه لا الحكومة ولا المعارضة الإسرائيلية تستطيع بحال الموافقة على إخلاء هذه المستوطنات، فأمن إسرائيل مقدس وحيوى بالنسبة للجميع، وذكر بيجن أنه يمكن التوصل إلى الصيغة المناسبة للإبقاء على تلك المستوطنات بما يرضى الرئيس ويقنعه بأن بقاءها لا يتعارض إطلاقا مع السيادة المصرية على سيناء التى ستعود كاملة إلى مصر، كأن توضع المستعمرات تحت إشراف الأمم المتحدة مثلا.

وقد رفض السادات كل ذلك تماما وقال «إن أرضنا مقدسة»، وأنه لا هو ولا الشعب المصرى يقبل بقاء مستوطنة واحدة أو مستوطن أو جندى إسرائيلى على أراضينا، وأنه لن يوقع على أى اتفاق ما لم تخل هذه المستوطنات جميعا.

وبالنسبة للضفة الغربية وغزة قال السادات إنه تصدى لكل حجج بيجن ومن بينها أن من شأن الموافقة على ما ورد فى المشروع المصرى أن تقوم دولة فلسطينية إرهابية، وهو ما يشكل خطرا قاتلا بالنسبة لهم، وأن ذلك يتعارض مع ما سبق أن أبلغه به الرئيس كارتر والرئيس السادات نفسه من أنهما لا يؤيدان قيام دولة فلسطينية مستقلة، وقد رد عليه السادات بأن ذلك صحيح ولكن ما يشير إليه مشروع إطار السلام، هو قيام دولة فلسطينية مرتبطة بالأردن وليست مستقلة، فضلا عن أنه يمكن أن تكون هذه الدولة منزوعة السلاح، وقال السادات إن بيجن رفض كل ما ورد فى مشروعنا بشأن الضفة الغربية وغزة، وأن السادات رد عليه بأنه لن تكون هناك تسوية بدون حل القضية الفلسطينية، وأنه لذلك يعلن أمام الرئيس كارتر وبيجن أنه لن يوقع على أى اتفاق بشأن سيناء قبل التوصل إلى اتفاق حول الضفة الغربية وقطاع غزة.

وأخبرنا السادات أن الرئيس كارتر قد طلب منه بعد انصراف بيجن عقد اجتماع ثنائى أمريكى مصرى برئاستهما على ألا يزيد عدد معاونى كل منهما على ثلاثة أعضاء، واتفق على أن يبدأ الاجتماع بعد نهاية عرض رجال البحرية الأمريكية الذى سيقام فى المساء.

وطلب السادات منى ومن التهامى وبطرس غالى أن نحضر الاجتماع معه، وقال السادات وهو يودعنا عند انصرافنا بلهجة يشوبها الافتخار «كان نفسى تسمعوا الرئيس كارتر وهو يقول لى بعد انتهاء الاجتماع الثلاثى، لقد كنت تزأر مثل الأسد وأنت تقول لبيجن أمامى أنه لا أنا - أى السادات - ولا أنت - أى بيجن - ولا الملك حسين، يستطيع المطالبة بالسيادة على الضفة وغزة، التى هى من حق الشعب الفلسطينى وحده»، وقد راق هذا «التشبيه بالأسد» للسادات فكان كثيرا ما يردده فيما بعد هذه القصة للدلالة على شراسته وشدة بأسه فى التفاوض، وعلى ضراوته فى تمسكه بالدفاع عن حقوق الشعب الفلسطينى.

وبعد المغرب، توجه أعضاء الوفد لحضور عرض البحرية الأمريكية فى إحدى ساحات كامب ديفيد المكشوفة، وقد أعدت منصة خشبية صغيرة متدرجة لجلوسهم،

خص الصف الأول منها لرؤساء الوفود، فجلس الرئيس كارتر وعلى يمينه الرئيس السادات وعلى يساره رئيس الوزراء بيجن، وجلس معهم فى نفس الصف قادة معسكر كامب ديفيد، وجلس باقى الوفود فى الصفوف التالية.

وقد دعى لمشاهدة العرض رجال الصحافة والإذاعة والتليفزيون، فسمح لهم لأول مرة باجتياز أسوار كامب ديفيد المكهربة إلا أنهم لم يتمكنوا من الاتصال بالوفود، وأعدت لهم منصة على الجانب الآخر من الساحة. وبدأ رجال البحرية عروضهم التى أدوها فى غاية من الدقة والمهارة والانضباط، إلا أنى كنت أشاهدها وعقلى منصرف تماما إلى الاجتماع الثنائى الذى كنا سنعقده مع الجانب الأمريكى برئاسة كارتر والذى كنت أرجو وأعول على اكتشاف ما يدور فى فكره وتخطيطه.

وبعد انتهاء العرض غادر رجال الإعلام كامب ديفيد وتوجه أعضاء الوفود للحفلة التى أقيمت لهم فى الهواء الطلق بقصد إذابة الثلوج بين أعضاء الوفدين المصرى والإسرائيلى وإشاعة جو من الألفة بينهم، وقدمت المشروبات واللحوم المشوية والسلطات والحلويات وعزفت موسيقى البحرية بعض الألحان وراقص السفير نبيل العربى مسز روزالين كارتر، إلا أن الحفل كان يشوبه التحفظ ويفتقد البهجة، وحاول مائير روزن عضو الوفد الإسرائيلى - وسفير إسرائيل فى باريس فيما بعد - أن يقنعنى بأن احتفاظ إسرائيل بالمستوطنات فى سيناء لا يمس السيادة المصرية عليها بأى حال وقد ناقشته فى ذلك بعض الوقت، ولكنه استمر فى محاولته، فقلت له «هل أبدو لك حقا بهذه السذاجة؟»

أين زئير الأسد ؟

فى نحو الساعة الحادية عشرة مساء دعانى السفير أيلتس إلى ترك الحفل والتوجه مع التهامى وبطرس غالى للاشتراك فى الاجتماع المصرى الأمريكى، وقد التقى الجانبان فى إحدى غرف الاجتماعات الصغيرة بالمبنى المواجه لصالة الطعام، وجلس الرئيسان جنبا إلى جنب حول مائدة مستديرة يكسوها الجوخ الأخضر وتعلوها إضاءة قوية، وعلى شمال الرئيس كارتر جلس نائبه والتر مونديل ثم سيروس فانس ثم بريجنسكى، وعلى يمين الرئيس السادات جلس حسن التهامى ثم أنا ثم بطرس غالى.

وبدأ الرئيس كارتر الحديث بأن عبر من جديد عن شكره للرئيس السادات ولرئيس الوزراء الإسرائيلى على قبولهما التلقائى تلبية الدعوة للاجتماع الثلاثى فى كامب

ديفيد، وهو ما يتيح فرصة طيبة لكسر الجمود الذى أصاب المفاوضات وتحقيق تقدم على طريق السلام، ثم أشاد بمبادرة الرئيس بزيارة القدس وأثنى على شجاعته وحكمته وحنكته السياسية وبعد نظره وإصراره على تحقيق السلام، ثم انتقل بنفس الصوت والنبرات إلى امتداح مناحم بيجن بوصفه زعيما شجاعا وسياسيا محنكا ورجل سلام سارع بالتجاوب مع مبادرة الرئيس السادات التاريخية .. ونظرت إلى الرئيس السادات ولاحظت على الفور أنه تضايق وأصابه الامتعاض من جراء امتداح كارتر لبيجن ووضعه له على قدم المساواة معه.

وقال الرئيس السادات «إننى أنا الذى قمت بمبادرة السلام ولو كان بيجن راغبا فى تحقيق السلام حقا لكنا وصلنا إلى ذلك منذ مدة، ولم يكن هناك ما يدعو إلى وجودنا هناك الآن».

وأشعل الرئيس غليونه وشرع يدخن وينفث الدخان من أنفه وشخصت عيناه إلى الأمام دون أى تعبير.

وسمعت صوت حسن التهامى يصيح «يا صاحب السعادة » YOUR EXCELLEN-CY والتفت إليه الرئيس كارتر فقال «لقد قابلت موشى ديان وزير خارجية إسرائيل فى المغرب مرتين قبل المبادرة، وأبلغنى فى المقابلة الثانية أن رئيس وزرائه بيجن قد وافق على الانسحاب من الضفة الغربية وغزة والجولان وسيناء، وأنهم مستعدون لقبول كل شروطنا لتحقيق السلام، وكان ذلك فى حضور الملك الحسن الثانى، ولكن عندما سافرت مع الرئيس السادات إلى القدس فى نوفمبر (تشرين الثانى) قال لى أحد كبار أعضاء الدائرة المقربة SENIOR CIRCLE من بيجن لماذا حضرتم إلى القدس ؟ إننا سعداء بالأوضاع الراهنة وباحتلالنا للأراضى التى حررناها وليس من مصلحتنا السلام فى المرحلة الحالية».

وارتسمت تعبيرات متباينة على وجوه الحاضرين وقال الرئيس كارتر بشىء من البرود «إنه من الممكن دائما أن يقال إن أحد المقربين قال كذا أو كيت، ولكن هذا لا يصح التعويل عليه أو الاستناد إليه، ويمكن أن ينسب إلى «سين» (X) من الناس قولا أو رواية ويدعى أنه من الدائرة القريبة منى - بل ربما يكون منها فعلا - ولكن ما قاله قد يكون غير حقيقى أو محرفا».

وهناك اعتقاد شائع بأن الرئيس السادات يتصف بالمرونة بينما معاونوه المقربون يتصفون بالتشدد، وأن رئيس الوزراء بيجن يتصف بالتشدد بينما معاونوه المقربون يتصفون بالمرونة، وقد يكون ذلك صحيحا أو لا يكون، وعلى كل حال، فان كان صحيحا فهو يشكل توازنا مفيدا وطيبا، ولنعد الآن إلى موضوعنا الذى نجتمع من أجله، وألقى الرئيس الأمريكى نظرة على ورقة أمامه وقال «أريد أن أتحدث أولا عن سيناء ، ثم عن الضفة الغربية وغزة» وأردف قائلا .. إن المشكلة الرئيسية فى سيناء هى مشكلة المستوطنات والمطارات الإسرائيلية المقامة عليها، وهناك تعارض واضح بين موقفى مصر وإسرائيل من هذا الموضوع، فإن رئيس الوزراء الإسرائيلى يتصور أنه قد قدم تنازلات كبيرة فى سيناء حسبما جاء فى مشروعه المقدم فى الإسماعيلية، وهى تنازلات فى رأيه تزيد كثيرا عما قدمه حزب العمل الإسرائيلى فى الماضى. وبالنسبة لشرم الشيخ فإنه يرى ضرورة وجود قوات الأمم المتحدة بها، وأنه لا يجوز سحب هذه القوات إلا بموافقة الطرفين المصرى والإسرائيلى وكذلك بموافقة مجلس الأمن.

واستفسر نائب الرئيس مونديل عن الموقف إذا أمكن تسوية قضية المستوطنات فى سيناء، فهل سيتم التوصل إلى تسوية القضايا الأخرى؟

وقال وزير الخارجية فانس ، إنه لا يوجد أى أساس قانونى أو شرعى لبقاء المستوطنات فى سيناء، كما أن مقتضيات أمن إسرائيل لا تتطلب ذلك، وأضاف، إن ديان وايزمان أكثر استعدادا من بيجن لتسوية قضية المستوطنات، أما قضية المطارات الإسرائيلية فى سيناء فهى مشكلة عسكرية يمكن بحثها من جانب العسكريين، وأشار فانس إلى أن الوضع فى سيناء والجولان يختلف عنه تماما فى الضفة الغربية وغزة، حيث توجد حكومة مصرية لها حق السيادة على سيناء، كما توجد حكومة سورية تستطيع السيطرة على الجولان، أما الموقف فى الضفة الغربية وغزة فيختلف حيث لا توجد سلطة أو سيادة واضحة.

وقال بريجنسكى إن سيناء يجب أن تعود بالكامل إلى مصر، وإنه يقترح أن تتحول بعض المستوطنات الإسرائيلية فى سيناء إلى مراكز تدريب للجيش الأمريكى (وقد علمنا فيما بعد أن هذا الاقتراح كان بإيعاز من ديان وزير خارجية إسرائيل).

وتكلم الرئيس السادات باقتضاب فقال إن هناك موضوعين لا يمكن بحال من الأحوال التنازل عنهما وهما الأرض والسيادة، وبالنسبة للوضع فى سيناء فإنه يعتقد

أن إسرائيل ترفض التنازل عن المستوطنات المقامة فيها حتى لا يشكل ذلك سابقة تتم على أساسها المطالبة بتصفية المستوطنات الإسرائيلية التى أقيمت فى الجولان والضفة الغربية وغزة، أما بالنسبة لما اقترحه بريجنسكى من تحويل المستوطنات إلى مراكز تدريب للجيش الأمريكى فهو لا يوافق عليه لأن فيه ضررا بموقف أمريكا وكذلك ضررا بموقف مصر.

وعاد كارتر يمسك بزمام الحديث فقال : إنه إزاء الخلافات الجوهرية بين مصر وإسرائيل حول الضفة الغربية وغزة فإنه ينوى التقدم بمشروع أمريكى للتسوية يقوم على فكرة الحكم الذاتى، وأنه يمكن تأجيل القضايا الأساسية التى تتعلق بالسيادة على الضفة الغربية وغزة لمناقشتها فى نهاية الفترة الانتقالية، كما أن مشروع بيجن هو مشروع طيب لفترة انتقالية.

وبالنسبة للمستوطنات فإنه بالرغم من كونها غير شرعية، إلا أن هناك تفرقة بين الوضع بالنسبة لمستوطنات سيناء، والمستوطنات الأخرى فى الضفة الغربية وغزة، إذ تشعر إسرائيل بحاجتها الضرورية لهذه المستوطنات لاعتبارات أمنها، حيث أن وجودها يساعد على الحد بنسبة كبيرة من أعمال الإرهاب والتطرف التى تتعرض لها.

ثم قال الرئيس .. إنه إذا لم يمكن اشتراك الأردن فى أعمال الفترة الانتقالية، فإنه يأمل أن تشترك مصر فى أعمال هذه الفترة، وأن يكون لها وجود فى الضفة والقطاع.

وأضاف الرئيس الأمريكى أن مشروعه لن يخوض فى التفاصيل وسوف يكتفى بالخطوط العريضة للتسوية، حيث لا يحق لأحد الحديث باسم الفلسطينيين، وأن التوصل إلى حل ناقص أو جزئى – قد لا يرضى الأطراف الثلاثة – يعتبر أفضل من احتمال قطع أو توقف عملية السلام والعودة إلى مخاطر المواجهة العسكرية.

أما بالنسبة لموضوع الانسحاب وتحديد الحدود، فإنه يمكن التوصل إلى تفاهم على هذه النقطة، على أساس الصيغة التى اتفق عليها الرئيس السادات مع شيمون بيريز فى فيينا، والتى تقوم على المواءمة بين أمانى الفلسطينيين ومتطلبات أمن إسرائيل.

وأنهى كارتر عرضه لفلسفة مشروعه المرتقب قائلا إنه من الناحية العملية، إذا وافقت كل من مصر وإسرائيل وأمريكا على مثل هذا المشروع، فسوف يمكن النجاح فى تنفيذه، بسبب قوة تأثير الدول الثلاث معا، وإنه قد يظهر بعض الضيق والاعتراض

من جانب بعض الدول العربية الأخرى، إلا أن الجميع سيضطرون إلى المسير خلف الدول الثلاث.

وتكلم سيروس فانس فقال إنه يود اقتراح بعض الأفكار التوفيقية وهى أن يؤخذ مشروع الحكم الذاتى (الإسرائيلى) أساسا للتسوية، وأن تقوم مصر وإسرائيل والأردن والفلسطينيون بالمشاركة فى أعمال الفترة الانتقالية، وإن الولايات المتحدة ستحاول التفاهم مع إسرائيل على الوضع النهائى للضفة الغربية وغزة بعد نهاية الفترة الانتقالية.

وانتهى كلام الجانب الأمريكى، وحولت بصرى مع الحاضرين إلى الرئيس السادات لنستمع إلى رده على ما قاله كارتر وفانس وكلها أمور خطيرة تتطلب التصدى الفورى لها ومعالجتها فى المهد، إلا أن السادات كان - وكأنه لم يكن - شاخصا بعينيه إلى الأمام ينظر إلى لا شىء، ولم يحرك ساكنا أو ينطق بكلمة واحدة، ولا هو زأر كالأسد.

فكرة خطيرة بلا تعليق ..

شرعت على عجل أرتب أفكارى لأتكلم وقلبى يفيض مرارة بما قاله كارتر وبما لم يقله السادات، عندما قال الرئيس الأمريكى «أحب الآن أن استمع إلى الوزير كامل».

وبدأت أتكلم موجها الحديث إلى الرئيس كارتر وعرضت باختصار خلفية النزاع العربى الإسرائيلى ثم التطورات الأخيرة فى الشرق الأوسط، وأبرزت دور الرئيس السادات فى إبعاد الخبراء الروس من مصر وتقليص النفوذ السوفيتى فى المنطقة، ثم تكلمت عن حرب أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٧٣ التى هيأت الأرضية للتسوية السلمية بين العرب وإسرائيل وعودة العلاقات الدبلوماسية بين مصر والولايات المتحدة، ثم تولى الرئيس كارتر رئاسة الجمهورية بعد أن أكد بوضوح خلال حملته الانتخابية أن موضوع حقوق الإنسان سيكون من ركائز سياسته واهتماماته، وهو ما تفرع عنه بالتبعية تصريحاته «بحق الشعب الفلسطينى فى وطن قومى» وكان أول رئيس أمريكى يعلن ذلك ويعطى أولوية لحل مشكلة الشرق الأوسط التى بات استمرارها يهدد استقرار العالم السياسى والاقتصادى، مما شجع الرئيس السادات على قيامه بمبادرته وزيارة القدس، وأضفت .. إننا مقدرون وسعداء لمشاركة الولايات المتحدة فى المباحثات بكل ما لها من وزن وثقل، وما تعلنه دائما من التمسك بالمبادىء والقيم.

وأشرت إلى أن مواقفنا كانت إيجابية بناءة منذ البداية، وأننا عرضنا على إسرائيل كل ما يمكن من ترتيبات الأمن وضمانات السلام وعلاقات حسن الجوار، وكان ذلك أمام ممثلى الولايات المتحدة وعلى أيديهم. إلا أن إسرائيل لم تتجاوب معنا على الإطلاق وتشبثت بالتعنت وبالمستحيل، فنحن لا نستطيع، ولا نملك التنازل عن الأرض المحتلة، وإن حدث ذلك جدلا، فلن يحقق أمنا ولا سلاما ولا استقرارا، وها نحن لبينا دعوة الرئيس كارتر للاشتراك فى مؤتمر كامب ديفيد رغم يقيننا بسوء نية إسرائيل، اعتمادا على ثقتنا فيه كرجل مبادىء سيمارس دوره فى التأثير على إسرائيل واقناعها بكل ما يملك من وسائل ، بأن طريق السلام هو إعادة الأراضى والحقوق إلى أصحابها وقلت إنى لن أتكلم عن سيناء، وإنما أتكلم عن حل القضية الفلسطينية، التى هى جوهر النزاع ومفتاح السلام الشامل العادل الذى ننشده، ولقد استمعت باهتمام إلى أفكارهم بشأن المشروع الأمريكى الذى يعتزمون التقدم به، وأعترف بأمانة، بأنى قد صدمت بالاتجاه الذى يفكرون فى اختياره، والذى فى رأيى، يحيد عن الطريق المؤدى إلى التسوية الشاملة.

فقد فهمت أنكم ترون اتخاذ مشروع الحكم الذاتى الذى قدمه بيجن فى الإسماعيلية كأساس للتسوية، فى حين أن هذا المشروع مرفوض مصريا وعربيا تماما، كما أن بعض الأفكار التى طرحها الرئيس كارتر هى ترديد للدعاوى الإسرائيلية المغرضة، مثل تأجيل بحث السيادة على الضفة الغربية وغزة باعتبار أنها غير واضحة، فى حين أنه لا شبهة فى أن حق السيادة على هذه الأراضى هو للشعب الفلسطينى الذى عاش على تلك الأرض آلاف السنين بدون انقطاع، ثم جاء قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة الخاص بتقسيم فلسطين إلى دولة عربية ودولة يهودية، وحسم هذا الموضوع من الناحية القانونية، فأنشأ حق إسرائيل فى السيادة على الأراضى التى خصصت للدولة اليهودية، وأقر وأكد حق السيادة على الأراضى التى خصصت للشعب الفلسطينى ومنها الضفة وغزة، ولا أدرى لم لا تتخذون المشروع المصرى أساسا للتسوية وهو موضوعيا تنفيذ أمين للقرار ٢٤٢ الذى يحكم التسوية؟؟

وأقول، إننا نرفض اتخاذ المشروع الإسرائيلى أساسا للتسوية، ولكننا لا نصر على اتخاذ المشروع المصرى أساسا لها، وإنما الذى نصر عليه حقا ونرجوه، هو أن يعكس المشروع الأمريكى مواقف الولايات المتحدة الرسمية المعلنة بشأن حل النزاع، وهى

الانسحاب من الأراضى العربية المحتلة، مع إمكانية إجراء تعديلات طفيفة أو غير مؤثرة فى الضفة الغربية فقط إذا اتفق عليها، وعدم شرعية المستوطنات ، وحق اللاجئين الفلسطينيين فى العودة أو التعويض وعدم الاعتراف بضم القدس العربية إلى إسرائيل وأخيرا صيغة أسوان التى صاغها الرئيس كارتر بنفسه لحل القضية الفلسطينية.

وأضفت، إنى اختلف تماما مع الرئيس كارتر فى تصوره، أنه إذا توصلت مصر وإسرائيل وأمريكا إلى اتفاق على حل، ولو كان ناقصا أو جزئيا، فستضطر باقى الدول العربية إلى قبوله والسير وراءه، فهذا تصور قائم فى رأيى على تقدير غير سليم، والذى سيؤدى إليه مثل هذا الحل فى الواقع، هو عزل مصر ومزيد من الفرقة العربية وعدم الاستقرار فى المنطقة، مما يؤدى بدوره إلى زيادة حدة الاستقطاب فيها، وإتاحة الفرصة لعودة النفوذ السوفيتى إليها، فى حين أن الولايات المتحدة لو رمت بثقلها، وساعدت فى تحقيق تسوية عادلة للقضية الفلسطينية على أساس حقوق الشعب الفلسطينى المشروعة، فإن جميع الدول العربية بلا استثناء - معتدلة كانت أم راديكالية - ستتوجه إلى أمريكا بالشكر والعرفان، وسيعم السلام فى المنطقة لخير إسرائيل والعرب على السواء وينعكس كل ذلك على الأمن الدولى وعلى الاقتصاد العالمى.

وقال الرئيس كارتر «شكرا يا سيادة الوزير، سنفكر فيما قلت بعين الاعتبار، ولكنى أكرر إذا كانت مصر وإسرائيل والولايات المتحدة معا فى جانب واحد فلن تجرؤ قوة من خارج المنطقة أو من داخلها على التصدى لهم».

ونظرت فزعا إلى الرئيس السادات علّه يتدارك الأمر ويعلق على هذه الفكرة الخطيرة التى طرحها كارتر، ولكنه كان مازال سابحا فى ملكوته يشد على غليونه، أو لعله آثر الالتزام بحكمة القرود الصينية الثلاثة (أنا لا أرى ولا أسمع ولا أتكلم) وانتهى الاجتماع وخامرنى شعور بأن أمورا كثيرة تجرى فى الخفاء بين كارتر والسادات، وأن على أن أعد نفسى لمفاجآت الأرجح أنها ستكون غير سارة.

الفصل السابع والثلاثون

لعنة كيسنجر تنبعث من جديد

كانت الساعة قد جاوزت الواحدة بعد منتصف الليل عندما عدت مع بطرس غالى إلى غرفة نومنا بعد انتهاء الاجتماع واستبدلنا ملابس النوم بملابسنا، إلا أن النوم كان بعيدا عن جفوننا، وجلست على سريرى وجلس بطرس على سريره المقابل وشرعت فى الكلام أو بالأحرى فى التفكير بصوت عال. قلت إنى قلق للغاية مما حفلت به الأربع والعشرون ساعة الماضية، فها هو السادات قد قدم مشروعنا (إطار السلام) إلى كارتر وبيجن وناقشه معهما فى بداية المؤتمر. ورغم أنى نصحته بغير ذلك، إلا أن هذا هو حقه، ولا أستطيع أن أفرض عليه رأيى فقد أكون مخطئا. وفى روايته لنا أمس عما دار خلال اجتماعه مع كارتر وبيجن أعطانا الانطباع بأنه قد نجح أمام الرئيس الأمريكى فى التصدى لانتقادات بيجن للمشروع وفى الدفاع عنه. ولو أنى من واقع التجربة لا أعول على روايته تماما، فكثيرا ما كان السادات يغفل الإشارة إلى نقاط كثيرة، إما لأنه نسيها وإما لأنه يراها قليلة الأهمية أو لأنها لا تروق له، أو لأنه عجز عن حجة ما أو - وهو الأخطر - لأنه تورط فى بعض التنازلات لكارتر أو لبيجن أو لكليهما معا.

وها هو يبدو من حديث الرئيس كارتر فى الاجتماع أنه قد استبعد المشروع المصرى كأساس للتفاوض، وهو وإن لم يقل صراحة إلا أن المفهوم ضمنا من تصريحه بأنه قرر التقدم بمشروع أمريكى لمعالجة الهوة بين المواقف المصرية والمواقف

الإسرائيلية. ثم ها هو ذا كارتر يعرض علينا الأفكار التى تدور فى رأسهم حول مضمون المشروع الأمريكى وكلها تدور فى فلك التخطيط الإسرائيلى : تأجيل بحث القضايا الرئيسية كالسيادة على الضفة وغزة، التفرقة بين وضع المستوطنات فى سيناء وفى الأراضى المحتلة الأخرى، عدم الاكتراث بمشاركة الأردن فى المباحثات، جر مصر إلى تواجد - لم يحدد طبيعته - فى الضفة الغربية، عدم الخوض فى التفاصيل بدعوى عدم وجود من يحق له الحديث باسم الفلسطينيين، أن يتم الانسحاب وتحديد الحدود على أساس صيغة السادات - بيريز فى فيينا، فرض ما يتفق عليه على باقى الدول العربية ولو كان حلا ناقصا أو جزئيا.

ألم يجد كارتر مبدأ واحدا أو فكرة يقتبسها من المشروع المصرى؟

ثم ها هو فانس يتكلم على المكشوف ويقول إنهم يقترحون أن يكون مشروع بيجن للحكم الذاتى - الذى قدمه فى الإسماعيلية - هو أساس التسوية.

إن ما قاله كارتر وفانس يوحى بأن أمريكا ستقوم بدور الشريك الكامل لإسرائيل ضد مصر ، وليس بأن تقدم أفكارها الذاتية بما يتفق مع مسؤولياتها الدولية.

كل هذا يمكن تصوره ولكن اللغز والمصيبة والفضيحة هو موقف السادات، فهو يستمع إلى كل ذلك فلا يغضب ولا يزمجر ولا يعارض ولا يفند ولا يجادل ولا يشرح.

أين إذن وعده - أو وعيده - وهو يصيح فى وجهى على مسمع ومرأى من أعضاء مجلس الأمن القومى، بأنه سيقدم مشروعه فى بداية المؤتمر، فإن لم يقبل أساسا للتفاوض فسينسف المؤتمر ويعود إلى مصر فى خلال ثمان وأربعين ساعة؟ وهو ما عاد وكرره لى أثناء حديثى معه فى الطائرة وهى على قيد ساعات قليلة من كامب ديفيد، ثم يصل الأمر إلى حد أن يطرح الرئيس الأمريكى فى وضوح وبلا مواربة، فكرة عقد تحالف استراتيجى أمريكى إسرائيلى مصرى، فيخرس السادات ولا ينطق، ماذا دهاه؟ لقد كدت أموت خجلا وكمدا وقرفا وأنا أتابع هذه المأساة.

وقال بطرس غالى إنه يشاركنى مشاعرى وإنه فى دهشة من موقف السادات فى الاجتماع وربما كان شارد الذهن، أو متعبا ولم يع ما قاله الرئيس كارتر، فلقد كان يوما طويلا مجهدا. وربما قصد كارتر بما قاله اختبار مدى تصلبنا ، وطرح أفكارا لا يتبناها بالفعل ولكن ليستمع إلى رأينا وملاحظاتنا ويعدل فيها على أساسها، ولقد أحسنت فى ردك على كارتر وكنت موفقا ولابد أنه سيأخذ ما قلت بعين الاعتبار.

قلت ولكن ما قيمة كلامى فى ظل صمت الرئيس، أليس السكوت رضا؟

ثم ألم تلاحظ إشارة كارتر الماكرة عند رده على التهامى عندما قال إن الشائع هو أن الرئيس السادات معتدل بينما معاونوه متشددون، إنه يعنينا نحن، أتظن أن الرئيس كارتر سيعير كلامى الالتفات ويقدمه على كلام السادات، أو عدم كلام السادات؟ سيقول كارتر أن موقف الرئيس يجب موقف وزير خارجيته ولن يستطيع أحد أن يلومه على ذلك.

وقال بطرس غالى على كل حال فإن اجتماع اليوم كان للاستطلاع، وهم بسبيل الإعداد لمشروعهم وليس ما قالوه يمثل بالضرورة أفكارهم النهائية، ولن نعرف ما انتهوا إليه حتى يفرغوا من مشروعهم ويقدموه لنا، ونرى ما فيه فدع القلق حتى وقتها ولننم بعض الوقت فقد أوشك الفجر على البزوغ.

وقلت «معك حق، تصبح على خير». وأطفأت النور.

وكانت علاقتى ببطرس غالى طيبة للغاية وكنا نتفاهم على الكثير من المسائل ونصل إلى نفس الحلول أو إلى حلول متقاربة فى معظم الأحيان، ولكن الخلاف الرئيسى بيننا كان فى فهم كل منا لمهمته والواجب المنوط به، وعلاقة العمل بالرئيس السادات.. كان بطرس يؤمن بطاعة الرئيس وأن علينا أن ننفذ ما يقرره ونزين إخراجه وننمق صياغته فى القالب السياسى أو الدبلوماسى أو الاعلامى ونلتزم به، فالرئيس يرى من مركزه الشمولى ما لا نراه ويقرر ما ليس فى حسابنا أن نقدره، وإن جاز لنا اقتراح رأى أو فكرة على الرئيس - إذا كان مزاجه طيبا - فيجب ألا يتجاوز الأمر حد الاقتراح إلى الجدل أو المناقشة. وكنت أرى غير ذلك تماما، وأن واجبنا ومهمتنا تتعدى ذلك إلى النصح والمشورة وتبصيره فيما يقدم على اتخاذه من قرارات أو خطوات .. بما قد يشوبها من نقص أو عيب أو تجاوز أو خطر. فنحن وزراؤه ومستشاروه ونحن لا نعمل فى دائرته الخاصة أو أموره الشخصية، وإنما نعمل فى قضية مصيرية معقدة متشابكة لا يستطيع فرد مهما أوتى من طاقة ومقدرة وذكاء الاضطلاع بها وحده على الوجه الأمثل. ولا يعنى هذا فرض رأينا على رأيه فهو الرئيس والرأى الأخير له. فقط يكون قد ألم بما له وما عليه وأحاط بكل جوانبه وبمزاياه وبمثالبه وبعواقبه.

وما قصدت أن أخص بطرس بذلك، أو ألومه فهو فى هذا لا يختلف عن غالبية الوزراء ورجال الدولة المحيطين بالسادات، وإنما أثرت هذه النقطة لانعكاساتها على

عملنا فى كامب ديفيد. وأوضح فأقول إن الوفد الرسمى كان مكونا من الرئيس ومن حسن التهامى وحسن كامل وأنا وبطرس غالى وأسامة الباز. أما تهامى فالى جانب عدم تخصصه فى طبيعة ما نمارسه فقد كانت له آراء فريدة من نوعها لا أستطيع أنا ولا غيرى أن يرقى إلى مستوى فهمها بسهولة، وأما حسن كامل فهو بحكم اشتغاله مدة طويلة بالأمور البروتوكولية ثم بعد ذلك فى الأمور الادارية عندما عين مديرا للديوان الجمهورى، كان قد ابتعد عن قضية النزاع العربى الاسرائيلى بتعقيداتها وتطوراتها. إذن بقى من الوفد أنا وبطرس وأسامة، مما يجعل مسؤولياتنا مضاعفة، وأشهد أن أسامة الباز كانت له طريقته المرنة فى مساندة أرائى أمام الرئيس ولكن كانت له حدوده، ثم إنه كثيرا ما كان يتدارك بمهارة تصحيح ما يشوب آراء الرئيس عندما يكلفه بصياغتها.

أما فريق المستشارين والخبراء الممتازين من وزارة الخارجية الذى كان بمثابة غرفة العمليات للوفد فكانت صلته بنا وليس له اتصال مباشر بالرئيس إلا فى حالات خاصة.

وكان المعتاد أن أعضاء الوفد الرسمى يجتمعون بمشاركة فريق المستشارين لدراسة المواضيع والمواقف قبل الاجتماع بالرئيس، وغالبا ما كنا ننتهى بعد المناقشة إلى الاتفاق على رأى موحد، فاذا ما اجتمعنا بالرئيس بعد ذلك وكان له رأى مخالف لا نراه صوابا كان الأمر ينتهى إلى أن أبدو، وكأننى المعارض الوحيد لرأيه حيث ينحاز أغلب الأعضاء الآخرين لرأيه بالتأييد أو بالسكوت ولم يكن ذلك فى حد ذاته يضايقنى، وإنما كان يضايقنى أنهم لو أبدوا آراءهم لربما انتهى الرئيس إلى القرار الأفضل.

وأذكر أنه بعد انتهاء أحد اجتماعات الوفد مع الرئيس قال لى بطرس غالى ربما حرصا على «أرجوك يا محمد لا تناقش الرئيس فى حضور الوفد» فقلت «كيف؟ إن من واجبى ومن واجبك أنت وباقى الأعضاء مناقشته وإبداء آرائنا وملاحظتنا ولهذا أشركنا فى الوفد وإلا فما هى مهمتنا ؟» فقال «يحسن أن نقول له ما تريد أن تقوله وأنتما وحدكما فلقد لاحظت أنه يغضب عندما تكلمه أمامنا» فقلت «لا أعتقد أنه يغضب من سماع رأى قد يفيده أو ينوره دون أن يلزمه، وأنا أخاطبه دائما بالاحترام الواجب له كرئيس فاذا غضب بعد ذلك فهو حر».

ديناميكية المواقف..

فى صباح اليوم التالى كنت أتناول الافطار مع أحمد ماهر عندما حضر بريجنسكى مستشار الرئيس كارتر للأمن القومى وانضم إلينا وأثار موضوع تجميد المستوطنات الذى تم الاتفاق عليه بينى وبين مونديل وفانس، وقال إنه يوافق تماما على عدم إنشاء مستوطنات جديدة فى الضفة الغربية وغزة ولكن هناك مشكلة فيما يتعلق بالتجميد الأفقى للمستعمرات القائمة، فماذا يكون الحال لو رزقت أسرة من التى تعيش فى المستعمرات الحالية بطفل أو أكثر، هل لا يحق لها فى هذه الحالة إضافة غرفة لسكنهم لإيواء الأعضاء الجدد فى الأسرة ؟ وقلت إن المقصود هو عدم إنشاء مبان أو منشآت جديدة لاستقبال مستوطنين جدد.

وانتقل بعد ذلك إلى الحديث عن الأوضاع فى منطقة الشرق الأوسط فقال إن المنطقة مقبلة على مرحلة من الاضطرابات وأشار إلى ما حدث فى افغانستان، حيث استولى الشيوعيون على الحكم بعد الإطاحة بالنظام الملكى، وإلى تردى الموقف الداخلى فى إيران والذى يهدد مركز الشاه تهديدا حقيقيا، وإلى الوضع فى القرن الأفريقى، وقال إن الولايات المتحدة قلقة من هذه التطورات وتعمل على وقفها أو احتوائها، وأنها تعد نفسها للتصدى لها إذا فشلت فى ذلك، ومن ثم فهى معنية للغاية بالتوصل إلى تهدئة النزاع العربى الإسرائيلى عن طريق التوصل إلى تسوية بطريقة ما. وقلت لقد جئنا إلى هنا لهذا الغرض، وهذا ممكن لو مارست الولايات المتحدة ضغوطا كافية على إسرائيل للتخلى عن أطماعها التوسعية فى الأراضى العربية فقال بريجنسكى، إن هناك حدودا لما يستطيعون أن يقوموا به وأنه من الصعب التوصل إلى تحقيق التسوية دفعة واحدة، وعلينا التدرج خطوة خطوة وزمنيا حتى ننتهى إلى ذلك. وشرح نظريته فى ديناميكية المواقف DYNAMICS OF SITUATIONS وبقدر ما فهمتها فإن المواقف غير جامدة بل لها ديناميكية وقوة دفع تدفعها إلى التطور. وكل موقف يهيئ الظروف لموقف جديد يتداعى عنه مثل كرة الثلج التى تنحدر من على قمة تل، فهى تزداد حجما كلما تقدمت. ومن ثم فإن إنهاء الحكم العسكرى الإسرائيلى فى الضفة وغزة وممارسة الفلسطينيين للحكم الذاتى فيهما وتجميد المستوطنات الذى سيؤدى إلى وقف حركة الاستيطان الإسرائيلى، كل ذلك منطلقا إلى تطورات متتابعة تؤدى إلى أن يصل الفلسطينيون فى

النهاية إلى تحقيق حقوقهم المشروعة كاملة بما فى ذلك ممارستهم لحق تقرير مستقبلهم.

وقلت إنى لا أعارض نظريته كنظرية، ولسنا نعارض فترة انتقالية تؤدى فى نهايتها إلى ممارسة الشعب الفلسطينى لحقه فى تقرير مصيره وسيادته على أراضيه، ولكن ذلك يتطلب شرطا جوهريا وهو أن لا تكون إسرائيل فى خلال الفترة الانتقالية فى وضع يمكنها من الناحية الواقعية من الحيلولة دون تحقيق هذا الهدف.. وهذا ما لا يحققه مشروع بيجن للحكم الذاتى فى الضفة وغزة والذى أعربتم فى جلسة الأمس عن اتجاهكم لاختياره كأساس للتسوية، فمطامع إسرائيل فى ضم الضفة وغزة غير خافية بل هى واضحة ومعلنة، فيكفى تصريحات بيجن المتواترة على أنها أراض اسرائيلية محررة، وقيامهم منذ الاحتلال بتنفيذ مخطط استيطانى مؤداه ابتلاع الأراضى قطعة وراء قطعة. وإن كان هناك ثمة شك فى هدف إسرائيل هذا فى ضم الأراضى الذى تحاول ستره واخفاءه بحجة الأمن - والأمن يمكن تحقيقه بوسائل شتى - فإن هذا الشك يتلاشى تماما إزاء إعلان بيجن أنه طرف بين أطراف أخرى - الفلسطينيين والأردن - يحق له المطالبة بالسيادة على الضفة وغزة، فهو لا يستطيع أن يطالب بالسيادة مباشرة لأن ذلك يكون أمرا مفضوحا مرفوضا، فما هو سنده فى المطالبة بالسيادة ؟ ألا يمكن أن يعطيه احتلاله غير المشروع للأرض هذا السند ؟ فالسيادة هى من حق الشعب الفلسطينى صاحب الأرض بلا جدال. إذن فهو يعدل مطلبه إلى الاصرار على عدم البت فى موضوع السيادة على الضفة وغزة وبقائه معلقا - بالنسبة للجميع حتى نهاية فترة السنوات الخمس الانتقالية - وهو ما يقدر أنه سيكون قد توصل فى نهايتها إلى خلق واقع مادى مسيطر على تلك الأراضى تماما يتيح له ممارسة السيادةالفعلية دون حاجة إلى إعلان ذلك، ويكون قد قضى الأمر وتصبح بعد ذلك مطالبة الشعب الفلسطينى - والأردن إذا شاء - بالسيادة مجرد صرخات وصيحات فى الهواء لا تلبث أن تذروها الرياح.

ملامح الأفكار الأمريكية..

بعد الظهر عقدت جلسة بين الوفدين المصرى والأمريكى برئاسة وزيرى الخارجية وفى بداية الجلسة قال فانس إنهم دعونا إلى هذا الاجتماع ليناقشوا معنا بعض الأفكار التى تدور فى فكرهم ولم يتم صياغتها بعد حتى يتعرفوا على رأينا قبل صياغتها فى

المشروع الأمريكى الذى يعتزمون عرضه علينا غدا السبت أو يوم الأحد. وأضاف فانس أن الاطار العام لمشروعاتهم سيعتمد على الوثيقة المصرية «إطار السلام» وأنه يعتقد أنه سيكون مقبولا للرئيس السادات.

وشعرت أنا وزملائى المصريون بدفعة من التفاؤل تسرى فى نفوسنا بعد موجة التشاؤم التى عمتها من جراء ما قاله الرئيس كارتر فى اجتماع مساء الأمس، وقلت إن هذا كلام مشجع ويتمشى مع حقيقة تقارب الموقفين المصرى والأمريكى من أساسيات التسوية، فقد آثار ما قاله الرئيس كارتر أمس مخاوفنا حيث أعطانا الانطباع بأنه ينوى اتخاذ مشروع الحكم الذاتى الإسرائيلى أساسا للتسوية.

ورد فانس بأن هذا انطباع خاطىء فكل ما قاله الرئيس كارتر أنه يجد مزية (Merit) فى الحكم الذاتى التى وردت فى المشروع الإسرائيلى خلال الفترة الانتقالية، هذا لا يعنى أننا سنكرر ما تضمنه المشروع الإسرائيلى فى مقترحاتنا. قلت «إن مشروعنا الذى قدمناه فى ليدز يأخذ بفكرة الحكم الذاتى خلال الفترة الانتقالية» فقال فانس إن الموقف الأمريكى يختلف عن كل من الموقف المصرى والموقف الإسرائيلى فى هذه النقطة، فبينما المشروع المصرى يقصر دور السلطة المشرفة على الحكم الذاتى على الجانب العربى (مصر والأردن) خلال الفترة الانتقالية فإن المشروع الإسرائيلى يقصر السلطة التى ينبع منها الحكم الذاتى على إسرائيل وحدها، أما الموقف الأمريكى فيرى أن تكون السلطة المهيمنة على الإشراف على الحكم الذاتى والإجراءات التى ستتخذ خلال الفترة الانتقالية مشاركة بين مصر وإسرائيل والأردن. وأضاف فانس بأن الأفكار الأمريكية تستهدف حلا يميل إلى صالح العرب بوضوح.

وقال الدكتور بطرس غالى إن هدفنا هو وضع كل الضوابط التى لا تضع مصر فى موقف محرج، ولذلك يجب وضع الحد الأقصى للضمانات للفلسطينيين حتى لا تكون هناك مقارنات بين ما يسرى على سيناء وما يسرى على الضفة الغربية ويجب أن تكون مصر فى وضع تستطيع معه الدفاع عن الأفكار الأمريكية.

وأسجل هنا ملامح الأفكار الأمريكية بشأن التسوية الشاملة التى عرضها الجانب الأمريكى خلال هذا الاجتماع الذى شارك فيه إلى جانب فانس كل من بريجنسكى وسوندرز وأثرتون ووليام كوانت، ومن الجانب المصرى بطرس غالى وأشرف غربال وأسامة الباز وأحمد ماهر ونبيل العربى وعبد الرؤوف الريدى.

ولكنى أود قبل ذلك أن أشير إلى أن هذه الأفكار الأمريكية وإن لم تتلاق فى الكثير من النقاط مع المواقف المصرية، إلا أنها كانت تشكل قاعدة طيبة يمكن لنا البناء عليها وتطويرها. وفى يقينى أن الروح التى أوعزت للفريق الأمريكى - المشكل من رجال وزارة الخارجية الأمريكية - بهذه الأفكار كانت تحدوها النوايا الحسنة والرغبة الصادقة فى تحقيق تسوية عادلة شاملة، آخذة فى الاعتبار معقولية الموقف المصرى وعدالته واستناده إلى المبادىء والقرارات الدولية التى تحكم النزاع من ناحية، والحفاظ على المصالح الأمريكية الحيوية فى منطقة الشرق الأوسط من الناحية الثانية، دون أن يخل ذلك بأمن إسرائيل. إلا أن هذه الأفكار لم تلبث أن تحطمت وتناثرت وتشوهت عندما اصطدمت بالاصرار الإسرائيلى على التوسع من جانب، وتعارضت مع طموحات كارتر ونائبه مونديل بالنسبة لمستقبلها السياسى الشخصى من الجانب الآخر على ما سيبين.

وتتلخص الأفكار الأمريكية التى طرحت فى هذا الاجتماع فيما يلى :

- الموافقة على الديباجة التى نص عليها المشروع المصرى.
- أن يتم اتفاق بين مصر والأردن وإسرائيل حول المرحلة الانتقالية، وذلك فى الوقت الذى يسمح فيه للفلسطينيين بممارسة الحكم الذاتى خلال هذه المرحلة.
- الهدف الأمريكى من المؤتمر هو التوصل إلى إطار عام يشكل أساسا للتفاوض خلال المرحلة المقبلة.
- إن اتفاقيات السلام يجب أن تتم على أساس القرار رقم ٢٤٢.
- مازالوا يدرسون أسلوب انتهاء الفترة الانتقالية، ولكن من الواضح لهم أن الشعب الفلسطينى هو الذى سيقرر موقفه فى نهاية هذه الفترة، كما أن الفلسطينيين هم الذين سيوقعون معاهدة السلام فى نهايتها.
- لا تعالج الأفكار الأمريكية موضوع السيادة على الضفة الغربية وغزة. والموقف الأمريكى هو أن السيادة يتم بحثها فى نهاية الفترة الانتقالية، لأن هناك ادعاءات متضاربة على السيادة، وأن موضوع السيادة سيحسم من خلال عقد اتفاقيات السلام التى ستحدد العلاقات بين الأطراف فى نهاية السنوات الخمس.
- ستعالج صيغة أسوان حل القضية الفلسطينية بكاملها.

- وبالنسبة لحق الشعب الفلسطينى فى تقرير مصيره فإنه يمكن أن يرتكز على عدة اختيارات، منها مثلا قيام نظام فدرالى أو كونفدرالى مع الأردن.
- إن السيادة على الضفة الغربية والأردن لن تكون مطلقة، إذ لا شك أن من الاجراءات التى ستطبق عليها ما ينعكس على السيادة مثل إجراءات الأمن.
- إن الهدف الأمريكى حاليا هو إدخال تعديلات أساسية على الموقف، مما ينعكس على الوضع العام فى الشرق الأوسط بعد فترة قصيرة مما يؤثر على النتائج النهائية للفترة الانتقالية.
- إن أمريكا تتصور تحقيق ما يلى فى القريب من خلال إطار مقترحاتها:

أ - الاتفاق على انسحاب إسرائيلى كامل من سيناء.

ب - قيام سلطة فلسطينية فى الضفة الغربية والقطاع.

جـ- تجميد المستوطنات الإسرائيلية فى الضفة والقطاع.

د - عودة الأفراد والأسر الفلسطينية المقسمة إلى عائلاتها.

- إن المقترحات الأمريكية تهدف إلى خلق ظروف تدعم الوضع العربى وتحدد الوجود الإسرائيلى فى الأراضى العربية وتوقفه، ثم تؤدى إلى تقلصه وإن أمريكا لن تعمل على إرغام إسرائيل حاليا على التنازل عن ادعاءاتها فى السيادة، إلا أن الظروف فى نهاية الفترة الانتقالية ستؤدى إلى سقوط هذه الادعاءات.
- بالنسبة للمستوطنات فإنها يجب أن تصفى فى سيناء وأن يتم ذلك على فترة زمنية وطبقا لجدول زمنى، أما المستوطنات فى الضفة الغربية وغزة فيجب أن تجمد، وعند اشتراك الأردن والفلسطينيين فى المفاوضات يتم التفاوض حول مستقبلها.
- ستتضمن الأفكار الأمريكية مقترحات حول اللاجئين الفلسطينيين،على أساس مبدأ التعويض والعودة وإنشاء جهاز لتنفيذ ذلك بمشاركة جميع الأطراف التى يعنيها الموضوع.
- تتضمن الأفكار الأمريكية أيضا أفكارا حول القدس، منها حق الوصول إلى الأماكن المقدسة وعدم تقسيم المدينة مرة أخرى. وأن الجانب الأمريكى يقدر حساسية موضوع القدس، ولكن مقترحاته لن تخوض فى تفاصيل التسوية ويتركها للتفاوض،

علما بأن لأمريكا مواقف محددة وواضحة بالنسبة للمدينة وعدم اعترافها بضم إسرائيل لها من جانب واحد.

- هذا هو مجمل الأفكار الأمريكية التي طرحوها في هذا الاجتماع الذي دام أكثر من ثلاث ساعات، وبقي أن أضيف أن الجانب المصري قد تصدى بكل قوة وكفاءة وفاعلية لمناقشتها فيما تضمنته من تناقضات وقصور ومواقف سلبية وثغرات تتيح لإسرائيل عرقلة تسيير الأمور خلال الفترة الانتقالية إلى تحقيق الهدف النهائي، وهو انسحاب إسرائيل وممارسة الشعب الفلسطيني لتقرير مصيره. وقد قام أسامة الباز والريدي والعربي بدور بارز في هذه المناقشات، ونجحوا في تفنيد الكثير من الأفكار الأمريكية وهدم الأسس التي تقوم عليها، مما اضطر الجانب الأمريكي إلى أن يعد بإعادة النظر فيها على ضوء الحجج المصرية الدامغة.

وبعد المساء ذهبت إلى استراحة الرئيس السادات وجلست معه ورويت له ما دار في اجتماعنا بفانس والوفد الأمريكي، واثنيت له على المجهود الكبير الذي قام به أسامة والعربي والريدي وقد أبدى السادات ارتياحه لما سمعه، وكان من الواضح أنه يعلق آمالا كبيرة على أن يجيء المشروع الأمريكي عند تقديمه متفقا مع المشروع المصري في غالبية النقاط، ولم يلبث أن حضر التهامي وبطرس غالي وأشرف غربال وحسن كامل وأمضينا الوقت حتى منتصف الليل في أحاديث متنوعة لم تتطرق إلا نادرا لموضوع الشرق الأوسط لسبب بسيط هو أنه لم يعد أمامنا الآن ما نفعله غير انتظار تقديم المشروع الأمريكي لتحديد مواقفنا على ضوء ما يحتويه والتصرف على هداه.

هل تستطيع أن تزورني اليوم .. ؟

في صباح اليوم التالي ذهبت الى استراحة الرئيس فوجدته مرتديا زي التمرينات الرياضية TRAINING SUIT ويتأهب للخروج لمزاولة رياضته اليومية في المشي ودعاني لمصاحبته، وكان يمشي بخطوة سريعة نشطة تتطلب لياقة بدنية عالية، وقد كان السادات يواظب على المشي يوميا، وكثيرا ما قال لي إنه مهما كانت شواغله فلابد أن يمشي أربعة كيلو مترات على الأقل في اليوم. وبعد نحو نصف ساعة من المشي الجاد قال لي إن كامب ديفيد يذكره بأيام أن كان في المعتقل. وقلت إن هذا هو شعوري بدوري، واضفت إن الذي يزيد الأمر كآبة أن زملاءنا داخل الأسوار هم بيجن وديان

وعلينا أن نتعامل معهم، فقال إننا نتعامل مع أحط وأخس عدو، لقد عذب اليهود نبيهم موسى، وأضاف بعد فترة :إنى اشفق على الرئيس كارتر المسكين من التعامل مع بيجن ذى العقلية المحنطة».

فقلت «هل تعتقد أنه سيمارس عليه ضغطا حقيقيا»؟ وأجاب «بالتأكيد، وإلا سيفشل المؤتمر وسيؤثر ذلك على مركز الرئيس كارتر وقد أفهمته بوضوح أننى قدمت كل شىء من أجل تحقيق السلام مما كان لا يخطر للإسرائيليين على بال، ولو فى أحلامهم، وإنه لم يعد لدى شىء أستطيع التنازل عنه»، ثم استأنفنا المشى فى صمت وفى طريق عودتنا قابلنا وايزمان وهو راكب دراجة (بسكلتة) فتوقف وحيانا وسأل وايزمان السادات إذا كان يستطيع أن يزوره اليوم فقال السادات «بالطبع إنى دائما أسعد بالحديث معك».

وكان وايزمان قد زار السادات قبل ذلك بيومين ولم يفصح لى السادات عما دار بينهما، والواقع أنى كنت لا أرتاح لمقابلات وايزمان المنفردة مع السادات وأتوجس منها شرا وخطرا، وسبق أن أوردت أمثلة عما نتج عن مثل هذه الاجتماعات من مشاكل وتعقيدات، كما حدث بسبب لقائهما فى مصر فى شهر مارس الماضى، بينما كان الجيش الإسرائيلى يغزو لبنان وكان الوزراء العرب مجتمعين فى القاهرة، ثم ما ترتب على لقائهما فى النمسا فى أوائل شهر يولية (تموز) من مضاعفات.

ولقد كان السادات يصف علاقته بوايزمان بأنها صداقة، وفى تصورى أن السادات كان يشعر بالفعل بنوع من الألفة والود تجاه وايزمان، وأن ذلك يعود إلى عدة عوامل، منها شخصية وايزمان المفتوحة المرحة على خلاف الطبيعة الإسرائيلية المغلقة الحذرة، ومنها أنه - وايزمان - كان يبدو متحمسا حقيقة لتحقيق السلام، وكان مقتنعا بأن على إسرائيلى أن تقدم من جانبها ثمنا لهذاالسلام. ولا أعلم المدى الذى كان مستعدا للذهاب إليه فى هذا الشأن، ولكنه كان يبدو وبالقطع مرنا بالمقارنة إلى تصلب بيجن الذى كان يريد أن يحصل على السلام ويحتفظ بالأراضى المحتلة معا، ومنها أنه كان من الشائع أن علاقة وايزمان سيئة بموشى ديان لاعتبارات شخصية تعود إلى وقت أن كان ديان متزوجا من شقيقة وايزمان وإساءته معاملتها إلى أن تركها وتزوج بغيرها. وكان السادات يكن كراهية لديان ونفورا منه لا أدرى سببه، ربما لأنه كان علما على

هزيمة ١٩٦٧م فكان يتحاشى مقابلته والحديث معه، وكلما ذكر اسمه أمامه نعته بالكذب والصلافة والغرور. ولعل السادات كان يعتقد أن عدو عدوه يكون صديقه.

بالإضافة إلى ما سبق كان السادات يعتقد أنه يستطيع أن يستغل وايزمان بشكل أو بآخر، سواء فى نقل فكره إلى بيجن أو جس نبض ما يدور فى الفكر الإسرائيلى كما كان يحتفظ به كشعرة معاوية إذا تأزمت الأمور مع مناحم بيجن. وأضيف إلى ما سبق أن السادات كان يراوده الأمل دائما فى سقوط بيجن بسبب سياسته الجامدة، أو فى وفاته أو اعتزاله بسبب سوء حالته الصحية. وكان يأمل أن يخلفه وايزمان فى رئاسة الحكومة الإسرائيلية أو أن يشغل مركزا مؤثرا مما تصبح معه العلاقة بينه وبين إسرائيل أكثر سلاسة واحتمالات الاتفاق معها أكثر قربا.

أما عن حقيقة مشاعر وايزمان نحو السادات فلا أدعى أنى أعرفها، وكل ما كان يعنينى فى الأمر أنى كنت أشعر بخطورة كبيرة فى أن يكون للعدو الإسرائيلى منفذ مباشر إلى ما يدور فى فكر الرئيس وما يعتمل فى أعماق نفسه، وما أخطر من أن يكون متاحا لوزير الحرب الإسرائيلى أن يقابل الرئيس المصرى ويختلى به فى عقر داره، فى جو من الألفة والود تظلهما مظلة الصداقة، ويدور حديثهما تحت شعار تحقيق السلام والأمن، فيقضى معه الساعات الطوال يسأل ويجيب ويحكى ويسمع ويضحك ويغضب، ويحاور ويداور ويصول ويرقب ويسجل ثم يعود فيغذى الكمبيوتر الإسرائيلى بكل ما رأى وسمع.

فى انتظار رحلة جنسبرج ..

سألت السفير أيلتس ونحن نتناول الغداء فى المطعم عن أخبار المشروع الأمريكى فقال إنه قد تم إعداده وسيتم عرضه على الرئيس كارتر. وقلت «أرجو أن تلتزموا بوعدكم فى عرضه علينا للتشاور قبل عرضه على الجانب الإسرائيلى». وقال أيلتس إنهم سيقدمون لنا صورة منه بعد ظهر هذا اليوم. وقال إنه يعتقد أنه مشروع معقول وسيكون مقبولا لدينا دون أن يفصح لى عن أية معلومات محددة بشأن ما تضمنه. وأخبرنى أنه تقرر أن يقوم أعضاء الوفود الثلاثة فى صباح اليوم التالى برحلة لزيارة ساحة المعركة التى جرت بالقرب من مدينة جنسنبرج فى عام ١٨٦٣ أثناء الحرب الأهلية الأمريكية .

وأثناء العشاء قلت للسفير أيلتس «إن المشروع لم يصلنا بعد»، فقال ربما تجرى عليه تعديلات طفيفة ولكنه سيصلكم بالقطع غدا بعد انتهاء رحلة جنسنبرج».

معجزات التهامى ..

فى كل مساء كان يجتمع أعضاء الوفد المصرى فى الاستراحة التى أنزل بها، وكان الحديث يدور غالبا حول الموقف الأمريكى ما بين متفائل وما بين متشائم، وكما أشرت لم يكن هناك ما نستطيع أن نفعله قبل أن يتقدم الجانب الأمريكى بمشروعه، وكان أعضاء الوفد يدخلون الاستراحة حاملين معهم أخبارا صغيرة عن من قابل من، ومن ذهب إلى قاعة السينما، ومن يبدو على أسارير وجهه الشعور بالاطمئنان والثقة، ومن تبدو عليه ملامح القلق والوجوم، ومن دخل استراحة بيجن ومن خرج منها وهكذا.

وكان الوقت يمضى ثقيلا مملا حتى يفرغ حسن التهامى من جولاته المجهولة وينضم إلينا فى الاستراحة، وكان الوحيد من بين أعضاء الوفد الذى ينزل فى استراحة بمفرده، كما كان هو وبيجن الوحيدين اللذين يصران على ارتداء بدلهما كاملة مع ربطة العنق طوال المؤتمر، فما أن يعبر التهامى مدخل الاستراحة حتى يتلاشى فى لحظة جو الملل والتثاؤب والقلق، وكأنه ضغط على زر الكترونى، وينقلب إلى جو من البهجة والمرح والدعابة وتدب الحياة فى المجتمعين ويشد انتباههم ويصحو سمعهم ويبدأ بآخر الأخبار. فيقول مثلا إن موشى ديان قد وافقه منذ ساعة على عودة القدس إلى العرب، ثم يتكلم عن التصوف وعن تفسير الأحلام، وينتقل إلى القصص والروايات ويحكى كيف حل مشكلة المسلمين فى الفلبين وكيف استطاع أن يؤجل قيام الثورة فى الميلانو لمدة ثلاث سنوات، وكيف عالج نفسه من السم الزعاف الذى دس له فى الطعام أثناء إحدى زياراته لبعض الدول العربية، فانسحب إلى غرفته يتلوى من الألم وأغلق عليه الباب بالمزلاج لمدة ثلاثة أيام لا يأكل ولا يشرب، وراح يعالج نفسه بترياق السموم الذى يحمله معه دائما، ثم يتكلم عن فوائد العنبر الذى يستخرج من كبد الحوت وعن مزايا عسل ملكات النحل، ثم يتوقف فجأة ويتكلم عن القدس ويخاطبنى قائلا «القدس أمانة فى عنقك يا أخ محمد فحذار أن تفرط فيها». وكان كل ذلك يجرى فى جو خفيف ضاحك يحجب مشاعر القلق ويخفف التوتر الذى يعتمل فى النفوس.

وتجاوز الاهتمام بكرامات التهامى ومعجزاته دائرة الوفد المصرى، ففى أحد الأيام دخلنا غرفة الطعام فوجدنا حسن التهامى واقفا بالقرب من إحدى موائد الطعام

المخصصة للوفد الإسرائيلى وقد التف حوله العديد من الإسرائيليين يستمعون إليه ويناقشونه فى اهتمام، وتبين أن التهامى قد أخبرهم بأن فى مقدوره أن يوقف قلبه عن الحركة إلى أى وقت يشاء، وطالت المناقشات بينهم ثم عاد إلينا لتناول طعامه معنا .. وفى العشاء دعا أعضاء الوفد الإسرائيلى التهامى إلى استئناف الحوار معهم وكانوا قد أحضروا معهم طبيب بيجن الخاص خصيصا ليتولى مناقشته علميا فى هذا الموضوع.

ومن النوادر التى حدثت فى ذلك الوقت، كان بطرس غالى يحكى عن خطابات التهديد التى وجهت له بعد مرافقته للرئيس السادات فى القدس ثم أردف قائلا بالفرنسية «إنهم يتهموننى بأنى الجيل الثالث من الخونة فى عائلة غالى» فقلت ضاحكا «كيف؟ إنى لا أعرف إلا اثنين فقط هما جدك[1] وأنت فمن هو الثالث؟» وأجاب بطرس «يقولون إن عمى نجيب باشا غالى قد تورط مع الإنجليز اثناء الحرب العالمية الأولى».

إنى آسف يا محمد ..

فى صباح يوم الأحد ١٠ سبتمبر (أيلول) فتحت بوابة كامب ديفيد على مصراعيها وخرجت منها قافلة من السيارات تتقدمها سيارات الحراسة ثم سيارة ليموزين تقل الرئيس كارتر والرئيس السادات ورئيس الوزراء بيجن وخلفها أوتوبيس يحمل باقى أعضاء الوفود الثلاثة – فيما عدا من تخلف منهم – يليها أوتوبيس آخر يركبه مجموعة من الصحفيين والمصورين ومراسلى وكالات الأنباء. واتجهت القافلة صوب مدينة جنسنبرج غير البعيدة عن كامب ديفيد.

كانت أول مرة نغادر فيها كامب ديفيد – أو المعتقل كما كنا نسميه – منذ دخلناه فى ٥ سبتمبر (أيلول) الماضى وكنا نشعر بنوع من التحرر والانطلاق لا يشوبه إلا معرفتنا بأننا لن نلبث أن نساق إلى المعتقل من جديد بعد ساعات قليلة، ونعود إلى جو القلق والتوتر والتأرجح ما بين التفاؤل والتشاؤم.

وقد لاحظنا فى الطريق أن أعضاء الوفد الأمريكى قد تخلفوا عن الرحلة كما تخلف عنها أعضاء الوفد الإسرائيلى فيما عدا ديان وايزمان وقد كان مثارا لشكوكنا

(١) بطرس باشا غالى الذى كان رئيس وزراء مصر واغتاله الوردانى فى سنة ١٩٠٩ لموافقته على مد امتياز شركة قناة السويس حتى عام ١٩٦٩.

وموضعا لتكهناتنا، ولم نلبث أن وصلنا إلى ساحة المعركة، ونزلنا من السيارات وتجمع أعضاء الوفود ورجال الإعلام حول الرئيس كارتر والرئيس السادات ورئيس الوزراء بيجن.

ورغم وجود عدد من الأدلاء المتخصصين فى شرح المعركة، فقد قرر الرئيس كارتر أن يقوم بذلك بنفسه. وقد دارت هذه المعركة على مدى ثلاثة أيام فى شهر يولية (تموز) ١٨٦٣ بين القوات الاتحادية بقيادة الجنرال ميد MEADE وقد بلغت ٨٢٠٠٠ من المشاة والخيالة ورجال المدفعية وقوات الجنوب بقيادة الجنرال لى LEE التى كان عددها ٧٥٠٠٠ من المشاة والفرسان ورجال المدفعية، وقد استمرت المعارك سجالا بين الطرفين إلى أن انتهت بفوز قوات الشمال الاتحادية بعد أن بلغت خسائرها نحو خمسة وعشرين ألف رجل بين قتيل وجريح ومفقود، مقابل ثلاثين ألفا من قوات الجنوب. وتعتبر هذه المعركة نقطة التحول فى الحرب الأهلية الأمريكية لصالح القوات الاتحادية.

وظللنا ننتقل من موقع إلى آخر على مدى ثلاث ساعات ونتابع شرح الرئيس كارتر

● وهو من أهل الجنوب - لتفصيلات المعركة وتطوراتها بدقة متناهية وكأنه قد حفظها عن ظهر قلب، إلى حد أن قال أحد أعضاء وفدنا ضاحكا «ليس لكارتر أن يقلق على مستقبله إذا فشل مؤتمر كامب ديفيد، فيستطيع دائما أن يكسب قوته إذا عمل كدليل سياحى فى جنسنبرج».

وبعد عودتنا تناولت الغداء ورجعت إلى الاستراحة وكنت أعتزم أن أنام بعض الوقت للراحة من عناء الرحلة عندما اتصل بى السفير أيلتس تليفونيا وقال «إن لديه شيئا هاما يريد أن يحدثنى بشأنه» قلت «إنى فى انتظاره» . ووصل ايلتس بعدها بخمس دقائق، وكان يبدو عليه بعض التجهم وقال لى «إنى أسف يا محمد فلقد حدث شىء لم يكن فى الحسبان، فقد قدم لهم بيجن التعهد الكتابى الذى سبق أن وقعه هنرى كيسنجر للحكومة الإسرائيلية فى سنة ١٩٧٥ بالتزام الولايات المتحدة بعدم التقدم بأى مشروع يتعلق بتسوية النزاع العربى الإسرائيلى قبل التشاور عليه مع إسرائيل مقدما، وبالتالى فإنهم لن يستطيعوا أن يقدموا لنا صورة من المشروع الذى أعدوه».

وطار النوم من جفونى.

الفصل الثامن والثلاثون

بين المطرقة الإسرائيلية والسندان الأمريكى

كان رضوخ الولايات المتحدة لطلب إسرائيل تنفيذ تعهد كيسنجر لها فى سنة ١٩٧٥ بوجوب التشاور معها سلفا قبل أن تتقدم الولايات المتحدة بأى مقترحات لتسوية النزاع العربى - الإسرائيلى، ضربة قاصمة للمركز التفاوضى المصرى فى كامب ديفيد، ونقطة تحول لصالح إسرائيل أتاحه لها، أولا : تهافت السادات وتسرعه بتقديم مشروعه بإطار السلام فى أول يوم عمل للمؤتمر فقد كان هذا خطأ تكتيكيا، ثم بالمخالفة للاستراتيجية التى عرضتها عليه وزارة الخارجية ولنصيحتى له فى اجتماع مجلس الأمن القومى. وثانيا : خيانة أمانة الولايات المتحدة لتعهداتها بعرض مقترحاتها علينا قبل تقديمها ولدور الشريك الكامل الذى تعهدت بالالتزام به إزاء الطرفين.

فقد كان من الغالب وشبه المؤكد أن المشروع الأمريكى الذى أعد بعد التشاور مع كل من الوفدين المصرى والإسرائيلى، سيتضمن حلا وسطا بين المشروع المصرى (الذى استبعد نتيجة رفض إسرائيل له) وبين الأفكار الإسرائيلية (المبنية على مشروعى مناحم بيجن الخاصين بسيناء وبالحكم الذاتى فى الضفة الغربية وغزة المقدمين فى الإسماعيلية واللذين رفضتهما مصر من البداية) ربما مع ميل أكثر أو أقل إلى هذا الجانب أو ذاك.

وكان من المفروض إذن أن يقدم هذا المشروع إلى كل من الجانب المصرى والجانب الإسرائيلى معا وفى ذات الوقت كأساس مقترح للتسوية يطرح للتفاوض بينهما، إلا أن قبول أمريكا لعرضه على إسرائيل وحدها - ليس للإطلاع - وإنما للتشاور المسبق، الذى تطور من تشاور إلى وجوب الحصول على موافقة إسرائيل على المقترحات الأمريكية، إذ أن رفض إسرائيل لهذه المقترحات عند التشاور بمثابة «فيتو» عليها يؤدى إلى استبعادها، وتقدم الولايات المتحدة مقترحات جديدة، وهكذا.

وهذا يعنى أن تنتهى المشاورات بينها وبين إسرائيل على أحسن الفروض إلى مشروع وسط بين الأصل الأمريكى الذى قدم وبين الأفكار الإسرائيلية التى طرحت فى المشاورات، وبالتالى يتحول المشروع من مشروع وسط بين الموقفين المصرى والإسرائيلى عند إعداده إلى مشروع وسط بينه وبين الأفكار الإسرائيلية. أى ينتهى إلى التقلص إلى مشروع وسط الوسط لصالح إسرائيل. وأحاول تقريب الفكرة حسابيا، فإذا افترضنا

أن المشروع المصرى = ١٠٠٪ أفكار مصرية

يكون المشروع الأمريكى عند إعداده = ٥٠٪ منه أفكار مصرية و ٥٠٪ أفكار إسرائيلية.

ويصبح المشروع الأمريكى بعد التشاور مع إسرائيل = ٢٥٪ منه أفكار مصرية و٧٥٪ أفكار إسرائيلية.

فإذا وضعنا فى الاعتبار أن مشروع إطار السلام المصرى لم يعد من منطلق أن يكون مركزا تفاوضيا يحتمل المساومة والأخذ والعطاء. ولو كان الأمر كذلك لأعد مثلا على أساس أن تكون التسوية وفقا لقرار الجمعية العامة بتقسيم فلسطين إلى دولة فلسطينية وأخرى يهودية ومطالبة إسرائيل بإعادة جميع الأراضى التى استولت عليها لا فى حرب سنة ١٩٦٧ فقط بل تلك التى ضمتها عنوة من الأراضى المخصصة للدولة الفلسطينية بمقتضى القرار المشار إليه على مدى السنوات من ١٩٤٩ حتى ١٩٦٧ بل أعد على أساس أن يكون تنفيذا أمينا للقرار ٢٤٢ فيما يتعلق بأساسيات حل النزاع، وهى الانسحاب من الأراضى العربية المحتلة فى ١٩٦٧ مقابل إنهاء حالة الحرب وإقامة علاقات سلام بين إسرائيل والدول العربية المجاورة. إذن لتبين بعد الفجوة التى تفصل

بين المشروع المصرى وذلك المشروع الأمريكى إسما والإسرائيلى فعلا (بعد التشاور) الذى يقدم لمصر (بل ولإسرائيل من باب المظهر والشكل). فإذا اعترضنا على المشروع أو رفضناه اتهمنا بأننا نرفض مقترحات الولايات المتحدة بوصفها تمارس دور الشريك الكامل الذى ارتضيناه من البداية، فيقع الصدام بين مصر وأمريكا بدلا من أن يقع بين إسرائيل وأمريكا، بينما كانت استراتيجيتنا[1] - التى لم يتبعها السادات للأسف - تؤدى إلى أنه فى حالة فشل المؤتمر، فيجب أن يقترن ذلك بوضوح مسؤولية إسرائيل عن هذا الفشل، ووضوح توافق الموقفين الأمريكى والمصرى فى مواجهة موقف إسرائيلى متعنت وجامد فى جوهره رغم محاولات التمويه والخداع.

وكان الموقف يستقيم لو أن السادات كان مستعدا لتنفيذ ما قرره أمام أعضاء مجلس الأمن القومى فى الإسماعيلية - على ما فيه من محاذير - من أنه إذا رفض مشروعه بإطار السلام انسحب من المؤتمر وعاد إلى القاهرة للإعداد للخطوة التالية، ولكن مشروعه نحى أمامه جانبا منذ اليوم الأول للمؤتمر فعجز وجبن عن أن يتخذ هذا القرار ووقع فى مصيدة المشاريع والصياغات التى أدت إلى تآكل مركزه وانهياره تماما فى نهاية الأمر.

وأعود بكلمة إلى تعهد كيسنجر السابق الإشارة إليه بعدم قيام الولايات المتحدة بتقديم أية مقترحات للتسوية إلا بعد التشاور مع إسرائيل، فأقول إن هذا التعهد على ما فيه من غرابة - لا يفسرها إلا تواطؤ كيسنجر مع إسرائيل وإساءة استخدام مركزه كوزير لخارجية أمريكا - كان من الممكن الالتزام به من قبل الولايات المتحدة حتى قيام الرئيس السادات بمبادرته للسلام وتطورها إلى مفاوضات ثلاثية تجرى بين مصر وإسرائيل وأمريكا على أساس قيام هذه الأخيرة بدور الشريك الكامل غير المنحاز فى المفاوضات وهو ما يجب ويسقط هذا الالتزام غير الأخلاقى والصبيانى والمهين لمكانة دولة عظمى، الذى قدمه كيسنجر إلى إسرائيل. فالمسألة ليست مشاجرة على قارعة طريق ينحاز فيها طفلان ضد ثالث، بل هو موضوع جد خطير يستهدف حل مشكلة عويصة يتوقف عليه مصير منطقة الشرق الأوسط بين الحرب والسلام، وبين الفوضى والاستقرار، وتأثير ذلك على مصالح العالم أجمع ومن بينها مصالح الولايات المتحدة نفسها وحلفائها بالدرجة الأولى.

---

(١) مذكرة الخارجية المصرية للرئيس السادات فى ٢٩ اغسطس ١٩٧٨ (راجع الفصل الحادى والعشرون)

المشروع قبل التشاور..

كان من المنتظر أن تقدم الولايات المتحدة مشروعها إلينا كما وعدت من قبل وكما أبلغنى السفير أيلتس وعاد وأكده الوزير فانس حالما يفرغون من صياغته، إلا أن الابتزاز الإسرائيلى حال دون ذلك فى آخر لحظة، وبالتالى فلم نطلع على أصل المشروع كما أعد قبل التشاور مع إسرائيل، ولكن القدر المؤكد هو أنه كان سيتضمن الأسس والملامح التالية :

١- ما أكده لى نائب الرئيس مونديل ووزير الخارجية فانس أثناء اجتماعهما بى يوم الخميس ٧ سبتمبر (أيلول) من أن موقف أمريكا من المستوطنات هو :

(أ) إزالة المستوطنات الإسرائيلية فى سيناء كلية.

(ب) تجميد المستوطنات الإسرائيلية فى الضفة الغربية وقطاع غزة لمدة خمس سنوات هى الفترة الانتقالية، ويتم التفاوض بشأن مستقبلها بعد ذلك (الإزالة أو الابقاء) بين الأردن والفلسطينيين وإسرائيل.

٢- ما قرره فانس فى اجتماع الوفدين المصرى والأمريكى يوم الجمعة ٨ سبتمبر (أيلول) من أن المشروع الأمريكى - الذى سيقدمونه لنا فور الانتهاء من صياغته يوم السبت أو الأحد - سيعتمد على المشروع المصرى فى إطاره العام وأنه يعتقد أنه سيكون مقبولا للرئيس السادات ويتضمن النقاط التالية :

(أ) الموافقة على ديباجة المشروع المصرى.

(ب) إن اتفاقات السلام يجب أن تتم على أساس القرار ٢٤٢.

(ج) إن الشعب الفلسطينى هو الذى سيقرر موقفه فى نهاية الفترة الانتقالية، وهو الذى سيوقع معاهدة السلام فى نهاية المدة.

(د) ستعالج صيغة أسوان حل القضية الفلسطينية بكاملها.

(هـ) سيرتكز حق الشعب الفلسطينى فى تقرير مصيره على عدة خيارات.

(و) ستتضمن الأفكار الأمريكية مقترحات حول اللاجئين الفلسطينيين على أساس مبدأ التعويض والعودة.

كانت هذه هى إذن الأسس والملامح التى سيتضمنها المشروع الأمريكى فى تقديرنا بلا جدال ، بالإضافة إلى بعض الأفكار التى طرحها فانس فى الاجتماع قبل تشكيل

سلطة ثلاثية من مصر وإسرائيل والأردن للإشراف على الحكم الذاتى والإجراءات التى ستتخذ فى خلال الفترة الانتقالية، مثل عدم تعرض المشروع الأمريكى لموضوع السيادة وترك البت فيه إلى نهاية فترة الانتقال ومثل ما ذكره عن القدس.

الربيبة الجشعة المدللة ..

فى الساعة الرابعة من بعد ظهر يوم الأحد ١٠ سبتمبر (أيلول) (يوم زيارة جنسنبرج)، اجتمع الجانب الأمريكى برئاسة الرئيس كارتر وعضوية والتر مونديل وفانس وبريجنسكى بالجانب الإسرائيلى برئاسة بيجن وعضوية ديان ووايزمان والمدعى العام الإسرائيلى باراك، وذلك لإجراء التشاور حول المشروع الأمريكى المعد قبل تقديمه إلى مصر، وقد استمر الاجتماع حتى الساعة الثالثة صباحا، وبالطبع لم يدع أحد من الجانب المصرى للاجتماع، ولكن لحسن الحظ لدينا رواية ديان وزير الخارجية ووايزمان وزير الحرب وكلاهما شارك فى الاجتماع، فلنر إذن كيف يجرى التشاور بين أقوى دولة فى العالم وبين ربيبتها المدللة الجشعة الناشز، ثم نتحدث فيما بعد عن نتائج هذا التشاور.

يقول ديان فى كتابه «الاختراق» ما يلى :

«ذكر الأمريكيون أن هناك أربعة موضوعات رئيسية تختلف نظرتهم إليها عن نظرتنا، فهم يريدون تجميد المستوطنات فى الأراضى لمدة خمس سنوات بمعنى ألا تنشأ مستوطنات جديدة، ولا يضاف أعضاء جدد للمستوطنات القائمة، وطلبوا منا ردا صريحا عن الطريقة التى ستتحدد بها السيادة على (جوديا وسماريا) وغزة بعد خمس سنوات، وأرادوا معرفة مصدر السلطة فى الأراضى وبالذات إن كان يمكن إلغاء الحكم الذاتى ومن الذى يملك السلطة ليفعل ذلك، ورابعا الحاجة إلى إيجاد صياغة ملائمة لتأكيد تنفيذ الحكم الوارد فى القرار ٢٤٢ بشأن الانسحاب من أراض احتلت فى حرب ١٩٦٧.

ولم يكن أى من هذه الموضوعات أو مواقف الأطراف منها جديدا والموضوع الذى كان الخلاف حوله أكبر هو موضوع المستوطنات، وكان موقفنا بالنسبة إليه نهائيا، وقلت لهم إننا لن نقبل أى قيود على هذا الموضوع.

ويقول «وجلس محامو وفدنا باراك وروزن وروبنشتين مع الأمريكيين لمناقشة موضوع (مصدر السلطة) فى الضفة الغربية وغزة وحاولوا جميعا التوصل إلى صياغة

بشأن انسحاب القوات الإسرائيلية لا يمكن تفسيرها بأنها تتطلب مغادرة جميع القوات للأراضى».

ثم يقول «كان هناك اقتناع متزايد خلال المحادثات أنه إذا كنا سنصل إلى اتفاق على إطار، فإن الطريق الوحيد للتخلص من الصعوبات الناتجة عن اختلاف الآراء بالنسبة لهذه الموضوعات الرئيسية، كان هو تجاهلها سواء بإغفال الإشارة إليها فى الاتفاق، أو باستنباط صياغات غامضة يستطيع كل طرف أن يفسرها بطريقته الخاصة».

ويمضى ديان قائلا «كانت معالجة المسائل العلمية هى غرضنا الرئيسى فى كامب ديفيد، ولكن كانت هناك مشكلة بعض التعاريف والاصطلاحات التى كنا - وخصوصا بيجن - نريد استبعادها من الاتفاقية، وأحدها على سبيل المثال ما كان معروفا بـ (صيغة أسوان) التى تتكلم عن الحقوق الأساسية للفلسطينيين (وحقهم فى تقرير مصيرهم) وأخرى، الالتزام بتنفيذ قرار الأمم المتحدة ٢٤٢ (بجميع أجزائه) أى بما فى ذلك ديباجته التى تجعل اكتساب الأرض عن طريق الحرب غير جائز. وكنا قلقين أنه عندما يجىء وقت بلورة هذه التعبيرات سيقال لنا إن إسرائيل مجبرة على الانسحاب من جميع أنحاء الضفة الغربية وغزة وإن للفلسطينيين الحق فى إقامة دولتهم المستقلة».

ثم يلخص ديان المواقف الإسرائيلية على النحو التالى :

«بالنسبة لسيناء. أكدنا أن استعدادنا للانسحاب إلى الحدود الدولية يجب أن يؤخذ فى إطار مشروعنا للسلام الذى قدمناه، بمعنى أن المستوطنات والمطارات الإسرائيلية فى الشمال الشرقى وفى الجنوب الشرقى لسيناء ستظل تحت قبضتنا، أما بالنسبة للضفة الغربية وغزة، فقد شددنا على أننا يجب ألا نجبر على الانسحاب من هذه الأراضى، وهنا رأينا مصدر الخطر فى الإشارة فى ديباجة القرار ٢٤٢ إلى عدم جواز الاستيلاء على الأرض عن طريق الحرب ولذلك أصررنا على عدم النص على هذا الجزء من مقدمة القرار فى معاهدة السلام، وبالنسبة لموضوع الفلسطينيين، كنا مصممين على تفادى أى صياغة من شأنها أن تفسر على أننا نوافق على حقهم فى تقرير مصيرهم أو فى دولة، واقترحنا أن مستقبل العرب الفلسطينيين الذين يقطنون فى الضفة الغربية وغزة يتقرر من خلال محادثات تجرى بينهم وبين مصر والأردن وإسرائيل».

ولا أعتقد أن هناك ما هو أكثر وضوحا من كلام ديان فليعفنى القارىء إذن من التعليق.

ليلة «مناحم بيجن»..

واستكمالا لرسم صورة «التشاور» الإسرائيلى نعرض ما يقوله وايزمان فى روايته، يقول وايزمان «كان المشروع الأمريكى يتكون من سبع عشرة صفحة من المواد المتفجرة، وفى محاولة لتوجيه المناقشات دار الأمريكيون حول المسائل الخلافية مثل مصير المستوطنات والمطارات فى سيناء، وفى نفس الوقت أضافوا مجموعة من الشروط فيما يتعلق بجوديا وسماريا وقطاع غزة.. وطبقا للوثيقة (المشروع الأمريكى) تبدأ محادثات فى خلال ثلاث سنوات بشأن الوضع النهائى لجوديا وسماريا وقطاع غزة، تتضمن مسألة الحدود والمشاركة الفلسطينية وستكون هناك سلطة حكم ذاتى وليس مجلس، ولن يستمد كيان الحكم الذاتى سلطته من الحكومة العسكرية الإسرائيلية، وستتمتع الأردن بوضع خاص، ولن تقام مستوطنات جديدة وستجمد المستوطنات القائمة، وسيجرى استفتاء لتحديد الوضع النهائى فى الضفة الغربية.

وقال بيجن (أيها السادة، لقد نقل الأمريكيون ببساطة الخطة المصرية)، وكان تعبير وجهه كالحا وشعرت بالقلق من لهجته الهادئة، كان يبتلع غضبه وخشيت أن تنفجر صمامات قلبه...

وينتقل وايزمان لوصف المناقشات - أو المشاورات - فيقول «لقد كانت ليلة مناحم بيجن، فقد كان جالسا على رأس الوفد الإسرائيلى فى مواجهة كارتر والآخرين، وقد ارتفع صوته ليزيل أى شكوك أو سوء فهم ورفض وعدل أجزاء ضخمة من المقترحات الأمريكية، وفى خلال المناقشة ذكر كارتر أنه يعتزم إثارة موضوع الحقوق الوطنية للفلسطينيين بما فيها حقهم فى تقرير المصير، ورفض بيجن قائلا إن ذلك خارج الموضوع، إذ كان يخشى أن تؤدى مثل هذه المناقشة إلى أن تفتح الاحتمال لدولة فلسطينية فى المستقبل البعيد.

وعندما اقترح الرئيس الأمريكى تجميد المستوطنات رفض ذلك الإسرائيليون فى الحال، واقترح كارتر أن تستمر وحدات إسرائيلية فى الوجود فى الضفة الغربية بعد فترة السنوات الخمس فوجد الوفد الإسرائيلى أخيرا نقطة نستطيع الاتفاق عليها مع كارتر.

ولكن كارتر أعلن أيضا أن السادات لن يقدم تنازلات بالنسبة للمستوطنات والمطارات الإسرائيلية فى سيناء وبالتالى فعلى إسرائيل الانسحاب منها، فقال بيجن بلهجة تأكيد إننا لا نحل المستوطنات ولا نحرثها ولا نزيلها.

ويضيف وايزمان «وعندما وصلنا إلى الشرط الخامس (بعدم جواز اكتساب الأراضى عن طريق القوة) أصبح رد فعل بيجن شرسا إلى أقصى حد (إن هذا الشرط لا ينطبق على حالتنا فالأراضى التى نحتلها غزوناها فى حرب دفاعية، ويجب أن تعرف يا سيادة الرئيس أنه فى كل الحروب كنا ضحايا للعدوان العربى)، واعترض بيجن بشدة على عبارة فى الديباجة تقرر (أن احتلال الأراضى بالقوة لا يمكن قبوله) وكانت تبدو عبارة بريئة إلا أن بيجن اشتم فيها فخا، وخشى أن تستخدم فيما بعد لخلع إسرائيل من مرتفعات الجولان.

وقال رئيس الوزراء لكارتر (لن نقبل هذه العبارة) وأجابه كارتر (السيد رئيس الوزراء، إن هذا ليس هو رأى السادات فقط ولكنه أيضا رأى أمريكا وسيتعين عليك أن تقبله) وكانت الساعة قد قاربت الثالثة صباحا، وزم كارتر على شفتيه ولم يستطع أن يخفى غضبه أكثر من ذلك فأطبق بيده على الأوراق التى أمامه وألقى بالقلم الرصاص من يده وعيناه الزرقاوان تتوهجان بالغضب وقال ثانية وكأنه يكرر الكلمات لنفسه (إنه ينبغى عليك أن تقبل)، وقال بيجن بلهجة حازمة (السيد الرئيس أرجوك لا تهديدات).

ومرة ثانية أعتقد أن النوايا الإسرائيلية من ثنايا ما رواه وايزمان واضحة مستقيمة لا لف فيها ولا دوران ولا تحتاج إلى تفسير أو تعليق. وإنما استرعى النظر إلى أن رئيس الوزراء الإسرائيلى عندما قال للرئيس الأمريكى « لا تهديدات أرجوك » لم يكن ذلك رجاء أو استعطافا لكارتر بل كان تهديدا لهذا الأخير، وتلميحا له بأنه إن كان ثمة من يستطيع أن يهدد بينهما فهو بيجن وليس الرئيس الأمريكى وبماذا يهدد ؟ بأمور كثيرة أولها على المدى القريب هو فشل مؤتمر كامب ديفيد الذى سيكون فشلا للرئيس كارتر الذى دعا إليه - بصرف النظر عما قد يصيب بيجن من « طشاش » فهذا أمر مقدور عليه - وعلى المدى المتوسط فهناك الانتخابات النصفية للكونجرس الأمريكى. وهناك اتفاقية بنما ومشروع كارتر للطاقة وغير ذلك مما قد يجد، وعلى المدى الأبعد فهناك انتخابات الرئاسة فى سنة ١٩٨٠ وفرصة كارتر فى إعادة انتخابه رهن بيديه. وما عليه إلا أن يعطى الاشارة إلى جماعات الضغط الصهيونية وإلى طابوره الخامس

المتربص فى الكونجرس وفى الإدارة وفى الوسط الإعلامى وفى كل مكان، وقد كان بيجن لذلك مستعدا، ويقول وايزمان فى كتابه « أمضى الوفد الإسرائيلى الليل فى إعداد وثيقة مرتجلة لتكون سيفا بحدين ضد كاتر والسادات، وتقرر أن يوضح للزعيمين أن نشر الوثيقة المصرية سيؤدى أتوماتيكيا إلى نشر الاقتراحات الإسرائيلية. الأمر الذى سيؤدى إلى أن ينفلت زمام رد الفعل الدولى، وكان بيجن - مثل سائر أعضاء وفدنا - يولى اهتماما كبيرا لاكتساب الرأى العام إلى جانبنا إذا انتهى المؤتمر إلى الفشل. وكان هناك كلام عن استعدادات لاجتماعات ضخمة وظهور أمام وسائل الإعلام فى واشنطن إذا انفض المؤتمر ».

بصمات التشاور الإسرائيلى..

عندما تلقينا المشروع الأمريكى[1] فى صباح اليوم التالى الاثنين ١١ سبتمبر (أيلول) كان بعيدا كل البعد عن تصوراتنا، فمن ناحية لم يتضمن أو يعكس المواقف الأمريكية المعلنة الثابتة بشأن تسوية النزاع العربى الإسرائيلى، ولا هو تضمن غالبية النقاط التى عرضها علينا فانس فى الاجتماع المصرى الأمريكى الذى تم يوم الجمعة الماضى، وكانت بصمات «التشاور» الإسرائيلى واضحة جلية على المشروع ككل وعلى فلسفته ولغته ونصوصه وإصلاحاته، وبعد دراسته دراسة سريعة تبين أن صيغة أسوان لحل القضية الفلسطينية قد خرقت وشوهت وأحيطت الإشارة إلى حق تقرير المصير بالغموض، ولم ينص على الانسحاب الإسرائيلى من سيناء ولا على الانسحاب من الضفة مع تعديلات طفيفة، كما لم يشر إلى الانسحاب من القدس العربية ولا هو تضمن أية إشارة إلى مصير المستوطنات سواء فى سيناء أو فى الضفة الغربية وغزة.

ويعطى المشروع لإسرائيل دورا رئيسيا وسلطات واسعة فى الضفة الغربية وغزة خلال الفترة الانتقالية، بينما يجعل دور مصر والأردن ثانويا فيها بل ويكاد يقتصر على توفير الحماية لإسرائيل، كما لم يعالج المشروع موضوع عودة اللاجئين والنازحين معالجة مؤثرة، وجعل ترتيبات الأمن لإسرائيل وحدها وليس للأطراف جميعا.

وإلى جانب كل ذلك تضمن المشروع نصا غريبا واستفزازيا مفاده أنه إذا لم تشارك الأردن فى المفاوضات فستمضى مصر وإسرائيل وسكان الضفة وغزة فى إنشاء سلطة الحكم الذاتى والإشراف على إدارتها.

---

(١) نص المشروع الأمريكى- راجع الملحق رقم (٤) صفحة رقم ٥٢٣.

وبالاختصار كان مشروعا إسرائيليا دما ولحما ولكن يحمل الجنسية الأمريكية، وبعد الغداء اجتمعنا بالجانب الأمريكى بناء على طلبه وكانوا يرغبون فى مناقشة مشروعهم معنا على الفور، فأجبناهم بأن قراءتنا الأولية توضح وجود أوجه نقص عديدة فى المشروع، وأننا نحتاج لدراسته بدقة وعمق حتى نكون مستعدين لمناقشته وتقديم صياغات بديلة، فقالوا إننا نستطيع أن نجتمع من جديد بعد العشاء ولكنا أصررنا على تأجيل ذلك إلى اليوم التالى، وقلنا إن عليهم إعطاءنا الفرصة الكافية كما فعلوا مع إسرائيل.

فى نهاية الاجتماع سألت فانس عن المقصود بالمادة الخاصة بحالة عدم اشتراك الأردن فى المفاوضات، فقال المقصود أن تحل مصر محل الأردن فى الدور الذى كانت ستقوم به هذه الأخيرة فى الضفة الغربية، فقلت إذا لم تشترك الأردن فلن تشترك مصر بدورها، فقال فانس اسأل الرئيس السادات فإنه هو الذى قرر ذلك وأشار به، وكتمت غيظى وقلت إن هذا النص مهين للملك حسين وهو بمثابة استفزاز له حتى يرفض الاشتراك فى المفاوضات وهذا ما تسعى إليه إسرائيل منذ البداية، ومصر غير مفوضة فى القيام بمثل هذا الدور ولا هى مؤهلة له.

وتوجهت إلى استراحة الرئيس السادات فوجدته جالسا مع حسن التهامى على التراس، وسألنى السادات عما تم فى الاجتماع، فقلت إن المشروع الأمريكى سئ للغاية وقد طلبنا تأجيل مناقشته إلى الغد حتى نستعد للرد عليه، وهو على كل حال ملىء بالثغرات وسنتصدى له بكل قوة، والمهم أن نتعرف على حقيقة النوايا الأمريكية من خلال مناقشتنا للمشروع معهم، ثم أشرت إلى المادة التى تضمنها المشروع الأمريكى بشأن قيام مصر بتحمل مسؤوليات الأردن فى الضفة الغربية إذا رفضت الأردن الاشتراك فى المفاوضات، فقال الرئيس : «هذا صحيح فأنا لا أستطيع أن أعلق مصير مبادرة السلام على مزاج الملك حسين الذى يريد أن يتسلم الضفة الغربية على طبق من الفضة دون أن يفعل شيئا».

فقلت «إن موقف الملك حسين هو أنه لن يتردد فى الدخول فى المفاوضات إذا ما أعلنت إسرائيل موافقتها على تنفيذ الانسحاب من الضفة الغربية أو تعهدت الولايات المتحدة رسميا بذلك. وهو موقف طبيعى ومنطقى بل هو موقفنا، فما معنى استمرارنا فى المباحثات إذا لم نعرف إلى ماذا تنتهى بالتحديد؟ وإن دور الأردن حيوى خلال

الفترة الانتقالية وهذا هو ما ينص عليه مشروعنا وإلا فما هى الجهة التى ستتولى الإشراف على إدارة الضفة فى الوقت الذى ترفض فيه إسرائيل أى دور لمنظمة التحرير الفلسطينية؟».

فقال السادات بإصرار «إذا رفض الملك حسين فسأقوم أنا بهذا الدور».

فقلت «إن هذا مستحيل عمليا، وعلى أى أساس، وماذا نعلم عن الضفة الغربية، ثم إن علاقاتنا بالمنظمة مقطوعة ومتوترة وقد يؤدى تدخلنا فى الضفة إلى الاصطدام بها فماذا سيكون الوضع؟».

وأجاب السادات بعنجهية «سأرسل قوات مصرية إلى الضفة الغربية وأنا أعلم أنه قد يقتل عدد من أفرادها ولكنهم سيقتلون عشرة من أفراد المنظمة مقابل كل مصرى يقتل».

وقال حسن التهامى «إنى أعرف الضفة الغربية مثل كف يدى ولدينا مجموعة كبيرة من الضباط الذين يعرفون الضفة الغربية عن ظهر قلب وقت القيادة العربية المشتركة».

وقلت للسادات وأنا أكبح جماح غضبى «ماذا تقول، إن هذا جنون، إن عدونا هو إسرائيل وليس الشعب الفلسطينى الذى قمت بمبادرتك لحل مشكلته، فهل سيصل الأمر إلى حد أن نتقاتل مع الفلسطينيين تحت سمع إسرائيل وبصرها! وما هو الهدف أتريد أن نتورط فى الضفة الغربية كما تورطنا فى اليمن أو كما تورطت سوريا فى لبنان؟».

وقال السادات بهدوء شديد «لا تنفعل يا محمد فإنك لا تعرف الملك حسين، سأقول لك سرا لا تعرفه، ففى سنة ١٩٧٣ بعد أن انتهيت من وضع خطة الحرب وإعداد ترتيباتها أرسلت إلى الملك حسين أطلب منه السماح لعشرين أو ثلاثين ضابطا مصريا من «الكوماندوز» بالسفر إلى الأردن واقترحت عليه إذا شاء أن ينضم إليهم عدد من الضباط الأردنيين تكون مهمتهم التسلل إلى داخل إسرائيل عبر الضفة الغربية حتى إذا ما بدأت الحرب قاموا بنسف وتدمير المنشآت الحيوية داخل إسرائيل نفسها إلا أن الملك حسين خاف ورفض ذلك».

وقلت «ربما، وهذا من حقه بعد تجربته فى سنة ١٩٦٧».

وساد السكون برهة ثم قال حسن التهامى فجأة «هناك تطورات مهمة، فلقد وصلتنى معلومات مؤكدة من مصادرى الخاصة بأن الملك حسين سيتنازل عن العرش لأخيه

الأمير الحسن بعد أسبوع واحد وأن الأمير الحسن سيعلن فور توليه الملك انضمامه إلى المفاوضات وتنتهى المشكلة».

والتفت إلى حسن التهامى وقلت «إن مصادرك الخاصة قد جانبها الصواب هذه المرة، فإن معلوماتنا أن الأمير الحسن - على خلاف الملك حسين - يعارض بشدة فى تورط الأردن فى الضفة الغربية بأى شكل لما يراه فى ذلك من عواقب ». وتوجهت إلى الرئيس السادات من جديد وقلت «أرجوك ألا توافق على فرض دور على الملك حسين دون سبق التفاهم معه بشأنه وإذا فرض وتوصلنا لاتفاق فى هذا المؤتمر - ولو أنى أشك فى ذلك تماما - يحدد دورا للأردن فنستطيع أن نعلق موافقتنا النهائية عليه على شرط قبول الملك حسين له، كما أنى أرى أن إبداء استعدادك للحلول محل الأردن فى الضفة الغربية سينحرف بمجرى الأمور إلى منعطف خطير وسيؤدى إلى كارثة لن يستفيد منها غير إسرائيل».

وهز الرئيس رأسه عدة مرات ولم يجب.

الخروج من الدوامة ..

تركت الرئيس السادات وأنا أشعر بقلق غامض وانقباض من مجريات الأمور، وأخذت استعرض التطورات الأخيرة وتوصلت إلى أن سبب قلقى يعود إلى المشروع الأمريكى الذى قدم إلينا بعد التشاور مع الجانب الإسرائيلى، فقد أحسست أن هذا المشروع هو إنذار واضح صريح بالخطر، فقد كان يحمل برهانا قاطعا على التخاذل الأمريكى فى مواجهة الضغوط الإسرائيلية، فليس من المعقول أو المقبول أن الولايات المتحدة بجلالة قدرها وعظيم هيلمانها يصل بها الحال إلى التخلى عن مواقفها الدولية المعلنة، وعما وعدنا به وزير خارجيتها عند اجتماعه بالوفد المصرى منذ ثلاثة أيام فقط لتقدم لنا بعد جلسة مع الإسرائيليين مثل هذا المشروع المسخ المشوه وتعتبره أساسا للتفاوض بين الجانبين، ومهما نجحنا فى تعديله إلى الأفضل فسيظل قاصرا عن بلوغ الحد الأدنى الذى نستطيع قبوله، ثم إن ما قد ندخله عليه من تعديلات سيعرض على الجانب الإسرائيلى من جديد ويخضع لضغوطه وتعديلاته بدوره ثم يعود إلينا ونحاول ترقيعه ثانية وهكذا دواليك.

وبعبارة أخرى سننزلق إلى دوامة من المشروعات وسلسلة من المد والجزر ولكنها فى النهاية وفى أحسن صورها الممكنة ستقف عند حل وسط لا يفى باحتياجاتنا وتستفيد منه إسرائيل.

وتحدثت مع أحمد ماهر طويلا حول هذه الفكرة وكان متفقا معى فى الرأى تماما وانتهى تفكيرنا إلى وجوب إعداد تخطيط نتبعه للخروج من هذه الدوامة بأقل الأضرار إذا اقتضى الحال.

وعدت إلى الرئيس وكان يتأهب للنوم وحدثته بما يجول فى خاطرى، وأن من شأن انزلاقنا فى هاوية المشروعات والصياغات المستندة إلى المشروع الأمريكى أن يؤدى إلى تآكل موقفنا ووضعنا فى مركز حرج إزاء الجانب الأمريكى فى نهاية الأمر، وقال السادات «الحق معك، أعد لى مذكرة تقدير موقف كما كنا نفعل فى الجيش».

وعهدت إلى أحمد ماهر بكتابة المذكرة فانصرف لذلك بينما عكفت مجموعة الخبراء بالوفد المصرى طوال الليل على دراسة المشروع الأمريكى وإعداد نفسها لمناقشته، وكانت قد تحددت الساعة الثالثة من بعد ظهر اليوم التالى الثلاثاء ٢١ سبتمبر (أيلول) لاجتماع الوفدين المصرى والأمريكى لهذا الغرض.

وفى صباح اليوم التالى قدم لى ماهر المذكرة فأخذتها إلى الرئيس السادات وكان لا يزال نائما فتركتها مع سكرتيره وعدت وكان هذا نصها :

سرى للغاية
مذكرة
للعرض على السيد الرئيس

أولا : مقدمة

١- إن الهدف المصرى من اجتماع كامب ديفيد كان ولا يزال :

(أ) التوصل عن طريق الضغط الأمريكى على إسرائيل إلى وضع إطار واضح ومحدد للسلام يكون مقبولا مصريا وعربيا.

(ب) الخروج من الاجتماع بموقف مصرى - أمريكى موحد أو على الأقل متقارب إلى درجة كبيرة، فى مواجهة موقف إسرائيلى متعنت.

٢- وفى كل الأحوال فإن وسيلة مصر لتحقيق أى من الهدفين هى :

(أ) إظهار المرونة.

(ب) التمسك بالأساسيات.

(جـ) الحفاظ على العلاقات المصرية الأمريكية وتدعيم الثقة المتبادلة بين السيد الرئيس والرئيس كارتر.

٣- وقد وضح من الورقة الأمريكية ومن خلال اجتماع الوفدين عدة حقائق نوجزها فيما يلى :

(أ) إن الرئيس كارتر يتعرض لضغوط داخلية (تمثلها اتجاهات الرئيس ومونديل) وضغوط إسرائيلية تستغل الضغوط الداخلية.

(ب) أن نتيجة تلك الضغوط، أن الرئيس كارتر قبل أن يضع فى الورقة الأمريكية صياغات تبتعد عن المواقف الأمريكية المعلنة بالنسبة للعناصر الأساسية للتسوية، وتقترب من المواقف الإسرائيلية.

(جـ) أن كارتر فى قبوله ذلك، كان تحت تأثير فهم خاطىء لمعنى المرونة المصرية، فقد تصور أن مصر على استعداد لتقديم تنازلات موضوعية تذهب إلى مدى أبعد كثيرا مما نحن فى الواقع على استعداد لقبوله.

٤- وقد أوقعت كل تلك العوامل الرئيس كارتر فى تناقض أساسى، إذ بينما هو مازال مقتنعا بأن أى اتفاق يتم التوصل إليه فى كامب ديفيد يجب أن يحصل على تأييد السعودية وأن يشجع الأردن على الانضمام للمفاوضات، فإن المقترحات التى تقدم بها تؤدى فى الواقع إلى عدم تحقيق ذلك، بل قد تدفع السعودية إلى اتخاذ مواقف من شأنها الإضرار بمصالح الولايات المتحدة.

كما أنه بينما الرئيس كارتر يستهدف التوصل إلى اتفاق يفوت على الاتحاد السوفيتى أهدافه فى المنطقة، فإن الورقة التى تقدم بها تعطى فى الحقيقة الاتحاد السوفيتى الفرصة ليجمع حوله قوى كثيرة فى الشرق الأوسط تزعم أن الولايات المتحدة قد انحازت لإسرائيل، وأن الخط المصرى القائم على التعاون مع أمريكا سيؤدى إما إلى الفشل أو إلى اضطرار مصر لتقديم تنازلات غير مقبولة عربيا.

٥- وكل هذه الاعتبارات والحقائق يجب أن تحكم التحرك المصرى فى المرحلة القريبة القادمة على ضوء الأهداف الثابتة لمصر.

ثانيا: التحرك المصرى

١- فى الاجتماع بين وزيرى الخارجية اليوم، سيحاول الجانب المصرى بمزيج من الحزم والمرونة أن يعدل الورقة الأمريكية بما يتفق إلى أقصى حد ممكن مع المواقف المصرية الأساسية، خاصة وأن الجانب الأمريكى أبدى استعداده للنظر بروح الإنصاف إلى أية تعديلات تتقدم بها مصر، وسوف نستند فى محاولتنا هذه إلى :

(أ) حسن الاستعداد الأمريكى.

(ب) حرص الولايات المتحدة على أن يكون ما يخرج من كامب ديفيد، أو من الجانب الأمريكى وحده، من شأنه تدعيم موقف مصر كقوة رئيسية ومؤثرة ومعتدلة فى المنطقة لمواجهة المناورات السوفيتية.

(جـ) حقيقة أن المواقف الأمريكية المعلنة سابقا لا تختلف إلا فى جزئيات عن المواقف المصرية الأساسية التى لا يمكن التنازل عنها.

٢- ومن الطبيعى أن هذا الجهد المصرى تجاه الولايات المتحدة تواجهه ثلاثة احتمالات:

(أ) احتمال النجاح الكامل وهذا مستبعد إذ ليس من المتصور أن تتبنى الولايات المتحدة الموقف المصرى تماما.

(ب) احتمال النجاح الجزئى وهذا يستدعى دراسة متأنية وعميقة لما أمكن التوصل إليه لدراسة مدى قدرة مصر على قبوله، وهذه الدراسة تتم فى إطار :

- الحرص على العلاقات المصرية الأمريكية.
- الحرص على مكانة مصر فى العالم العربى.

دون أن يكون أى من الهدفين المشار إليهما قيدا حديديا على الإرادة المصرية وحرصها على تحقيق المصالح الوطنية العليا لمصر، بمعنى ألا يكون العالم العربى أو لأمريكا حق «الفيتو» على التحرك المصرى طالما أنه يتم فى إطار الالتزام بالمبادىء الأساسية.

(جـ) احتمال الفشل وتمسك الولايات المتحدة بمفاهيم وصياغات لا يمكننا قبولها وهذا الاحتمال وإن كان واردا فإنه يجب الحرص على:

● ألا تكون الصياغات التى تتمسك بها أمريكا مما يمكن أن تقبله إسرائيل، حتى لا نجد أنفسنا فى وضع تكون فيه إسرائيل قد قبلت مشروعا أمريكيا بينما رفضته مصر، فنعود إلى الوضع السابق من تحالف أمريكى - إسرائيلى وتناقض مصرى - أمريكى.

● ألا يكون أسلوب رفضنا من شأنه الإساءة إلى العلاقات المصرية - الأمريكية، والتأثير على رغبة وقدرة الرئيس كارتر فى الاستمرار فى الدور الذى نرى أنه حيوى للتوصل إلى تسوية.

٣- وانطلاقا مما سبق، فإنه فى حالة اضطرارنا إلى رفض المقترحات الأمريكية فإنه من المهم اتخاذ الخطوات التالية :

(أ) التفاهم مع الرئيس كارتر بالنسبة للأسلوب الذى سيقوم به بإعلان نتائج الاجتماع إلى الشعب الأمريكى والعالم.

وفى هذا الصدد فمن الأساسى إقناع الرئيس الأمريكى بأن يتم ذلك على النحو التالى :

● تأكيد المواقف الأمريكية المعلنة بالنسبة للانسحاب والحدود والمستوطنات والأمن والقضية الفلسطينية وتطبيع العلاقات والضمانات.

● شرح فلسفة المقترحات الأمريكية.

● تأكيد استمرار الولايات المتحدة فى الاضطلاع بدور الشريك الكامل.

(ب) قيام السيد الرئيس بزيارة واشنطن، وتناول سيادته مع الكونجرس وفى وسائل الإعلام النقاط التالية :

● تأكيد الثقة فى الولايات المتحدة، وتقدير جهودها والرغبة فى استمرار هذه الجهود.

● تأكيد الحرص على العلاقات المصرية الأمريكية.

● إبراز المرونة المصرية منذ مبادرة الرئيس (إعلان المشروع المصرى).

● إبراز تعنت مناحم بيجن الذى أدى إلى عدم تحقيق نتائج إيجابية فى كامب ديفيد.

(جـ) قيام السيد الرئيس فى طريق العودة بزيارة بعض دول أوروبا الغربية لإيضاح النقاط السابقة.

(د) اتصال السيد الرئيس بالزعماء العرب المعتدلين مثل (السعودية - الأردن - المغرب - السودان) لإيضاح النقاط السابقة مع التركيز على :

- أن جهود السلام مازالت ممكنة.
- أن أمريكا ستستمر فى جهودها.
- أن تحرك القيادات العربية العاقلة لدى الولايات المتحدة لدعم الموقف المصرى من شأنه التمهيد لإعطاء دفعة جديدة لجهود السلام.

(هـ) ويمكن بعد ذلك التفكير فى عقد مؤتمر قمة عربى مصغر يؤكد المعانى السابقة ويتحرك فى اتجاه جهد عربى موحد ونهائى لتحقيق السلام بمختلف الوسائل المتاحة وسوف يكون هذا الجهد - سواء نجح أو فشل - هو الذى سيحدد أسلوب التحرك لهزيمة الأهداف الإسرائيلية.

٤- ومن الضرورى أن تتم هذه التحركات بحيث تظهر نتائجها قبل موعد تجديد فترة القوات الدولية فى ٢٤ أكتوبر (تشرين الأول) القادم

مع عظيم الاحترام.

محمد إبراهيم كامل

١٩٧٨/٩/١٢م **وزير الخارجية**

ولعلنى لست فى حاجة إلى استرعاء نظر القارىء إلى الأسلوب السيكولوجى الهادىء المرن الذى صيغت به هذه المذكرة، والذى كان يستهدف أن يتجرع الرئيس السادات محتوياتها بما يشعره بأن فشل مؤتمر كامب ديفيد لا يعنى فشل مبادرته ونهايتها، وبما لا يثير جزعه من احتمال أن يؤدى ذلك إلى صدام بينه وبين الرئيس كارتر الذى بات يعتقد أنه أمله الوحيد وحجر الزاوية فى علاقاته الدولية، وأخيرا بأن يتقبل بصورة طبيعية - لا تمس كبرياءه ولا تجرح مشاعره - التوجه من جديد نحو العرب بصورة متدرجة تبدأ بالاتصال بالزعماء العرب المعتدلين ثم مؤتمر قمة مصغر يؤدى بدوره إلى موقف عربى موحد ونهائى لتحقيق السلام بمختلف السبل المتاحة، وفقا للسيناريو الذى تم الاتفاق عليه بينى وبين الأمير سعود الفيصل فى شهر مايو (آيار) الماضى.

الفصل التاسع والثلاثون

هل نصل إلى حل وسط

كنت وأحمد ماهر فى طريقنا إلى المطعم لتناول الغداء عندما قابلنا الرئيس كارتر راكبا دراجته فأوقفها وحيانا ووقف معنا، ولم يلبث التهامى أن ظهر وانضم إلينا وجرى بينى وبين الرئيس كارتر الحديث التالى :

الرئيس كارتر: لقد مضى أسبوع كامل على بدء المؤتمر، وأرجو أن نستطيع التوصل إلى اتفاق يرضى الطرفين فى خلال الأيام القليلة القادمة.

محمد إبراهيم كامل: إنى آسف إذ لا استطيع أن أشاركك تفاؤلك فالموقف الإسرائيلى على جموده وتعنته، كما أن المشروع الأمريكى الذى قدم إلينا أمس بعيد كل البعد عن تحقيق الحد الأدنى الذى نستهدفه ولا يمكن لنا قبوله.

الرئيس كارتر: إن هذا مجرد مشروع يقبل الأخذ والعطاء وسنراعى بطبيعة الحال ملاحظاتكم ومقترحاتكم بشأنه ويمكن تعديله على ضوئها، المهم أن نتوصل إلى اتفاق مقبول للطرفين.

محمد كامل: إن مشكلتنا أننا لا نستطيع ولا نملك إجراء أى تنازلات عن الأراضى العربية المحتلة، ويمكن لنا إظهار مرونة كبيرة فيما يتعلق بترتيبات الأمن وعلاقات السلام، ولكن من الواضح أن هذا ليس هو ما تسعى إليه إسرائيل، بل كل هدفهم هو ضم الأراضى العربية المحتلة أو أجزاء منها. وأرجو مخلصا ألا تحاولوا الضغط على

الرئيس السادات فى هذه النقطة، فهو لا يستطيع أن يفعل شيئا، وإن هو فعل فلن توافق الدول أو الشعوب العربية الأخرى على أى اتفاق يتضمن مثل هذه التنازلات، وسينهار مركزه تماما، وتضيع فرصة السلام وتبقى المشكلة بلا حل.

الرئيس كارتر: إنه يستحيل عمليا فى المرحلة الحالية التوصل إلى اتفاق يحل جميع المشاكل دفعة واحدة، وأنا أعتقد أنه يجب تحاشى التعرض لبعض المشاكل الحساسة التى يصعب التوصل إلى حلول بشأنها الآن مثل موضوع السيادة على الضفة الغربية وغزة ومشكلة القدس. وتأجيلها إلى مرحلة تالية فى المستقبل.

وأضاف الرئيس كارتر: إن الاتحاد السوفيتى يمرح ويرتع فى منطقة القرن الافريقى والشرق الأوسط لأنه يعلم أن لمصر خمس فرق بأكملها مربوطة على ضفة قناة السويس لا يمكن تحريكها، فإذا ما توصلنا إلى اتفاق سلام بين مصر وإسرائيل، فلن تكون هناك حاجة إلى بقاء هذه الفرق الخمس مجمدة على القناة، وسوف يصبح الرئيس السادات حرا ويستطيع إعادة توزيعها على النحو الذى يراه ويختاره مما سيضطر الاتحاد السوفيتى إلى أن يعيد مراجعة حساباته ويتوخى الحذر فى مغامراته وتصرفاته.

محمد كامل: إذا سمحت لى يا سيادة الرئيس، فإننا مجتمعون هنا لحل النزاع العربى الإسرائيلى وليس للتصدى لمخططات الاتحاد السوفيتى، وإنى أؤكد لك من جديد أن حل القضية الفلسطينية حلا عادلا سيؤدى إلى السلام والاستقرار فى الشرق الأوسط، وسيؤدى إلى تقليص نفوذ الاتحاد السوفيتى فى هذه المنطقة. وإذا شئت لهذا المؤتمر أن ينجح، فلا بد من التوصل إلى اتفاق ينص على انسحاب إسرائيل من الضفة الغربية وغزة ومن القدس العربية، وهو ما سيجذب الأطراف الأخرى للمساهمة فى جهود السلام.

الرئيس كارتر: يبدو أنك لم تدرك ما أقصده، فأنا أرى أنه ليس من العدل أن نحمل الرئيس السادات وحده مسؤولية تسوية النزاع العربى الإسرائيلى بأكمله، وما أريده هو أن أرفع عن كاهل السادات العبء فيما يتعلق بالضفة الغربية والقدس وأحمله للملك حسين والملك خالد.

محمد كامل: ها نحن نعود ثانية، فلن يقبل الملك حسين أو الملك خالد الانضمام إلى المباحثات، ما لم تتم على أساس انسحاب إسرائيل من الضفة الغربية والقدس.

الرئيس كارتر: بل سيقبلان، وقد أرسلت إلى الملك حسين للحضور إلى واشنطن فى الأسبوع القادم، كما أرسلت إلى الأمير فهد وسيصل فى أواخر هذا الشهر.

محمد كامل: صدقنى يا سيادة الرئيس أنهما لن يحضرا.

الرئيس كارتر: بل سيحضران.

وأدار كارتر دراجته ومضى بعيدا.

وأود هنا التعليق على مفهومين وردا فى حديث الرئيس كارتر السابق الإشارة إليه.

الأول: أن الرئيس السادات كان يتوق إلى أن يصبح حليف أمريكا ورجلها وشرطيها، وكان يعتقد أن مدخله إلى قلب الولايات المتحدة والحصول على بركتها وتأييدها ومعوناتها وسلاحها هو معاداته الشرسة للاتحاد السوفيتى وإهانته وسبه والتنديد بشروره ومخاطره، وإبداء استعداده لأن يقوم لحسابها بالتصدى للتغلغل السوفيتى فى منطقة الشرق الأوسط وأفريقيا، بالإضافة إلى مساندته للنظم التى تدور فى فلك أمريكا كنظام الرئيس موبوتو فى زائير على سبيل المثال، بل إنه يمكن تصور أن قيامه بمبادرته لإقرار السلام مع إسرائيل، يدخل فى خلفياتها استرضاء أمريكا وكسب ودها لما لإسرائيل من مكانة وحظوة لديها.

الثانى: أن الرئيس السادات - ربما من هذا المنطلق نفسه - كان مقتنعا بأن المملكة العربية السعودية مرتبطة ارتباطا جذريا بالولايات المتحدة خاصة من زاوية أمنها ، وبالتالى فهى دولة تابعة لها، لا تستطيع أن تعصى لها أمرا أو تخالف لها مشورة، وأن الملك حسين بدوره - بالإضافة إلى ارتباطاته بالولايات المتحدة - فهو لا يستطيع إلا أن ينفذ ما تشير به عليه السعودية، لاعتماده عليها إلى حد كبير فى حل مشاكل الأردن المالية والاقتصادية.

وكثيرا ما كان يثور بينى وبين الرئيس السادات الجدل حول هذا الفهم، فكنت أقول له إن ما يعتقده حق فى شطر منه، ولكنه يغفل الشطر الآخر وهو أن السعودية بقدر تأثرها بالولايات المتحدة، تستطيع أن تؤثر على هذه الأخيرة بدورها من واقع إمكانياتها الهائلة واعتماد الغرب على ما لديها من الطاقة وعلى دولاراتها البترولية، كما وأن الأردن بدوره يستطيع أن يقول لها لا فيما لا يمكن له قبوله.

وإذا كانت إسرائيل الدولة المنفردة المنعزلة التى تعتمد اعتمادا مطلقا على الولايات المتحدة اقتصاديا وسياسيا وعسكريا لا تنفذ من طلبات الولايات المتحدة إلا ما يروق لها منها، أفيكون ذلك غريبا على السعودية والأردن خاصة وأنهما ينتميان عضويا إلى مجموعة الدول العربية وروحيا إلى مجموعة الدول الإسلامية وسياسيا إلى مجموعة عدم الانحياز ؟ وكيف أقول له : هل تستطيع السعودية مثلا أن توافق على ضم إسرائيل للقدس إذا طلبت منها أمريكا ذلك فتهدر زعامتها للعالم الإسلامى، أو هل يستطيع الملك حسين، إذا طلبت منه الولايات المتحدة ذلك، أن يقر ضم إسرائيل للضفة الغربية فيوقع بذلك صكا بانتحاره ؟

وأعود من هذا الاستطراد إلى أن تلك كانت عقيدة السادات بالنسبة للسعودية والأردن على كل حال، وفى اعتقادى أنه نجح فى أن يقنع كارتر إلى حد كبير بهذا الفكر، وبالتالى فى عدم أخذ ما تبديه السعودية أو الأردن من عتراضات على ما قد تتضمنه التسوية من تجاوزات – فى بعض النقاط – مأخذ الجد، وأنهما سيتبعان فى النهاية ما تقرره مصر وأمريكا صاغرتين، وفى اعتقادى أن هذا الفهم كان أكبر خطأ فى الحساب والتقدير وقع فيه الأمريكيون والسادات على حد سواء عند توقيع اتفاقيات كامب ديفيد.

هل تبدد الشعور بالوحدة..

بعد انصراف الرئيس كارتر توجهت إلى استراحة الرئيس السادات لأحيطه علما بما دار بيننا، وكان جالسا وحده وتبدو عليه معالم السأم والشعور بالوحدة، ويبدو أن المناقشة التى دارت بيننا بالأمس بشأن دور الأردن فى الضفة الغربية فى أية تسوية قد أثرت فيه، فبعد أن انتهيت من رواية حديثى مع كارتر قال لى إنه طلب الملك حسين تليفونيا فى الصباح – فى لندن حيث كان فى زيارة خاصة – إلا أنه يبدو أنه نسى الفرق فى التوقيت بين أمريكا وأوروبا، وقد وعدوه بأن يتصل به الملك حسين قبل أى شىء فى الصباح، وبالفعل لم يلبث أن دق جرس التليفون وكان المتحدث الملك حسين ودار بينهما حديث ودى، وقال السادات إن معركة التفاوض تجرى على أشدها، وإن المحادثات شرسة وصعبة، وقد قدم مشروع إطار للسلام، كما قدمت أمس الولايات المتحدة مشروعها لنا وتجرى دراسته ومناقشته.

وقال السادات أنه غير متفائل بإمكان التوصل إلى اتفاق لأن مناحم بيجن لايزال راكبا رأسه ومتمسكا بأفكاره الخيالية، إلا أنه سيعطى الأمر ما يقتضيه من وقت من أجل خاطر الرئيس كارتر الذى يبذل جهودا جبارة لتقريب مواقف الطرفين، وأبلغ الملك حسين بأنه سيزور الملك الحسن بالمغرب فى طريق عودته، واستفسر عن إمكانية لقاء الملك حسين هناك، واعتذر الملك حسين باضطراره للعودة فى الغد إلى الأردن واتفقا على استمرار الاتصال بينهما.

موقف يذكر للوفد المصرى ..

فى الساعة الثالثة بعد الظهر بدأ اجتماع الوفدين المصرى والأمريكى برئاسة وزيرى الخارجية لمناقشة المشروع الأمريكى، وقد بدأت الحديث بمقدمة أعربت فيها عن تقديرنا لجهود الرئيس كارتر والوزير فانس لمحاولة التوصل إلى تسوية للنزاع العربى الإسرائيلى، وذكرت أننا جئنا إلى كامب ديفيد للتعاون معا فى تحقيق الهدف السامى الذى هو إقرار السلام العادل الشامل، وعبرت عن ثقتنا فى أن الولايات المتحدة ستتمسك فى النهاية بمواقفها المعلنة من حل النزاع.

وقلت «لقد تلقينا أخيرا وبعد طول انتظار الورقة الأمريكية، وأود قبل أن أشرح ملاحظاتى العامة عليها، أن أبرز ما أعتقد أننا نتفق فيه تماما مع الولايات المتحدة وهو أولا : الحرص على العلاقات الأمريكية المصرية؛ وثانيا : الحرص على تحقيق تسوية عادلة وشاملة للنزاع فى الشرق الأوسط، ويعنى هذا أن أية نتائج قد نتوصل إليها هنا يجب أن تشجع الأطراف العربية الأخرى على الاشتراك فى جهود السلام؛ وثالثا : الحرص على تجنيب المنطقة أخطار عدم الاستقرار والتدخلات الخارجية، وهذا يعنى عدم الانزلاق إلى خلق ظروف ينتهى بها الأمر إلى الإساءة إلى أمريكا والأنظمة المعتدلة فى المنطقة، ثم تلوت البيان الذى أعددناه بملاحظاتى العامة :

لقد درسنا الورقة الأمريكية بكل اهتمام ودقة، وقد أعددنا ملاحظات تفصيلية عنها سيتولى زملائى شرحها، ولكنى أود فى البداية أن أبدى بعض الملاحظات العامة :

١- أول ملاحظة هى شعورى بالأسف لأن الولايات المتحدة رأت أن تعطى مقترحاتها لإسرائيل أولا، وأن تناقشها معها، ثم تعدلها على ضوء ملاحظات إسرائيل، وأنا أقول ذلك لأنى ألاحظ أن المقترحات الأمريكية كما قدمت لنا تعكس الكثير من

الأفكار الإسرائيلية، ولقد كنا نأمل تسهيلا لأعمال الاجتماع، لو كان الجانب الأمريكى قد قدم ورقته إلى الطرفين فى وقت واحد بحيث تكون الورقة معدة عن المواقف الأمريكية المعروفة والمعلنة ليكون أساسا للمناقشة.

٢- إن الورقة تميل إلى الجانب الإسرائيلى، من حيث إنها تطالب الجانب العربى بتنفيذ التزامات محددة وواضحة (إنهاء حالة الحرب، تطبيع كامل للعلاقات) ولا تطالب إسرائيل بالتزام بالتفاوض مع إعطائها حق «الفيتو» بالنسبة للكثير من الموضوعات.

٣- إن المقترحات الأمريكية لم تتحدث عن تنفيذ قرارات الأمم المتحدة بل عن التفاوض على أساسها، وهذا يدخلنا فى حلقة مفرغة.

٤- إن المقترحات لا تؤكد بوضوح ضرورة الانسحاب الكامل من سيناء، بل تؤكد سيادة مصر على سيناء فقط ومن الضرورى تأكيد الانسحاب الكامل.

٥- إن المقترحات بالنسبة للضفة الغربية لا تتضمن ما أشار إليه الدكتور بريجنسكى من «خلق ديناميكية » بل إنها تتيح لإسرائيل فرصة منع الشعب الفلسطينى من مباشرة حقوقه، وتعطى لإسرائيل سلطات وحقوقا تتيح لها فى الواقع إفشال أية احتمالات لتطوير الموقف بعد انتهاء الفترة الانتقالية.

٦- إن هذه المقترحات أهملت تماما حق تقرير المصير للشعب الفلسطينى، وأعطت لإسرائيل حق «الفيتو» بالنسبة لمباشرة هذا الحق، وفيها تعديل خطير لصيغة أسوان بحذف الإشارة إلى الشعب الفلسطينى.

٧- كما أنها أهملت النص على أن يكون الانسحاب إلى خطوط الهدنة فى الضفة الغربية وغزة مع تعديلات طفيفة، بل تركت المجال مفتوحا لتحاول إسرائيل ابتلاع الضفة كلها أو نصفها.

٨- لا تتناول المقترحات تصورا واضحا للموقف بعد انتهاء الفترة الانتقالية، كما أنها بينما تعطى لإسرائيل دورا فى الفترة الانتقالية لا تعطى لمصر والأردن دورا إلا الاشتراك فى المفاوضات.

٩- تختلق الورقة موضوع لاجئين يهود لا وجود له.

١٠- بالنسبة لإجراءات الأمن، فإن الورقة تستهدف أن تجعل من قوات الأمن التى يراد أن يشترك فيها أردنيون، قوة مهمتها الوحيدة حماية إسرائيل.

١١- لم تتضمن الورقة نصا بشأن المستوطنات رغم ما قرره لى المستر فانس من وجوب إزالة المستوطنات فى سيناء وتجميدها لمدة خمس سنوات فى الضفة الغربية وغزة.

١٢- تعطى المقترحات إسرائيل حق «الفيتو» فى مسائل كثيرة منها :

(أ) الخلاف حول تفسير الاتفاقية.

(ب) عودة النازحين واللاجئين.

١٣- تتناول المقترحات القدس بطريقة غامضة توحى باستمرار الحكم الإسرائيلى فيها.

١٤- تعالج المقترحات الأمن الإسرائيلى ولا تهتم بأمن الأطراف العربية.

وهناك ملاحظات أخرى كثيرة سيعرضها زملائى فى الوفد بالتفصيل قبل أن نقدم تعديلاتنا على الورقة، ولعلى أكتفى الآن بالقول إنه للأسف لا يبدو واضحا من شكل الورقة ولا من مضمونها أنها مقترحات أمريكية.

والخلاصة أن المقترحات الأمريكية تضع مصر فى موقف حرج تجاه بقية العالم العربى كما ورد على سبيل المثال فى الإشارة إلى الاستعداد للسير وحدنا فى التسوية فى الضفة الغربية إذا لم تدخل الأردن فى المفاوضات وهذا تحد لا داعى له، وليس من شأنه تشجيع الأردن على الدخول مادامت الورقة الأمريكية تستخف باشتراكها، كما أن المقترحات فى حد ذاتها لا يمكن أن تحصل على تأييد السعودية، الذى اتفقنا على أهميته، ولن تتيح اشتراك الأردن، ولا هى تتفق مع الحد الأدنى لما يمكن أن تقبله مصر لتحقيق تسوية شاملة وعادلة للنزاع.

وقد أوضحنا هذا الموقف المصرى فى ورقتنا ويتلخص فى ضرورة :

(أ) تحقيق توازن بين التزامات الأطراف.

(ب) تأكيد انسحاب إسرائيل الكامل عدا بعض تعديلات طفيفة فى الخطوط فى الضفة الغربية تتفق عليها الأطراف.

(جـ) احترام السيادة والأرض.

(د) تأكيد الأمن للطرفين.

(هـ) ضمانة مشاركة باقى الأطراف العربية فى جهود السلام.

وعلى ضوء كل ما سبق أترك لزملائى عرض ملاحظاتنا، وتعديلاتنا نتقدم بها انطلاقا من رغبتنا فى ألا يكون ما نخرج به من هنا مجرد ورقة قد تضر أكثر مما تنفع، بل مساهمة حقيقية فى دعم جهود السلام العادل والشامل والدائم[1].

ثم بدأت المناقشات واشترك فيها من الجانب الأمريكى فانس وسوندرز وأثرتون وكوانت، وحمل لواءها من الجانب المصرى أسامة الباز وعبد الرؤوف الريدى مدير إدارة التخطيط بوزارة الخارجية ونبيل العربى مدير الإدارة القانونية بها، ولا أبالغ البتة إذا قلت أنهم سيطروا بكل كفاءة وجدارة على مجرى المناقشة وكان الجانب الأمريكى - وأشهد له وخاصة سيروس فانس بالشجاعة وبروح الإنصاف - فى موقف الدفاع أغلب الوقت، وكثيرا ما كان يبدو عليهم الحرج بل الخجل أمام الحجج المصرية الدامغة والمنطق الواضح المستقيم المعزز بالأسانيد القانونية المؤكدة.

وقد وافق فانس على حذف نقاط كثيرة مما تضمنها المشروع الأمريكى بناء على طلب الجانب المصرى، وعلى تعديل نقاط أخرى كما وعد بإعادة النظر فى غيرها. وسأظل أذكر موقف الوفد المصرى فى تلك الجلسة بالفخر والاعتزاز.

لغز الميل المربع..

فى اليوم التالى ذهبت إلى الرئيس السادات وكان معه حسن التهامى وكان حديثهما يدور حول القدس، وفى الحقيقة فقد كان حسن التهامى لا يكل ولا يمل من ترديد وجوب استعادة القدس العربية من بين براثن إسرائيل، وبطبيعة الحال كان موضوع استعادة القدس على رأس قائمة اهتماماتنا جميعا، ولكنه كان لا يجلس فى مكان إلا ويتناولها بالتخصيص من بين المشاكل الأخرى.

وفجأة قال السادات «إنه يكون شيئا عظيما حقا لو استطعنا تنفيذ فكرة الميل المربع»، وسألته عن ماهية حكاية الميل المربع، فقال التهامى «أن تنسحب إسرائيل من مساحة ميل مربع من القدس ونرفع عليها علما عربيا أو إسلاميا»، غير أن التهامى أو

---

(١) جدير بالذكر أن كل ما تضمنه هذا البيان من ملاحظات واعتراضات على المشروع الأمريكى تكاد تنطبق بحذافيرها على اتفاقيات كامب ديفيد التى تم التوقيع عليها فى نهاية المؤتمر.

الرئيس السادات لم يفسرا لى سر هذا الميل المربع ولا منطقه، ولم يسمح لى تزاحم الأحداث بعد ذلك بمعاودة الاستفسار، ومازالت قصة هذا الميل المربع تشكل بالنسبة لى لغزا محيرا وسرا مغلقا، فلماذا ميل مربع، هل لا تتجاوز مساحة القدس هذا القدر؟ وإن كانت لا تتجاوزها فهل من المعقول أن تكون هذه المدينة التاريخية البالغة القدم قد أقيمت هندسيا فى نطاق ميل مربع؟ وإذا لم تكن كذلك فماذا عن النتوءات أو الأحياء التى تكون خارج حدود هذا الميل هنا أو هناك؟

المهم أنى استنتجت فى النهاية أنها من بنات أفكار حسن التهامى، وقال التهامى «فقط أرجوك ياريس أن تكون عند اتفاقنا بتعيينى حاكما عاما على القدس (الميل المربع) فأنا لم أطلب منك فى حياتى شيئا وليس لى مطلب آخر فهذا هو حلم حياتى الذى أدعو الله أن يحققه قبل مماتى!!»

وتمتم السادات بشىء لم أفهمه، وابتلعت حيرتى وسكت، ولا أدرى لماذا عادت إلى ذاكرتى فى هذه اللحظة القصة التى رواها لى ولأحمد ماهر التهامى، عندما كنا نتناول العشاء فى «فوشل» بالنمسا بشأن الاتفاق الذى جرى بين اليهود وربهم حول عودتهم إلى «أورشليم»، كبرهان على قبوله توبتهم، ثم يذبحون تكفيرا عن عصيانهم. ونظرت إلى حسن التهامى وتداعت إلى خيالى صورته وهو يرتدى زى الحاكم العام ويجلس على كرسيه وسط الميل المربع، والجموع تحتشد من حوله تلتمس تنفيذ الحكم الإلهى، وسرت فى جسمى قشعريرة وطردت هذا الخاطر بعيدا.

المشروع المعدل ..

وتلقينا فى هذا اليوم مشروعا أمريكيا ثانيا معدلا على ضوء المناقشات التى جرت بيننا وبين الجانب الأمريكى أمس وقد تضمن « تحسينات » كثيرة على مشروعهم الأول، وعلى سبيل المثال عادت صيغة كارتر إلى أصلها، وأضيف نص على منع إنشاء مستوطنات جديدة فى الضفة الغربية وغزة خلال « التفاوض »، وعدم التوسع فى المستوطنات القائمة، وحذف النص الذى يعالج حالة عدم دخول الأردن فى المفاوضات، إلا أن أساس المشروع ظل على ما هو عليه وهو أنه كان يعطى إسرائيل دورا أساسيا فى الضفة الغربية وغزة خلال فترة الانتقال يتيح لها الاستمرار فى الإمساك بزمام الأمور ويخولها حق « الفيتو » على أى قرار أو إجراء، كما أنه كان يأخذ بوجهة النظر

الإسرائيلية فى تعليق السيادة على الضفة الغربية وغزة فى حين أن سيادة الشعب الفلسطينى على هذه الأراضى لا يمكن إنكارها، أو أن تكون موضوع نقاش، وكنت أرى أن تبجح إسرائيل بالإصرار على عدم البت فى موضوع السيادة منذ البداية هو أقوى دليل على نواياها فى ضم تلك الأراضى، وهو أمر واضح ساطع لا يخفى على أكثر الناس سذاجة، فكيف ولماذا إذن تريد الولايات المتحدة أن تفرض علينا التفاوض من هذا المنطلق؟

وظل هيكل المقترحات الأمريكية الذى كان يستند فى الواقع إلى هيكل مشروع الحكم الذاتى الإسرائيلى ثابتا، وإنما تطرأ تغييرات فى محتوياته كلما عرض على أحد الجانبين بالتعديل أو الحذف أو الإضافة، لا تلبث بدورها أن تخضع إلى تعديل مضاد من الجانب الآخر متى عرضت عليه، وتعود الدورة من جديد فى حلقة مفرغة لا تنتهى.

أما السادات فقد بدأ ينفد صبره ويعتريه التوتر وتهتز أعصابه.

وأما بيجن فقد ظل متخندقا فى مكانه لا يتزحزح عن مواقفه الجامدة المتحجرة.

أما كارتر فقد كان يعمل بحمية ونشاط تزداد كلما تقدمت عقارب الساعة فهو لا يستطيع أن يظل بعيدا عن البيت الأبيض، تاركا مهام رئاسة الولايات المتحدة بمشاكلها الخارجية والداخلية إلى أجل غير محدد، وهو يعى جيدا أنه إذا انتهى مؤتمر كامب ديفيد دون أن يحقق نجاحا فسينعكس ذلك سلبيا على مركزه الداخلى الذى كان كما تدل استطلاعات الرأى العام قبل انعقاد المؤتمر فى أدنى درجاته منذ تولى الرئاسة.

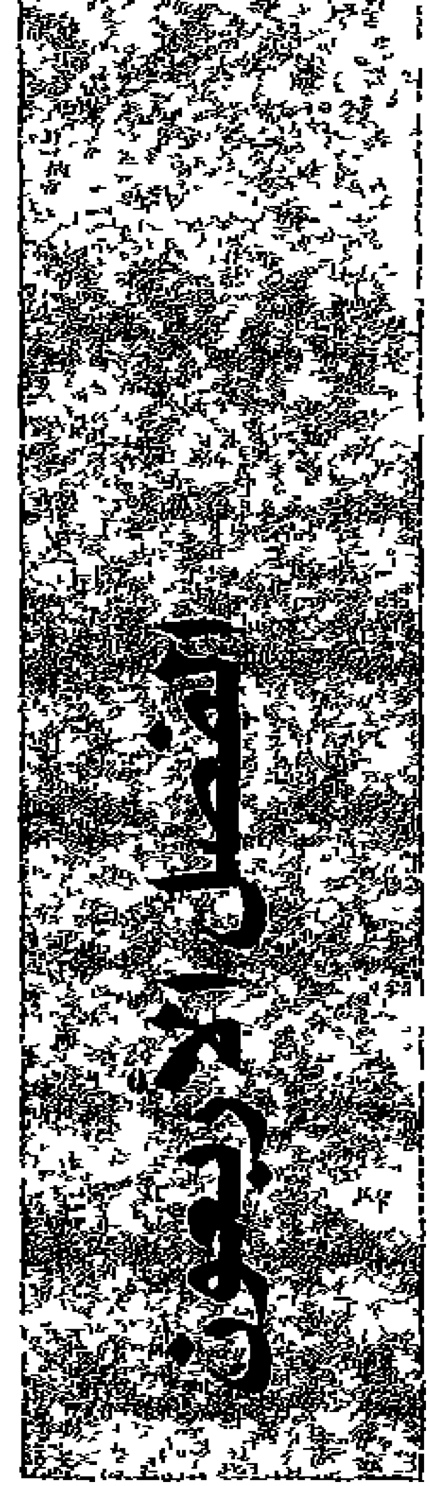
وحدثت فى ذلك الوقت ثلاثة أمور كان لها أكبر الأثر فى اتجاه المفاوضات نحو ما انتهت إليه.

الأول: أنه تبين لنا أن مناحم بيجن كان متشبثا منذ البداية بموقفه فى عدم التنازل عن المستوطنات والمطارات الإسرائيلية فى سيناء، وكان الجانب الأمريكى يحرص على عدم إحاطتنا علما بهذا الموقف - الذى كنا نعتبره من بديهيات أية تسوية - خشية أن ينفجر المؤتمر وينفض دون تحقيق أية نتائج، وكانت صياغاتهم التى قدموها لنا فى كل مشاريعهم لا تمس هذه النقطة وتقتصر على انسحاب إسرائيل من سيناء واستعادة مصر لسيادتها عليها كاملة، وهو ما كان يتحفظ عليه بيجن معهم ويفسره بأنه لا يتعارض مع الإبقاء على المستوطنات الإسرائيلية فى سيناء.

الثاني: أنه بدأ كل من الرئيس كارتر ووزير الحرب الإسرائيلي وايزمان يلحان على الرئيس السادات بأن يقابل موشى ديان - الذى كان ينفر منه ويتحاشى لقاءه كما أسلفت - وقد يكون هذا الالحاح بناء على اتفاق بينهما أو قد يكون مجرد توارد خواطر.

الثالث: أن الرئيس كارتر قرر - بزعم اختصار الوقت - أن يمسك بزمام المفاوضات فى يده، فطلب إلى كل من الرئيس السادات ومناحم بيجن اختيار أحد المستشارين القانونيين من بين أعضاء وفده للعمل معه - أى مع الرئيس كارتر - مباشرة واختار الرئيس السادات أسامة الباز واختار رئيس الوزراء الإسرائيلى أهارون باراك، وكان كارتر يجتمع على حده بكل من السادات وبيجن ويناقش معه بعض النقاط الخلافية، ثم يعود ويطلب من كل من الباز وباراك إعداد صياغة بالنسبة لتلك النقاط بعد ذلك يحاول التوفيق بين الصياغتين فى حل وسط.

ولم يكن ذلك يعنى نظريا تنحية باقى أعضاء الوفود من الاشتراك غير المباشر فى مسار المفاوضات، ولكن من الناحية العملية كانت تنتهى الأمور إلى ذلك فى كثير من الأحيان، فقد كان كارتر يحتجز كلا من الباز وباراك فى استراحته حيث يعكف على مناقشتهما ثم ينكبان - كل على حده - على إعداد صياغته ثم يعاود مناقشتهما الأمر الذى كان يمتد إلى ساعات الصباح.



انهيار أم تمثيل

في صباح يوم الخميس ١٤ سبتمبر (أيلول) زار وايزمان الرئيس السادات وأمضى معه بعض الوقت، ويبدو أنه استطاع إقناعه في النهاية بمقابلة موشى ديان، فقد دعاه الرئيس السادات لمقابلته بعد ظهر اليوم نفسه.

ويقول «ديان» فى كتابه «الاختراق»[1] : أن الرئيس السادات كانت له تحفظات على هذه المقابلة إذ كان يخشى أن أحاول إقناعه بالحصول على السلام دون أن أقدم شيئا مقابله، ولكنه فى النهاية قبل التماس وايزمان ودعانى إلى تناول الشاى معه، ويضيف ديان : أن الرئيس كارتر الذى كان يعلم سلفا بأمر هذه المقابلة قد طلب أن يراه ورجاه ألا يناقش الرئيس السادات فى المسائل المختلف عليها حتى لا يؤدى ذلك إلى زيادة تمسك كل طرف بموقفه، الأمر الذى سيزيد التوتر بين الجانبين وأنه قد وعد الرئيس كارتر بذلك، إلا أن الرئيس السادات بادر بإثارة المشاكل التى تعترض المؤتمر والذى يوشك على الانتهاء دون التوصل إلى اتفاق وأن السبب الرئيسى فى ذلك هو التعنت الإسرائيلى وإصرارهم على الاحتفاظ بالمستوطنات فى سيناء.

وأنه أعقبت ذلك مناقشة بينهما حول إنشاء إسرائيل لهذه المستوطنات، ذكر فيها ديان أن الذى دفعهم إلى إقامتها هو رفض مصر أن تستعيد سيناء بالكامل فى مقابل اتفاق سلام، حيث جاء الرد العربى من خلال مؤتمر الخرطوم الذى انعقد بمبادرة من

---

(١) راجع صفحة ١٩٠ من كتاب وايزمان «المعركة من أجل السلام».

جمال عبد الناصر برفض التفاوض أو الاعتراف بإسرائيل أو إقامة سلام معها وأن ما أخذ بالقوة يجب أن يسترد بالقوة.

ويضيف ديان: أن مسار هذه المناقشة لم يرق للسادات فاختفت الابتسامة وبدا عليه الغضب والمشاغل وقال : إن وزير خارجيته محمد إبراهيم كامل قلق يريد أن يلحق بسلفه فهمى ويستقيل وأن مستشاره الباز يعارض بشدة معاهدة سلام مع إسرائيل ويثير ضغائن أعضاء الوفد المصرى ويعزز شكوكهم، وأنه ما لم يحدث تحول فى المفاوضات لصالحه (السادات) فلا بد أن يعود إلى مصر ويعترف بفشله، ولذا يتعين علينا أن نبدأ صفحة جديدة بالانسحاب من شبه جزيرة سيناء جميعا وإعادتها إلى السيادة المصرية، وقال أن شعبه لن يوافق على أى وجود أجنبى على أراضيه ولا على وجود قوات أمريكية فى مطارات سيناء ولا على بقاء مستوطنة واحدة فيها ولو لمدة وجيزة، وإذا أردتم السلام معنا فيجب أن تكون المسائل واضحة، لقد حاربنا لنتخلص من الإنجليز، ثم حاربنا حتى تكون قناة السويس تحت سيطرتنا الكاملة وأنا الآن مستعد لإقامة سلام كامل وحقيقى معكم وأن أتجاهل معارضة الدول العربية، ولكن عليكم أن تغادروا سيناء مدنيين وعسكريين وأن تفكوا معسكراتكم الحربية وتزيلوا مستوطناتكم.

ويقول ديان: أنه لم ير مبررا للمجادلة بأن مصر كانت تشن عليهم الحروب فى الوقت الذى كان يعرض رؤساء الحكومات الإسرائيلية السلام، وأنه من الواضح أن السادات كان مصمما على استعادة سيناء وأننا إن لم ننسحب منها فسينهى مؤتمر كامب ديفيد دون اتفاقية سلام، ولذا اكتفى بأن قال للسادات : إنه سيقدم تقريرا لرئيس وزرائه عن حديثهما.

والمفهوم مما ذكره ديان أنه كان ينوى الالتزام بوعده للرئيس كارتر قبل مقابلته للرئيس السادات بعدم إثارة المسائل المختلف عليها إلا أن الرئيس السادات هو الذى بادر بإثارة موضوع المستوطنات فى سيناء وأن ديان اكتفى بالقول بأنه سينقل ما قاله السادات إلى مناحم بيجن.

ولم يشر لى السادات بكلمة حول مقابلته من قريب أو بعيد، ولكنه بعد انتهاء المقابلة استدعى أسامة الباز لمقابلته وقد أخبرنى أسامة بعد عودته بأنه وجد السادات متبرما ساخطا وأنه روى له حديث ديان معه على الوجه التالى :

قال ديان للرئيس السادات: إنك رجل شجاع وصريح ولذا سأحدثك بدورى بمنتهى الصراحة، إنك تعتقد أن المشكلة هى فى حل القضية الفلسطينية، ولكن حل المشكلة الفلسطينية يعتبر هينا بالنسبة لمشكلة المستوطنات والمطارات الإسرائيلية فى سيناء، ويجب أن تعلم أنه لا مناحم بيجن ولا شيمون بيريز ولا أى زعيم إسرائيلى آخر يستطيع التخلى عن المستوطنات والمطارات فى سيناء بأى حال، والمسألة لا ترجع إلى رغبة فى التوسع عن طريق الاحتفاظ بتلك المستوطنات، وإنما تتعلق بالأمن إذ تشكل هذه المستوطنات حزاما دفاعيا لإسرائيل، وقد صممت وأقيمت على هذا الأساس، فالشعب الإسرائيلى لا يخشى من بين الدول العربية إلا مصر فهى الدولة الوحيدة القادرة على تهديد إسرائيل تهديدا حقيقيا، ولقد أكدت حرب أكتوبر (تشرين الأول) هذا الشعور وبالتالى فإن الشعب الإسرائيلى وبالتالى الكنيست لن يقبل على الإطلاق التخلى عن المستوطنات والمطارات فى سيناء.

وعلى ذلك يجب أن تعلم أنه حتى لو وافق بيجن جدلا على إخلاء المستوطنات من حيث المبدأ فلن يستطيع تنفيذ ذلك قبل مدة لا تقل عن خمس أو ست سنوات بعد اتفاقية سلام بين مصر وإسرائيل قد يمكن بعدها إقناع الرأى العام الإسرائيلى، من خلال ممارسته لعلاقات السلام مع مصر فى هذه المدة، بصدق نوايا مصرفى الحفاظ على سلام دائم وأن المسألة ليست مجرد مناورة مرحلية.

وقال السادات: وماذا عن ترتيبات الأمن التى اقترحتها ؟

ورد ديان بأن ذلك وحده لن يوفر للشعب الإسرائيلى الشعور بالأمان.

وقال السادات: وهل تتخيلون أنه من الممكن أن أعقد اتفاق سلام معكم لا يشمل إزالة المستوطنات ونقل المطارات وأستعيد سيناء منقوصة السيادة ؟

ورد ديان: إن لم تفعل فسنستمر فى احتلال سيناء وفى ضخ البترول.

وقال السادات: ولماذا لم تقولوا ذلك من البداية ولماذا حضرتم إلى هنا إذن، لكى تضيعوا وقتى ووقتكم ووقت الرئيس كارتر ؟

وأجاب ديان بل لقد قلناه منذ البداية ولكنكم لم تريدوا أن تصدقوا، ولقد أردت أن أشرح لك حقيقة الأمر بصراحة ووضوح حتى لا تعلقوا آمالا خادعة على شئ يستحيل أن يوافق عليه بيجن فى الوقت الحالى على الأقل.

وذكر لى أسامة الباز فى النهاية أن الرئيس السادات قد كلفه بإعداد مذكرة «تقدير موقف» على ضوء حديث ديان معه. وأنه يعتقد أنه سوف ينتهى إلى نفس النتيجة التى توصلنا إليها فى المذكرة التى قدمناها للسادات يوم ١٢ سبتمبر (أيلول) على أساس التفاهم مع الرئيس كارتر على إنهاء المؤتمر دون التوقيع على اتفاقيات محددة.

ولست أشك فى أن الرواية التى رواها الرئيس السادات لأسامة الباز حول ما دار بينه وبين ديان هى حقيقة ما جرى وليس ما أورده ديان فى كتابه. ذلك أن موضوع مستوطنات سيناء لم يكن يشغل باله على الإطلاق، وكان يراه أمرا بديهيا مفروغا منه، وحتى لو كان لديه أدنى شك فلقد كان واثقا من أن الرئيس كارتر يستطيع أن يحله ببساطة، وكما أكد له منذ البداية، وبالتالى فلم يكن هناك ما يدفع السادات إلى دعوة ديان لمقابلته ليحدثه فى موضوع مستوطنات سيناء، وإنما كان القصد أن يتحدث معه فى موضوع الضفة الغربية وغزة، والذى كان يشكل الصعوبة الحقيقية فى التوصل إلى اتفاق على إطار للسلام الشامل، وهذا واضح مما ذكره السادات من أن ديان قال له فى بداية حديثه أنه يتصور – أى السادات – أن حل المشكلة الفلسطينية هو العقبة فى حين أن ذلك يعتبر أمرا هينا بالنسبة لحل مشكلة سيناء.

ولا شك أن إسرائيل كانت قد تجمعت لديها دراسة تحليلية كاملة لشخصية السادات وسيكولوجيته شارك فى تكوينها ما زودها به هنرى كيسنجر منذ مفاوضاته المكوكية فى سنتى ١٩٧٤و١٩٧٥، ودراستها لتصريحات السادات وأحاديثه وتصرفاته وما كان ينقله إليها عزرا وايزمان من خلال اجتماعاته المنفردة وأحاديثه المطولة مع السادات إلى غير ذلك من المصادر.

والواقع أن ما قاله ديان للسادات لم يكن أمرا غريبا غير متوقع فهو لا يخرج عن كونه تنفيذا للخطة الاسرائيلية الموضوعة سلفا من استخدام ورقة سيناء للمقايضة عليها بأن تخرج مصر من حلبة النزاع العربى الإسرائيلى مقابل إطلاق يد إسرائيل فى الضفة الغربية وغزة وهما بيت القصيد.[1] ولكن كان يكمن الدهاء الشيطانى فى ترتيب هذه المقابلة فى نقطتين :

الأولى: اختيار موشى ديان بالذات، فلو أن الذى قال ما قاله ديان للسادات هو مناحم بيجن مثلا لما كان له نفس الأثر المخرب على السادات، ولكن أن يتحالف كارتر

(١) ديان «الاختراق»، ص ٩٧٤.

ووايزمان – وكلاهما فى اعتقاد السادات صديق يخلص له النصيحة – ويلحان عليه فى وجوب مقابلة ديان باعتبار أنه لم يسبق له تجربة التفاهم المباشر معه رغم كونه وزيرا لخارجية إسرائيل وباعتباره فى رأيهما معا شخصا يتميز بالمرونة وبالتفكير الخصب والرغبة الصادقة فى تحقيق السلام مع العرب، فضلا عن أن له مكانة خاصة عند بيجن تمكنه من التأثير عليه فيوافقهما السادات على لقائه متطلعا إلى جديد ثم يسمع منه ما سمع فكان أمرا مخيبا للآمال مثبطا للعزيمة ولا شك.

الثانية: هى التوقيت الذى اختير لإجراء هذا اللقاء، كانت قد مضت عشرة أيام على بداية المؤتمر دون أن تبدو بادرة أمل فى التوصل إلى شئ وكانت أعصاب السادات قد بدأت تهتز وصبره أوشك على النفاد والقلق والخوف يستبدان به من جراء جمود الموقف الإسرائيلى الذى كلما اصطدم به الرئيس كارتر – الشريك الكامل – عاد مهرولا إليه ملتمسا عونه فى الحيلولة دون فشل المؤتمر ومستغيثا به فى إنقاذ مستقبله السياسى من الضياع الذى يتوقف على إبداء السادات شيئا من المرونة والكرم فى هذه النقطة أو تلك، ولم يكن يغيب عن السادات أن المؤتمر لا يمكن أن يستمر أكثر من ذلك كثيرا وأن احتمالات تحقيق آماله قد تلاشت وأن لحظة مواجهة الحقيقة قد حانت.

وفى تقديرى أن حديث ديان مع السادات الذى استغرق أقل من الساعة كان هو القشة التى قصمت ظهر البعير ونقطة التحول نحو تورطه فى قبول سلسلة من التنازلات وصلت إلى حد الاستسلام الكامل وقيامه بالتوقيع فى النهاية على ما لم يكن يراود الاسرائيليين فى أكثر أحلامهم تفاؤلا، أن يقبل التوقيع عليه.

سأترك هذا المنصب..

وفى مساء نفس اليوم توجهت إلى استراحة الرئيس السادات فوجدته فى غرفة نومه مرتديا « بيجامته » وراقدا على كنبة (أريكة) يشاهد التليفزيون وقال « أهلا يا محمد اجلس ». وعاد إلى مشاهدة التليفزيون إلى أن انتهى البرنامج الذى كان يشاهده ثم راح يسألنى عن أحوال بعض أقاربى الذين كانوا معنا فى قضية أمين عثمان ثم تحول إلى الحديث عن ذكرياته مع الرئيس جمال عبد الناصر وبعض رجال الثورة، وروى لى قصصا حول حياة المشير عبد الحكيم عامر الخاصة مما كان يوقعه أحيانا فى حرج أمام الرئيس عبد الناصر فقد كان عبد الحكيم عامر كثيرا ما يسافر يومين أو ثلاثة إلى إحدى الاستراحات دون أن يستأذن من الرئيس عبد الناصر، وكان يخطر السادات بمكان وجوده ليتصل به إذا اقتضى الحال، وفى بعض الأحيان كانت تثور بعض

المسائل المهمة ويبحث عبد الناصر عن عبد الحكيم عامر فلا يجده وينتهى بسؤال السادات عن مكان وجوده ويحار فى اختلاق عذر يقبله عبد الناصر، ثم يسارع بالاتصال بعامر ليطلب منه العودة على الفور، وكنت أستمع له وأسأله عن بعض التفاصيل.

ولم أشأ أن أشير إلى ما قاله لى أسامة الباز حول مقابلته لديان لأنه - أى السادات - لم يخبرنى أصلا بمقابلته له، وفى هذه الأثناء حضر حسن التهامى وحسن كامل وبطرس غالى وأشرف غربال وجلسوا معنا ودارت أحاديث اشتركت فيها المجموعة بعيدا عما يجرى فى كامب ديفيد، ويبدو أن ذهنى كان قد انصرف إلى التفكير فى أمر ما عندما سمعت السادات يصيح بصوت عال « وماذا أفعل إذا كان وزير خارجيتى يظن أنى أهبل » ونظرت نحوه وقد أصابنى الذهول، فلم أكن مشاركا فى الحديث ولم يكن هناك أى مبرر ظاهر لهذا الهياج، ولم أجد ما أقوله، وإذا به يصيح من جديد « اتفضلوا اخرجوا بره كلكم » وأعاد هذه العبارة مرتين ووقف الجميع وتوجهوا إلى خارج الغرفة فى سكون وتبعتهم حتى خرجوا فأغلقت الباب وراءهم وعدت إليه والغضب يسيطر على والشرر يتطاير من عينى وقلت له بصوت عال «كيف تسمح لنفسك بأن تقول أمام الجميع وأمامى أنى أعتقد أنك أهبل؟ ولماذا أعمل معك إذا كنت أظنك كذلك ؟ .. ثم كيف تطردنى خارج الغرفة، أتظن أن تعيينك لى وزيرا للخارجية يخول لك ذلك ؟ سأترك هذا المنصب بمجرد عودتنا إلى القاهرة وفى ستين داهية».

واستدرت عائدا لأغادر الغرفة، وسمعت صوته «انتظر يا محمد» فتوقفت مكانى فقال «تعال اجلس» وعدت إليه ولكنى ظللت واقفا فقال «ماذا جرى لك يا محمد، ألا تشعر بما أنا فيه ؟ وإذا لم تتحملنى أنت فمن الذى يفعل ؟» فقلت وقد أحسست بالإشفاق عليه «إنى أشعر بما تشعر به بدورى ولكن ليس هناك ما يدعو إلى أن تخاطبنى بهذا الشكل أمام أحد فأنا لا أقبل ذلك حتى من أبى».

فقال «أنا آسف، أعصابنا جميعا متوترة بسبب هذا السجن اللعين، لماذا لا تجلس؟» وقلت «لا سأتركك تستريح فنحن فى منتصف الليل وأنا أرغب فى المشى قليلا».

سنعود فورا ..

فى الساعة التاسعة والنصف من صباح اليوم التالى كنت أتناول القهوة مع حسن كامل وبطرس غالى وأشرف غربال عندما دخل علينا فوزى عبد الحافظ رئيس

سكرتارية الرئيس الخاصة، وأخبرنا أن الرئيس قد اتصل به فى الساعة السابعة صباحا فى واشنطن حيث كان يقيم، وطلب حضوره إلى كامب ديفيد على الفور وأنه عند وصوله أبلغه بأن يتخذ الترتيبات لمغادرة الوفد المصرى لكامب ديفيد وأن يعد له طائرة هليكوبتر لتنقله إلى واشنطن ظهر اليوم نفسه، وطلب منا فوزى عبد الحافظ أن نعد حقائبنا على هذا الأساس.

وقد أدهشنا هذا القرار المفاجىء ولم نفهم سره خاصة وأننا كنا معه حتى منتصف ليل أمس ولم يشر إلى مثل هذا من قريب أو بعيد، وكنت أهم بالذهاب إليه لأستعلم عما حدث عندما دق جرس التليفون وكان المتكلم الرئيس السادات وطلب منى أن أتوجه مع أشرف غربال لمقابلته على الفور.

وعندما دخلنا عليه فى صالونه كان يبدو فى حالة غير طبيعية ومضطربة وما إن رآنا حتى قال أين فانس؟ اطلبوا من فانس أن يحضر لمقابلتى حالا، وسألته ماذا حدث فقال لقد قررت أن أنسحب من مؤتمر كامب ديفيد وأصدرت تعليماتى بذلك وسأسافر إلى واشنطن لاجتمع بلجنة الشؤون الخارجية فى الكونجرس، ثم أعقد مؤتمرا صحفيا وأتحدث فى التليفزيون لأوضح ما حدث ثم أعود إلى مصر، وتذكرت ما قاله لى أسامة عن مقابلته لديان أمس وأعدت سؤالى من جديد، ولكن ماذا حدث حتى تتخذ هذا القرار المفاجىء؟

وقال السادات : إن التفاهم مع بيجن من رابع المستحيلات، إنه يلعب بكارتر الساذج المسكين، وهو يريد أن نوقع على ما يروق له ونترك الباقى للمستقبل، وقد قررت ألا أوقع على أى شىء فى كامب ديفيد مع الرئيس كارتر حتى لا يصبح ما نوقع عليه أساسا للتفاوض فيما بعد يخضع بدوره للمساومة.

ولم أفهم ما يقصده تماما، وفى الحقيقة أنى كنت قد أصبحت فى نظر السادات، خاصة خلال الأيام الأخيرة، العقبة فى التوصل إلى اتفاق، وكنت قد أصبحت أيضا شخصا غير مرغوب PERSONA NON GRATA فيه لدى الرئيس كارتر، وبطبيعة الحال لدى إسرائيل منذ البداية، ولعل هذا كان من بين الأسباب التى حدت بالرئيس كارتر إلى تولى المفاوضات بنفسه والاتصال بالرئيس السادات رأسا وليس عن طريق الوفد المصرى، ولم يكن السادات يحيطنى علما بما يدور بينه وبين كارتر أو وايزمان فيما عدا ما يعتقد أنى لن أعترض عليه، وإنما كان أسامة الباز يخبرنى ببعض التنازلات التى

وافق عليها السادات والتى كان يحاول تداركها فى الصياغة إلى حد أنه كان يصطدم بالرئيس كارتر بعنف، وكان الأخير يقول له ليس هذا ما وافق عليه الرئيس السادات فيرد عليه أسامة بل هذه هى تعليماته لى حرفيا وأنا أنفذها.

وبدا لى أن السبب فى ثورة السادات وتفكيره فى مغادرة كامب ديفيد هو أنه أدرك أنه قدم تنازلات كثيرة بالنسبة للضفة الغربية وغزة تحت إلحاح الرئيس الأمريكى واستجابة لوعوده المعسولة فى تحقيق تسوية شاملة فى النهاية، ثم تبين له أن صديقه والشريك الكامل قد عجز تماما عن استخلاص أى مقابل لما تنازل عنه من مناحم بيجن، وأفاق على الواقع المزرى الأليم وهو أنه حتى سيناء ليس هناك ما يضمن له أن يستعيدها خالية من المستوطنات والمطارات فيكون بذلك قد خيب آمال المصريين بعد أن خسر العرب وخرج من المولد صفر اليدين.

وقلت للرئيس السادات : إنى أوافقك مائة فى المائة على عدم التوقيع على أية وثيقة فى كامب ديفيد ما لم تحدد بوضوح الانسحاب الإسرائيلى من الضفة الغربية وغزة وحق الشعب الفلسطينى فى تقرير مصيره، وأتفق معك أيضا فى أن الرئيس كارتر قد أبدى ضعفا متناهيا وعجزا كاملا فى مواجهة بيجن، ولكن لابد أن تقابله وتشرح له موقفك حتى لا تستغل إسرائيل ذلك فى الوقيعة بيننا وبين الولايات المتحدة وتصور الأمر على أننا لم نعط التفاوض حقه كما فعلت عندما قررت سحب الوفد المصرى من اجتماع اللجنة السياسية فى القدس، وسأعد لك فى أقل من ساعة بيانا لتقترح على كارتر إصداره - أو شىء قريب منه - حتى لا يبدو أمام الرأى العام الأمريكى أنه فشل بالكامل فى مؤتمر كامب ديفيد على أساس أن المفاوضات قد حققت بعض التقدم إلا أن الهوة مازالت واسعة بين الطرفين للتوصل إلى اتفاق، وأنه أى الرئيس كارتر سيوالى الاتصال بكل من الطرفين لتحقيق تقدم فى المستقبل، وكان السادات يستمع إلى فى هدوء.

وعندما انتهيت من حديثى بدأ أشرف غربال يتكلم - ولا أدرى لما اختار أن يفعل ذلك باللغة العربية الفصحى - وقال إن انسحاب الرئيس من المؤتمر بهذا الشكل بعد أن خصص له الرئيس كارتر كل هذا الوقت سيكون ضربة محرجة للرئيس كارتر وسيستغله الإسرائيليون..

وهنا صاح السادات : «اسكت كل كلامك غلط فى غلط. اتصل بفانس لكى يحضر على الفور» وقام أشرف بالاتصال تليفونيا فقالوا له : إن فانس مجتمع بالرئيس كارتر وموشى ديان وأنهم سيبلغونه الرسالة على الفور.

وبعد دقائق وصل فانس وجلس معنا وقال الرئيس السادات «لقد وضح أن مؤتمر كامب ديفيد لن ينتهى إلى نتيجة فقد مضى على انعقاده اثنا عشر يوما ولم يتحقق أى تقدم بسبب جمود بيجن وتشبثه بمواقفه البالية ولذلك فقد قررت وقف التفاوض والسفر إلى واشنطن حيث التقى برجال الإعلام ورجال الكونجرس وأوضح لهم الموقف المصرى والموقف الإسرائيلى ومن الذى تسبب فى فشل المؤتمر ثم أعود إلى مصر».

وقال فانس بلهجة حازمة «السيد الرئيس إنى لا أنصحك بهذا، فإنك إن فعلت ذلك فستسبب خيبة أمل وإحراجا بالغا للرئيس كارتر، ولن تجنى من وراء ذلك شيئا وسيكون المستفيد الوحيد من ذلك هو إسرائيل».

وبدا على الرئيس السادات بعض الارتباك والتردد ثم قال «أنت تعلم أنى وافقت على تنازلات كثيرة حتى أسهل مهمة الرئيس كارتر فى التوصل إلى اتفاق، ولكن بيجن لم يتزحزح سنتيمترا واحدا وهو السبب فى إفشال المؤتمر، والاتجاه الآن إلى التوقيع على ما تم الاتفاق عليه، ومعنى هذا أن أوقع على تنازلات لم أكن لأقدم عليها إلا لمساعدة الرئيس كارتر حتى لا ينسب إليه فشل المؤتمر ويضار من جراء ذلك، وأنا لا أستطيع أن أوقع على شئ ما لم يكن اتفاقا نهائيا متكاملا – وهو ما يبدو مستحيلا بسبب تعنت بيجن – وإلا فسيعنى ذلك أنه فى أية مفاوضات مقبلة فسيعتبر مناحم بيجن أو من يخلفه فى رئاسة الوزارة أن ما وقعت عليه حق مكتسب له ويضعه فى جيبه، ويسعى إلى الحصول على تنازلات جديدة فيما تبقى من الموضوعات دون حل على أساس التوصل إلى حل وسط، وهذا ما لا أستطيعه ولا أوافق عليه إطلاقا، ويجب أن يكون مفهوما لكم أن ما قدمته من تنازلات قد قدمته من أجل الولايات المتحدة والرئيس كارتر شخصيا وليس من أجل إسرائيل ومناحم بيجن، وعلى هذا فأنا أرفض التوقيع عليها». وكنت استمع بمرارة إلى حديثه عن هذه التنازلات التى لم يشر إليها قبل ذلك من قريب أو بعيد.

وقال فانس «السيد الرئيس إنك تستطيع التحدث إلى الرئيس كارتر فى هذا الأمر، وأنا واثق بأنه سيعمل ما فى وسعه لكى تكون راضيا وسأبلغه برغبتك فى مقابلته».

وغادر فانس الاستراحة وخرجت وأشرف مع السادات إلى التراس الخارجى حيث وجدنا باقى أعضاء الوفد واقفين يحدوهم حب الاستطلاع لمعرفة ما الذى دفع الرئيس السادات للتفكير فى الانسحاب من المؤتمر، وجلسنا معهم وظل السادات ساكنا فلم

يتفوه بكلمة ورأيت من المناسب أن أقول شيئا – وكان هدفى فى الحقيقة هو تشجيع السادات على فكرة انسحابه من المؤتمر – فقلت إن الرئيس قد قرر إنهاء التفاوض بعد أن بات من المؤكد أننا لن نصل إلى اتفاق مقبول لنا، وسيجتمع بالرئيس كارتر للاتفاق معه على إخراج ذلك بطريقة لا تكون محرجة للرئيس الأمريكى، وأيد أغلب الحاضرين فكرة السفر.

بعد ربع ساعة عاد فانس ومعه هارولد براون وزير الدفاع الأمريكى وجلسنا معا وقال فانس للرئيس السادات : إن الرئيس كارتر سيزوره فى خلال عشر دقائق ودار حديث عام لم يمس مجريات المؤتمر، ولم يلبث أن حضر الرئيس كارتر فقمنا لاستقباله وكنت أرغب فى حضور مقابلتهما إلا أن السادات لم يلبث أن أخذه من يده ودخل إلى الصالون وأغلق الباب عليهما، وانصرف فانس وبراون وعدت مع باقى أعضاء الوفد إلى استراحتنا ننتظر بصبر نافد انتهاء المقابلة.

وبعد حوالى نصف ساعة أرسل السادات يستدعينا إلى مقابلته ووجدناه منتعشا تبدو عليه دلائل السرور والفخر، وجلسنا حوله وكلنا آذان صاغية فقال «إن الرئيس كارتر رجل عظيم وذو ذكاء خارق، لقد حل المشكلة ببساطة شديدة وأراحنى تماما».

وقلنا: «كيف ؟».

قال: «لقد قال لى أنى أستطيع أن أعلق الالتزام بأى اتفاق نوقع عليه على موافقة المؤسسات الدستورية فى مصر وإسرائيل، أى مجلس الشعب عندنا والكنيست فى إسرائيل بحيث إذا رفضاه كلاهما أو أحدهما فإن جميع ما اشتمل عليه الاتفاق من التزامات على الجانبين يسقط ويصبح غير ملزم لنا فى أية مفاوضات مستقبلية».

وقلت: «المهم ما هو الاتفاق الذى سنوقع عليه ؟».

وأجاب السادات: «سأوقع على أى شئ يقترحه الرئيس الأمريكى كارتر دون أن أقرأه».

وساد الصمت برهة ثم قلت وأنا أغلب نفسى لكى أتمالك أعصابى «ولماذا ياريس توقع عليه دون أن تقرأه ؟ إذا أعجبنا فعلنا وإلا فلا نوقع».

وهب السادات واقفا وقال بصوت ملؤه التحدى «بل سأوقع عليه دون أن أقرأه». واستدار وغادر التراس إلى داخل استراحته.

ألا تثق بى يا محمد ؟

بعد ظهر اليوم نفسه كنت مستغرقا فى التفكير والتأمل فى تصاريف الأقدار التى وضعتنى فى هذا الموقف وفى اليوم الذى عيننى فيه السادات وزيرا للخارجية، فلم أعد أفهم شيئا مما يدور فى عقله أو من تصرفاته وتقلباته غير المتوقعة، وقلت لنفسى بأن مثل هذا الشخص لو كان رب عائلة صغيرة لسارعت بالحجر عليه فما البال وهو رئيس مصر يتحكم فى مصائر أربعين مليونا من البشر.

هل هو بهذه البلاهة أم هل أصابه الجنون، ولماذا يتحول إلى عبد ذليل فى حضرة كارتر يتلقى تعليماته كأنه موظف عنده، ولماذا ..؟ عندما حضر الدلك الخاص للسادات وأبلغنى أن الرئيس يدعونى للذهاب إليه مع أسامة الباز على الفور وكان أسامة فى استراحته فأرسلت أبلغه ليلحق بى عند الرئيس ومشيت متثاقلا نحو استراحته أحاول أن أستنتج ما سيطلع به على من جديد.

وعندما وصلت قادنى خادمه إلى الصالون وكنت أسمع صوته الجهورى وهو يتكلم فى التليفون من غرفة نومه مع السيدة زوجته التى كانت فى باريس ويبلغها باحتمال التوصل إلى اتفاق مشرف خلال يوم أو يومين ثم طلب أن يحادث حفيده شريف وظل يقول له «إنت كخه يا شريف» ثم يقهقه ضاحكا ويكرر هذه العبارة ثم هذه القهقهه أكثر من عشرين مرة، وأخيرا دخل إلى الغرفة ورحب بى ترحيبا حارا وسأل عن أسامة فقلت إنى أرسلت إليه ليحضر فقال «لقد طلبتك لأخبرك بأن الموقف الصلب الذى اتخذته هذا الصباح مع فانس وكارتر قد حقق نتائج سريعة وممتازة » وقلت « خيرا» فقال «انتظر حتى أحضر لك الوثيقة لتراها بنفسك».

وخرج وعاد بعد برهة يحمل ورقة فى يده وقال «تعال اجلس بجانبى واقرأ»، وبدأت فى القراءة فقال «لا أقرأ بصوت عال حتى أسمعك»، وبدأت أفعل ذلك وقبل أن أصل إلى نهايتها دخل أسامة الباز إلى الغرفة فرحب به الرئيس وقال «اقرأ من الأول يا محمد حتى يسمع أسامة».

وشرعت فى قراءتها من جديد، كانت ورقة من صفحة واحدة مكتوبة بخط اليد وموجهة إلى «الرئيس أنور السادات ورئيس الوزراء مناحم بيجن» ومذيلة فى آخرها بالحروف الأولى من اسم الرئيس كارتر ج . ك J.C وكان مضمونها أنه قد مضت مدة كافية على بداية المفاوضات أتاحت لكل جانب إبداء آرائه ووجهات نظره ومواقفه على

وجه استوعبه الرئيس كارتر تماما، ولذلك فقد قرر الرئيس كارتر إنهاء المؤتمر يوم الأحد القادم الموافق ١٧ سبتمبر (أيلول)، وهو يدعو الطرفين إلى إبداء ملاحظاتهما النهائية على الصياغة الأخيرة للمشروع الأمريكى الذى سيقدم لهما بعد ظهر هذا اليوم نفسه، لتكون تحت نظره فى موعد أقصاه غدا السبت ١٦ سبتمبر (أيلول)، وسيتقدم الرئيس كارتر بمشروعه لإطار السلام للتوقيع عليه من جانب الرئيس السادات ورئيس الوزراء بيجن وهو شخصيا بوصفه شاهدا على الاتفاقية، ويرجو الرئيس كارتر كلا من الطرفين بأن يمتنعا عن الإدلاء بأية تصريحات أو تعليقات تتعلق بالاتفاقية بعد أن يتم التوقيع عليها إلى ما بعد انتهائه من إلقاء بيانه أمام جلسة مشتركة لمجلسى الشيوخ والكونجرس يوم الاثنين القادم ١٨ سبتمبر (أيلول).

وعندما انتهيت من قراءتها نظر إلى السادات وقال: «هيه، ما هو رأيك الآن؟»

فقلت ببرود: «رأيى فى ماذا؟»

فقال : «عيبك الوحيد يا محمد أن مخك تركى عنيد ولا تريد أن تفهم»

فقلت : «بل إنى فاهم تماما»

فالتفت السادات نحو أسامة وقال: «قل له يا أسامة ما هو رأيك؟»

ونظر إلى أسامة وهو يحاول أن يسيطر على تعبير وجهه حتى لا يضحك ولم يتكلم، فعاد السادات يربت على ركبتى ويقول «أرجوك يا محمد أن تثق بى، ألا تثق فى؟» فقلت: «أن المهم هو ما سيتضمنه مشروع كارتر من الناحية الموضوعية، أما هذه الورقة فلا قيمة لها على الإطلاق» وامتدت يد السادات بسرعة واختطفت الورقة من بين أصابعى وهو يصيح «بل هى وثيقة خطيرة وبخط يد كارتر نفسه وسآخذها معى وأحفظها فى خزانتى السرية فى مصر حتى يحين الوقت المناسب».

ونظرت إلى عينيه محاولا أن أستشف هل هو يعتقد حقا أنى بهذه السذاجة والحمق أم هل هو يعتقد أنها وثيقة هامة فعلا؟ وهل هو بكامل قواه العقلية وهل أصيب بانهيار عصبى، أم هل هو يقوم بمشهد تمثيلى درامى؟ ثم نهضت واقفا وقلت عن إذنك وغادرت الغرفة مسرعا.

لم أعد أستطيع الاحتمال ..

عندما عدت إلى الاستراحة وجدتها مكتظة بعدد كبير من أعضاء الوفد وكان من بينهم أحمد ماهر ومحمد إبراهيم شاكر الوزير المفوض بسفارتنا فى واشنطن - وهو ابن عمى - وسألنى الحاضرون عن سبب استدعاء الرئيس السادات لى فقلت لا شىء ذو أهمية ثم طلبت من أحمد ماهر ومحمد شاكر أن يصحبانى إلى الخارج.

ومشينا على غير هدى إلى أن وجدنا فجوة بين الأشجار وبها جذع شجرة ضخم ممدد على الأرض فجلسنا عليه وقلت لهما «لقد وصلت إلى نهاية المطاف ولا بد أن أتخذ قرارا حاسما بالنسبة لموقفى من السادات، فقد استنفدت كل جهدى وبذلت أكثر من طاقتى فى محاولة الحفاظ على مواقفنا من التآكل، ولكن المشكلة ليست فى الموقف الإسرائيلى المتشدد ولا فى الخنوع الأمريكى لإسرائيل، وإنما المشكلة الحقيقية فى الرئيس السادات نفسه، فقد استسلم للرئيس كارتر تماما الذى استسلم بدوره لمناحم بيجن وأن أى اتفاقية ستبرم فى نهاية الأمر على هذا الأساس ستكون كارثة على مصر وعلى الشعب الفلسطينى وعلى الأمة العربية جميعا، وقد حرت تماما فى تفسير مراميه وسلوكه وتصرفاته غير المفهومة وانتهى تفكيرى إلى أنه إما أن يكون فى حالة انهيار تام سلبه إرادته، أو أن تكون التكنولوجيا الأمريكية قد نجحت فى السيطرة عليه وتوجيهه مغناطيسيا، وإما أن يكون قد أصيب بالجنون والعمى معا أو - وهو الاحتمال الأكثر إيلاما - أن يكون قد قبل أن يلعب دور كويسلنج فى منطقة الشرق الأوسط واختار - ويعلم الله منذ متى - أن يكون عامل الولايات المتحدة فى الانحراف بمصر نحو الانضمام إلى حلف استراتيجى أمريكى إسرائيلى مصرى.

وفى كل هذه الأحوال فأنا لا أستطيع أن أفعل شيئا ولا مناص أمامى إلا الاستقالة، فأنا لا أستطيع بحال أن أشارك فى مسؤولية الكارثة التى يقودنا إليها أنور السادات، وسأعكف الليلة على كتابتها مسببة وإرسالها إليه فى صباح الغد، وأبدى كل من أحمد ماهر ومحمد شاكر تقديرهما لمشاعرى وتفهمهما لموقفى تماما.

وظللنا نتناقش بعض الوقت فى كيفية إخراج الاستقالة وما تتضمنه من أسباب، وفى النهاية قال أحمد ماهر أن لديه فكرة فهو يرى أن إرسال استقالة مكتوبة للسادات بينما يقيم على بعد خطوات منى بالإضافة إلى ظروف علاقتنا الطويلة الماضية ليست مناسبة، وقال لى : لماذا لا تذهب غدا إلى الرئيس السادات وتحدثه بصراحة بآرائك

وتسترعى نظره إلى المخاطر التى ستنجم عن توقيع اتفاق لا يحقق المطالب العربية المشروعة العادلة فهناك احتمال مهما كان ضئيلا فى أن يثوب إلى رشده ويتدارك الأمر فإن لم يفعل تعلمه باستقالتك؟ وفكرت قليلا ثم قلت : نعم سأفعل ذلك.

إنقاذ ما يمكن إنقاذه ..

وفى المساء اطلعت على صورة من المشروع الأمريكى الذى قدم الرئيس كارتر نسخة منه فى الساعة السادسة بعد الظهر إلى كل من الرئيس السادات ومناحم بيجن، وكان هذا هو المشروع الأمريكى الرابع والأخير والذى يتضمن العمود الفقرى للتسوية بالنسبة للضفة الغربية وغزة ويضع الأسس لاتفاق سلام بين مصر وإسرائيل (دون أن يربط ذلك أو يعلقه على تسوية المشكلة الفلسطينية) كى يبدى الرئيس المصرى والجانب الإسرائيلى ملاحظاتهما الأخيرة عليه حتى يتسنى للرئيس الأمريكى مناقشتها مع الجانبين والتوصل إلى اتفاق مشترك بشأنها بحيث يتسنى له إعداد الصيغة النهائية للاتفاقيات حتى تكون جاهزة للتوقيع فى الموعد الذى حدده لانتهاء المؤتمر الأحد ١٧ سبتمبر (أيلول).

وقد كان هذا المشروع على هوى إسرائيل تماما - إن جاز تصور أن هناك حدودا لجشعها أو قناعتها - إذ كان يتفق فى فلسفته وأرضيته مع مشروع الحكم الذاتى الذى قدمه بيجن منذ البداية فى الإسماعيلية، وإن أدخلت عليه تعديلات تجميلية بإعطاء دور مظهرى وثانوى لمصر والأردن (فيما لو اختارت الانضمام إليه) فى إدارة الضفة الغربية وغزة خلال الفترة الانتقالية لا يقدم ولا يؤخر وإنما يضر فى الواقع، إذ يضفى شعارا من الشرعية الزائفة على الاحتلال الإسرائيلى فى خلال تلك الفترة - بل وبعد إنتهائها - بينما تحتفظ إسرائيل فى واقع الأمر بمقاليد الأمور بين يديها، يؤيدها ويدعمها فى ذلك حق « الفيتو » الذى يخوله لها المشروع بالنسبة لأى إجراء لا يتفق مع مراميها وخططها فى السيطرة على تلك الأراضى وابتلاعها فى النهاية.

ورغم كل ذلك فلم يسلم المشروع من هبش إسرائيل ونهشها لمزيد من التنازلات وإدخالها الكثير من التعديلات على المشروع حتى آخر لحظة كما سنبين، وقد جاهد أسامة الباز وكافح فى معركة الصياغة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه ولكن ماذا كان يجدى ذلك فى مواجهة تكاتف ثلاثة رؤساء حكومات من بينهم الرئيس المصرى نفسه.

الفصل الحادى والأربعون

محاولة أخيرة قبل الاستقالة

ظللت ساهرا أغلب الليل تدور الأفكار فى رأسى حول مقابلة السادات فى الغد، ماذا سأقول له، ومن أين أبدأ وكيف أنتهى ؟ وجادلت نفسى هل أنا على حق وهو المخطئ أم هل أنا واهم وهو المصيب ؟

ومر فى رأسى شريط الأحداث منذ وفدت اسرائيل إلى منطقتنا وخلقت المشكلة الفلسطينية، وأشاعت الشكوك والمخاوف فى الدول المحيطة بها واستعرضت كل القرارات الدولية ومبادئ العدالة وحقوق الانسان التى كان يتحتم أن تتم فى إطارها تسوية النزاع العربى الاسرائيلى، وانتهت إلى أن ما هو مطروح علينا وما يبدو أن السادات قد قبل به، سواء كان ذلك عن وعى وتخطيط أو عن ضعف واستسلام إزاء جمود بيجن والحاح الرئيس كارتر، بعيد كل البعد عن أن يؤدى إلى السلام العادل الشامل والاستقرار المنشود فى منطقة الشرق الأوسط، بل أنه سينحرف بها بعيدا عن ذلك، ويلقى بها فى أغوار سحيقة من الغليان والاضطراب وعدم الاستقرار. فان مؤداه عزل مصر وهى محور الارتكاز وقلب العالم العربى عن سائر دوله وأعضائه، وإطلاق سراح إسرائيل من حصار الحق والعدالة المضروب حولها عربيا ودوليا - فيما عدا الولايات المتحدة - حتى تسلم بحقوق من سلبتهم حقوقهم، فينطلق الغول الصهيونى بشعا مدمرا، أنيابه وأظافره سلاح أمريكا المتطور، ومحركه ودوافعه غرائز الجشع والطمع والسيطرة على مقدرات المنطقة ومصائر شعوبها، والاستئثار بكنوزها وأرزاقها،

وينقض عليها نهبا وقتلا وإرهابا حتى يفرض سيطرته، ثم يتحول إلى مصر العاجزة المكبلة بما وقعت عليه وقبلته ويفرض عليها ما يشاء أن يفرضه، وتدخل إسرائيل الدولة الوافدة الطارئة الدخيلة ذات الملايين الثلاثة من المهاجرين فى مصاف الدول العظمى تحت اسم امبراطورية آل صهيون التى تضم دولا لها مالها من الثروات الطبيعية والإمكانات البشرية والموقع الاستراتيجى المؤثر.

أين هذا مما بشر به السادات فى القدس من سلام شامل يعم المنطقة، ويشيع فيها الرخاء والاستقرار وتعيش فيه إسرائيل بين جيرانها العرب فى أمن وأمان تظلله أحكام القانون الدولى، وتربطه علاقات السلام والتعاون وحسن الجوار ؟

وتمضى ساعات الليل ويأبى النوم أن ينتشلنى وتطوف فى ذهنى سلسلة مختلطة من الهواجس والمخاوف والمغريات، هأنذا على بعد آلاف الأميال من وطنى وحيدا أعزل فى معسكر تحيط به الأسوار وبين قوم بعضهم لا يروق له ما أقول، والبعض الآخر لا يطيقه ويرفضه، صحيح أن حولى مجموعة من الشبان الأذكياء الواعين يشاركوننى الرأى والمشاعر، ولكن ماذا فى وسعى أو وسعهم أن نفعل إذا كان ذلك لا يقره رئيسى ورئيسهم ؟

وتهاجمنى كوابيس بشعة وأرى صورا ومشاهد مما قرأت أو سمعت عن ما تفعله إدارة المخابرات المركزية الأمريكية ومنظمة الموساد الإسرائيلية، ماذا لو تخلصوا منى بشكل أو بآخر تحت ستار حادث عارض أو زعم مرض مفاجئ، بل ماذا أفعل لو انفض المؤتمر ومشى أصحابه وتركت بلا صاحب، لا مال معى ولا حتى جواز سفر يقول من أنا ؟

وماذا عن مستقبلى ومستقبل عائلتى وأولادى وكيف سيعاملنى السادات بعد تمردى وعصيانى ؟ إننى من واقع علاقتى بالسادات والمركز الذى وصلت إليه، وأنا بعد فى منتصف العمر، أمامى - لو هادنته وسايرته - كل ما يمكن أن يصوره أو يحققه الخيال الطموح من مال أو جاه أو نفوذ حتى منصب رئيس الجمهورية نفسه ليس بمستبعد.

ثم تعود إلى ذكرى أبى، ذلك القاضى الشامخ المعتز بكبريائه الذى صقلته التجارب، أبى الذى مات وأنا ابنه الوحيد منذ أكثر من ثلاثين عاما، وأنا طالب فى السنة الثالثة فى كلية الحقوق يبلغ من العمر تسعة عشر عاما سجين فى سجن مصر العمومى لا يعرف إلى أين المصير، وترن فى أذنى كلماته منذ أن كنت طفلا صغيرا .. يابنى كل ما

أطمع أن أتركه لك هو اسم طيب وتربية كريمة وثقافة واسعة وتعليم عال .. يابنى أجمل ما فى الحياة أن تعيشها عالى الرأس موفور الكرامة مرفوع الجبين .. يابنى لا تبع نفسك أو تذلها أبدا فانك إن فعلت فلن تنعم بالسعادة مهما كان الثمن .. يابنى كن شجاعا دائما وقل رأيك ولا تفعل إلا ما يرضى ضميرك وشرفك ثم لا تبالى.

وقلت لنفسى لا لن أسمح أبدا لأحد أن يشير بأصبعه إلى ولدى ويقول إن أباهما قد خرس وجبن عن أن يقول رأيه ورضى بالسكوت عما يعتقد أنه خطأ وبلاء.

غدا أكلم الرئيس بهدوء وأمانة وقوة، عسى أن يفيق ويهتدى وإلا فليكن ما يكون، وقد أبرأت ذمتى وأرضيت ضميرى ونفذت وصية أبى وحسبى الله ونعم الوكيل.

لا تعذب نفسك ..

فى صباح اليوم التالى السبت ١٦ سبتمبر (أيلول) كنت نائما عندما دخل إلى غرفة نومى أحمد ماهر وأحمد أبو الغيط السكرتير الأول بمكتبى ليصحبانى إلى الافطار فى المطعم كما هى العادة وقلت لهما "إنه لا رغبة لى فى الطعام فقد أفرطت فى التدخين طول الليل" فانصرفا إلى المطعم وبعد برهة عاد أحمد أبو الغيط يحمل صينية صغيرة عليها سندوتشان من الجبن وكوب من الشاى وبرتقالة وأصبع من الموز، وكنت لا أزال فى سريرى فشكرته ولكنه ظل واقفا أمامى لا يتكلم فقلت له "مابالك ؟" فقال لا تؤاخذنى يا محمد بك فأنت رئيسى ووزيرى وأنا بعد شاب صغير ولكنى أشعر وأحس تماما بما يعتمل فى نفسك، وإذا أذنت لى فانى أريد أن أقول "لا تعذب نفسك ودع القلق، والجميع يعلم ويقدر إخلاصك وكل ما فعلته ولن يستطيع أحد أن يلومك على شئ". وقلت "شكرا يا أحمد لا تقلق بشأنى وأنا أعلم ما سأفعله، اذهب واكمل إفطارك وتركته وذهبت إلى الحمام لأغسل وجهى.

قبلت استقالتك ..

فى الساعة الحادية عشرة ذهبت إلى استراحة الرئيس السادات وكان جالسا فى التراس ومعه الدكتور بطرس غالى والدكتور أشرف غربال وجلست معهم نتبادل أحاديث خفيفة إلا أن بقاءهما طال، وكنت أتوق إلى انصرافهما حتى أتكلم مع الرئيس – على انفراد – قبل أن يطرأ ما يحول دون إتاحة فرصة ذلك لى، وأخيرا دخلت إلى صالون السادات الذى ينفتح على التراس وأصبح ظهر السادات لى فلوحت لأشرف

بيدى باشارة كى يأخذ بطرس غالى وينصرفا ثم عدت وجلست وبالفعل بعدها بدقائق قام أشرف واستأذن من الرئيس فى الانصراف وصحب بطرس غالى ومضيا.

وحملت مقعدى بالقرب من حيث يجلس السادات وقلت فى هدوء "إنى أرغب فى أن أتحدث إليك لا بوصفى وزيرا للخارجية يتحدث إلى رئيس الجمهورية، ولكن بوصفى صديقا وأخا أصغر لك، أكلنا معا العيش والملح فى السجن منذ ثلاثة وثلاثين عاما، وأنت تعلم مدى إخلاصى لك وللحق، وإنى حريص على ألا تقدم على شئ نندم عليه فيما بعد"، وقال السادات بصوت هادئ "وهل بينى وبينك حجاب يا محمد ؟ قل ما تريد ولا تتردد".

محمد كامل: لقد اطلعت على المشروع الذى قدمه لك أمس الرئيس كارتر باطار السلام، وقد وجدته بعيدا كل البعد عن تحقيق السلام الشامل الذى نستهدفه والذى حددت معالمه بحق ووضوح فى خطابك فى الكنيست الاسرائيلى عند زيارتك للقدس، فالمشروع الأمريكى رسم الطريق إلى سلام كامل بين مصر واسرائيل مستقلا تماما عما يجرى فى الضفة الغربية وغزة، فلا رابطة بينهما تضمن التزامن بين حل مشكلة سيناء وحل المشكلة الفلسطينية وهى الأصل، وستكون النتيجة أن ينتهى الأمر إلى معاهدة سلام بين مصر وإسرائيل بينما تبقى الضفة الغربية وغزة تحت قبضة إسرائيل تمارس فيها تنفيذ تخطيطها لضم هذه الأراضى فى النهاية، وفيما يتعلق بالضفة الغربية وغزة فالمشروع الأمريكى يعكس فلسفة بيجن فى مشروعه للحكم الذاتى، ويلبى طلبه فى تعليق السيادة على هذه الأراضى، وقد صيغ عمدا بالغموض والميوعة، وحفل بالثغرات مما يجعل التوصل إلى هدفنا بانسحاب إسرائيل من تلك الأراضى وممارسة الشعب الفلسطينى لحقه فى تقرير المصير من رابع المستحيلات، ويمكن أن تستمر المفاوضات والمراوغات الإسرائيلية بشأنه إلى عشرات السنين فى حين أننا نعلم أن كل ما تحتاج إليه إسرائيل هو سنوات قليلة لتكون قد مكنت نفسها من الاستحواذ على الأراضى من الناحية العملية، وقد زود المشروع الأمريكى إسرائيل بحق "الفيتو" فى كل خطوة وعلى أى إجراء قد تراه معوقا لهدفها الواضح فى ضم تلك الأراضى، فمهما أجمع الجانب المصرى والأردنى وسلطة الحكم الذاتى الفلسطينى على أمر فلن يتحقق، إذ يشترط المشروع إجماعا كاملا يتضمن موافقة إسرائيل، وهناك نقطتان مهمتان فى هذا الصدد، الأولى : إننا غير مفوضين من ممثلى الشعب الفلسطينى صاحب الشأن ولا من الدول العربية المشاركة جميعا فى تحمل مسؤولية

حل المشكلة الفلسطينية فى الموافقة والتوقيع على تسوية لهذه المشكلة، والمشروع الأمريكى بأحكامه وصياغته لن يجتذب الأردن بحال إلى المشاركة فى الفترة الانتقالية، كما أنه لن يحظى بموافقة أى من الدول العربية الأخرى، ولا بطبيعة الحال بموافقة منظمة التحرير الفلسطينية، والنقطة الثانية : هى أن الاحتلال الإسرائيلى لأراضى الضفة الغربية وغزة سيظل دائما احتلالا غير مشروع لأراضى الغير، ليس له من سند إلا العدوان والقوة الغاشمة، وهو لن يكسب إسرائيل حقا مهما طال أمده، بينما المشروع الأمريكى يحاول أن يضفى على هذا الاحتلال - على الأقل خلال فترة السنوات الخمس - صيغة من الشرعية مظهرها مشاركة صورية مصرية أردنية فلسطينية - المجلس الإدارى الذى يباشر الحكم الذاتى - وصحيح أن هذه الصيغة الشرعية مطعون فيها بطبيعة الحال، لأننا غير مفوضين من أصحاب الشأن، ولكنك تعلم جبروت الدعاية الصهيونية الذى سيصور أن وجود السلطة الإسرائيلية وقواتها إنما يستند إلى صك واتفاق وقعت عليه مصر كبرى الدول العربية ودعت إليه الأردن، ولم يعد مجرد احتلال غير مشروع لا يسانده إلا القوة والبطش والعدوان، وسيؤدى ذلك إلى تمييع القضية وبعثرة التأييد الدولى على مستوى الدول والرأى العام العالمى الذى جاهدنا طويلا فى بنائه ويضعف الضغوط على إسرائيل.

لذلك أرجوك وأستحلفك أن ترفض التوقيع على مثل هذا الاتفاق المدمر .

السادات : إنك لا تعلم شيئا عن العرب، اسألنى أنا إنهم لو تركوا وشأنهم فلن يحلوا أو يربطوا، وسيظل الاحتلال الاسرائيلى قائما إلى أن ينتهى إلى التهام الأراضى العربية المحتلة، دون أن يحرك العرب ساكنا غير الجعجعة وإطلاق الشعارات الفارغة، كما فعلوا منذ البداية ولن يجمعوا على حل أبدا.

محمد كامل: إنى لا أشاركك الرأى فيما قلته وهو ليس صحيحا على إطلاقه، فقد اجتمعت كلمة العرب واتحدوا على يديك أنت نفسك وحققوا تضامنا وتكاتفا عظيما، عسكريا وسياسيا واقتصاديا فى حرب اكتوبر (تشرين الأول) ١٩٧٣ وبعدها، وهذه حقيقة واقعة لا يمكن إنكارها ولم يبذر بذور الشقاق والتفتت العربى من جديد غير مجئ كيسنجر إلى المنطقة وتوقيع اتفاقية فض الاشتباك الثانية بين مصر وإسرائيل، والآن وقد ظهر العجز والتخاذل الأمريكى عن تحقيق السلام العادل الشامل ألا ترى أن نعود إلى العرب من جديد، ونبذل جهدا معهم لاستعادة التضامن الذى كان من جديد، وسيكون موضوعه هذه المرة ليس الحرب بل الحل السلمى، كما أشارت إليه مقررات

مؤتمر القمة العربى فى الرباط، إنك ستعود إليهم حاملا رصيدا ضخما من التأييد الدولى والوعى العالمى بعدالة القضية العربية حققته مبادرتك، وستنقشع الخلافات كسحابة صيف، وسيلتفون حولك على السلام كما التفوا على الحرب وهذه مسؤولية مصر بوصفها الدولة الأم الرائدة، ونحن متفاهمون ومتفقون مع السعودية والأردن بالفعل على هذه الاستراتيجية وهم رهن الإشارة ليبدأوا مساعيهم، فلتعد إلى العرب ولتقم بمبادرة نحوهم كما قمت بمبادرة نحو اسرائيل، ثم لتعد إليها من جديد على رأس مبادرة عربية شاملة على نفس الأسس التى حددتها فى مبادرتك السابقة، ولكن تحمل ثقل الإمكانيات العربية الضخمة الهائلة ولن تقوى إسرائيل هذه المرة على إجهاضها ولا أمريكا على الانحراف بها.

وسكت السادات برهة طالت، وعيناه شاخصتان إلى الهواء لا تنمان عن شئ ثم قال:

السادات: إن مشروع الحكم الذاتى سيؤدى إلى إلغاء الحكومة العسكرية الاسرائيلية فى الضفة وغزة، وسيؤدى ذلك إلى رفع المعاناة عن كاهل الفلسطينيين، وقد أصر الرئيس كارتر على إضافة وصف «الكامل» لعبارة الحكم الذاتى رغم معارضة بيجن الشديدة حتى تكون سلطة الحكم الذاتى كاملة لكل شئ ما عدا بعض المسائل كالأمن، ولن يكون الفلسطينيون وحدهم، فسنكون معهم وكذلك الأردن فى خلال الفترة الانتقالية، وإذا لم يقبل الفلسطينيون بالحل الذى تنتهى إليه الفترة الانتقالية فسيكون لهم حق «الفيتو» لأنهم سيصوتون على هذا الحل، وقد قال لى الرئيس كارتر إن لغة المشروع وصياغته ربما فيها غموض ولكن ليس هذا ذا أهمية، فالمهم أنه سيكون معنا فى مفاوضات الحكم الذاتى كشريك كامل، وقد أكد لى الرئيس كارتر أنه عندما يعاد انتخابه رئيسا للفترة الثانية فسيكون فى وضع قوى جدا، يمكنه من الضغط على إسرائيل ويستطيع عندئذ تدارك العيوب والنقص فى اللغة والصياغة التى لم يتمكن فى الوقت الحالى من التوصل إلى أحسن منها بسبب جمود بيجن وحرص كارتر على ألا يفشل المؤتمر ويقضى على عملية التفاوض بين مصر وإسرائيل إلى الأبد وتعود احتمالات قيام حرب جديدة، وقد أكد لى كارتر مرارا وتكرارا أنه يحس بأن عليه التزاما أدبيا وشخصيا نحو عمل شئ للفلسطينيين وأن هذا ما ستمكنه، إعادة انتخابه، من أن يقوم به.

محمد كامل: إننا نخدع أنفسنا إذا فكرنا أن هذا المشروع سينتهى بتحقيق حل عادل للقضية الفلسطينية، أنه سيكون سند اسرائيل وأداتها لتصفية هذه القضية وفقا لنواياها التوسعية، وهذا رأى كل مستشارى وفدنا بالإجماع ولماذا تظن بيجن يحارب ويدقق فى كل كلمة يتضمنها المشروع ؟ لأنه متى وقعنا عليه فسيكون هذا هو الأساس الذى يجرى عليه التفاوض ولن يستطيع كارتر أو غيره أن يخرج عن نطاق النصوص والصياغات، ثم ما يدرينا بأن كارتر سيعاد انتخابه فترة جديدة وينفذ وعوده لك ؟

السادات: لا لا .. لقد قال لى الرئيس كارتر أن نجاح مؤتمر كامب ديفيد فى التوصل إلى اتفاقيات بشأن إطار السلام الشامل سيؤكد نجاحه فى الانتخابات القادمة بسهولة ويسر، وأنا واثق بأنه سينفذ وعوده لى لأنه رجل قيم ومبادئ.

محمد كامل: ولكن هذه الاتفاقية وفقا للمشروع الأمريكى - لن تؤدى إلى حل شامل، بل ستنتهى إلى صلح منفرد بين مصر وإسرائيل، بينما تظل الضفة الغربية وغزة والجولان تحت السيطرة والاحتلال الإسرائيلى، وسيؤدى ذلك إلى عواقب وخيمة أخطرها عزل مصر وانعزالها عن العالم العربى وما سيؤدى إليه ذلك من إطلاق يد اسرائيل فى المنطقة، لماذا لا تصر على ما كنت تنادى به دائما من وجود رابطة بين الانسحاب من سيناء والانسحاب من الضفة الغربية وغزة، بحيث يسيران جنبا إلى جنب وتعلق كل خطوة فى سيناء على خطوة مقابلة فى الضفة الغربية وغزة ؟

السادات: ها أنت تردد كالببغاء ما يقوله الاتحاد السوفيتى عن صلح منفرد، كيف يكون صلحا منفردا إذا كنت سأظل ملتزما بأن أقوم بدور فى الحكم الذاتى فى الضفة الغربية وغزة خلال فترة السنوات الخمس الانتقالية وحتى تحل القضية الفلسطينية من جميع وجوهها؟ وما معنى أن أبقى سيناء تحت السيطرة الإسرائيلية حتى تحل المشكلة الفلسطينية لتغمرها إسرائيل بمستوطنات جديدة يوما بعد يوم، أليس هذا من الغباء؟ إنك تتكلم لأنك لا تعرف شيئا عن أحوال مصر الداخلية، لقد ترك لى عبد الناصر تركة مثقلة بالهموم والمشاكل، وأن أوضاعنا الاقتصادية والاجتماعية فى غاية السوء وكل مرافق البلد منهارة ولن تستطيع مصر أن تخرج من أحوالها المتردية إلا إذا حصلت على السلام وكرست كل مواردها للتنمية، وعندئذ ستكون مصر فى مركز أقوى لمساعدة الفلسطينيين فى حل مشكلتهم.

محمد كامل: ولكنك لم تقم بمبادرتك على هذا الأساس، لقد بنيتها على أساس الحل الشامل، ولو كان الأمر هو استعادة سيناء وإقامة سلام بين مصر وإسرائيل فقط لما

كان هناك حاجة إلى كل هذا اللف والدوران، ولهرع إلى القاهرة مناحم بيجن بإشارة منك ليوقع مثل هذا الاتفاق ويعيد سيناء إلى مصر ويقبل ظهر يدك ووجهها ويعود إلى إسرائيل راضيا قرير العين، وأنا لا أدعى أنى أعلم كثيرا عن مشاكل مصر الداخلية فأنت الرئيس وأنت أدرى بها، ولكن إذا كان الأمر كما تقول فلماذا محاولة التظاهر بأنك تحل النزاع العربى الإسرائيلى حلا شاملا عادلا دائما، وتعطى لإسرائيل سندا مزيفا خداعا يتيح لها اغتيال الضفة الغربية وغزة والقضاء على القضية الفلسطينية تحت ستار حل هذه القضية نفسها حلا كريما عادلا؟ إن رأيى لا يزال هو عدم التوقيع على شىء والعودة إلى العرب والعمل معهم من خلال جبهة واحدة كما أسلفت .. ولكن إذا كنت تقدر أن ظروفنا تحتم علينا التوصل إلى حل مرحلى فورى مع إسرائيل فلماذا لا تعلن ذلك صراحة، وفى الإمكان أن تصدر بيانا تقول فيه : إن مصر وقد تحملت الشطر الأعظم من التضحيات البشرية والمالية والاقتصادية من جراء تصديها للعدوان الإسرائيلى على الدول العربية فى أربع حروب، قد استنفدت كل امكانياتها وطاقاتها وجهودها، وأن ظروفها الاقتصادية والاجتماعية قد تدهورت إلى أوضاع لا تستطيع معها المضى فى حالة اللاسلم واللا حرب ، لذا قد قررت إبرام اتفاق مرحلى مع إسرائيل تنهى بمقتضاه حالة الحرب مع إسرائيل، وأنها ستواصل مع باقى الدول العربية والمجتمع الدولى مساعيها السلمية لتحقيق انسحاب إسرائيل من كافة الأراضى العربية المحتلة، وإقامة السلام العادل الشامل فى المنطقة ..

السادات (مقاطعا): ماذا جرى لك؟ أتريد أن أتعرض لشماتة الاتحاد السوفيتى وحافظ الأسد والقذافى فيقولون : إن ما أدعوه على مبادرتى منذ البداية من أنها كانت ترمى إلى حل منفرد كان صحيحا؟

محمد كامل: إنك إذا وقعت على اتفاقية على أساس المشروع الأمريكى فستكون حلا منفردا بكل المعايير، ولن تنجح فى خداع أحد بغير ذلك، وأفضل لنا وأشرف أن نقول ذلك صراحة على أن نتستر وراء مسرحية الحكم الذاتى كما وردت فى المشروع.

السادات: بل إنى أسير على استراتيجية بعيدة المدى ستنتهى بالحل الشامل فى الشرق الأوسط وسيكون معنا الرئيس كارتر وستنضم إلينا السعودية والملك حسين.

محمد كامل: إذا وقعت مثل هذا الاتفاق فلن يستطيع كارتر عمل شىء ولن يجذب ذلك السعودية والأردن بحال، أرجو منك مرة ثانية أن تعيد النظر فى الأمر ولنعد إلى مصر ونجرى مشاورات مع الدول العربية لنرى ماذا تكون خطوتنا التالية؟

السادات: لا، أنا أعلم ما أفعله، وسأمضى فى مبادرتى إلى النهاية.

محمد كامل: إذن فأرجو أن تقبل استقالتى.

السادات: كنت أعلم من البداية أنك تلف وتدور لتقول هذا فى النهاية.

محمد كامل: لا لقد حاولت إقناعك بما أراه وفشلت، فلم يبق أمامى إلا هذا المخرج، فأنا لا أستطيع أن أوافق على شيء يبدو لى من المؤكد خطؤه وخطره، ولا أنا أستطيع أن أغشك وأغش نفسى وضميرى فإنه كامن داخلي يعيش معى ليل نهار.

السادات: إذا كان هذا يريحك فإنى أقبل استقالتك، وكل ما أطلبه منك هو أن تعدها بيننا فى الوقت الحالى لا تخبر أحدا بأمرها حتى نعود إلى مصر.

محمد كامل: سافعل ذلك فليس قصدى إحراجك.

السادات: إذن اتفقنا، ولتهدأ وتريح أعصابك وسيكون كل شيء على ما يرام فى النهاية.

سر بينى وبين السادات ..

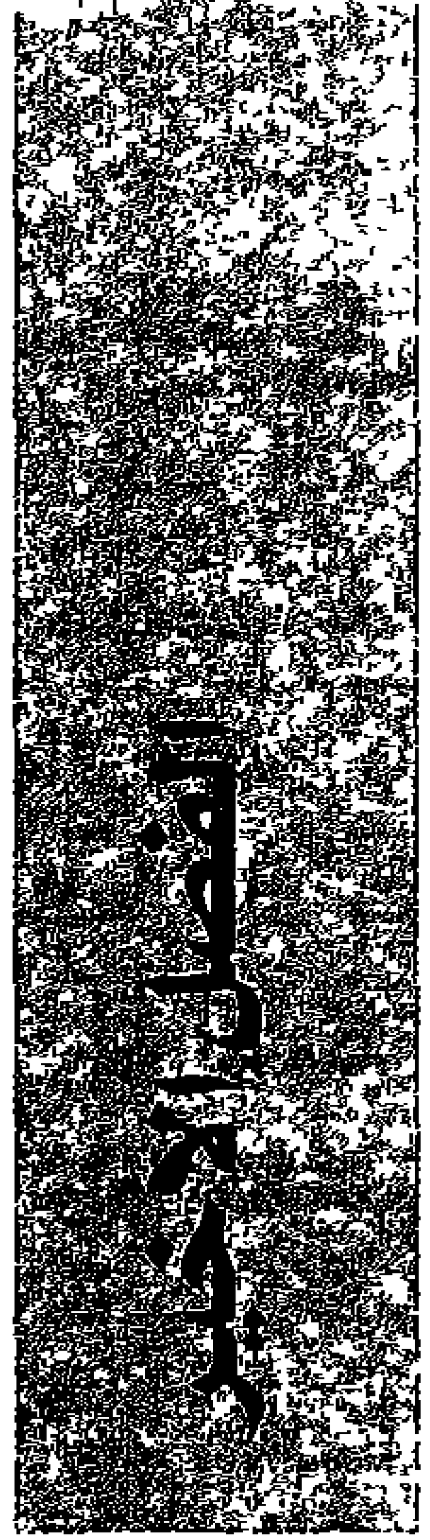
غادرت السادات والحزن والأسف يملآن قلبى ولكن من الناحية الأخرى هدأت أعصابى وارتاحت نفسى، وقابلنى أشرف غربال فسألنى عما دار بينى وبين السادات وقلت كنت أناقشه فى مخاطر المشروع الأمريكى ولكنى لم أستطع اقناعه.

وعندما أويت وبطرس غالى إلى غرفة نومنا قال لى «إن حالتك غير طبيعية هذا المساء فأنت تبدو هادئا سعيدا فماذا جرى بينك وبين الرئيس»؟

قلت وأنا ابتسم «هذا سر بينى وبينه».

فقال «بل قل لى».

وأجبت «أعدك بأن أفعل ذلك حال وصولنا إلى القاهرة».



التوقيع

في اليوم الثالث عشر من بدء مؤتمر كامب ديفيد الموافق الأحد ١٧ سبتمبر (أيلول) كنت خارجا من المطعم بعد أن تناولت إفطارى عندما شعرت بحركة غير عادية تجرى فى صالة الاحتفالات المتصلة بالمطعم، فدخلتها بدافع الفضول لأرى ما يحدث فوجدتها قد تغير شكلها تماما فأخليت من الأثاث المريح الذى كان بها وفى آخرها نصبت منصة وعليها منضدة مستطيلة خلفها ثلاثة مقاعد وعلى الحائط علقت ثلاثة أعلام كبيرة هى العلم المصرى ثم العلم الأمريكى فالعلم الإسرائيلى، وأمام المائدة كانت مجموعة من الرجال تقوم بترتيب وضع مقاعد فى صفوف متراصة.

وتذكرت على الفور أن اليوم هو موعد التوقيع على الاتفاقيات الذى حدده الرئيس كارتر وأنهم يعدون القاعة لتجرى فيها مراسم التوقيع، وأن ذلك قد يحدث فى أى ساعة من ساعات النهار وتملكنى الذعر فقد أحسست فجأة أنى أواجه مشكلة لم أفكر فيها من قبل وهى أنى وعدت السادات بعدم إذاعة استقالتى، ولكن لم يدر بخلدى على الاطلاق أن أشترك فى الاحتفال بالتوقيع على اتفاقيات كنت أعارضها مائة فى المائة، وكنت عازما على ألا أشارك فى هذه المراسم، ولكن كيف يمكن تبرير غياب وزير خارجية مصر عن حضور هذه المناسبة؟ ولو كنا خارج هذا المعسكر اللعين لاستطعت التحايل والهرب بشكل ما ولكن فى هذه المصيدة أين المفر؟

وعدت إلى استراحتى مهموما منشغل البال وبعدها ببرهة دخل السفير الأمريكى هيرمان أيلتس ليخبرنا بأنه تقرر أن تتم مراسم التوقيع على الاتفاقيات بعد ظهر اليوم فى صالة الاحتفالات، وعند مغادرته الاستراحة ناديت عليه فجأة فوقف وخرجت معه إلى الخارج وقلت له : لدى مشكلة، فقال ما هى؟ قلت : لقد استقلت، وقال أيلتس يا إلهى، ماذا حدث ؟ قلت أنت تعلم ماذا حدث، لقد أخبرتك من شهور أنى سأفعل ذلك ما لم نتوصل إلى اتفاق مقبول، فقال : هذا حقيقى وأنى أتفهم موقفك، فقلت : إن المشكلة ليست أنى استقلت ولكنى وعدت السادات بألا أعلن ذلك فى الوقت الحالى وأنا مصمم على عدم حضورى مراسم التوقيع ولا أدرى ماذا أفعل؟

فقال أيلتس : دعنى أفكر في الأمر، وقلت له وهو ينصرف : هرمان أرجو أن يبقى هذا الموضوع سرا بيننا، فقال لا تقلق، ومشى.

بعدها بساعة اتصل بى أيلتس تليفونيا وقال : لدى أنباء طيبة نسبيا، فقلت : ماذا؟ قال : لقد تقرر أن تجرى مراسم التوقيع فى واشنطن بدلا من كامب ديفيد.

خرجت للمشى مع أحمد ماهر ورويت له تفصيلا الحديث الذى تم بينى وبين السادات أمس وأنهيت حديثى قائلا : أنا لا أستطيع أن أفهم هذا الرجل، هل هو ساذج أحمق أم هو خائن لنفسه قبل أن يخون قضيته؟ وقال ماهر : هذا سؤال محير، ولكن يخيل إلى أن الرئيس كارتر قد خذله وغرر به فقد بنى كل آماله عليه ووثق فى وعوده المعسولة أكثر مما يجب.

وعند عودتنا أبلغت بأن الرئيس السادات قد سأل على فذهبت إلى استراحته وكان يجلس فى التراس مع حسن التهامى وحسن كامل وبطرس غالى وأشرف غربال وأسامة الباز، وعندما وصلت نهض واقفا واستقبلنى بترحاب حار وكأنه لم يرنى منذ مدة ودعانى إلى الجلوس بجانبه، وخيل لى أن الجو المخيم على الجلسة جو كئيب وكأننا فى مأتم فقد كان الحديث مفتعلا تشوبه فترات طويلة من السكوت، ولا يتعرض إلى موضوع الاتفاقية بشكل مباشر، وإلى قرب التوقيع عليها، وأحسست أن الحاضرين بمن فيهم السادات يشعرون بأنهم مقدمون على مصيبة أو على الأقل على شىء لا يبعث على البهجة أو الارتياح أما أنا فقد التزمت السكوت التام فقد كنت أشعر بانقباض شديد ولا أذكر من الذى قال من الحاضرين أن الشىء الذى سيثير معارضة الفلسطينيين هو أن عبارة تقرير المصير فى الاتفاقية قد وضعت بشكل غامض غير مباشر، فقال الرئيس السادات: لم يمكن ذلك فقد قال لى الرئيس كارتر إن هذه العبارة

ستفقده كرسى الرئاسة IT WOULD COST ME MY CHAIR ولم أستطع أن أكبح جماح لسانى وانفجرت قائلا بصوت عال منفعل "أهذا هو رئيس أقوى دولة فى العالم؟ أهذا هو القديس الذى كان يدعى أن الدفاع عن حقوق الإنسان والمبادىء والقيم هو محور سياسته؟ إنه ابن كذا وابن كذا .. أمن أجل أن يظل رئيسا لأمريكا ثمانى سنوات بدلا من أربع يضحى بمصير شعب بأكمله؟ ياله من تافه حقير".

وساد سكون مطبق والجميع يترقب رد السادات وكنت أشعر أنه لو كان أمامه سكين فى تلك اللحظة لأغمده فى صدرى فقد أحس أن ما فعلته غير موجه إلى كارتر وإنما موجه إليه أيضا، ولكن يبدو أن ما أنقذنى أنه كان حريصا على أن يبقى موضوع استقالتى سرا حتى ينتهى المهرجان.

وبعد فترة قهقه السادات بصوت عميق درامى هه، هه .. هه ..

وقال وهو يضع يده على كتفى : أصلك انت يا محمد مش سياسى، وقلت : إذا كانت هذه هى السياسة فإنه يشرفنى ألا أكون سياسيا.

ونهض السادات واقفا وانفض الجمع.

مذبحة التنازلات..

ولم يقنع مناحم بيجن بكل ما حصل عليه من تنازلات وهيهات أن يشبع نهمه من أكل حقوق الغير أو يرتوى ظمؤه وغليله من شرب دمائهم وامتصاصها، فلم يكل ولم يمل فى تلك الساعات الأخيرة السابقة على التوقيع وظل يحاصر الرئيس كارتر بالإلحاح والاستجداء والوعد والوعيد يبتز منه تنازلا وراء تنازل فلا يجد كارتر- وقد بات فريسة التلهف على توقيع الاتفاقية بأى شكل وبأى ثمن فى خلال هذا اليوم - مناصا من أن يعود إلى السادات ويقتطع من لحمه تلك التنازلات .. وهل يضير الشاة أكلها بعد ذبحها؟

وكانت الأنباء تتوالى كل ساعة بما يجد فى مذبحة التنازلات هذه، فقد أصر بيجن على حذف الإشارة إلى عبارة عدم جواز اكتساب الأرض بالقوة وقال لكارتر تقطع يدى ولا أوقع عليها، وكانت النتيجة أن حذفت الإشارة إلى هذا المبدأ الدولى الذى كان يتصدر ديباجة القرار ٢٤٢، وبصعوبة بالغة استطاع أسامة الباز أن يضيف عند الاشارة إلى القرار ٢٤٢ عبارة بكل أجزائه من باب التعويض النسبى.

وفي مقابل كلمة الكامل التي أضافها كارتر إلى عبارة الحكم الذاتي أصر بيجن على النص على عبارة مجلس إدارى بين قوسين أمام عبارة سلطة الحكم المحلى حتى يتقلص اختصاص هذه السلطة ويقتصر على المسائل الإدارية ويجردها من الاختصاص التشريعي والقضائي، وحذفت من المادة المتعلقة بالاتفاق بين مصر وإسرائيل على الإجراءات المنظمة لحل مشكلة اللاجئين، الفقرة التى كانت تنص على أخذ قرارات الأمم المتحدة بعين الاعتبار عند بحث هذا الموضوع، وهى القرارات التى كانت تنص صراحة على حق اللاجئين فى العودة والتعويض.

ولم يترك بيجن فقرة أو نصا أو كلمة يشتم منها حق أو شبه حق للشعب الفلسطيني إلا ودمغها بطابعه ما بين تشويهها أو إضفاء اللبس والغموض عليها.

ولست فى صدد حصر كل ما فرضته إسرائيل من تعديلات فى اللحظات الأخيرة ولكن الجريمة التى لا تغتفر للرئيس كارتر هى خضوعه للضغوط الإسرائيلية التى أدت إلى حذف النص على تجميد المستوطنات الإسرائيلية فى الضفة الغربية وغزة خلال مدة السنوات الخمس الانتقالية، وهى مادة أساسية كان يتمسك بها الجانبان المصرى والأمريكي باصرار على السواء، فقد كان حكم هذا النص بعد أخذ أمريكا بوجهة النظر الإسرائيلية فيما يتعلق بمشاركة إسرائيل فى الإشراف على سلطة الحكم الذاتى والإبقاء على قواتها المحتلة فى الضفة الغربية وغزة خلال الفترة الانتقالية – بل وبعدها – بالإضافة إلى أخذها بما ألحت عليه إسرائيل من تعليق السيادة على الضفة الغربية وغزة إلى ما بعد انتهاء الفترة الانتقالية، كان حكم تجميد المستوطنات خلال تلك الفترة هو الضمان الوحيد الذى يكفل وقف تدهور الأحوال فى الضفة الغربية وغزة بعدم إقامة مستوطنات جديدة أو التوسع فى المستوطنات القائمة بالفعل، فقد كان هذا الاستعمار الاستيطانى هو أداة إسرائيل فى التهام تلك الأراضى قطعة وراء قطعة وزرعها بالمتعصبين المهووسين الدينيين من جماعات جوش أمونيم وأمثالها، مما يخلق أوضاعا يستحيل علاجها ويؤثر على الطابع العربى لتلك الأراضى وعلى كثافتها السكانية العربية، أما بالنسبة لإطار السلام بين مصر وإسرائيل فقد تضمن بدوره تعديلات كثيرة لا يعنينى فيها إلا أنها كرست القطيعة بين مصر وبين القضية الفلسطينية، فقد قضت على أى فكرة للارتباط بين الانسحاب الإسرائيلى من سيناء وتسوية القضية الفلسطينية، بل بلغت الوقاحة حدا أنها لم تعلق قيام السلام الكامل بين مصر وإسرائيل على إتمام الانسحاب الإسرائيلى الكامل من سيناء نفسها بل أضيف

إليه حكم بأنه بعد الانسحاب الاسرائيلى إلى خط العريش رأس محمد الذى يتم بعد توقيع معاهدة السلام فى مدة تتراوح بين ثلاثة وتسعة أشهر تقوم علاقات طبيعية بين مصر واسرائيل تشمل الاعتراف الكامل بما فى ذلك إقامة العلاقات الدبلوماسية وعلاقات اقتصادية وثقافية وإنهاء الحصار الاقتصادى .. الخ، أى يتم كل ذلك وجزء من سيناء ما زال تحت الاحتلال يرفرف عليه علم إسرائيل وقواتها قائمة عليه بسلاحها، ومطاراتها تضج بالحركة، والمستوطنون الإسرائيليون يعمرون ويبنون فى ياميت وفى مستعمرات رفح وغيرها، ويقضون عطلتهم على رمال شاطئ شرم الشيخ يمرحون ويلهون.

خيول الملاهى الخشبية ..

كانت عودة القدس العربية بطبيعة الحال من أولويات اهتماماتنا، وقد قدم الجانب المصرى عدة صياغات بشأنها، القاسم المشترك بينها جميعا عودة القدس العربية وفقا لمبدأ عدم جواز اكتساب الأراضى بالقوة، وكانت الصياغات المصرية تنص أيضا على عدم تقسيم المدينة وكفالة حرية المرور بالنسبة للجميع إلى الأماكن المقدسة بدون تمييز إلا أن اسرائيل رفضت كل صياغاتنا بطبيعة الحال ..

أما الجانب الأمريكى فقد تضمنت مشاريعه بشأن القدس صياغات عائمة مائعة تركز على حرية الانتقال وحرية العبادة، وأن تكون الأماكن المقدسة بالنسبة لكل ديانة خاضعة لإدارة ممثلى هذه الديانة، إلا أنها لم تتعرض إلى السيادة على القدس أو مصيرها النهائى ولهذا كنا نرفضها بدورنا.

وفى النهاية تم الاتفاق بين الرئيسين كارتر والسادات على إسقاط الإشارة إلى القدس فى الاتفاقية نهائيا، وأن يعالج موضوع القدس عن طريق خطابات متبادلة تلحق بالاتفاقية بين الرئيس السادات والرئيس كارتر من جهة وبين الرئيس كارتر ورئيس الوزراء بيجن من جهة أخرى، يحدد فيها كل موقفه من موضوع القدس، فكتب الرئيس السادات خطابا مضمونه أن القدس العربية جزء لا يتجزأ من الضفة الغربية، ويجب أن تخضع للسيادة العربية ورد عليه الرئيس كارتر بأنه تلقى خطابه وأنه سيبعث بصورة منه إلى رئيس الوزراء بيجن لعلمه. وأن الموقف الأمريكى من القدس هو كما عبر عنه السفير جولدبرج فى خطابه أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة فى ١٤ يوليه (تموز) ١٩٦٧ والسفير بوست فى مجلس الأمن فى ١ يوليه (تموز) ١٩٥٩. (والموقف الأمريكى

لا يعترف بضم إسرائيل للقدس العربية ولكن بيجن رفض قطعيا أن يحدد الموقف بهذا الوضوح، ووافق على النص الأمريكى غير المباشر سالف الذكر لتمييع الموضوع).

وكتب مناحم بيجن إلى الرئيس كارتر خطابا مضمونه أن الكنيست الإسرائيلى قد أصدر فى ٢٨ يوليه (تموز) ١٩٦٧ قانونا يخول الحكومة الإسرائيلية سلطات التشريع والادارة على أى جزء من أراضى « إسرائيل - فلسطين » وأنه وفقا لهذا القانون فقد قررت حكومة إسرائيل فى يوليه (تموز) ١٩٦٧ أن مدينة القدس موحدة ولا يمكن تقسيمها، وأنها عاصمة دولة إسرائيل، ورد عليه الرئيس كارتر بأنه سيرسل صورة من خطابه إلى الرئيس السادات، وأن الموقف الأمريكى بشأن القدس هو ما سبق ذكره.

ولست فى حاجة إلى التعليق على قيمة هذه الخطابات التى تدور وراء بعضها مثل الخيول الخشبية المثبتة على مراجيح الملاهى، كل حصان يسير وراء الحصان الذى أمامه دون أن يلحق به أبدا، ويكفى أن أشير إلى ما ذكره موشى ديان فى كتابه بشأن هذه الخطابات من أنه : طالما أن الخطابين الأمريكى والمصرى (حول القدس) ليس لهما طبيعة تنفيذية فانهما لا يلزمان إسرائيل بالانسحاب من تلك الأراضى، وبالتالى فلم تكترث إسرائيل بهذه الخطابات ولم تعارض فى تبادلها. ولم يكن لدى علم بما يجرى بين كارتر والسادات وبيجن فى تلك الساعات الأخيرة، وقد حضر إلى السفير نبيل العربى مدير الإدارة القانونية عندما علم بأمر هذه الخطابات المتبادلة حول القدس، وكان منزعجا ورجانى بالحاح أن أذهب فورا للرئيس السادات لأبلغه بأن هذه الخطابات ليست لها أية قيمة قانونية أو عملية، وأنها لن تحل الموضوع، ولم أستطع أن أخبره أنى استقلت، فقلت له : بل اذهب أنت واشرح ذلك للرئيس من الناحية القانونية فأنت أقدر على ذلك، فقال بل نذهب معا وسأتولى أنا شرح الجانب القانونى فقلت إنى متعب ورجوته أن يقوم بذلك وحده.

وقد عاد إلى بعد حوالى نصف ساعة وكان وجهه شاحبا ويبدو عليه الانفعال وقص على القصة التالية : إنه عندما ذهب إلى استراحة الرئيس السادات وجد أن بيجن يزوره ليهنئه بالتوصل إلى اتفاق السلام فانتظر حتى انصرافه ودخل إلى الرئيس فساله عما يريد فقال إنه يريد أن يعرض عليه الرأى القانونى فيما يتعلق بالخطابات المتبادلة حول القدس فقال له السادات تفضل بالشرح وعندما انتهى العربى من ذلك قال له الرئيس بصوت هادئ مهذب : هل لديك شئ آخر تريد أن تعرضه على، فقال لا يا سيادة الرئيس، فقال السادات : إذن اسمع ما سأقوله لك، لقد استمعت اليك كما

رايت دون مقاطعة من أجل ألا يقول أحد إنى لا أستمع ولا أقرأ كما يشيعون عنى، ولكن إعلم أن كل ما قلته لى قد دخل من أذنى اليمنى وخرج من أذنى اليسرى، إنكم فى وزارة الخارجية تظنون أنكم تفهمون فى السياسة ولكنكم لا تفهمون شيئا على الاطلاق، ولن أعير كلامكم أو مذكراتكم أى التفات بعد ذلك، إنى رجل أعمل وفقا لاستراتيجية عليا لا تستطيعون إدراكها أو فهمها ولست فى حاجة إلى تقاريركم السفسطائية الهائفة.

ووزيركم محمد كامل يسب اليوم أمامى الرئيس كارتر ألا يفهم أن الرئيس كارتر هو الكارت الرئيسى الذى أحوزه لإقامة السلام الشامل ؟

وسكت الرئيس برهة ثم أضاف : ثم ألا تعلم أن قريبك محمد حسنين هيكل يهاجمنى فى كل مكان وأنه يتآمر على لقلب نظام الحكم وأنا لا أبالى بما ينشره من أكاذيب وسخافات بدافع الحقد الأسود، ولكنى لن أسكت عليه فى النهاية وسأقطع رقبته، تفضل الآن بالانصراف ولا تعودوا لتتعبوا رأسى وتضيعوا وقتى بأسانيدكم القانونية الفارغة.

وكان الكلام يندفع بسرعة من فم نبيل العربى وهو يقص ما جرى بجدية وكانت أعصابه مازالت مضطربة من هول ما قاله له رئيس الجمهورية، وعندما انتهى من كلامه انتابتنى نوبة طويلة من الضحك، وشر البلية ما يضحك ونظر إلى العربى بدهشة ثم لم يلبث أن انضم إلى وشاركنى فى الضحك.

هبوب العاصفة ..

فى حوالى الساعة السادسة هبت فجأة على معسكر كامب ديفيد عاصفة مفاجئة فدوى الرعد ولمع البرق وهطلت الأمطار غزيرة مستمرة وقلت لزملائى فى الاستراحة أن السماء غير راضية عما سيحدث اليوم، وكنت أعد حقيبتى للسفر إلى واشنطن عندما طلبنى السفير أيلتس وقال لى أن وزير الخارجية فانس سيطلبنى بعد قليل فى التليفون لأنه يرغب فى لقائى فقلت له أشكرك، ولم أفهم ما يدعوه ليكلمنى ليخبرنى أن فانس سيكلمنى، عندما قال : محمد أنه يعرف وفهمت أنه يقصد الاستقالة، فقلت : لقد وعدتنى بأنك لن تخبر أحدا، فقال : إنى لم أخبره، فسألته بدهشة : إذن من فعل، فقال: لا أستطيع أن أخبرك فى التليفون، وظللت حائرا فى الأمر وبعدها بدقائق طلبنى فانس، وقال : لماذا لا تحضر لأقدم لك مشروبا ونتحدث بعض الشئ، فقلت بكل سرور ولكن

العاصفة على أشدها فأجاب أنها ستنتهى بسرعة وسأكون فى انتظارك، وفعلا هدأت العاصفة بعدها بقليل وإن استمر نزول الأمطار خفيفة متقطعة، فأخذت شمسية وخرجت وصحبنى أحمد ماهر حتى باب استراحة فانس وانصرف، وعندما دخلت استقبلنى فانس بابتسامته الصافية ودعانى إلى الجلوس، وبعدها بدقيقة خرج مونديل - الذى كان يشاركه الاستراحة - من إحدى الغرف حاملا حقيبة وسلم علينا، وقال إنه فى طريق عودته إلى واشنطن على الفور للإشراف على إعداد الترتيبات اللازمة للتوقيع على الاتفاقيات فى البيت الأبيض قبل وصول الوفود. وبعد انصرافه سألنى فانس عما أحب أن أشربه ثم قام وأعد مشروبين وعاد يحملهما ثم قال : لقد أخبرنى الرئيس السادات بعد ظهر اليوم باستقالتك ولقد أسفت لذلك جدا ولكنى أقدر موقفك وأتفهمه، فنحن كما تعلم بلد ديمقراطى يقدس حرية الرأى وقد أسف الرئيس كارتر بدوره فهو يكن لك احتراما كبيرا، وقد امتدحك الرئيس السادات كثيرا وحدثنا عن علاقاتكما القديمة، ومن ناحيتى أحب أن أؤكد لك إنى سأذكر دائما بالخير تعاملنا معا فلقد كنت دائما شريفا جادا واضحا وأرجو أن نظل أصدقاء، وشكرت فانس على ما قاله وعبرت له بدورى عن تقديرى له، وسأل فانس عما اعترض عليه فى الاتفاقية بوجه خاص، فقلت إنى أعترض عليها من أساسها، فهى لا تعدو أن تكون نسخة منقحة ومزخرفة من مشروع بيجن للحكم الذاتى، وقلت لقد أصبت بخيبة أمل كبيرة فى الولايات المتحدة التى كنا ننظر لها باعجاب، ونحفظ مبادئ الرئيس ويلسون، وبخيبة أمل أكثر فى الرئيس كارتر الذى كان ينادى بحقوق الانسان، وقلت أنكم تخليتم عن مواقفكم المعلنة الثابتة بشأن النزاع العربى الإسرائيلى وعن كل المبادئ الدولية، وأعددتم مشروعاتكم من منطلق ما يتقبله بيجن وما يرفضه، ومارستم كل الضغوط على السادات وحده وفى النهاية توصلتم إلى هذا الاتفاق الذى سيزيد مشكلة الشرق الأوسط تعقيدا ولن يحقق سلاما بل سيكرس الفوضى والاضطراب وعدم الاستقرار فيها وستندمون على هذا الاتفاق الذى سيضعف السادات وقد يؤدى إلى الإطاحة به، وسيهز الدول العربية المعتدلة التى تصادقكم وستحل عليكم نقمة كل الشعوب العربية، وأما مصر فستنتهى إلى العزلة فى المنطقة ولن تقبل أية دولة عربية هذا الاتفاق الذى لن ينفذ، وكل ما هناك أنه سيطلق يد بيجن فى الضفة الغربية وغزة لضمها ولن يحقق هذا حلا للنزاع بل سيزيده اشتعالا.

وقال فانس : لقد اتصل الرئيس كارتر اليوم تليفونيا بالملك حسين ودعاه لزيارته وكلف سفيرنا فى جدة بتقديم الدعوة إلى الأمير فهد لزيارته. فقلت : إنهما لن يحضرا وقد سبق أن قلت هذا للرئيس كارتر.

وقال فانس : وما هو رأيك فيما تستطيع أن تفعله لمساعدة الرئيس السادات الآن؟ قلت : لقد فات الأوان وأضعتم الفرصة بالاستسلام لضغوط بيجن وهذا الاتفاق سيظل وصمة فى جبينكم وفى جبين السادات، قال : إنى أعترف بأن الاتفاق ليس منصفا تماما ولكنه خطوة إلى الأمام وسيعمل الرئيس كارتر على تدارك أوجه النقص فيه من خلال مفاوضات الحكم الذاتى، وهو يشعر بالتزام قوى نحو عمل شئ للشعب الفلسطينى وسيكون فى مركز يسمح له بتحقيق ذلك عند إعادة انتخابه. وعاد يسأل ما الذى يستطيعون عمله لمساعدة مصر، فقلت له ليس أمامكم إلا مساعدتها ماليا واقتصاديا فقال : لقد تكلمت مع وزير الزراعة اليوم بالفعل لزيادة كميات القمح والذرة التى نقدمها لكم، فقلت : أن المسألة ليست مسألة دقيق وذرة، إن مصر تحتاج إلى بلايين الدولارات حتى تعيد بناء مرافقها المنهارة والوقوف على قدميها ولكن هل ستسمح لكم إسرائيل بأن تفعلوا ذلك؟

وكانت الساعة قد قاربت الثامنة والنصف فصافحت فانس وخرجت وكانت العاصفة قد هدأت تماما، وعندما وصلت الاستراحة كانت الحقائب كلها معدة لنقلها واطلعت على صورة من البرنامج وكان يشمل ساعة ودقيقة إقلاع كل طائرة هليكوبتر وأسماء ركابها - من أعضاء الوفود - وكان من المقرر أن يركب الرؤساء الثلاثة طائرة واحدة معا تقلع فى النهاية، وهنا هبت فى وجهى مرة ثانية مشكلة عدم حضور مراسم التوقيع فقد كان البرنامج يحدد موقع نزول الطائرات الهليكوبتر داخل حديقة البيت البيض نفسه ثم الانتقال بالسيارات نحو مائتى متر إلى مدخل القاعة الشرقية حيث يجرى الاحتفال، وأحسست أنى وقعت فى الفخ من جديد وتعلقت آمالى بهرمان أيلتس الذى كان اسمه بين قائمة الركاب فى الطائرة التى سأركبها.

وكانت طائرتى تقلع فى التاسعة والربع تماما ودعيت مجموعة ركابها للتوجه إلى مكان الاقلاع وكان يسير إلى جانبى حسن كامل فرأيت أن أخبره باستقالتى حيث شعرت أنها ستعرف فى خلال ساعة فأصابه الذهول وقال هذا غير معقول وقلت لم يكن أمامى من سبيل آخر، وبعد إقلاع الطائرة أثرت مع أيلتس مشكلتى من جديد

فسألنى : هل أنت متأكد من أنك لا تريد حضور مراسم التوقيع؟ قلت : قطعيا، فقال : سأرى ما يمكن عمله.

وعندما هبطت الطائرة فى مهبط البيت الأبيض كانت السيارات المخصصة لركابها فى الانتظار وكان مكانى فى السيارة رقم واحد ومعى حسن كامل والتهامى وعمرو حمدى الضابط المرافق لى واتجهنا إليها، إلا أننى توقفت متجمدا أمام بابها المفتوح لا أريد أن أركب فقد ضاع منى أيلتس فى الزحام إلا أنى لم ألبث أن رأيته قادما نحوى على عجل، وركب معنا السيارة ويبدو أنه كان يخطر سائق سيارته بأنه لن يركب معه، وكان حسن التهامى يثرثر بشىء حول موضوع القدس أما أنا فقد ظللت ساكنا وقلبى يدق بقوة ولم تلبث السيارة أن وقفت أمام مدخل القاعة الشرقية وقد وقف أمامها مجموعة من الجنود الأمريكيين والنور ينبعث من النجف المعلق فى مدخل القاعة ونزل حسن التهامى وحسن كامل وقال الأخير وباب السيارة مفتوح هيا بنا يا محمد، فقلت : لا لن أحضر وصاح التهامى: كيف ماذا حدث؟ وكانت السيارات التى تتبعنا قد بدأت فى الوصول وسيارتنا تشغل المكان المواجه للمدخل، وقال التهامى : هل من المعقول أن وزير الخارجية لا يحضر حفل التوقيع؟ وقلت : إنى لن أحضر وأرجوكم لا داع للإلحاح وإضاعة الوقت ، فأغلق حسن كامل باب السيارة، أما هرمان أيلتس فقد نزل من السيارة وفتح الباب الذى من ناحيتى وصافحنى قائلا : أتمنى لك حظا سعيدا يا محمد ، ثم أصدر تعليماته لقائد السيارة بتوصيل وزير الخارجية إلى فندق ماديسون، وانطلقت السيارة إلا أنها لم تلبث أن توقفت أمام إحدى البوابات الحديدية، وعاودنى القلق إلا أن حارس البوابة قام بفتحها وأدى لى التحية العسكرية ومضت السيارة فى شوارع واشنطن مارة بكابتول هيل وبالمسلة المصرية المقامة فى أحد الميادين حتى وصلت إلى الفندق وصعدت الى الجناح المخصص لى ..

أهرامات أجدادنا ..

كان أول ما فعلته أن أخذت دشا ساخنا ثم ارتديت بيجامتى وطلبت من عمرو حمدى أن يطلب لنا العشاء فى الغرفة، وأدرت التليفزيون وكان يذيع وقتها وصول الرؤساء الثلاثة للقاعة الشرقية وتوجههم الى المنصة التى وضعت فوقها المنضدة التى سيتم عليها التوقيع وخلفها العلم المصرى والعلم الإسرائيلى يتوسطهما العلم الأمريكى، ودوى التصفيق عند وقوف الرؤساء الثلاثة على المنصة. وكان المدعوون لحضور الحفل

يضمون أعضاء الوفود الثلاثة فى كامب ديفيد ومجموعة من رجال الكونجرس والشخصيات العامة، ودارت عدسة التليفزيون نحو المدعوين وتوقفت لحظة على مقعد خال فى الصف الأول كان من المفروض أن أشغله ثم عادت إلى الرؤساء الثلاثة، حيث بدأ الحفل بكلمة من الرئيس كارتر أشاد فيها بالرئيس السادات ورئيس الوزراء بيجن اللذين كان الفضل لهما فى نجاح مؤتمر كامب ديفيد بسبب نواياهما الخالصة وعزمهما على تحقيق السلام، ثم عرض مضمون الاتفاقية الخاصة بإطار السلام فى الشرق الأوسط، وبعدها اتفاقية إطار السلام بين مصر وإسرائيل اللتين سيتم توقيعهما الليلة.

وتكلم بعده الرئيس السادات فتوجه بالشكر والعرفان للرئيس كارتر على كل ما خصصه من وقت، وقام به من جهد شجاع فى سبيل تحقيق السلام وقال : لقد التزمت بأن تكون شريكا كاملا فى مسيرة السلام، وأنه ليسعدنى أن أقول إنك قد وفيت بهذا الالتزام بشرف، ودعاه إلى مواصلة جهوده حتى يتم التوصل إلى استكمال مسيرة السلام، بما يؤكد إيمان الشعب الفلسطينى فى حقيقة السلام المستهدف.

وتكلم بعد ذلك بيجن وقال : إن مؤتمر كامب ديفيد يجب أن تعاد تسميته إلى مؤتمر جيمى كارتر الذى بذل جهودا شجاعة وجبارة لإنجاح هذا المؤتمر، وعمل بجهد واجتهاد يفوق - حسب تجربتى التاريخية - العمل والجهد الشاق الذى بذله أجدادنا عندما بنوا الأهرامات فى مصر، ودوى ضحك وتصفيق.

وعسى أن يصدقنى القارىء عندما أقول - من واقع تجربتى البيجينية - أنه لم يقل هذه العبارة اعتباطا، وإنما عن عمد وسبق إصرار لعلها تكون تكئة للبناء عليها بالقدر الذى يسمح لإسرائيل فى يوم ما بالمطالبة بأهرامات الجيزة كنقطة بداية لتحقيق مطامع أوسع ولم لا؟

ومضى بيجن يتحدث عن مسار المفاوضات فى كامب ديفيد واللحظات الصعبة التى كانت تواجهها، ولم ينس أن يلذع السادات بوقاحة عندما قال : إن من بين هذه اللحظات مثلا أن يلمح شخص ما بأنه سيعد حقائبه ويغادر المؤتمر ويعود إلى بيته، ودوى الضحك من جديد وشعرت بالإشفاق على السادات.

ووجه بيجن الشكر فى خطابه لمعاونى الرئيس كارتر وعلى رأسهم سيروس فانس، ثم وجه الشكر لمعاونيه هو وعددهم بالاسم وكذا الشكر لأعضاء الوفد المصرى الذين

عملوا بجد لتحقيق ما نحتفل به فى هذه اللحظة وعلى رأسهم نائب رئيس الوزراء التهامى.

وعادت عدسة التليفزيون من جديد تركز على المقعد الخالى، ثم أعلن الرئيس كارتر أنه قد حانت لحظة التوقيع، وانتهت التوقيعات ثم قام الرؤساء الثلاثة يتعانقون ويهنئون بعضهم بعضا، ورأيت الرئيس السادات يعانق بحرارة وشغف وإقبال مناحم بيجن، وتعجبت كيف يستطيع أن يفعل ذلك مع شخص قال لى عنه منذ أيام قليلة انه "أحط وأخس عدو".

وفى اللحظة التى انتهت فيها مراسم التوقيع دق جرس التليفون فى غرفتى ورد عمرو حمدى وقال لى أنه مراسل وكالة رويتر، فقلت إنى غير موجود وما إن وضع السماعة حتى رن التليفون من جديد وكان المتحدث مراسل وكالة أنباء أخرى واستمر رنين التليفون، لا يكاد عمرو يغلق السماعة حتى يبدأ من جديد وأدركت أن غياب وزير الخارجية المصرى عن حضور حفل التوقيع قد أثار الانتباه، وفى النهاية اتصلت باستقبال الفندق وطلبت منه عدم تحويل أية مكالمات تليفونية لغرفتى.

وزارنى عدد كبير من أعضاء سفارتنا فى واشنطن ووفدنا فى نيويورك، وفى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل دخل إلى غرفتى حسن كامل وبطرس غالى والتهامى وأشرف غربال والفريق محمد الماحى كبير ياوران الرئيس الذى كان يقيم فى واشنطن أثناء مؤتمر كامب ديفيد، وقد عبروا لى جميعا عن مشاعرهم الطيبة نحوى، وقال لى أشرف غربال : أنه بعد انتهاء حفل التوقيع على اتفاقيتى كامب ديفيد أمس ذهب الرئيس السادات إلى السفارة المصرية حيث تقرر أن يقيم بها خلال مدة وجوده فى واشنطن لاعتبارات أمنية، وأنه اجتمع مع رؤساء تحرير الصحف المصرية ليشرح لهم ما تم التوصل إليه فى كامب ديفيد، والخط الإعلامى الذى يسيرون عليه وبعد أن انتهى من ذلك، سأله رؤساء التحرير عن السبب فى عدم حضورى حفل التوقيع، وقالوا إن هناك شائعات تدور حول استقالتى من منصبى كوزير للخارجية، ورد عليهم السادات بأن هذا صحيح وطلب منهم عدم نشر الخبر إلا عندما يأذن لهم فى ذلك، وأضاف أن استقالتى ترجع الى خلاف فى الرأى بينى وبينه وإنى صديقه وبمثابة ابنه، ولذا فهو يسترعى نظرهم بألا يمسنى أحدهم بسوء فيما قد يكتبه.

وقد ارتحت نفسيا عندما علمت أن خبر الاستقالة قد انتشر وبقيت أمامى مشكلة واحدة تقلقنى وهى كيف السبيل إلى أن أعود إلى مصر دون أن أرتبط بالرئيس

السادات وبرنامج سفره عند رجوعه إلى مصر، وقررت أن أذهب وأقابله وأتحدث معه فى الأمر.

وتوجهت فى الساعة العاشرة من صباح اليوم التالى إلى السفارة وكان السادات مجتمعا مع صديقه هنرى كيسنجر، وعندما خرج كيسنجر دخلت إليه فى صالون السفارة وقد دهش لرؤيتى وقال : فيه حاجة يا محمد ؟ فقلت نعم لقد طلب فانس مقابلتى أمس قبل مغادرتنا لكامب ديفيد وأبلغنى أنك أخبرته باستقالتى رغم أنك طلبت منى الاحتفاظ بها سرا، وعلمت أنك اجتمعت أمس برؤساء تحرير الصحف المصرية وأنك أكدت لهم نبأ الاستقالة وطلبت عدم نشره، كما علمت انك حددت موعدا لمذيعة التليفزيون بربارا ولترز سيحل بعد نصف ساعة من الآن وسوف تسألك قطعا عن موضوع استقالتى فماذا ستقول لها؟

وسكت قليلا ثم قال : سأقول لها إننا بلد ديمقراطى، وان من حقك أن تبدى رأيك وتستقيل دون أن أضعك فى معسكر اعتقال.

وقلت : شكرا، وكنت أهم بمفاتحته فى موضوع عودتى إلى مصر وحدى بعد هذه المقدمة عندما سألنى : وماذا تنوى أن تفعل الآن؟

قلت : لا شىء سأذهب وأعيش مع عائلتى وولدى اللذين لم أقم معهما منذ عشر سنوات بسبب وجودى فى الخارج أثناء دراستهما فى مصر، وقد كبرا وأريد أن استمتع بالمعيشة معهما قبل أن يأخذ كل منهما طريقه فى الحياة ويستقل.

قال : اختر لك أى سفارة تريدها.

قلت : ليس لى رغبة فى العمل سفيرا، فقد شبعت من ذلك.

قال : وتظل عاطلا بدون عمل - اختر أى سفارة الآن.

قلت : كيف تتصور أن أعين سفيرا لأنفذ سياسة أنا غير موافق عليها، لا أستطيع أن أفعل ذلك بحال.

قال فى غضب : ليس من الضرورى أن تعمل شيئا، استرح وامض وقتك فى النزهة والسياحة.

قلت : لا .. كما أخبرتك أنى أريد أن أبقى مع أولادى.

وقال بانفعال : طيب ابق مع أولادك حتى تشبع منهم، وسأعينك سفيرا فى وزارة الخارجية على أى حال وعندما تغير رأيك سأعينك سفيرا فى المكان الذى تحدده.

قلت : أفعل ما شئت أما أنا فسأعيش فى مصر.

ولم يرد على وتركنى وخرج من الصالون، وبقيت دون أن أحل مشكلتى المتبقية وهى أن أغادر واشنطن وأعود وحدى إلى مصر.

ربطت حزام النجاة ..

وعاودت المحاولة فى اليوم التالى الثلاثاء ١٩ سبتمبر (أيلول) فكلفت عمرو حمدى بالاستعلام عن مواعيد الرئيس، وعلم أنه سيجتمع فى الصباح بأعضاء لجنتى الشؤون الخارجية فى الكونجرس ثم يزور الرئيس كارتر فى البيت الأبيض ويعود إلى الغداء فى السفارة، وتابع عمرو تحركات الرئيس عن طريق اتصاله بضباط الرئاسة تليفونيا، ثم أخبرنى أنه غادر الكابتول هيل بعد انتهاء اجتماعه فى الكونجرس وأنه فى طريقه لزيارة الرئيس كارتر فنزلت وتوجهت إلى السفارة وانتظرته هناك، وبعد حوالى ثلث ساعة وصل الرئيس، وعندما دخل من باب السفارة كنت فى انتظاره فصافحنى واتجه نحو المصعد، فمشيت بجانبه ودخل المصعد فدخلت وراءه وقال : فيه ايه يا محمد انى متعب وأريد أن أستريح؟ قلت له : لن أعطلك إلا دقائق، ووقف المصعد فى الدور الثانى واتجه السادات إلى غرفة نومه، ودخلت وراءه فقال : ماذا تريد؟ قلت : أريد أن استأذنك فى السفر إلى مصر، قال : ألم نتفق على أن تصحبنى فى رحلة العودة؟ وسنقضى يومين فى المغرب للراحة وستكون مسرورا، وكان حرصه على أن أصحبه مقصودا منه إظهار أن الخلاف بيننا يرجع إلى مسائل غير جوهرية، بدليل أن علاقتنا مستمرة وأنى أصحبه فى رحلته فى كل مكان، قلت له هذا قبل أن يعرف أحد نبأ الاستقالة، أما الآن فقد أذاعت كل الصحف النبأ كما أذاع التليفزيون مقابلتك لبربارا ولترز التى أكدت لها فيها استقالتى، فبأى صفة أذهب معك إلى المغرب؟

فتردد بعض الشىء وقال : إذا أردت رأيى انصحك بالسفر معى، قلت : لا .. أفضل العودة الآن، فلابد أن عائلتى قلقة على من جراء خبر الاستقالة، فقال : انت حر إذا أردت العودة، متى تسافر؟ فقلت سأحاول السفر اليوم نفسه فقال : مع السلامة.

وكانت الساعة قد بلغت الثانية والنصف بعد الظهر فهرعت إلى مكتب محمد شاكر فى مبنى المكتب المجاور للسفارة، وطلبت منه أن يقوم بترتيبات سفرى اليوم، فقال

سيكون ذلك صعبا ولكن سأحاول، ونجح فى حجز ثلاثة مقاعد على طائرة شركة الخطوط الجوية العالمية T.W.A. المتجهة إلى باريس والتى كان موعد إقلاعها من مطار نيويورك الدولى فى الساعة السابعة مساء، وكانت التذاكر لى ولأحمد ماهر وعمرو حمدى وبقيت مشكلة الوصول إلى المطار قبل موعد قيام الطائرة ..

وأخيرا وجدنا طائرة تغادر واشنطن إلى نيويورك وتصلها قبل موعد قيام الطائرة المسافرة إلى باريس بثلث ساعة ولكنها كانت ستهبط فى مطار نيويورك الداخلى وليس الدولى والمسافة بينهما حوالى نصف ساعة على الأقل فاتصل محمد شاكر بوزارة الخارجية الأمريكية التى وعدت باعداد ترتيبات خاصة للحاق بالطائرة قبل اقلاعها.

وبالفعل عندما هبطت بنا الطائرة فى مطار نيويورك الداخلى وجدنا سيارة بوليس فى انتظارنا على باب الطائرة وأمامها موتوسيكل يركبه ضابط وما إن دخلنا السيارة حتى انطلقت مسرعة يسبقها الموتوسيكل وكلاهما يطلق صفاراته المزعجة دون انقطاع ولا يبالى باشارة مرور أو غيرها .. وذكرنى ذلك بما كنا نشاهده فى الأفلام الأمريكية فى مطاردات البوليس الأمريكى، والفرق أننا كنا نحن - الذين داخل السيارة والناس هم الذين يشاهدوننا، ووقفت بنا السيارة أمام باب الطائرة فى الساعة السابعة وخمس دقائق وكانت محركاتها دائرة بالفعل وتنتظر وصولنا وفقا لتعليمات وزارة الخارجية الأمريكية.

وصعدنا إلى الطائرة فقادتنا المضيفة إلى مقاعدنا ورجتنا أن نربط أحزمة النجاة وبعدها بدقيقة تحركت الطائرة ثم صعدت على الهواء، وتنفست الصعداء وقلت لنفسى حمدا لله ألف حمد، ونم مستريحا يا أبى.

«انتهى»

الملاحق

الملحق رقم (١)

نص المشروع المقدم من وزير الخارجية المصرى إلى السفير الأمريكى أيلتس بتاريخ ١ مايو (أيار) ١٩٧٨

Guidelines for the Solution of the Palestinian Question

I. The establishment of a just and lasting peace in the Middle East necessitates a just solution of the Palestinian question in all its aspects. This solution should be based on the principles of the United Nations Charter; particularly the following principles:

1. The principle of the inadmissibility of the acquisition of territory by war;
2. The principle of equal rights and self-determination of people, by virtue of which all people have the right to freely determine, without external interference, their political status and to pursue their economic, social and cultural development, and the duty of every state to respect this right in accordance with the provisions of the Charter;
3. Respect for an acknowledgement of the sovereignty, territorial integrity and political independence of every state (in the area), and their right to live in peace

within secure and recognized boundaries free from threats or acts of force.

II. In fulfilment of the above-mentioned principles, a final settlement of the Palestinian question shall consist of :

1. Israel's withdrawal from the territories occupied in June 1967 including Jerusalem, the West Bank and Gazza Strip. The Israeli withdrawal includes the settlements established by Israel in the occupied territories.
2. The exercise by the Palestinian People of their right to self-determination, freely and without external interference, in accordance with the United Nations Charter.
3. Implementation of the General Assembly Resolution 194 (III) which stipulates, with regard to the Palestinian refugees of 1948, that the refugees wishing to return to their homes and live at peace with their neighbours should be permitted to do so at the earliest practicable date, and that compensation should be paid for the property of those choosing not to return and for loss of or damage to property which, under principles of international law or in equity, should be made good by the responsible governments or authorities.
4. Appropriate arrangements shall be established for the mutual guarantee of the sovereignty, territorial integrity and political independence of the States concerned.

III. Transitional Period :

1. There shall be a transitional period, not exceeding five years leading the Palestinian People to the exercise of their right to self-determination in an orderly and peaceful atmosphere.
2. The inhabitants of the West Bank and Gazza Strip, who left the area since the outbreak of hostilities in June 1967, would be allowed to return in accordance with the Security Council Resolution 237 (1967).
3. The administration of the West Bank and Gazza during the transitional period will be vested in the United Nations. The Secretary General of the United Nations will be requested to designate a special representative to carry out administrative affairs, with the participation of representatives of the Palestinian People. The Special Representative may call upon the assistance of Jordan with respect to the West Bank and Gazza Strip.
4. The responsibility for the maintenance of law and order during the transitional period will be handed over to the special representative of the Secretary General.
5. A plebiscite shall be held during the transitional period under the auspices of

the United Nations. In the plebiscite the Palestinian People shall determine their political status and possible link with Jordan. Modes of the plebiscite shall be worked out by the special representative of the U.N., Secretary General.

IV :

1. Israel shall withdraw from Jerusalem in accordance with the principle of inadmissibility of acquisition of territory by war.
2. The special representative of the United Nations Secretary General shall take up his residence in Jerusalem.
3. In order to protect and preserve the unique spiritual and religious character of the city of Jerusalem, the special representative shall determine the required measures to ensure the free exercise of worship. The freedom of access, visit and transit to the holy places shall be guaranteed without distinction or discrimination.

الملحق رقم (٢)

نص المشروع المعدل المقدم من وزير الخارجية المصرى إلى السفير الأمريكى أيلتس بتاريخ ١٥ يونيه (حزيران) ١٩٧٨

Proposals Relative to Withdrawal From the West Bank and Gazza And Security Arrangements

1. The establishment of a just and lasting peace in the Middle East necessitates a just solution of the Palestinian question in all its aspects on the basis of the legitimate rights of the Palestinians people taking into consideration the legitimate security concerns of all parties.

2. In order to ensure a peaceful and orderly transfer of authority there shall be a transitional period not exceeding five years at the end of which the Palestinian people will be able to determine their own future.

3. Talks shall take place between Egypt, Jordan, Israel and representatives of the Palestinian people with the participation of the U.N., with a view to agreeing upon :

(A) Details of the transitional regime;

(B) Schedule for the Israeli withdrawal;

(C) Mutual security arrangements for all the parties concerned during and after the transitional period.

(D) Modes for the implementation of relevant U.N., resolutions on Palestinian refugees.

(E) Other issues considered appropriate by all parties.

4. Israel shall withdraw from the West Bank (including Jerusalem) and Gazza Strip occupied since June 1967. The Israeli withdrawal applies to the settlements established in the occupied territories.

5. The Israeli military government in the West Bank and Gazza Strip shall be abolished at the outset of the transitional period. Supervision over the administration of the West

Bank shall become the responsibility of Jordan, and supervision over the administration of Gazza Strip shall become the responsibility of Egypt. Jordan and Egypt shall assume their responsibility in co-operation with freely elected representatives of the Palestinian people who shall hold the administration of the West Bank and Gazza. The U.N., shall supervise and facilitate the Israeli withdrawal and the restoration of Arab authority.

6. Egypt and Jordan shall guarantee that the security arrangements to be agreed upon will continue to be respected in the West Bank and Gazza.

الملحق رقم (٣)

إطار التسوية السلمية الشاملة لمشكلة الشرق الأوسط

انطلاقا من المبادرة التاريخية للرئيس السادات ، تلك المبادرة التى أحيت آمال كافة شعوب العالم فى إيجاد مستقبل أسعد للبشرية.

وبالنظر إلى تصميم شعوب الشرق الأوسط - وجميع الشعوب المحبة للسلام - على وضع نهاية لآلام الماضى وإنقاذ هذا الجيل والأجيال القادمة من آثام الحرب وفتح صفحة جديدة فى تاريخها إيذانا بعهد جديد من الاحترام المتبادل والتفهم.

عازمين على جعل الشرق الأوسط - الذى كان مهد الحضارة ومهبط الرسالات السماوية - نموذجا مشرقا للتعايش والتعاون بين الأمم.

مصممين على إحياء تقاليد التسامح والقبول المتبادل ونبذ الضغائن والأحقاد والتفرقة.

مصممين على الاحتكام فى علاقاتهم إلى نصوص ميثاق الأمم المتحدة والقواعد المستقرة للقانون الدولى والشرعية.

ملتزمين باحترام الإعلان العالمى لحقوق الإنسان نصا وروحا.

راغبين فى أن يقيموا بينهم علاقات حسن جوار لإعلان مبادىء القانون الدولى الخاصة بالعلاقات الودية والتعاون بين الدول طبقا لميثاق الأمم المتحدة.

مدركين أن اقامة السلام وعلاقات حسن الجوار يجب أن تبنى على أساس الشرعية والعدالة والمساواة واحترام الحقوق الأساسية، وعلى حرص كل طرف - فى تصرفاته والدعاوى التى يقدمها - على الرضوخ لحكم القانون والاستعداد الأصيل لتحمل التزامه بعدم الافتيات على سيادة جيرانه وسلامة إقليمهم.

مسلمين بأن الاحتلال وإنكار حقوق الشعوب وأمانيهم المشروعة فى الحياة والتطور بحرية يتعارضان تماما مع روح السلام.

ومراعاة للمصالح الحيوية لجميع شعوب الشرق الأوسط ومصلحة العالم قاطبة فى تدعيم السلم والأمن الدوليين.

(مادة أولى)

يعرب الأطراف عن تصميمهم على التوصل إلى تسوية شاملة لمشكلة الشرق الأوسط بتوقيع معاهدات سلام على أساس التنفيذ الكامل لقرارى مجلس الأمن ٢٤٢ و٣٣٨ بجميع أجزائهما.

(مادة ثانية)

يوافق الأطراف على أن إقامة سلام عادل ودائم بينهم يستلزم الوفاء بما يلى:

أولا: انسحاب إسرائيل من الأراضى المحتلة طبقا لمبدأ عدم جواز الاستيلاء على الأرض عن طريق الحرب.

يتم الانسحاب من سيناء والجولان إلى الحدود الدولية بين فلسطين (تحت الانتداب) وكل من مصر وسوريا.

ويتم الانسحاب من الضفة الغربية إلى خطوط الهدنة الواردة فى الهدنة بين إسرائيل والأردن عام ١٩٤٩، وإذا ما اتفقت الأطراف المعنية على إدخال تعديلات طفيفة على هذه الخطوط، فإنه يكون مفهوما أن مثل هذه التعديلات يجب ألا تعكس ثقل الغزو.

وسوف تطبق إجراءات الأمن المنصوص عليها فيما بعد فى الضفة الغربية بهدف التجاوب مع تطلع الطرفين إلى تحقيق أمنهما، وكذلك الحفاظ على حقوق وأمانى الشعب الفلسطينى.

يتم الانسحاب من قطاع غزة إلى خط الهدنة المبين فى اتفاقية الهدنة المبرمة عام ١٩٤٩ بين مصر وإسرائيل.

ويبدأ الانسحاب الإسرائيلى فور توقيع معاهدات السلام، وينتهى طبقا لجدول زمنى يتفق عليه خلال الفترة المشار إليها فى المادة السادسة.

ثانيا: إزالة المستوطنات الإسرائيلية فى الأراضى المحتلة طبقا لجدول زمنى يتفق عليه خلال الفترة المشار إليها فى المادة السادسة.

ثالثا: ضمان الأمن والسيادة والسلامة الإقليمية والاستقلال السياسى لكل دولة وذلك عن طريق الترتيبات التالية :

(أ) إقامة مناطق منزوعة السلاح على جانبى الحدود.

(ب) إقامة مناطق محدودة التسليح على جانبى الحدود.

(ج) وضع قوات تابعة للأمم المتحدة على جانبى الحدود.

(د) وضع نظم إنذار مبكر على أساس المعاملة بالمثل.

(هـ) تحديد نوعية الأسلحة التى تحصل عليها الدول الأطراف ونظم التسليح فيها.

(و) انضمام جميع الأطراف إلى معاهدة منع انتشار الأسلحة النووية. وتعهد الأطراف بعدم إنتاج أو حيازة الأسلحة النووية أو أى مواد نووية متفجرة أخرى.

(ز) تطبيق مبدأ المرور البرى على الملاحة فى مضايق تيران.

(ح) إقامة علاقات سلام وحسن جوار وتعاون بين الأطراف.

رابعا: تعهد جميع الأطراف بعدم اللجوء للتهديد بالقوة أو استخدامها لتسوية المنازعات بينهم، وحل ما يثور من منازعات بالوسائل السلمية طبقا لأحكام المادة ٣٣ من ميثاق الأمم المتحدة.

كما يتعهد الأطراف بقبول الاختصاص الإلزامى لمحكمة العدل الدولية بالنسبة لجميع المنازعات الناجمة عن تنفيذ أو تفسير الارتباطات التعاقدية بينهم.

خامسا: بمجرد التوقيع على معاهدات السلام، تلغى الحكومة العسكرية الإسرائيلية فى الضفة الغربية وغزة، وتنتقل السلطة إلى الجانب العربى على نحو سلمى منظم، وتكون هناك فترة انتقالية لا تتجاوز خمسة أعوام من تاريخ توقيع هذا "الإطار"، يتولى الأردن خلالها الإشراف على الإدارة فى الضفة الغربية وتتولى مصر الإشراف على الإدارة فى غزة.

وتؤدى مصر والأردن مهمتهما بالتعاون مع ممثلى الشعب الفلسطينى المنتخبين انتخابا حرا، والذين يمارسون السلطة المباشرة فى إدارة الضفة الغربية وغزة فى نفس الوقت الذى تلغى فيه الحكومة العسكرية الإسرائيلية.

وقبل انقضاء الفترة الانتقالية بستة أشهر، يمارس الشعب الفلسطينى حقه الأساسى فى تقرير مصيره ويمكن من إقامة كيانه الوطنى، وسوف توصى مصر والأردن - بحكم مسئوليتهما فى غزة والضفة الغربية - بأن يكون هذا الكيان مرتبطا بالأردن حسبما يقرره الشعبان.

وسوف يمكن اللاجئون الفلسطينيون والنازحون من ممارسة حقهم فى العودة أو التعويض طبقا للقرارات الصادرة من الأمم المتحدة فى هذا الشأن.

سادسا: تنسحب إسرائيل من القدس إلى خط الهدنة المبين فى اتفاقية الهدنة الموقعة عام ١٩٤٩ طبقا لمبدأ عدم جواز الاستيلاء على الأرض بطريق الحرب، وتعود السيادة والإدارة العربية إلى القدس العربية.

ويشكل مجلس بلدى مشترك للمدينة من عدد متساو من الأعضاء الفلسطينيين والإسرائيليين، يعهد إليه بتنظيم الشئون التالية والإشراف عليها :

(أ) المرافق العامة فى كل أنحاء المدينة.

(ب) النقل العام والمرور فى المدينة.

(ج) الخدمات البريدية والهاتفية.

(د) السياحة.

ويتعهد الأطراف بضمان حرية العبادة وحرية الوصول إلى الأماكن المقدسة وزيارتها والمرور إليها دون أى تفرقة أو تمييز.

سابعا: بالتوازى الزمنى مع تنفيذ النصوص المتعلقة بالانسحاب، سوف تمضى الأطراف إلى إقامة العلاقات التى تقوم عادة بين الدول التى هى فى حالة سلام مع بعضها البعض. وسعيا وراء هذا الهدف يتعهدون بمراعاة جميع نصوص ميثاق الأمم المتحدة.

وتشكل الخطوات التى تتخذ فى هذا الصدد ما يلى :

(أ) الاعتراف الكامل.

(ب) إنهاء المقاطعة العربية.

(ج) ضمان حرية المرور فى قناة السويس طبقا لأحكام اتفاقية القسطنطينية المبرمة عام ١٨٨٨ والإعلان الصادر من الحكومة المصرية فى ٢٤ أبريل (نيسان) ١٩٥٧.

(د) توفير الحماية القانونية لمواطنى كل طرف فى الدول الأخرى الأطراف.

ثامنا: تتعهد إسرائيل بدفع تعويضات شاملة عن الأضرار الناجمة عن العمليات التى قامت بها قواتها المسلحة ضد السكان والمنشآت المدنية، وكذلك عن استغلالها للموارد الطبيعية فى الأراضى المحتلة.

(مادة ثالثة)

بمجرد توقيع هذا «الإطار» - الذى يشكل كلا متوازنا ومتكاملا يضم جميع حقوق والتزامات الأطراف - تكون الأطراف الأخرى مدعوة للانضمام إليه فى إطار مؤتمر جنيف للسلام فى الشرق الأوسط.

(مادة رابعة)

سوف يشترك ممثلو الشعب الفلسطينى فى محادثات السلام التى تجرى بعد توقيع هذا «الإطار».

(مادة خامسة)

سوف تشترك الولايات المتحدة فى المحادثات المتعلقة بكيفية تنفيذ الاتفاقيات والتوصل إلى الجدول الزمنى المحدد لتنفيذ التزامات الأطراف.

(مادة سادسة)

تبرم معاهدات السلام خلال ثلاثة أشهر من تاريخ توقيع الأطراف المعنية لهذا «الإطار» إيذانا ببدء عملية السلام وانطلاق ديناميكية السلام والتعايش.

(مادة سابعة)

سوف يطلب من مجلس الأمن أن يضمن معاهدات السلام ويتحقق من احترام جميع أحكامها، وكذلك أن يضمن الحدود بين الدول الأطراف.

(مادة ثامنة)

سوف يطلب من الأعضاء الدائمين فى مجلس الأمن أن يضمنوا مراعاة أحكام معاهدات السلام بدقة، وتتعهد هذه الدول أيضا بأن تكون سياساتها ومعاملاتها متفقة مع التعهدات الواردة فى هذا الإطار.

(مادة تاسعة)

تضمن الولايات المتحدة تنفيذ «الإطار» ومعاهدات السلام تنفيذا كاملا وبحسن نية.

الملحق رقم (٤)

نص المشروع الأمريكى المقدم ردا على المشروع المصرى (إطار التسوية السلمية).

A FRAMEWORK FOR PEACE IN THE MIDDLE EAST AGREED AT CAMP DAVID

Muhammad Anwar al-Sadat, President of the Arab Republic of Egypt, and Menachem Begin, Prime Minister of Israel, met with Jimmy Carter, President of the United States of America, at Camp David from September 5 to , 1978, and have agreed on the following framework for peace in the Middle East. They invite other parties to the Arab-Israeli conflict to adhere to it.

Preamble

The search for peace in the Middle East must be guided by the following:

—After four wars during thirty years, despite intensive human efforts, the Middle East, which is the cradle of civilization and the birthplace of three great religions, has not yet enjoyed the blessings of peace. The people of the Middle East yearn for peace so that the vast human and natural resources of the region can be turned to the pursuits of peace and so that this area can become an example of coexistence and cooperation among nations.

—The historic initiative of President Sadat in visiting Jerusalem and the reception accorded to him by the Parliament, government and people of Israel, and the reciprocal visit of Prime Minister Begin to Ismailia, the peace proposals made by both leaders, as well as the warm reception of these missions by the peoples of both countries, have created an unprecedented opportunity for peace which must not be lost if this generation and future generations are to be spared the tragedies of war.

—The provisions of the U.N., charter and the other accepted norms of international law and legitimacy now provide accepted standards for the conduct of relations among all states.

—The only agreed basis for a peaceful settlement of the Arab-Israeli conflict is the United Nations Security Council Resolution 242, supplemented by Resolution 338. Negotiations based on the principles of Resolution 242 are necessary with respect to all fronts of the conflict - the Sinai, the Golan Heights, the West Bank and Gazza, and Lebanon. Resolution 242 in its preamble emphasizes the obligation of Member States in the United Nations to act in accordance with Article 2 of the Charter. Article 2, among other points, calls for the settlement of disputes by peaceful means, and for Members to refrain from the threat or use of force. Egypt and Israel in their agreement signed September 4, 1975, agreed : "The Parties hereby undertake not to

resort to the threat or use of force or military blockade against each other". They both have also stated that there shall be no more war between them. In a relationship of peace, in the spirit of Article 2, negotiations between Israel and any neighbor prepared to negotiate peace and security with it should be based on all the provisions and principles of Resolution 242, including the inadmissibility of the acquisition of territory by war and the need to work for a just and lasting peace in which every state in the area can live in security, within secure and recognized borders.

—Peace is more than the juridical end of the state of belligerency. It should encompass the full range of normal relations between nations. Progress toward that goal can accelerate movement toward a new era of reconciliation in the Middle East marked by co-operation in promoting economic development, in maintaining stability, and in assuring security.

—Security is enhanced by a relationship of peace and by co-operation between nations which enjoy normal relations. In addition , under the terms of peace treaties, based on the principle of reciprocity the sovereign parties can agree to special security arrangements such as demilitarized zones, limited armament areas, early warning stations, special security forces, liaison, agreed measures for monitoring, and other arrangements to be agreed on.

Agreement

Taking these factors into account, Egypt and Israel are determined to reach a just, comprehensive, and durable settlement to the Middle East conflict through the conclusion of peace treaties which will be negotiated on the basis of Security Council Resolution 242 and 338 in all their parts. Their purpose is to achieve peace and good neighborly relations. They recognize that, for peace to endure, it must involve all those who have been principal parties to the Arab-Israeli conflict; it must provide security; and it must give the peoples who have been most deeply affected by the conflict a sense that they have been dealt with fairly in the peace agreement. They therefore agree that this Framework as appropriate is intended by them to constitute a basis for peace not only between Egypt and Israel, but also between Israel and each of its other neighbors prepared to negotiate peace with Israel on this basis. With that objective in mind, they have agreed to proceed as follows:

A. West Bank and Gazza:

1. Egypt and Israel will participate in negotiations to solve the Palestinian problem in all its aspects. The solution must recognize the legitimate rights of the Palestinians and enable the Palestinians to participate in the determination of their own future.
2. To this end, negotiations relating to the West Bank and Gazza should provide for links between these areas and Jordan and should proceed in three stages:

(a) Egypt and Israel hereby agree that the following should be the main principles of a settlement in the West Bank and Gazza, in order to ensure a peaceful and orderly transfer of authority: there should be transitional arrangements for the West Bank and Gazza for a period not exceeding five years. In order to provide full autonomy to the inhabitants, under these arrangements the Israeli military government and admin-

istration will be abolished and withdrawn as soon as a self governing authority can be freely elected by the inhabitants of these areas to replace the existing military government. This transitional arrangement should derive its authority for self-rule from Egypt, Israel, and Jordan, (when Jordan joins the negotiations). To negotiate the details of a transitional arrangement, the Government of Jordan will be invited to join the negotiations on the basis of this Framework. These new arrangements should give due consideration both to the principle of self-rule by the inhabitants of these territories and to the legitimate security concerns of the parties involved.

(b) Egypt, Israel, and Jordan shall determine the modes of setting up the elected self-governing authority in the West Bank and Gazza. The delegations may include Palestinians from the West Bank and Gazza. The parties will negotiate an agreement which will define the powers and responsibilities of the self-governing authority to be exercised in the areas now under the jurisdiction of the military government. In the West Bank and Gazza the withdrawal of Israeli armed forces will take place and there will be a redeployment of some of them into mutually agreed security locations. It will also include arrangements for assuring internal and external security and public order, including the respective roles of Israeli, Egyptian and Jordanian armed forces and local police.

(c) When the self-governing authority in the West Bank and Gazza is established, the transitional period of five years will begin, as soon as possible, but no later than two years after the beginning of the transitional period, Egypt, Israel, Jordan and the self-governing authority in the West Bank and Gazza will undertake negotiations for a peace treaty which will settle all outstanding issues between the parties after the transitional period: the final status of the West Bank and Gazza after the transitional period and its relationship with its neighbors on the basis of all of the principles of U.N., Security Council Resolution 242, including the mutual obligations of peace, the necessity for security arrangements for all parties concerned following the transitional period, the withdrawal of Israeli armed forces, a just settlement of the refugee problem, and the establishment of secure and recognized boundaries in accordance with the Security Council Resolutions 242 and 338. As determined in the peace boundaries and nature of security arrangements must meet the just requirements of the Palestinians and Israel's security needs. The peace treaty will define the rights of the citizens of each of the parties to do business, to work, to live, and to carry on other transactions in the respective areas.

3. All necessary measures will be taken and provisions made to assure Israeli security during the transitional period and beyond . To assist in providing such security:

(a) Egypt and Israel propose that Jordanian citizens participate in the police forces of the self-governing authority. The police will maintain continuing liaison on internal security matters with the designated Israeli authorities to ensure that no hostile threats or acts against Israel or its citizens originate from the West Bank or Gazza.

(b) The nature of the Israeli security presence would be handled in the negotiations described above.

4. During the transitional period, the negotiating parties (Egypt, Israel, Jordan, the self-

governing authority) will constitute a following-up committee to decide by unanimous agreement :

(a) Issues involving interpretation of the agreement or issues unforeseen during the negotiation of the agreement, which are not within the designated authority of the self-rule.

(b) The admission of agreed numbers of persons dispalced from the West Bank in 1967 and of Palestinian refugees together with necessary measures in connection with their return to prevent disruption and disorder.

5. Jerusalem, the city of peace, shall not be divided. It is a city holy to Jew, Muslim, and Christian and all peoples must have free access to it and enjoy the free exercise of worship and the right to visit and transit to the holy places without distinction or discrimination. The holy places of each faith will be under the administration of their representatives. For peace to endure, each community in Jerusalem must be able to express freely its cultural and religious values. A representative municipal council shall supervise essential functions in the city. An agreement on relationships in Jerusalem should be reached in the negotiations dealing with the final status of the West Bank and Gazza.

6. Egypt and Israel agree to work with each other and with other interested parties to achieve a just and permanent solution of the problems of the Arab and Jewish refugees.

7. If Jordan is unable to join these negotiations, Egypt, Israel, and the inhabitants of the West Bank and Gazza will proceed to establish and administer the self-governing authority.

B. Egypt-Israel:

1. Egypt and Israel undertake not to resort to the threat or the use of force to settle disputes. Any disputes shall be settled by peaceful means in accordance with the provisions of Article 33 of the Charter of the United Nations. Disputes that may arise from the application or interpretation of their contractual agreements, shall be settled between the two parties by direct negotiations.

2. In order to achieve peace between them, the parties agree to negotiate, without interruption with the goal of concluding within three months from the signing of this Framework, a peace treaty between them, based on the restoration of full Egyptian sovereignty in the Sinai up to the internationally recognized border between Egypt and mandated Palestine, full peace between Egypt and Israel, security arrangements, and all the elements of a normal, peaceful relationship, while inviting the other parties of the conflict to proceed simultaneously to negotiate and conclude similar peace treaties with a view to achieving a comprehensive peace bin the area.

C. Settlements.

(Language to be inserted)

D. Associated Principles.

1. Egypt and Israel believe that the principles and provisions described below should apply to peace treaties with all neighbors - Egypt, Jordan, Syria and Lebanon.

2. Signatories shall proceed to establish among themselves relationships normal to states at peace with one another. To this end, they should undertake to abide by all the provisions of the Charter of the United Nations. Steps to be taken in this respect include:

(a) Full recognition: including diplomatic, economic and cultural relations;

(b) Abolishing economic boycotts and barriers to the free movement of goods and people;

(c) Guaranteeing that under their jurisdiction the citizens of the other parties shall enjoy the protection of the due process of law.

3. Signatories should agree on the basis of reciprocity to provide security and respect for the sovereignty, territorial integrity and inviolability of the political independence of each state negotiations peace through measures such as the following :

(a) The establishment of demilitarized zones;

(b) The establishment of limited armament zones;

(c) The stationing of United Nations forces or observer groups as agreed;

(d) The stationing of early warning systems on the basis of reciprocity;

(e) Regulating the deployment of their armed forces and the types of their armament and weapons systems.

4. Signatories should explore possibilities for regional economic development in the context of both transitional arrangements and final peace treaties, with the objective of contributing to the atmosphere of peace, co-operation and friendship, their common goal.

5. Claims Commissions may be established for the mutual settlement of all financial claims.

6. The United States shall be invited to participate in the talks on matters related to the modes of the implementation of the agreements, and working out the schedule for the carrying out of the obligations of the parties.

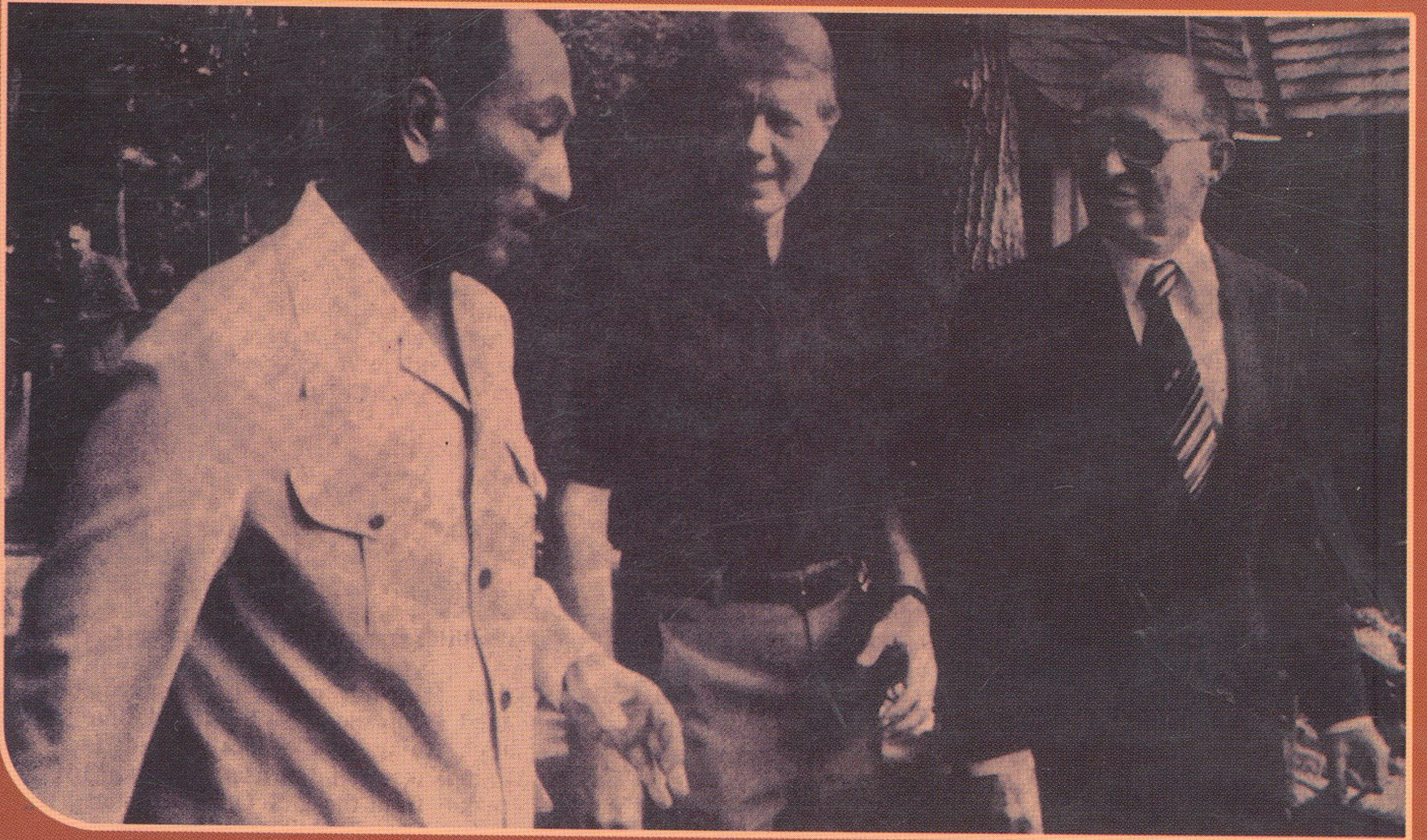
7. The United Nations Security Council shall be requested to endorse the peace treaties and ensure that their provisions shall not be violated. The permanent members of the Security Council shall be requested to underwrite the peace treaties and ensure respect for their provisions. They shall also be requested to conform their Policies and actions to the undertakings contained in this Framework.

For the Government of the Arab Republic of Egypt:

For the Government of Israel:

Witnessed by:
Jimmy Carter, President of the United States of America

رقم الإيداع ١٤٧٦٨ / ٢٠٠٢
I.S.B.N 977-320-088-4



السلام الضائع

المرحوم محمد إبراهيم كامل وزير الخارجية الأسبق ، من الحالات القليلة التى استقال فيها وزراء بعد ثورة يوليو ، وإن كان هذا يتسق تماما مع موقفه الوطنى الذى لاقى بسببه السجن والمحاكمة قبل الثورة .

فرغم أنه كانت تربطه علاقة شخصية وثيقة بالرئيس السادات لزمالتهما فى قضية اغتيال أمين عثمان ، ورغم أنه لم يكن معترضا على السلام مع إسرائيل والتفاوض معها ، إلا أنه وجد أن ما جرى فى كامب ديفيد لا يتفق مع قناعاته ومع ما يؤمن به ، فآثر الاستقالة .

وفى هذا الكتاب ، يروى المؤلف ما دار فى كامب ديفيد ويكشف أس... خبايا لم تكن معروفة من قبل ... ات لا تزال تؤثر على مس... ا ومنطقتنا ، وذلك فى إط... اته الشخصية والتى تعكس ... من تاريخ بلادنا .

▪ مركز الأهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهرام
▪ التوزيع فى الداخل والخارج : وكالة الأهرام للتوزيع
شارع الجلاء . القاهرة
▪ مطابع الأهرام التجارية - قليوب - مصر